المنهج التربوي للسيرة النبوية

٨

التربية الجماعية

د. منير الغضبان

الجزء الأول

دار الوفاء

المنهج التربوي
للسيرة النبوية
(٨)

التربية الجماعية

الجزء الأول

منير الغضبان

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا فى هذين الجزأين عن التربية الجماعية ، أو تربية (القاعدة العريضة) .

عشرون عامًا تقريبًا من عمر الدعوة مضت فى إعداد القيادات للأمة ، بأعلى مواصفاتها ، وأعمق أبعادها ، وكانت المرحلة الثانية من عمر الدعوة ، مرحلة الاتساع الأفقى الذى انطلق تيارًا هادرًا فى الأرض العربية بعد صلح الحديبية ، ثم تيارًا جارفًا بعد فتح مكة ، فانتقلت الدعوة من الصفوة إلى الجماهير .

(قال أبو سعيد الخدرى : جلست إلى عمر بن الخطاب ﵁ يومًا ، فذكر القضية (الحديبية) فقال : لقد دخلنى يومئذ من الشك ، وراجعت النبى ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط ، ولقد عتقت فيما دخلنى يومئذ رقابًا ، وصمت دهرًا ، وإنى لأذكر ما صنعت خاليًا فيكون أكبر همى ،ثم جعل الله عاقبة القضية خيرًا . . . فلما وقعت القضية أسلم فى الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان فى الإسلام فتح أعظم من الحديبية)[١] .

(كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام ،وإنما كان القتال حيث التقوا ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها ، وآمن الناس بعضهم بعضًا. فلم يكن أحد تكلم فى الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فى الإسلام ، حتى دخل فى تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وأشباه لهم. وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنين وعشرين شهرًا دخل فيها مثل ما دخل فى الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام فى كل ناحية من نواحى العرب)[٢].

فقد كان الجيش الذى اتجه لفتح مكة سبعة أضعاف جيش الحديبية تقريبًا .

إن من طبيعة الدعوات والأحزاب عندما تنتقل إلى مرحلة الامتداد الأفقى ، يصبح البناء هشًا ، ينهار تحت الضربة الأولى ، فإذا بالأعداد الكبيرة تتقلص وتتخلى ؛ لأنها أقدمت فى زمن العافية .

ومن أمراض الامتداد الأفقى فى الدعوات والحركات كذلك : أن ينقل الوافدون الكثيرون الجدد أمراضهم إلى الصفوة الأولى. وعوضًا عن أن ترتفع الصفوة بالجماهير إلى مستواها ، سرعان ما تتأثر الصفوة بهذه الأعداد الضخمة ، وتنتقل إليها عدوى

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٦٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٦٢٤ .

الطمع والشهرة والمصلحة والمنفعة . فيتحول التنظيم إلى مزرعة للمصالح بعد أن كان مزرعة للمبادئ .

ومن أمراض الامتداد الأفقى كذلك: أن يبدأ الخلاف ينشب داخل الصف الواحد، وبعد أن كان الهم الأكبر هو تثبيت أركان الجماعة ،وتجلية مبادئها ، تنشغل هذه الجماعات فى نفسها ؛ بحيث تحاول أن تحافظ على مكاسبها ، ويتحول الصراع إلى الصف الداخلى الذى يمزق البناء كله .

هذه الأمراض وغيرها ، كيف أمكن لسيد ولد آدم ﷺ أن يتحاشاها فى صفه ، وارتفع بالبناء شاهقًا قويًا متراصًا كالبنيان الواحد .

إن عظمة البناء الأول فى التربية القيادية هو الذى أعطى هذه الثمرة العظيمة فى مرحلة التربية الجماعية ؛ لأن الأركان التى بناها ـ عليه الصلاة والسلام ـ والقاعدة الصلبة التى رباها ، كانت من القوة والصلابة مستعصية على الذوبان فى بحر الامتداد الجماهيرى ، بل كانت هى التى تقوم بالدور التربوى الكامل المناط بها . وكان كل فرد منها أمة بذاته ، يقوم مع قومه أو بيئته مقام قائده المصطفى عليه الصلاة والسلام فى عملية البناء ، فألف خمسمائة قائد لن يعجزهم تربية سبع أو عشر أضعافهم فى الامتداد الأفقى. إنهم ليسوا معدين فقط لتربية هذه الأعداد ، بل كان إعدادهم لتربية أمم تدخل فى الإسلام فيما بعد، فكل فرد منهم مؤهل ليقود أمة ، ويوجه دولة ، فلا يصعب عليه تربية من حوله ، ووضعهم فى المكان المناسب ، وإمدادهم بالنور الذى استمدوه من قائدهم العظيم ـ عليه الصلاة والسلام .

وكان إمام المربين ﷺ يشرف الإشراف العام على عملية البناء هذه ؛ بحيث يتحقق التوازن الكامل والمطلوب ؛وبحيث يتمكن من رعاية كل حديقة وكل فرقة،ويرى جوانب الخلل فيها فيقومها .

ونستطيع القول : إن هذه الإمدادات الجديدة التى انضمت إلى الدعوة خلال السنتين الأوليين بعد الحديبية ، سرعان ما انصهرت مع القاعدة الصلبة الأولى ، واكتسبت مواصفاتها ، وصارت قرينة وشبيهة لها ؛ لتمثل مجتمع المهاجرين والأنصار الذى بلغ عشرة آلاف مجاهد .

فإذا بالعشرة آلاف هذه تتحول كلها إلى قاعدة صلبة لتستقبل الأفواج والأمواج الجديدة ، التى بلغت فى تبوك ثلاثين ألفًا من شتى أنحاء الجزيرة العربية .

وإذا كان القادة الأول معدين لاستيعاب وتربية سبعة أضعافهم ، فهؤلاء الجدد يحملون مسؤولية تربية ثلاثة أضعافهم أو أربعة أضعافهم .

وتتحول القاعدة الصلبة من ثلاثمائة فى بدر إلى ألف وخمسمائة فى الحديبية إلى عشرة آلاف فى فتح مكة إلى ثلاثين ألفًا فى غزوة تبوك ، وعملية التربية مستمرة فردية وجماعية ؛ لترتفع الموجة الجديدة إلى أفق القواعد الأولى وتنضم معها لتستوعب الأعداد الجديدة القادمة .

إن الفارق ضئيل جدًا فى البداية بين خط الارتفاع وخط الانحدار .

خط الارتفاع الذى يسمو بالوافدين الجدد على الدعوة ، ليتمثلوا صورة سابقيهم ، وينصهروا بهم .

وخط الانحدار الذى يشد الصفوة إلى الأرض ، وتنتقل إليها أوبئة الوافدين وتضيع فى متاهاتهم .

والذين يحملون عبء قيادات العمل الإسلامى فى الأرض مدعوون إلى الوقوف مليًا لدراسة هذه الظاهرة ، ويتعلمون من مدرسة النبوة كيف يحافظون على دعواتهم وجماعاتهم قوية فتية صلبة ؛ لأنه عندما تقع عملية الانهيار فمن الصعب جدًا أن تعيد البناء من جديد ، وتخفق كل محاولات الإصلاح فيه .

وسنعرض هنا لنموذج وسطى . كيف كان أمره عندما كان وافدًا جديدًا ، ثم أصبح فيما بعد يمثل القاعدة الصلبة .

هذا خالد رضي الله عنه على رأس سرية بعد فتح مكة ، ولم يمر على دخوله فى الإسلام أربعة أشهر ،(فكان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك ،فبلغ النبى ﷺ فقال : « مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان أحُد ذهبًا ، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته ») [1] .

فخالد رضي الله عنه هنا وافد جديد ، تجاوز حده مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، أحد قادة الرعيل الأول ، وواحد من العشرة المبشرين بالجنة . فكان هذا الأمر التأديبى التربوى لخالد فى أن يحافظ على حدوده مع الجيل الأول وذكره بيوم أحد . فيوم أحد كان خالد بن الوليد هو الذى قاد هجوم المشركين ضد المسلمين ، وهو الذى حرص على قتل رسول الله ﷺ . وكل ما نزل بالمسلمين وبرسول الله ﷺ من جراحات واستشهاد فبسببه ، بينما كان عبد الرحمن بن عوف يذود عن رسول الله ﷺ حتى جرح عشرين جراحة . فكيف يستويان ؟

ثم يمر الزمن ، ويعيش خالد رضي الله عنه خمس سنين فى الصف الإسلامى ، ليصبح هو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٣١ ، وهى عند البخارى ومسلم .

رمز الإسلام فى الأرض ، فيلتقى مع قائد مقدمة جيش الروم ويجرى بينهما الحديث التالى:

(وخرج جرجة حتى كان بين الصفين ونادى : ليخرج إلى خالد . . وخرج جرجة فوافقه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دوابهما . فقال جرجة : يا خالد ، اصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا. قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال: إن الله ـ عز وجل ـ بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعا لى بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين . . .)(١) .

وإذا بالقاعدة العريضة من الآلاف العشرة فى فتح مكة ، والتى مثلت مجتمع المهاجرين والأنصار ـ إذ لا هجرة بعد الفتح ـ إذ بالقاعدة العريضة هذه وخلال دورات التربية السريعة التى شهدتها مع رسول الله ﷺ ، فقد كانت دورة الفتح قرابة شهرين كاملين ، أصبحت معدة لتكون القاعدة الصلبة لاستقبال الوافدين الجدد ، حيث بلغت القاعدة العريضة فى تبوك ثلاثين ألفًا من المسلمين .

وسنشهد الدورة الجديدة الكاملة لهؤلاء الوافدين الجدد ، والتى استمرت كذلك قرابة شهرين كاملين ، حيث كان المهاجرون والأنصار هم قادة الدورة المبثوثون فى صفوف هذه الآلاف المؤلفة ، وهم الذين يشرفون على هذه الدورة التربوية العظيمة بين يدى رسول الله ﷺ .

ولم تكن هذه آخر الدورات النبوية فى هذا المجتمع الربانى السعيد .

فهؤلاء الثلاثون ألفًا ، والذين يطلق عليهم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب والذين قال الله تعالى فيهم : **﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ... ﴾** [التوبة : ١٢٠] . يتحول هؤلاء من القاعدة العريضة إلى أن يأخذوا شهادة ربانية وشهادة نبوية بأنهم هم القاعدة الصلبة الجديدة ، المهيأة لاستقبال مائة ألف جديدة خلال عام واحد . أعلن رسول الله ﷺ عن الدورة النبوية الأخيرة فى حياته دورة حجة الوداع ، والتى شهدها مائة وثلاثون ألفًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، هم الرعيل الأخير الذين فازوا بشرف الصحبة النبوية .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٣٧ .

وبعد هذه الدورة التربوية النبوية الأخيرة قبل وفاة المصطفى ﷺ ، تحول هؤلاء كذلك فى سلم البناء التربوى إلى القاعدة الصلبة التى بدأت تتهيأ لاستقبال أمم الأرض، ويقع عليهم عبء نشر الإسلام فى الأرض كلها وهم ماضون لتحقيق موعود الله . أصبح هؤلاء المائة والثلاثون ألفًا هم صحابة رسول الله الذين يتوزعون على ثغور الإسلام ، ويتبارك المسلمون بهم ممن فاتهم شرف هذه الصحبة .

(ولما رجع خالد من حجه وافاه كتاب أبى بكر بالخروج فى شطر الناس ، وأحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ واستأثر بهم على المثنى . . . فقال المثنى : والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر فى استصحاب نصف الصحابة ، وبالله ما أرجوا النصر إلا بهم، فأني تعرينى منهم . فلما رأى ذلك خالد منه أعاضه منهم حتى رضى) [1] .

ومضى الصحابة جميعًا قمة البشرية العليا فى التاريخ ، وكانوا القاعدة الصلبة التى قامت بها دولة الله فى الأرض .

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٤٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى التابعين وتابعيهم ومن والاه إلى يوم الدين . وبعد :

فهذا هو الجزء الأول من تربية القاعدة العريضة فى حلقة من حلقات « المنهج التربوى للسيرة النبوية » ، حيث يبدأ انتشار الإسلام الأفقى فى الأرض العربية على آثار صلح الحديبية ، وانتهاء تخوف العرب من قريش بعد هدنتها مع النبى ﷺ واعترافها به، وانتهاء فكرة استئصاله ، واعترافها بنص الوثيقة : (وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه) (١) .

وانتقلت مسؤولية التربية إلى هذه القيادات الكبرى التى مثلت القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامى وهم الألف والخمسمائة الذين حضروا غزوة الحديبية ومن انضم إليهم من الأشعريين والدوسيين ومهاجرى الحبشة وغيرهم .

نحن فى عهد جديد ، تمثل فيه انسياح الإسلام فى الأرض العربية ، خاصة فى الحجاز حيث نشهد خلال عامين تضاعف عدد المسلمين عشرة أضعاف ما كانوا عليه ، ولم يعد الإسلام خاصًا بمجتمع المدينة من المهاجرين والأنصار ، إنما قامت المجتمعات الإسلامية فى عدد من القبائل العربية الصغيرة ؛ لتتسع القاعدة الصلبة إلى اثنى عشر ألف جندى بعد أن كانوا ألفًا وخمسمائة .

لقد انتقلت التربية من طور البناء الفردى إلى طور البناء الاجتماعى .

ولكن هذا لا يعنى أبدًا انتهاء التربية القيادية ، فلا تزال ماضية فى طريقها من خلال الذين ينضمون إلى مدرسة النبوة فى جامعة المدينة ـ المسجد النبوى ـ فيحظى من رسول الله ﷺ بالعناية الخاصة ، والتربية الفائقة إذ استمرت ركائز وعمليات البناء القيادى إلى فتح مكة ، حيث يتم استقبال المهاجرين الوافدين إلى المدينة ، وتوقف هذا الانضمام بعد الهجرة بنص حديث الرسول ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإن استنفرتم فانفروا » (٢) .

وسنعيش فى أجواء هاتين التربيتين فى هذا الجزء الذى أسميناه :

---

(١) شرح المواهب للزرقانى ١/ ٢٠٠ .

(٢) البخارى فى كتاب الجهاد ٣/ ٢٠٠ ، ومسلم فى كتاب الإمارة (١٣٥٣/ ٨٥) وغيرهما .

« جيل الفتح » وشعاره قول الله ـ عز وجل :

﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠] .

السنة السابعة

أولاً : غزوة ذات الرقاع[1] (غزوة الأعاجيب)

وهى غزوة محارب وبنى ثعلبة ، وسببها : أن قادمًا قدم بجلب[2] إلى المدينة ، فاشتراه منه أهلها ، فقال للمسلمين : إن بنى أنمار بن بغيض ، وبنى سعد بن ثعلبة قد جمعوا لكم جموعًا ، وأراكم هادئين عنهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة ـ قال ابن إسحاق : أبو ذر الغفارى ، وقال محمد بن عمر وابن سعد وابن هشام : عثمان بن عفان ـ وخرج رسول الله ﷺ من المدينة ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة أو سبعمائة أو ثمانمائة ، وسلك على المضيق[3] . ثم أفضى إلى وادى الشقرة ، فأقام فيها يومًا ، وبث السرايا ، فرجعوا منها مع الليل ، وخبّروه أنهم لم يروا أحدًا ووطئوا آثارًا حديثة، فسار رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى أتى نخلاً [4] ، وأتى مجالسهم ، فلم يجد فيها أحدًا إلا النسوة . فأخذهن وفيهن جارية وضيئة ، وقد هربت الأعراب فى رؤوس الجبال وهم مطلون على المسلمين .

قال ابن إسحاق : فلقى رسول الله ﷺ جمعًا من غطفان ، فتقارب الناس ولم يكن بينهم قتال، فخاف الفريقان بعضهم من بعض ، خاف المسلمون أن يغير المشركون عليهم، وهم غارون ، وخاف المشركون ألا يبرح رسول الله حتى يستأصلهم ، ولما حانت الصلاة صلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف ، وروى البيهقى عن جابر رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ الظهر فهمَّ به المشركون . فقالوا : دعوهم ، فإن لهم صلاة بعد هذه أحب إليهم من أبنائهم ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ فأخبره ، فصلى العصر صلاة الخوف . . . وبعث بجعال بن سراقة بشيراً إلى أهل المدينة بسلامة المسلمين، وغاب رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة .

---

(١) اختلف فى هذه الغزوة متى كانت ؟ فقال البخارى ومن تبعه : إنها كانت بعد خيبر ؛ لأن أبا موسى الأشعرى جاء من الحبشة سنة سبع بعد خيبر كما فى الصحيح فى باب غزوة خيبر ، وصح فى الصحيح أنه شهد ذات الرقاع . . . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : صليت مع رسول الله ﷺ فى غزوة نجد صلاة الخوف ، رواه البخارى تعليقًا ، وأبو داود والطحاوى وابن حبان موصولاً . . . وفى الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فى غزوة السابعة ، غزوة ذات الرقاع . سبل الهدى والرشاد للصالحى ، هامش ٦/ ٢٧٦.

وأوردها ابن إسحاق وبقية أهل السير بعد غزوة بنى النضير فى السنة الثالثة. وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت فى المحرم سنة خمس ، وجزم أبو معشر أنها بعد بنى قريظة . (ابن هشام ٢ / ٢٠٣) ، وهناك احتمال أن تكون ذات الرقاع اسمًا لغزوتين مختلفتين كما أشار إليه البيهقى . (فتح البارى ٧/ ٤١٧) .

(٢) جلب : ما جلب من إبل وخيل ومتاع . (٣) المضيق : قرية .

(٤) نخل : من منازل بنى ثعلبة بنجد على يومين من المدينة .

وقد وقعت فى هذه الغزوة آيات كثيرة ، روى أكثرها جابر بن عبد الله ﷺ :

روى البزار والطبرانى فى الأوسط عنه قال : كانت غزوة ذات الرقاع تسمى غزوة الأعاجيب . انتهى .

منها : ما وقع عند إرادة غورث بن الحارث الفتك برسول الله ﷺ .

غورث :

روى الشيخان(1) وغيرهما من طرق عن جابر ﷺ قال : غزونا مع رسول الله ﷺ قبل نجد - وفى رواية : ذات الرقاع - فلما قفل رسول الله ﷺ أدركته القائلة يومًا بواد كثير العضاه (2) ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله تحت ظل شجرة فعلّق بها سيفه ، فنمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه ، فإذا عنده أعرابى جالس فقال : « إن هذا اخترط سيفى (3) وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتا (4) . فقال لى: من يمنعك منى ؟ قلت : الله . قال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله . قال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله - ثلاث مرات - فشام السيف (5) وجلس » ، ولم يعاقبه رسول الله ﷺ .

ومنها : قصة الصبى الذى به جنون :

روى البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم عن جابر ﷺ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع ، حتى إذا أتى حرةً واقم ، حضرت امرأة بدوية بابن لها ، فقالت : يا رسول الله ، هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان ، ففتح فاه فبزق فيه ، فقال : « اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله » ثلاثًا ، ثم قال : « شأنك بابنك لن يعود إليه شىء مما كان يصيبه » .

ومنها : قصة البيضات الثلاث :

روى محمد بن عمر وأبو نعيم عن جابر ﷺ قال فى غزوة ذات الرقاع :جاء عُلْبة ابن زيد الحارثى ﷺ بثلاث بيضات أداحى(6). فقال : يا رسول الله ، وجدت هذه البيضات فى مفحص(7) نعام. فقال: « دونك يا جابر، فاعمل هذه البيضات » فعملتهن ، ثم جئت بهن فى قصعة فجعلت أطلب خبزًا فلا أجده ، فجعل رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون بغير خبز حتى انتهى إلى حاجته ،والبيض فى القصعة كما هو . ثم قام فأكل عامة

(1) هى فى فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤٢٦ ح ٤١٣٥ ، ح (٤١٣٦) ،وعند مسلم ٤/٤٣ ح (٨٤٣) .
(2) العضاه : شجر له شوك .
(3) اخترط السيف : سله من غمده .
(4) صلتًا : جرده من غمده .
(5) شام السيف : أدخله فى غمده .
(6) أداحى : جمع أُدحى ، وهو الموضع الذى تبيض فيه النعامة وتفرخ .
(7) المفحص : اسم الموضع الذى يحفره الطائر لبيبض فيه .

أصحابه . ثم رحنا مبردين .

ومنها : قصة الرجل الذى دعا عليه ﷺ بضرب رقبته :

روى محمد بن عمر ، والحاكم ، وأبو نعيم عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى على رجل ثوبًا مخروقًا فقال : « ما له غيرُه ؟ » فقالوا : له ثوبان جديدان فى العيبة(١) ، فأمره بلبسهما . فلما ولى الرجل قال : « أليس هذا أحسن ؟ ما له ضرب الله عنقه ؟ » فسمعه الرجل فقال : يا رسول الله ، فى سبيل الله تعالى . فقال رسول الله : « فى سبيل الله » فقتل الرجل فى وقعة اليمامة .

ومنها : قصة الجمل الذى شكا إليه حاله :

روى البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم عن جابر ﷺ قال : رجعنا من غزوة ذات الرقاع، حتى إذا كنا بمهبط الحرة أقبل جمل يرقل(٢) ، فقال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما قال الجمل ؟ هذا جمل يستعدينى(٣) على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين ، وأنه أراد أن ينحره . اذهب يا جابر إلى صاحبه فائت به »، فقلت: لا أعرفه فقال :« إنه سيدلك عليه »،فخرج بين يدى مقنعًا (٤) ، حتى وقف على صاحبه ، فجئت به فكلمه رسول الله ﷺ فى شأن الجمل .

ومنها : قصة الشجرتين ، وقصة تخفيف العذاب عن ميتين :

روى مسلم وأبو نعيم والبيهقى عن جابر ﷺ قال : سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع حتى نزلنا واديًا أفيح(٥) ، وذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، واتبعته بإداوة من ماء ، فنظر فلم ير شيئًا يستتر به . وإذا شجرتان بشاطئ الوادى ، فانطلق رسول الله إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها وقال : « انقادى على بإذن الله تعالى » ، فانقادت معه كالبعير المحشوشر الذى يصانع قائده ، حتى أتت الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها وقال : « انقادى على بإذن الله تعالى » ، فانقادت معه كذلك،حتى إذا كان بالمنصف فيما بينهما لأم بينهما ـ يعنى جمعهما ـ فقال : « التئما على بإذن الله تعالى » فالتأمتا . قال جابر : فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقدمى فيبتعد ،فجلست أحدث نفسى،فحانت منى التفاتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة فقال برأسه : « هكذا » يمينًا وشمالاً ، ثم أقبل ،فلما انتهى قال:« يا جابر ، هل رأيت مقامى ؟ » قلت : نعم . قال :« فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة

(١) العيبة : ما تجعل فيه الثياب .
(٢) يرقل : يسرع .
(٣) يستعدينى : يطلب منى نصره .
(٤) مقنعًا : ذليلاً .
(٥) أفيح : واسع .

منهما غصنًا وأقبل بهما ، حتى إذا قمت مقامى فأرسل غصنًا عن يمينك ، وغصنًا عن يسارك » قال جابر : فقطعت من كل واحدة منهما غصنًا ثم أقبلت أجترهما ، حتى إذا قمت مقام رسول الله ﷺ أرسلت غصنًا عن يمينى وغصنًا عن يسارى ، ثم لحقت برسول الله ﷺ فقلت: قد فعلت يا رسول الله، فعمَّ ذلك ؟ قال :« إنى مررت بقبرين يعذبان ، فأحببت بشفاعتى أن يرفه [١] عنهما ، ما دام القضيبان رطبين » . فقال رسول الله ﷺ : « يا جابر ، ناد : الوضوء الوضوء » . فناديت : ألا وضوء ألا وضـوء ؟ قال :قلت : يا رسول الله ما وجدت فى الركب من قطرة ،وكان رجل من الأنصار يبرّد لرسول الله ﷺ فى أشجاب[٢] له على حمارة [٣] من جريد . فقال : « انطلق إلى فلان ابن فلان الأنصارى،فانظر هل فى أشجابه من شىء ؟ » فانطلقت إليه ،فنظرت فلم أجد فيها قطرة ماء ، إلا قطرة فى عَزْلاء[٤] شَجْب منها، لو أنى أفرغه بشربة يابسة [٥] . فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته. قال : « اذهب فائتنى به » فأتيته به ، فأخذ بيده ، فجعل يتكلم بشىء لا أدرى ما هو ، ويغمزه[٦] بيده ، ثم أعطانيه فقال : « يا جابر ، ناد بجفنة[٧] » ، فقلت : يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا ، فبسطها فى الجفنة ، ففرّق بين أصابعه ، ثم وضعها فى قعر الجفنة .وقال:« خذ يا جابر ، فصب علىَّ وقل:بسم الله » فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ،ففارت الجفنة ، ودارت حتى امتلأت فقال : « يا جابر ، ناد من كانت له حاجة بماء » ، فأتى الناس فاستقوا حتى رووا. فقلت:هل بقى أحد له حاجة ؟ ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى .

وشكى الناس الجوع فقال : « عسى الله أن يطعمكم بسيف البحر؟ » فأتينا سيف البحر [٨]. فألقى دابة فأورينا [٩] على شقها النار ، فشوينا وأكلنا وطبخنا ، وشبعنا .

قال جابر : فدخلت أنا وفلان وفلان حتى عد خمسة فى حجاج عينيها [١٠] ما يرانا أحد حتى خرجنا ، وأخذنا ضلعًا من أضلاعها ، فقوسناه ، ثم دعونا بأعظم رجل فى الركب ، وأعظم جمل فدخل تحته ما يطأطئ رأسه .

ذكر قصة الطائر الذى سقط على فرخه لما صاده بعض الصحابة :

روى محمد بن عمر ، وأبو نعيم ـ رحمهما الله تعالى ـ عن جابر ﷺ قال :إنا لمع

---

(١) يَرْفه : يخفف .

(٢) الأشجاب : جمع شجب ، وهو السقاء الذى خَلِق وبلى .

(٣) الحمارة : أعواد يعلق عليها أسقية الماء .

(٤) عزلاء : فم القربة الأسفل .

(٥) شربة يابسة : أى قليل جدًا .

(٦) يغمزه : يعصره .

(٧) الجفنة : إناء كالقصعة .

(٨) سيف البحر : جانبه .

(٩) فأورينا : أوقدنا .

(١٠) حجاج عينيها :العظم المستدير المشرف على العين .

رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من أصحابه بفرخ طائر ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه ـ أو أحدهما ـ حتى طرح نفسه فى يدى الذى أخذ فرخه . فرأيت الناس يعجبون من ذلك فقال رسول الله ﷺ : « أتعجبون من هذا الطائر ؟ أخذتم فرخه ، فطرح نفسه رحمة بفرخه ، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه »(١) .

* * *

لقد أنهت اتفاقية الحديبية الحرب بين قريش والمسلمين ،وأنهت غزوة خيبر الحرب مع اليهود ، بينما بقى العدو الثالث غطفان ، الذى خاض غزوة الخندق مع قريش واليهود ، معلنًا الحرب ضد المسلمين ، وخطر غطفان هو حدودها المتصلة مع المدينة شمالاً وشرقًا ، ووجود العدو اللدود عيينة بن حصن الذى يخوض معركة فناء أو بقاء ضد المسلمين ، وتكاد تكون كل السرايا اللاحقة تمت إلى غطفان بصلة فى أحد فروعها ، أو مع أحد حلفائها ،وبنو محارب وبنو ثعلبة جزء من غطفان كانوا يعدون العدة للإغارة على المدينة، فقاد رسول الله ﷺ الغزوة بنفسه فى عدد من المسلمين ، تراوحت أرقامه بين ٤٠٠ ـ ٨٠٠ جندى ، ونرجح هذا العدد الكبير ، فليس هدف الغزوة عسكريًا فقط ، وإن كانت عملية إبراز القوة النبوية ضرورية بعد عهد الحديبية ، حتى لا يترامى إلى القبائل ضعف المسلمين ، وقبول الصلح نتيجة هذا الضعف .

دورة تدريبية :

فالهدف التربوى هدف رئيسى من الغزوة ، حيث أصبح المسجد النبوى يضيق بالمسلمين الوافدين ، فكانت الصحراء المترامية الأطراف هى الساحة الواسعة والفضاء المعين على التوجيه والتربية ، كما كانت فرصة للتدريب على المشاق ، والمهام الصعبة ، للإعداد لمعارك أضخم وأعتى فى المستقبل ، وفى وصف هذه الغزوة نستمع لأبى موسى الأشعرى رضي الله عنه يقول :

(خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة ونحن فى ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب به الخرق على أرجلنا.وحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذاك وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره . كأنه كره أن يكون شىء من عمله أفشاه)(٢) .

فهذه صورة منتزعة من المعاناة الصعبة فى هذه الصحراء ، حيث لا يملكون الأحذية، إنما يسيرون حفاة ، فتنتقب أقدامهم ، وتُشوى أرجلهم باللهيب المنبعث من الرمل ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٤ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤١٧ ح (٤١٢٨) .

وتسقط أظفارهم ، حتى يواجهوا هذا الحر القاتل بالخرق يلفونها على أرجلهم .

وأبو موسى الأشعرى القديم الجديد (١) رضي الله عنه ، يدخل هذه الدورة التدريبية لأول مرة ، فقد انضم للمسلمين بعد خيبر، فكانت هذه أول غزوة يمضى بها مع رسول الله ﷺ فكانت غزوة حافلة بالمشاق والصعاب ، وكذلك أبو هريرة الدوسى ومن معه ، فهؤلاء الوافدون الجدد من اليمن والحبشة ودوس ، لابد أن يخوضوا هذه الدورات السريعة ليأخذوا موقعهم فى الجماعة المسلمة .

وتعنى هذه الدورة كذلك :أنه لا أحد فوق التدريب والجهاد مهما علا كعبه فى قومه وقبيلته، فلابد أن يلقى من التدريب والمشقة ما يحتاج إليه ؛ ليكسب شرف الانضمام إلى الصف المسلم ، فلا دين بلا جهاد .

وتدريب على الخوف كذلك :

فالمواجهة مع العدو ، والتعرض له ، أمر مقصود لذاته . ففى هذه الغزوة نرى صحيح النصوص تؤكد هذا المعنى من خلال فقرتين : الأولى : (وأخاف الناس بعضهم بعضًا)(٢) وفسرها ابن إسحاق بقوله : (خاف المسلمون المشركين أن يغيروا عليهم وهم غارون ، وخاف المشركون ألا يبرح رسول الله ﷺ حتى يستأصلهم)(٣) .

والفقرة الثانية : هى أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين صلاة الخوف فى هذه الغزوة، كما ورد فى كتب الصحاح بروايات متعددة . ففى الرواية السابقة : (وأخاف الناس بعضهم بعضًا ، فصلى النبى ﷺ ركعتى الخوف ، وفى رواية عن صالح بن خوات عمن شهد مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف : أن طائفة صفت معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلى بالتى معه ركعة، ثم ثبت قائمًا وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالسًا وأتموا لأنفسهم ، ثم سلَّم بهم) (٤) .

فالمجتمع الإسلامى كما قال عليه الصلاة والسلام عنه :

« رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » (٥) .

---

(١) هو من قدماء المهاجرين كما ذكرنا من قبل ، ولكنه أقام مع قومه الأشعريين فى اليمن ، ثم عاد بعد الحديبية مع جعفر وأصحابه من الحبشة .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤١٧ من ح (٤١٢٧) .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٢٦٨ .

(٤) فتح البارى ح ٤١٢٧ .

(٥) أحمد والترمذى وابن ماجه وغيرهم .

فالصلاة لابد أن تؤدى حتى فى قلب المعركة وفى مواجهة العدو، فهى عمود الإسلام الذى يقوم عليه هذا الدين، « ولا خير فى دين لا صلاة فيه » [1] وقمة الإسلام التى تجعله المهيمن والحاكم، والمسيطر باسم الله هو : الجهاد .

وما صلاة الخوف التى نشهدها هنا، وفى بعض الروايات : أن صلاة الخوف إنما شرعت أول ما شرعت فى غزوة ذات الرقاع ؛ لتعلم هذا الصف المسلم أن قضيتى الصلاة والجهاد هما أهم قضايا الإسلام على الإطلاق، ويدركهم جنود ذات الرقاع، ليس إدراكًا نظريًا مجردًا، بل ممارسة حقيقية فعلية، وهم فى قلب الخطر، وجحيم المعركة، والخوف جاثم من أن يهجم العدو فيبيد هؤلاء المصلين إن عجز فريق الحراسة عن صدهم، وجاءت الصلاة التى تمثل لقاء الفرد المسلم مع ربه قرينة بالصبر، والخوف والجوع والجهاد . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾ [البقرة] .

جعيل بن سراقة [2] :

ويظهر أمامنا هذا الاسم هنا، بعد أن ظهر مرة واحدة فى غزوة الخندق، أما هنا فقد (بعثه رسول الله ﷺ بشيرًا إلى أهل المدينة بسلامة المسلمين)[3]. أما صفته فكان رضي الله عنه (رجلاً صالحًا دميمًا قبيحًا) وأسلم قديمًا وشهد مع رسول الله ﷺ أحُدًا .

وفى أحد برزت محبته الفائقة لرسول الله ﷺ فعبر عن خوفه قائلا : (يا رسول الله، إنه قيل لى : إنك تقتل غدًا)، وهو يتنفس مكروبًا .

فضرب النبى ﷺ فى صدره وقال : « أليس الدهر كله غدًا ؟ » [4] .

وقد مرَّ ذكره معنا من قبل حين وجه رسول الله ﷺ الأنظار إليه، والاهتمام به من المسلمين كافة، بعد أن كان نكرة، أو كاد يكون كذلك، فغير اسمه وسماه بعد جعيل : عَمْرًا .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٤٠ .

وقد رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس (ثقة من السادسة) .

(٢) قال محمد بن عمر : هو جعال بن سراقة فصغر فقيل : جعيل .[الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٨٦] .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٢٦٩ . (٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٤٥ .

ولم يجد المسلمون فيما يهتفون به من أراجيز مثل أن يهتفوا بهذا الحدث السعيد لهذا المسلم الضعيف الدميم (فيرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جعيل عَمْرًا ... وكان للبائس يومًا ظهْرًا)(١)

ويشارك رسول الله ﷺ صحبة السعداء بهذه الحفاوة بهذا البائس الضعيف ، فكلما وصلوا إلى عمرو، قال معهم: عمْرًا وكلما وصلوا إلى ظهر، قال معهم : ظهْرًا (فجعل رسول الله ﷺ لا يقول من ذلك شيئًا إلا أن يقول حتى أصبح محط معرفة المسلمين جميعًا واهتمامهم به ، وشارك هو بهذه السعادة فكان يهتف معهم : عمْرًا) (٢) .

(وجعل جعيل يقول مع المسلمين : سماه من بعد جعيل عَمْرًا ، وهو يضحك مع المسلمين فعرفوا أنه لا يبالى)(٣) .

وبعد فتح مكة ، وحين كان الجيش الإسلامى يعج بكبار الشخصيات العربية ، ومن بينها سيد بنى تميم : الأقرع بن حابس وسيد بنى غطفان : عيينة بن حصن ، وراحت الأموال تتدفق عليهم لتأليف قلوبهم فيعطيهم رسول الله ﷺ المائة من الإبل ، راع سعد ابن أبى وقاص ألا يجد شيئًا يعطى لجعيل بن سراقة ، وهو الذى يعرف مدى اهتمام رسول الله ﷺ به ، فمضى إلى قائده الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً :

(يا رسول الله ، أعطيت الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن وأشباههما مائة مائة من الإبل وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ؟! فقال رسول الله ﷺ : « أما والذى نفسى بيده ، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه ») (٤) .

وكان هذا أعظم عطاء فى الوجود ناله جعيل رضي الله عنه .

أحب إليهم من أولادهم :

لقد كان المشركون يدركون نوعية هذا الجيل الذى يحاربونه من المسلمين ، ويدركون أنه الجيل العابد فى الأرض ، والجيل الطاهر فى الوجود ، ومن أجل هذا عندما فكروا بغزوهم بعد أن فاتتهم الفرصة فى صلاة الظهر قالوا : (دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أبنائهم ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ فأخبره ، فصلى العصر صلاة الخوف) (٥) .

لقد غدت الصلاة عند الجيل المسلم باعتراف أعدائهم أحب إليهم من أبنائهم ، وهذا

(١ ـ ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٤٥ . (٤) المصدر نفسه ٤/ ٢٤٦ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٢٠٩ عن البيهقى .

التكوين العميق لهذا الجيل لم يكن له وجود عند الإنسان الجاهلى الذى كان يعبد ذاته ويعبد شهرته ، ولم تكن علاقته مع آلهته المدعاة أكثر من وسيلة للمحافظة على هذه الذات ، فهو يدرك بطلانها وزيفها لكنه يقول :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف] .

فهو يحافظ عليها محافظته على التراث الذى ورثه من آبائه ، عن غير قناعة بها أو إيمان بجدواها ، لكنه يعرف أن تفاعل المسلم مع هذا الدين الجديد ،وإقدامه على الصلاة قد ملأ قلبه شغفًا وحبًا ، يفوق حبه لأبنائه وولده .

ما كنت أصنع بأن أذكره :

وعودة إلى أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ، الوافد الجديد إلى دنيا الإسلام فى المدينة، والذى انضم إلى الصف المؤمن بعد خيبر ، نعود إليه وقد حدثنا عن سقوط أظفاره ونقب قدميه حتى لفهما بالخرق ، يقول فى ختام حديثه : (وحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذاك ، وقال : ما كنت أصنع بأن أذكره . كأنه كره أن يكون شىء من عمله أفشاه)[1] .

فهذا جانب آخر من البناء النفسى عند جيل العقيدة هذه ، فهو يتحدث عن معاناته فى هذه الرحلة الشاقة المضنية ، راح يندم أشد الندم لذكره هذه المعاناة فهو يخاف أن يدخله الرياء أو يدخله العجب فى عمله فيحبط عمله ، وشتان بين الإنسان الجاهلى الذى يدبج القصائد الطوال فى الفخر الكاذب ،وفى كثير من الأمور التى لم يقع منها إلا القليل ، وبين الإنسان المسلم الذى تدمى قدماه وتسقط أظفاره ، ويضطر للحديث عن ذلك تعليمًا وحفظًا لسيرة رسول الله ﷺ وصحبه ، ثم يخشى بعدها أن يكون قد أفشى شيئًا من عمله بعد أن كان سرًا بينه وبين ربه .

هذه النماذج الجديدة التى تبنى برعاية رسول الله ﷺ فى هذه الصحراء ، تبنى عقيدة وسلوكًا وصبرًا وتضحية وإخلاصًا ؛لتعد لقيادة البشرية فيما بعد .

المعجزات النبوية :

وتطالعنا المعجزات النبوية فى هذه الغزوة العظيمة التى أطلقوا عليها اصطلاحًا «غزوة الأعاجيب » ، حيث نشهد فى هذه المعجزات اشتراك الكون كله ـ إنسه وجنه وملائكته وجماداته ، وبهائمه ونباتاته ـ فى الإقرار بنبوة المصطفى ﷺ ، ويشهد هذا الجيل الفريد أو بعض أفراده طرفًا من هذه المعجزات فيحدثوننا عنها ، كل يحدث بما رأى أو سمع .

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٧/٤١٧ ح (٤١٢٨) .

وصاحبنا الفتى المؤمن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام هو الذى يروى لنا معظم هذه المعجزات .

أ ـ غورث الفاتك :

وهذه رواية البخارى : (عن جابر قال : كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ ، فجاء رجل من المشركين ، وسيف النبى ﷺ معلق بالشجرة ، فاخترطه فقال له : تخافنى ؟ فقال : « لا » . قال : فمن يمنعك منى ؟ قال: « الله » ، فتهدده أصحاب النبى ﷺ . . .)[1] .

وفى الرواية الثانية عنه (. . . فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ،فاستيقظت وهو فى يده صلتًا ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله ، فها هو ذا جالس » ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ)[2] .

ويقدِّم لنا الحافظ ابن حجر رحمه الله إضافات واستنباطات فى شرحه للحديثين نقتطف منها :

(وكرَّر ذلك فى رواية الجهاد ثلاث مرات ، وهو استفهام إنكار أى لا يمنعك منى أحد ؛ لأن الأعرابى كان قائمًا والسيف فى يده ، والنبى ﷺ جالس لا سيف معه ، ويؤخذ من مراجعة الأعرابى له فى الكلام أن الله سبحانه وتعالى منع نبيه ﷺ منه ، وإلا فما أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله . . . بل وقع فى رواية إبراهيم بن سعد فى الجهاد بعد قوله : « الله » : « فشام السيف » ، وفى رواية معمر : « فشامه » والمراد : أغمده ، وهذه الكلمة من الأضداد ، يقال : شامه إذا استله ، وشامه إذا أغمده ، قاله الخطابى وغيره ، وكأن الأعرابى لما شاهد ذلك الثبات العظيم ، وعرف أنه حيل بينه وبينه تحقق صدقه ، وعلم أنه لا يصل إليه فألقى السلاح وأمكن من نفسه ، ووقع فى رواية ابن إسحاق[3] بعد قوله « قال : الله » : (فدفع جبريل فى صدره، فوقع السيف من يده فأخذه النبى ﷺ وقال: « من يمنعك أنت منى؟» قال : لا أحد . قال : « قم فاذهب لشأنك » . فلما ولى ، قال : أنت خير منى) وأما قوله فى الرواية : (« فها هو جالس » ثم لم يعاقبه) فيجمع مع رواية ابن إسحاق بأن قوله: « فاذهب » كان بعد أن أخبر الصحابة بقصته فمنَّ عليه لشدة رغبة النبى ﷺ فى

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٢٦ ح (٤١٣٦) .

(٢) المصدر نفسه ح (٤١٣٥) .

(٣) الرواية التى يشير إليها ابن حجر ليست موجودة فى سيرة ابن هشام ، ولعلها فى رواية ابن إسحاق عن يونس ابن بكير .

استئلاف الكفار ليدخلوا الإسلام، ولم يؤاخذه بما صنع بل عفا عنه . وقد ذكر الواقدى[1] فى نحو هذه القصة أنه أسلم ، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير . ووقع فى رواية ابن إسحاق التى أشرت إليها : ثم أسلم بعد)[2] .

وإذا كانت الدعوة إلى الله تعالى هى الهدف الرئيسى للأنبياء والرسل ، فلا عجب أن يبقى رسول الله ﷺ على هذا الفاتك ، كما أبقى من قبل على سراقة بن مالك بن جعشم ، وترجيح عدم إسلامه كذلك حيث لم يرد فى الروايات الصحيحة هو المعتمد ، فلو أسلم لسارع القوم جميعًا إلى تكذيبه واتهامه مباشرة بأن محمدًا قد سحره ، بينما حين يمضى متحدثًا عما لقيه من ثبات الرسول ﷺ وعجزه عن الفتك به ، بعد أن أصبح السيف صلتًا فى يده ، ومحمد ﷺ لا سلاح معه ، ولا حارس له ، ولا صحابى بجواره، أوقع فى الأثر فى صفوف الأعراب، وفى تكوين أرضية لديهم أن محمدًا ممنوع، وأنه ليس رجلاً عاديًا وطالب مُلْك ، إنما هو نبى معصوم، وتُفت فى أعضادهم عن التفكير بمتابعة حربه ومواجهته ، وقد التقت الحادثتان معًا: حادثة صلاة الخوف التى أكدت للعدو أن الرسول ﷺ يوحى إليه، وحيل بينهم وبين الهجوم المباغت على المسلمين، وحادثة العفو عن غورث ، ومضيه رسولاً إلى قومه والأعراب المجاورين لقومه يحدثهم عن عظمة محمد الذى أخذ السيف منه ، وعفا عنه ، وعن ثباته وشجاعته حين لم يخش غورثا وهو الفاتك الجرىء فى قومه والسيف صلت فى يده ، ومحمد ﷺ أعزل من السلاح .

ولا شك أن الغزوة قد حققت أهدافها الدعوية من خلال هذين الحدثين مع العدو .

ونشير كذلك إلى أن ملائكة الله تعالى ، وسيد الملائكة هو الموكل بحماية سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ، فكما فى رواية ابن إسحاق : (فدفع جبريل فى صدره ، فوقع السيف من يده) ، فجند الله تعالى ـ فى الكون كله ـ والروح الأمين جبريل يعيشون كل حركة من حركات النبى ﷺ بأمر ربهم ؛ ليدفعوا عنه الأذى من كل أفاك ومجرم أثيم فى الأرض ، ونحن لسنا إذن أمام غزوة عسكرية ، بمقدار ما نحن أمام غزوة دعوية لأرض نجد فى قالب عسكرى ، يتناسب مع عقلية الأعراب الذين لابد لهم من الرهبة حتى يصيخوا إلى هذا الدين الجديد .

ب ـ المرأة البدوية وصبيها :

وإذا كان غورث قد مضى فى صفوف الرجال يتحدث عن عظمة محمد ﷺ

(١) ذكر الواقدى قصة عن رجل آخر اسمه :دعثور ، وفى غزوة غطفان لا فى غزوة ذات الرقاع ، ولعلهما حادثان لا حادث واحد .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤٢٦ ، ٤٢٧ .

وشجاعته وحلمه ، فهذه المرأة البدوية من عرض الناس تأتى إلى هذا الرجل المبارك ومعها ابنها فقالت : (يا رسول الله ، هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان ، ففتح فاه ، فبزق فيه فقال : « اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله » ثلاثًا ، ثم قال : « شأنك بابنك لن يعود إليه شيء مما كان يصيبه ») .

وإذا كان الروح الأمين جبريل هو الذى يغمز قناة غورث فيرمى السيف من يده ، فإن رسول الله ﷺ هو الذى يبصق فى فم الصبى ليخرج الشيطان منه ، ويعلمه أنه رسول الله فينطفئ ويذوب أمام نور النبوة ، والمعركة فى الأرض بين جند الرحمن وجند الشيطان ، كما هى بين رسول الرحمن والشيطان الذى يخسأ أمام رسول الله ﷺ، وتنال الرحمة المهداة هذا الصبى المصاب فيتم شفاؤه بإذن الله ببصقة المصطفى ﷺ فى فيه ، كما تنال قلب هذه الأم الكسير التى لم تدع موقعًا تداوى ابنها إلا قصدته . وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون شفاؤه على يدى المصطفى عليه الصلاة والسلام،فتمضى فى مضارب الصحراء تتحدث عن هذا الرجل المبارك الذى أنقذ ابنها من مس الشيطان .

وينقلب غورث الفاتك والمرأة البدوية دعاة لدين الله ولرسول الله فى قلب غطفان وما جاورها كذلك .

جـ ـ والجمل الذى يشكو صاحبه :

وكل شيء فى هذا الوجود يحتاج إلى الرحمة المهداة للبشرية،حتى هذا الجمل الذى بلغه وصول رسول الله ﷺ إلى هذه الأرض ، يشق الجموع كلها ماضيًا إلى رسول الله ﷺ حيث (أقبل يرقل،فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما قال هذا الجمل ؟ هذا جمل يستعدينى على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين ، وأنه أراد أن ينحره ، اذهب يا جابر إلى صاحبه فائت به » فقلت : لا أعرفه ، فقال : « إنه سيدلك عليه » ، فخرج بين يدى معنقًا حتى وقف على صاحبه ، فجئت به فكلمه ﷺ فى شأن الجمل)[1] .

إننا نقرأ فى كتاب الله قصة سليمان عليه السلام ، والنملة التى وقفت خطيبة واعظة فى قومها: ﴿ ... يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ... ﴾ [النمل] .

فلا عجب أن نجد الجمل الذى يعانى هذه المعاناة من صاحبه أن يجد فرصة يلقى فيها رسول الله ﷺ ويشكو له الظلم الواقع عليه ، وليس البشر بأحق بالرحمة المهداة من الحيوانات والبهائم ، وانتصف رسول الله ﷺ لهذا الجمل ، وأنقذه من النحر ، كما

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩/ ٧ .

فى إحدى روايات الطبرانى : (فمرَّ عليه بعير مادٌّ بجرانه يرغو ، فقال : « على بصاحب هذا » فجاء فقال : « هذا يقول : نتجت عندهم فاستعملونى حتى إذا كبرت أرادوا أن ينحرونى » ، وقال : « ما من شىء إلا يعلم أنى رسول الله إلا كفرة أو فسقة الإنس والجن » [(١)] .

فهذا الوجود كله يسبح بحمد الله تعالى ، ويشهد لمحمد ﷺ بالرسالة ، فلا عجب أن يجد هذا الجمل الصبور الفرصة سانحة ليشكو لنبيه ﷺ ظلم صاحبه له .

د ـ والشجر له حق مثل الجمل :

وليست دواب الأرض بأحق بطاعة رسول الله ﷺ والسلام عليه من نباتاتها ، فكل من فى السموات والأرض يعرف رسول الله ﷺ .

لقد رأيناه وهو يصعد فى السموات العلى فيستأذن جبريل بالدخول ، فتقول ملائكة السماء فى كل سماء : ومن معك ؟ فيقول : محمد رسول الله . فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها : من هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد ، فيقولون : أو قد بعث ؟ فيقول : نعم . فيقولون : حياه الله من أخ وصاحب ، حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه) [(٢)] .

فهم يعرفونه منذ الأزل وقبل أن يبعث ، وهم يؤمنون بنبوته ، إنما الجديد عليهم بعثه إلى الثقلين الجن والإنس ، فالملائكة تعرفه وتقر بنبوته ، والأنبياء جميعًا أخذ عليهم ميثاق الإيمان به ، والبهائم تعرف نبوته ، والنبات والجماد يعرف نبوته ، وكل من فى السموات والأرض يعرف نبوته إلا عصاة وكفرة الإنس والجن .

وفى رواية الطبرانى مع هاتين الشجرتين عن جابر :

(ثم خرجنا فنزلنا منزلاً صحراء ديمومة [(٣)] ليس فيها شجرة ، فقال النبى ﷺ لجابر : « يا جابر ، انطلق فانظر لى مكانًا » ـ يعنى للوضوء ـ فانطلقت فلم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتاه . فرجعت إلى النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، لم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنها اجتمعتا لسترتاك ، فقال النبى ﷺ : « انطلق إليهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما : اجتمعا » فخرجت فقلت لهما ، فاجتمعتا كأنهما فى أصل واحد ، ثم رجعت فأخبرت النبى ﷺ فخرج حتى قضى حاجته ثم رجع فقال :

(١) قاله الطبرانى فى إحدى رواياته . انظر مجمع الزوائد ٦/٩ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٦/٢ .
(٣) ديمومة : الصحراء الواسعة .

« ائتهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما : ارجعا كما أنتما » فرجعتا)[1] .

وفى رواية : (ثم سرنا ونزلنا منزلاً فقام النبى ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ثم رجعت مكانها ، فلما استيقظ ذكرت له ، فقال :« هى شجرة استأذنت ربها عز وجل أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها »)[2] .

وليس الحى أولى برحمته من الميت :

فرسول الله ﷺ يكلف جابر أن يأتيه بغصنين غَضّين من كل شجرة ، وذلك حتى لا تحزن أية واحدة منهما أن نالت بركة رسول الله ﷺ دون الأخرى ، ويكلف جابرًا أن يمضى إلى حيث موقعه الأول ، قال : « فإنى مررت بقبرين يعذبان ، فأحببت بشفاعتى أن يَرْفه عنهما مادام القضيبان رطبين » .

فالله تعالى بعث نبيه المصطفى رحمة مهداة لكل العوالم ، وليس لعالم واحد .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ومن هذه العوالم عوالم الأموات ، على أمل أن تنال هذين شفاعة المصطفى ﷺ .

حتى الفراخ الصغار نالتها رحمته :

إذ أعاد فرخًا صغيرًا لأبويه عندما فرق بينه وبينهما أحد الصحابة ، وعلّم المسلمين من هذا الشاهد العملى الحى عظمة رحمة رب العالمين بعباده .

« والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه » .

ثم كانت الرحمة بالجيش عامة :

حيث استحكم العطش الشديد بالجيش ، بهؤلاء الثمانمائة ، وكادت تقطع أعناقهم فى هذه الصحراء ، فجاء بقطرات موجودة فى مزادة له ﷺ عند أحد الأنصار ،(فقال : « يا جابر ، ناد بجفنة » . فقلت : يا جفنة الركب ، فأتيت بها تُحمل ، فوُضِعت بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا ، فبسطها فى الجفنة ، ففرق بين أصابعه ، ثم وضعها فى قعر الجفنة ، وقال : « خذ يا جابر فصبَّ علىَّ وقل : بسم الله » فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ففارت الجفنة ، ودارت حتى امتلأت ، فقال : « يا جابر ، ناد من كان له حاجة بماء » فأتى الناس فاستقوا حتى رووا .

فقلت : هل بقى أحد له حاجة ؟ ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة، وهى ملأى.

---

(١) مجمع الزوائد ٩/ ٧. وقال الهيثمى فيه : رواه أحمد والطبرانى .

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٦. وقال فيه : رواه أحمد بإسنادين ، والطبرانى بنحوه .

وشكا الناس الجوع فقال : « عسى الله أن يطعمكم بسيف البحر » ، فأتينا سيف البحر، فألقى دابة ، فأورينا على شقها النار ، فشوينا وأكلنا وطبخنا وشبعنا) .

فى التربية الجماعية :

لاشك أن أعداداً كبيرة فى هذا الجيش قد انضمت إليه ، ولم تعرف من الإسلام إلا الشهادتين ، ونفرت مع رسول الله ﷺ تتفقه فى الدين منه ومن أصحابه ، وحتى تتلقى هذه الأعداد دفعات إيمانية تثلج صدرها باليقين بنبوة محمد ﷺ ، وترى المعجزات الربانية التى تعرف منها الطمأنينة القلبية بهذه النبوة ، كانت هذه الكرامات والأعاجيب تترى واحدة تلو الأخرى ، بشكل فردى أو أمام نفر من الجيش ، ثم الجيش كله فى تهيئة الشراب له من الماء الذى يفور من أصابع رسول الله ﷺ ، وفى الدابة التى ساقها الله تعالى لهذا الجيش ، كى يأكل ويشبع ، ويشرب ويروى ، فنشر هذه الأمور فى صفوف الجيش كله الإيمان واليقين،حيث يصعب الوقوف عند التربية الفردية لكل فرد فى الجيش.

إن انسياح الإسلام الجديد بعد الحديبية ، وبدء إقبال الناس، والفتح المبين بهذا الدين قد بدأت ثماره بهذه الأعداد الوافدة الجديدة ، والتى خرجت لتتلقى دورتها التدريبية فى الجوع والتعب والنصب والمشقة ، وتكون معدة بهذه الصعاب لمواجهة العدو فى المعارك القادمة ، وتتلقى دورتها التدريبية كذلك بعد صبرها على اللأواء والمشقة والجوع والنصب والظمأ ؛ لتتلقى هذه الكرامات الإلهية على يد رسول الله ﷺ ، وتشهد معجزات نبوته.

لقد استسقى موسى لقومه،فانبجس الماء من الحجر اثنتا عشرة عينًا فى هذه الصحراء:

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ... ﴾ [البقرة : ٦٠] .

وها هو رسول الله ﷺ يستسقى لقومه من المؤمنين فيفور الماء من بين أصابعه ،عليه الصلاة والسلام ، ويشرب الجيش كله ، ويرتوى بعد ظمأ ، وتفور الجفنة بالماء .

وها هو عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطلب المائدة من السماء للحواريين ، فتتنزل عليهم المائدة .

وها هو رسول الله ﷺ يطلب المائدة لقومه الثمانمائة فتأتيهم المائدة من البحر بهذه الدابة العظيمة فتطعم الجيش كله ، وتشبعه .

ويتكفل الجيل الرائد الأول بالاهتمام بالجيل الوافد الجديد ، يغذى دفقاته الإيمانية ، ويفقهه فى دين الله .

وتكون هذه الكرامات والمعجزات[1] من المواد الرئيسية الهامة فى بناء الإنسان المسلم عن طريق هذه التربية الجماعية .

---

(١) وردت هذه المعجزات والكرامات مجموعة معًا فى مجمع الزوائد لنور الدين الهيثمى ، ننقلها كما هى ، وكما خرجها الحافظ رحمه الله ، وذلك للتأكد من صحتها من كتاب الحديث نفسه :

(وعن جابر بن عبد الله قال :خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع حتى إذا كنا بحرة واقم ، عرضت امرأة بدوية بابن لها ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان فقال : « أدنيه منى » ، فأدنته منه ، قال : « افتحى فمه » ، ففتحته ، فبصق فيه رسول الله ﷺ ثم قال : «اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله » ، قالها ثلاث مرات ، ثم قال : « شأنك بابنك ليس عليه ، فلن يعود إليه شىء مما كان يصيبه » .

ثم خرجنا فنزلنا منزلاً صحراء ديمومة ليس فيها شجرة ، فقال النبى ﷺ لجابر : « يا جابر ، انطلق فانظر لى مكانًا » ـ يعنى للوضوء ـ فانطلقت فلم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتاه ، فرجعت إلى النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، لم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتاك ، فقال النبى ﷺ : « انطلق إليهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما اجتمعا » فخرجت فقلت لهما فاجتمعتا حتى كأنهما من أصل واحد ، ثم رجعت فأخبرت النبى ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ حتى قضى حاجته ثم رجع فقال : «انتهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما ارجعا كما أنتما » فرجعتا .

فنزلنا فى واد من أودية بنى محارب ، فعرض له رجل من بنى محارب يقال له : غورث بن الحارث ، والنبى ﷺ متقلد السيف. فقال : يا محمد ، أعطنى سيفك هذا. فسله وناوله إياه ، فهزّه ونظر إليه ساعة ثم أقبل على النبى ﷺ ثم قال : يا محمد ، ما يمنعك منى ؟! قال : « الله يمنعنى منك » ، فارتعدت يده حتى سقط السيف من يده، فتناوله النبى ﷺ ثم قال : « يا غورث ، من يمنعك منى ؟ » قال : لا أحد بأبى أنت، فقال النبى ﷺ : « اللهم اكفنا غورث وقومه » .

ثم أقبلنا راجعين ، فجاء رجل من أصحاب النبى ﷺ بعش طير يحمله ، فيه فراخ ، وأبواها يتبعانه ويقعان على يد الرجل، فأقبل النبى ﷺ على من كان معه وقال: « أتعجبون بفعل هذين الطيرين بفراخهما؟! والذى بعثنى بالحق ، للهُ أرحم بعباده من هذين الطيرين بفراخهما » .

ثم أقبلنا راجعين حتى إذا كنا بحرة واقم عرضت لنا الأعرابية التى جاءت بابنها بوطب (الزق الذى يكون فيه لبن) من لبن وشاة فأهدته له فقال : « ما فعل ابنك ؟ هل أصابه شىء مما كان يصيبه ؟ » .

قالت : لا والذى بعثك بالحق ، ما أصابه شىء مما كان يصيبه ، وقبل هديتها .

وأقبلنا حتى إذا كنا بمهبط من الحرة أقبل جمل يرقل ـ يعدو ـ فقال : « أتدرون ما قال هذا الجمل ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا جمل جاءنى يستعدينى على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين حتى إذا أجربه وأعجفه ـ أهزل ـ وكبر سنه أراد أن ينحره ، اذهب يا جابر إلى صاحبه فائت به » فقلت: يا رسول الله ، ما أعرف صاحبه ، قال : « إنه سيدلك عليه » ، فخرج بين يديه معنقًا (مسرعًا) حتى وقف بى فى مجلس بنى خطمة ، فقلت : أين رب هذا الجمل ؟ قالوا : هذا جمل بنى فلان بن فلان فجئته فقلت : أجب رسول الله ﷺ ، فخرج معى حتى جاء إلى النبى ﷺ ، فقال له : « جملك يستعدى عليك ، يزعم أنك حرثت عليه زمانًا حتى أجربته وأعجفته ، وكبر سنه ثم أردت أن تنحره » ، قال : والذى بعثك بالحق إن ذلك كذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : « بعنيه ؟ » ، قال : نعم يا رسول الله ، فابتاعه منه ثم سيّبه فى الشجر ، حتى نصب سنامًا فكان إذا اعتل على بعض المهاجرين أو الأنصار من نواضحهم شىء أعطاه إياه ، فمكث بذلك زمانًا .

قال محمد بن طلحة : كانت غزوة ذات الرقاع تسمى غزوة الأعاجيب .

قلت : فى الصحيح بعضه (قصة غورث) ـ رواه الطبرانى فى الأوسط ، والبزار باختصار كثير ، وفيه عبد الحكيم بن سفيان ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه أحد. وبقية رجاله ثقات .

انظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمى ٨/٩ ، ٩ .

ثانيًا : السرايا

١ ـ سرية أبي بكر إلى نجد فى شعبان سنة سبع :

حدثنى حمزة بن عبد الواحد ، عن عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : (بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ، وأمَّرَه علينا ، فسبينا أناسًا من هوازن فقتلت بيدى سبعة أهل أبيات ، وكان شعارنا : أمِت ، أمِت)[١] .

وقد عنون لها الصالحى بقوله :

(الباب السابع والثلاثون فى سرية أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضي الله عنه إلى بنى كلاب[٢] بنجد فى شعبان سنة سبع) [٣] .

٢ ـ سرية عمر بن الخطاب إلى تُربة [٤] فى شعبان سنة سبع :

حدثنا أسامة بن زيد بن أسلم ، عن أبى بكر بن عمر بن عبد الرحمن قال : (بعث رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه فى ثلاثين رجلاً إلى عَجُزِ هوازن[٥] بتُرَبَة ، فخرج عمر رضي الله عنه ومعه دليل من بنى هلال ، فكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، وأتى الخبر هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحدًا ، وانصرف راجعًا إلى المدينة حتى سلك النجدية ، فلما كان بالجدر قال الهلالى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : هل لك فى جمع آخر تركته من خَثْعَم جاؤوا سائرين قد أجدبت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرنى رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرنى أصمد لقتال هوازن بتُربة فانصرف عمر راجعًا إلى المدينة)[٦] .

٣ ـ سرية بشير بن سعد[٧] إلى فَدَك [٨] فى شعبان سنة سبع :

حدثنى عبد الله بن الحارث بن فضيل عن أبيه قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٢ .

(٢) بنو كلاب بن ربيعة أحد الفرعين الكبيرين من عامر بن صعصعة ، وعامر من هوازن ، وهذه غير سرية بنى فزارة التى رواها مسلم .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٠٥ .

(٤) تُربة : واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها يصب فى بستان بنى عامر ، وبه بلدة تحمل اسمه على قرابة ٢٠٠ كم من الطائف .

(٥) عجز هوازن : هم بنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وبنو جشم بن بكر بن هوازن .

(٦) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٣ .

(٧) بشير بن سعد والد النعمان استشهد بعين التمر .

(٨) فدك : قرية شرقى خيبر ، وقد صالح أهلها رسول الله ﷺ بعد خيبر ، فقبل منهم ذلك ، وكانت خالصة لرسول الله ﷺ .

سعد فى ثلاثين رجلاً إلى بنى مرة [١] بفدك، فخرج فلقِى رعاء الشاء فسأل : أين الناس ؟ فقالوا : هم فى بواديهم ، والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء .

فاستاق النَّعَم والشاء وعاد منحدرًا إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الدَّهم[٢] منهم عند الليل، فباتوا يرامونهم بالنبل حتى فنيت نبل أصحاب بشير ، وأصبحوا وحمل المريون عليهم فأصابوا أصحاب بشير ، وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير قتالاً شديدًا حتى ضرب كعبه ، وقيل : قد مات ، ورجعوا بنعمهم وشائهم ، وكان أول من قدم بخبر السرية ومصابها علبة بن زيد الحارثى[٣] ، وأمهل بشير بن سعد وهو فى القتلى، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك ، فأقام عند يهودى بفدك أيامًا حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة) [٤] .

٤ ـ سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة فى رمضان سنة سبع :

حدثنى عبد الله بن جعفر ، عن ابن عون ، عن يعقوب بن عتبة قال : لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة الكدر أقام أيامًا ما شاء الله له أن يقيم ، فقال له يسار مولاه : يا رسول الله ، إنى قد علمت غرة من بنى عبد بن ثعلبة [٥] ، فأرسل معى إليهم ، فأرسل معه النبى ﷺ غالب بن عبد الله فى مائة وثلاثين رجلاً .

خرج بهم يسار ، فظعن بهم فى غير الطريق حتى فنيت أزوادهم وجهدوا ، واقتسموا التمر عددًا ، فبينا القوم ذات ليلة بعد ما ساء ظنهم بيسار ـ وظنَّ القوم أن إسلامه لم يصح ـ قد انتهوا إلى مكان قد فحصه[٦] السيل ، فلما رآه يسار كبَّر قال : والله قد ظفرتم بحاجتكم ، اسلكوا فى هذا الفحص حتى ينقطع بكم ، فسار القوم فيه ساعة بحسٍ خفى لا يتكلمون إلا همسًا ، حتى انتهوا إلى ضرس[٧] من الحرة فقال يسار لأصحابه: لو صاح رجل شديد الصوت لأسمع القوم ، فارتؤوا رأيكم ، قال غالب : انطلق بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كمينًا ، ففعلا ، فخرجنا حتى إذا كنا من القوم بمنظر العين ، سمعنا حس الناس والرعاء والحُلب ، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما ، فأقبلوا جميعًا حتى إذا كانوا من الحى قريبًا ، وقد وعظهم أميرهم غالب ، ورغبهم فى

---

(١) بنو مرة : فرع من غطفان ورأسهم الحارث بن عوف المرى سيد غطفان الثانى .

(٢) الدَّهم : العدد الكبير وجمعه الدهوم .

(٣) علبة بن زيد الحارثى : هو المتصدق بعرضه فى غزوة تبوك حين لم يملك مالاً ، فقال : اللهم إنى أتصدق بعرضى على من ناله من خلقك .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٣ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٦٤ .

(٥) بنو عبد بن ثعلبة وبنو عوال ينتميان إلى غطفان .

(٦) فحص : حفر .

(٧) الضرس : الأكمة .

الجهاد ، ونهاهم عن الإمعان فى الطلب ، وألف بينهم وقال : إذا كبَّرْتُ فكبروا، فكبَّر وكبَّروا جميعًا معه ووقفوا وسط محالهم فاستاقوا إبلاً وشاءً ، وقتلوا من أشرف لهم ، وصادفوهم تلك الليلة على ماء يقال له (الميفعة) ، قال : واستاقوا النَّعم فحدروه إلى المدينة ،و لم يسمع أنهم جاؤوا بأسرى)(١) .

وقال ابن سعد بسنده : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله إلى بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة ، وهم بالميفعة ، وهى وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد ، وبينها وبين المدينة ثمانية برد . . .) (٢) .

٥ ـ سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى مصاب بشير بن سعد :

(. . . وهيأ رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : « سر حتى تنتهى إلى مصاب أصحاب بشير ، فإن ظفرك الله بهم فلا تبق فيهم ، وهيأ معه مائتى رجل ، وعقد له اللواء ، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد أظفره الله عليهم ، فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام : « اجلس »، وبعث غالب بن عبد الله فى مائتى رجل ، فخرج أسامة ابن زيد فى السرية حتى انتهى إلى مصاب بشير وأصحابه ، وخرج معه علبة بن زيد .

حدثنى أفلح بن سعيد عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : كان مع غالب عقبة بن عمرو أبو مسعود ،وكعب بن عجرة ،وأسامة بن زيد ، وعلبة بن زيد ، فلما دنا غالب منهم بعث الطلائع ، فبعث علبة بن زيد فى عشرة ينظر إلى جماعة محالهم ، حتى أوفى على جماعة منهم ، ثم رجع إلى غالب فأخبره ، فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً ، وقد احتلبوا وعطَّنوا(٣) وهدؤوا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تعصونى ، ولا تخالفوا لى أمرًا ، فإنه لا رأى لمن لا يطاع ، ثم ألف بينهم فقال : يا فلان أنت وفلان ، يا فلان أنت وفلان ، لا يفارق كل رجل زميله ، وإياكم أن يرجع إلىَّ أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك ؟ فيقول : لا أدرى ، وإذا كبَّرْت فكبروا، قال : فكبَّر وكبَّروا وأخرجوا السيوف ، فأحطنا بالحاضر ، وفى الحاضر نعم ، وقد عطّنوا مواشيهم ، فخرج إلينا الرجال ، فقاتلوا ساعة فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ونحن نصيح بشعارنا أمِت أمِت،وخرج أسامة بن زيد فى إثر رجل يقال له : نهيك ابن مرداس فأبعد ، وحوينا على الحاضر ، وقتلنا من قتلنا ، ومعنا النساء والماشية ، فقال أميرنا أين أسامة بن زيد ؟ فجاء بعد ساعة من الليل ، فلامه أميرنا لائمة شديدة ، وقال:

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٦ ، ٧٢٧ . (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١١٩ .

(٣) عطّنوا الإبل : أى سقوا الإبل ، ثم أناخوها وحبسوها عند الماء .

ألم تر إلى ما عهدت إليك ، فقال : إنى خرجت فى إثر رجل جعل يتهكم بى ، حتى إذا دنوت ولحمته بالسيف قال : لا إله إلا الله ، فقال أميرنا : أغمَدْت سيفك ، قال : لا والله ما فعلت حتى أوردته شعوب ، قال : والله بئس ما فعلت ، وما جئت به ، تقتل امرأ يقول: لا إله إلا الله، فندم وسقط فى يديه ، قال : واستقنا النعم والشاء والذرية، وكانت سهامهم عشرة أبعرة كل رجل ، أو عدلها من الغنم ، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم .

وحدثنى شبل بن العلاء ، عن إبراهيم بن حويصة ، عن أبيه ، عن أسامة بن زيد قال : كان أميرنا آخى بينى وبين أبى سعيد الخدرى ، قال أسامة : فلما أصبته ، وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة ، حتى رأيتنى وما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقبلنى ، واعتنقنى ، واعتنقته ، ثم قال لى: « يا أسامة ، خبرنى عن غزاتك » قال : فجعل أسامة يخبره الخبر حتى انتهى إلى صاحبه الذى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : « قتلته يا أسامة وقد قال لا إله إلا الله ؟ » فجعلت أقول : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذًا من القتل ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا شققت قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ » قال أسامة : لا أقتل أحدًا يقول : لا إله إلا الله ، قال أسامة : وتمنيت أن لم أكن أسلمت يومئذ)[1] .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، حدثنى شيخ من أسلم عن رجال من قومه قالوا : (بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبى - كلب ليث - إلى أرض بنى مرة فأصاب بها مرداس بن نهيك حليف لهم من الحُرَقَة فقتله أسامة ، فحدثنى محمد بن أسامة بن محمد بن أسامة عن أبيه عن جده أسامة بن زيد قال : أدركته - يعنى مرداسًا - أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السيف قال : أشهد أن لا إله إلا الله، فلم ننزع حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره فقال : « يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله » فوالذى بعثه بالحق ما زال يرددها علىّ حتى لوددت أن ما مضى من إسلامى لم يكن ، وأنى أسلمت يومئذ ولم أقتله)[2] .

وقال هشيم : نا حصين بن عبد الرحمن ، ثنا أبو ظبيان ، سمعت أسامة بن زيد يحدث فقال : (أتينا الحرقة من جهينة ، قال : فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، قال : فكفَّ عنه الأنصارى ، فطعنته أنا برمحى حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبى ﷺ ذلك فقال: « أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله ؟» ، ثلاث مرات ، قلت : يا رسول الله ، إنما كان متعوذًا ،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٣ - ٧٢٥ .

(٢) المغازى للذهبى ٤٤٨ - ٤٤٩ .

قال : فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل يومئذ) (١) .

(وقال البغوى فى شرح السنة: ثم إن رسول الله ﷺ استغفر لأسامة ثلاث مرات، وقال له : « اعتق رقبة ») (٢) .

٦ ـ سرية بشير بن سعد إلى الجناب سنة سبع :

حدثنى يحيى بن عبد العزيز ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : قدم رجل من أشجع يقال له : حسيل بن نويرة ، وقد كان دليل النبى ﷺ إلى خيبر فقال له رسول الله ﷺ : « من أين يا حسيل ؟ » قال : قدمت من الجناب ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وراءك ؟ » قال : تركت جمعًا من غطفان قد بعث إليهم عيينة يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعًا، وهم يريدونك أو بعض أطرافك . قال : فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فذكر لهما ذلك ، فقالا جميعًا ، ابعث بشير بن سعد ، فدعا رسول الله ﷺ بشيرًا فعقد له لواءً، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار، حتى أتوا أسفل خيبر فنزلوا بسلاح (٣) ، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثلثا نهار أو نصفه ، فإن أحببتم كمنتم وخرجتُ طليعة لكم حتى آتيكم بالخبر ، وإن أحببتم سرنا جميعًا ، قالوا : بل نقدّمك ، فقدَّموه فغاب عنهم ساعة ثم كرَّ عليهم فقال : هذا أوائل سرحهم ، فهل لكم أن تغيروا عليهم ؟ فاختلف أصحاب النبى ﷺ فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرنا الرجال والعطن ، وقال آخرون : نغنم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم ، فشجعوا على النعم ، فأصابوا نعمًا كثيرًا ملؤوا ما بين أيديهم ، وتفرَّق الرعاء وخرجوا سراعًا ، ثم حذروا الجمع فتفرَّق الجمع وحذروا ، ثم لقوا جمع عيينة ، وعيينة لا يشعر بهم فناوشهم ، ثم انكشف جمع عيينة وتبعهم أصحاب النبى ﷺ ، فأصاب منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسرًا ، فقدموا بهم على النبى ﷺ فأسلما ، فأرسلهما .

قالوا : وكان الحارث بن عوف المزنى حليفًا لعيينة ولقيه منهزمًا على فرس له عتيق يعدو به عدوًا سريعًا ، فاستوقفه الحارث فقال : لا ، ما أقدر، الطلب خلفى، أصحاب محمد ، وهو يركض، قال الحارث: أما آن لك بعد أن تبصر ما أنت عليه ، إن محمدًا قد وطئ البلاد وأنت موضع فى غير شىء ،قال الحارث: فتنحيت عن سنن خيل محمد حيث

---

(١) متفق عليه ، البخارى ٥/٨٨ ، ومسلم (٩٦) كتاب الإيمان .

(٢) المغازى للذهبى هامش ٤٤٩ (المحقق) .

(٣) سلاح : موضع أسفل خيبر .

أراهم ولا يرونى ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ، وما أرى أحدًا وما طلبوه إلا الرعب الذى دخله ، قال : فلقيته بعد ذلك فقال الحارث : فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ، ما رأيت من طلب ، قال عيينة : هو ذاك ، خفت الإسار ، وكان أثرى عند محمد ما تعلم فى غير موطن ، قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمرًا بينًا فى بنى النضير ، ويوم الخندق وقريظة ، وقبل ذلك قينقاع ، وفى خيبر ، إنهم كانوا أعز يهود ، الحجاز كله يقرون لهم بالشجاعة والسخاء ، وهم أهل حصون منيعة ونخل ، والله إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم ، لقد سادت حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان ، فامتنعوا بهم من الناس ، ثم قد رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة ، وكيف أديل عليهم ، فقال عيينة : هو والله ذاك، ولكن نفسى لا تقرنى ، قال الحارث : فادخل مع محمد ، قال : أصير تابعًا ، قد سبق القوم إليهم فهم يزرون بمن جاء بعدهم يقولون: شهدنا بدرًا وغيرها، فقال الحارث: وإنما هو على ما ترى ، فلو تقدمنا إليه لكنا من علية أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادعة ، هو موقع بهم وقعة ما وطئ له الأمر ، فقال عيينة : أرى والله.

واتعدا يريدان الهجرة والقدوم على النبى ﷺ إلى أن مر بهما فروة [1] بن هبيرة القشيرى يريد العمرة ، وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان ، فقال فروة : لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه فى هذه المدة التى هم فيها وآتيكم بخبرهم ، فأخروا القدوم على رسول الله ﷺ ، ومضى فروة حتى قدم مكة فتحسس من أخبارهم ، فإذا القوم على عداوة النبى ﷺ لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبدًا ، فخبَّرهم بما أوقع محمد بأهل خيابر، قال فروة : وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمحمد، قالت قريش : فما الرأى فأنت سيد أهل الوبر ؟ قال:نقضى هذه المدة التى بينكم وبينه ونستجلب العرب ، ثم نغزوه فى عقر داره ، وأقام أيامًا يجول فى مجالس قريش ، ويسمع به نوفل بن معاوية الديلى ،فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش ، فقال نوفل: إذًا لأجد عندكم شيئًا ، قدمت الآن لمقدمك حيث بلغنى ، ولنا عدو قريب داره، وهم عيبة نصح محمد لا يغيِّبون عنه حرفًا من أمورنا ، قال :من هم ؟ قال : خزاعة ، قال : قُبحت خُزاعة ، قعدت بها يمينها ، قال فروة : فماذا ؟ قال : استنصر قريشًا أن يعينونا عليهم ، قال فروة : فأنا أكفيكهم ، فلقى رؤساءهم صفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وسهيل بن عمرو فقال : ألا ترون ما نزل بكم ، إنكم رضيتم أن تدافعوا محمدًا بالراح ، قالوا : فماذا نصنع ؟ قال : تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم ، قالوا : إذن يغزونا محمد فيما لا قبل لنا به فيوطئنا غلبَةً ، وننزل على

(١) هو تصحيف ، واسمه قرة بن هبيرة كما فى جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٢٨١ .

حكمه ، ونحن الآن فى مدة وعلى ديننا . فلقى نوفل بن معاوية فقال : ليس عند القوم شىء ، فرجع فلقى عيينة والحارث ، فأخبرهم وقال : رأيت قومه قد أيقنوا عليه ، فقاربوا الرجل ، وتدبروا الأمر ، فقدموا رِجْلاً وأخروا أخرى) (١) .

* * *

أعظم شخصيتين على رأس سريتين :

لقد كانت هذه السرايا استطلاعية أكثر منها سرايا حربية، وإعلامية أكثر منها عسكرية، وهدفها مباغتة العدو وإشعاره بالقوة الإسلامية والوجود على الساحة ، ومن أجل هذا اختير لنا شخصيات تاريخية ، طارت شهرتها فى الآفاق العربية ، فالصديق ﷺ هو أشهر وأكبر شخصيات هذه الدولة بعد رسول الله ﷺ ، وهو الوزير الأول عنده ، ومع ذلك بعثه على رأس هذه السرية ممعنًا فى أرض نجد ، حيث وصل ضرية من أرض بنى هوازن ، كما وصل الشخص الثانى فى الدولة المسلمة عمر بن الخطاب إلى تربة مع هوازن كذلك ، أو فرع منها .

وليس بين رسول الله ﷺ وهوازن ثأر ، إلا ما كان من عامر بن الطفيل سيد بنى عامر بن صعصعة ، والذى فتك بسبعين من القراء فى بئر معونة ، وعامر بن صعصعة من هوازن ، وتكاد تكون السرايا فى نجد بعد الحديبية معظمها مع غطفان ، فهى العدو الوحيد الذى بقى متربصًا على الساحة بعد سقوط اليهود فى خيبر والهدنة مع قريش ، وكل ما لدينا من معلومات عن سرية الصديق ﷺ ما حدثنا عنه سلمة بن الأكوع ﷺ البطل الجرىء ، الذى شهدناه يواجه كتيبة وحده فى غزوة ذات قرد ، يحدثنا عن أنه قتل بيده سبعة أهل أبيات من هوازن ، وهذا يعنى أنه قد تم اصطدام بين الفريقين ، وهُزِم المشركون فى المعركة ، والجانب الإعلامى فيها هو الرعب الذى يحل بالقبائل المجاورة ، بأن سلطان محمد ﷺ قد تجاوز الحجاز إلى نجد ، وأن القبائل العربية الكبرى ستعيد حساباتها فى تقويم أمر محمد ﷺ .

وإن كانت الروايات تشير إلى أن سرية أبى بكر الصديق ﷺ إنما كانت إلى بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فى ضرية ، فعامر بن الطفيل هو من كلاب بن ربيعة ، وهو الذى أوقع بالمسلمين أكبر محنة بعد أحد بغدره ولؤمه ، فكان لابد أن تصله كتائب محمد ﷺ بقيادة أشهر شخصية إسلامية هى أبو بكر الصديق ﷺ ، كما أن المصادر لم تشر إلى عدد أفراد هذه السرية والظاهر أنه عدد قليل ؛ لأن نوعية السرايا

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٧ ـ ٧٣١ .

الاستطلاعية والإعلامية التي سنتحدث عنها كانت في أعداد قليلة دون المائة أو دون الخمسين في أحيان أخرى .

وإنها لمغامرة فذة يقدم عليها المصطفى ﷺ فيقدم أعظم شخصية عنده مع هذا النفر القليل يضربون في الصحراء ممعنين فيها وفي قلب البادية العربية ، وتشبهها المغامرة نفسها في إرسال الشخصية الثانية في الأمة ، عمر بن الخطاب بحدود ثلاثين راكبًا إلى تربة ، وهوازن فيها ، وإن كان فرع هوازن في تربة هم بنو نصر ، وهم الذين قادوا فيما بعد حرب المواجهة في حنين بقيادة سيدهم مالك بن عوف النصرى .

والملاحظ أن السريتين تحركتا في شهر واحد هو شهر شعبان ، ولعل هذا التحرك في هذا الموعد هو للحيلولة دون أن يمد أحدهما الآخر وهما ينتميان إلى أصل واحد وهو هوازن.

وأما ضرية فقد ذُكرت عند القسطلاني كما في شرح المواهب :

الثانية (ثم سرية أبي بكر الصديق) أفضل الصحب بلا نزاع كما قام عليه من أهل السنة الإجماع وغيرهم محجوجون بما صح عن على كرم الله وجهه أنه خير منه (ﷺ إلى بني كلاب) بكسر الكاف وخفة اللام قبيلة (بنجد بناحية ضرية) يقال : إنه اسم امرأة سمي به الموضع ، قال في الصحاح : قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة أقرب (في شعبان سنة سبع)(١) .

والجانب التربوى الذى برز لنا في هاتين السريتين: هو ما ذكر في سرية عمر ﷺ :

(فلما كان بالجدر قال الهلالي لعمر بن الخطاب ﷺ : هل لك في جمع آخر تركته من خثعم ، جاؤوا سائرين ، قد أجدبت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرني أصمد لقتال هوازن بتربة ، فانصرف عمر راجعًا إلى المدينة) .

فقد كان مبدأ الغزو هو الذى يسود العرب قبل الإسلام ، وتاريخهم وأيامهم كلها يقوم على الفخر بهذه الأمجاد من حيث الشجاعة والبطولة والجرأة ، ومن هذا المنطلق عرض الدليل الهلالي (بني هلال من عامر بن صعصعة) فكرة غزو قبيلة خثعم ، حيث يمكن أن تعود السرية بالغنائم الكبيرة والقتل للعديد من رجالات هذه القبيلة ، فرفض الفاروق ﷺ الأمر من جذوره ، وأكد أنه جندى ينفذ أوامر قائده محمد عليه الصلاة والسلام حيث وجهه إلى تربة ، وبالذات إلى عجز بني هوازن ، وخثعم لا علاقة لها بهوازن إلا قرب الجوار ، فأى معنى يكمن في غزوها وسلبها وسبى أطفالها ونسائها .

---

(١) شرح المواهب للزرقاني ، ص ٢٤٩ .

إن هذا الجيل يتربى على حرمة الدم ، وحرمة المال ، وحرمة العرض ، وليس القتال والسلب والنهب هو الهدف ، إنما الهدف هو حماية الدعوة من أعدائها ، وحماية الدولة المسلمة من خصومها ، وليست المهمة الاعتداء دون سلوك الخط الأول الذى يقوم على أساس تبليغ دعوة الله تعالى إلى القبائل .

ونشير هنا إلى أن هذا العهد الجديد ، إنما ابتدأ بدعوة حكام الأرض إلى الإسلام ، فى أقصى الأرض .

وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى هذا العهد،عن انتشار الإسلام، أما دعوة القبائل إلى الإسلام ومن خلال سرايا تتحرك من المدينة، فلم تبتدئ هذه الخطوات بعد؛ ولهذا قرر عمر ﷺ عدم المواجهة مع بنى خثعم ، وفتح جبهة معهم ، وعاد إلى المدينة حين فرت هوازن من المواجهة ، ولم يلق منهم أحدًا فى موقعه ، وإشارة أخيرة تعطى العجب لفرار هوازن من سرية قوامها ثلاثون رجلاً ، بينما يزول العجب حين نذكر أن عمر ﷺ ذا السمعة الضخمة ، والصيت البعيد لقوته وبأسه كان له الدور الفعال فى ذلك .

بشير بن سعد وسريته إلى فدك :

قائد جديد يبرز لأول مرة من كبار الأنصار وكرامهم هو بشير بن سعد بن ثعلبة بن . . . الحارث بن الخزرج ، وهو من الخيرية الثالثة فى الأنصار نسبًا .

« إن خير دور الأنصار دار بنى النجار ، ثم دار بنى عبد الأشهل ، ثم دار بنى عبد الحارث بن الخزرج ، ثم دار بنى ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير »(١) .

ومن حيث الماضى العريق له فقد حاز أفخر الأمجاد ، إذ حضر بيعة العقبة الثانية ، وحضر بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كما كان عريق المجد فى الجاهلية، وكما يقول عنه ابن سعد :

(وكان بشير يكتب بالعربية فى الجاهلية ، وكانت الكتابة فى العرب قليلاً ، وشهد بشير العقبة مع السبعين من الأنصار فى روايتهم جميعًا ، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ)(٢) .

واختاره الرسول ﷺ لأول مرة فى مهمة قيادية إلى بنى مرة من غطفان فى فدك (حدثنى عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن

---

(١) مسلم ١٧٨٥/٤ من ح (١٣٩٢) وذكر فى الهامش : هكذا هو فى النسخ بنى عبد الحارث ، وكذا نقله القاضى قال : وهو خطأ من الرواة وصوابه بنى الحارث بحذف لفظة عبد .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٣١/٣ .

سعد فى ثلاثين رجلاً إلى بنى مرة بفدك ، فخرج فلقى رعاء الشاء فسأل : أين الناس ؟ فقالوا : هم فى بواديهم ، والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء ، فاستاق النعم والشاء وعاد منحدراً إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الدهم منهم عند الليل ، فباتوا يرامونهم بالنبل حتى فنيت نبل أصحاب بشير ، وأصبحوا وحمل المريون عليهم فأصابوا أصحاب بشير ، وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير قتالاً شديدًا حتى ضرب كعبه وقيل قد مات، ورجعوا بنعمهم وشائهم ، وكان أول من قدم بخبر السرية ومصابها علبة ابن زيد الحارثى ، وأمهِل بشير بن سعد وهو فى القتلى، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك فأقام عند يهودى بفدك أيامًا حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة)[1] .

لقد كانت سرية بشير رضي الله عنه فى الشهر نفسه الذى كانت فيه سرية أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وذلك فى خطة شاملة لاختبار الأرض العربية ، وكان أفراد سرية بشير كأفراد سرية عمر رضي الله عنه من حيث العدد ، وكانت البدايات واحدة حيث استاق بشير النعم والشاء ومضى منحدراً إلى المدينة ، لكن بنى مرة كانوا غير هوازن ، فقد جاء الصريخ إليهم ولحقوا بالمسلمين ، وأحاطوا بهم وبقائدهم بشير رضي الله عنه ، وجاهد المسلمون أعظم جهاد فى نبلهم حتى فنى ، ثم حمل المريون عليهم حين نفد سلاحهم ، فقتلوهم إلا من تمكن من الفرار ، وارتث بشير من بين القتلى ، وأعيدت ظاهرة شهداء بئر معونة من جديد ، ولكن بشيراً رضي الله عنه تمكن من مغالبة جراحه بعد أن مضى العدو ، وأقام عند يهودى ذمى ريثما عالج هذه الجراح ، وعاد إلى رسول الله ﷺ ، وكان أول من نقل أخبار المحنة لرسول الله ﷺ علبة بن زيد الحارثى ـ من قوم بشير ـ وكانت المفاجأة وصول بشير رضي الله عنه المدينة بعد أن كان محسوبًا من القتلى .

سرية غالب بن عبد الله الليثى :

وأن تحمل الركبان خبر مقتل أصحاب النبى ﷺ دون ثأر لهم ، هو من الخطورة بمكان ، وهو يضعف سمعة محمد ﷺ القوية فى الجزيرة ، وتغرى بقية القبائل بالنيل من المسلمين والهجوم عليهم ، فكان الرد العسكرى الحاسم ، كما ذكر الواقدى :

(وهيأ رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : « سر حتى تنتهى إلى مصاب أصحاب بشير ، فإن ظفرك الله بهم فلا تُبق فيهم » ، وهيأ معه مائتى رجل ، وعقد له اللواء ، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد أظفره الله عليهم فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام : « اجلس » وبعث غالب بن عبد الله فى مائتى رجل) .

---

(١) مغازى الواقدى ٢/ ٧٢٣ .

إن المحافظة على السمعة العسكرية القوية للجيش الإسلامى هى عنصر أصيل من عناصر التربية فى هذه المرحلة ، فليس الهدف هو القوة ذاتها ، ولكن الهدف هو إرهاب العدو ، بحيث لا يطمع أو يجترئ على الحمى الإسلامى ، ويعرف أن هذا الطريق خطر وميؤوس منه ، والحل هو الحوار الفكرى والعقلى ومحاولة فهم الإسلام ، ومن أجل هذا التوازن كانت السرعة الكبيرة فى بعث غالب .

وغالب ﷺ قد ظفر فى سريته السابقة ، أثبت الكفاءة المطلوبة ، وذلك فى سريته إلى الميفعة فى رمضان ومع غطفان بالذات . . . ويريد رسول الله ﷺ أن يحاصرهم من كل جانب ، وهم بالمقابل يحاولون ذلك إذ كانوا يعدون العدة للهجوم ، فباغتهم عليه الصلاة والسلام بغالب ، حيث بعث معه مائة وثلاثين رجلاً .

وكان دليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ ، وهو نفسه الذى أسر فى غطفان فى موقعة الكدر ، فهو ابن المنطقة وأحد الرعاة فيها ، وحين أخلص لله تعالى وصلى لله ، اختاره رسول الله ﷺ من خاصته ، فأعتقه وغدا مولىً له ، وحيث تتسم القيادة النبوية العظيمة باستغلال كل الطاقات مهما كان نوعها ، وتفتح الآفاق أمامها لتأخذ مداها الأرحب ،فقد وجدنا يسار ﷺ هو الذى يبادر ابتداءً ويتابع آخر بنى ثعلبة الذين كان عبدًا عندهم،ويبلغه عن تجمعاتهم لغزو المدينة،فيتقدم لرسول الله ﷺ قائلاً له :(يا رسول الله ، إنى قد علمت غرة من بنى عبد بن ثعلبة ، فأرسل معى إليهم) .

وحيث غدا موضع الثقة الكاملة من نبيه المصطفى ﷺ ، أخذ رسول الله هذا الخبر مأخذ الجد ، وأعطاه ما يستحقه من اهتمام ، وأرسل معه مائة وثلاثين رجلاً كان هو دليلهم الهادى فى هذه البيد المهلكة .

ورغم عدم توفر الإمكانيات المادية لتحرك السرية ، فليس عندهم إلا التمر ، وهو الزاد الرئيسى بالنسبة إليهم لم يحل هذا دون المبادرة السريعة لضرب هذا العدو المتربص ، فالمعركة مستمرة لا يهدأ لها أوار بين غطفان والمسلمين ، وانضمام هذه الطاقة التى هى هذا العبد إلى المسلمين ، يعنى الاستفادة من خبرته فى الطريق ومعلوماته عن العدو ، (فظعن بهم فى غير الطريق حتى فنيت أزوادهم وجهدوا واقتسموا التمر عددًا).

وبدأ الشك يساور قائد السرية غالبًا وإخوانه بمصداقية يسار ، الذى ترك الطريق المأهول إلى طريق آخر غير مطروق ، وظنوا به الظن أنه قاصد إبادتهم جوعًا وعطشًا فى هذه الصحراء (فبينا القوم ذات ليلة بعد ما ساء ظنهم بيسار ، وظن القوم أن إسلامه لم يصح وقد انتهوا إلى مكان قد فحصه السيل ، فلما رآه يسار كبَّر وقال : والله قد ظفرتكم بحاجتكم ، اسلكوا فى هذا الفحص حتى ينقطع بكم .

فسار القوم بحس خفى لا يتكلمون إلا همسًا حتى انتهوا إلى ضرس من الحرة ، فقال يسار لأصحابه : لو صاح رجل شديد الصوت لأسمع القوم) .

لقد نجحت مهمة يسار نجاحًا كاملاً ، ولعله قبل أن يرى المكان الذى فحصه قد توقع أنه تاه عن الطريق فبقى صامتًا ، ورأى النظرات قد تغيرت عليه فزاد ألمه إلى أن أنقذه الله تعالى بهذا المعلم من مفحص السيل، واهتدى إلى السبيل ، وهدى الجيش معه ، وحيث إن القيادة الحكيمة لغالب قد ضبطت الأمر ، واعتبار معلومات يسار موثقة ، طالب المسير بحس خفى وهمس جديد لإخفاء كل معالم التحرك نحو العدو ، إلى أن انتهوا إلى الأكمة.

ووراء الأكمة ما وراءها ، إن وراءها الهدف الرئيسى : العدو نفسه كما حدد موقعه يسار ، لو صاح رجل شديد الصوت لأسمع القوم فارتؤوا رأيكم .

وانتهى دور يسار الرائد ، ليأتى دور غالب القائد ، والعدو على مرمى قريب منه ، قال غالب : انطلق بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كمينًا .

إنها خطة جريئة : أن يعرض القائد نفسه للخطر ، فيمضى وحيداً مع يسار ، وهذا يعنى أن ثقة غالب بيسار غدت ثقة مطلقة ، وإلا لما عرض نفسه للخطر ، ومع هذا فهو القائد الماهر الحاذق الذى يريد أن يستوثق مائة بالمائة من هدفه ، فقدم نفسه مع يسار للموت ليحفظ جيشه إن كان هناك موت .

(فخرجنا حتى إذا كنا من القوم بمنظر العين ، سمعنا حس الناس والرعاء والحلب ، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما) (١) .

لقد أشرف القائد بنفسه على ساحة المعركة ،وخبرها قبل الدخول فيها ، وخبر أعداد العدو ، وعاد إلى جيشه (فأقبلوا جميعًا حتى إذا كانوا من الحى قريبًا) ابتدأت المرحلة الثانية من دور القيادة .

(وقد وعظهم أميرهم غالب، ورغَّبهم فى الجهاد ، ونهاهم عن الإمعان فى الطلب، وألف بينهم وقال : إذا كبَّرت فكبِّروا) .

لقد حدَّد الخطة ابتداء بعد أن أدى الدور المعنوى المطلوب ، ورغبهم فى الجهاد ، ووعظهم وذكّرهم بالله عز وجل ، كانت الخطة مرتبطة بإيقاف أى تحرك حتى يسمعوا

(١) فى الأصل خطأ ، والصحيح حسب تسلسل الرواية :(فخرجا حتى إذا كانا من القوم بمنظر العين سمعا حس الناس والرعاء والحلب ، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما . . .). المغازى ٢/ ٧٢٧ .

تكبير أميرهم ، وتكون مرحلة الهجوم مع انطلاقة التكبير من الأمير ، ثم الجند خلفه ، أما المحظور فى هذه المعركة ، فهو الإيغال فى الصحراء وراء العدو والإمعان فى الطلب ؛ لأن احتمالات خطة التراجع المصطنعة لتوريط الجيش إلى كمين فى هذه الصحراء (فكبَّر وكبَّروا جميعًا معه ، ووقفوا وسط محالهم ، فاستاقوا نعمًا وشاءً ، وقتلوا من أشرف لهم وصادفوهم فى تلك الليلة على ماءٍ يقال له : الميفعة ،قال : واستاقوا النعم فحذروه إلى المدينة ولم يسمع أنهم جاؤوا بأسرى) .

هذه العودة المظفرة لغالب بن عبد الله الليثى بالنعم والشاء ، وقتل من قُتِل من العدو ، صادف وصولها وصول بشير بن سعد ﷺ إلى المدينة .

وليبقى رسول الله ﷺ هذه الطاقات فى توهجها وإبداعها، أعاد الزبير ﷺ إلى موقعه، وطلب من غالب أن يقود هذه السرية الجديدة بمائتى مقاتل[1] ، على ضوء الانتصارات التى تحققت بالسرية الأولى ، وإلى غطفان نفسها ولكن فى موقع آخر ، وحمية معاكسة ، وأصبح اسم غالب الليثى اسما متداولا ومعروفا فى الصحراء ، فلابد من استعمال وهج هذا الاسم ثانية إلى مصاب بشير بن سعد وقومه .

وممن ذكر خروجهم فى هذه السرية رجلين اثنين :

الأول : علبة بن زيد : وهو الذى قطع الصحراء كلها حتى وصل إلى رسول الله ﷺ ، ونقل له خبر السرية ، فليكن هو الدليل إذن لهذه السرية ، وقد نجح فى أن يقطع الصحراء وحده،وكسب الخبرة، فلتتراكم الخبرات إذن، وليكن هو دليل الجيش الإسلامى إلى مصاب سعد ، ممن خبر الطريق ومهر .

الثانى : أسامة بن زيد : الذى بلغ مبلغ الشباب هذا العام ، فأصبح عمره خمسة عشر عامًا ، وهو حب رسول الله ﷺ وابن حبه زيد ، ورسول الله ﷺ يرعاه شبرًا فشبرًا ، وذراعًا فذراعًا ، حتى بلغ اليوم مبلغ الرجال ، وليرم به فى قلب الموت ، وفى أتون الجهاد ، فهنا مصانع الرجال ، ولا مصنع أبدع وأضخم من هذا المصنع ، فانضم أسامة ﷺ لهذه السرية وهو يتوقد شوقًا ، ويتحرق أملاً أن يجاهد فى سبيل الله ، ولم يكن أسعد منه يوم أن انضم إلى هذه السرية وبلغ مبلغ الرجال .

وقد توضحت لنا من خلال السرية السابقة الخطة العسكرية التى ينتهجها غالب ، فهى لم تختلف عن سرية الميفعة ، لكنه كان هو الطليعة فى السرية السابقة ، أما هذه

---

(١) ذكر علماء السير هذه السرية فى صفر سنة ثمان ، بينما أوردها الواقدى فى سنة سبع ، وأخذنا برأيه ؛ لأن غالبًا قد مضى فى سرية إلى الكديد فى صفر سنة ثمان ، ولا يعقل أن يجمع بين السريتين فى شهر واحد ، ووافق الواقدى الذهبى .

(فقد بعث علبة بن زيد فى عشرة ، ينظر إلى جماعة محالهم) .

وعلبة هو الخبير الرئيسى ، فهو جندى السرية السابقة سرية بشير ، وهو خبير المحنة نفسها (حتى أوفى على جماعة منهم ثم رجع إلى غالب فأخبره ، فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً ، وقد احتلبوا وعَطّنوا وهدؤوا) .

وإذا كانت خطبة غالب لم تنقل لنا فى السرية السابقة إنما قيل : (فوعظهم ورغبهم فى الجهاد) ، فهنا ينقل لنا الرواة هذه الخطبة القصيرة البليغة :

(أما بعد،فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له،وأن تطيعونى ولا تعصونى، ولا تخالفوا لى أمراً فإنه لا رأى لمن لا يطاع) .

وإذا نقل لنا عن السرية السابقة أنه ألف بينهم فهنا يقول :

(يا فلان أنت وفلان ، يا فلان أنت وفلان : لا يفارق كل رجل زميله ، وإياكم أن يرجع إلىَّ أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك ؟ فيقول : لا أدرى) .

فهذه التثنية فى التوزيع ،تعطى المجال الرحب ليعين الأخ أخاه ، أو ينقل الخبر عنه إن استشهد .

والخطوة الثالثة فى الخطة كما عهدناها تماما فى السرية السابقة:(وإذا كبرت فكبروا).

(قال : فكبَّر وكبروا وأخرجوا السيوف ،قال : فأحطنا بالحاضر ، وفى الحاضر نعَمٌ وقد عطّنوا مواشيهم ، فخرج إلينا الرجال ، فقاتلوا ساعة ، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ، ونحن نصيح بشعارنا : أمِت ، أمِت) .

وأدرك المسلمون ثأرهم من المريين الذين قتلوا المسلمين فى السرية السابقة :

(. . . وحوينا على الحاضر ، وقتلنا من قتلنا ، ومعنا النساء والماشية . . . واستقنا النعم والشاء والذرية ، وكانت سهامهم عشرة أبعرة كل رجل ، أو عِدلها من الغنم ، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم) .

لقد كان فى السرية رجلان من السابقين ، وهما المسؤولان عن تربية وتوجيه هذه السرية، وهذه الطاقات الجديدة، وهما : عقبة بن عمرو أبو مسعود ، وهو من أهل بدر، وكعب بن عُجرة ، وهو من أهل بيعة الرضوان ، وهو الذى كان يتناثر القمل على وجهه وآذاه هوام رأسه، فأفتاه رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه ويفدى فى عمرة الحديبية ، وكان فى قمة الفقر، فها هو يعود اليوم بثروة طيبة من الغزوة، عشرة أبعرة أو عدلها من الغنم، وهذه بداية طيبة إلى جانب ما جاءه من غنائم خيبر من الأرض ، فأصبح فرداً منتجًا فى

المجتمع الإسلامى بعد أن كان عالة عليه ، وذاق مرارة الفقر كما حدثنا بقوله :

(أتيت النبى ﷺ يومًا فرأيته متغيرًا ، قلت : بأبى أنت وأمى ، مالى أراك متغيرًا ؟ قال : « ما دخل جوفى شيء منذ ثلاث » فذهبت فإذا يهودى يسقى إبلاً له ، فسقيت له على كل دلوٍ بتمرة فجمعت تمرًا ، فأتيته به ، فقال : « أتحبنى يا كعب ؟ » قلت : بأبى أنت : نعم . قال : « إن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى معادنه ، وإنه سيصيبك بعدى بلاء فأعد له تجفافًا ») (1) .

فكعب إذن أعدَّ نفسه للفقر ، كما وعده رسول الله ﷺ ثمن حبه للحبيب المصطفى صلوات الله عليه .

ولعل هذه الأبعرة العشرة تعينه على كسب قوته ، وتغنيه عن الناس ، وبقيت لذة ذلك العمل الشاق ترافقه طيلة عمره ، يوم استقى لليهودى كل دلو بتمرة ؛ ليطعم حبيبه الذى ما ذاق شيئًا منذ ثلاث . ويتعلم الدرس الخالد : أن الفقر رفيقه ، ويا مرحبًا بهذا الفقر مع الحب النبوى الخالص .

ولنعد إلى فتانا الناشئ أسامة بن زيد ، ما قصته فى هذه السرية ؟ وهل اكتفى بأمجاده فيها أن ذهب وعاد وصار مع المجاهدين ؟

قال الذهبى عنه : (كان شديد السواد ، خفيف الروح ، شاطرًا ، شجاعًا ، رباه النبى ﷺ ، وأحبه كثيرًا) (2) ، فهو لا يملأ العين والذى لا يعرفه يزدريه .

(فقد ذكر ابن سعد عن . . . هشام بن عروة عن أبيه قال : إن النبى ﷺ أخَّرَ الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره ، فجاء غلام أسود أفطس ، فقال أهل اليمن : إنما جلسنا لهذا ، فلذلك ارتدوا ، يعنى أيام الردة)(3) .

وهذه رواية الواقدى عن بطولة أسامة وخطيئته فى هذه السرية :

(وخرج أسامة بن زيد فى إثر رجل منهم يقال له : نهيك بن مرداس فأبعد . . . فقال أميرنا : أين أسامة بن زيد ؟ فجاء بعد ساعة ، فلامه أميرنا لائمة شديدة ، وقال : ألم تر إلى ما عهدتُ إليك ؟ فقال : إنى خرجت فى إثر رجل جعل يتهكم بى ، حتى إذا

---

(1) رواه الطبرانى ، وقال المحقق فيه : أخرجه ابن عساكر ١٤/٢٧٩ ، وقال فى آخر الحديث : قال الطبرانى : لم يرو هذا الحديث عن كعب بن عجرة إلا موسى بن وردان ، تفرد به ضمام ، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤/١٩١، ١٩٢، ونقل عن شيخه الحافظ أبى الحسن قوله : إسناده جيد. انظر : سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٤ .

(2) المصدر نفسه ٢/٤٩٨ .

(3) المصدر نفسه ٢/ ٥٠٠ وقال فيه المحقق: رجاله ثقات ، وأخرجه البخارى فى التاريخ الكبير عن أسامة بن زيد .

دنوت ولحمته بالسيف قال : لا إله إلا الله ، فقال أميرنا : أغمدتَ سيفك ؟ قال : لا والله ما فعلت حتى أوردته شعوب ، قال : قلنا : والله بئس ما فعلت وما جئت به ، تقتل امرأ يقول : لا إله إلا الله ، فندم وسقط فى يديه) .

وعن أسامة بن زيد قال : إن أميرنا آخى بينى وبين أبى سعيد الخدرى ، قال أسامة: فلما أصبته وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى رأيتنى وما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقبلنى ، واعتنقنى ، واعتنقته ، ثم قال لى : « يا أسامة ، خبرنى عن غزاتك » ، قال : فجعل أسامة يخبره الخبر حتى انتهى إلى صاحبه الذى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : « قتلته يا أسامة وقد قال : لا إله إلا الله ؟ » ، فجعلت أقول : إنما قالها تعوذًا من القتل ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ » قال أسامة : لا أقتل أحدًا يقول : لا إله إلا الله ، قال أسامة : وتمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ .

لقد كان أسامة محط استصغار هذا البطل نهيك بن مرداس للونه وفطاسته وقصره ، وكان مثار ضحكه ، وأراد أسامة هذا أن يلقن هذا البطل درسًا لا ينساه طيلة حياته ، فهجم عليه وهو الشاب الصغير، فدبَّ الذعر فى قلب ذلك البطل ، وفر أمام هذا الفتى أسامة، فهل يكتفى أسامة بالمجد أن يقول : فر البطل من أمامى وانتهى الأمر .

وتذكر أمر أميره ، لكنه يريد أن يخط أول خط من خطوط المجد فى حياته ، أيدع رجلاً يستهزئ به ويمضى ولا يقضى عليه ، فتجاوز أمر قائده ، ولاحق ذلك البطل ، والبطل يجرى أمامه حتى أدركه، ورأى البطل المرى الموت الزؤام بين عينيه، وهو يعلم أن شعار لا إله إلا الله ينجيه، فقال : لا إله إلا الله، لعل هذا الفتى يرجع ، فقد أرغم أنفه بالذل أن فرَّ أمامه وهو الأسود الأفطس القصير الصغير الذى كان مثار هزئه وسخريته.

ولكن أسامة الواعى لن تنطلى عليه ألاعيب هذا البطل ، ولعلها تتمة التهكم السابق إذ يضحك عليه ويعتبره ساذجًا فيرجع عن قتله بقول : لا إله إلا الله،وكان أسامة رضي الله عنه يرى أنه لابد من عمل جليل حاسم فى هذه المعركة يرفع صفحته عاليًا عند حبيبه المصطفى ، فيثبت كفاءته القتالية العالية ، ولا يكون مجال تندر القوم ، ودلالهم بصفته حب رسول الله ﷺ ، فطعنه برمحه وأرداه قتيلاً ، وشفى واشتفى ، وعاد مظفرًا منصورًا قاهرًا للبطل الهمام فى المعركة .

يدلنا على بطولة القتيل ما نلقاه فى رواية مسلم للحادثة :

(عن جندب بن عبد الله البجلى . . . أن رسول الله ﷺ بعث بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وأنهم التقوا ، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل

من المسلمين قصد له فقتله ، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته ـ قال : وكنا نحدّث أنه أسامة بن زيد ـ فلما رفع عليه السيف قال : لا إله إلا الله فقتله ، فجاء البشير إلى النبى ﷺ فسأله فأخبره ، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع ، فدعاه فسأله، فقال: « لم قتلته ؟ » قال: يا رسول الله، أوجع فى المسلمين ، وقتل فلانًا وفلانًا ، وسمى له نفراً، وإنى حملت عليه ، فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ : «أقتلته ؟ » قال : نعم ، قال : « فكيف تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : يا رسول الله ، استغفر لى ، قال : « وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : فجعل لا يزيده على أن يقول : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ »[1] .

فبطولة الرجل وقتله فى المسلمين قتلاً ذريعًا هى الدافع الآخر لدى أسامة ، بل لعله الدافع الأول لصحة رواية مسلم على غيرها فى قتله هذا الرجل .

إن صانعى المجد حين يقَوِّمون عمل أسامة ، يضعونه فى مصاف الأبطال ، فهو ابن الخامسة عشر من عمره ، يقتل بطلاً فاتكًا ،ويضعونه فى مصاف العباقرة على هذا السن، إذ لم تفت عليه لعبة البطل أن يستغل لا إله إلا الله لينقذ نفسه من القتل ، ويسطرون له أروع الأمجاد ، ولو كانت هذه الحادثة فى أيام العرب فى الجاهلية ، لرفعته هذه الحادثة وحدها إلى مصاف القادة السادة فى قومه .

أما عند صانعى الإيمان ، وحملة العقيدة ، فتختلف القضية ـ كما يقولون ـ مائة وثمانين درجة .

إن القتل ليس هدفًا أبدًا بحد ذاته ، كما هو الحال عند هواة المجد ، إن القتل وسيلة لدفع الكفر أو عقوبة على الكفر ذاته ، أما وقد قال: لا إله إلا الله ، فيصبح القتل جريمة يعاقب عليها القاتل ؛ لأن الهدف من الجهاد كله هو أن تعلو كلمة لا إله إلا الله ، وقد علت ،فلا تُخفض بالقتل ، ولا يقضى عليها حين يعرف العدو أنها لا تعصم من القتل .

ومن أجل ذلك كانت التربية قاسية وشديدة وعنيفة لأسامة فى أول تجربة يخوضها فى حياته من حبيبه المصطفى ﷺ، فلم تبرق أساريره، ولم يزغرد عليه الصلاة والسلام، وقد غدا حِبّه ابن الخامسة عشرة قاتلاً للبطل الفاتك، إنما راح يؤنبه ثانية وثالثة ، ورابعة:

« كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » .

وما أحوج الحركات الإسلامية التى تبنت المواجهة المسلحة إلى أن تصغى إلى هذا

---

(١) مسلم ٩٦/١، ٩٧، ح (١٦٠) .

الدرس ، وقد تلقاه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ الحب ابن الحب ، ولم يشفع له سنه الصغير ، ولم يشفع له حبه ، ولم تشفع له بطولته من هذا التقريع والتأنيب ؛ لأنه قتل من يقول : لا إله إلا الله الذى قتل العديد من المسلمين ، والذى تهكم بأسامة وآذاه واستخف به ، كل هذه لم تشفع أمام لا إله إلا الله التى قالها ، فعصمته من القتل .

حتى إن أسامة قبل أن يتلقى تأنيب نبيه ، تلقى تأنيب أميره :

والله بئس ما فعلت وما جئت به ، تقتل امرأ يقول : لا إله إلا الله .

ولم يمنع موقع أسامة وحب رسول الله ﷺ أن يوجِّه له هذا التأنيب القارع ، والله بئس ما فعلت وما جئت به، فالوساطة والدلال، والمحاباة لن تكون على حساب العقيدة، خاصة وقد خالف الأمر الأول فأمعن فى الطلب ، وترك زميله وحده ، والأصل ألا يتركا بعضهما أبداً .

ولم يتطاول الفتى المدلل المحبوب على أميره ، ويرد له الكلام الصاع صاعين ، فهو تربية بيت النبوة ، وتربية هذه العقيدة الشامخة إنما (ندم ، وسقط فى يديه) .

وفى الرواية الثانية عنه:(فلما أصبته وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى رأيتنى وما أقدر على أكل الطعام) .

وتجمع الروايات كلها على مستوى الندم الذى أصابه بعد تقريع رسول الله ﷺ على قوله : « وتمنيت ألا أكون أسلمت إلا يومئذ » .

أى تمنى أن تكون صفحته فى الإسلام بيضاء ليس فيها هذا الذنب العظيم الذى يلوثها .

ورواية البخارى :

(بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة (١)، فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصارى ، فطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا، بلغ النبى ﷺ فقال : « يا أسامة ، أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟ » قلت : كان متعوذًا ، فما زال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت

---

(١) اختلفت الروايات فى السرية التى تم فيها القتل ، فقد عنون البخارى لها : باب بعث النبى ﷺ إلى الحرقات من جهينة ، ويوحى هذا العنوان أنه كان أمير السرية ، بينما ذكر أهل المغازى أن هذا القتل كان فى سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة فى رمضان ، أى فى السرية السابقة على هذه السرية . ورأى الواقدى أن هذا فى هذه السرية ـ إلى بنى مرة بفدك ، حيث كان مصاب بشير بن سعد وكما يقول ابن حجر : (فإن =

قبل ذلك اليوم) (١) .

وحتى تتضح أبعاد القتل بعد لا إله إلا الله ، نعرض لحديث المقداد بن الأسود الذى رواه مسلم ـ رحمه الله : (عن عبيد الله بن عدى بن الخيار عن المقداد بن الأسود ، أنه أخبره أنه قال :

يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلنى فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ، ثم لاذ منى بشجرة فقال : أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا تقتله » قال : فقلت : يا رسول الله، إنه قطع يدى ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله ﷺ :

« لا تقتله ، فإن قتلته ، فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال ») (٢) .

عودة بشير بن سعد إلى الساحة :

لقد كانت هذه السرايا مشتبكة مع بعضها البعض وخلال ثلاثة أشهر هى شعبان ورمضان وشوال ، بل شهد شهر شعبان ثلاث سرايا منها ، وإذا كان نجم غالب بن عبد الله الليثى قد سطع ،فهل يمكن أن تكون نهاية بشير بن سعد رضي الله عنه هذه النهاية المأساوية ؟ مع أنه استبسل وقاتل حتى آخر رمق ، وكان المعد لسريته أن تكون مثل سرية الصديق وسرية عمر بن الخطاب اللتين اتجهتا إلى تربة وضرية من عجز هوازن وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، حيث اتجه هو فى الشهر نفسه إلى بنى مرة الغطفانيين فى فدك ، وكان عدد السرايا الثلاثة متقاربًا ، حيث حققت السريتان هدفهما وأصيبت الثالثة، وأراد رسول الله ﷺ أن يرتفع قياديًا لمصاف القادة العظام مثل أبى بكر وعمر .

وما أحوجنا إلى أن نفقه هذا الدرس العظيم فى السرية الجديدة التى أوكلت قيادتها لبشير بن سعد بعد أن تماثل إلى الشفاء،وهو صاحب الماضى العريق فى الجاهلية والإسلام.

(أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال :

- ثبت أن أسامة كان أمير الجيش فالذى صنعه البخارى هو الصواب؛لأنه ما أُمِّر إلا بعد قتل أبيه بغزوة مؤتة وذلك فى رجب سنة ثمان ، وإن لم يثبت أنه كان أميرها رجح ما قال أهل المغازى) فتح البارى ٧/٥١٨ . ويمكن الجمع بين الروايات من خلال ما ذكر أهل المغازى أنه كان فى السرية التى اتجهت إلى بنى مرة قرب فدك ، ومواقعهم قريبة من جهينة ، وأن نهيك بن مرداس الذى قتله أسامة هو حليف لبنى مرة من الحرقات من جهينة،كما فى رواية ابن إسحاق عن يونس بن بكير التى رواها الذهبى فى مغازيه ، ص ٤٤٩ (بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبى كلب ليث إلى أرض بنى مرة ، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليف لهم من الحرقة فقتله أسامة . . .) .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٥١٧ ح(٤٢٦٩) .

(٢) مسلم ١/٩٥ ح (١٥٥) .

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد سرية فى ثلاثين رجلاً إلى بنى مرة بفدك فى شعبان سنة سبع ، فلقيهم المريون فقاتلوا قتالاً شديدًا فأصابوا أصحاب بشير ، وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير قتالاً شديدًا حتى ضُرِبَ كعبه ، وقيل : قد مات ، فلما أمسى تحامل إلى فدك فأقام عند يهودى بها أيامًا ثم رجع إلى المدينة .

أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا يحيى بن عبد العزيز عن بشير بن محمد بن عبد اللهِ بن زيد قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد فى سرية فى ثلاثمائة إلى يمن وجبار بين فدك ووادى القرى ، وكان بها ناس من غطفان قد تجمعوا مع عيينة بن حصن الفزارى، فلقيهم بشير ففض جمعهم وظفر بهم وقتل وسبى وغنم، وهرب عيينة وأصحابه فى كل وجه ، وكانت هذه السرية فى شوال سنة سبع)[1] .

فقد أعاد رسول الله ﷺ بشير بن سعد إلى الساحة نفسها التى أصيب فيها إلى ما بين فدك ووادى القرى ، وإلى العدو نفسه غطفان التى أصيب معها ومع أخطر عدو وأكبر قائد للعدو ، مع عيينة بن حصن الفزارى ، ولكن كتيبة اليوم هى ثلاثمائة عوضًا عن ثلاثين .

وحيث إن ابن سعد نقل لنا عن الواقدى بعض أنباء هذه السرية ، فنعود إلى الواقدى نشهد إضاءات جديدة عليها :

(حدثنى يحيى بن عبد العزيز ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : قدم رجل من أشجع يقال له حُسيل : بن نُويرة وقد كان دليل النبى ﷺ إلى خيبر ، فقال له رسول الله ﷺ : « من أين يا حسيل ؟ » قال : قدمت من الجِناب ، فقال رسول الله ﷺ: « ما وراءك ؟ » قال : تركت جمعًا من غطفان بالجِناب قد بعث إليهم عيينة يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم ، فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعًا ، وهم يريدونك أو بعض أطرافك ، قال : فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فذكر لهما ذلك ، فقالا جميعًا : ابعث بشير بن سعد ، فدعا رسول الله ﷺ بشيرًا ابن سعد ، وعقد له لواءً وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا بالنهار ، وخرج معهم حسيل بن نويرة دليلاً . . .) .

وفى كل مكان لرسول الله ﷺ عيون تنقل له أنباء تحركات العدو ، وحسيل بن نويرة ، هو القادم اليوم من الجناب حيث يتجمع العدو ويعبئ قوته، فكيف صار حسيل فى الصف المسلم وانضم إليه ؟

يروى لنا رضي الله عنه ذلك فيقول :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٣١ ، ٥٣٢ .

(قدمت المدينة فى جلب أبيعه فأُتِى بى رسول الله ﷺ فقال :

« يا حسيل،هل لك أن أعطيك عشرين صاع تمر ، على أن تدل أصحابى على طريق خيبر ؟ » ففعلت فأعطانى ـ فذكر القصة ـ فقال : فأسلمت . . .) (١) .

فقد اختاره رسول الله ﷺ ابتداءً ليكون دليله إلى خيبر ، وأعطاه عشرين صاعًا من تمر ، وصاحب الجيش وهو مشرك ، ونتيجة لهذه المعايشة أشرق قلبه بالإسلام ،وبقى فى قومه أشجع .

وحين رأى هذا الجمع من العدو مضى مسرعًا إلى المدينة ليخبر حبيبه المصطفى بذلك.

ولخطورة الأمر فقد استدعى رسول الله ﷺ الشيخين أبى بكر وعمر يستشيرهما ، وهما أكبر مستشاريه ، فكان رأيهما مواجهة العدو بسرية مناسبة ، واختارا لها بشير بن سعد ﷺ ، فهو زميلهما الثالث فى سرايا شعبان ، وهو المؤهل للمواجهة واستعادة الثقة بقيادته وكفاءته ، وكان ذلك .

وكل ما أعطاه رسول الله ﷺ من الخطة هو أن يسير بالليل ويكمن بالنهار ، وبعث معه حسيل بن نويرة دليلاً وهو الماهر الخريت فى الطريق ، فهو المجرب فى خيبر ، وهو القادم من الجِناب موقع تجمعات العدو .

وهذه صورة المعركة كما وصفها لنا رواة الواقدى :

(فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا أسفل خيبر فنزلوا بسلاح (٢)، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم،فقال لهم الدليل: بينكم وبين القوم ثلث نهار أو نصفه ، فإن أحببتم كمنتم ، وخرجت طليعة لكم حتى آتيكم بالخبر وإن أحببتم سرنا جميعًا ، قالوا : بل نقدمك ، فقدموه ، فغاب عنهم ساعة ثم كرٍّ عليهم فقال : هذه أوائل سرحهم فهل لكم أن تغيروا عليهم ؟ فاختلف أصحاب النبى ﷺ فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرنا الرجال والعَطَن ، وقال آخرون:نغنم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم ، فشجعوا على النَّعَم ، فأصابوا نَعَمًا كثيرًا ملؤوا منه أيديهم ، وتفرّق الرعاء وخرجوا سراعًا ، ثم حذّروا الجمع فتفرق الجمع وحذروا ، ولحقوا بعلياء بلادهم ، فخرج بشير حتى أتى محالهم فيجدها وليس بها أحد،فرجعوا بالنعم ، حتى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عينًا لعيينة فقتلوه ، ثم لقوا جمع عيينة ، وعيينة لا يشعر بهم فناوشوهم ثم انكشف جمع عيينة وتبعهم

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١/ ٢/ ١٤ ت (١٧١٦) .

(٢) سلاح : موقع أسفل من خيبر .

أصحاب النبى ﷺ ، فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً ، فقدموا بهما على النبى ﷺ فأسلما ، فأرسلهما النبى ﷺ) (١) .

وها هو بشير بن سعد يعود الآن إلى المدينة مظفراً منصوراً ميمون النقيبة ، وليس غارقًا بجراحه كما عاد من قبل، ويأتى ومعه الغنائم الكبيرة من النعم والشاء، ولكن أضخم هذه الغنائم هو هذين الأسيرين من غطفان .

وبدل أن يقتلهما رسول الله ﷺ ، دعاهما إلى الإسلام فأسلما فأرسلهما ، فكانا بذلك أول نواة للإسلام فى غطفان ، ويستطيع عليه الصلاة والسلام أن يعلم منهما أسرار هذا العدو كله، لكن ماذا يحقق بهما لو قتلهما بعد الأسر ؟ إن الهدف الحيوى يبقى ماثلاً فى ذهن القائد المصطفى ﷺ ، والقتل هو الحل الأخير عنده وليس الحل الأول . إن إحياء هذه النفوس بالإسلام ، والأخذ بحجزها عن النار هو رسالة الرسول ﷺ إلى الخلق كافة، وإشراق هذه القلوب بالإسلام يعنى أنها أصبحت كالغيث أصاب أرضًا نقية، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وما أحوج رسول الله ﷺ إلى عين له داخل غطفان يعطيه أولاً بأول كل تحركات هذا العدو الشديد الماكر .

عيينة بن حصن على وشك السقوط :

ونتابع مع الواقدى أخبار عيينة الذى رأيناه قد فر من المواجهة عندما انكشف جمعه، فيلقاه حليفه وصديق الأمس وشريكه فى الخندق الحارث بن عوف المرى ، والذى سبق أن تحدثنا عن أصالة معدنه ، وحرصه على إنهاء الحرب مع رسول الله ﷺ ، لكنه يريد أن يوحد موقف غطفان كلها بهذا الاتجاه ، وعيينة هو رأس الحية التى لا تهدأ ليل نهار فى إشعال أوار هذه الحرب .

(وكان الحارث بن عوف المرى حليفًا لعيينة ولقيه منهزمًا على فرسٍ له عتيق يعدو به عدوًا سريعًا ، فاستوقفه الحارث فقال : لا ، ما أقدر ، الطلب خلفى، أصحاب محمد، وهو يركض ، قال الحارث بن عوف : أما لك بعد أن تبصر ما أنت عليه ؟ إن محمداً قد وطئ البلاد ، وأنت موضع فى غير شىء .

قال الحارث : فتنحيت عن سنن خيل محمد حتى أراهم ولا يرونى ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ، ما أرى أحداً ، وما طلبوه إلا الرعب الذى دخله ، قال: فلقيته بعد ذلك ، فقال الحارث : فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ما رأيت من طلب ، قال عيينة : هو ذاك ، إنى خفت الإسار، وكان أثرى عند محمد ما تعلم فى كل موطن.

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٨ .

قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمرًا بينًا فى بنى النضير ، ويوم الخندق ، وقريظة ، وقبل ذلك قينقاع ، وفى خيبر إنهم كانوا أعز يهود ، الحجاز كله ، يقُرُّون لهم بالشجاعة والسخاء ، وهم أهل حصون منيعة ، وأهل نخل ، والله إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم ، لقد سادت حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من الناس ، ثم رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أديل عليهم .

فقال عيينة : هو والله ذاك ، ولكنً نفسى لا تقرنى .

قال الحارث : فادخل مع محمد، قال: أصير تابعًا ، قد سبق إليه قوم فهم يزرُون(١) بمن جاء بعدهم يقولون : شهدنا بدرًا وغيرها ، قال الحارث : وإنما هو على ما ترى ، فلو تقدمنا إليه لكنا من علية أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادعة وهو موقع بهم وقعة ما وطئ له الأمر .

قال عيينة : أرى والله .

فاتعدا يريدان الهجرة والقدوم على النبى ﷺ) .

ونجح الحارث فى مهمته بعد حوار عميق مع عيينة ، حيث أدرك أعماق نفسه ، ووضعه فى صورة الحجاز تمامًا ، وأنه لا يستطيع وحده أن يناوئ محمدًا ، وهو قد فرً منه الآن ، مذعورًا خائفًا الأسر ، فقد جاءه فى ذلك الوضع النفسى المتأزم ، وكل الذى يخشاه عيينة أن يصير تابعًا بعد هذه الزعامة الكبرى على غطفان ، فزحزح الحارث هذه القناعة عند عيينة بأن الانضمام إليه الآن يجعله من علية أصحابه ، وكلما تأخر الزمن كلما فاتت الفرصة ، وإذا كانت قريش قد وادعته ، وخيبر قد وطئها بسنابك خيله ، فماذا يفيد العناد ؟ كان من الممكن أن يمضى الزعيمان الغطفانيان ، ويعلنا إسلامهما لولا قدوم سيد بنى عامر قرة بن هبيرة القشيرى عليهما ، وهو من أكبر حلفائهما فى نجد .

(إلى أن مر بهما قرة (٢) بن هبيرة القشيرى يريد العمرة وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان ، قال قرة : لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه فى هذه المدة التى هم فيها وآتيكم بخبرهم .

فهذه القبائل الكبرى تريد أن تعيد الحرب جذعة من جديد ، ولن يصاول محمدًا

---

(١) يزرون : يستصغرون .

(٢) المذكور فى النص : « فروة » ، وهذا خطأ وهو محرف عن قرة . انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٢٨٩ .

مثل قومه ، فحال قرة دون مسير سيدى غطفان إلى المدينة ، ومضى قرة حتى قدم مكة فتحَسَّبَ من أخبارهم ، فإذا القوم على عداوة النبى ﷺ لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبدًا) .

وأراد قرة أن يشكل حلفًا جديدًا ينضم فيه بنو عامر بن صعصعة إلى قريش وغطفان من جديد ؛ لإحياء المواجهة السابقة (قال قرة : وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمحمد ، قالت قريش : فما الرأى فأنت سيد أهل الوبر ؟ قال : نقضى[1] هذه المدة التى بينكم وبينه ، ونستجلب العرب).

وتحرك العدو اللدود الرابع سيد بنى بكر نوفل بن معاوية الديلى ، عندما سمع بوصول قرة إلى مكة (ويسمع به نوفل بن معاوية الديلى فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش ، فقال نوفل : إذا لأجد عندكم شيئًا : قدمت الآن لمقدمك حيث بلغنى ، ولنا عدو قريب داره، وهم عيبة نصح محمد لا يفيؤون عنه حرفًا من أمورنا، قال : من هم ؟ قال : خزاعة قال : قبحت خزاعة ، قعدت بها يمينها ، قال قرة : فماذا ؟ قال : استنصر قريشًا أن يعينونا عليهم ، قال قرة : فأنا أكفيكهم ، فلقى رؤساءهم : صفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وسهيل بن عمرو فقال : ألا ترون ما نزل بكم ، إنكم رضيتم أن تدافعوا محمدًا بالراح ، قالوا : فماذا نصنع ؟ قال : تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم ، قالوا : إذن يغزونا محمد فى ما لا قبل لنا به ، فيوطئنا غلبة ، وننزل على حكمه ، ونحن الآن فى مدة وعلى ديننا ، فلقى نوفل بن معاوية فقال : ليس عند القوم شيء) .

ولن ينجح الحلف ما لم تكن قريش العنصر الرئيسى فيه ، وقد نجحت محاولة نوفل الماكرة بعد عام كامل من هذا العرض ؛ حيث استطاع أن يقنع بعض قيادات قريش بمعونته فى الغدر بخزاعة ، ووقع ما توقعته هذه القيادات ، أن غزاهم محمد بما لا قبل لهم به ، ووطئهم غلبة ، ونزلوا على حكمه ، ورأى قرة الطريق مسدودًا أمامه ؛ لخوف قريش المهزومة نفسيًا قبل أن تهزم عسكريًا فى حربها مع رسول الله ﷺ (ورجع فلقى عيينة والحارث، فأخبرهم وقال: رأيت قومه قد أيقنوا عليه ، فقاربوا الرجل ، وتدبروا الأمر، فقدَّموا رِجْلاً وأخروا أخرى) ، وبقى عيينة بن حصن فى صراع نفسى ، لم يلق عصا المقاومة ، وهو يعرف أنه مأخوذ ، فقد فرَّ مذعوراً من كتائب محمد ﷺ ، ولم ينجه إلا فرسه السبوح .

---

(١) المرجح أن : « نقضى » محرفة عن نقطع ؛ لأنه لا يعقل أن يعرض عليهم المكوث عشر سنين، لينتهى عن الحديبية، ثم يدعو إلى الحرب ، ولكنه يدعو إلى نقض العهد وقطع المدة المقررة للهدنة .

التربية الجماعية فى عمرة القضية

١ ـ (قال ابن إسحاق : خرج النبى ﷺ فى ذى القعدة ـ مثل الشهر الذى صده فيه المشركون ـ معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها)(١) ، وكذلك ذكر موسى ابن عقبة عن ابن شهاب ، وأبو الأسود عن عروة ، وسليمان التيمى جميعًا فى مغازيهم أنه ﷺ خرج إلى عمرة القضاء فى ذى القعدة ، وروى يعقوب بن سفيان فى تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال :

(كانت عمرة القضية فى ذى القعدة سنة سبع) ،وفى مغازى سليمان التيمى:(لما رجع من خيبر بث سراياه،وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة فنادى فى الناس أن تجهزوا للعمرة) ،وقال ابن إسحاق : خرج معه من كان صُدَّ فى تلك العمرة إلا من مات أو استشهد ، وقال الحاكم فى الإكليل : (تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان ، قال : وتسمى أيضًا عمرة الصلح ،قلت : فتحصل من أسمائها أربعة : القضاء والقضية والقصاص والصلح) (٢) .

٢ ـ (وروى وكيع وابن عيينة وابن سعيد ومنصور وعبد بن حميد والبخارى والبيهقى فى سننه عن حذيفة... وابـن جرير عن عكرمة ، ووكيع عن مجاهد ـ رحمهما الله تعالى ـ قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة: ١٩٥]: إن التهلكة ترك النفقة فى سبيل الله،ليس التهلكة أن يُقتل الرجل فى سبيل الله، ولكن الإمساك فى سبيل الله ، أنفق ولو مشقصًا(٣)) (٤) .

(فقال رجال من حاضرى المدينة من العرب :يا رسول الله ، والله ما لنا من زاد ، وما لنا أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله تعالى وأن يتصدقوا ، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا ، فقالوا : يا رسول الله ، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بما كان ولو بشق تمرة ») (٥) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٢٦ . تحقيق الدكتور سهيل زكار .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٥٠٠ .

(٣) المشقص : نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض .

(٤) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٥) المصدر نفسه ٥ / ٢٨٨ .

٣ ـ (قال محمد بن عمر ، وابن سعد : واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة أبا رُهْم . . . الغفارى ﵁ ، وقال ابن هشام : واستعمل عويف ـ ويقال فيه عويث ـ ابن الأضبط ﵁) .

(وقال البلاذرى : استعمل أبا ذر الغفارى ، ويقال : عويف بن الأضبط ـ والله أعلم) [١] .

٤ ـ (قال الواقدى : وحدثنى ابن موهب عن محمد بن إبراهيم بن الحارث قال : ساق رسول الله ﷺ فى القضية ستين بدنة) .

(وحدثنى غانم بن أبى غانم عن عبد الله بن دينار قال : جعل رسول الله ﷺ ناجية ابن جندب الأسلمى على هديه يسير بالهدى أمامه يطلب الرعى فى الشجر ، معه أربعة فتيان من أسلم) [٢] .

(وحدثنى يونس بن محمد عن شعبة مولى ابن عباس قال : قلَّد رسول الله ﷺ هديه بيده)[٣] .

(وحدثنى معاذ بن محمد، عن عاصم بن عمر قال : حمل رسول الله ﷺ السلاح والبيض ، والدروع ، والرماح ، وقاد مائة فرس ، فلما انتهى إلى ذى الحليفة ، قدم الخيل أمامه ، وهى مائة فرس عليها محمد بن مسلمة ، وقدَّم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد ، فقيل : يا رسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لا نُدْخِلها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريبًا منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبًا منا » قيل: يا رسول الله، تخاف قريشًا على ذلك ؟ فأسكت رسول الله ﷺ وقدَّم البُدن)[٤].

٥ ـ (وحدثنى ابن أبى سبرة عن موسى بن ميسرة عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : سلكنا فى عمرة القضية على الفُرع ، وقد أحرم أصحابى غيرى ، فرأيت حمارًا وحشيًا ، فشددت عليه فعقرته ، فأتيت أصحابى فمنهم الآكل والتارك ، فسألت النبى ﷺ فقال : « كل » .

قال أبو قتادة : ثم حج حجة الوداع ، فأحرم من البيداء ، وهذه العمرة من المسجد؛ لأن طريقه ليس على البيداء ، قال ابن واقد : فسار رسول الله ﷺ يلبى ، والمسلمون يلبُّون، ومضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران، فيجد فيها نفرًا من قريش فسألوا

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٨٩ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٢ .

(٣ ، ٤) المصدر نفسه ٢ / ٧٣٣ .

محمد بن مسلمة فقال : هذا رسول الله يصبِّح هذا المنزل غدًا ـ إن شاء الله ـ فرأوا سلاحًا كثيرًا مع بشير بن سعد ، فخرجوا سراعًا حتى أتوا قريشًا ، فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش فقالوا : والله ما أحدثنا حدثًا ، ونحن على كتابنا ومدتنا ، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ ونزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران ، وقَدَّم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، وبعثت قريش مِكرز بن حفص بن الأحنف فى نفرٍ من قريش حتى لقوه ببطن يأجج ورسول الله ﷺ فى أصحابه والهدى والسلاح ، قد تلاحقوا ، فقالوا : يا محمد ، والله ما عُرفت كبيرًا ولا صغيرًا بالغدر ، تدخل بالسلاح الحرَم على قومك وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب ، فقال رسول الله ﷺ : « لا ندخلها إلا كذلك » ، ثم رجع سريعًا بأصحابه إلى مكة فقال : إن محمدًا لا يدخلها بسلاح وهو على الشرط الذى شرط لكم) (1) .

٦ ـ روى الإمام أحمد عن ابن عباس ﷺ قال : لما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران من عمرته بلغ أصحابه أن قريشًا تقول : ما يتباعثون من العجف(2) ، فقال أصحابه : لو انتحرنا من ظهرنا (3) فأكلنا من لحمه،وحسونا(4) من مرقه ، أصبحنا غدًا حين ندخل على القوم وبنا جمامة (5) ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعلوا ، ولكن اجمعوا إلىَّ من أزوادكم » .

فجمعوا له وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا ، وحشا كلٌّ واحد فى جرابه)(6) .

٧ ـ (قال ابن عباس ﷺ :قدم رسول الله ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذى الحجة، ولما جاء مكرز قريشًا بخبر رسول الله ﷺ ، استنكف رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظًا ، وحنقًا(7) ، ونفاسة(8) ، وأمر رسول الله ﷺ بالهدى أمامه حتى حبس بذى طوى ، ودخل رسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به ، قد توشحوا السيوف يلبون ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طوى(9)، وقف على راحلته والمسلمون حوله ، ثم دخل الثنية التى تطلعه على الحجون)(10) .

٨ ـ وروى البخارى ـ تعليقًا ـ وعبد الرزاق ، والترمذى ، والنسائى ، وابن حبان عن أنس ﷺ ، وابن عقبة عن الزهرى ، وابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر بن

---

(1) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٣، ٧٣٤ .
(2) العَجَف : الضعف .
(3) من ظهرنا : من دوابنا التى نركبها .
(4) حسونا : شربنا .
(5) الجمامة : البقية من القوة .
(6) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٠٥ .
(7) الحنق : الغيظ .
(8) النفاسة : الحسد .
(9) ذى طوى : واد قرب مكة .
(10) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩١ .

عمرو بن حزم : (أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام القضية على ناقته ، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمامها ، وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله	نحن ضربناكم على تأويله
ضربًا يزيل الهام[1] عن مقيله[2]	ويذهل الخليل عن خليله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله	فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله [3]	إنى رأيت الحق فى قبولهِ

فقال عمر بن الخطاب : يا بن رواحة ، بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تعالى تقول الشعر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خلٍّ عنه يا عمر ، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل » ، وفى رواية : « يا عمر ، إنى أسمع » ، فأسكتَ عُمر ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بن رواحة ، قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » . فقالها الناس كما قالها) [4] .

٩ ـ روى الإمام أحمد والشيخان وابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم [5] حمى يثرب ، فقال المشركون : إنه يقدم غدًا قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا فيها شدة ، فجلسوا على قعيقعان [6] مما يلى الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه على ما قالوا : فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع[7] بردائه، وأخرج عضده الأيمن ثم قال : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » وفى رواية : «أروهم ما يكرهون » وأمرهم أن يُرملوا [8] ثلاثة أشواط [9] ،ويمشوا بين الركنين ، ليرى المشركون جلدهم[10] ، ثم استلم الركن، وخرج يهرول وأصحابه، حتى إذا واراه البيت منهم، واستلم الركن (اليمانى) مشى حتى استلم الركن (الأسود) ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط، ومشى سائرها ، قال ابن عباس : ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم، فقال المشركون :هؤلاء الذين زعمتم أن الحمَّى قد وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا ، ما يرضون بالمشى ، أما إنهم لينقزون [11] نقز الظبى ، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) الهام : جمع هامة وهى الرأس هنا .
(٢) مقيله : هنا عنقه ،مستعارة من القائلة .
(٣) بقيله : بقوله .
(٤) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩١، ٢٩٢ .
(٥) وهنتهم : أضعفتهم .
(٦) قعيقعان : جبل بمكة .
(٧) اضطبع : جعل وسط الثوب تحت الإبط اليمنى .
(٨) رمل : هرول .
(٩) الأشواط : الجرى إلى الغاية .
(١٠) جلدهم : قوتهم وصبرهم .
(١١) نقز : وثب .

يكايدهم كلما استطاع)[(١)] .

وروى الحميدى والبخارى والإسماعيلى ،عن عبد الله بن أبى أوفى ﷺ قال:(لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ، (وفى رواية) : من السفهاء والصبيان مخافة أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، وروى يونس بن بكير - رحمه الله تعالى - عن زيد بن أسلم - رحمهما الله تعالى - أن رسول الله ﷺ دخل عام القضية مكة ، فطاف على ناقته ، واستلم الركن بمحجنه ، قال ابن هشام وابن سعد : من غير علة ، والمسلمون يشتدون حول رسول الله ﷺ وابن رواحة يقول الرجز السابق)[(٢)] .

١٠ - وحدثنى إبراهيم بن إسماعيل ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : (طاف رسول الله ﷺ بالبيت ،وبين الصفا والمروة على راحلته،فلما كان الطواف السابع عند المروة عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة فقال رسول الله ﷺ : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » ، فنحر عند المروة ، وقال ابن واقد : وكان قد اعتمر مع النبى ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحروا ، فأما من كان شهد الحديبية ، وخرج فى القضية ، فإنهم شركوا فى الهدى)[(٣)] .

حدثنى يعقوب بن محمد ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى صعصعة ، عن الحارث بن عبد الله ، عن أم عُمارة قالت : (لم يتخلف عن رسول الله ﷺ أحد من أهل الحديبية إلا اعتمر عمرة القضية ، إلا من مات أو قتل ، فخرجت ونسوة معى فى الحديبية ، فلم نصل إلى البيت ، فقصَّرْن من أشعارهن بالحديبية ، ثم اعتمرن مع النبى ﷺ قضاء لعمرتهن ، ونحر رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة ، وكان ممن شهد الحديبية وقتل بخيبر ولم يشهد القضية : ربيعة بن أكثم ، ورفاعة بن مسروح ، وثقف بن عمرو، وعبد الله بن أبى أمية بن وهب الأسدى ، وأبو صياح ، والحارث بن حاطب ، وعدى ابن مرارة بن سراقة ، وأوس بن حبيب ، وأنيف بن وائل ، ومسعود بن سعد الزرقى ، وبشر بن البراء ، وعامر بن الأكوع) [(٤)] .

(حدثنى حزام بن هشام عن أبيه أن خراش بن أمية حلق رأس رسول الله ﷺ عند المروة) [(٥)] .

١١ - حدثنى إبراهيم بن إسماعيل ، عن داود بن الحصين قال : لم يدخل رسول الله ﷺ الكعبة فى القضية فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ فأبوا وقالوا : لم يكن من

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٥٠٨ ح (٤٢٥٦) ، والسيرة لابن هشام ٢/ ٨٢٦ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٣ . (٣) المغازى ٢/ ٧٣٦ .
(٤ ، ٥) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٧ .

شرطك ، وأمر بلالاً فأذن فوق الكعبة يومئذ مرة ولم يعد بعده ، وهو الثبت) (١) .

(وروى البخارى عن إسماعيل بن أبى خالد أن رجلاً سأل ابن أبى أوفى : كان رسول الله ﷺ دخل فى القضية الكعبة ؟ قال : لا)(٢) .

١٢ ـ فى الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه (أن الأجل لما مضى أتى المشركون عليًا رضي الله عنه فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل(٣)، فذكر ذلك على رضي الله عنه لرسول الله، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع بالرحيل، وقال : « لا يمسين بها أحد من المسلمين »، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بسرف وتتام الناس ، وخلف رسول الله ﷺ أبا رافع ليحمل له زوجته ميمونة حين يمسى، فأقام أبو رافع حتى أمسى، فخرج بميمونة ومن معها، ولقيت من سفهاء مكة عناءً)(٤) .

حدثنى عبد الله بن محمد قال : فلما كان عند الظهر يوم الرابع أتى سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى ، ورسول الله ﷺ فى مجلس من مجالس الأنصار يتحدث معه سعد بن عبادة فقال: قد انقضى أجلك فاخرج عنا ، فقال النبى ﷺ : « وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعامًا ؟ » فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا ، ننشدك الله يا محمد ، والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ، فهذه الثلاث قد مضت ، وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيتًا ، وضربت له قبة من الأدم بالأبطح ، فكان هناك حتى خرج منها ، لم يدخل تحت سقف بيت من بيوتها ، فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبى ﷺ ، فقال لسهيل : كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها ، إلا طائعًا راضيًا، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « يا سعد ، لا تؤذ قومًا زارونا فى رحالنا » ، قال : وأسكت الرجلان عن سعد ، ثم أمر رسول الله ﷺ أبا رافع بالرحيل ، وقال : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » ، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل سِرف ، وتتامَّ الناس ، وخلَّف أبا رافع ليحمل إليه زوجته حين يمسى ، وأقام أبو رافع حتى أمسى ، فخرج بميمونة ومن معها ، فلقوا عناءً من سفهاء المشركين ، آذوا بألسنتهم النبى ﷺ ، وقال لها أبو رافع ـ وانتظر أن يبطش أحد منهم فيستخلى به فلم يفعلوا : ألا إنى قد قلت لهم : (ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح ببطن يأجج ، وإذا الخيل قد قربت فوقفت لنا هنالك والسلاح ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضوا

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٨ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٤ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٩٩ ح (٤٢٥١) .
(٤) سبل الهدى والرشاد/ ٢٩٥، ٢٩٦ .

نسكهم ، ففعلوا ، فلما انتهينا إلى بطن يأجج ساروا معنا ، فلم نأت سرف حتى ذهب عامة الليل ، ثم أتينا سرف ، فبنى بها رسول الله ﷺ ، ثم أدلج حتى قدم المدينة)[1] .

١٣ ـ روى الشيخان عن البراء بن عازب ، والإمام أحمد[2] عن على ، ومحمد بن عمر ،عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ابن عباس :(إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ـ وقيل : اسمها أمامة ،قال الحافظ : وهو المشهور ـ وأمها سلمى بنت عميس ، كانت بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ مكة ، كلَّم على بن أبى طالب رسول الله ﷺ فقال : علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهرانى المشركين ، فلم ينهه رسول الله ﷺ فخرج بها .

وقال البراء : إن رسول الله ﷺ لما خرج تبعته ابنة حمزة تنادى: يا عمى، يا عمى، فتناولها على فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة رضي الله عنها : « دونك ابنة عمك » ، فاختصم فيها زيد وعلى وجعفر ـ أى بعد أن قدموا المدينة كما سيأتى ـ وكان زيد وصى حمزة ، وكان رسول الله ﷺ قد واخى بينهما حين آخى بين المهاجرين ، فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين ، وقال جعفر : بنت عمى وخالتها أسماء بنت عميس تحتى ، وقال زيد : بنت أخى ، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » ، وقال لعلى : « أنت منى وأنا منك » ، وفى حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « أما أنت يا على فأخى وصاحبى » ، وقال لجعفر : « أشبهت خَلقى وخُلقِى » ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، وفى حديث ابن عباس : « أنت مولى الله ورسوله » .

قال محمد بن عمر : فلما قضى بها رسول الله ﷺ ، قام جعفر فحجل حول رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جعفر ؟ » قال : يا رسول الله ، كان النجاشى إذا أرضى أحداً قام فحجل) .

* * *

١ ـ عاد المسلمون من الحديبية بنفوس منكسرة ، وقلوب مكلومة ، أن صدوا عن المسجد الحرام ، وحيل بينهم وبين العمرة إلى بيت الله الحرام ، وعلى طريق العودة تنزل وحى الله تعالى بهذا الفتح المبين رغم عودتهم خائبين ، لكنهم عاشوا مع موعود الله ـ عز وجل ـ لهم.

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٣٨ .

(٢) فتح البارى ٧/٤٩٩ من ح (٤٢٥١) ، ومسند أحمد ١ / ٩٨ ، ١٠٨ .

رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح].

وشهدوا الفتح القريب فى خيبر والمغانم الكثيرة التى أخذوها ، وراحوا ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتى العام القابل الذى يفتح فيه المشركون أبواب مكة على مصراعيها لدخول المسلمين ، ووعد الله تعالى لهم أنهم سيدخلون آمنين لا يخافون ، وأصبحت مكة تعيش فى قلوبهم وأرواحهم صباح مساء ، فى انتظار انسلاخ العام حتى يكحلوا أعينهم برؤية بيت الله الحرام ، فقد رأوه فى المنام كثيرًا ، وهم يطمحون اليوم أن يروه بعين اليقظة .

وأهل هلال ذى القعدة ، وصدرت الأوامر النبوية إلى رجال الحديبية ونسائها جميعًا أن يتأهبوا للعودة جميعًا ، ففى أعناقهم قضاء تلك العمرة التى فاتتهم العام الماضى .

لكن الذى يلفت النظر هو هذا العدد الضخم الذى أضيف للمسلمين خلال هذا العام ، فبعد أن كان العدد فى الحديبية ألفًا وأربعمائة أو تزيد قليلاً ، نجد عدد الجيش الإسلامى اليوم يبلغ الألفين أو يزيد ، ومذا يعنى انضمام ستمائة مسلم جديد إلى الصف الإسلامى الذى كانت حصيلته خلال قرابة عشرين عامًا ألفًا وأربعمائة ، بينما يتجاوز فى عام واحد ثلث المسلمين أو يزيد .

وهكذا نرى آثار صلح الحديبية فى فتح القلوب للإسلام ، وتبدد مشاعر الخوف من محالفة المسلمين أو الانضمام لهذا الدين الجديد .

فمن أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيها ، وهذا هو الهدف الرئيسى من الرسالة النبوية إلى الخلق ، أن تفتح القلوب الغلف ، والأعين العمى ، والآذان البكم إلى هذا الدين ، ويغمر نوره الآفاق والأبعاد .

ولعل أكبر أحداث هذا العام على الإطلاق هو هذه الإضافة الجديدة إلى الرصيد الإسلامى المذخور بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بينما نجد بالمقابل أعداد قريش تتناقص ، وشهدنا كيف أن قريشًا رجت رسول الله ﷺ أن يقبل المستضعفين عنده بعد أن حظرت عليهم ذلك بنص ميثاق الحديبية ، وذلك حين استطاع أبو بصير رضي الله عنه وأبو جندل والمسلمون معهم أن ينتزعوا هذا الاعتراف من مكة بقوة السلاح ، بعد أن أصبحت تجارة مكة مهددة بالبوار عن طريق الساحل .

٢ ـ والدرس الجديد الذى تعلمه المسلمون من الحديبية هو أن يأخذوا أهبتهم بسلاحهم الكامل ، فقد كادت تفرض عليهم معركة فى الحديبية ، وبايعوا على الموت ،

وهم لا يملكون إلا سيوفهم، وتبقى السيوف سلاح المسافر فقط . لكنها ليست وحدها آلة الحرب، ومن أجل ذلك صدرت أوامر القائد الأعظم ﷺ أن يتجهز المسلمون بسلاحهم كاملاً ، كما ذكر عاصم بن عمر قال : (حمل رسول الله ﷺ السلاح ، والبيض ، والدروع ، والرماح ، وقاد مائة فرس) .

وكان قائد سلاح الفرسان محمد بن مسلمة ، ومسؤول التسليح بشير بن سعد ، فقد وزعت المسؤوليات بين قائدين من الأوس والخزرج ، وهما من هما خبرة ودراية وقدرة حربية ، وبشير بن سعد شهدنا كيف استعاد اعتباره فى سرية الجناب ، وأوقع بعيينة بن حصن ، وفر منه مذعوراً ، وهو العدو المتربص الذى يحرك غطفان كلها ضد المسلمين ، فقد كان وجود بشير على السلاح كله ، إعلامًا للجيش الإسلامى كله باستعادة بشير بن سعد لاعتباره بعد محنته التى وقعت به مع بنى مرة .

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ قد اختار أن يقدم الفرسان والسلاح أمامه لا أن يخرج الجيش كله مدججًا فى السلاح،فحين يرى العرب أن هؤلاء المعتمرين قد أعدوا سلاحهم، وأخذوا أهبتهم سرعان ما يتبادر إلى الذهن أن رسول الله ﷺ قد نقض العهد .

والتربية النبوية للأمة كلها مشركها ومسلمها تقوم على أساس مراعاة العهود والمواثيق، وحفظ الذمم ، والعرب لا تغفر لمحمد ﷺ نقضه للعهد ، ولو فعل ذلك فقد تتراجع كثير من القبائل عن الإقدام على العهود معه ، خوفًا من أن يغدر بها ، ولابد أن تتعرف العرب على أن هذا النموذج الجديد فى الساحة العربية ، نموذج يحمل القوة ، ويحمل الوعى ، ويحمل الأمانة .

يحمل القوة حين قدَّم سلاحه وفرسانه أمامه ، فلا يجرؤ أحد على مهاجمته .

ويحمل الوعى ، فلا يعرض نفسه للغدر ، ولا يعرِّض نفسه للمواجهة وهو بدون سلاح ، وليس مغفلا بحيث يستدرج إلى معركة بدون سلاح .

ويحمل الأمانة ، فهو لم يغدر ولم ينكث ، ولم يجعل المعتمرين مقاتلين بأهبتهم الكاملة .

والعرب على استعداد أن تنقض فى أى لحظة على محمد ﷺ وهو الذى يحارب عقائدها ، ويسفِّه أصنامها ، ويذكر آلهتها بسوء .

إنها التربية المتوازنة التى تجمع بين العبقرية الحربية ، وعظمة العقيدة والالتزام بها ، ولا تدع الجيش الإسلامى نهبة للموت فى هذه الصحراء المترامية ، وهذه القبائل التى يمر عليها الرسول ﷺ هى القبائل المؤهلة للانضمام إلى الإسلام ، فهى تقدس البطولة ،

وتقدس المروءة ، وإن كانت لا تتقيد فيها فى كثير من الأحيان .

وعلى تقدير أبى سفيان قائد جيش العدو ، أن أكبر طعنة استطاع أن ينفذ فيها إلى النيل من محمد ﷺ عند قيصر هى قوله : (ونحن معه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها)، قال : (ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة)[1] ، ولم يستطع أبو سفيان أن يمسك على محمد ﷺ خلال عشرين عامًا مثلبة واحدة ينال بها منه ، إلا محاولة التشكيك هذه به بين يدى قيصر .

إن الجانب الخلقى للجيش المسلم أهم بكثير من الجانب الحربى ، ولم تعهد البشرية عامة ، ولا العرب خاصة مثل هذه النماذج الربانية التى لا تعرف الحياة سلبًا ونهبًا فحسب، بل تعرفها قيمًا وأخلاقًا ، وبطولة ، واستقامة .

وشهدنا أبعاد حمل السلاح هذا فى الساحة العربية فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول :

هو التربية التى تربى عليها الجيش المسلم كله ، حيث تربى على الوفاء بالعهود والمواثيق سلوكًا وفكرًا ، إذ القرآن الكريم يربيهم على هذه المعانى منذ المرحلة المكية ، ومنذ ولادة الدعوة ، فهذا جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه يعرِّف الإسلام للنجاشى بقوله :

(أيها الملك ، كنا قومًا على الشرك نعبد الأوثان ، ونأكل الميتة ، ونسىء الجوار ، ونستحل المحارم بعضنا من بعض فى سفك الدماء وغيرها ، لا نحل شيئًا ولا نحرِّمه ، فبعث الله إلينا نبيًا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونصل الرحم ، ونحسن الجوار ، ونصلى ونصوم ولا نعبد غيره)[2] .

وعلى ضوء هذه التربية لم يسكت المسلمون حين رأوا رسول الله ﷺ يحمل السلاح (فقيل : يا رسول الله ، حملت السلاح ، وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ؛ السيوف فى القُرب)[3] .

فهم أمناء على دعوتهم ، وهم حملة رسالة الله تعالى إلى العالمين ، فلا يمكن أن يكفوا عن السؤال وهم يعلمون الشرط الذى بينهم وبين قريش ، فهى قمة الوعى لهذا الجيل الفريد فى التاريخ .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنا لا ندخلها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريبًا منا ،

---

(١) البخارى ١/١/٥ ، ٦ .

(٢) السيرة لابن إسحاق ، تحقيق محمد حميد الله ، ص ١٩٥ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٣ .

فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبًا منا » (١) .

واستمرت التربية النبوية الخالدة بهذا المنحى نفسه ، فالشرط سيكون الوفاء به كاملاً ، لكن القيادة الواعية هى التى تحسب لكل أمر أهبته ، وتتوقع كل الاحتمالات الممكنة ، وتتصرف على ضوء هذه الاحتمالات ، فما الذى يمنع قريشًا أن تبيِّت خطة غدر للمسلمين وهم عزل من السلاح ، فى تواطؤ مع جيرانها من العرب ؟!

وأدرك المسلمون أبعاد النظرة النبوية فقالوا: يا رسول الله ، تخاف قريشًا على ذلك؟ فأسكت رسول الله ﷺ وقدَّم البدن .

والخطة النبوية واحدة،فلم يرض أن يركب الخيل ويسوق البدن ؛ لأن ركوب الخيل تعنى عند العرب الاستعداد للحرب والمواجهة ، وهذا ما لحظه عليه الصلاة والسلام فى أحد حين بعث عليًا ـ رضوان الله عليه ـ أثر قريش ليتعرف على خطتهم بعد الانسحاب من أحد .

قال ـ عليه الصلاة والسلام : « اخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم » (٢) .

الموقف الثانى :

هو نزول محمد بن مسلمة بالخيل فى مر الظهران ، ونزول السلاح هناك كذلك ، وهو يبعد عن مكة قرابة اثنين وعشرين كليو مترًا (فيجد بها نفرًا من قريش فسألوا محمد ابن مسلمة فقال: هذا رسول الله،يصبِّح هذا المنزل غدًا ـ إن شاء الله ـ فخرجوا سراعًا حتى أتوا قريشًا فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش فقالوا : والله ما أحدثنا حدثًا ، ونحن على كتابنا ومدتنا ، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ ونزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران ، وقدَّم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجَج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم) (٣) .

وبطن يأجج على عشرة كيلو مترات من المسجد الحرام ، لكنه فى الحل ، وهو أقرب إلى مكة من مرِّ الظهران .

وقد تحقق الهدف المقصود من حمل السلاح وهو فزع قريش ، وإلقاء الرعب فى

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣ ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٤ .

صفها ، بحيث لا تسوِّل لها نفسها المواجهة مع محمد وأصحابه ، ولم يتكلم محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، وبشير بن سعد شيئًا حين رأوا ذلك النفر من قريش ، أنهم لن يدخلوا الحرم بسلاحهم وهم يعرفون ذلك ،كل ما قالوه أن مرَّ الظهران هذا حيث الخيل والسلاح للمسلمين ، سوف يكون غدًا منزل رسول الله ﷺ .

الموقف الثالث :

وهى المحاولة السلمية من قريش لصد النبى عن مكة بسلاحه (وبعثت قريش مكرز ابن حفص بن الأحنف فى نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج ، ورسول الله ﷺ فى أصحابه والهدى والسلاح قد تلاحقوا فقالوا : يا محمد ، والله ما عُرفت كبيرًا ولا صغيرًا بالغدر ، تدخل بالسلاح الحرم على قومك وقد شرطت أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر ؟!) .

فقد حددوا طبيعة نقض العهد ، وهو دخول مكة بهذه الأسلحة ، وهم قد قدموا شهادة غالية جدًا بين يدى هذا الفزع : ما عُرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر .

وحافظ الرسول ﷺ على هذا المستوى العظيم من الوفاء ، وعلى هذا المستوى العظيم من الوعى كذلك ، فأجابهم بكلمة حاسمة : « لا ندخلها إلا كذلك » .

ثم رجع سريعًا إلى أصحابه بمكة فقال : إن محمدًا لا يدخل بسلاح ، وهو على الشرط الذى شرط لكم .

وحافظت مكة بذلك على هيبتها وسمعتها عند العرب بأنها منعت محمدًا أن يدخل مكة بسلاح ، حين شرطت عليه ذلك قبل عام ، وها هو ينفذ هذا الشرط ، فلا يدخلها إلا بسلاح السيوف ، ولم تشك مكة لحظة واحدة فى صدق محمد ﷺ ، واطمأنت بعد فزع ، وعبَّرت عن شديد حقدها من جهته ، وشديد أمنها من جهة ثانية حين غادرت قيادات مكة مكة إلى رؤوس الجبال .

ودخلوا مكة ، وقالوا : لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه .

٣ ـ وهى هى الحرب النفسية بين الفريقين ، ومكة تريد أن تشعر محمدًا ﷺ أنها لا تعبأ به ، فلم تتجمع لمواجهته بعد أن اطمأنت إلى أنه لن يدخل الحرم بالسلاح ، وهو مثل بقية العرب الذين يأوون إلى البيت فيؤدون نسكهم ويمضون ، لكن مخابرات النبى ﷺ ، وعميق نظرته ، تدرك ما وراء هذه المظاهر . صحيح أن قريشًا لم تتجمهر حول البيت ، وتحدِّق بمحمد عليه الصلاة والسلام لكن نظرة إلى الأفق ، تبين أن قريشًا قد تجمعت فى رؤوس الجبال تودُّ أن تشهد هؤلاء الوافدين الجدد على أرض العرب ، وكيف

يكبر عددهم ، ويضخم تجمعهم ، وتزداد قوتهم وشكيمتهم ، وقد أدرك المسلمون جميعًا بحسهم الأمنى العالى أن قريشًا سوف لا تأبه بهم بحجة حمى يثرب التى أوهنتهم وأضعفتهم ، ومن أجل ذلك مرت هذه العملية فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

وهم على الطريق ، وسواء ذلك للعرب جميعًا أو لقريش خاصة (لما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران فى عمرته بلغ أصحابه أن قريشًا تقول : ما يتباعثون من العجف).

فكيف بلغ هذا الأمر رسول الله ﷺ ؟ لا شك أنه قد بلغه من عيونه المبثوثة فى قريش، تسمع منهم ما يدور فى مجالسهم، وانتشر هذا الخبر فى الجيش الإسلامى (فقال أصحابه : لو انتحرنا من ظهرنا فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه ، أصبحنا غدًا حين ندخل على القوم وبنا جَمامة) .

إنه الجيش الذى مرَّ عليه قرابة عشرة أيام وهو ماضٍ فى هذه الصحراء المحرقة ، يتوق إلى وجبة دسمة من اللحم والشحم يتناولها؛ ليكون أقوى له على مواجهة العدو ، ولكن الإبل التى معه محدودة وموزعة بين الهدى الذى يسوقونه إلى الحرم للذبح ، وبين الإبل المعدة للركوب فى الذهاب والإياب ،وحيث لا يجوز ذبح الهدى قبل أداء النسك ، فالأمر الطبيعى إذن أن يُنحر من الظهر ليتقوى بها الجيش،وهذا ليس أمرًا سهلاً،فحتى يتم إطعام هذا الجيش وليوم واحد لابد من ذبح قرابة عشرين بدنة لتطعم هؤلاء الألفين وجبة واحدة ، وذلك قياسًا على ما قدَّره رسول الله ﷺ من عدد المشركين فى بدر . (قال : « كم القوم ؟ » قالا : كثير ، قال : « ما عدتهم ؟ » قالا : لا ندرى ، قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يومًا تسعًا ، ويومًا عشرًا ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم بين التسعمائة والألف ») (١) .

وحين تبعث شهوات البطون على اللحم والشحم ، فما هو الذى يصدها عنه ؟ وقد لا تألف بعدها زاد التمر ، والسويق وغيره .

ولو أصبح الطعام اليومى هو الإبل ، فهذا يعنى أن الظهر سوف يفنى ، ويعجز كثير من المسلمين عن العودة إلى المدينة ، حين فقدوا دواب ركوبهم ، والتخطيط الحربى لا يتناسب معه أبدًا أن يبطر الجيش فى البداية ، ثم لا يجد بعدها قوتًا يأكله ، ولا ظهرًا يركبه ، ولابد للحرب من اقتصاد يناسبها ، ولهذا رفض رسول الله ﷺ هذا الحلِ مع قناعته بضرورة قوة المسلمين أمام عدوهم ، قال : (« لا تفعلوا ولكن اجمعوا إلىَّ من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٨/٢ .

أزوادكم » ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا ، وحشا كل واحد فى جرابه) (١) .

وكانت بركة النبى ﷺ بهذا الزاد الذى فاض ، وتزود منه كل مسلم بما يملأ جرابه ، وهى واحدة من المعجزات التى كانت ترافق النبى ﷺ ، والمسلمون معه ؛ ليشهدوا معية الله معهم فى كل لحظة ، وأنهم مسنودون بعون الله ورعايته ، وأنهم فئة خاصة من دون الناس ذات صلة وثيقة بالله عز وجل ، وكأنما يعيشون معه ليل نهار ، ولا يغيب عن قلوبهم لحظة واحدة .

المرحلة الثانية :

وذلك حين تحرك الجيش قاصدًا مكة ، فقد اختار رسول الله ﷺ أن يدخل مكة راكبًا على ناقته القصواء ، والمسلمون محدقون به ، وقد توشحوا سيوفهم ، لكن هذا المنظر لا يكفى لاستجاشة أهل مكة جميعًا ، فلا يبلغهم إلا صوت مشى الإبل ، ولا قعقعة فى السلاح ، وقد لا يلتفت لوصولهم أحد : وحين أطل رسول الله ﷺ على مكة ، حبس الهدى فى ذى طوى ، ثم مضى إلى الثنية التى تطلعه على الحجون ، ارتفع هدير عبد الله بن رواحة ، وهو آخذ بزمام القصواء ناقة النبى ﷺ ، وهو يقول :

خلوا بنو الكفار عن سبيله ... نحن ضربناكم على تأويله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فلابد أن تسمع قريش لهجة الحرب من الفدائيين المسلمين ، يدعونهم إلى فتح الطريق أمام كتائب الإيمان التى سبق وجربها الأعداء من الكفار ، حين كان النزال فى الحرب ، وما يوم بدر منهم ببعيد ، كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** (١٢) ﴾ [الأنفال] .

لكن هذا القتال كله ليس من أجل القتال والسيطرة وإظهار القوة ، إنه قتال المستضعفين فى الأرض الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، قتال الأسود التى تود أن تسترد عرينها الذى اغتصب منها ، وها هى الآن تدخل هذا العرين بعد أن أدت الثمن غاليًا من الأرواح والدماء والجراح ، وعلى الكفار أن يخلوا سبيل المؤمنين أمام بيت الله الحرام ، وبلد الله الحرام ، والهدف بعد هذا كله هو سيادة كتاب الله تعالى ، وسيادة شريعته ، فما كان القتل ابتداءً إلا فى سبيل الله :

---

(١) مسند أحمد ١/ ٣٠٥ .

قد أنزل الرحمن فى تنزيله بأن خير القتل فى سبيله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله[1]

وها هو يدعوهم بعد تلك المعارك الضارية إلى الله ورسوله :

قد أنزل الرحمن فى تنزيله فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله إنى رأيت الحق فى قبوله

وعمر ﷺ يرى الشعر فى الحرم وهو مكان العبادة والتنسك ،وكاد القوم أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، فقال لابن رواحة : (يا بن رواحة ، بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبى ﷺ : « خل عنه يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل »)[2] .

فهى الحرب النفسية التى تفوق الحرب العسكرية ، وما هذا الشعر الذى يرمى به ابن رواحة المشركين إلا أشد من النبل عليهم كما قال عليه الصلاة والسلام ، حتى ولو كان الشعر فى حرم الله تعالى ، وبين يدى رسول الله ﷺ ، فهو عند العرب أشد مضاءً من السيف وآلم وقعًا من النبل .

ثم كان النشيد الجماعى بعد ذلك تجاوبت به أرجاء مكة وجنباتها :

(« يا بن رواحة ،قل: لا إله إلا الله وحده، نصر عبده،وأعز جنده،وهزم الأحزاب وحده ») ، فقالها الناس كما قالها ، وهى تعيد إلى الأذهان هزيمة الأحزاب فى الخندق ، وكيف نصر الله عبده محمداً ﷺ بقوة من عنده وحده عز وجل ، لا بقوة المؤمنين ، ولا بسلاحهم .

فهو عرض حى لتاريخ دام بين الفريقين ، انتهى بأن آوت مكة إلى بيوتها تاركة الزحف الإسلامى تحت راية التوحيد يخترق مكة فى بيوتها وأزقتها وشعابها ، هو تحديد مرحلة جديدة من التعامل بين الفريقين ، وانتصار حاسم لعقيدة التوحيد فى قلب مكة ، حيث تفتح أبواب الحرم أمامها ، دون أى اعتراض .

المرحلة الثالثة :

وكانت فى قلب هذه الحرب النفسية فى داخل المسجد الحرام وحول الكعبة المشرفة ، والمشركون على رؤوس الجبال ، وكلهم يتلمظ حقداً على هؤلاء المسلمين ، ويمنى نفسه

---

(١) كما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى ، فتح البارى ٧/٠١ ٥ .
(٢) أخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

الأمانى أنهـم ضعاف مهازيل لابد أن ينتهوا فـى يوم مـن الأيام ، وبحركة عظيمة نبوية ، غزا هذه القلوب الواجفة وحطمها للمرة الثالثة ، بعد رجز ابن رواحة ، وبعد توحيد الجيش كله .

(فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه ، وأخرج عضده الأيمن ثم قال : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » ، وفى رواية : « أروهم ما يكرهون » ، وأمرهم أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا بين الركنين ،ليرى المشركون جلدهم ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول وأصحابه معه) .

فالمشركون وقد تجمعوا على جبل قُعَيقعان ، فلا يرون من طرف الركنين أحدًا ، إنما يرون من جهة الحجر ، ولهذا كان الرمل قائمًا فى جميع الجهات إلا جهة الركنين ، حيث يمشون مطمئنين هناك .

وتحقق الهدف كاملاً من التنفيذ الدقيق للمهمة (وخرج يهرول وأصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهـم واستلـم الركـن اليمانى مشى حتى استلـم الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرها) .

قال ابن عباس : (ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم) .

فلو فعل ذلك لسقط بعضهم إعياءً ولفاتت المصلحة من ذلك ، وكان أثر هذه العملية الاستعراضية أمام المشركين أن راحوا يهزؤون من أنفسهم قائلين وقد أكل قلبهم الحقد :

(هؤلاء أجلد من كذا وكذا ، ما يرضون بالمشى ، أما إنهم لينقزون نقز الظبى) .

(وكان رسول الله ﷺ يكايدهم ما استطاع) .

حتى فى العبادة، وفى مواجهة المشركين ، وفيما يتقرب به الناسك إلى ربه ، لابد من إشعار العدو بعزة المسلم وقوته واستعلائه ، وليس هذا من باب الرياء فى شىء ، فهو يريد عليه الصلاة والسلام لهذا العدو أن يستسلم لله عز وجل ، ولا يستعلى بقوته وبطشه وكبريائه ، وينضم للإسلام دون إراقة دم ، فهو الرحمة المهداة للبشرية كلها والعالمين بأسرهم.

٤ ـ وكان بعد الطواف السعى بين الصفا والمروة إنه أول نسك للعمرة فى الإسلام يقوم به محمد ﷺ ، والمسلمون يتعلمون منه مناسكهم ، وكل الشعائر معرضة لإعادة النظر بعد أن تخللها كثير من الشركيات فأفسدتها ، وخاصة السعى كما نرى ذلك من تفسير قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة] .

فعن هشام بن عروة بن الزبير ﷺ قال : قلت لعائشة زوج النبى ﷺ ، وأنا يومئذ حديث السن : أرأيت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا...** ﴾ [البقرة : ١٥٨] . فما أرى على أحد شيئًا ألا يطوّف بهما ، فقالت عائشة : كلا لو كانت كما تقول كانت : فلا جناح عليه ألا يطوَّف بهما ، إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار ، كانوا يُهلون لمناة ، وكانت مناة حذو قديد ، وكانوا يتحرجون أن يطوَّفوا بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا...** ﴾(١) .

وعن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك ﷺ عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ...** ﴾(٢) .

وذكر القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس ﷺ قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكان بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية .

وقال الشعبى : كان إساف على الصفا ، ونائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما .

قلت : ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب السيرة أن إسافًا ونائلة كانا بشرين ، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عُبِدا ، ثم حُوِّلا إلى الصفا والمروة ... (٣) .

وإذا كانت أركان العمرة العملية هى الطواف والسعى ، فالطواف لم يكن موطن شك ، وأزيل الشك بالنسبة للصفا والمروة ، ومع نهاية السعى . (وقد وقف الهدى عند المروة ، فلما كان الطواف السابع عند المروة قال رسول الله ﷺ : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » ، فنحر عند المروة) (٤) .

(قال محمد بن عمر : وقد كان اعتمر مع رسول الله ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية، فلم ينحروا ، وأما من شهدها وخرج فى القضية فإنهم اشتركوا فى الهدى)(٥) .

٥ ـ وفى وداع هذا النسك العظيم ، لا يفوت إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) البخارى ٢/٦/٢٨ / كتاب التفسير .
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٠ .
(٣) تفسير القرطبى ، تفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة .
(٤ ، ٥) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٤ .

تَوْق الكتيبة المكلفة بحماية السلاح ببطن يأجج لتؤدى هذا النسك العظيم ، فكل مؤمن له دوره فى قلب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام .

فـ (أمر رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت وسعوا أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج فيقيمون على السلاح، ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا)(١) .

٦ ـ وبعد هذه التربية الجماعية التى تمت لكتائب الإيمان كلها والتى توجهت إلى عمرة الحديبية، جاء دور تربية الأعداء ، تربية قيادات مكة ، الذين كانوا ينتظرون وأيديهم على قلوبهم أن يمكث محمد ﷺ فى مكة ، وسلاحه وفرسانه على أبوابها ، ويستعمل سياسة الأمر الواقع ، خاصة ومكة بلده وأرضه هُجِّر منها ، فما الذى يدعوه إلى الخروج ، وكان رعب مكة من هذا الأمر أكبر من رعبها من دخول مكة بالسلاح ، فلما انتهى اليوم الثالث (فلما كان عند الظهر يوم الرابع أتى سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله ﷺ فى مجلس من مجالس الأنصار يتحدث معه سعد بن عبادة فقال ـ أى سهيل بن عمرو : قد انقضى أجلك فاخرج عنا) ، وذلك فى جفاء بالغ واستعلاء حاقد، فأراد رسول الله ﷺ أن يلين هذه القلوب الجاسية ، ويفتت تلك الأحقاد فى قلوب الأعداء قائلاً لهم :

« وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، فصنعت لكم طعامًا ؟ » .

والأصل فى العربى ذى المروءة أن يتزلزل لمثل هذا الأسلوب ويلين ،لكن الحقد على الإسلام وأهله كان أكبر من ذلك ، فقال : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا !!

إنه رد للحسنة بالسيئة ، وهم يعرفون فى أعماقهم أن هذا الرد نقيصة فى عالم الرجال ، لكنهما بما يعانيان من خوف من احتلال مكة ، أصرا على هذا الموقف الغليظ الجافى وتابعا كلامهما الممتزج بين الرجاء والإصرار :

(ننشدك الله يا محمد ، والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ، فهذه الثلاث قد مضت) .

ورأى سعد بن عبادة ﷺ أن صلف قريش وكبرياءها لم يتغير فيه شىء ، وهو المشحون بالغيظ منها .

(فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبى ﷺ فقال لسهيل : كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا بأرض أبيك ، والله لا يبرح من هنا إلا طائعًا راضيًا) .

وتعنى هذه الكلمة من سيد الخزرج لدى سهيل وحويطب المعنى الكبير الذى يخافانه،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٤ ، ومغازى الواقدى ٢/ ٧٣٦ .

وكاد يسقط فى أيديهما أن المؤامرة قد وقعت ، واحتلت مكة ، وخسرا الجولة . . . لكن النبى المصطفى ﷺ الذى كان يريد أن يربى الأمم ، ويربى الأعداء ، ليس همه انتصاراً عاجلاً ، وهزيمة ساحقة لعدو ، إنما همه أن يربح قلب هذا العدو ، ويربى أمته عمليًا على الوفاء بالعهد ، حين يكون الوفاء قمة الخسارة المادية الظاهرة ، وحين يكون الوفاء بالعهد يلتزم التخلى عن أقدس أرض للمسلمين، وأحب أرض لله ، وأحب أرض إليهم، والمعارك أمامهم قادمة ، والأرض سوف تفتح كلها أمامهم ، ومثل هذا الموقف هو الذى سيكون القدوة فيما بعد للأجيال ، وبامتداد الآماد واتساع الآفاق .

وتبقى قضية العقيدة وقضية هذا الدين هى المحور ، وليس الاعتداد بالقوة ، والثناء على البطولة ، وتحقيق الانتصارات هو الهدف ، إن الجيل الذى رنت إليه البشرية لابد أن يكون صياغة جديدة أعلى وأرقى من صياغة البشرية كلها فى تاريخها السابق واللاحق بهذا الجيل ، وفى كلمة واحدة ، ربَّى بها سعد بن عبادة صاحب الحدة المعروف ، وأكبر أنصاره فى الجيش ، وربى بها سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى فى أسلوب حكيم عظيم ، راعى به مشاعر سعد ، وعَلَّم هذين السيدين الجاهليين أصول التعامل ، وأصول التخاطب ، وأصول الحياة كلها ، وقال : « يا سعد ، لا تؤذ قومًا زارونا فى رحالنا » ، وأسكت الرجلان عن سعد ، فماذا يتكلمان بعد كلام رسول الله ﷺ ، ولو لم يكن سعد بن عبادة عريقًا فى تربيته ، وفى تكوينه وجنديته، لانشق بأكبر أنصاره عن رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن أبىّ قبله، وحارب الإسلام وأهله ، وصمم على احتلال مكة ، وسبى نسائها وقتل رجالها بعد أن أفنت مكة زهرة شباب يثرب ، وأعظم رجالاتها .

وشعر سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، أنهما صغيران صغيران أمام قمة البشرية محمد ﷺ، حين راح يتألفهما أن يتزوج فى مكة، ويدعو كبار أهلها إلى وليمته، وتقع الألفة محل البغضاء والفرقة ، وكيف كان الجفاء والغلظة عندهما ، وكان بإمكان سعد بن عبادة أن يحرق بهما مكة ، ويقيم فيها مجزرة يتحدث بها التاريخ ، وكيف كف النبى ﷺ هذا الأسد عن هذه المهمة ونادى معلنًا فى جيشه : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » .

ولم يكد سهيل وحويطب يصدقان فعلاً أن محمدًا وقومه سوف يخرجون من مكة، وقلوبهم متحرقة شوقًا إليها ومجبول حبها بدمائهم ونفوسهم ، ولكنها العقيدة ، فوق عاطفة الأهل ، وعاطفة الوطن ، وعاطفة المصلحة ، وكل عواطف الدنيا تخضع لمبادئ العقيدة ، وحدودها .

٧ - وعودة إلى تربية النماذج فى عمرة القضية ، إلى فقه بعض الحوادث الفردية ، والتربية فيها بعد الحديث المستفيض عن التربية الجماعية .

لقد كانت عظمة المصطفى ﷺ أن يرعى شأن كل فرد من أمته ، كأنما ليس هم إلا هو، وذاك صاحبه من الرعيل الأول أبو رهم بن عبد العزى يموت، فيخلِّف ميمونة بنت الحارث أرملته عند العباس بن عبد المطلب زوج أختها، وتبقى ميمونة فى ذاكرته ﷺ، كما بقيت أرملة أبى سلمة - أم سلمة - وأرملة عبيد الله بن جحش - أم حبيبة - وأرملة عبدة بن الحارث - زينب بنت خزيمة - وقد وفّاهم جميعًا حقهم، وكان لابد أن يوفى حق صاحبه أبى رهم بن عبد العزى ،الذى مات على الإسلام وفى الإسلام ، وكانت المناسبة لذلك هو وفود رسول الله ﷺ إلى مكة ، فخطبها النبى ﷺ كما قال ابن سعد عن على ابن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم قال:(لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى مكة عام القضية، بعث أوس بن خولى وأبا رافع إلى العباس ، فزوجه ميمونة فأضلا بعيريهما فأقاما أيامًا ببطن رابغ حتى أدركهما رسول الله ﷺ بقُديد ، وقد ضما بعيريهما، فسارا معه حتى قدما مكة ، فأرسل إلى العباس فذكر ذلك له ، وجعلت ميمونة أمرها إلى النبى ﷺ (١) - كذا قال - وصوابه : إلى العباس ، فخطبها إلى النبى ﷺ فزوجها إياه) (٢) .

قال ابن هشام : (وكانت جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، وكانت أم الفضل تحت العباس ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس فزوجها رسول الله ﷺ بمكة ، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم) (٣) .

(فخرج رسول الله ﷺ وخلَّف أبا رافع مولاه على ميمونة،حتى أتاه بها بسرف(٤)، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك،ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فى ذى الحجة)(٥).

إنها وافد جديد ينضم إلى بيت النبوة بعد الوافدتين الجديدتين قبل عام ونيف ، أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وصفية بنت حيى .

ولكن رسول الله ﷺ يرعى حق صاحبه من جهة ، ويصاهر بنى هلال بن عامر بن صعصعة أكبر فروع قبيلة بنى عامر فى محاولة لتأليف قلوبهم على الإسلام ، ويجبر هذا الخاطر الكسير المقيم فى مكة ، دون أن يكون له بيت يؤويه إلا الضيافة عند أختها أم

---

(١) تشير بعض الروايات إلى أن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها من اللاتى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ كما فى رواية ابن أبى حاتم : (تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة . . . وامرأتين من بنى هلال بن عامر ، ميمونة بنت الحارث وهى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ، وزينب أم المساكين . . .) انظر : تفسير ابن كثير فى سورة الأحزاب ٥/ ٤٨٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٢٣٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣/ ٣٧٢ .

(٤) سرف : موقع على بضعة أميال من مكة .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣/ ٣٧٢ .

الفضل بنت الحارث رضي الله عنها ، وبذلك يشمل فضل النبوة ، هذا البيت ، وهذه العشيرة ، وهذا القلب المتجه لله أن يفرِّج كربته ، لكن هذا الحلم كان أكبر بكثير من أحلامها رضي الله عنها أن تكون زوجًا لسيد هذا الوجود ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد ولد آدم ، ويكرمها حيث يقيم الجيش ، فيبنى بها ويمضى بها إلى المدينة ، إنها إحدى الأخوات الأربع المؤمنات التى قال عنهن رسول الله ﷺ : « الأخوات الأربع مؤمنات ؛ أم الفضل بنت الحارث ، وميمونة بنت الحارث ، وأسماء بنت عميس ، وسلمى بنت عميس »[1] .

٨ ـ وإذا كانت ميمونة رضي الله عنها قد أقرت عينها بصحبة المصطفى ﷺ وزواجها منه، فإن ابنة أختها سلمى بنت عميس ، وهى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، لم تطق أبدًا أن تبقى أسيرة فى مكة . . . بعد أن رأت الحبيب المصطفى ﷺ يخرج منها .

(فخرج النبى ﷺ ، فتبعته ابنة حمزة تنادى ، يا عم ، يا عم ، فتناولها على فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام : « دونك ابنة عمك فاحمليها »)[2] .

والرواية الثانية تؤكد استئذان على رضي الله عنه النبى ﷺ فى أخذها معه كما روى ابن عباس رضي الله عنهما :« إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب،وقيل : اسمها أمامة ، وأمها سلمى بنت عميس كانت بمكة فقدم رسول الله ﷺ فقال : علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهرانى المشركين ، فلم ينهه رسول الله ﷺ فخرج بها)[3] .

وابنة الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، لا عجب أن يتخاصم فى رعايتها سادة المسلمين وقادتهم ، زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ، وأخوه جعفر بن أبى طالب رضي الله عنهم ، وأدلى كل واحد من هؤلاء السادة العظام بحجته .

(قال على : أنا أخذتها وهى ابنة عمى) فهو الذى اهتم بها ، واستأذن من أجلها ، وجاء بها إلى مكة ، فمن أين أتته هذه المنافسة من هذين الحبيبين على رعايتها . (وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى) . فإذا استوى جعفر وعلى رضي الله عنهما فى القرابة من ابنة حمزة ، وفاق على ـ رضوان الله عليه ـ جعفرًا فى إحضارها ، فقد فاق جعفرًا أخاه عليًا فى أن خالة عمارة أسماء بنت عميس هى زوج جعفر ، فهذا أرفق بقلبها ، وأهدأ لنفسها أن تتربى وتنمو فى بيت خالتها،ثم أدلى زيد رضي الله عنه بدلوه قائلاً (وقال زيد: ابنة أخى) . إذ آخى رسول الله ﷺ بين زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وانطلاقًا من هذا الحب وهذا الوفاء ، كان لابد من حكَم يفصلُ بينهم ، فاختاروا رسول الله ﷺ ليفض هذه المنازعة العجيبة فى التاريخ، المنازعة على الرعاية والتربية لابنة

(١) رواه ابن سعد بسند صحيح كما ذكر ابن حجر فى الإصابة فى ترجمة ميمونة رضي الله عنها ١٩٢/٨/٤ .
(٢) البخارى ٢/ ٥/ ١٨٠ .
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣٧ .

الشهيد حمزة. وقبل أن يحكم رسول الله ﷺ لأحد هؤلاء الثلاثة العظام وجدها فرصة سانحة أن يعرّف الجيل المؤمن بهؤلاء القادة الكبار الثلاثة ، خاصة وقد جاء وافدون جدد أربوا على الخمسمائة،وكانوا فى الجيش الإسلامى لا يعرفون الفضل السابق لهؤلاء القادة، وحتى تطيب نفوس هؤلاء القادة العظام رضًا بالحكم قال ـ عليه الصلاة والسلام :« أنا أحكم بينكم ، أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله ، وأما أنت يا على فأخى وصاحبى ، وأما أنت يا جعفر فتشبه خَلْقِى وخُلُقِى ، وأنت يا جعفر أحق بها تحتك خالتها، ولا تنكح المرأة على خالتها وعلى عمتها ».وفى رواية البخارى: فقضى بها النبى ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم »(١) .

إنها مناسبة رآها رسول الله ﷺ ليعرف هؤلاء الثلاثة بفضلهم،ويعرف الأمة بفضلهم كذلك ، وتعرف الأجيال اللاحقة فيما بعد فضلهم ، وإلا فالحكم لا يحتاج إلى مثل هذا القول ، ودعوة هؤلاء القادة ، أن يعرف كل واحد منهم فضل أخيه وصاحبه .

ونعود لابنة حمزة ﷺ وقد وطئت ثرى المدينة ، لقد كان لها هم عظيم ، وهى تعرف أنها بنت أسد الله ورسوله، تريد أن تعرف قبر أبيها وتزوره، ويكفيها شعورًا بعظمة أبيها ، ما كانت تحسه من حقد عليه فى صفوف المشركين .

ومضت إلى قبر أبيها العظيم ، وعرف شاعر الإسلام العظيم أن عمارة بنت حمزة جاءت تبحث عن قبر أبيها حمزة ، وهو الذى كان يوم أحد كأنما هو الشهيد الوحيد للمسلمين ،فلقد بكت الأنصار عليه جميعًا قبل بكائها على قتلاها ولعل ذاكرة عمارة (أو أمامة) تعى شيئًا من هذا،(فطفقت أمامة حين قدمت المدينة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه فبلغ ذلك حسانًا فقال يرثى حمزة :

تسائل عن قوم هجان سميدع لدى الناس مغوار الصباح جسور
فقلت لها : إن الشهادة راحة ورضوان رب يا أُمام غفور
دعاه إله الخلق ذو العرش دعوة إلى جنة فيها رضًا وسرور
فإن أباك الخير حمزة فاعلمى وزير رسول الله خير وزير
أخى ثقة يهتز للعرف والندى بعيد المدى فى النائبات صبور(٢)

(١) البخارى مع الفتح ٧ / ٤٩٩ حديث (٤٢٥١) .
(٢) الإصابة ٨/ ١٣ ، وديوان حسان بن ثابت ١/ ١٣٢ .

لقد وجدها فرصة سانحة ليعيد ذكرى حمزة الشهيد ﷺ بمناسبة سؤال ابنة حمزة عن قبر أبيها ، حيث رأت عظيم مقامه فى المدينة ، من خلال تفاعل أهلها وسرورهم ببنت الشهيد العظيم ، وينظر على ﷺ إلى ابنة عمه الشهيد العظيم ، فلا يرى أهلاً لزواجها إلا من سيد الخلق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ، (فقال على : ألا تتزوج ابنة حمزة ؟ قال : « إنها ابنة أخى من الرضاعة ») .

فهل كانت بنت حمزة ﷺ تدرك ذلك ، فنادته : يا عم ، يا عم ، ولم تناده : يابن عم ، أو أنه هو أدب الصغار مع الكبار حيث ينادونهم بالعمومة ، أو الخؤولة بغض النظر عن طبيعة القرابة ـ الله أعلم بذلك .

وهكذا انضم وافدان جديدان إلى المجتمع الإسلامى الجديد الذى قَلَّ انتساب النساء إليه ، فأصبحن نماذج معدودة أمثال اللاتى هاجرن بدينهن هربًا من مكة ومن الفتنة فيها ، وكان هذان الوافدان الجديدان هما : ميمونة بنت الحارث زوج النبى ﷺ ، وابنة أختها عمارة ، أو أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب وبنت سلمى بنت عميس زوجه .

٩ ـ بقى علينا أن نشير إلى نقطتين تعرضان نفسية المشركين تجاه رسول الله ﷺ ، وتدلان على الوعى واليقظة فى الصف الإسلامى :

الأولى : هى حرص القاعدة الصلبة على قائدها ألا يمسه أذى أو سوء من سفهاء القوم، وكما يقول ابن أبى أوفى : (لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ) (١) .

فكانوا حوله جداراً بشريًا صلبًا ، يحول دون أى هجوم مباغت .

الثانية : أنهم فعلوا ذلك حين رأوا ثغرة ضعف حيث أراد أبو رافع أن يخرج بميمونة زوج النبى ﷺ ، (فخرج بميمونة ومن معها فلقوا عناءً من سفهاء المشركين ، آذوا بألسنتهم النبى ﷺ ، فعرف أبو رافع كيف يقابلهم بالإرهاب المناسب قائلاً : هذا والله الخيل والسلاح ببطن يأجج ، وإذا الخيل قد قربت ، فوقفت لنا هنالك السلاح) ، فقد تعلم من المدرسة النبوية كيف يواجه الأحداث المفاجئة ، ويريهم من نفسه قوة ، تدفعهم إلى الكف عن الأذى ، فكان التلميذ الأمين فى هذه المدرسة ، وهو المولى الذى ضربه أبو لهب من قبل حتى كاد أن يقضى عليه بعد بدر ، وهو اليوم يتحدى طواغيت مكة ويخرج بميمونة ومن معها من مكة ، مهدداً بالسلاح والخيل تغزوها .

---

(١) البخارى ٢/ ٥/ ١٨١ .

سرية الدعوة إلى بنى سليم

حدثنى محمد عن الزهرى قال : (لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء سنة سبع - رجع فى ذى الحجة سنة سبع - بعث ابن أبى العوجاء السلمى فى خمسين رجلاً ، فخرج إلى بنى سليم ، وكان عين لبنى سليم معه ، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فحذَّرهم وأخبرهم ، فجمعوا جمعًا كثيرًا ، وجاءهم ابن أبى العوجاء والقوم معدون له ، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ ، ورأوا جمعهم دَعَوْهم إلى الإسلام ، فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم ، وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه ، فراموهم ساعة ، وجعلت الأعداء تأتى حتى أحدقوا بهم من كل ناحية ، فقاتل القوم قتالاً شديدًا حتى قُتِل عامتهُم ، وأصيب صاحبهم ابن أبى العوجاء جريحًا مع القتلى ، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ) (١) .

نحن فى تطور جديد للدعوة بعد عمرة القضية ، والأصل أن سليمًا وهى من القبائل المجاورة للمدينة ، الأصل فيها أن يلين جاسيها للإسلام بعد أن شهدت استسلام قريش ودخول محمد ﷺ مكة ،منيعا بقومه وأصحابه ، ولكون هذه القبيلة ذات وزن معنوى ومادى ، وهى من حلفاء قريش ابتداء ، وبين يدى رسول الله ﷺ صحابى ومسلم جديد من بنى سليم هو الأخرم بن أبى العوجاء ﷺ فأراد أن يغزو بنى سليم بهذا الدين وأن يكون ابن سُليم ابن أبى العوجاء ، الخبير بالأرض والقوم والناس ، وبُعث معه خمسون من المسلمين ليفتحوا هذا الباب المغلق ، فى محاولة لنشر الإسلام فى هذا الصقع .

وتشير رواية الواقدى إلى أنهم أدوا المهمة بنجاح تام ، ووصلوا إلى سليم ، ودعوهم إلى الله عز وجل وهذه هى المهمة الدعوية للسرية ، غير أن عينًا لسليم كان فى الصف الإسلامى ، ومضى عائدًا إلى قومه فحذرهم ووقعت المجزرة الجديدة التى تشير رواية خليفة بن خياط إلى أنهم قتلوا جميعًا (أن ابن أبى العوجاء السلمى أصيب هو وأصحابه وقتلوا جميعًا)(٢) وعادت إلينا ثانية روائح بئر معونة التى قتَلت فيها سليم من المسلمين سبعين شهيدًا، وهم سرية القراء ، وهؤلاء خمسون ينضمون إلى قافلة الشهداء، وما جرى لشهداء بئر معونة لم يثن رسول الله ﷺ عن الدعوة فى هؤلاء القوم ، ولا

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٣٨ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ١/٤٨ . وقد رجح اللواء الركن محمود شيت خطاب الرواية الثانية لانقطاع أخبار ابن أبى العوجاء نهائيا بعد هذه السرية .

يجوز أن تتوقف الدعوة خوفًا من الاستشهاد ، وحين تحين الظروف المناسبة لابد من الاستفادة منها ؛ لأن الدعوة إلى الله تعالى هى المهمة الأصيلة للمسلمين فى الأرض ، وليس القتل والضرب إلا وسيلة للتحرير وفتح الآفاق أمام دعوة الله تعالى فى الأرض ، وكانت هذه السنة السابعة للهجرة ، وقد حملت فى ثناياها خمسين شهيدًا من شهداء الدعوة ، بعد استضافة خمسمائة شخصية إسلامية جديدة ، وهذه هى طبيعة الدعوات . (ينال منا وننال منه) والعاقبة للمتقين ، وسنشهد بعد هذا الثمن العظيم الذى قدمه ابن أبى العوجاء وأصحابه ما هو النصر الضخم الهائل الذى تحقق بدماء هؤلاء الشهداء فيما بعد .

السنة الثامنة

أفلاذ أكباد مكة مسلمون فى المدينة

تركنا عمرو بن العاص فى الحبشة وقد أسلم على يدى النجاشى قبل السنة الثامنة ، وبعد وصول عمرو بن أمية الضمرى إلى الحبشة يطلب عودة المسلمين إلى المدينة ، ونتابع الخطا مع خالد بن الوليد ﷺ حيث يقص علينا قصة إسلامه مع البدايات الأولى التى هيأته لهذا الإسلام .

(حدثنا محمد بن عمر الواقدى قال : فحدثنى يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : سمعت أبى يحدث يقول : قال خالد بن الوليد :

لما أراد الله بى الخير ما أراد قذف فى قلبى حُبَّ الإسلام ، وحضرنى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعُسفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر آمنًا منا فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطَّلع على ما فى أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعًا وقلت : الرجل ممنوع ! وافترقنا ،وعدل عن سَنَنِ خيلنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشًا بالحديبية ، ودافعته قريش بالراح قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين المذهب إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم مع عجم تابعًا ، أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ فأنا على ذلك إذا دخل رسول الله ﷺ فى عمرة القضية ، فتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى فى عمرة القضية ، فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلىَّ كتابًا فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك. فقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتى الله به ، فقال : « ما مثله جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجِدَّه مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره» فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة) .

(فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ،وزادنى رغبة فى الإسلام وسرنى مقالة رسول الله ﷺ ، قال خالد : وأرى فى النوم كأنى فى بلاد ضيِّقة جديبة ، فخرجت إلى بلد

أخضر واسع ،فقلت :إن هذه لرؤيا . فلما قدمت المدينة ،قلت:لأذكرنها إلى أبى بكر ، قال : فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هداك الله للإسلام ، والضيق الذى كنت فيه هو الشرك ، فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت:من أصاحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقلت : صفوان بن أمية ، فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس[1] ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا،فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبدًا ، فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وِترا[2] ، قد قُتل أخوه وأبوه فى بدر ، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطوِ ما ذكرتُ لك ، قال : لا أذكره ، وخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحلتى تخرج إلى ، فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت : إن هذا لى صديق ولو ذكرت له ما أريد ، ثم ذكرت من قُتِل من آبائه ، فكرهت أذكِّرَهُ ، ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جُحر ، لو صُبَّ عليه ذَنوب[3] من ماء لخرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة وقال:لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بفخ[4] مناخة ، قال : فاتعدت أنا وهو بيأجج[5] إن سبقنى أقام ،وإن سبقته أقمت عليه ، قال: فأدلجنا سحراً ، فلم يطلع الفجر علينا حتى انتهينا إلى الهدَّة . . .) .

ونقف هنا قبل متابعة الخطوات مع خالد ، لنعود إلى عمرو بن العاص وهو فى الحبشة فنسير معه فى خطواته تلك التى ابتدأت قبل خطوات خالد ﷺ ، ثم التقيا معًا فى الهدة .

(حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : قال عمرو بن العاص . . . قلت : أيها الملك ، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ، فرفع يده فضرب بها أنفِى ضربة ظننت أنه كسره ، وابتدر منخارى ، فجعلت أتلقى الدم بثيابى، وأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقًا منه ، ثم قلت له:أيها الملك ، لو ظننت أنك تكره ما فعلتُ ما سألتُك ، قال : واستحيا وقال :يا عمرو ؛ تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله ، من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله ؟! قال

(١) أكلة رأس : أى قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) الوتر : الثأر .
(٣) الذنوب : الدلو العظيمة . (٤) فخ : واد بمكة .
(٥) يأجَج : واد من أودية مكة على عشرة أكيال من المسجد الحرام .

عمرو : وغيَّر الله قلبى عما كنت عليه ، وقلتُ فى نفسى : عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت ؟! قلت : أتشهد أيها الملك بهذا ؟ قال : نعم . أشهد به عند الله يا عمرو ، فأطعنى واتَّبعه ، والله إنه لعلى الحق، وليظهرن على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت : أفتبايعنى على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الإسلام ، ودعا لى بطست ، فغسل عنى الدم ، وكسانى ثيابًا . . . وكانت ثيابى قد امتلأت من الدم فألقيتها ، ثم خرجت إلى أصحابى ، فلما رأوا كسوة الملك سروا بذلك وقالوا : هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ فقلت لهم : كرهت أن أكلمه فى أول مرة ، وقلت : أعود إليه ، قالوا : الرأى ما رأيت ، وفارقتهم كأنى أعمد لحاجة فعمدت إلى موضع السفن ، فأجد سفينة قد شحنت تدفع فركبت معهم فدفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة ، وخرجت من الشعيبة ومعى نفقة، فابتعت بعيرًا، وخرجت أريد المدينة حتى خرجت على مرِّ الظهران، ثم مضيت حتى كنت بالهدَّة ، إذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يريدان منزلاً ، وأحدهما داخل فى خيمة ، والآخر قائم يمسك الراحلتين ، فنظرت وإذا خالد بن الوليد ، فقلت: أبا سليمان ؟ قال : نعم ، قلت : أين تريد ؟ قال : محمداً ، دخل الناس فى الإسلام، فلم يبق أحد به طمع ، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها ، قلت: وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام ، وخرج عثمان بن طلحة فرحَّب بى، فنزلنا جميعًا فى المنزل) .

وهكذا نعود لنسير مع القادة الثلاثة فى رحلتهم إلى منبع النور كما يرويها لنا خالد ﷺ :

(فغدونا حتى انتهينا إلى الهدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم ، فقلنا : وبك ، قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذى أخرجكم ؟ قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ ، قال : وذلك الذى أقدمنى ، قال : فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرة ركابنا ، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسرَّ بنا ،فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ ،فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى فطلعت عليه ، فما زال يبتسم إلىَّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق، فقلت: إنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » ، قلت : يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادع

الله أن يغفرها لى ،فقال رسول الله ﷺ :« الإسلام يجب ما كان قبله » ، فقال خالد : يا رسول الله ، على ذلك ؟ فقال : « اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك » ، قال خالد : وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت ليعدل بى أحدًا من أصحابه إذا حزبه أمر) (١) .

ونتابعها كذلك مع عمرو بن العاص :

(ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة ، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبى عِنبة يصيح : يا رباح ، يا رباح ، فتفاءلنا بقوله وسرَّنا ، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، فظننت أنه يعنينى وخالد بن الوليد ،ثم ولى مدبراً إلى المسجد سريعًا ، فظننت أنه يبشر رسول الله ﷺ بقدومنا فكان كما ظننت ، وأنخنا بالحرة ، ولبسنا من صالح ثيابنا ، ونودى بالعصر ،فانطلقنا جميعًا حتى طلعنا عليه ـ صلوات الله عليه ـ وإن لوجهه تهللاً ، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا ، فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدَّم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت ، فوالله ما إن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع إليه طرفى حياءً منه ، فبايعته أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولم يحضرنى ما تأخر ، فقال : إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها ، قال : فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب)(٢) .

* * *

نحن مع عملاقين من عمالقة التاريخ فى العالم ، لم يكن لهما أن يأخذا دورهما فيه لولا هذا الإسلام العظيم الذى وضعهما على احتكاك مع قادة الأرض آنذاك بمختلف شعوبهم وأوطانهم ، وحققوا انتصارات باهرة لا نظير لها فى العالم ؛ لأنها كانت مرتبطة بالعقيدة ارتباطًا وثيقًا ، وها نحن نشهد عملية انتقالهما من الظلمات إلى النور ، وإن كنا تحدثنا عن إسلام عمرو بن العاص على يدى النجاشى فى السابق ، لكن هذا لا يمنع من عرضه ضمن خط التوازى مع خالد بن الوليد رضي الله عنه .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٨ ، ٧٤٩ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤١ ـ ٧٤٥ .

يقول عمرو بن العاص :(كنت للإسلام مجانبًا معاندًا ، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحدًا فنجوت، ثم حضرت الخندق فقلت فى نفسى : كم أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش) ، وتؤكد رواية الإمام أحمد هذا المعنى (عن حبيب بن أوس قال : حدثنى عمرو بن العاص مِنْ فيه، قال : لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكانى ويسمعون منى، فقلت لهم: تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد يعلو علوًا كبيرًا منكرًا ، وإنى قد رأيت رأيًا فما ترون فيه ؟ قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عُرِف فلن يأتينا منهم إلا خير . . .) (١) .

ويقول خالد ﷺ : (لما أراد الله بى من الخير ما أراد قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأرى فى نفسى أنى موضع بغير شىء ، وأن محمدًا سيظهر)(٢) .

لقد التقى القائدان فى نقطة الانطلاق ، فبعد كل غزوة كانا يدركان أن حرب محمد ﷺ لا جدوى من ورائها ، فقد قال خالد : (فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء) .

وقال عمرو : (فقلت فى نفسى : كم أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش).

ولاشك أن أحْدًا واحدة من هذه المواطن ، ورغم ما حقق فيها من انتصارات لم يفردها برأى ، ولم تغير الخط البيانى لقناعته أنه موضع فى غير شىء .

وعمرو بن العاص يعرض هذه القناعة بأسلوب آخر:(كنت للإسلام مجانبًا معاندًا ، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحدًا فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت) (٣) .

فهو يرى أنه العناد ولا شىء غيره هو الذى يدفعه لمواجهة محمد ﷺ ، وإذا كان عمرو وخالد فى بدر ليسا فى مواقع الزعامة والقيادة حيث كان الجيل الذى قبلهما هو الذى يتصدر هذه الزعامة، فقد اختلف الأمر فى أحد، بعد أن قتل أربعة وعشرون زعيمًا فى بدر ، فآلت القيادة إلى الرعيل الثانى فى مكة: عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ،

---

(١) مسند أحمد ١٩٨/٤ .

(٢) المغازى للواقدى ٢ /٧٤٦ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤١ .

وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وإن كانوا قد دانوا جميعًا لقيادة أبى سفيان ، ولم يكن أبو سفيان بمثل القيادة التسلطية بل كان يهيئ المجال لبروز مثل هذه القيادات ، وممارسة طاقاتها وكفاءاتها .

ولا ندرى شيئًا عما يدور من أحاديث مسبقة بين القائدين عمرو وخالد ، لكننا نعلم أن مهامهما مشتركة ،وكل ينطلق فى أعماقه من دراسة فاحصة للساحة العربية ، وكانت الخندق هى المعركة الفاصلة عند الرجلين والتى أنهت من أذهانهما نهائيًا إمكانية تحقيق انتصار على محمد بن عبد الله .

سار كل قائد من أعماقه ، يحمل نفس قناعة الآخر ، دون أن يتصارحا بذلك ، وجمعت الخندق بينهما فى المهمة الأخيرة ، وفى اللحظات التاريخية التى تقلب الموازين، وتغير المواقف .

وقف أبو سفيان القائد العام خطيبًا يعلن الانسحاب من المعركة : (إنكم والله لستم بدار مقام ،لقد هلك الخف والكراع وأجدب الجناب ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، وقد لقينا من الريح ما ترون ، والله ما يثبت لنا بناء ، ولا تطمئن لنا قدر ، فارتحلوا فإنى مرتحل . وقام أبو سفيان،وجلس على بعيره وهو معقول ، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام) .

وكاد الانسحاب أن يكون عشوائيًا ، لولا تدخل عكرمة بن أبى جهل (فناداه عكرمة ابن أبى جهل : إنك رأس القوم وقائدهم تقشع وتترك الناس، فاستحيا أبو سفيان، فأناخ جمله ونزل عنه،وأخذ بزمامه وهو يقوده،وقال : ارحلوا ، قال : فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خفَّ العسكر) .

وبعد هذه الخطيئة الفادحة من أبى سفيان ، عاد فتدارك الأمر ، وأبرز إمكانياته العسكرية بعد أن حقق هدفه فى الانسحاب ، (فقال لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله، لابد لى ولك أن نقيم فى جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفد العسكر ، فقال عمرو : أنا أقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال : أنا أيضًا أقيم ، فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل)(١) .

لقد بقى القائدان عمرو وخالد بعد الخندق على رأس كتائب الفرسان ، خوفًا من هجوم مفاجئ ، ولا يبعد أن يكونا قد تسامرا ، وظهر لهما فشل حملتهما التى تحطمت

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٩٠ .

كل آمالهما بعدها ، لقد جاؤوا بعشرة آلاف مقاتل،وعادوا بخفى حنين ، فمتى يستطيعون تعبئة مثل هذه القبائل والأحلاف مرة ثانية ؟

وحول هذين القائدين يذكر لنا الواقدى ـ ثانية ـ فى الخندق هذه المقالة :

(حدثنى عبد الله بن جعفر عن عثمان ـ يعنى ابن محمد الأخنسى ـ قال: لما انصرف عمرو بن العاص قال : قد علم كل ذى عقل أن محمداً لم يكذب ، فقال عكرمة بن أبى جهل : أنت أحق الناس ألا يقول هذا ، قال عمرو : لم ؟ قال : لأنه نزل على شرف أبيك ، وقتل سيد قومك ، ويقال : الذى تكلم به خالد بن الوليد ، ولا ندرى لعلهما تكلما بذلك جميعًا . قال خالد بن الوليد : قد علم كل حليم أن محمداً لم يكذب قط ، قال أبو سفيان بن حرب : إن أحقَّ الناس ألا يقول هذا أنت ، قال : ولم ؟ قال : نزل على شرف أبيك ، وقتل سيد قومك أبا جهل)(١) .

وبغض النظر عن صحة الرواية فواقع الحال بالنسبة للقائدين أن الخندق كانت هى المعركة الحاسمة التى هزتهما نفسيًا واقتنعا ألا جدوى من المواجهة مع محمد ﷺ ، لقد ابتدأت القناعة ضعيفة مع كل موقعة ، وكان محمد ﷺ يغزوهما نفسيًا بعظمة خلقه ، وعظمة تصرفه عقب انتصاره ، وعظمة تصرفه عقب امتحانه ، والأخلاقية العليا معهم فى المواجهة ، فلقد قُتل فى بدر سبعون قتيلاً ـ وهم مشركون ـ فقام بمواراتهم فى قليب بـدر ، وانتصرت قريش فـى أحد ، فراحت تمثل فى القتلى فتبقر البطون ، وتجدع الآذان والأنوف ،وتنتقم من المسلمين شر انتقام . كان القائدان يريان كيف يكون قتال الشرف ، وكيف تكون حرب الشرف ، وكان هذا من التربية النبوية لهما قبل الخندق .

والقائد البصير هو الذى يستشف المستقبل ، ويقدِّر الصورة الأقرب إلى الواقع ، وليس هو القائد الذى يعيش أزمة ساعته هزيمة ، أو نشوة ساعته انتصارًا ، وبمقياس الأرقام أدرك القائدان هذه النتيجة .

(ثم حضرت الخندق فقلت فى نفسى : كم أنا أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش).

(فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى نفسى أنى موضع فى غير شىء) .

الموقف الحاسم :

وانطلق القائدان بناءً على هذه النتيجة إلى اتخاذ الموقف الحاسم المناسب لهذه القناعة.

أما عمرو بن العاص ، فقد كان لصداقته الوثيقة مع النجاشى ، ما يدفعه إلى اختيار

---

(١) المغازى للواقدى ص ٤٩١ .

المكان الجديد لإقامته .

(فخلَّفت مالى بالوهط، وأُفلِتُ - يعنى من الناس - فلم أحضر الحديبية ولا صلحها، وانصرف رسول الله ﷺ بالصلحَ ، ورجعت قريش إلى مكة ، فجعلت أقول : يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه : ما مكة بمنزل ولا الطائف ، وما من شىء خير من الخروج ، وأنا بعد ناءٍ عن الإسلام ، أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم ، فقدمت مكة فجمعت رجالاً من قومى كانوا يرون رأيى ويسمعون منى ويقدِّموننى فيما نابهم ، فقلت لهم : كيف أنا فيكم ؟ قالوا : ذو رأينا ومدرهنا ، مع يمن نفس وبركة أمر ، قال : قلت : تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنى قد رأيت رأيًا ، قالوا: ما هو ؟ قال :نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن كان يظهر محمد ، كنا عند النجاشى ، فنكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وإن تظهر قريش ، فنحن من قد عرفوا ، قال : هذا هو الرأى ، قال : فاجمعوا ما تهدونه إليه ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، قال : فجمعنا له أدمًا كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشى . . .) .

وشتان بين خروج عمرو بن العاص اليوم ، وخروجه قبل عشر سنين أو تزيد حين مضى ليقضً الأرض تحت الجالية الإسلامية هناك ، وقريش فى عنفوانها وقوتها ، أما اليوم فهو مهاجر بدينه وقومه إلى النجاشى مثل هجرة المسلمين آنذاك ، هاجر باحثًا عن الأمن ، خوفًا من أن يقع بيد محمد ، وهو يكره الإسلام ، ولا يأتى به على بال ، فلو أسلم الناس جميعًا ما أسلم ، وهو بعد هذا زعيم فى قومه فلم يكتف وحده بالذهاب إلى الحبشة ، إنما أقنع بذلك مجموعة من أهل مكة ممن يدينون له بالزعامة ، ويعترفون له بالفضل والقيادة ، فهو يريد أن يحافظ على زعامته حتى فى الحبشة ، ولا يريد أن يكون نكرة لا سند لها ولا ظهر ، لكنه ما اتخذ هذا القرار إلا بعد صلح الحديبية ، حيث نظر إلى الأفق فرأى بعينه مصيره الأسود وهو يُجَرّ إلى محمد لِيُسْلِم إن كان بمكة أو كان بالطائف ، ولا شىء أصعب وأشق على النفس من ذل القائد العسكرى ، أن يساق صاغراً إلى خصمه فيحكم فيه ما يشاء ، ويوقع وثيقة الاستسلام والصغار ، وقد رضى ابتداء بعد الخندق أن يقيم فى ماله بالوهط قرب الطائف، أما بعد صلح الحديبية ، فالخطر داهم، ومحمد قادم، فلن تسعه أرض ولا سماء ، وليمض إلى الحبشة مهاجراً بشركه كما مضى المؤمنون الأولون مهاجرين بإسلامهم ، ولا يدرى ، فقد تصل رسل محمد إلى النجاشى تطالب به ، كما مضى ذات يوم إلى النجاشى يطالب بجعفر وأصحابه ليعيدهم صاغرين إلى مكة .

ونجد الخطوات نفسها يمضى بها قائدنا الثانى خالد بن الوليد ، حيث توحدت النظرة

بينهما نحو المستقبل المشؤوم، وإذا كان عمرو قد أدرك بعد الحديبية أن أمر قريش قد انتهى، فقد أدرك خالد قبيل الحديبية ومن خلال التجربة هذه النتيجة المأساوية .

(فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ بعُسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر آمنًا منا، فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطَّلع على ما فى نفوسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر ، صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعًا وقلت : الرجل ممنوع ، وعدل عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين) .

ونقطة الافتراق بين الرجلين كانت واضحة ،فعمرو يغلب قلبه كره الإسلام وأهله ، والقضية عنده قضية هزيمة عسكرية فحسب،أما خالد فقد بدأ قلبه يميل للإسلام ـ كما قال:

(لما أراد الله بى الخير قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى . . .) .

هذه القضية ، وهذا الحب لهذا النور لم يتسلل إلى قلب عمرو ، والذى زاد مساحة حب الإسلام فى قلب خالد هو تجربته الشعورية فى صلح الحديبية ، حين هم بالانقضاض على المسلمين فى صلاة العصر .

وفى رواية ابن أبى شيبة :(فقال خالد بن الوليد: قد كانوا على غِرَّة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم . . . فحانت صلاة العصر فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف) (١) ،والرواية السابقة (فاطَّلع على ما فى نفوسنا من الهموم ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعًا ، وقلت : الرجل ممنوع ، وعدل عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين) وهذه الكلمة من الضخامة بحيث أقنعت خالدًا أن محمدًا يوحى إليه ،(فاطَّلع على ما فى نفوسنا) فزادت هذه القضية فسحة الإسلام فى قلبه .

كما يفترق القائدان فى نقطة ثانية ، وذلك بعد الحديبية ، حين اختار عمرو المضى إلى الحبشة، كانت آفاق خالد أبعد وأرحب من عمرو،(قلت فى نفسى : أى شىء بقى، أين المذهب ؟ إلى النجاشى ، فقد اتبع محمدًا ، وأصحابه آمنون عنده . . .) فقد أدرك خالد بثاقب نظره أن الحبشة أرض إسلامية وتحت سلطان محمد ، طالما أن صاحبها تابع محمدًا على دينه ، لكن اعتماد عمرو على صداقته دفعت به إلى النجاشى ، بينما أوقفت معلومات خالد رضي الله عنه عن المسير إليها .

وافترق الرجلان ـ كما قلنا ـ كذلك بحب خالد للإسلام ، وكراهية عمرو له ، لكن

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣ .

الإعداد للمستقبل واحد عند الرجلين ، ويمضى خالد فى حساباته : (... فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ؟ فأقيم مع عجم تابعًا ؟ أو أقيم فى دارى فيمن بقى) ، ورفض خالد كل هذه الحلول المطروحة لما لها من عقابيل أسوأ من مقامه فى مكة ، فأن يعيش فى بلاد العجم نكرة لا يعرفه أحد ، ويدخل النصرانية أو اليهودية ،فالإسلام أولى إن كان ولابد أن يغير دينه ،وفى قلب هذه الاضطرابات والحيرة كانت عمرة القضية .

الصاعق الكهربى عند عمرو :

(فدخلت على النجاشى فسجدت له كما كنت أصنع فقال : مرحبًا بصديقى ، أهديت لى من بلادك شيئًا ؟ فقلت : نعم أيها الملك ، أهديت إليك أدمًا كثيرًا ، ثم قربته إليه ، فأعجبه ، وفرّق منه أشياء بين بطارقته ، وأمر بسائره فأُدخل فى موضع ، وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأيت طيب نفسه قلت :

أيها الملك : إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدوٍ لنا ، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا ، فأعطنيه فأقتله ، فرفع يده فضرب بها أنفى ضربةً ظننت أنه كسره[1] ، وابتدر منخارى ، فجعلت أتلقى الدم فى ثيابى ، وأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقًا منه ، ثم قلت له : أيها الملك ، لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك ، قال : واستحيا ، وقال : يا عمرو ، تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله).

لقد كانت ضربة مفاجأة لم تكن بالحسبان ،هزّت كيان عمرو كله ، ولم تنل فقط من أنفه ، وعبّر عن هذا المعنى بقوله :(وأصابنى من الذل ما لو انشقت الأرض دخلت فيها فرقًا منه) .

لقد ذهبت عزة الجاهلية وكبرياؤها كلها من قلبه ، ورأى نفسه صغيرًا ذليلاً أمام الملك الغاضب ، وانكسر الران الذى أحاط بقلبه ، فأصبحت النوافذ فى القلب جاهزة للتلقى ، وتحطمت السدود والقيود والحدود مع هذه الضربة .

وجاءت الكلمة البلسم التى أضاءت النور فى قلبه إضاءة عجيبة مذهلة : (تسألنى أن

---

(١) رواية الإمام أحمد تشير إلى أن الملك ضرب أنفه ولم يضرب أنف عمرو (فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقًا منه) وهذا لا يغير من الموضوع شيئًا ، إذ العامل النفسى الذى حلّ بعمرو هو نفسه على الروايتين. ح (١٧١٠٩) .

أعطيك رسول رسول الله من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله؟) ، وكم سمع هذا الكلام عمرو من قبل ، ولم يلق له بالا أو يصيخ له أذنًا خلال عشرين عامًا خلت .

لقد كانت عزة الجاهلية تحجز بين الإسلام وبين قلبه ، ولا تتسلل الكلمات من أى موقع ، والحروب التى خاضها ، والهزائم التى نالها خلال هذه الأعوام العشرين هيأته ليعترف بالهزيمة لا ليدخل فى الإسلام، فلا يزال محمد عنده خصمًا يحاربه وينتصر عليه، أما الآن ، وبعد دفقات الدم العجيبة التى انهمرت منه ، أخرجت معها ذلك الغلو الأسود من قلبه وكما قال : (وغير الله قلبى عما كنت عليه ،وقلت فى نفسى : عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت !) ،ووقع التغيير المطلوب ليس التغيير البطىء الذى يزيل جزءًا من الحاجز النفسى وجزءًا من العزة الجاهلية ، وجزءًا من العصبية المكابرة ، إنما تحطم كل هذا الجدار السميك .

(قلت : أتشهد أيها الملك بهذا ؟ قال:نعم، أشهد به عند الله يا عمرو) ، واتصلت أسلاك الكهرباء مباشرة بالمولِّد الجديد النجاشى،قلب عمرو،ثم جاءت الشحنة الثانية:(والله إنه لعلى الحق ، وليظهرن على كل دين خالفه) . وكانت هذه الشحنة الثانية الأقوى ، فتوهج قلب عمرو بالإسلام ، ولم ينطق به بعد (كما ظهر موسى على فرعون وجنوده) وكانت هذه الجملة الأخيرة هى التى ولَّدت الطاقة الهائلة الإيمانية عند عمرو (فقلت: أتبايعنى على الإسلام ؟ قال :نعم ، فبسط يده فبايعته على الإسلام) .

وهنا ندرك سر حديث رسول الله ﷺ : (عن عقبة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص »)(١) .

وولد عمرو إنسانًا جديدًا بعد هذه الضربة وهذا الحوار ، ولبس ثيابه الجديدة التى أعطاه إياها النجاشى ، ومضى يقطع الفيافى والقفار ماضيًا إلى رسول الله ﷺ ليسلم .

الصاعق الكهربى عند خالد :

كما سبق وذكرنا أن الجدار الذى ران على قلب خالد قد بدأت تتهشم بعض جوانبه، ونفذت منه ثغرة زحزحت شيئًا من غلاظة الكفر ، لتهيئ المجال لدخول الإسلام فيه .

(وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى عمرة القضية ، فطلبنى فلم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٤ ، وقال فيه المحقق : إسناده حسن ، وهو فى المسند ٤/ ١٥٥ ، وأخرجه الترمذى (٣٨٤٤).

يجدنى فكتب إلى كتابًا فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك ، فقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتى الله به ، فقال : «ما مثله جهل الإسلام ،ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين ، لكان خيرًا له ، ولقدّمناه على غيره »، فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواقع صالحة).

وإذا كان الصاعق عند عمرو ضربة ، فالصاعق عند خالد رسالة .

والقسم الأول من هذه الرسالة يحمل عتابًا شديدًا لتأخره عن الإسلام ، وحيث إن هناك ثغرة تنفذ إلى قلب خالد ، فقد كان لهذا العتاب دوره . (فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟) ، وأساس قبول هذا الكلام عند خالد هو أنه لا يحمل صيغة التبكيت والتوبيخ ، بمقدار ما يحمل صيغة الثناء والإكبار للإسلام الذى يناسب العقل النير الحصيف وللعقل الكبير الذى يفقه هذا الدين ويتجاوب معه ، ولعل هذه الكلمات فقط لو كانت هى الرسالة تصل بخالد إلى الإسلام ، لكنها تيار ضعيف ، يمكن أن يتردد ويتذبذب ويتقطع ، فلا يزال فى قلبه جبال الماضى البعيد من الحرب والحقد بينه وبين نبى هذا الإسلام ، أليس هو الذى حاربه فى كل موقع ، وهو الذى أفقده سبعين من خيرة أصحابه ، وهو الذى شارك فى حصاره قبل عام بهدف استئصاله ، فلو أنه اقتنع بالإسلام فما الذى يهدم هذا الحقد ؟ وخالد أليس هو ابن الوليد بن المغيرة الذى مثّل عزة بنى مخزوم وحربها ضد بنى عبد مناف ، حتى نزل القرآن يهجوه لمواقفه ؟ فهل يبيع مجد بنى مخزوم بمثل هذه البساطة ليكون جنديًا ذليلاً عند محمد، ينتقم منه شر انتقام ؟ ألم يكن ابن عمه أبو جهل بن هشام هو قائد قريش كلها ضد محمد ﷺ ، وعبأ العرب،وسقط قتيلاً فى بدر للمحافظة على شرف قبيلته ؟ فهل ينتهى هو لبيع شرف هذه القبيلة على يديه ؟ كل هذه التساؤلات كان يمكن أن تثور لو أن الرسالة انتهت عند هذا الحد ، وقد يحتاج مشروع الإسلام إلى سنين ليتأكد من زوال هذه الرواسب وآثارها عند محمد بن عبد الله .

ولكن جاءت القنبلة الموقوتة فى الرسالة ، والتى دكت قلعة الشرك كله ، وقلعة العصبية كلها ، فانهارت القلعة تمامًا وغدت ركامًا ، واحترق هذا الركام ، بفعل هذه القنبلة الصاعقة .

(وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك ، فقلت : يأتى الله به) وهو هذا الفتيل قبل الانفجار، فأن يبلغ من شأن خالد بن الوليد عند محمد المنتصر الذى دخل مكة رغم أنف قريش أن يسأل عنه محمد ﷺ ، فهو الأمر الذى يصب فى قلب المشكلة .

فقال :(« ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له،ولقدمناه على غيره »)، ثلاث جمل،بل قل : ثلاث قطع ، كل قطعة حملت تياراً مزق وأحرق الران فى القلب،فخالد فى ذهن محمد ﷺ عظيم من عظماء الأمة ، وسيد من ساداتها ، ولا يحق لمثله أن يجهل الإسلام ، والقطعة الثانية : (« ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ») فهو اعتراف بعبقريته وتفوقه، وطاقاته وإبداعه فى المجال العسكرى، ويمكن أن يضع كل هذه الطاقات والعبقرية فى خدمة الإسلام كما كان يضعها فى خدمة الجاهلية ، إن خالداً ليس نكرة من جهة، ولن يتم تجاهله فى هذا الموقع الجديد، وليس جنديًا مغموراً لا يعرفه أحد، وكانت القطعة الأخيرة التى رفدت الشحنات السابقة فأجهزت على كل عناصر التردد والخوف ، والشك ، والحقد ، والكبر ، والعصبية فى نفسه (« ولقدمناه على غيره »)، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ مدى الثقة بمحمد ﷺ ومصداقيته،هذه ليست ذات شك أبداً عنده ، فتجربته العملية خلال عقدين من الأعوام ، ووفاءه بالعهد تجعله رمزاً للعرب كلهم فى الوفاء والأمانة والبعد عن الغدر .

وهكذا أسلم خالد وهو يقرأ آخر حرف فى الرسالة إسلامًا أضاء قلبه وغمر فؤاده ، وأصبح قادراً أن يكون هو التيار المولد بعد الآن،وهو الطاقة العجيبة،وهو موطن الإشعاع والإنارة ، من أجل هذا راح ـ رضوان الله عليه ـ قبل أن يلفظ بكلمة الإسلام يستعرض كل القادة من رفاقه ،لعله يزيل هذا الركام من قلوبهم،ويمضى بهم معه إلى محمد ﷺ .

خالد الداعية :

نعم ،خالد الداعية إلى الإسلام ،ولم ينطق بعد بلفظ الإسلام ، فقد أسلم قلبه لله رب العالمين ، ولساعته ، فقد أصبح صاحب قضية ، ورجل هدف ،وتحول تركيبه كله من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الظلمات إلى النور . وساعد على اتخاذ هذا الموقف ، تلك الرؤيا التى رآها (وأرى فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جديبة فخرجت إلى بلد أخضر واسع) فعليه أن يمضى إذن إلى هذا البلد الأخضر ، إلى المدينة المنورة .

(فلما أجمعت الخروج فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، إنما نحن أكلة رأس) .

فإن عليه ـ وقد سلك طريق الدعوة ـ أن يسلك بها طريق الحكمة ، فلابد أن يوضح لزميله القائد الوضع الذى آلت إليه مكة بعد عمرة القضية ، وبعد دخول محمد لها ، فلم تعد مكة تذكر فى انتصارات محمد فى الأرض ، (وقد ظهر محمد على العرب والعجم) ، وهذه قضية يدركها صفوان بن أمية بما لديه من كفاءات عسكرية أهلته للزعامة فى عشيرته .

(فلو قدمنا على محمد فاتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف) ، وهذا هو لب القضية ، فالذهاب إلى محمد ليس ذهابًا إلى محكمة ميدانية تحاكم مجرمى الحرب ، إنما هو ذهاب إلى زعيم يقود العرب بقومه وبأمثال هؤلاء القادة،فشرف محمد هو شرف لكل قرشى ، (فأبى أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيره من قريش ما اتبعته أبدًا).

وحيث إن خالدًا رضي الله عنه أضاء قلبه بمشكاة الإيمان،أصبحت الإضاءة لديه واضحة ، ليكشف من يعيش فى الظلام الدامس ، فوضع الإنارة الكافية ، وسلطها على موقف صفوان ، فبدت أمامه عوامل الصراع النفسى لدى صفوان فقلت : (هذا رجل موتور يطلب وترًا قد قتل أخوه وأبوه ببدر) وهذا هو كل ما عند القيادة القرشية .

وبالإضاءة نفسها ، وبالكاشف نفسه ، رأى عكرمة بن أبى جهل ابن عمه (فلقيت عكرمة بن أبى جهل، فقلت له مثل الذى قلت لصفوان، فقال لى مثل ما قال صفوان)، وكاد أن يمضى دون أن يسلط كاشفه على عثمان بن طلحة،لكنه لا يضيره أن يكون داعية لأعتى من صفوان وعكرمة، وما أعتى منهما غير عثمان، فقد سقط أهل عثمان كلهم قتلى فى أحد، لكن لم يدر بخلده أن عثمان بن طلحة قد تعرض لتحويل كبير مثله، لا ندرى نحن طبيعته وكيف غزاه وأنار قلبه ،إنما رأينا نتائجه فقال :(فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بفخ مناخة . . . فأدلجنا سحرًا فلم يطلع علينا الفجر حتى التقينا بيأجج فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم،فقلنا :وبك ، قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك؟ قال : فما الذى أخرجكم ؟) ، ولابد من هنا أن تتحرك نفسية الداعية إلى الإسلام والذى لم ينطق بعد بالشهادتين،فهذا عمرو بن العاص زعيم كذلك من زعماء مكة ، فلم لا يعرض عليه المشاركة فى المسيرة إلى محمد،و بمقدار ما بدت شخصية عمرو الداهية، المخططة ، حيث رفض أن يتحدث عن مسيره ، بمقدار ما برزت شخصية خالد الواضحة المبصرة فقال له :(الدخول فى الإسلام ، واتباع محمد ﷺ) وفى رواية الإمام أحمد : (فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة،فقلت:أين يا أبا سليمان؟ قال : والله لقد استقام المنسم(١) ، وإن الرجل لنبى ، أذهب والله أسلم ، حتى متى)، فلينل عمرو من دعوته كما نال من قبل عكرمة وصفوان وعثمان .

رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها :

وانطلق الركب الثلاثة ميممين صوب المدينة ،وهم سادة مكة بلا منازع إلا أبا سفيان فالذين تركوهم بمكة : عكرمة ، وصفوان ، وسهيل لا يبلغون شأو خالد فى العبقرية

(١) المنسم : الأثر والعلامة ، والمراد تبين وظهر الطريق .

الحربية ، ولا يبلغون شأو عمرو بن العاص فى الدهاء ونصاعة الرأى ، ولا يبلغون شأو عثمان فى الموقع ، فعثمان بن طلحة سادن الكعبة ، الكعبة التى قدست مكة من أجلها ، والتى يعترف العرب بفضل قريش لوجودهم حولها فهم سدنة البيت وهم أهله ، يبرز عثمان بن طلحة على رأس هؤلاء جميعًا،فقد انتهت حجابة البيت إليه من بنى عبد الدار، ويحمل عثمان بن طلحة مجدًا آخر هو صاحب اللواء ، فاللواء فى قريش كان فى بنى عبد الدار ، وعثمان بن طلحة سيد بنى عبد الدار بلا منازع ، وأما عمرو بن العاص ، فصحيح أنه لا يبلغ فى عراقة المجد القبلى ما يبلغه عكرمة بن أبى جهل ، وإن كان يتساوى مع صفوان فهما من مستوى واحد سهم وجمح ، وسهيل بن عمرو وصل إلى موقع القيادة برجاحة رأيه لا بعراقة نسبه ،فهو فى المرتبة الثانية فى النسب ؛ لأنه من بنى عامر بن لؤى وليس من بنى كعب بن لؤى ، وكعب هو صريح ولد إسماعيل ، وأوسط نسبًا من عامر،وفى المجال العسكرى والقيادة الحربية لا يتفوق على خالد بن الوليد أحد؛ لأنه هو الوحيد الذى استطاع خلال هذه السنين الثمانية أن يحقق نصرًا يذكر فى تاريخ قريش يوم أحد ، وهو النصر الوحيد كذلك ، ومعنى مضى هؤلاء الثلاثة ليسلموا هو أن مكة قد ألقت المقادة بعد هذين الرجلين ، كما ذكر الذى رآهما قادمين للإسلام .

لقد استسلمت مكة عسكريًا وسياسيًا بانضمام هؤلاء القادة الثلاثة إلى الإسلام ، وكما ورد فى بعض الروايات عن رسول الله ﷺ قوله حين بلغه وصول عمرو وخالد وعثمان : « لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها » .

اللقاء السعيد :

وكان رسول الله ﷺ سعيدًا فرحًا بأغلى هدايا مكة له ، هؤلاء القادة الكبار ، وهذه الكنوز الخالدة ، وكما قال الوليد بن الوليد لأخيه :(أسرع،فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى فاطلعت عليه ، فما زال يبتسم حتى وقفت عليه) .

وذاك عمرو بن العاص يصف هذا اللقاء السعيد بقوله:(وإن لوجهه تهللاً والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا) . لقد جاء هذا اللقاء بعد حرب ضروس بين هؤلاء القادة ومحمد ﷺ والمسلمين معهم استمر ثمانى سنين لا يهدأ لها أوار ، عبئت له كل الطاقات العربية المجاورة ، وها هم الآن يأتون مسلمين لله ولرسوله ، ولقد كانت قضية واحدة تقلق القائدين عمرًا وخالدًا ، هذه القضية هى مسح ذلك الماضى الذى ينز دمًا وحقدًا على الإسلام والمسلمين .

يقول خالد رضي الله عنه :(يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا الحق ، فادع الله أن يغفرها لى ، فقال رسول الله ﷺ :« الإسلام يجب ما كان قبله ») .

ومع ذلك ، وبعد أن التقى خالد ببؤرة النور ، واتصل بالمصدر الأساسى فى الأرض لهذا النور : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ ﴾ [المائدة] ، فيود أن ينال شرف هذا التضرع من رسول رب العالمين لرب العالمين فى المغفرة لخالد فعاد يكرر : (قلت : يا رسول الله ، على ذلك ؟ فقال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك »).

وأما عمرو رضي الله عنه فيعطينا إضاءة أخرى عن نفسه ، وقد ترك زميليه يتقدمانه إلى البيعة لشدة حيائه من رسول الله ﷺ (فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى إليه حياء منه ، فبايعته على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولم يحضرنى ما تأخر ، فقال :« إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها ») فقد كان شعور الحياء من ذلك الماضى الآسن هو الذى يسيطر عليه ، وما يستطيع أن يجيل طرفه بوجه رسول الله ﷺ ، ولا يضع عينه بعينه .

ومثل هذا الدخول فى الإسلام من القادة الأعداء ، لو كان فى غير مدرسة النبوة ، لكان عليهم أن يوضعوا تحت التجربة سنوات قبل الاطمئنان إليهم ، ومراقبتهم ، والحذر منهم ، وتحذير المسلمين من الاتصال بهم ،أما فى مدرسة النبوة ، فمنذ اللحظات الأولى للإسلام ، يتقدم هذا العدو ليأخذ موقعه المتناسب مع كفاءاته وإمكاناته وخبراته ، وكأنما هو من أهل دار الأرقم ، أو من الرعيل الأول من المهاجرين .

يقول عمرو : (فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ ، وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا) ، لقد احتلوا الموقع الأول من الصدارة فى المسؤولية والمواجهة العسكرية منذ لحظات إسلامهما ، إلى أن توفى الله تعالى نبيه ، (ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة ، وكان عمر على خالد كالعاتب) .

درس إلى الدعاة :

ونذكر الدعاة فى الأرض أن يقفوا على أعتاب هذه المدرسة النبوية ويتعلموا من إمام المربين والدعاة فقه الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وهم يحسبون أن الكم الكبير الذى يحفظونه من النصوص ، والخطب ، والأشرطة ، والكتب ، والحشد الضخم الذى

يسوقونه من الحجج هو الطريقة الوحيدة فى الدعوة ، وحين يجدون استقصاء أو توقفًا عن الاستجابة أو إدبارًا من الناس، فيفضحون هؤلاء الناس، ويتهمونهم بدينهم وبعقيدتهم وبتقواهم، دون أن يرجعوا إلى أنفسهم ويراجعوا طريقة دعوتهم، والقرآن الكريم عندما تحدث عن الدعوة إنما ساق وسيلة الدعوة من خلال العمل والسلوك والقدوة ، ولم يتحدث عنها من خلال الوعظ والإرشاد كما يقول عز وجل : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)** ﴾ [فصلت] .

فالميزان الحساس فى نجاح الدعوة هو : أن تجعل الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ،وأسلوب ذلك هو: أن تدفع السيئة بالتى هى أحسن، ليس بالسيئة وليس بالحسنة ، ولكن بالتى هى أحسن ، وما يتأتى هذا الذى هو أحسن إلا بمراجعة العديد من الحسن ، ليختار الأحسن منهما، ولا يكفى أن يكون حسنًا فقط ، وتبرز أمامنا ظاهرة إسلام خالد وأسميناها ظاهرة ؛ لأنها تتكرر فى المدرسة النبوية مع الكثير من القادة والسادة والزعماء الذى حملوا راية حرب الإسلام أعوامًا طويلة، وحملوا من الحقد على الإسلام وأهله ما كان أن يوزع على أهل الأرض، واستطاع سيد الدعاة ﷺ أن يستل تلك الجبال من الحقد والغيظ والكراهية للإسلام باستعمال: التى هى أحسن، بحيث لا يكون فوقها حسن.

وحين نقف أمام هذه الكلمات القليلة التى سطرها الوليد بن الوليد فى رسالته لأخيه خالد ، والتى لم تتجاوز السطرين ولم تتجاوز خمس عشرة كلمة ، كان لها مفعول أطنان الكتب والمقالات والخطب والمواعظ والأشرطة المرئية والمسموعة من التأثير فى نفس خالد العظيم ، لقد أدرك ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن حب الشرف والسيادة هو مفتاح شخصية خالد التى تملك مقومات البطولة والعبقرية العسكرية ما لا يكاد يدانيها أحد ، وكلما سرت فى مواجهة هذا الشرف والنيل منه ، والحط منه ، وتصغير صاحبه ، كلما أبعدت المسافة ، وأبعدت النجعة بينك وبين المدعو ، وهو على استعداد أن يقاتل عشرين سنة أخرى ، ولا يساوم على كرامته ، أو يعطى يده لذل ، أو تهان شخصيته ، وكلما أمعنت فى رفع هذا الشرف ، والتعامل معه ، كلما قربت المسافة بينك وبين هذا العدو ، وضيقت الهوة بينك وبينه .

وكل الذى كان يدفع خالدًا رضي الله عنه إلى التفكير بالسفر إلى الحبشة أو كسرى أو قيصر، إنما هو خوفه من تحقيره أو إذلاله من سيد الخلق محمد ﷺ أو تعييره أو إهانته

بعد هذه الحرب العدائية الضروس ، وجاءت هذه الكلمات القليلة فى الموقع المناسب ، كأنها تلك اللبنة التى يكمل بها البناء لا زيادة ولا نقصانًا جاءت كلمات المصطفى ﷺ: « ما مثل خالد يجهل الإسلام »؛ لتؤكد لخالد أنه معترف بشرفه وفضله وعقله عند عدوه اللدود محمد ﷺ و(« لو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين ضد المشركين لكان خيرًا له ») فهو بإمكانه أن يطوى صفحة الماضى بما ينال من تقدير عظيم عند محمد ﷺ، ويكون جنديًا فى الصف الإسلامى منذ اللحظات الأولى (« ولقدمناه على غيره ») هكذا دون تحديد ، فهو إذن القائد فى الإسلام ، مثل ما هو القائد فى الجاهلية وليس حبيس السجن ،أو الإقامة الجبرية ، أو تكسير رتبه العسكرية كلها ، ليكون جنديًا عاديًا ، بل «القدمناه على غيره » .

فإذن ما الذى يحول بينه وبين الإسلام ؟ هل هو عدم القناعة بالإسلام ؟ بالتأكيد لا ؛ لأنه وضح له أن الرجل ممنوع ، ووضح له أنه يوضع فى غير شىء ، وأنه إنما يغالب الله رب العالمين ، لكن العزة التى يخاف من فقدها والشرف الذى يخاف من النيل منه ، والكرامة التى يتحسب من تمريغها بالوحل ، هى التى تحول بينه وبين الإسلام ، فإذا توفرت العزة والكرامة والقيادة فى الصف الإسلامى،فأى مبرر بقى له فى صف مفكك منهار ، آيل للهزيمة والسقوط ، هذا المفتاح الذى تعامل رسول الله ﷺ بحيث كان فى أسنانه متطابقًا مائة فى المائة مع القفل القائم على قلب خالد بن الوليد ، ومنذ أن دخل هذا المفتاح فى قفل قلب خالد ، وتحرك فيه، سرعان ما فتح القفل ، وكسر الران،وحطم القيد ، وأطلق سراح العملاق من عقاله ، وكانت الابتسامة التى لم تفارق وجه النبى ﷺ ،وهو يستقبل خالد بن الوليد ،وهو يدعو إلى ربه كذلك أن يغفر له ما كان له من مواقف صد عن سبيل الله ،فخرج من عنده مضيئًا بنور الإسلام ، وغدا هو نفسه مصدرًا للنور والإشعاع فى الأرض ينير للآخرين دربهم ، فقاد معه عثمان بن طلحة،وعمرو بن العاص ،وانضموا إلى الدين الجديد (وما عدل رسول الله ﷺ بخالد ولا بعمرو أحدًا إذا حزبه أمر حتى توفاه الله تعالى إلى جواره) .

ويفقه الدعاة إذن درس إسلام خالد ، ودور خمس عشرة كلمة فى تحويل العدو اللدود إلى الصديق الحميم والولى الحميم ، وحين تحدث القرآن الكريم عن أساليب الدعوة قدم الحكمة قبل الموعظة ، والحكمة التى تعبر عن رحلة استعمال « التى هى أحسن » من بين مجموعة من الحسنات ، واختيار أحسن شىء فيها هى الحكمة ، ويأتى بعدها دور الموعظة ، والموعظة نفسها يجب أن تكون حسنة كذلك بحيث لا تعتمد الإكثار والإملال ، وإضاعة المعانى بضخامتها .

فكانت الوسيلة الأولى سابقة على الثانية وكلاهما يدور بين التى هى أحسن والحسنة.

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] :

والعجيب أن تكون الدعوة فى كلمات رسالة ، وليست مواجهة أو حديثًا مباشرًا أو مكالمة بواسطة ، إنما كانت كلمات وضعت فى رسالة الوليد التى استطاع فيها الداعية الوليد بحكمته كذلك أن يضعها فى إطارها المناسب وفى جوها المناسب ،(أما بعد : فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك) ، ثم وضع نص الحديث مع النبى ﷺ وختم الرسالة بقوله :(فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة) ، ثم نشهد بعدها خالد الداعية رضي الله عنه ، وقد تعلم من المدرسة النبوية فن الدعوة ، فمضى إلى صفوان ، ليحرك جانب الشرف فيه ، ويربط الإسلام بالشرف (يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه، إنما نحن أكلة رأس وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف) ، وعندما أبى ، وكان الحقد عنده أكبر من الإسلام نفسه ، ولم تكن تلك الثغرة التى تسللت إلى نفس خالد قد وجدت عنده ، وكان الران لا يزال مسيطرًا على قلبه ، ولم تكن أسنان مفتاح خالد متطابقة تمامًا مع قفل قلب صفوان فلم يفتح القفل ، وحاول ذلك مع عكرمة ، وكانت النتيجة نفسها ، ثم كانت كلمته مع عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، وأضاف سنًا جديدًا لمفتاحه بقوله : (إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب ماء لخرج ، وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبيه)، وكان قد فتح قفله قبل خالد ، وما ندرى كيف فتح ، فمضى معه إلى المدينة ، ونجده يتابع الدعوة حتى مع عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما قال له: (قلت :أبا سليمان ! قال: نعم . قلت: أين تريد ؟ قال : محمدًا ، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع ، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها)، وفى رواية الإمام أحمد: (والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لنبى ، أذهب والله فأسلم ، حتى متى . .) وكان قفل عمرو قد فتح منذ ضربة النجاشى ،وهكذا شهدنا خالدًا داعية إلى الله تعالى من أثر ونور كلمات النبوة التى سطرت له ، قبل أن يعلن كلمة التوحيد بين يدى قائده ونبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

صفحتان :

ويعرض لنا عمرو بن العاص صفحتين متقابلتين تمثلانه فى الظلمات وفى النور ، يقول :

(إني كنت على أطباق ثلاث:لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى ، ولا أحبَّ إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار) ، وكم من الملأ من قريش كان على مثل ما كان عليه عمرو ، ومات على حالته على هذا الطبق ، فكان من أهل النار ، وكان أبوه العاص بن وائل السهمى على رأس هؤلاء ، ولولا الرسالة ، لطوتهم هؤلاء جميعًا الدنيا ولم تحفل بهم ، أما الطبق الثانى (فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ ، فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه ، فقبضت يدى ، قال : « مالك يا عمرو » ، قلت : أردت أن أشترط ، قال :« تشترط بماذا ؟ » قلت :أن يغفر الله لى ، قال:« أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ ») ..

ودخل فى الإسلام ، فما هو التحول العجيب الذى حل به وبقلبه ؟

يقول : (وما كان أحد أحب إلىّ من رسول الله ﷺ) ، هذا الحب الذى كان بغضًا كله ، يتحول حبًا كله ، هذا عن الحب فماذا عن الإجلال ؟

(.. ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى إجلالاً منه ، ولو شئت أن أصفه ما أطقت ؛ لأنى لم أكن أملأ عينىَّ منه) .

وهذا أوضح جلاء للصورة القرآنية :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] .

ما كان شيء أحب إليه من قتله ، ثم ما كان يطيق أن يملأ عينيه إجلالاً له ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يصفه .

(ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة)(١) .

ونرجو الله تعالى له أن يكون من أهل الجنة ؛ فقد « أسلم الناس وآمن عمرو ابن العاص » (٢) .

---

(١) الحديث فى مسلم ، ح (١٧٣) ، كتاب الإيمان .

(٢) سبق تخريجه ص ٩٣ .

سرايا نصر ومحن مع بداية العام الثامن

سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح بالكديد فى صفر سنة ثمان :

(روى ابن إسحاق[1] ، والإمام أحمد[2] ،وأبو داود من طريق محمد بن عمر وابن سعد رحمهم الله تعالى عن جندب بن مكيث الجهنى ﷺ قال :بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى ، ليث كلب بن عوف فى سرية كنت فيهم ، وأمره أن يشنَّ الغارة على بنى الملوح بالكديد[3] ، وهم من بنى ليث ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثى فأخذناه فقال : إنما جئت أريد الإسلام ، وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : لن يضرك رباط يوم وليلة إن كنت تريد الإسلام ، وإن يكن غير ذلك فنستوثق منك ، قال:فشددناه وثاقًا ، وخلَّفنا عليه رويجلاً منا أسود، يقال له: سويد بن منحر، وقلنا: إن نازعك فاحتز رأسه، ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس ، فكمنًا فى ناحية الوادى .

وبعثنى أصحابى ربيئة[4] لهم فخرجت حتى أتيت تلاً مشرفًا على الحاضر[5] يطلعنى عليهم ،حتى إذا أسندت فيه[6] وعلوت رأسه انبطحت ـ وفى رواية : فاضطجعت على بطنى ـ قال : فوالله إنى لأنظر إذ خرج رجل من خباء له ، فقال لامرأته : إنى أرى على هذا التل سوادًا ما رأيته عليه صدر يومى هذا ، فانظرى إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرَّت منها شيئًا ، قال : فنظرت فقالت : والله ما أفقد من أوعيتى شيئًا ،فقال لامرأته : ناولينى قوسى ونبلى ، فناولته قوسه وسهمين معها ، فأرسل سهمًا فوالله ما أخطأ به جنبى ـ ولفظ ابن إسحاق وابن سعد :بين عينىَّ ـ قال : فانتزعته وثبتّ مكانى ، ثم رمانى الآخر فخالطنى به ـ ولفظ ابن إسحاق وابن سعد : فوضعه فى منكبى ـ فانتزعته فوضعته وثبتُّ فى مكانى ، فقال لامرأته:والله لو كان ربيئة ، لقد تحرك بعد ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٣٠ بشرح الوزير المغربى .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٦٧، ٤٦٨، وقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أنه بسند حسن ٣/٥/١٨٦ .

(٣) كديد : فى القاموس : بين الحرمين ، وفى شرح المواهب : إلى مكة أقرب على اثنين وأربعين ميلاً ، وفى الصحيح ماء بين عسفان وقُديد .

(٤) ربيئة : طليعة .

(٥) الحاضر : القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه .

(٦) أسندت فيه : صعدت .

لقد خالطه سهماى ـ لا أبالك ـ فإذا أصبحت فابتغيهما لا تمضغهما الكلاب ، قال : ثم دخل الخباء ، وراحت ماشية الحى من إبلهم وأغنامهم .

فلما احتلبوا وعطنوا [1] واطمأنوا فناموا شننا عليهم الغارة ، فقتلنا المقاتلة ، وسبينا الذرية ، واستقنا النعم ، والشاء ، فخرجنا نحدرها قبل المدينة حتى مررنا بابن البرصاء فاحتملناه واحتملنا أصحابنا ، وخرج صريخ القوم فى قومهم فجاءنا ما لا قبل لنا به فجاءنا القوم حتى نظروا إلينا ؟ ما بيننا وبينهم إلا الوادى وهم موجهون إلينا ؛ إذ جاء الله تعالى بالوادى من حيث شاء بماء يملأ جنبتيه ، وايم الله ما رأينا قبل ذلك سحابًا ولا مطرًا ، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه[2] ،فلقد رأيتهم وقوفًا ينظرون إلينا ، وقد أسندناها فى المشلل[3] نحدرها ـ وفى لفظ : فى المسيل ـ وفُتناهم فوتًا لا يقدرون على طلبنا ، ثم قدمنا المدينة .

وروى محمد بن عمر عن حمزة بن عمرو الأسلمى قال : كنت معهم وكنا بضعة عشر رجلاً ، وكان شعارنا : أمِت أمِت) [4] .

سرية شجاع بن وهب الأسدى رضي الله عنه إلى بنى عامر بالسى[5] فى ربيع الأول سنة ثمان :

(حدثنى الواقدى قال : حدثنى ابن أبى سبرة عن إسحاق بن عبد الله عن عمرو بن الحكم قال : بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدى فى أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن بالسى ، وأمره أن يُغير عليهم ، فخرج فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبَّحهم وهم غارون، وقد أوعز إلى أصحابه قبل ذلك ألا يمعنوا فى الطلب فأصابوا نعمًا كثيرًا وشاءً ، فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة ، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيرًا كل رجل ، وعدلوا البعير بعشرة من الغنم ، وغابت السرية خمس عشرة ليلة .

قال ابن أبى سبرة : فحدَّثت بهذا الحديث محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان فقال : كانوا قد أصابوا فى الحاضر نسوة فاستاقوهن ، وكانت فيهن جارية وضيئة فقدموا

---

(١) عطنوا : أسقوا الإبل وأرووها .　　(٢) يجوزه : يقطعه

(٣) المشلل : ثنية مشرفة على قديد .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٧٥٢ ، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢١٧، ٢١٨ .

(٥) السِيّ: بكسر أوله وتشديد ثانيه بلا همز ، وهو ماء على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة ، وخمس إلى المدينة .

بها المدينة ، ثم قدم وفدهم مسلمين ، فلما قدموا كلموا رسول الله ﷺ فى السبى ، فكلم النبى ﷺ شجاعًا وأصحابه فى ردهنَّ فسلموهنَّ وردوهن إلى أصحابهن ، قال ابن أبى سبرة : فأخبرت شيخًا من الأنصار بذلك فقال : أما الجارية الوضيئة فكان شجاع بن وهب قد أخذها لنفسه بثمن فأصابها فلما قدم الوفد خيَّرها ، فاختارت المقام عند شجاع ابن وهب ، فلقد قتل يوم اليمامة وهى عنده ، ولم يكن له منها ولد)(١) .

سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح فى شهر ربيع الأول سنة ثمان :

قال الواقدى : حدثنا محمد بن عبد الله عن الزهرى قال : (بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفارى فى خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعًا من جمعهم كثيرًا ، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل ، فلما رأى ذلك أصحاب النبى ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا فأفلت منهم رجل جريح فى القتلى ، فلما يرد عليهم الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وهمَّ بالبعث إليهم فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم).

حدثنى ابن أبى سبرة عن الحارث بن فضيل قال:(كان كعب يكمن النهار ويسير الليل حتى دنا منهم ، فرآه عين لهم فأخبرهم بقلة أصحاب النبى ﷺ ، فجاؤوا على الخيول فقتلوهم)(٢) .

فى صفر الخير سنة ثمان ، وفى الشهر الذى أسلمت فيه قيادات مكة ، كان بعث غالب بن عبد الله الكنانى الليثى إلى بنى الملوح بالكديد ، ونشير إلى أن هذا القائد هو من قبيلة بنى الملوح ؛ إذ ينتهون جميعًا إلى عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر ، لكن غالبًا من فرع كلب بن عوف ، أما بنو الملوح فمن فرع المشراخ بن عوف ، ولهذا أوكل إليه قيادة هذه السرية ، فهو أعرف بقومه وأدرى بهم وبأرضهم ، وسبق لغالب سرايا وفّق فيها وحقّق انتصارات عظيمة ، وقد نقل لنا خبر السرية عن جندب بن مكيث الجهنى رضي الله عنه .

ونشير إلى أن بنى ليث بن كنانة هم فرع من بكر التى حالفت قريشًا ضد رسول الله ﷺ،وليس بين يدينا ما يشير إلى سبب هذه الغزوة،لكن الذى عندنا هو تفصيلات المعركة

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٥٣، ٧٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٧٥٢، ٧٥٣ .

كما نقلها جندب ﷺ خاصة في المهمة التي كلف بها وهو أن يكون طليعة القوم ، حيث اختار المكان المناسب في رأس الجبل الذي يطل على الحاضر، ويشهد كل تحركات العدو ، وكيف كان جنديًا في قمة الانضباط وقمة الخبرة، فقد انبطح على بطنه بحيث يستطيع أن يرى كل شيء ولا يرى ، وكانت المفاجأة التي واجهته هو ذلك الأعرابي الذي رأى سواده ولم يتأكد من شخصه هل هو إنسان أم دابة أم شيء ما وقع على الجبل ، وينقل لنا الحديث مفصلاً بين الأعرابي وزوجته ، إذ توقعه ابتداءً أن يكون كلبًا، فطلب من زوجته أن تتأكد من أمتعتها ألا تكون الكلاب قد أخذت شيئًا منها، ولا شك أنه كان راميًا ماهرًا، كما وصفه جندب فقد رمى السهم الأول ، وأصاب بين عيني جندب ، وراح الدم ينزف نهرًا ، لكنه خشي إن تحرك أن يكشف فتفشل مهمته التي جاء من أجلها وهي تعرفه على وضع القوم وعودته إلى الجيش يمده بما لديه من معلومات ، واكتفى أن ينتزع السهم من جبينه أو من جنبه، ثم كان السهم الثاني الذي غرِز في منكبه، واكتفى بأن رماه، وترك الدم يتدفق منه وهو منبطح على الأرض لا يبدي حراكًا بحيث أوهم العدو أنه لا طلب له، ولا عدو، وعرَّض نفسه للموت ، حفاظًا على نجاح مهمته، حيث يحدثنا بعدها ، عن الانقضاض على العدو ، وأخذ الغنائم وقتل من قُتِل منهم .

وكان درسًا تربويًا عظيمًا في الفداء والتفاني لحسن تنفيذ المهمة ، وحسن أدائها لكل جندي يكلف بمهمة الاستطلاع المناسب بحيث يخفي مهمته عن العدو بأكبر قدر من السرية والكتمان ويحقق أكبر قدر من المعلومات عن العدو تقدم لقيادة الجيش المسلم .

ونلاحظ أن الجيش قد يباد كله نتيجة فشل المهمة الاستطلاعية ، فسرية كعب بن عمير الغفاري ﷺ قد استشهد جميع أفرادها ، لوجود عين من العدو كشفت تحركاتهم، فدفعت العدو للانقضاض عليهم حيث قاتلوا أشد القتال ، واستبسلوا أشد الاستبسال ، وخاصة عندما تكون المهمة في قلب أرض العدو ، وبأعداد قليلة لا تثير الانتباه ، وتكون مكلفة بتنفيذ عملية داخل أرض العدو .

ولو أن جندبًا ﷺ تحرك ، وتململ من الألم الشديد ، أو وقف أو هرب لانكشف أمره ، وأمر الجيش من ورائه ، ولا ننفي دور القائد العظيم في التوجيهات المناسبة لجنده فغالب ﷺ خبير الأرض والقوم وصاحب الكفاءة القتالية، يضع الخطة كاملة ، ويلاحق كل فرد بعينه عند تحديد مهمته المطلوبة ، ونترك المجال لعرض هذه الكفاءة العسكرية للفريق الركن محمود شيت خطاب ، حيث يصف غالبًا ﷺ في هذه السرية بقوله :

(لقد استطاع غالب بحذره ويقظته واستطلاعه الحصول على المعلومات الكافية عن

عدوه ، فباغتهم بالهجوم الليلى مباغتة كاملة بالأسلوب ؛ إذ لم يكن المشركون يتوقعون هجومًا ليليًا عليهم ،كما باغتهم بالزمان إذ لم يكن المشركون يتوقعون الهجوم عليهم ليلاً، بل اطمأنوا وأمنوا،كما استطاع غالب بسرعة الحركة من الابتعاد عن المشركين ، والخلاص من مطاردتهم له ، فأدى غالب واجبه فى هذه السرية أداء رائعًا حقًا ، وحقق أهدافه كافة منها) (١) .

ويخلص بعد هذا العرض فى هذه السرية وسراياه السابقة واللاحقة إلى القول :

(أما السمات القيادية لغالب فواضحة كل الوضوح ؛لأنه قاد ثلاث سرايا من سرايا النبى ﷺ فى حياته المباركة ، كما قاد مقدمة المسلمين فى فتح مكة ، فلما التحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى استمر على نشاطه فى الجهاد ، فكان من أصحاب الأيام فى حرب العراق وفارس .

ولعل من تلك السمات الحذر واليقظة ، فلم يصدق الأسير الذى ادعى الإسلام ، وأنه فى طريقه إلى النبى ﷺ لإعلان إسلامه ، بل شد وثاقه وجعل عليه حارسًا مزودًا بأوامر واضحة جلية أن يحز رأسه إذا حاول الهروب من الأسر ؛ حتى يحول دون اتصال هذا الأسير بقومه ، وكشف نيات المسلمين مبكرًا مما يؤدى إلى استعداد المشركين للقاء المسلمين .

وكان الأسير من بنى ليث ـ غالب من بنى ليث أيضًا ـ ولكنه لم يراع ابن عمه كما كان يفعل فى أيام الجاهلية بل عامله كأى عدو آخر بصرف النظر عن قرابته ، مما يدل على تغلغل تعاليم الإسلام من جهة ، واجتثاث عنعنات الجاهلية وتقاليدها من جذورها من جهة أخرى .

ومن دلائل يقظته وحذره إرساله الربايا الاستطلاعية ليستطيع إعداد خطته على هدى وبيِّنة ، وبشكل يؤدى إلى النصر .

وكان يحث رجاله على القتال ، ويحثهم على الجهاد ويؤاخى بين أصحابه ؛ ليكون التعاون وثيقًا بينهم قبل المعركة وفى أثنائها وبعدها ، كما يأمر بالطاعة المطلقة يأمر بتنفيذ أوامره نصًا وروحًا ، والابتعاد عن الخلاف والفتنة إذ لا نصر مع الخلاف ، ولا هزيمة مع الطاعة .

وقد كان قائدًا تعرضيًا ، يطبق مبدأ المباغتة بالزمان، فيتعرض بوقت لا يتوقعه العدو، والمكان باتجاه لا يتوقعه العدو ، وبالأسلوب فى التعرض السريع الخاطف ، والانسحاب

---

(١) قادة النبى ﷺ : محمود شيت خطاب ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

السريع الخاطف قبل أن يعود للعدو رشده الذى فقده جراء المباغتة .

ويبدو أن من سماته القيادية سرعة الحركة : التقدم بسرعة إلى ساحة المعركة ، والانسحاب بسرعة مع الغنائم ، فكان أحد رواد الحرب الخاطفة التى بحاجة إلى قابلية الحركة وسرعتها .

وكان من القادة الذين يطبقون مبدأ : إدامة المعنويات ، فكان من أهدافه رفع معنويات رجاله من جهة ، وهدم معنويات أعدائه من جهة أخرى .

وكان سريع القرار وصائبه يثق برجاله ويثقون به ، ويبادلهم حبا بحب،ويعرف مزايا أصحابه وخواصهم ، ويكلف كل واحد منهم ما يناسب كفايته من واجبات، له شخصية قوية نافذة ، يتحمل المسؤولية كاملة ولا يتهرب منها ، ولا يلقيها على عواتق الآخرين ، يتمتع بمزية سبق النظر ،ويحسب لكل أمر حسابه،ويُعد له ما ينبغى لمعالجته وحسمه بسرعة قبل فوات الأوان ، له قابلية بدنية جيدة ، وماض ناصع مجيد .

ولعل من أبرز سماته القيادية : شجاعته الشخصية الفائقة ، فلما أصيبت سرية بشير ابن سعد أعد النبى ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وهو من هو شجاعة وإقدامًا لتأديب بنى مرة الذين أصابوا تلك السرية ، وألحقوا بها أفدح الأضرار بالأرواح ، ولكن النبى ﷺ آثر غالب بن عبد الله للقيام بمهمة تأديب بنى مرة ،وهذا دليل على أنه كان له فى ميزان الشجاعة والإقدام وزن ثقيل .

لقد كان غالب من قادة النبى ﷺ المتميزين) (١) .

بقى أن ندرك جانبًا ذا مغزىً تربوى فى هذه السرايا ، هو استشهاد سرية كعب بن عمير الغفارى رضي الله عنه ونجاة سرية غالب ، فكلتاهما متقاربتان فى العدد ، وكان بالإمكان أن يستشهد رجال سرية غالب جميعًا لولا أن بعث الله السيل من حيث لا يحتسبون ، فيحول بين سرية غالب والموت ، بينما لم يهيأ ذلك لغزوة كعب .

(وخرج صريخ القوم فى قومهم فجاء ما لا قبل لنا به ، ونظروا إلينا وبيننا وبينهم الوادى ، وهم موجهون إلينا ، فجاء الله الوادى من حيث شاء بماء ملأ جنبتيه ، وايم الله ما رأينا قبل ذلك سحابًا ولا مطرًا ، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه،فلقد رأيتهم وقوفًا ينظرون إلينا وقد أسندنا فى المشلل ، وفُتناهم فهم لا يقدرون على طلبنا) .

---

(١) قادة النبى ﷺ :محمود شيت خطاب ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

وساق الله الشهادة لسرية كعب ، وساق الله الماء لسرية غالب ، وكلاهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكليهما إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

شجاع بن وهب : السفير القائد :

ونجى الله تعالى سرية شجاع بن وهب الأسدى حيث أغاروا على هوازن فى السِّىِّ ناحية ركبة ، ونفذوا التعليمات الموجهة إليهم فى كمون النهار ومسير الليل ، ولم يفجأهم عين يراهم فيبلغ عامر هناك بعددهم ،فاستطاعوا أن يستاقوا النعم والشاء ، وقدموا المدينة ، ولم يمعنوا فى الطلب .

وهـذه السرايا الثلاث ليست مهمتهـا المواجهـة والحـرب بمقدار مـا كانت مهمتهـا بث الرعب والخوف فى قلب العدو أن يد محمد ﷺ تصل إلى الشمال فى ذات أطلاح ، وإلى الشرق فى السِّىِّ والركبة،وإلى الجنوب فى الكديد، وأن المنطقة كلها منطقة حرب، تدعو القبائل إلى أن تراجع موقفها ، وتسالم المسلمين .

إن إشعار العدو بالقوة هـو الذى يجعله يراجـع موقفـه ، ويتعامل مـن جديـد مـع الساحـة ، وصحيـح أن النصوص لا تنقل لنا تسارع هذه القبائل للإسلام ، لكن ما نفاجأ به من الأعداد فى الجيوش الإسلامية تبين لنا ذلك ، فإذا كان العدد قد ارتفع إلى ألفين فى عمرة القضية خلال العام السابع ، بعد أن كان جنود الحديبية ألفًا وخمسمائة ، فها نحن نفاجأ بسرية مؤتة،وذلك بعد مضى أربعة أشهر من السنة الثامنة فى ارتفاع العدد إلى ثلاثة آلاف مقاتل،فمن أين جاءت هذه الألف الجديدة ، وخلال النصف الأول من السنة الثامنة،فلقد زاد العدد ضعفين فى ستة أشهر ،عن زيادة الخمسمائة فى عام واحد ، وهذا يعنى أن هذه السرايا قد أعطت مفعولها،وأن مهمتها أن تلفت النظر إلى القوة الإسلامية، كما أن من مهمتها الدعوة ، وقـد شهدنـا سريتين فقـدت كل منهما أفرادها وهم يدعون إلى الإسلام ، سرية ابن أبى العوجاء السلمى فى بنى سليم والتى تربو على خمسين شهيدًا ، وسرية كعب بن عمير الغفارى والتى تربو على خمسة عشر شهيدًا ، وقد دعوا القوم إلى الإسلام فأبوا ثم قتلوا أفراد السرية جميعًا .

ونقف قليلاً عند قيادة شجاع بن وهب الأسدى رضي الله عنه ، فهو من المهاجرين الأولين ومن حلفاء بنى أمية مع عبد الله بن جحش رضي الله عنه وغيره ، ولأول مرة يقود هذه السرية إلى ديار بنى عامر ، وكان أحد الرسل الستة الذين بعثهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء قبل تكليفه بهذه المهمة ، فقد أرسله رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر

الغسانى أو إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر كما فى رواية الطبرانى ، وأدى المهمة بنجاح ، وعاد إلى المدينة ، كما أدى مهمته بنجاح فى ديار بنى عامر وعاد إلى المدينة ، وسنرى بعد قليل أثر هذه السرية من خلال تحرك أكبر زعماء بنى عامر للإسلام على أثر هذه السرية ، وهو علقمة بن علاثة، والذى كان يترقب الأحداث ليتخذ الموقف المناسب، كما سنرى أثر سرية الشهداء فى بنى سليم كذلك حيث تكون الأشهر القادمة من الأشهر الحاسمة فى التاريخ الإسلامى ، من حيث إقبال الناس على الإسلام .

من غزو بنى عامر إلى إسلام سيد بنى عامر

١ ـ لقد حرَّك رسول الله ﷺ بعد الحديبية أكثر من سرية لبنى عامر بن صعصعة ، على رأس بعضها أبو بكر الصديق إلى بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فى شعبان سنة سبع ،بالإضافة إلى سرية عمر بن الخطاب لهوازن بتربة،وبنو عامر منهم ومن جيرانهم إضافة إلى سرية شجاع بن وهب الأسدى التى تحدثنا آنفًا عنها ، وكانت زعامة بنى عامر قد انتهت إلى عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وكلاهما من بنى كلاب ابن ربيعة وذلك بعد أن أصبح أبو براء ملاعب الأسنة عامر بن مالك شيخًا طاعنًا فى السن ، وراح هذان الزعيمان يصولان ويجولان لكسب مواقعهما وإثبات زعامتهما فى القبيلة ، أما نسبهما فهما :

- عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة .
- وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة .

٢ ـ وقد روى ابن عساكر بإسناد له إلى الشافعى حدثنى غير واحد أن عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة تنافرا فقال علقمة : لا أنافرك على الفروسية أبدًا أنت أشد بأسًا منى ، فقال عامر : لا أنافرك على الكرم ، أنت رجل سخى ، فقال علقمة : لكنى موف وأنت غادر ، وعفيف وأنت عاهر ، والد وأنت عاقر)(١) .

٣ ـ ونقف عند غدر عامر بن الطفيل قليلاً ، فهو الغادر الأول بالمسلمين فى قصة سرية بئر معونة ، فقد أجار عمه أبو البراء عامر بن مالك المسلمين ، كى يمضوا دعاة فى بنى عامر (قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد من

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٤/ ٢٦٤ (ت ٥٦٦٩).

الإسلام، وقال : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد تدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ،فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخشى عليهم أهل نجد »، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة[١] المعنق ليموت فى أربعين[٢] رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان،وعروة بن أسماء،ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة فى رجال من المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى أرض بين بنى عامر وحرة بنى سُليم كلا البلدين منها قريب . . . فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا : لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عُصَيَّةَ ورعل وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله . . .) [٣] .

وقد فضح حسان بن ثابت غدر عامر بن الطفيل وإخفار ذمة عمه أبى براء ملاعب الأسنة،وراح يحرض أبناء عامر بن مالك على ابن عمهم عامر بن الطفيل بن مالك بقوله:

بنى أم البنين ألم يَرُعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبى براءٍ ... ليخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعى ... فما أحدثت فى الحدثان بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء ... وخالك ماجد حكم بن سعد[٤]

صحيح أن عامر بن الطفيل انتصر وقتل سبعين من المسلمين ، فتاريخه ملطخ بالدم والغدر بالمسلمين ، وحقٌ قول علقمة فيه الذى أصبح عامر يوصم به :ولكنى موفٍ وأنت غادر ، وعفيف وأنت عاهر .

وكان علقمة بن علاثة ، بعيداً عن حرب المسلمين ، أما عامر بن الطفيل ، فكان قلبه ينز حقداً على المسلمين ، فقد ساق البخارى فى صحيحه نبأ قدومه المدينة قال فيما

---

(١) وهو نقيبهم يوم بيعة العقبة .
(٢) وفى الصحيح أنهم سبعون كما فى فتح البارى ح (٤٠٩١) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام بشرح الوزير المغربى ٢/ ٦٧٧ ، ٦٧٨ .
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٦٧٩ .

رواه عن أنس بن مالك ﷺ :

(وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خيَّر من ثلاث خصال فقال : يكون لك أهل السهل ، ولى أهل المدر ؛ أو أكون خليفتك ، أو أغزوك)[1] .

ويوضح هذه الرواية رواية البيهقى :

(أتـى عامر بن الطفيل النبى ﷺ فقـال لـه : « يا عامر ، أسلم » قال : أسلم على أن لى الوبر ولك المدر ، قال : « لا » ، ثم قال : « يا عامر ، أسلم » ، قال : أسلم على أن الوبر لى ولك المدر ، قال : « لا » .

قال : فولى وهو يقول : والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً، أو لأربطن بكل نخلة فرسًا ، فقال النبى ﷺ : « اللهم اكفنى عامرًا واهد قومه »)[2] .

فتاريخ عامر بن الطفيل تاريخ يقطر بالعداء للإسلام وأهله ، وكان يود أن يأخذ تفويضًا من رسول الله ﷺ أن يعطيه زعامة البادية ، وتكون زعامة الحضر له فلم يحصل على ذلك .

٤ ـ والظاهر أن الأمر قد تطوَّر بين عامر وعلقمة،فبعد أن تراجعا عن المنافرة بينهما، عادا فتحركت صراعات الزعامة بينهما فراحا إلى قبائل العرب ، كل واحد يريد أن يفوق صاحبه .

(وكان علقمة بن علاثة تنافر مع عامر بن الطفيل ، فخرج مع عامر لبيد والأعشى ومع علقمة الحطيئة فحكَّما أبا سفيان بن حرب ، فأبى أن يحكم بينهما ، فأتيا عيينة بن حصن فأبى ، فأتيا غيلان بن سلمة الثقفى فردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى ، فردهما إلى هرم بن قطبة الفزارى ، فلما نزلا به قال : لأقضين بينكما ولكن فى العام المقبل ، فانصرفا ، ثم قدما فبعث إلى عامر سرًا فقال : أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه ،فكيف تكون أنت خيرًا منه ؟ فقال : أنشدك الله أن تفضّله على ، وهذه ناصيتى جُزَّها واحكم بما لى بما شئت أو فسوِّ بينى وبينه .

ثم بعث إلى علقمة سرًا فقال : كيف تفاخر رجلاً هو ابن عمك وأبوك أبوه وهو أعظم قومك غناءً ؟ فقال له كما قال لعامر ، فأرسل هرم إلى بنيه : إنى قائل مقالة فإذا فرغت منها فلينحر أحدكم عن علقمة عشرًا ، ولينحر آخر عن عامر عشرًا ، وفرقوا بين الناس ، فلما أصبح قال لهما جهارًا :

---

(١) فتح البارى ٧ / ٣٨٦ ، ح (٤٠٩١) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٣٢١ .

لقد تحاكمتما إلى وأنتما كركبتى البعير يقعان معًا، وكلاكما سيد كريم، ولم يفضل)[1] .

٥ ـ وتفرق الناس دون أن يحكم أحد لواحدٍ منهما على الآخر ، غير أن الشعراء يتبعون حيث يلتقط الحب ، وحيث إن الأعشى ولبيد كانا مع عامر ، فراح الأعشى يفضل عامرًا على علقمة فيقول :

(سُدتَ بنى الأحوص لم تعدهم وعامـر سـاد بنى عامـر

وذلك فى قصيدة طويلة انتشرت بين العرب انتشار النار فى الهشيم ، فنذر علقمة دم الأعشى ، فاتفق أن ظفر به فأنشد قصيدة نقض بها الأولى يقول فيها :

علقـم يا خير بنى عامر للضيف والصاحب والزائر

وقال له : لئن مننت علىَّ لأمدحنك بكل بيت هجوتك به قصيدة ، فاطلقه)[2] .

ومرَّ الزمن ، وبلغ علقمة بن علاثة أن أبا عامر الراهب توفى عند قيصر ، فمضى يطلب ميراثه هناك .

وذلك فى فترة الحديبية تقريبًا ، والعرب تتناقل الأخبار كلها فديوان شعرهم سجل حياتهم .

(وروى أبو عوانة فى صحيحه من طريق ابن أبى حدرد الأسلمى قال : قال محمد ابن سلمة : كنا يومًا عند رسول الله ﷺ فقال : « يا حسان، أنشدنى من شعر الجاهلية » فأنشده قصيدة الأعشى التى هجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل ، فقال :

« يا حسان ، لا تعد تنشدنى هذه القصيدة » فقال :

يا رسول الله ، تنهانى عن رجل مشرك يقيم عند قيصر ، فقال :

« إن قيصر سأل أبا سفيان عنى فتناول منى، وسأل علقمة فأحسن القول ، فإن أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى » ، ورأيت نحو ذلك مرويًا عن ابن عباس بنحو هذا السياق .

وذكر البلاذرى أن سبب قدوم علقمة على قيصر أنه بلغه موت أبى عامر الراهب ، فقدم هو وكنانة بن عبد ياليل فى طلب ميراثه ، فأعطاه لكنانة ؛ لكونه من أهل المدر ولم يعطه لعلقمة .

٦ ـ ويعود علقمة بن علاثة، ولا يذكر له رسول الله إلا خيراً، بينما كان تاريخ عامرٍ

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٢٦٥ (ت ٥٦٦٩) .

ملطخاً بالدم ، والغدر ، ولعل بعض هذه الكلمات الندية النبوية بلغت علقمة بن علاثة فى الثناء عليه ، فإذا به يقدم إلى المدينة ويعلن إسلامه ، ومعه زعيمان من قومه هما ابنا هوذة خالد وحرملة ، ولفرح رسول الله ﷺ بإسلامهم بعث يبشر خزاعة بهذا الإسلام.

خزاعة على طريق التربية الجماعية

(قال أبو عبد الله : سألت عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبى متى كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة كتابه ؟ فقال : أخبرنى أبى عن قبيصة بن ذؤيب أنه كتب لهم فى جمادى الآخرة سنة ثمان)(١) .

ونقدِّر إذن إذا كانت الكتابة فى جُمادى الآخرة أن يكون إسلام علقمة وابنى هوذة فى جمادى الأولى، وبانضمام هؤلاء القادة من عامر بن صعصعة يعنى أن عامر بن الطفيل قد انكسر جناحه، وتوزعت عامر بينهما، ونقدر أن إسلام علقمة بن علاثة وابنى هوذة لا يقل أثرًا فى العرب والبيئة العربية عن إسلام عمرٍو وخالد من قريش ، وكان هذا الإسلام للقيادات إيذانًا بفتح جديد فى الأرض نشهده فى تتمة حديث قبيصة بن ذؤيب رضي الله عنه .

(. . . فقال: أخبرنى أبى عن قبيصة بن ذؤيب أنه كتب لهم فى جمادى الآخرة سنة ثمان ، وذلك أنه أسلم قوم من العرب كثير ، ومنهم من هو بعد مقيم على شركه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم مصدق بمحمد ، قد أتوا بالإسلام وهو فيمن حوله قليل، حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وهاجروا)(٢).

فتشير الرواية إلى أن عدد الإسلام قليل فيمن حول خزاعة ، حتى أسلم علقمة وابنا هوذة سادة بنى عامر بن صعصعة ، ولأهمية الحدث وما رافقه من دخول جماعى فى الإسلام بعد دخول خزاعة ككيان جماعى قبلى نشهده لأول مرة بعد الأنصار فى المدينة، وهذا هو نص الرسالة .

(حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وهاجروا فذلك حين كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة :

« **بسم الله الرحمن الرحيم** .

من محمد رسول الله إلى بُديل وبشر ، وسروات بنى عمرو : سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإنى لم آثم بإلّكم ، ولم أضع فى جنبكم ، وإن أكرم تهامة علىَّ أنتم ، وأقربهم رحمًا أنتم ومن تبعكم من المطيبين ، فـإنى قد أخذت لمـن قد هاجر منكم مثل

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٩ .

ما أخذت لنفسى ، ولـو هاجر بأرضه غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجًا ، وإنى لـم أضـع فيكم إذ سالمت وإنكم غير خائفين من قبلى ولا محصورين .

أما بعد ، فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة ، وابنا هوذة ، وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عِكرمة ،أخذت لمن تبعنى منكم ما آخذ لنفسى ، وإن بعضنا من بعض أبدًا فى الحِلّ والحرم ، وإننى والله ما كذبتكم وليحيكم ربكم » (1) .

حدثنى عبد الله بن بديل ، عن أبيه ، عن جده ، عن عبد الله بن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن عبد الله بن مسلمة مثل ذلك .

لقد بدت الظاهرة تحتل الساحة بوفود الأعداد الكبرى من أفناء العرب مهاجرة إلى المدينة ، لكن خزاعة وهى التى حالفت رسول الله ﷺ علنًا ضد قريش ، ها هى تعلن إسلامها كلها ، وتود أن تهاجر إلى المدينة لإعلان ذلك الولاء ، إنه أول كيان قبلى ينضم إلى الإسلام ، وفى كتاب رسول الله ﷺ لهم ما يشى بمدى سروره بإسلامهم ،ومدى تمسكه بحلفهم « الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ،وإن أكرم تهامة علىّ أنتم ، وأقربهم رحمًا أنتم ومن تبعكم من المطيبين » ، ولمعالجة قضية الهجرة حيث بدأت المدينة تضيق بالأعداد الضخمة الوافدة إليها ، تدخل دورات سريعة تربوية فى المسجد النبوى وبين أعظم القادة المربين فى الأرض ، الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار ، فقد اعتبرهم رسول الله ﷺ مهاجرين وهم فى أرضهم وديارهم من خزاعة ، وليس هناك ضرورة لقدومهم جميعًا إلى المدينة ، والشرط الوحيد ألا يكون مقيمًا فى مكة مع قريش « ولو هاجر بأرضه غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجًا » ، والذى يقدم لأيام قلائل أو كثيرة ، إنما يأتى ليشارك فى دورات هذه الجامعة العالمية التى على رأسها سيد ولد آدم محمد ﷺ ، فيقبس من نوره ، ويقبس من نور صحبه ؛ ليضىء لقومه وللعالمين .

---

(1) المغازى للواقدى ، وقد نقلها ابن سعد فى الطبقات فى ترجمة خالد وحرملة ابنا هوذة ، الطبقة الرابعة من الصحابة (ت ١٦١٥) ص ٦٠٢ ، وقد أشار المحقق إلى تخريجه بقوله : أخرجه ابن سعد فى الطبقات بدون إسناد، كما أخرجه أبو عبيد من طريقين أحدهما عن إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبى ، وهؤلاء من رجال الصحيحين ، وانظر الطبقات (الطبقة الرابعة من الصحابة ـ الجزء الثانى تحقيق الدكتور عبد العزيز السلومى ٦٠٢ ، ٦٠٣) .

احتكاك مع الإمبراطوريتين

بين جمادى الأولى عام سبع للهجرة وجمادى الأولى عام ثمان للهجرة كان الاحتكاك مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ،وذلك عقب رسائل الملوك التى بعثها ﷺ إلى كل جبار فى الأرض يدعوه إلى الله ـ عز وجل ـ وخاصة الرسائل الأولى الستة، لقيصر، وكسرى ، والنجاشى ، والمقوقس ، وهوذة بن على الحنفى ، والحارث بن أبى شمر الغسانى .

ولم يكن هناك خلاف إلا فى موفد كسرى هل هو عبد الله بن حذافة السهمى أم شجاع بن وهب الأسدى ؟

فرواية ابن سعد ، تتحدث بتفصيل أكثر ، عن هذه الحادثة ، وتقدّم الرسول بأنه عبد الله بن حذافة السهمى:(قالوا: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمى، وهو أحد الستة إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا ، قال عبد الله: فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقُرِئ عليه ، ثم أخذه فمزّقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: « اللهم مزِّق ملكه »،وكتب بها كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذى بالحجاز فليأتيانى بخبره ، فبعث باذان قهرمانه ورجلاً آخر ، وكتب معهما كتابًا ، وقدما المدينة ، فدفعا كتاب باذان إلى النبى ﷺ ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ودعاهما إلى الإسلام ، وفرائصهما ترعد ، وقال: « ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد ، فأخبركما بما أريد » فجاءاه من الغد ، فقال لهما : « أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها » وهى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جُمادى الأولى سنة سبع ، وأن الله تبارك وتعالى سلَّط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فرجعا إلى باذان بذلك فأسلم هو والأبناء الذين فى اليمن) (١) .

وحين نقف مليًا مع هذه الحادثة نلاحظ أن رسول الله ﷺ قد بعث ستة نفر فى يوم واحد إلى عظماء الأرض وذلك مرجعه من الحديبية ، قالوا : (إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبًا ، فقيل : يا رسول الله ، إن الملوك لا يقرؤون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتمًا من فضة فصُّه منه نقشه ثلاثة أسطر : محمد

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٠ .

رسول الله ، وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم)[1] .

وقد شهدنا فى الجزء السابق تفصيلاً للقاء رسولى قيصر والنجاشى ، وها نحن نشهد هذا التفصيل للقاء كسرى ، فلقد قرر كسرى أن ينهى الإسلام ورسول الإسلام ، وبعث إلى عامله باليمن كى يأتى بمحمد إليه أو يشن عليه الحرب من عنده ، وإلا فسيناله غضبه وعقابه .

والدولة الإسلامية بعد الحديبية أى قبل عام ونصف من تاريخ بحثنا الآن ، كانت تملك جيشًا قوامه ألفًا وخمسمائة مقاتل هو الرصيد المذخور عندها ، وهذا الرصيد قد يواجه قريشًا ، لكنه لن يواجه اليمن ، ولن يواجه الفرس ، وليس بإمكانية هذه الدولة الفتية أن تواجه هذه الإمبراطوريات ، وجاء الرجلان رسولا باذان يطلبان من محمد ﷺ أن يمضى معهما إلى سيدهما باذان ، أو يتحمل تبعة عصيانه .

وحين أراد طاغية الأرض أن يتحدى إله السموات والأرض ، ليقتل رسوله ، ويئد شريعته ، ولم تكن هذه العصبة المؤمنة الفتية معدة لمثل هذه المواجهة الضخمة ، تكفل الله تعالى بأعظم انقلاب عسكرى عالمى انتهى بمقتل طاغية الأرض كسرى على يد ابنه شيرويه ، وانصراف رغبة كسرى الابن عن تحدى رسول الله ﷺ .

وحيث كانت ملائكة السماء فى خدمة رسول الرحمن ، فقد جاء مقتل طاغية الأرض بعد ساعات من وصول رسوله إلى محمد بن عبد الله ليحضره مخفورًا إليه ، وتكفل سيد الملائكة جبريل أن ينقل خبر هذا الانقلاب إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ عقب القتل مباشرة،وأجاب رسول الله ﷺ الرسولين: « إن ربى قد قتل ربكما الليلة »، قتله بيد ابنه شيرويه ، وتكفل الله تعالى عن جنده الأقلة الضعاف ؛ ليحفظ لهم دماءهم مذخورة لمعركة مكافئة ، ولو شاءت المدينة ، والعرب جميعًا أن يواجهوا كسرى لما استطاعوا ذلك ، فكيف بخير أهل الأرض ، هل يُقتلون جميعًا ، فى مواجهة مع كسرى الفرس ؟ الله تعالى هو الذى يحفظ جنده، ويرعى حزبه حتى يكون قادرًا على المواجهة، وعوضًا عن أن يقود باذان الجيوش لاحتلال المدينة ، وإبادة أهلها ، وحين وصل رسولاه إليه يخبرانه عن جلية الأمر ، وجاء الأمر من المدائن بصحة الخبر تمامًا ، وتحديد الوقت الذى قتل فيه ، عرف به رسول الله ﷺ قبل أن يعرف به أحد ، عوضًا عن أن يبعث الكتائب والجيوش لقتل رسول الإسلام وجيش الإسلام ، بعث بإسلامه إلى رسول الله ﷺ ، فكان أول إشراقة النور فى اليمن على يد نائب كسرى فيها باذان ، وكان هذا فى جمادى الأولى فى السنة السابعة .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٥٨ .

إنها الرعاية الربانية لهذه الأمة ، وإنها السنن الربانية كذلك ، فى ألا تقوم العصبة المسلمة فى مواجهة غير متكافئة مع عدو مدجج بالسلاح والعدد ، اعتماداً على نصر الله عز وجل للفئة القليلة ، والله تعالى هو الذى يهلك عدوها حين يريد استئصالها ، ولا تملك القدرة على مواجهته .

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ [الأعراف] .

وفى الوقت الذى ألهم الله تعالى طاغية الأرض الثانى قيصر أن يهادن دولة الإسلام ويبعث إليها يطلب ودها والاعتراف برسالتها ، يقتل الطاغية الفارسى المتجبر ، ويحلُّ ابنه مكانه ليقوم بالمهادنة نفسها .

ولنتابع بقية الرسائل الثلاثة الأخرى ، وهم بقية الستة الذين مضوا إلى حكام الأرض آنذاك .

(وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ، وهو أحد الستة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام ،وكتب معه كتابًا ، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه وقال له خيرًا ، وأخذ الكتاب وجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جاريته ، وكتب إلى النبى ﷺ ، قد علمتُ أن نبيًا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وقد أهديت إليك كسوة وبغلة تركبها ، ولم يزد على هذا ولم يسلم فقبل رسول الله ﷺ هديته ، وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء لم يكن فى العرب يومئذ غيرها وهى دُلدُل ، وقال رسول الله ﷺ : « ضن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه » ، قال حاطب : كان لى مكرمًا فى الضيافة ، وقلة اللبث ببابه ، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام)[1] .

أما الرسول الخامس فإلى زعيم نجد هوذة بن على الحنفى .

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامرى وهو أحد الستة إلى هوذة ابن على الحنفى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا ، فقدم عليه ، وأنزله وحباه ، وقرأ كتاب النبى ﷺ وردّ ردًا دون رد ، وكتب إلى النبى ﷺ:ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليط بن عمرو بجائزة ، وكساه أثوابًا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٠ ، ٢٦١ .

ﷺ ، وأخبره عنه بما قال ، وقرأ كتابه وقال : « لو سألنى سيابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه » ،فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات)[1] . وانتهى الأمر دون حرب .

أما سادس الستة فهو صاحبنا شجاع بن وهب الأسدى رضي الله عنه ، وقد أرسل إلى حاكم الشام الحارث بن أبى شمر الغسانى .

قالوا : (وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدى ، وهو أحد الستة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، قال شجاع: فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر ، وهو جاءٍ من حمص إلى إيلياء ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله ﷺ إليه ، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه وكان روميًا اسمه مرى يسألنى عن رسول الله ﷺ ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ ، وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول : إنى قرأت الإنجيل ، فأجد صفة هذا النبى ﷺ بعينه ، وأنا أومن به وأصدّقُه ، وأخاف من الحارث أن يقتلنى ، وكان يكرمنى ويحسن ضيافتى ،وخرج الحارث يومًا فجلس ،ووضع التاج على رأسه ، فأذن لى عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ثم رمى به ، وقال : من ينتزع منى ملكى ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته،علىَّ بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبرى وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : ألا تسير إليه ، واله عنه ، ووافنى بإيلياء ، فلما جاءه كتاب قيصر دعانى فقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غدًا ،فأمر لى بمائة مثقال ذهبًا ووصلنى مُرى ، وأمر لى بنفقة وكسوة ، وقال : أقرئ رسول الله ﷺ منى السلام ، فقدمت على النبى ﷺ فأخبرته بما قال : فقال رسول الله ﷺ : « باد ملكه » ، وأقرأته من مُرى السلام ، وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق » ومات الحارث بن أبى شمر عام الفتح)[2] .

لقد كان الستة من المهاجرين الأولين ومن الرعيل الأول من المهاجرين ، إلا ما كان من دحية بن خليفة الكلبى الذى أسلم بعد بدر ، وكان الخمسة الآخرون من قريش أو حلفائهم . . . أما مواقف هؤلاء الأتباع الذين كانوا يحكمون بسلطان غيرهم وسيفه مثل الغساسنة فى دمشق ، فقد كانوا على الجاهزية التامة لحرب أهلهم وقومهم إرضاء لسادتهم من الروم أو الفرس ، وحسب الحارث بن أبى شمر أنه سيتقرب إلى قيصر بحرب محمد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٢ . سيابة : بعض ماء سائب .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٦١ .

ﷺ ، واعتبر بروز رجل عربى ولو فى مكان بعيد تهديدًا لملكه ، فقال : من ينتزع منى ملكى ، فقصارى أحلامه أن يحافظ على ملكه بالشام فى ظل قيصر الروم ورضائه ، بينما كان حاجبه يشرق النور فى قلبه بما قرأ فى الإنجيل عن وصف محمد ﷺ ، والحارث حين يجهز الجيوش لغزو المدينة ، يعلم أنه يغزو أهله وعشيرته ، فالأنصار من المدينة تجمعهم إلى غسان أرومة واحدة وأصل واحد ، ومع هذا فهذا كله لا يفيد ، إنما يضيره ألا يرى قيصر غاضبًا عليه إطلاقًا ، وعندما أخذ الضوء الأخضر من سيده القيصر بكف يده عن محمد ﷺ ، عاد فسارع ليهادنه ويصالحه ويبعث رسوله مائة مثقال ذهبًا ترضية وهدية .

وعودة إلى شجاع بن وهب :

لقد شهدنا شجاع بعد مهمته تلك على رأس سريته إلى السِّىِّ من أرض عامر ، وشهدنا عراقته فى الإسلام وفى الثقة النبوية ، حيث اختاره رسول الله ﷺ أحد ستة ليبلغوا رسائله إلى ملوك الأرض . بقى علينا أن نعلم هذه اللبنة ، ما هو دورها فى البناء الإسلامى، وما هى كفاءتها العسكرية التى يحدثنا عنها ذو الاختصاص الرائد فى هذا المجال محمود شيت خطاب بقوله :

(على الرغم من تفوق بنى هوازن بالعدد والعُدَد على سرية شجاع تفوقًا ساحقًا إلا أن شجاعًا استطاع مباغتة عدوه بالزمان الذى لم يكونوا يتوقعون أن يهاجموا فيه ، وبالأسلوب الذى كان سريعًا صاعقًا ، فشلَّ بذلك إرادة العدو على القتال ، وشلَّ بذلك تفكيره الصائب ، وتركه يتخبط فى فوضى الارتباك والتردد ، وبذلك استطاع أن يكبِّده خسائر فادحة بالأرواح والأموال والسبى ، وفى وقت خاطف قصير جدًا ، والمباغتة ، أهم مبدأ من مبادئ الحرب كما هو معروف .

ولم يقتصر شجاع على تطبيق مبدأ المباغتة ، بل طبق أكثر مبادئ الحرب الأخرى وأهمها ، فقد طبَّق مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، وكان مقصده حسب نص أمر النبى ﷺ الذى أصدره إليه هو: الغارة على بنى هوازن ، فنفذ شجاع هذا المقصد الواضح الجلى ، وأمر رجاله ألا يطاردوا العدو ، حتى لا يتورط رجاله فى مواقف ليست بالحسبان وليست فى صالحهم .

كما طبَّق مبدأ التعرض ، وكان قائدًا تعرضيًا من الدرجة الأولى ، بعيدًا عن اتخاذ أسلوب الدفاع فى عملياته القتالية ، وقد طبق مبدأ الأمن ، فلم يستطع العدو أن يباغت سريته قبل القتال وفى أثنائه وبعده ، واستطاع هو أن يباغت عدوه فى الزمان والأسلوب كما ذكرنا .

وطبّق مبدأ : الاقتصاد بالمجهود ، فأمر بعدم مطاردة العدو حتى لا يبذر فى قواته ، أو يتكبد خسائر فى الأرواح دون مسوّغ .

وطبّق مبدأ الأمور الإدارية ، فأمّن لرجاله كل ما يحتاجون إليه من مواد إدارية : بموجب خطة إدارية بسيطة مرنة ، قابلة للتطبيق بسهولة ويسر لخلوها من التعقيد ، وطبّق مبدأ إدامة المعنويات تطبيقًا رائعًا حقًا ، وما كان الهدف من سريته إلا لإدامة معنويات رجالها بخاصة والمسلمين بعامة، وإضعاف معنويات بنى هوازن بخاصة والمشركين بعامة.

وكان صاحب قرار سريع صحيح وذا شخصية نادرة ،وإرادة قوية نافذة ، ونفسية لا تتبدل فى حالتى النصر والاندحار ، وكان يعرف نفسيات رجاله ومزاياهم وقابلياتهم يثق بهم ، ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، وكان موضع ثقة النبى ﷺ وتقديره واعتزازه، وكان ذا شخصية قوية مسيطرة ، وقابلية بدنية جيدة لأنه كان شابًا ، وكان من ذوى الماضى المجيد ، لقد كان شجاع قائدًا متميزًا حقًا)(١) .

أما صاحب بُصْرى :

فقد اختاره رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الستة ، يدعوه إلى الإسلام وهو أقرب مواقع الشام إلى المدينة ، فعن عمرو بن الحكم قال : (بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى ثم أحد بنى لهب إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال: أين تريد ؟ قال: الشام،قال:لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، أنا رسول رسول الله ، فأمر به فأوثق رباطًا ، ثم قدمه فضرب عنقه صبرًا، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فبلغ رسول ﷺ الخبر فشقّ عليه، وندب الناس، وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله ، فأسرع الناس وعسكروا بالجرف .

فشرحبيل بن عمرو الغسانى ، لم يكتف كما فعل ابن أبى شمر بالتهديد بالغزو ، ولكنه أسرع مباشرة فقتل رسول رسول الله ﷺ ، وهذا القتل يعنى أن قبائل الشمال العربى سوف تنهار سمعة محمد فيها،وسوف تفكر بغزو المدينة ،ما لم يتُخذ إجراء حاسم أمام هذا الاعتداء الآثم ، لقد وصل الرسل أرض كسرى فى المدائن ومثلوا عند قيصر ، وعند النجاشى وفى مصر والشام ، ولم يتعرض أحد لهم بأذى ، بينما يُقتل رسول هنا ، فكان الحل هو الثأر لهذا الرسول ، لقد أخذ رسول الله ﷺ بيعة الرضوان بيعة الموت من أصحابه فى الحديبية حين بلغه أن رسوله عثمان قد قُتل ، ولو لم يعد عثمان لاشتعلت حرب أكلت الأخضر واليابس فى مكة ، بعد أن بايع المسلمون على الموت ، ثأرًا للرسول القتيل عثمان ، وليست القضية نوع الشخص الذى تشعل الحرب من أجله هل هو من

(١) قادة النبى : محمود شيت خطاب ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

خواص المهاجرين أم هو رجل عادى من عامة المسلمين ؟ إنما القضية هى جرأة العدو على رسول رسول الله ﷺ بالقتل ، وهذه هى قيمة الإنسان فى الإسلام ، يمكن أن يتعرض المسلمون جميعًا للموت إذا قتل واحد منهم ، فالمسلمون « كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ولابد أن يتداعى الجسد كله للثأر لهذا الشهيد ، بينما نجد الأشخاص عند الطغاة مجرد أرقام ، يشعلون حربًا يفنون فيها مئات الآلاف لأمجادهم الشخصية ومطامعهم الذاتية ، أما هنا فالفرد العادى لابد أن يثأر له من الجيش كله ، كما أننا نضع بالحسبان مرور عام على احتكاك الفرس ، فعندما جاء رسول باذان إلى رسول الله ﷺ ، كان هذا فى جمادى الأولى سنة سبع ، والمسلمون خارجون من حرب مضنية أكلت شبابهم ، وأجهزت على قوتهم حتى حققوا نصر خيبر العظيم ، ولن يغامر المصطفى ﷺ بمواجهة إمبراطورية الفرس ، أما اليوم فقد مر عام كامل بعد ذلك التحدى ، وارتفع عدد المسلمين إلى الضعف وأكثر خلال هذا العام ، فإذا كان أعداد الجيش بعد خيبر حوالى ١٥٠٠ ، فالجيش الإسلامى اليوم ها هو يجند ثلاثة آلاف مقاتل قبل مؤتة ، وذلك حين دعا رسول الله ﷺ إلى النفير بعد مقتل الحارث الأزدى فى جمادى الثانية سنة ثمان ، ولابد أن تعرف القبائل العربية أن جناب محمد لا يضام ، وحليفه لا يقهر ، ورسوله لا يقتل ، وذلك حين يكون قادرًا على ذلك ، واحتمالات امتداد المواجهة مع دولة الروم قائمة ؛ لأن الغساسنة حلفاء الروم فى الشمال ،ومع ذلك لم يرض رسول الله ﷺ أن يصبر على هلاك رسول له بمؤتة فى أقصى الشام ، وكان الاستعداد قائمًا ، حتى ولو لمواجهة الإمبراطورية الرومية ، وكانت غزوة مؤتة على أعقاب هذا الغدر ، وكانت أبعاد هذا التقدم والإيغال للجيش الإسلامى خارج الجزيرة العربية واضحة فى ذهن القائد العظيم سيد ولد آدم ، وأنه مقدم على مرحلة جديدة كل الجدة عن سابقتها فى طبيعة المواجهة خارج الجزيرة العربية ، وأن انتشار هذا الدين لابد أن يكسر الحدود والقيود ، ويمضى فى أرض الله ، فبعد إرسال الرسل إلى الملوك ، لابد من الانطلاق إلى الشعوب فى تبليغها الدعوة .

روى محمد بن عمر عن خالد بن يزيد رحمه الله تعالى ، قال : خرج رسول الله ﷺ مشيِّعًا لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف ووقفوا حوله فقال : « اغزوا بسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون رجالاً فى الصوامع معتزلين الناس فلا تعرَّضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان فى رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلن امرأة ولا صغيرًا مرضعًا ولا كبيرًا فانيًا ، لا تغرقُنَّ نخلاً ولا تقطعن شجرًا ولا تهدموا بيتًا »(١) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٥٨ .

إنها آداب الحرب المسلمة حيث يأمن الشجر والنخل والبيت ، ويأمن الطفل والمرأة والكبير الفانى ، ويأمن الذى وقف نفسه لعبادة الله ، إنما يقاتل الكافر المقاتل فقط .

وفى الرواية الثانية التى رواها الواقدى نجد نصها فى صحيح الإمام مسلم ، كما رواها .

عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته ، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال :

« اغزوا فى سبيل الله باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله » .

فهذه الوصية قد ابتدأت بهذا الاتجاه منذ مؤتة ، ولم نسمع بها قبل ذلك ، والواقدى ربطها منذ هذا الوقت ، ورسول الله ﷺ يشيِّع المسلمين عند ثنية الوداع ، فهو قتال فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وباسم الله ليس باسم قبيلة ، ولا طاغية ، ولا أمة ، ولا مصلحة والقتال لمن كفر بالله .

« اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً » فإن من آداب الحرب الإسلامية كذلك أن لا غدر ، ولا غل ، ولا تمثيل بالعدو ، ولا قتل للطفل الوليد، وما هى أهداف الحرب إذن ؟ يعلنها رسول الله ﷺ لصحبه : « وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » .

فالإسلام هو الهدف الرئيس من الحرب، ومن يستجب للإسلام فقد عصم دمه وماله، وليس الهدف قتله والتشفى منه « ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين » ، إنه بعد الإسلام لابد من تأدية ضريبة هذا الإسلام ، وهو الانضمام إلى المهاجرين والمجتمع الإسلامى ، ودولة الإسلام التى يقودها رسول الله ﷺ: « وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم : « أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين » .

فالمراحل ثلاثة: الإسلام ، والجهاد ، والهجرة ، وأعلاها من جميع هؤلاء : الهجرة؛ لأنها تضم الإسلام والجهاد .

« فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم » .

فإن لم يكن الإسلام ومستلزماته ، فالجزية ويبقون على دينهم ، فإن لم يكن الإسلام ولا الجزية فالسيف « فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » ، فهو القتال لمن يكفر بالله ولا يرضى الجزية والإسلام .

إنها مرحلة جديدة كل الجدة ، أطلقت المسلمين فى الأرض مع جمادى الأولى سنة ثمان ، حيث يمضى المسلمون متجاوزين تبوك إلى أرض الشام ، إلى ملك الغساسنة إلى حلفاء الروم ، وهو يدعو قائد الجيش الإسلامى أن يجعل لمن يعاهده ذمته لا ذمة الله ورسوله « وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » [1] .

وقد ورد بالضبط كما هو عند الواقدى ، فبعد حرب خيبر ، ومصالحة اليهود فى أرض العرب ، جاء دور النصارى فى حربهم للمسلمين ومواجهتهم للرسالة ، ووضعت كل احتمالات المواجهة ، وأعلنت الحرب ضد المشركين كل المشركين ، فى سبيل الله من كفر بالله، باسم الله ، ووضعت البدائل للإسلام بالجزية فقط ، أما الإصرار على الكفر ، فالقتال له هو الحل ، ولتكن الذمم ذمة القائد ، والحكم حكم القائد ، فلا يدرى هل أصاب حكم الله أم لا ؟ وبرزت المحظورات كلها من قطع الشجر وهدم البيت وإغراق النخل، ومن قتل الصبى والوليد والشيخ الفانى، ومن قتل الرهبان في أديرتهم وقد اعتزلوا الطواغيت ، وعاشوا بعيدين عن ظلمهم ، وسلطانهم .

وموضوع الهجرة لا محيد عنه إن كان المسلم الجديد يود أن ينال حقوق المهاجرين ، وإلا فهو من أعراب المسلمين ، فلابد من رفد المدينة بنماذج من كل قبائل العرب تتربى فى محضن النبوة ، وتمتح من النور الربانى الذى بعثه الله تعالى لخلقه ، لكننا لاحظنا أن رسول الله ﷺ قَبِل قَبْل قليل من خزاعة حلفائه أن يبقوا فى أرضهم ولهم حقوق المهاجرين حتى لا تنتزع القبيلة كلها من مواقعها .

وفد مزينة :

وبعد التمحيص الدقيق نلحظ أن خزاعة ليست هى أول من أعطى هذه الميزة: « أنتم مهاجرون حيث أنتم » وليست خزاعة أول عاصمة للإسلام بعد المدينة ، إنما سبقها إلى ذلك مزينة ، ولئن جاءت خزاعة فأسلمت فى جمادى الأولى سنة ثمان فى هذا الشهر ، فقد سبقت مزينة ثلاث سنوات ، كما روى ابن سعد فى طبقاته عن كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده قال :

كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى

(1) مسلم ٣/ ١٣٥٧ .

رجب سنة خمس (أى قبل غزوة الخندق) فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم، وقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم ، فرجعوا إلى بلادهم »[1] .

فنحن إذن أمام العاصمة الأولى للإسلام بعد المدينة هى مزينة،وقد سبقت كل القبائل العربية لذلك،وجاء أعظم وفد عربى إلى المدينة منها بأربعمائة مسلم، ففى الرواية الثانية، عن أبى مسكين ، وعبد الرحمن العجلانى إضاءة لهذا الوفد قالا : قدم على رسول الله ﷺ نفر من مزينة ، منهم خزاعى بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة منهم فيهم : بلال بن الحارث ،والنعمان بن مقرن ، وأبو أسماء وأسامة ، وعبيد الله بن بردة ، وعبيد بن درة ، وبشر بن المحتفر .

قال محمد بن سعد : وقال غير هشام : ثم إن خزاعيًا خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله حسان بن ثابت فقال : اذكر خزاعيًا ولا تهجه ، فقال حسان بن ثابت :

الا أبلغ خزاعيا رسولاً	بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خيرُ عثمان بن عمروٍ	وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكان خيراً	إلى خير وأداك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه	من الأشياء لا تعجز عداءُ

قال : وعداء هو بطنه الذى هو منه قال : فقام خزاعى فقال : يا قوم ، قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

قالوا: فإنا لا ننبو عليك،قال: وأسلموا ووفدوا على النبى ﷺ،فرفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل وهو أخو المغفل أبى عبد الله ابن المغفل وأخو عبد الله ذى البجادين) [2] .

إن هذا المعقل الإسلامى الأول بعد مدينة المصطفى ﷺ حين طلب منه المدد ، وحيث قبلت هجرتهم فى بيوتهم قدم ألف بطل إلى الجيش الإسلامى ، أما المعقل الثانى الذى سبق وتحدثنا عنه من قبل هو معقل خزاعة ،والذى أمد الجيش الإسلامى يوم الفتح بخمسمائة بطل كذلك .

إن المدينة الآن تتأهب للمواجهة بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدى ، وكانت تلك المعاقل من مزينة وخزاعة تبعث العشرات والمئات من شبابها إلى جانب شباب المدينة من

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٩١ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٤/ ٩٨ (ت ٤٧٩٥)، والبجاد : هو البِساط الذى يجلس عليه.

المهاجرين والأنصار ، فأمكن تفسير استنفار ثلاثة آلاف من المسلمين في نداء واحد ، وتضاعف الجيش الإسلامى خلال عام ونصف فى سرية ليس فيها رسول الله ﷺ ، فكم بلغ عدد المسلمين إذن داخل المدينة ، إضافة إلى سرية مؤتة التى بلغت ثلاثة آلاف تجوب الأرض العربية المتاخمة للروم .

لقد كان شهر جمادى الأولى سنة ثمان شهرًا فاصلاً فى الحركة النبوية ، فى تحديد الاتجاه ، وفى نوعية الاتجاه ، وبتحديد الأهداف أوضح وأوضح ، والانتقال من مرحلة الدفاع عن المدينة إلى الانطلاق منها نحو العرب للدعوة إلى الله عز وجل ، « قاتلوا فى سبيل الله بسم الله من كفر بالله » .

أول طلائع المزنيين :

ولعل أول طليعة من المزنيين كان عبد الله ذو البجادين ، وكان هذا قبل أحد (كان عبد الله رجلاً من مزينة وهو ذو البجادين يتيمًا فى حجر عمه ، وكان محسنًا له فبلغ عمه أنه أسلم فنزع منه كل شيء أعطاه حتى جرّده من ثوبه ، فأتى أمه ، فقطعت له بجادًا لها باثنتين ، فاتزر نصفًا وارتدى نصفًا ، ثم أصبح فقال له رسول الله ﷺ: « أنت عبد الله ذو البجادين فالتزم بابى » ، فلزم بابه وكان يرفع صوته بالذكر فقال عمر : أَمُرَاءٍ هو ؟ قال: « بل هو أحد الأواهين »،قال التيمى:وكان ابن مسعود يحدث قال : قمت فى جوف الليل فى غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا ذو البجادين قد مات، فإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ فى حفرته ، فلما دفناه قال : « اللهم إنى أمسيت عنه راضيًا فارض عنه » رواه البغوى من هذا الوجه ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا . . . وروى عمر بن شبة قال : لم ينزل رسول الله ﷺ فى قبر أحد إلا خمسة منهم : عبد الله المزنى ذو البجادين قال : وكان رسول الله ﷺ لما هاجر وعزفت عليه الطريق فأبصره ذو البجادين فقال لأبيه : دعنى أدله على الطريق ، فأبى ونزع ثيابه عنه وتركه عريانًا ، فاتخذ بجادًا من شعر وجعله على عورته ثم لحقهم ، فأخذ بزمام ناقة النبى ﷺ وأخذ يرتجز .

هذا أبو القاسم فاستقيمى   تعرَّضى مدارجًا وسومى

تعرض الجوزاء فى النجوم)[(١)]

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٤/ ٩٨ (ت ٤٧٩٥) والبجاد : هو البساط الذى يجلس عليه .

غزوة مؤتة جهادٌ وتربية

قبل المعركة :

١ ـ (عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (أمَّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتِل زيد فجعفر ، وإن قُتِل جعفر فعبد الله بن رواحة)[(١)] .

٢ ـ (حدثنا الواقدى قال: حدثنا ربيعة بن عثمان عن عمرو بن الحكم قال: . . . فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر جلس وجلس أصحابه ،وجاء النعمان بن فنحص اليهودى ، فوقف على رسول الله ﷺ مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قُتِل فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة ، فليرتض المسلمون رجلاً فليجعلوه عليهم » ، فقال النعمان ابن فنحص : أبا القاسم ،إن كنت نبيًا فسمَّيت من سميت قليلاً أو كثيرًا أصيبوا جميعًا ، إن الأنبياء فى بنى إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا : إن أصيب فلان ، فلو سمَّى مائة أصيبوا جميعًا ، ثم جعل اليهودى يقول لزيد : اعهد ، فلا ترجع إلى محمد أبدًا إن كان نبيًا ، فقال زيد : فأشهد أنه نبى صادق بار) .

٣ ـ (وعقد لهم رسول الله ﷺ لواءً أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعو من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعينوا بالله تعالى عليهم وقاتلوهم)[(٢)] .

وروى الإمام أحمد والنسائى وابن حبان فى صحيحه والبيهقى عن أبى قتادة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء ، وقال : « عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » ،قال: فوثب جعفر رضي الله عنه ، وقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ،ما كنت أرهب أن تستعمل علىَّ زيدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير »[(٣)] .

وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : بعث النبى ﷺ بعثًا وأمَّرَ عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس فى إمارته ، فقال النبى ﷺ : « إن تطعنوا فى إمارته ،

---

(١) البخارى ٢/ ٥/ ١٨٢ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ١٥٦ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٢٢٩ ، وهى فى مسند أحمد ٥/ ٣٠٠ .

فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل ، وايم الله إن كان لخليقًا بالإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلىَّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلىَّ من بعده »[1] .

٤ ـ (قال عروة بن الزبير : فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم، ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، فلما وُدِّع عبد الله ابن رواحة مع من وُدِّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ؛ ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** (٧١) ﴾ [مريم] ، فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود[2] ، فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدىِ حرَّان مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا)[3]

٥ ـ (قال ابن إسحاق : ثم إن القوم تهيؤوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودَّعه ثم قال :

فثبت الله ما آتاك من حسنٍ ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرَّست فيك الخيل نافلة ... الله يعلم أنى ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منك فقد أزرى به القدر

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خَلفَ السلام على امرئ ودعته ... فى النخل خير مشيّع وخليل)[4]

٦ ـ (وروى الإمام أحمد والترمذى عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث إلى مؤتة فاستعمل زيداً ، وذكر الحديث وفيه ، فتخلف ابن رواحة ، فجمع مع رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ رآه ، فقال : « ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟» قال: أردت أن أصلى معك الجمعة ثم ألحقهم ،فقال رسول الله ﷺ : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما أدركت غدوتهم » ، وفى لفظ : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير

(١) البخارى ٢/٥/٢٩ ، مناقب زيد بن حارثة .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٠ ، والسيرة لابن هشام ٢/ ٨٢٩ .
(٣، ٤) المصدر نفسه ، ٢ / ٨٢٩ ، ٨٣٠ .

من الدنيا وما فيها »[1] .

قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر : (ثم مضى الناس ، قال محمد بن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر أنه حدَّث عن زيد بن أرقم قال : كنت يتيمًا فى حجر عبد الله بن رواحة ، فلم أر ولىَّ يتيم كان خيراً منه ، فخرجنا إلى مؤتة ، وصبّ بى وصببت به ، فكان يردفنى خلف رحله ، فقال ذات ليلة ـ وهو على راحلته بين شعبتى الرحل ، وهو يتمثل أبيات شعر :

إذا بلغتنى وحملت رحلى	مسيرة أربع بعد الحساء[2]
فزادك أنعم[3] وخلاك ذمٌّ	ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وآب المسلمون وغادرونى	بأرض الشام مشهور الثواء
هنالك لا أبا لى طلعَ نخلٍ	ولا بعلٍ[4] أسافلها رِواء [5]

فلما سمعت هذه الأبيات بكيت ، فخفقنى بيده وقال : ما يضرك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة فأستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وأحزانها وأحداثها ، ويرجع بين شعبتى الرحل[6] ، ثم نزل نزلة من الليل فصلى ركعتين وعاقبهما دعاء طويلاً ثم قال لى : يا غلام ، فقلت : لبيك ، قال : هى إن شاء الله الشهادة)[7] .

٧ ـ (ومضى المسلمون من المدينة ، فسمع العدو بمسيرهم إليهم قبل أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير ، فلما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا الجموع ، وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف ، وقدَّم الطلائع أمامه ، فلما نزل المسلمون وادى القرى بعث أخاه سدوس بن عمرو فى خمسين من المشركين فاقتتلوا وانكشف أصحاب سدوس ، وقد قتل ، فشخص أخوه ، ومضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام ، وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء وبلى عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له : مالك بن رافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا : نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بكثرة عدونا ، فإما أن يُمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له ، فشجع

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٢ ، ومسند أحمد ١/ ٢٢٤ ، والترمذى ح (٥٢٧) .
(٢) الحساء : جمع حسى وهو ماء يفور فى الرمل وإذا بحث عنه وجد .
(٣) أنعم : جمع نعمة وهى الإحسان .
(٤) البعل : الذى يشرب بعروقه من الأرض .
(٥) أسافلها رواء : ممتنعة من الماء .
(٦) شعبتى الرحل : طرفاه المقدم والمؤخر .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣١ ، والمغازى للواقدى ٢ / ٧٥٩ .

الناس عبد الله بن رواحة فقال : (يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا عدة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة ، وليست بشر المنزلتين ، فقال الناس : صدق والله ابن رواحة ، فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها : مشارف ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها : مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعبأ لهم المسلمون ، وروى أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم ، ومحمد بن القراب فى تاريخه عن برذع بن زيد، قال :قدم علينا وفد رسول الله ﷺ إلى مؤتة،وعليهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وخرج معهم منا عشرة إلى مؤتة يقاتلون معهم ، قد كان رسول الله ﷺ نهاهم أن يأتوا مؤتة ، فركبت القوم ضبابة ، فلم يبصروا حتى أصبحوا على مؤتة .

وروى محمد بن عمر عن أبى هريرة قال : شهدت مؤتة فلما دنا العدو منا رأينا ما لا قِبَل لنا به من العَدَد والعدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، كأنك ترى جموعًا كثيرة ؟ قلت : نعم ، قال : إنك لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم نُنصر بالكثرة ، قال ابن إسحاق : وتعبأ المسلمون للمشركين ، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من عُذرة اسمه قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له : عباية بن مالك (قال ابن هشام : عبادة بن مالك)[1] .

* * *

١ ـ لأول مرة يحدد رسول الله ﷺ ثلاثة أمراء لسرية من سراياه ، فمن قبل كان يحدد أمير السرية فقط ، ولأول مرة تجتمع هذه الآلاف المؤلفة من المسلمين فى مثل هذا الجيش ، إنه أكبر من أى جيش قاده رسول الله ﷺ .

والملاحظ كذلك أن جنوده ومعظمهم من الشباب الذين دخلوا فى الإسلام حديثًا ، فلم يُذْكر به من قادة المهاجرين والأنصار أحد ، والأعلام المعروفون فيه هم قادته الثلاثة، وعبد الله بن عمر ﷺ الذى لم يبلغ العشرين من العمر بعد ، وثابت بن أقرم البدرى الذى سلَّم الراية لخالد بن الوليد ، وخالد بن الوليد الذى مرَّ على إسلامه قرابة ثلاثة أشهر، حتى أن البطلين اللذين كانا على ميمنة المسلمين وميسرتهم ، لم تعرف عنهم كتب التراجم إلا أنهما كانا يقودان ميمنة المسلمين وميسرتهم ، وأبو هريرة الدوسى الذى انضم

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥ .

إلى الإسلام منذ خيبر أى منذ سنة ونيف ، ولو تابعنا كل جزئيات المعركة وتفاصيلها لم يبرز بين أعيننا إلا هذه الأسماء ، ويمكن القول : إن جيش مؤتة جيش من شباب الإسلام الذى دخل جديداً فى هذا الدين ،وهذه ظاهرة كذلك لم تكن معروفة من قبل ، بل كان شيوخ المهاجرين والأنصار وشبابهم يشاركون فيها ، ولو كانت السرية لمئات عدة لا لثلاثة آلاف.

لكننا حين نراجع سجل الشهداء فى مؤتة ، وكانوا اثنى عشر شهيداً ، نجد ثمانية منهم من أهل بدر على الأخذ بكل الروايات وهم :

ـ وهب بن سعد بن أبى سرح .	ـ عباد بن قيس .
ـ الحارث بن النعمان .	ـ سراقة بن عمرو .
ـ سويد بن عمرو .	ـ زيد بن عبيد .
ـ عبد الله بن الربيع .	ـ معاذ بن ماعص .

وجميعهم من الأنصار أو حلفائهم إلا أولهم وهب بن سعد بن أبى سرح الفهرى القرشى ، وبإضافة خزيمة بن ثابت والأمراء الثلاثة ، يرتفع الرعيل الأول الذى حفظنا أسماءهم فى مؤتة إلى اثنى عشر،استشهد منهم أحد عشر ، وادخر الله تعالى خزيمة فيما بعد ، ولـو بحثنا عنهـم فى كتب التراجم لم نشهد أكثر من أنهم شهدوا بدراً واستشهدوا بمؤتة(١).

هذه النماذج الصامتة مـن الرعيل الأول التى ذُكِرَت ؛ لأنهـا استشهدت وعُرِفت بشهادتها قد يكون لها أمثال حضرت مؤتة ، ولم تُعْرف ، أصبحت تمثل مجتمع القدوة بالنسبة للجيل الجديد ، وغدا هذا الجيل بآلافه ، غنيًا بالنماذج القيادية التى تربيه فى المعركة وخارج المعركة،تعلمه الإسلام،وتعلمه الثبات،وتعلمه الخلق الإسلامى العظيم، وانتقلت مهمة التربية بعد هذا التضخم فى العدد إلى خريجى مدرسة النبوة فى كل مكان، وفى كل ساحة ، وفى كل قبيلة ، مثل الأعلام الخالدة التى يرنو إليها الجيل الجديد بالتعظيم والاقتداء والتأسى .

٢ ـ ووقفة مع القادة الثلاثة ، الذين اختارهم رسول الله ﷺ أمراء لهذه السرايا :

فهذا زيد بن حارثة ﷺ قائد الجيوش ، وقائد السرايا التسعة الذى جاب الأرض العربية كلها شرقها ومغربها ، ها هو الآن يعد للمهمة الجديدة ، لقيادة هذه السرية خارج

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٤٤، ٢٤٥، أما الذين لم يستشهدوا وذكروا من أهل بدر فهم : ثابت بن أقرم ، وخزيمة بن ثابت ، وأبى اليسر الأنصارى .

الجزيرة ، وقد يلقى الروم إضافة إلى العرب خارج الجزيرة، وهو حبيب رسول الله ﷺ، وقرة عينه الذى رباه منذ صغره ، وأخذ من رحيق النبوة ما أخذ خلال ثلاثين عامًا أو تزيد قبل البعثة وبعد البعثة .

وتشرف ـ قبل إلغاء التبنى فى الإسلام ـ أن يكون زيد بن محمد ﷺ ، ولرفع هالة القداسة عن كل إنسان ، ينظر الناس إليه بعدها أنه ابن سيد ولد آدم ، جاء إلغاء التبنى فيما جاء من أسباب أخرى ، كما يقول عز وجل : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب] ، وما ألغيت هذه المأثرة حتى فاز بأنه الصحابى الوحيد الذى ذكر باسمه فى القرآن الكريم ، وبقى يحمل لقب مولى رسول الله ﷺ وحِبّه، وأعلن رسول الله ﷺ صلاحيته للإمرة بقوله: « وايم الله إن كان لخليقًا بالإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلى . . . » ، فماذا نتحدث عنه بعد أن زكاه سيد الخلق هذه التزكية .

إنه القائد الصامت الذى لا نعرف عنه شيئًا إلا أنه رجل المهمات الصعبة ، حتى أن جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ ، والذى عاش أميرًا طيلة حياته فى الحبشة وهو أشبه الناس خَلقًا وخُلُقًا برسول الله ﷺ جعله رسول الله القائد الثانى بعد زيد بن حارثة ، حتى لم يتمالك نفسه أن قال حين أعلنت الإمرة : (بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما كنت أرهب أن تستعمل علىّ زيدًا) وهو الهاشمى المطلبى وأميره مولى رسول الله ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام ـ كما ورد فى الصحيح :« امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير » .

وجعفر رضي الله عنه يستلم الإمرة ولم يخض حربًا واحدة طيلة حياته ، لقد أمضى عمره داعية إلى الله عز وجل فى الحبشة ، وحضر بعد فتح خيبر ، ولم نقرأ أنه كُلِّف بقيادة سرية معينة أو شارك فى حرب ، وكل الذى نعرفه أنه كان مع رسول الله ﷺ فى عمرة القضية حين اختلف مع أميره زيد وأخيه على رضي الله عنه فى رعاية عمارة بنت حمزة رضي الله عنها ، وفاز بأغلى لقب عنده:« أما جعفر فيشبه خَلْقِى وخُلُقِى »،وهذا اللقب لابد له من ثمن، وثمن فادح ، هو أن يكون القائد الشهيد فى المعركة فى تخوم البلقاء ، من أقصى الجنوب فى الحبشة داعية إلى الله إلى أقصى الشمال فى الشام مجاهداً فى سبيل الله .

لقد اختار رسول الله ﷺ قرة عينه زيداً وجعفراً لهذه المعركة الهائلة لقيادة ثلاثة آلاف من المسلمين ، وهما اللذان تربيا على عينه ، وليس لهما ثالثًا إلا على رضي الله عنه الذى لم يدع معركة إلا شارك فى شرف حضورها ، وأصبح علمًا فى المعارك لا يشق له غبار .

وجعفر رضي الله عنه أكبر من على بعشر سنين ، وبلغ من حب رسول الله ﷺ وسروره به أنه وجد رؤيته تعادل فتح خيبر : « والله ما أدرى بأيهما أنا أسر بقدوم جعفر أم بفتح خيبر»، ومع كل هذا الحب وهذا السرور فلم يحتفظ بجعفر عنده من عيون الحساد ، ويبقى ينظر إليه بكرة وعشيًا،إنما يبعثه لأخطر حرب يمكن أن يخوضها المسلمون إلى اليوم.

وثالث القادة عبد الله بن رواحة ، فهو ثالث شعراء الرسول ﷺ ، ولم تعفه هذه المهمة الإعلامية الخطيرة من مهمته فى الإمرة الصعبة إلى الشام ، وهو أحد النقباء الاثنى عشر ، ولم تعفه هذه المسؤولية السياسية من قيادة جيش مؤتة ، وهو الذى حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

وسنمضى مع كل خفقات قلبه ووجيب فؤاده فيما بعد ،لكننا نقف مع هذا اليهودى نعمان بن فنحص الذى حضر هذا التكليف :

« أمير القوم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون رجلاً منهم فليجعلوه عليهم»[1].

لقد أكد هذا اليهودى ـ حسب علمه ـ فى الكتاب أن هؤلاء الثلاثة يستشهدون فيما يعلمه من سنة الأنبياء من قبل ، وقد عرض الأمر بصورة فيها شىء من الوقاحة ، (إن كنت نبيًا) ، ورسول الله ﷺ لم يطرده من المجلس ، وسمع الأمراء الثلاثة قوله ، وصمت رسول الله ﷺ ، ولو كان كذبًا لسفَّه رسول الله ﷺ رأيه ، وأدرك الأمراء أنهم ماضون لمصارعهم ، فما غيَّر هذا من قلوبهم حتى أن زيداً رضي الله عنه يقول :

(فأشهد أنه رسول صادق بارٌّ) .

وراح المسلمون يودعون الأمراء قائلين : صحبكم الله وردَّكم إلينا صالحين .

فكان جواب ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة   وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة   بحربة تقذف الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى   يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

فهو لا يشارك فى رغبتهم بعودته إليهم غانمًا ، بل يحلم بالشهادة فى مسيره هذا ، من خلال ضربة واسعة يسيل دمها كالزبد ، أو طعنة برمح تلهب الأحشاء وتجهز عليه ، تقذف الأحشاء والكبد ، حتى يعلم الجيل اللاحق ما فعله الجيل السابق ، وما قدمه من

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٢٨ .

تضحيات ودماء لنصر هذا الدين ، ويعلمون أن الرشد الحقيقى هو فى تقديم الأرواح والمهج فى سبيل الله .

وحين جرت دموعه على خديه تراءى لمن حوله انفعاله من الغربة ، ولوعة الفراق للأهل والزوج والولد الحبيب ، فكان لابد أن يبين فى مثل هذه اللحظات المؤثرة أسباب تأثره وبكائه على فراق الأحبة ، لينقلنا إلى دنيا غير دنيانا ، وعالم غير عالمنا ، هو عالم اليوم الآخر الذى يعيشه ابن رواحة رضي الله عنه .

والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ؛ ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يتلو آية من كتاب الله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] ، فكيف لى بالصدر بعد الورود .

إنه وهو الأمير لهذه الأمة لابد أن يرقى بمشاعرها إلى مستوى الحلم بالشهادة ، وإلى مستوى الإشفاق من لقاء الله ، والخوف من عذابه .

لكن أين نشهد عواطفه التى تختلج بين ضلوعه؟ نشهدها فى فراق الحبيب المصطفى ﷺ، وكيف سيمضى بعيدًا عنه ؟ وكيف سيمضى شهيدًا إلى ربه ؟ فيفوته متابعة الجهاد مع المصطفى الحبيب ـ صلوات الله عليه ـ فراح ينشد :

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصرًا كالذى نُصروا
إنى تفرَّست فيك الخير نافلة   فراسة خالفت فيك الذى نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله   والوجه منى فقد أزرى به القدر

لقد تركها كلمة لنا للأجيال القادمة والقرون المتلاحقة ، وقد ظمئت قلوبنا إلى رؤيا الحبيب المصطفى ؛ ولكننا لم نحرم نوافله وعطاياه التى نعيش إلى اليوم فى نعيمها ، وما هذا الحديث عن مؤتة وشهدائها وأمرائها إلا من هذه النوافل والعطايا ، وما هذا الإسلام الذى نحيا له ونموت من أجله ، وهذه السيرة الزكية الطاهرة إلا من نوافله ﷺ ، وإن نحن حرمنا رؤية وجهه فى الدنيا فنرجوا الله تعالى أن لا نحرمها فى الآخرة ، والكافرون الذين حُرِموا نوافله ، وحُرِموا وجهه ، قد أزرى بهم القدر ، فهم أصغر وأحقر شأنًا فى هذه الحياة من الذباب ، وإذا كان تفاعلنا مع هذه الأبيات بعد خمسة عشر قرنًا بهذا التفاعل ، فكيف بذلك الجيل الظامئ للشهادة ، وهو يسمع هذه الأناشيد الخالدة تعبئ قوته ، وتمده بالذخيرة الحية فى قلبه .

وها هو عبد الله بن رواحة بين الأخذ والعطاء ، إنه يعطى ، وهو يفجِّر مشاعره الحرى نحو حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يأخذ مددًا يكفيه ، فيتخلف عن الجيش

المكلف بقيادته من أجل صلاة الجمعة يجمعها مع رسول الله ﷺ ، وكان درسًا من أقسى الدروس فى حياته التى بقى منها أيام يتلقاها، فالجيش الذى نفَّذ المهمة، ومضى للمعركة، خير منه ، وقد جلس يحضر الجمعة مع رسول الله ﷺ ، وإن كان لا شيء أعظم من الاقتداء بالمصطفى فى صلاة الجمعة ، وسماع خطبه ومواعظه ؛ لكن هذا لغير المكلفين بالجهاد، أما الذين اختاروا الجهاد، وسبقوا ابن رواحة بغدوة واحدة ، فقد جاءه الجواب بعد قوله :

- أردت أن أصلى معك الجمعة ثم ألحقهم ؟ وهيهات هيهات فقد سبق .

- « لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما أدركت غدوتهم » .

فقد فاته اللحاق بهذه الغدوة التى سُبق فيها ، وتخلف عن أجورهم .

و« لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » .

ولغدوة فى سبيل الله خير من رؤية رسول الله ﷺ، والصلاة خلفه، والاقتداء به، ولا مقارنة ، فهى خير من الدنيا كل الدنيا وما فيها ، ولو كان فيها مسجد المصطفى والصلاة خلفه ، واستماع مواعظه ، فالغدوة أو الروحة تفوق هذا كله .

ومضى ليلحق جسديًا بجيشه الذى اختير أميرًا له ، وينقل لهذا الجيش هذا الحديث، فيشعر القوم أن ماهم عليه أفضل من كل شىء ، وأفضل من التخلف لسماع الموعظة ، والجمعة مع رسول الله ﷺ ، وأنهم سبقوا أميرهم بأجورهم بعد أن فاته غدوة معهم.

إنه النور ينطلق فيغمر هذا الركب ويضىء له دربه فى تيه الصحراء التى سيقطعها متحرقة أقدامه، مصهورة أجساده، لا ليقطع كيلاً أو كيلين ، بل ليقطع تحت هذا اللظى، وفى قلب هذا اللهب ما ينوف عن ألف وخمسمائة كيلو متر ، مجاهدًا فى سبيل الله.

إنها السرية الأشق ، السرية الأبعد مدى ، السرية الأضخم مواجهة ، السرية الأكثر هولاً وخطرًا وتضحية - إلى مؤتة ، لماذا ؟ للثأر لمصرع الحارث بن عمير الأزدى ، نقطع هذه الفيافى والقفار، لقد قطعناها بالسيارات المكيفة والماء المبرد ، وطعام اللحم والدسم، واحتجنا أن نستجم أيامًا من وعثائها ، فكيف بهذا الجيش يقطعها فى شهر أو أكثر ، ماشيًا على أقدامه زاده التمر ، وتكييفه الشمس المحرقة ، وظله النار المتوهجة ، لكن فى قلبه العامر بالإيمان الماضى إلى هدفه ، ما ينسيه كل مشاق حياته .

ولئن غنى ابن رواحة للمسلمين بحلم الضربة ذات الفرغ ، والطعنة المجهزة بيدى حران ، فلابد أن تعود ظلال الشهادة ثانية إلى أحلامه ، فيخاطب ربيبه زيد بن أرقم ، حيث لا ثالث لهما فى نجوى الحبيب إلى الحبيب .

إذا أديتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحِساء

فشأنك أنعُمٌ وخَلاكِ ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى

فكل هذه النعم ،والخلو من الذم منوط بالشهادة كذلك ، حيث لا رجوع بعدها إلى الأهل ، فلابد أن يبل ثرى الشام من اليوم النجيع الطاهر من يثرب ، وتبقى العلامة العلامة : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] .

وجاء المؤمنون وغادرونى بأرض الشام مُشْتَهَى الثواء

وانقطعت الأنساب كلها إلا نسب الرحمن ، وثيق العرى الذى يربط أحباب الله تعالى بخالقهم وقد تقطعت الأغيار ، وزالت الحجب :

وردَّك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء

فهؤلاء هم الشهداء الذين اختارهم الله تعالى من خلقه عندها لا هم، ولا وصب ، ولا عمل بحرث ولا زرع ولا ضرع ، إنما الخلود مع الله تعالى فى جناته ، وتنتهى هموم الدنيا وأوصابها وغمومها .

هنالك لا أبا لى طلع بعلٍ ولا نخل أسافلها رِواءِ

وكأن الأمر عند زيد قد تجسد أمامه واقفًا حيًا ، فلم يحس إلا بدموعه وقد طفرت من عينيه ، فقد عاد بين شعبتى الرحل وحيداً دون ابن رواحة الذى يعيش فى كنفه ، وجاءه الجواب مع انهمار دموعه .

(ما عليك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة ، فأستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وترجع بين شُعبتى الرحل) .

وآن الأوان ليعرِّس الركب ،وترتاح الإبل من جهدها العنيف فناداه شاعرنا الشهيد :

يا زيد زيد اليعملات الذُّبَّلِ تطاول الليل هديت فانزل

ومن الأحلام الوردية إلى الواقع الرهيب فها هم فى مشارف ، وعند حدود مؤتة ، ويا لهول ما يرون ، انتهى التغنى بالأحلام أمام الكتائب مثل الجبال من العرب والروم تجمعت لإفناء هذه الآلاف الثلاثة .

وأين جمع الأحزاب وقريظة من هذا الجمع ؟ فما الأحزاب وقريظة إلا قطرة فى بحر هذا العدو ، وإذا كان جمع الأحزاب وقريظة قال الله تعالى عنه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وهذا العدو الذى أمامهم ليس عشرة آلاف ، إنما عشرين ضعفًا لذلك الجيش إنه مائتى ألف مقاتل من العرب والروم يقابلها ثلاثة آلاف أغلبهم من الشباب الجديد حديثى الإسلام ، فعلام يعتمد هؤلاء ، وأمامهم تلك المئات المؤلفة .

وخلا القادة لبعضهم ، أيُقتلون ها هنا جميعًا ، ويدفنون بحيث لا يدرى بهم أحد ، أم يتجنبوا المعركة ريثما يتمكنوا من التفلت من قبضة هذا العدو ،أم يدعون الأمر لرسول الله ﷺ يحدد لهم المسار المطلوب ، لقد خاضوا حربًا قبل هذه ، ولم يلقوا مثل يوم الأحزاب ويوم بنى قريظة ، وأما الآن ، فعلام يقيسون هذا اللقاء ؟ على أى حرب ، وأى غزوة ، وأية سرية ؟

(وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقْين وبهراء وبلى ، ومن لهؤلاء ، لقد عاينوهم الآن ، وليس الخبر كالخبر .

القادة الثلاثة مع أمثالهم من أولى الرؤى عليهم أن يتخذوا القرار المصيرى لهذه الآلاف الثلاثة ،لقد تبلبل أمرهم حتى ليمضوا الليلتين يفكرون فى أمرهم ، والبصير بالعواقب لابد أن يعد للأمر عدته ، ووقف البلبل الغريد عبد الله بن رواحة الذى غنى للشهادة والجهاد ما غنى طيلة حياته،والذى أبى أن يعيش إلى حلمه ، وأبى أن يتعامل مع واقعه ، إنه فى الأرض وجناحاه يرفرفان فى الجنة ، فقال نثرًا هزَّ المشاعر والعقول معًا :

(يا قوم ، والله إن التى تكرهون ، للتى خرجتم تطلبون الشهادة) ، فإذا تحققت الأحلام تهربون منها .

(وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به) .

فهم شهداء هذا الدين أحياءً وميتين .

(فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، وليست بشر المنزلتين).

ورجع رأى الشاعر الحالم على رأى البصير القائم،واندفعت هذه الجموع كلها، وقد رأت الشهادة فى عينيها وما بينها وبين الجنة إلا أن يقتلهم هؤلاء ، وطغى حماس الشباب على لغة العقل، ومن ورائه من يؤجج لهيبه، ويغذى وقوده ، عبد الله بن رواحة، أحد الأمراء الثلاثة ، ولم يعد مجال للنقاش ، فقد مضى السيل بالناس إلى الشهادة .

إن فى القوم خالد بن الوليد،وهل يجرؤ على الكلام بين يدى من هو أسبق سابقة،

وأعرق فضلاً منه ، وهو يستحى أن يفوه بكلمة واحدة قد تفسَّر بأنها تخذيل للقوم عن المواجهة ،وهو ابن الحرب وجزيلها المحكك وعشيقها المرجب،فالصراع مع العدو مهنته ، وهذا جعفر بجواره ، ماذا يقول ولم يخض من قبل حربًا واحدة مع رسول الله ﷺ ؟ أيتكلم ، والمهاجرون والأنصار والسابقون يقرون برأى ابن رواحة ، وزيد بن حارثة صاحب القرار المصيرى مثل خالد بن الوليد عراقة فى الحرب وحنكته فى المواجهة لا يرى خطلاً فى الرأى مثل هذه المواجهة ، فهو فى النهاية صاحب القرار الأول وليس الأخير ؟ فالشهادة هى أقرب متناول ، ولم يبعث بهم رسول الله ﷺ إلا وهو عارف بمن يواجهون ومن يصارعون ، ولا ندرى إن اختلفت الآراء ، لكن جيش الشباب الذى طغى عليه الحماس ، وجد فى رأى ابن رواحة ما يغذى شهوته للقتال ، وصبوته فى الموت ولقاء الكفار،وهذه فرصة خالد بن الوليد أن يكفر عن كل صده عن سبيل الله بالشهادة ، فهذا أول لقاء له مع أعداء الله .

ومضى الناس يقولون : القول ما قال ابن رواحة ، والملاحظ أن هذه الروح قد سادت لدى الجيش كله ، ففى رواية الواقدى عن أبى هريرة قال : شهدت مؤتة فلما دنا العدو منا رأينا ما لا قبل لأحد به من العَدد والعُدد والسلاح والكراع والديباج والحرير المذهب، فبرق بصرى فقال لى ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، كأنك ترى جموعًا كثيرة ؟! قلت : نعم ، قال : إنك لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم نُنْصر بالكثرة ، وأبو هريرة رضي الله عنه يشهد أول معركة مع المسلمين، فقد حضر بعد خيبر إلى المدينة ، ولم يرد اسمه فى سرية من السرايا التى كانت بعد خيبر، وعمرة القضاء لم يكن فيها قتال، وثابت بن أقرم شهد بدرًا والمشاهد كلها وشهد مؤتة، فهو ربيب الحرب وابنها فقدَّم خبرته لأبى هريرة رضي الله عنه الوافد الجديد بأن المسلمين لا يقاتلوا عدوهم بالعدد والكثرة ، ولم يُنصروا مرة لأنهم أكثر من عدوهم ، وبدر شاهد على ذلك ، لكن فى المنطق البشرى ، لا يعقل أن تتم هذه المواجهة بين جيشين بهذه الأعداد ، ويخرج أحد سالمًا من المسلمين ، وقد شهدنا بعض السرايا كسرية كعب بن عمير الغفارى وسرية ابن أبى العوجاء الأسلمى ، وسرية بئر معونة ، وسرية الرجيع أن المسلمين قتلوا جميعًا واستشهدوا ، وهذا شرف كبير لهم ، إذ أنهم قاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم .

لكن العناية الربانية مع هذه السرية ، التى تريد لها كما أرادت لبدر ، أن توقع على يديها نصرًا مؤزرًا يرهب العدو الذى يطمع فى غزو المدينة كل لحظة ، وكما كانت بدر أول لقاء مع المشركين العرب ، فقد كانت مؤتة أول لقاء مع الروم ، وكما أن اللقاء مع العدو ، كان قدرًا ربانيًا ، فإن اللقاء مع الروم كان قدرًا ربانيًا كذلك ، ولاشك أن هناك معجزة لرسول ﷺ فيها كان المسلمون ستارًا لقدر الله عز وجل ، فلم يحدث أن نُقلت

المعركة وأرضها لرسول الله ﷺ فى سرية من سراياه إلا هذه المعركة ، ولهذا كثيرًا ما يعنون المؤرخون لمؤتة بـ : غزوة مؤتة علمًا أن رسول الله ﷺ لم يحضرها ، لكن رفعها له كأنما حضرها ، وتسمية خالد بن الوليد بسيف الله فى هذه المعركة لم ترد لأحد إلا له، وسيف الله تعالى لا يقهر ، ولكن الجديد مع هذه العصبة المسلمة هو أن هذا النصر تحقق بالجهد البشرى دون بروز جند الله من الملائكة أو الريح أو شىء آخر ، اللهم إلا إذا كان إلقاء الرعب فى قلب العدو من الله تعالى هو الإضافة الجديدة .

فى المعركة

قال ابن عقبة وابن إسحاق[1] ومحمد بن عمر[2] : ثم التقى الناس واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعرقبها ثم قاتل القوم حتى قُتِل فكان جعفر أول رجل من المسلمين عرقب فرسًا له فى سبيل الله .

(وروى ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثنى أبى الذى أرضعنى، وكان أحد بنى مرة بن عوف ، وكان فى غزوة مؤتة قال : والله لكأنى أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ، ثم قاتل حتى قُتِل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها)[3]

وهذا الحديث رواه أبو داود من طريق ابن إسحاق ولم يذكر الشعر ، وفى حديث أبى عامر رضي الله عنه عند ابن سعد أن جعفرًا رضي الله عنه لبس السلاح ثم حمل على القوم حتى إذا هم أن يخالطهم رجع فَوَحَّشَ بالسلاح ، ثم حمل على العدو وطاعن حتى قتل ، قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتِل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء ، ويقال : (إن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٢ .   (٢) مغازى الواقدى ٢/ ٧٦١ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٢ .

رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين)[1] .

وأخرج البخارى (عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء فى دبره ، يعنى فى ظهره)[2] .

وفى رواية أخرى له قال :(كنت فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية)[3] .

قال ابن إسحاق :(وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : حدثنى أبى الذى أرضعنى ، وكان أحد بنى مرة بن عوف قال : فلما قُتِل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه ،فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالى أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه ... هل أنت إلا نطفة فى شنه

وقال أيضًا :

يا نفس إلا تقتلى تموتى ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلى فعلهما هديت

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا : ثم نزل ، فلما نزل أتاه ابن عم بعرق من لحم فقال : شُدَّ بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة[4] فى ناحية الناس ، فقال : وأنت فى الدنيا ، ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتِل)[5] .

(ووقع اللواء من يده فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم بعض الناس فجعل قطبة بن عامر يصيح يا قوم يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبرًا ، قال سعيد بن أبى هلال : وبلغنى أن زيدًا وجعفرًا وعبد الله بن رواحة دفنوا فى حفرة واحدة)[6]

(١) وذكر السهيلى عن عقر جعفر الفرس قال : وأما عقر جعفر فرسه ، ولم يعب ذلك عليه أحد فدلَّ ذلك على جواز ذلك إذا خيف أن يأخذها العدو ، فيقاتل عليها المسلمين ، فلم يدخل هذا فى باب النهى عن تعذيب البهائم ، وقتلها عبثًا . (الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٤/ ٨٠).
(٢) البخارى ٢/ ٥/ ١٨٣ .
(٣) البخارى ٢/ ٥/ ١٨٣ ، وسبب ذلك الخلاف أن الرواية الأولى تشير إلى ما فى صدره ، بينما تشير الرواية الثانية إلى ما فى جسده حين اكتنفه القوم من كل جانب .
(٤) الحطمة : صوت زحام الناس وحطم بعضهم بعضًا بالسيوف .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٩ . (٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٧ .

وفى حديث أبى عامر رضي الله عنه عند ابن سعد (أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما قتل انهزم الناس أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعًا ، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزَه ثم قال : إلىَّ أيها الناس ، فاجتمع إليه الناس حتى كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد ، فقال له خالد : لا آخذه منك أنت أحق به فقال الأنصارى : ما أخذته إلا لك)[1] .

تأمير خالد :

(قال ابن إسحاق : ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بنى العجلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد)[2] .

وروى الطبرانى عن أبى اليسر الأنصارى رضي الله عنه قال :(أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أقرم لما أصيب عبد الله بن رواحة فدُفعت إلى خالد وقال له ثابت بن أقرم : أنت أعلم بالقتال منى)[3] .

(فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف بالناس)[4] .

هكذا ذكر ابن إسحاق أنه لم يكن له إلا المحاشاة والتخلص من أيدى الروم الذين كانوا مع من انضم إليهم أكثر من مائتى ألف والمسلمون ثلاثة آلاف ، ووافق ابن إسحاق على ذلك شرذمة ، وعلى هذا سمى نصرًا وفتحًا باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو وتراكمهم ، وتكاثرهم عليهم ، وكان مقتضى العادة أن يُقتلوا بالكلية وهو محتمل لكنه بخلاف الظاهر من قوله ﷺ : « حتى فتح الله عليهم » ، والأكثرون على أن خالدًا ومن معه رضي الله عنهم قاتلوا المشركين حتى هزموهم[5] ففى حديث أبى عامر عند ابن سعد (أن خالدًا لما أخذ اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا)[6] .

(وروى الطبرانى برجال ثقات عن موسى بن عقبة قال : ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومى فهزم الله تعالى العدو وأظهر المسلمين)[7] ، وروى محمد بن عمر الأسلمى عن عطّاف بن خالد :(لما قتل ابن رواحة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٢٩، ١٣٠ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٣ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٧ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٣ .
(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٨ .
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٣٠ .
(٧) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٨ .

مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا قد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، قالوا : وقد جاءهم مدد فرعبوا وانكشفوا منهزمين ، قال : فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم)(١) ، وذكر ابن عائذ فى مغازيه نحوه .

(وروى محمد بن عمر عن الحارث بن الفضيل رحمه الله تعالى : لما أخذ الراية خالد بن الوليد قال رسول الله ﷺ : « الآن حمى الوطيس »(٢) ، وروى القراب فى تاريخه عن برذع بن زيد رضي الله عنه قال : اقتتل المسلمون مع المشركين سبعة أيام ، وروى الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهما وهذا الذى ذكره أبو عامر والزهرى وعروة وابن عقبة وعطاف بن خالد وابن عائذ هو ظاهر قول رسول الله ﷺ فى حديث أنس : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم »(٣) ، وفى حديث أبى قتادة رضي الله عنه مرفوعًا كما سيأتى ثم أخذ خالد بن الوليد اللواء ولم يكن من الأمراء ، هو أمَّر نفسه ، ثم رفع رسول الله ﷺ أصبعه ثم قال : « اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره ، فمن يومئذ سمى خالد بن الوليد سيف الله » (٤) رواه الإمام أحمد برجال ثقات ، ويزيده قوة ويشهد له بالصحة ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والبرقانى عن عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة رضي الله عنه فى غزوة مؤتة ورافقنى مددى من المسلمين فى اليمن ليس معه غير سيفه ، فنحر رجل من المسلمين جزورًا فسأله المددى طائفة من جلد ، فأعطاه إياه فاتخذه كهيئة الدرقة ، ومضينا ولقينا جموع الروم فيهم رجل على فرس له أشقر ، عليه سرج مذهَّب، وسلاح مذهَّب ، فجعل الرومى يغزو المسلمين ، فقعد له المددى خلف صخرة ، فمرَّ به الرومى فعرقب فرسه بسيفه،وخرَّ الرومى فعلاه بسيفه،فقتله وحاز سلاحه وفرسه ، فلما فتح الله تعالى على المسلمين بعث إليه خالد بن الوليد ، فأخذ منه بعض السلب ، قال عوف : فأتيت خالدًا وقلتُ له : أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسَّلب للقاتل ؟ قال: بلى ، ولكنى استكثرته ، فقلت : لتردنَّه أو لأعرِّفنكها عند رسول الله ﷺ ، فأبى أن يرد عليه ، قال عوف : فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ ، فقصصت عليه قصة المددى وما فعل خالد فقال رسول الله : « ما صنعت ؟ » قال : استكثرته ، قال : « رد عليه ما أخذت منه » قال عوف : دونكها يا خالد ألم أف لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك ؟ » فأخبرته ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « يا خالد لا تَرِد عليه ، هل أنتم تاركون أمرائى لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره)(٥) .

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٤ .

(٣) البخارى ٢/ ٥/ ١٨٣ .

(٤) مسند أحمد ٥/ ٢٩٩ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٩ .

وفى رواية مسلم: (فمر خالد بعوف فجر رداءه ، ثم قال : هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ ؟ فسمعه رسول الله ﷺ ، فاستغضب ، فقال : « لا تعطه ، يا خالد لا تعطه يا خالد هل أنتم تاركون لى أمرائى ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنمًا فرعاها ، ثم تحين سقيها فأوردها حوضًا فشرعت فيه ، فشربت صفوه وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم)[1] .

ذكر بعض مغانم المسلمين فى مؤتة :

روى محمد بن عمر والحاكم فى الإكليل عن جابر رضي الله عنه قال : أصيب بمؤتة ناس من المسلمين ، وغنم المسلمون بعض أمتعة المشركين ،وكان فيما غنموا خاتم جاء به رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلت صاحبه يومئذ فنفلنيه رسول الله ﷺ،وتقدم حديث عوف بن مالك رضي الله عنه وروى محمد بن عمر عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه قال : (حضرت مؤتة فبارزنى رجل منهم يومئذ فأصبته ، وعليه بيضة له فيها ياقوتة ، فلم تكن همتى إلا الياقوتة فأخذتها ، فلما رجعنا إلى المدينة أتيت بها رسول الله ﷺ فنفلنيها ، فبعتها زمن عثمان بمائة دينار فاشتريت بها حديقة نخل)[2]، قال فى البداية : (وهذا يقتضى أنهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم) وروى البخارى عن خالد رضي الله عنه قال : (لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ،وما ثبت فى يدى إلا صحيفة يمانية) وهذا يعنى أنهم أثخنوا فيهم قتلاً ولو لم يكن ذلك لما قدروا على التخلص منهم ، إذ كان المسلمون ثلاثة آلاف والمشركون أكثر من مائتى ألف ، وهذا وحده دليل مستقل والله أعلم)[3] .

قال ابن إسحاق :(وقد كان قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين قد حمل على مالك بن رافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :

طعنت ابن رافلة بن الإراشى ... برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربتُ على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بنى عمه ... غداة رقوقين سَوْق النعم)[4]

وهذا ما يؤيد ما نحن فيه لأن من عادة أمير الجيش إذا قتل أن يفرَّ أصحابه ، ثم إنه صرَّح فى شعره بأنهم سبوا من نسائهم وهذا واضح فيما ذكرناه .

وقال فى البداية بعد أن ذكر جميع من قتل بمؤتة من المسلمين[5] :(فالجموع على

---

(١) مسلم ٣/ ١٣٧٣، كتاب الجهاد والسير ح (١٧٥٣) .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٩ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٤٠ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٥ .
(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٤١ .

القولين اثنا عشر رجلاً ، وهذا عظيم جدًا أن يتقاتل جيشان متعاديان فى الدين أحدهما وهو الفئة التى تقاتل فى سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف وأخرى كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل؛ من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف ، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا لا يقتل من المسلمين سوى اثنى عشر رجلاً ، وقتل من المشركين خلق كثير هذا خالد وحده يقول : لقد اندقت فى يدى يومئذ تسعة أسياف وما صبرت فى يدى إلا صفيحة يمانية . فماذا يا ترى قتل فى هذه الأسياف كلها ؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن وهذا مما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ [آل عمران])[١] .

خبر السرية على لسان رسول الله ﷺ :

روى الإمام أحمد وابن ماجه عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال : « ائتينى ببنى جعفر » فأتيته بهم فشمَّهم وذرفت عيناه ، فقلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : « نعم أصيبوا هذا اليوم » .قالت : فقمت أصيح ، واجتمع إلىَّ النساء وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم »[٢] .

وروى البيهقى والبخارى[٣] عن أنس رضي الله عنه قال : نعى رسول الله ﷺ وهو على المنبر زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس يوم أصيبوا قبل أن يأتيه خبرهم فقال:« أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله عليهم » .

وروى النسائى والبيهقى (عن أبى قتادة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، فانطلقوا ، فلبثوا ما شاء الله فصعد رسول الله ﷺ المنبر فنودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إلى رسول الله ﷺ فقال : « أخبركم عن جيشكم هذا ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقُتل زيد شهيدًا » فاستغفر له ، « ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قُتل شهيدًا » فاستغفر له ، « ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قُتل شهيدًا » فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء ، وهو أمَّر نفسه ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٥٩ . (٢) مسند أحمد ٦/ ٣٧٠ .
(٣) البخارى ٥/ ١٨٣ .

فمن يومئذ سمى خالد سيف الله) (١) .

وروى البيهقى : (عن ابن عقبة ـ رحمه الله تعالى ـ قال: قدم يعلى بن أمية ﷺ على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن شئت أخبرتنى ، وإن شئت أخبرتك بخبرهم ؟ » قال : بل أخبرنى يا رسول الله ، فأخبره رسول الله ﷺ خبرهم كله فقال : والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفًا واحدًا لم تذكره وإن أمرهم كما ذكرت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم، ورأيتهم فى المنام على سرر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريرى صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا ، وتردَّد بعض التردد ثم مضى ») (٢) .

قال ابن إسحاق : (لما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيدًا ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب ، فقاتل بها حتى قتل شهيدًا » قال : ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ، ثم قال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدًا » ، ثم قال : « لقد رفعوا إلىَّ فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريرى صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟ فقيل لى: مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد ، ثم مضى ») (٣) .

قال ابن إسحاق : (عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبى طالب عن جدتها أسماء بنت عميس قالت : لما أصيب جعفر وأصحابه دخل على رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين منًا ، قال ابن هشام : ويروى أربعين منيئة، وعجنت عجينى ، وغسلت بنى ودهنتهم ونظفتهم ، قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : « ائتينى ببنى جعفر » ، قالت : فأتيته بهم فتشممهم وذرفت عيناه ،فقلت:يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم ، أصيبوا هذا اليوم . . .) (٤) .

وروى ابن سعد : (عن أبى عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ لما بلغه مصاب أصحابه شق ذلك عليه فصلى الظهر ثم دخل وكان إذا صلى الظهر قام فركع ركعتين ثم أقبل بوجهه على القوم ، فشق ذلك على الناس ، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك ، ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك ، حتى إذا كانت صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسم، وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلى

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٣٦٧ . (٢) المصدر نفسه ٤ / ٣٦٨ .

(٣، ٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٤ .

الغداة ، فقال له القوم حين تبسم : يا نبى الله بأنفسنا أنت لا يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذى رأينا قال رسول الله ﷺ : « كان الذى رأيتم منى أنه أحزننى قتل أصحابى، حتى رأيتهم فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين،ورأيت فى بعضهم إعراضًا كأنه كره السيف ، ورأيت جعفر ملكًا ذا جناحين مضرجًا بالدماء مصبوغ القوادم »)(١) .

قال محمد بن عمر :(حدثنى محمد بن مسلم عن يحيى بن أبى يعلى قال :سمعت عبد الله بن جعفر يقول : أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمى فنعى لها أبى ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسى ورأس أخى ، وعيناه تهراقان الدموع حتى تقطر لحيته ثم قال:« اللهم إن جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب ، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدًا من عبادك فى ذريته » ، ثم قال: « يا أسماء ،ألا أبشرك ؟ » قالت:بلى، بأبى أنت وأمى! قال: « فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة» ! قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فأعلم الناس ذلك ! فقام رسول الله ﷺ وأخذ بيدى ، يمسح بيده رأسى حتى رقى على المنبر ، وأجلسنى أمامه على الدرجة السفلى ، والحزن يعرف فى وجهه،فتكلم فقال :« إن المرء كثير بأخيه وابن عمه،ألا إن جعفراً قد استُشهد ، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما فى الجنة »،ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلنى وأمر بطعام فصُنع لأهلى ،وأرسل إلى أخى فتغدينا عنده والله غداء طيبًا مباركًا ، عمدت سلمى خادمته إلى شعير فطحنته ،ثم نسفته ، ثم أنضجته وأدمته بزيت ، وجعلت عليه فلفلاً فتغديت أنا وأخى معه ، فأقمنا ثلاثة أيام فى بيته ، ندور معه كلما صار فى إحدى بيوت نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا ، فأتى رسول الله ﷺ ، وأنا أساوم بشاة أخٍ لى فقال : «اللهم بارك فى صفقته »، قال عبد الله : فما بعت شيئًا ولا اشتريت إلا بورك فيه)(٢).

وأخرج البخارى (عن عمرة قالت:سمعت عائشة ﵂ تقول:لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ﵃ جلس رسول الله ﷺ يُعرف فى وجهه الحزن ، قالت عائشة : وأنا أطّلع من صائر الباب ـ تعنى من شق الباب ـ فأتاه رجل فقال:أى رسول الله،إن نساء جعفر، قال: وذكر بكاءهن فأمره أن ينهاهن ، قال: فذهب الرجل ثم أتى فقال:قد نهيتهن وذكر أنه لم يُطِعنه،قال:فأمر أيضًا ثم أتى وقال:والله لقد غلبننا،فزعمت أن رسول الله ﷺ قال:« فاحث فى أفواههن من التراب »،قالت عائشة: أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء)(٣) .

وعن عامر قال :(كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال : « السلام عليك يابن ذا الجناحين ») (٤) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٣٠ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٨ .
(٣) البخارى ٥/ ١٨٢ .
(٤) المصدر نفسه ٥ / ١٨٣ .

وفى رواية للواقدى : (فدخل على رسول الله ﷺ فقال : « يا أسماء ، أين بنو جعفر ؟ » فجئت إليهم فضمهم وشمهم ثم ذرفت عيناه فبكى فقلت: أى رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شيء؟ قال: « نعم، قُتِل اليوم»، قالت: فقمت أصيح، واجتمع إلى النساء، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: « يا أسماء لا تقولى هجرًا ،ولا تضربى صدرًا » ، قالت : فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وهى تقول : واعماه ، فقال رسول الله ﷺ : « على مثل جعفر فلتبك الباكية » ثم قال رسول الله ﷺ : « اصنعوا لآل جعفر طعامًا ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم ») (١) .

عودة الجيش إلى المدينة

روى الإمام أحمد(٢) وأبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس وكنت فيمن حاص)، وفى رواية: (فلما لقينا العدو فى أول غادية فأردنا أن نركب البحر ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة قتلنا ، فقدمنا المدينة فى نفر ليلاً فاختفينا ، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فاعتذرنا إليه ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم ؟ » قلنا : نحن الفرارون قال : « بل أنتم العكارون وأنا فئتكم » أو قال : « وأنا فئة كل مسلم » قال : فقبلنا يده) (٣) .

وروى ابن إسحاق عن أم سلمة زوج النبى رضي الله عنها أنها قالت لامرأة : سلمة بن هشام ابن العاص بن المغيرة : ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج إلى الصلاة صاح به الناس : يا فُرار، فررتم من سبيل الله، حتى قعد فى بيته فما يخرج، وكان فى غزوة مؤتة) (٤).

وعن أبى سعيد الخدرى قال : (أقبل خالد بن الوليد بالناس منهزمًا ، فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجُرف ، فجعل الناس يحثون فى وجوههم التراب ويقولون : يا فرار ، أفررتم فى سبيل الله ؟ فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بفرار، ولكنهم كرار إن شاء الله »)(٥) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : (كنا نخرج ونسمع ما نكره من الناس ، لقد كان بينى وبين ابن عمٍ لى كلام فقال : إلا فرارك يوم مؤتة ، فما دريت أى شيء أقول له) (٦) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٦ .

(٢) مسند أحمد ٢/ ١١١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ١٤٦ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٦ .

(٥ ، ٦) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٥ .

وعن أبى بكر بن عبد الله بن عتبة يقول: (ما لقى جيش بعثوا معنا ما لقى أصحاب مؤتة فى المدينة ، لقيهم أهل المدينة بالشر حتى إن الرجل لينصرف إلى أهله وبيته ، فيدق عليهم الباب ، فيأبون أن يفتحوا له ، يقولون : ألا تقدمت مع أصحابك ؟ فأما من كان كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ فجلس فى بيته استحياءً حتى جعل النبى ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً يقول :(« أنتم الكرار فى سبيل الله »)[1] .

قال ابن إسحاق :(فحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال : لما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، قال : ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر » ،فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه قال : وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرار ، فررتم فى سبيل الله ، قال: فيقول رسول الله ﷺ: « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار ـ إن شاء الله تعالى » ، ويقول : « أنا فئتكم »)[2] .

* * *

استشهاد القادة الثلاثة :

قال ابن إسحاق :(ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم).

إنه زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ ، وأكبر قواده ، والذى قاد تسع معارك قبل مؤتة ، ولم يعرف فى تاريخ الصحابة من أوكل له مثل هذه الإمرة غيره ، وها هو الآن بين يدى مائتى ألف من الروم والعرب يحمل الراية المحمدية ، ويقاتل بيد ، ويحمل الراية فى يد ، وليس بين أيدينا شىء عن هذا القتال ، فكلما ذكر عنه أنه شاط فى رماح القوم ، إنه بمثابة ابن المصطفى ﷺ ، يسقط شهيداً فى أرض الشام ويبارك ثرى مؤتة بدمه الزكى .

ثم جاء دور جعفر بن أبى طالب ، شبيه رسول الله ﷺ خَلْقًا وخُلُقًا ، وهو الذى لم يخض معركة قط، ومع هذا فهو يقاتل ببسالة منقطعة النظير ، وهو يقاتل على فرسه، لم يثنه مقتل أخيه زيد أو يلن من قناته ، ورأى أن القتال على الفرس لا يشفى صدره ، ولا يروى غليله، وإذا ترك فرسه،فقد يأخذها العدو ويقاتل عليها،إنه وهو يتقبل الطعنات فى صدره وظهره مشغول عنها مشغول بالوسيلة التى يلتحم فيها مع العدو أكثر، والتمعت

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٥ ، ٨٣٦ .

الفكرة فى ذهنه،وسرعان ما نفذها ، اقتحم عن فرسه ، وعقر فرسه حتى لا يستفيد منها العدو ، فيصبح الهدف الرئيس لأبطال الروم والعرب ، يريدون أن يجهزوا عليه لتسقط الراية ، ويتفرق المسلمون ، وهو ماض فى شوق عارم إلى الجنة ، لا يكاد يصدق متى يرى أجله فيرى عرس أمانيه ، ضَربات السيف وطعنات الرماح لا تكاد ترتفع الأولى إلا والثانية تنقض عليه بجوارها ، وهو يقاتل ويذود عن الراية ، ويزغرد :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها عليَّ إذ لاقيتها ضرابها

إنه واثق بقدر الله ، ولو كانت الأسنة والسيوف تحتوشه من كل جانب بأن الروم قد دنا عذابها ، كما دنت الجنة إليه فصارت قاب قوسين أو أدنى فما هو إلا أن يسلم الروح، لكن عليه قبل أن يسلمها أن يحيا كل لحظة فى سبيل الله فهو حامل راية الإسلام فى قلب بلاد الكفر ، فقطعت يمينه ، فتناول الراية بشماله يحافظ عليها ، ولا يضيره الرماح التى تغرز فى صدره والسيوف التى تنهش من جسده ، هذا لا يعنيه بمقدار ما يعنيه أن يحافظ على راية حبه محمد ﷺ الذى ائتمنه عليها ، فهذا هو مفهوم الإمرة فى الإسلام، ليست الإمرة الأريكة الوثيرة ، والقصر المنيف والخدم والحشم ، فالإمرة عند المصطفى ﷺ تعنى إمرة التسابق إلى الموت ، والقيادة إلى الجنة ، وتقطع يده الثانية والدم يشخب من كل جزء من جسده ، فهل يُسقِط الراية ؟ أبدًا ، فينقلها إلى عضديه ، ويسلم جسمه ساحة رمى وطعن يتسلى بها العدوَ ، فالذى يعنيه هو أن يحتضن الراية لآخر قطرة من دمه ، ولآخر لحظة من روحه ، ويكاد يجن العدو من هذا الأمير الذى اقتحم عن فرسه ليرمى نفسه فى أتون الخطر ، ويشارك عشرات الأبطال فى الثأر من هذا الرمز الخالد حتى يسقط مضرجًا بدمه وقد أوفى الذمة ورعى العهد، وكما تقول بعض الروايات : إن الحقد عليه بلغ أن شُقَّ نصفين وهو يضرب ويطعن حتى بعد استشهاده ، وتصبح جثته بين الأرجل المتشابكة ،فيسرع المسلمون إلى أميرهم المفدى ، شبيه رسول الله ﷺ ، يأخذون جثته بعيداً عن ساحة المعركة وملحمة الموت ، ولا ينسى عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن ينقل إلى أجيال التاريخ كلها صورة هذا البطل ، فيأتى ليعدّ الطعن والرمى فى جسده ، ويقول كلمته التى حفظها وعاء الزمن فنقلها لنا عنه نافع أن ابن عمر أخبره:أنه وقف على جعفر وهو قتيل (فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شىء فى دبره ، يعنى ظهره).

ولم يكتف ابن عمر بذلك ، وخشى أن يسائله التاريخ عن إتمام شهادته ، فمضى إلى ظهره يعد طعنات العدو فيه وهو بين طعن القنا وخفق البنود،فيتمم لنا شهادته قائلاً:

(كنت فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا فى جسده بضعًا وتسعين بين طعنة ورمية) .

ويبرز الأمير الثالث عبد الله بن رواحة ، الذى كان يتغنى بالموت فى سبيل الله إلى ساحة الموت ، ويأخذ الراية ، وهذه هى سِدة الإمارة التى يعتليها ، إنها نجيع أحمر زكى طاهر ، جرح يتفجر ، ويد تقطع ، ورأس يجز ، وهذا هو أوان الطعنة التى حلم بها فى المدينة :

أو طعنة بيدى حران مجهزة   أو ضربة ذات قرع تقذف الزبدا

فله الآن أكبر من أحلامه بكثير ، له طعنات وضربات تتناوب سراعًا فلا يكاد يقدر على عدهن .

إن الكفر كله قد برز للإيمان كله ، ولن تحل القضية بطعنة واحدة وانتهى الأمر ، أو بضربة واحدة وانتهى الأمر . قد يكون هذا لغير الأمير ، أما أمير القوم ، أما حامل الراية فهو الهدف من الأبطال جميعًا ؛ لأن إسقاط الراية يعنى إنهاء المعركة .

والحديث عن الموت شىء ، ومعاينته شىء آخر ، كما قال الله تعالى للمؤمنين فى أحد :

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)﴾ [آل عمران].

وها هو يقدم على فرسه ، ويرى الموت الزؤام فى منظره الرعيب أمامه ، فتحجم به فرسه ، فيطلق لها العنان دون أن يجبرها على الاقتحام ، ويحتد الصراع فى داخله بين نداء الجنة تهتف به، والحور العين يدعونه ، وبين الحياة وطعمها ولذتها تدعوه أن يحجم، وهو الشاعر المبدع ، فيحاور ذلك النداء من أعماقه الذى يدعوه إلى البقاء حرصًا على الحياة قائلاً :

أقسمت يا نفس لتنزلنه   طائعة أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه   مالى أراك تكرهين الجنه

إنه يخرج عن ذاته ويتحدث عن نفسه بموضوعية كاملة ، ويتهمها بالكذب ، فكيف تدعى من قبل حب الجنة ،وهى اليوم تكرهها وتخافها ،إن خوف الموت هو خوف عقباه ، وإن كراهية الموت الذى فطر الله النفس عليها .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة] .

ومن أنت أيتها النفس ؟

ما أنت إلا نطفـة من شـنه　　　قد طال ما قد كنت مطمئنه

وهو يقسم عليها أن تنزل للنزال والصراع والموت ، ويقاتل ، ويستعر أوار المعركة ، وهو فى قلبها ترى هل كان مخطئًا يوم دفع الجيش كله للشهادة فى سبيل الله، وقال لهم: (والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون) ، وعليه الآن وهو القائد المسؤول عن أرواح إخوانه جميعًا أن يجنب الجيش الإسلامى مصرعه على يد العدو .

هل هذا هو الحل الأمثل ، لكن رفيقى دربه قد استشهدا أمامه ، فلن يكون هو صاحب الرأى الأصوب ،إنه يعلم أنها حيلة بارعة من نفسه عليه لتهرب من الموت ، فسدً عليها المهرب قائلاً :

يـا نفـس إلا تقتلـى تمـوتى　　　هـذا حمـام المـوت قـد لقيـت

إن تفعلـى فعلهمـا هديـت　　　أو تعرضـى عنهـم فقـد شـقيت

فقد حسم الأمر معها ، وأعلمها أن طريقة سلفيه زيد وجعفر هى الحل الأمثل وهو القتل فى سبيل الله ، فالهداية فى اتباع أمرهما ، والشقاوة فى الإعراض عن سبيلهما ، وهذه هى الشهادة قد سيقت له وما تمنيت فقد أعطيت .

وبينا كان يأخذ عرقًا من لحم يشد به صلبه سمع صوتًا فسأل عنه فقيل له : صوت الحطمة، ارتطام السيوف ببعضها فقال: وأنت فى الدنيا ، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل. وصدق ما عاهد الله عليه ، فقد كان أحد النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا يوم العقبة ، ونفذ المقولة المشهورة : فما لنا يا رسول الله ، إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة » ، قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل .

لقد كان هؤلاء الأمراء الثلاثة من الرعيل الأول الذى تلقى التربية النبوية منذ فجر الإسلام ، وتقدم أمام الجيش الإسلامى نحو الموت ببسالة منقطعة النظير ، لكن استشهاد القادة الثلاثة وسقوط الراية من يد عبد الله بن رواحة تعنى نهاية المعركة .

(ووقع اللواء من يده فاختلط المسلمون والمشركون وانهزم بعض الناس) .

وفى رواية أبى عامر عند ابن سعد : (أن عبد الله بن رواحة لما قتل انهزم الناس أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى لم أر اثنين جميعًا)، وكان يمكن أن يباد الجيش كله إلا من يلوذ بالفرار ، لكن الرجال الأبطال فى ساعات المحن هم الذين يغيرون وجه التاريخ ،

فتقدم أحد أبناء الرعيل الأول ثابت بن أقرم البلوى حليف الأنصار من الصفوة المختارة من بدر، تقدم إلى اللواء ، وهو يعلم أنه يأتى لينقذ أمة .

(ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم رجل من الأنصار ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ، ثم قال : إلىَّ أيها الناس) .

لقد برز قائد جديد ، وحمل الراية بعد ابن رواحة، وهو من هو سابقة وفضلاً وبعد أن بلغت الهزيمة حدًا أن لم يعد يرى أبو عامر اثنين قط مع بعضهما إذ عاد الناس فاستجابوا للنداء .

(فاجتمع إليه الناس حتى كثروا) .

وفى رواية أخرى أن بدريًا أنصاريًا آخر هو الذى سعى باللواء ودفعه إلى ثابت بن أقرم كما روى الطبرانى عن أبى اليسر قال : أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أقرم لما أصيب عبد الله بن رواحة .

هذان البدريان ومعهما آخر الشهداء عبد الله بن رواحة لا تزال روح بدر تسرى فى دمائهم ، وهم يحضّون الناس على الصبر والثبات والجهاد ، فأبو اليسر هو الذى أسر العباس ، وقال له رسول الله ﷺ : أعانك عليه ملك كريم ، وأبو اليسر قصير القامة ، لكن عزمه عزم الأسود .

وثابت بن أقرم هو الذى نظر إلى أبى هريرة ﷺ وهو يرعد من الخوف أمام هذه المئات من الآلاف فقال له :

(يا أبا هريرة ، كأنك ترى جموعًا كثيرة ، قلت: نعم، قال: إنك لم تشهد معنا بدرًا، إنا لم ننصر بالكثرة) ولكن ثبات ثابت وبطولته لا يغنى هذا أكثر من أن يقتل الجيش كله مقبلاً غير مدبر ، والأمر يحتاج إلى قائد عسكرى فذ ، يضع الخطة المناسبة لإنقاذ الجيش، ويغير الواقع الأليم الذى كاد يقضى عليه .

كان هناك عين ترنو إلى هذه الراية ، عين مسلم لم يمر على إسلامه أربعة أشهر بعد، لكنه غارق فى همومه ، فهو يقاتل ببسالة يود أن يمسح صفحة عمره التى أمضاها فى الصد عن سبيل الله ، وهو يعلم أن الإسلام يجب ما قبله ، لكن يود أن يبدأ صفحة ناصعة مجلية فى الجهاد فى سبيل الله ، وهذه أول أيامه فيها ، هذه أول معركة يخوضها فى سبيل الله بعد إسلامه ، وهى من أعنف المعارك وأشدها هولاً مع أعداء من العرب والروم لم تشهد أمة العرب مثيلاً لها من قبل ، وهو سعيد أنه يقاتل بصمت بعيدًا عن الأنظار ، وسعيد كذلك أن رأى ثابت بن أقرم يحمل الراية من جديد ، ويجدد العزيمة ،

ويعيد الانضباط إلى الجيش بعد أن تبعثر حتى لم يعد اثنين مع بعضهما ، إنه سعيد بهذه المبادرة ، وعاد إلى ذاكرته يوم أحد الذى كان شبيهًا بهذا اليوم ، حيث كان فارًا مع جيشه حين التفت فرأى جبل الرماة قد فرغ من الحماة ،وتذكر يوم سقطت راية قريش ، فرفعتها علقمة الحارثية ليتجمع الناس حولها من جديد ، بعد أن فر الناس وأصبح النساء رهن الأسر لا يوجد دون أخذهن قليل ولا كثير ، وتذكر كيف التف حول الجيش المسلم من ظهره ، وأوقع به ضربته الهائلة ، وغيَّر مصير المعركة .

لكنه يكاد يَشرُق من الألم ،أهناك كانت البطولة فى قتال محمد وصحبه الذين يقاتل اليوم معهم تحت راية الإسلام ، ثم يعيد نظره بالقائد الجديد ، وما هى إلا لحظات حتى يرى الراية تندفع إليه مع صوت صارخ ، خذها يا خالد ، كانت مفاجأة صاعقة ، إنه آخر الركب إسلامًا ، أهكذا يستلم اللواء ، فيصبح بمصاف زيد وجعفر وابن رواحة ، قال : لا آخذه منك أنت أحق به .

قال الأنصارى : ما أخذته إلا لك .

وكرر خالد : أنت أفضل منى .

قال ثابت : أنت أعلم بالقتال منى .

وارتفعت صيحات من كل جانب : خذها يا خالد ، خذها يا خالد .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد .

هكذا وصاهم رسول الله ﷺ إذا قتل الأمراء الثلاثة فليصطلحوا على رجل منهم، والجميع يشهدون بكفاءة خالد العالية فى القتال، وهو الذى أذاقهم من قبل مرارة المحنة، وهو اليوم أحدهم ، فلتكن الراية له ، وهكذا وجد نفسه فى لحظة مسؤولاً عن الإسلام كله ، وعن جيش الإسلام فى هذه الأرض النائية فى أرض الشام ، وأمام جحافل الشرك من العرب والروم .

وانتهى وقت الأخذ والرد ، والأمر . أمر لحظات حاسمة تغير مجرى التاريخ ، والمطلوب منه اليوم أن يغير هذا المجرى مجرى ألف عام وأكثر ، والعرب على قتال الروم. تأتى جيوشهم أو جيوش الفرس لتنصر قبيلة على أخرى ، وتحكم أرضًا وتقيم دولة ، والعرب الغساسنة عملاء وأجراء الروم بلباس الملوك يصارعون اللخميين المناذرة عملاء وأجراء الفرس بثياب الملوك ، المطلوب من خالد اليوم أن يغير مجرى التاريخ كله، بهذا اللواء الذى حمله لواء الإسلام .

وكان خالد أهلاً لذلك كله ، هذه الطاقات الكامنة التى جاء دور تفجير عبقريتها فى مواجهة العدو .

وكانت عين الله ترعى هذا القائد الجديد ، وكان قلب رسول الله ﷺ على أحر من الجمر ، يود أن يسمع أخبار هذه المعركة الضخمة الفاصلة ، فأكبر جيش إسلامى قبل اليوم كان ألفى شخص ، والمسلمون اليوم فى الصراع مع الروم أربعة آلاف من الروافد الجديدة للإسلام .

واقترب الليل وهدأ الجو،وتفرغ خالد بن الوليد لوضع خطة الهجوم المعاكسة بعد أن صبر وثبت أمام عنف الهجوم الكافر ، وعلى قول عطاف بن خالد :

(ولما قتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم وقالوا : قد جاءهم مدد ، فرعبوا وانكشفوا).

لقد كانت هذه هى الخطة الأولى لتغيير مسار المعركة ، وحققت الخطة أهدافها مباشرة، لكن استغلال الظروف ذو أهمية بالغة ، فقد رافق هذا التغيير قتال على أعلى مستوى من الكفاءة قاده الأمير الجديد خالد بن الوليد ، فقد أبرز عبقريته التخطيطية وكفاءته التنفيذية ، حدثنا عنها بقوله :

(لقد انقطعت فى يدى تسعة أسياف فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية)

وماذا كان يفعل فى هذه الأسياف التى تقطع فى يده ، كم قط فيها من الرقاب ، وكم بتر فيها من السواعد والأرجل ، وكم طعن فيها من الصدور والأجساد ؟ والرواية للبخارى وكما يقول الصالحى (فماذا يا ترى قد قتل فى هذه الأسياف كلها ؟! دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن) .

فهو قتال ضار عبرّ عنه القراب فى تاريخه عن برذع بن زيد قال : اقتتل المسلمون مع المشركين سبعة أيام ، فمهما فر من العدو ، فالعدو عدده يملأ السهل والجبل .

وكانت الخطوة الجبارة الثانية ، هى خطة قتل قائد المشركين .

فقد ذكر ابن إسحاق أن قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين حمل على مالك بن رافلة وهو أمير أعراب النصارى فقتله وقال قطبة يفتخر بذلك :

طعنت ابن رافلة بن الإراشى ... برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بنى عمّه ... غداة رقوقين سوق الغنم

وكما فعل مقتل ابن رواحة فى الصف الإسلامى ، حيث لم يبق اثنان مع بعضهما، كذلك فعل مقتل قائد جيش العدو مالك بن رافلة ، فهزموا شر هزيمة قط ، وانتهت

الهزيمة بأن ساقوا نساء بنى عمه سبايا إلى المدينة، وكما فى رواية موسى بن عقبة فى سند رجاله ثقات فى قوله: (فرعبوا وانكشفوا منهزمين ، قال : فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم) وفى رواية أبى عامر عند ابن سعد (أن خالدًا لما حمل اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا)[1] .

جانب الإعجاز فى المعركة :

وما لنا وأقوال الصحابة إذا كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم والذى أقر ربه عينه بأن أشهده المعركة يصفها لنا ﷺ بقوله :

« ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه » .

ولسنا بحاجة بعد كلام رسول الله ﷺ لكلام أحد قط ، فقد كانت الدعوة النبوية الخالصة الضارعة إلى الله تعالى: « اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره » كما فى البخارى.

واستجاب الله تعالى دعوة نبيه : (ففتح الله على يديه) .

وكانت الكرامة لأولياء الله، والمعجزة لرسول الله ﷺ .

فهو سيف الله ، ومن يقف لسيف الله فى الأرض ! وحقق الله تعالى معجزته بهذا السيف، فقد أطلق الذى لا ينطق عن الهوى هذا اللقب على خالد بن الوليد، ولا عجب لو تجمعت قوى الأرض كلها أن تقف فى وجهه لهزمها ، إن عصا موسى المعجزة لقفت ما يأفك الكفار كله ، وأراد الله تعالى أن يحقق نصره بعبد من عباده الذى كان أشدهم حربًا على الله ورسوله ليأخذ بعد أربعة أشهر أرفع أوسمة التاريخ من رسول رب العالمين .

« سيف من سيوف الله » « اللهم إنه سيف من سيوفك » .

حتى أصبحت هذه الكلمة مثار رعب فى الأرض كلها ، حتى ليسأل جرجة قائد الروم خالد بعد سبعة أعوام فى ساحة المعركة :(يا خالد ، اصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا ، فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذَّبه ، فكنت فيمن كذَّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين)[2] .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة كما أخرجه أبو زرعة الدمشقى ١/ ٢/ ٩٩ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٣/ ٣٩٩ .

وعندما عقد له الصديق رضي الله عنه على قتال أهل الردة قال :

(إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين ») .

إن العقل لا يستوعب حسب السنن البشرية أن يتمكن ثلاثة آلاف من الانتصار على مائتى ألف إلا أن تكون معجزة ربانية،والإعجاز قد وقع كما فى الصحيح عن النبى ﷺ، بل وقع الإعجاز قبل هذا أن رفع الله تعالى ساحة المعركة لعبده ورسوله ﷺ كأنما ينظر إليها، وأخبر المسلمين عنها قبل وصول أخبارها كما فى الروايات الصحيحة المتعددة ، وأهمها ما فى البخارى عن أنس رضي الله عنه (أن النبى ﷺ نعى زيدًا وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ») .

وعند محمد بن عمر :

(لما التقى الناس بمؤتة جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وكشف له ما بينه وبين الشام ، فهو ينظر إلى معتركهم فقال رسول الله ﷺ : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكرَّه إليه الموت ، وحبَّبَ إليه الدنيا فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تحبِّب إلىَّ الدنيا ، فمضى قُدُمًا حتى استُشهد ، فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال : استغفروا له ، فقد دخل الجنة وهو يسعى ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، فجاءه الشيطان فمنَّاه الحياة وكرَّه إليه الموت ، ومنَّاه الدنيا ، فقال: الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تمنينى الدنيا ، ثم مضى قُدُمًا حتى استُشهد، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودعا له ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة فهو يطير فى الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء فى الجنة ، ثم أخذ الراية بعده عبد الله ابن رواحة ، فاستُشهد ودخل الجنة معترضًا فشقَّ ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : « أصابه الجراح » ، قيل : يا رسول الله ما اعتراضه ؟ قال : « لما أصابته الجراح نكل، فعاتب نفسه فشَجُع ، فاستُشهد فدخل الجنة ، فسُرِّى عن قومه »)(١) .

ونشهد هنا الأمراء الثلاثة، حيث دخل أحدهم الجنة سعيًا، وثانيهم طيرانًا، وثالثهم معترضًا، كما أطلعتنا هذه الرواية على أن تباطؤ ابن رواحة إنما كان عندما أثخنته الجراح، وكان لهذا التلكؤ أثر فى أن يكون سريره فى الجنة أدنى من سرير صاحبيه أو أن فى سريره ازوراراً عن سرير صاحبيه ، فالشهادة كتبت لهم جميعًا ، لكن المستوى النفسى لهم كانت الدرجات على ضوئه .

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٢ .

ويبدو جانب الإعجاز الربانى كذلك فى رواية البيهقى عن ابن عقبة ـ رحمه الله تعالى ـ قال :

(قدم يعلى بن أمية ﷺ على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن شئت أخبرنى ، وإن شئت أخبرك بخبرهم » فقال : بل أخبرنى يا رسول الله ، فأخبره رسول الله ﷺ خبرهم كله فقال :والذى بعثك بالحق ما تركت حديثهم حرفًا واحدًا لم تذكره ، وإن أمرهم لكما ذكرت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم ، ورأيتهم فى المنام على سرر من ذهب . . . »[(1)] .

كما نشهد جانب الإعجاز فى عدد الشهداء فى هذه المعركة الرهيبة ، ففى بدر وقد كان عدد المشركين ألفًا وعدد المؤمنين ثلاثمائة ونيف استُشهد اثنا عشر شهيدًا ، وهنا بين ثلاثة آلاف من المسلمين ومائتى ألف من المشركين لم تذكر الرواية أسماء شهداء إلا اثنى عشر شهيدًا على أقل تقدير وعشرين شهيدًا على أكبر تقدير ، وهذا ما حدا بالحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ أن يقول :

فالمجموع على القولين اثنا عشر رجلاً ، وهذا عظيم جدًا أن يتقاتل جيشان متعاديان فى الدين أحدهما وهو الفئة التى تقاتل فى سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف ، وأخرى كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل ، من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين خلق كثير ، هذا خالد وحده يقول : لقد اندقت فى يدى يومئذ تسعة أسياف ، وما صبرت فى يدى إلا صفيحة يمانية ، فماذا يا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها ؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن وقد تحكموا فى عبدة الصلبان ـ عليهم لعائن الرحمن ـ فى ذلك الزمان وفى كل أوان ، وهذا مما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ** (١٣) ﴾ [آل عمران])[(2)] .

فى أدب التعامل مع القائد :

لقد رأينا الأدب العالى الأول لدى ثابت بن أقرم البدرى الأنصارى الذى سلَّم الراية لخالد بن الوليد قائلاً له: (خذ الراية يا أبا سليمان ،فقال: لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن، وقد شهدت بدرًا، قال ثابت: خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذته إلا لك)[(3)].

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٣٦٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٥٩، ط دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٣ .

والتزم المسلمون على جميع مستوياتهم السمع والطاعة للمسلم ابن الثلاثة شهور فى إسلامه لعراقته وخبرته القتالية العظيمة ، ونشهد صورة أخرى ينقلها لنا عوف بن مالك الأشجعى ﷺ وهو مثل خالد جديد العهد بالإسلام ، إذ أسلم فى خيبر ، فعراقته فى الإسلام لا تزيد سنة على خالد ، وروعة الحادثة أن يرويها عوف وهو المتهم فيها ، لكنه يعلم أن الأمانة لابد أن تؤدى لتتعلم الأجيال كلها من ذلك الجيل الفريد فى التاريخ .

يحدثنا عوف ابتداءً عن بعض النماذج الفردية التى جاءت من اليمن لتنصر دين الله:

(خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة ﷺ فى غزوة مؤتة ، ورافقنى مددى من المسلمين من اليمن ، ليس معه غير سيفه ، فنحر رجل من المسلمين جزورًا فسأله المددى طائفة من جلد ، فأعطاه إياه ، فاتخذه كهيئة الدرقة ، ومضينا ولقينا جموع الروم فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهَّب وسلاح مذهب ، فجعل الرومى يغزو المسلمين، فقعد له المددى خلف صخرة فمر به الرومى فعرقب فرسه بسيفه وخرَّ الرومى، فعلاه بسيفه فقتله وحاز سلاحه وفرسه) .

هذه هى الجولة الأولى للمسلم اليمنى الذى جاء من اليمن لا يملك إلا سيفه ، وكان ترسه قطعة جلد من أخرق ، وهذه حياته وثروته التى يملكها فى هذه الدنيا ، وينظر إلى ذلك الفارسى الذى تبرق الدنيا عنده بسلاحه المذهب،وسرجه المذهب،وهو يغزو المسلمين ويفتك بهم ، ويصفه الواقدى فى روايته :(فجعل رجل من الروم يسل على المسلمين ويفرى بهم على فرسٍ له أشقر)(١) ، كما نشهد الوصف الطريف لصناعة ترسه الجلدى (إذ نحر رجل من القوم جزورًا فسأله المددى طائفة من جلده، فوهب له، فبسطه فى الشمس ، وأوتد على أطرافه أوتادًا ، فلما جفَّ اتخذ منه مقبضًا وجعله درقة)(٢) ، وتقدم لنا رواية الواقدى الوصف الثالث الأخير لمشهد قتل البطل الرومى (فلما مرَّ به خرج عليه فعرقب فرسه ، فقعد الفرس على رجليه ، وخرَّ عنه العلج وشد عليه فعلاه بسيفه فقتله)(٣) .

وتأتى الجولة الثانية التى يرويها لنا عوف ﷺ :

(فلما فتح الله تعالى على المسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذه منه بعض السَلَب، قال عوف : فأتيت خالدًا وقلت له : أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسَلَب للقاتل ؟ قال : بلى ، ولكنى استكثرته ، فقلت : لتردنه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ، فأبى أن يرد عليه .

قال عوف : فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددى وما فعل خالد فقال رسول الله ﷺ : « ما صنعت ؟ » قال : استكثرته ، قال : « رد عليه ما أخذت

(١ ـ ٣) من رواية الواقدى فى المغازى ٢/ ٧٦٨ .

منه » إلى هنا والأمر طبيعى فقد أخطأ خالد القائد العام رضي الله عنه فى أخذ شيء من سَلب المقتول ولو كان سرجًا من ذهب وسلاحًا من ذهب ، فهو حق محفوظ للأبطال الذين يجندلون أبطال المشركين كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام: « من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه » [1]) ، وقام خالد لتنفيذ الأمر النبوى .

عنصر جديد دخل على الساحة وهو عنصر نفسى يحمل الرغبة فى التشفى والاستعلاء ، يحدثنا عنه عوف رضي الله عنه ، قال عوف : (دونكها يا خالد ، ألم أف لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك ؟ » فأخبرته، فغضب رسول الله ﷺ وقال: « يا خالد، لا ترد عليه . . ») .

وفى رواية مسلم : فمر خالد بعوف فجر بردائه ثم قال : هل أنجزت لك ما ذكرت ذلك من رسول الله ﷺ ، فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب ،فقال: « لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد . . »[2] .

وعندما غدا الأمر تحديًا وتشفيًا رفض رسول الله ﷺ إعادة بقية السَّلب للقاتل ، أو إعادته كله كما فى رواية مسلم ؛ لأن هذه الروح لا تتفق وجو الحب العبق الندى فى الصف الإسلامى ، إن فكرة التحدى للقائد ولو كانت بالحق يرفضها الإسلام كما رأينا بغضب رسول الله ﷺ لذلك ، وأسلوب إحقاق الحق عن طريق الإذلال والتشفى والتصغير أسلوب يأباه الإسلام ورسول الإسلام ، فلقد تقرر الحق قبل إعلان الاستعلاء النفسى ، والمربى الأعظم ﷺ رأى أن هذا الاستعلاء على القائد المسلم ولو بالحق ثغرة يمكن أن تضيِّع هيبة السلطان ، والهدف الذى كان السلطان من أجله .

وأردف ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحكم العام الخالد :

« هل أنتم تاركون لى أمرائى ، إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنمًا فرعاها، ثم تحيَّن سقيها فأوردها حوضًا فشرعت فيه ، فشربت صفوه وتركت كدره ، فصفوُه لكم وكدره عليهم ».

لقد حدَّد الرسول ﷺ مهمة القائد هو أن يحقق الهناء والرغد لرعيته ، يخطط لتحقيق هذا الرغد مثل ذلك الراعى الذى رعى إبله وتحيَّن سقيها ، وليست مهمة القائد فى الإسلام أن يبطر ويرغد ويميت شعبه ، وتأتى هذه الإبل فتشرب الصفو الطيب ، وتدع الكدر القذر .

« فصفوه لكم وكدره عليهم » ، فالمتاعب الناشئة عن هذه السقاية يسأل عنها

---

(١) مسلم ٣/ ١٣٧١ ح (١٧٥١) .   (٢) مسلم ٣/ ١٣٧٣ ح (١٧٥٣) .

الأمراء، وهو نوع من الرحمة العالية بالذين يقومون بتنفيذ شريعة الله ، ويسهرون على هذه الرعية ، فالمعاناة التى يعانونها صعبة جدًا ، وقد لا يصلون إلى الحق ويصيبونه ، فيذكرون برفق ، وينصحون بصدق .

أما التشهير مع الحاكِم المسلم الصادق فمرفوض،وقد أوقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الحق[1] ؛ لأنه رافقه تحدٍ وجر رداء وتشفٍ يأباه الإسلام مع أنه لا ذنب لمن حُرِم هذا الحق إلا تحدى غيره لقائده .

إنه درس عظيم بليغ نضعه بين يدى شبابنا المتحمس المندفع الذى يريد أن يذل الأمير لتحقيق مطالب مشروعة ، وهو يحاسب على الصغير والقطمير دون أن يعذر مسؤولاً أو يقيل عثرة أمير ، مع أن الذى يقوم بتطبيق الشريعة يجد أمامه الصعوبات الجمة العظيمة، والحديث عن الإسلام شىء ، والقيام على تطبيقه شىء آخر ، فلابد أن تسود روح الأخوة بين الحاكم والمحكوم ، وروح التفاهم والود بين الفريقين ، ويتعاونا على هذا التطبيق كما رأينا من خلال هذا النص العظيم .

وهذا الحق فى السلب ثابت ، والمنع طارئ ، وهذه الرغبة فى الحصول عليه لا تتنافى وطهر الإيمان والزهد فى الدنيا ؛ لأن الذى يعرض نفسه للموت والقتل حين يقدم على مبارزة أبطال المشركين وآسادهم لا يعتبر طمعًا منه أن يحرص على سَلَبه ، وهذا خزيمة بن ثابت رضي الله عنه البدرى العظيم يحدثنا عن نفسه قائلاً : (حضرتُ مؤتة وبرز لى رجل منهم فأصبتُه وعليه بيضة فيها ياقوتة ، فلم يكن همى إلا الياقوتة فأخذتها ، فلما انكشفنا رجعنا إلى المدينة فأتيت رسول الله ﷺ فنفلنيها فبعتها زمن عثمان بمائة دينار ، فاشتريت بها حديقة نخل »)[2] .

إن التعامل مع النفس البشرية تعامل واقعى ، ويجب ألا نتصور أن هذه النفوس ملائكة لا تحب ولا تكره ولا ترغب ولا تأنف ؛ إنها بشر من البشر تقاتل وترغب الثواب وترغب بالغنيمة،ولم يعتبر الإسلام هذه الرغبة منقصة أو مثلبة فى الرجل ، إنه يقاتل فى سبيل الله،ويعرض نفسه للموت فى سبيل الله ، لكنه قد أوقف حياته على هذا الجهاد ، فكيف تستقيم حياته ، وينشئ أسرته إذا لم يأخذ حقه من الغنيمة ، ولمعرفة رسول الله

---

(١) يقول النووى ـ رحمه الله : وهذا الحديث قد يستشكل من حيث إن القاتل قد استحق السلب ، فكيف منعه إياه ؟ ويجاب عنه بوجهين ، أحدهما : لعله أعطاه بعد ذلك للقاتل ، وإنما أخَّره تعذيرًا له ولعوف ؛ لكونهما أطلقا ألسنتهما فى خالد رضي الله عنه ، وانتهكا حرمة الوالى ومن ولاه ، الثانى : لعله استطاب قلب صاحبه فتركه صاحبه باختياره وجعله للمسلمين ، وكان المقصود بذلك استطابة قلب خالد رضي الله عنه للمصلحة فى إكرام الأمراء (مسلم / ١٧٧٣ ، هامش) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٣٧٤ .

ﷺ بالنفس البشرية جعَل السلب للقاتل تشجيعًا للمجاهدين كى يكسروا شوكة أعدائهم ، ويفلوا بأسهم ، لكن أن تكون الغنيمة هى الغاية ، والقتال للغنيمة فهو المرفوض .

(. . . الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله » [1]) .

وقد ربط رسول الله ﷺ بين الجهاد فى سبيل الله وبين نيل الأجر والغنيمة فى أحاديث عدة منها ما رواه مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« تكفَّل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد فى سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » [2] .

وحتى نرى أثر الغنيمة فى الحياة الواقعية نجد أن هذه الياقوتة قد باعها خزيمة رضي الله عنه زمن عثمان فاشترى بها حديقة نخل ، وبهذه الحديقة يكسب ويعف نفسه ، ويعف ولده ، ويكرم ضيفه ، ويجعل ورثته أغنياء خيرًا من أن يسألوا الناس ويتكففوهم أعطوهم أو منعوهم .

ولا ننسى أن خزيمة بن ثابت هو الذى انفرد من بين هذه الأمة كلها بلقب ذى الشهادتين . فشهادته بشهادة رجلين. وهو من أصدق الصحابة على الإطلاق .

استقبال الجيش فى المدينة :

مما لاشك فيه أن فريقًا من الجيش الإسلامى فى مؤتة قد فر عائدًا إلى المدينة قبل انتهاء الحرب . ومن هؤلاء عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذى وصف جو المدينة المعبأ بالعزيمة أطفالاً وشيبًا وشبابًا من خلال هذا النص الذى رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عمر قال : (كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص[3] الناس وكنت فيمن حاص . وفى رواية : فلما لقينا العدو فى أول غادية فأردنا أن نركب البحر . فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف . ثم قلنا لو دخلنا المدينة قُتلنا . فقدمنا المدينة فى نفر ليلاً فاختفينا) .

ألا ما أردع هذه البيئة التى تتأجج حماسًا وحيوية. حيث يقدر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد كان من هؤلاء الصبيان قبل خمس سنين ، يقابل المنهزمين بالحجارة ، وقد تصل

---

(١) مسلم ٣/ ١٥١٢ ح (١٩٠٤) .   (٢) مسلم ٣/ ١٤٩٦ ح (١٨٧٦) .

(٣) حاص الناس : جالوا جولة يريدون الفرار .

العملية إلى مقتله ومن معه،ولفظ عبد الله بن عمر يوحى أنه فرقة ضئيلة من الجيش. حيث فكرت بركوب البحر . والبحر لا يتسع آنذاك لأكثر من بضعة عشر رجلاً ، ومع ذلك فهو يخاف أن يقتل من جماهير وأطفال الأمة . فما كان منه إلا أن اختبأ مع إخوانه فى بيوتهم حتى لا يقفوا فى وجه هذه العاصفة .

(ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فاعتذرنا إليه . فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا. فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: « من القوم ؟ » : قلنا : نحن الفرارون. قال : « بل أنتم العكارون ، وأنا فئتكم » أو قال « أنا فئة كل مسلم » قال : فقبلنا يده).

إن الفرار من الزحف لا يكفى أنه من الكبائر فى الآخرة ، وإنما فى الدنيا قد يقود إلى القتل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال] .

والمنفذ الوحيد لتبرير الفرار أو قبوله هو التحيز لفئة أو التحرف لقتال ، فكان رسول الله ﷺ هو فئتهم . وفئة كل مسلم .

وقد نقلت لنا هذه الحادثة المستوى العالى للأمة التى أصبحت ترفض فكرة الفرار من الزحف إلى حد القتل وهى الصورة التى نقلها لنا سلمة بن هشام بن المغيرة من طرف آخر.

(وروى ابن إسحاق عن أم سلمة رضي الله عنها (زوج النبى ﷺ) أنها قالت لامرأة سلمة ابن هشام بن العاص بن المغيرة : ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج . كلما خرج صاح به الناس. يا فرار. فررتم من سبيل الله ، حتى قعد فى بيته فما يخرج وكان فى غزوة مؤتة).

لقد اختبأ عبد الله بن عمرو ومن معه . كما اختبأ سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة . وسلمة ابن عم خالد ، والأصل أن يبقى بجوار قائده خالد رضي الله عنه . ولكنه فى ظاهر الأمر قد فرَّ منذ الجولة الأولى وبعد استشهاد عبد الله بن رواحة ، حيث لم يكن رجلان قد بقيا مع بعضهما البعض .هذه المرة . وكان هذا قبل استلام الراية من ثابت ثم خالد رضي الله عنهما ، وعمر ببطولته لا يتمكن من حماية ابنه عبد الله بن عمر من القتل لفراره ، وسلمة بن العاص بن هشام المخزومى لا تحميه قبيلته من ألسنة الناس . خاصة وقد تركوا إخوانهم فى مؤتة .

والجانب العظيم الذى نشهده من هذه الحادثة هو هذه الأسرة التى تسمى المدينة . فأم سلمة ﵂ تعرف تخلف سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة عن صلاة الجماعة ، وتسأل زوجه عن سبب تخلفه . ورغم اتساع المدينة والزيادة الهائلة فى سكانها الذين يفدون إليها من أصقاع الجزيرة العربية تلاحظ أم سلمة هذه الملاحظة فى تخلف واحد من الآلاف التى تقصد المسجد المبارك ، ولكن الإشكال الذى بقى عندنا هو رواية ابن إسحاق عن عروة قال :

لما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه قال : وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله . قال : فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ـ إن شاء الله تعالى »(1) .

فإذا كان الناس قد سمعوا رسول الله ﷺ يتحدث عن الفتح الذى تم على يدى خالد كما فى صحيح البخارى ، فكيف يسمونهم بالفرار . لكن لعل الفئة الأولى التى قدمت وتحدثت عن المئتى ألف من العرب والروم تقابل ثلاثة آلاف من المسلمين لم يتصوروا أن يعود أحد منهم حيا أو أن ينتصروا على هذه الجموع الهائلة . فكانت عودتهم سالمين ، وقد قتل قادتهم . جعلت هذا الجو المكفهر ضدهم حتى ليحثوا الناس التراب عليهم يعيرونهم بالفرار . وجواب رسول الله ﷺ لهم : « بل هم الكرارون إن شاء الله تعالى » .

ويمكن القول أن المعركة مرت بثلاث مراحل،ليمكن الجمع فيها بين الأقوال المتعددة.

المرحلة الأولى : وهى التى قاتل فيها المسلمون ببسالة حتى سقط عبد الله بن رواحة ﵁ شهيدًا ، وأصبح المسلمون بلا قائد ، وفر أكثرهم حتى لا تجد اثنين مع بعضهما ، وبلغ بعضهم المدينة فى فراره ، والذى كان منهم ابن عمر ﵄ .

المرحلة الثانية : حيث أعاد قادة المسلمين النداء ، فعادوا والتقوا ، وسلموا القيادة واللواء لخالد بن الوليد ﵁ ، وقام بخطته المبتكرة العبقرية فى تبديل مواقع الجيش حتى خاض مع الصباح حربًا عنيفة استمرت أيامًا على بعض الروايات وثبت المسلمون فيها وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وانكسرت بيد خالد تسعة أسياف ، وقُتِل قائد جيش العدو مالك بن رافلة ، فتراجع القوم وهزموا شر هزيمة بعد سقوط قائدهم قتيلاً فى المعركة ، وأخذ المسلمون سبايا وغنائم بعد هذه الجولة .

المرحلة الثالثة : وجد خالد ﵁ الفرصة سانحة لإنهاء المواجهة بعد هذه الهزيمة ،

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٥ .

فلم يتبع أثر القوم ، ولم ينتظر حتى يعيد الصدام ثانية ، بل مضى بالمسلمين إلى المدينة وقد خلفوا وراءهم اثنى عشر شهيدًا فقط ، وهو الذى قد ذكره ابن إسحاق عن عروة بقوله :

(فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم، ثم انحازوا فحيز عنه حتى انصرف بالناس)(١) .

وحديث الفتح وهزيمة المشركين إنما كانت بعد التحام القتال الثانى ، وثبات المسلمين وصبرهم حتى انكسرت بيد خالد الأسياف التسعة ، وحاز المسلمون الغنائم ، وقتلوا الأبطال ، وقتلوا كبش الكتيبة عندهم مالك بن رافلة ، وانهزم الجيش شر هزيمة .

وابن إسحاق نفسه يسوق نصًا يتحدث به عن أثر الرعب فى صف المشركين يقول فيه :

(وقد كانت كاهنة من حَدَس حين سمعت بجيش رسول الله ﷺ مقبلاً قد قالت ـ لقومها من حَدَس . وقومها من بطن يقال لهم بنو غُنْم :(أنذركم قوما خزرا ، ينظرون شزرا، ويقودون الخيل تترى، ويهريقون دمًا عكرا) فأخذوا بقولها واعتزلوا من بين لخم ! فلم تزل بعد أثرى حَدَس ، وكان الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة ـ بطن من حدس ـ فلم يزالوا قليلا بعد ، فلما انصرف خالد بالناس أقبل بهم قافلاً) (٢) .

وينقل ابن هشام عن الزهرى قوله : فأما الزهرى فقال فيما بلغنا عنه : (أمَّر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم ، وكان عليهم حتى قفل إلى النبى ﷺ) (٣) .

جعفر الطيار :

قبل وصول الجيش إلى المدينة كانت آثار المحنة ظاهرة فى بيت النبوة ، كما روى أبو عامر عند ابن سعد :(أن رسول الله ﷺ لما بلغه مصاب أصحابه شقَّ ذلك عليه فصلى الظهر ثم دخل ، وكان إذا صلى الظهر قام فركع ركعتين ، ثم أقبل بوجهه على القوم ، فشق ذلك على الناس ، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك ، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك ، ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك ، حتى إذا كانت صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسم ، وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلى الغداة ، فقال له القوم حين تبسم : يا نبى الله بأنفسنا أنت لا يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٣٧ .

رأينا منك الذى رأينا ، قال رسول الله ﷺ :

« كان الذى رأيتم منى أنه أحزننى قتل أصحابى حتى رأيتهم فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين ورأيت فى بعضهم إعراضًا كأنه كره السيف ، ورأيت جعفرًا ملكًا ذا جناحين مضرجًا بالدماء مصبوغ القوادم »)(١) .

فقد بقى عليه الصلاة والسلام طيلة النهار والليل كله ، وقد انتابه الحزن ، فلا يستطيع أن يتكلم مع أصحابه حين جاءه نبأ استشهادهم ، لكن سُرِىَ عنه عندما رآهم فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين ، فاطمأن إلى أنهم لم ينثنوا ولم يتخاذلوا ، وأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقضوا نحبهم فى هذه السرية ، لقد تحوَّل الحزن ابتسامًا ، وابتسمت المدينة كلها لبسمته ﷺ ، فقد غدا شخصه محور حياة المسلمين فى المدينة ، أحبَّ إليهم من أبكارهم وأولادهم ونسائهم وأنفسهم وكما قالوا عندما وجدوا حزنه ، ولا يجرؤون على سؤاله ما لم يفاتحهم :

(بأنفسنا أنت لا يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذى رأينا) .

وعندما افترَّ ثغر النبى ﷺ عن بسمة حانية وجبت قلوب المؤمنين فرحًا فسألوه عن سبب حزنه وسبب ابتسامته فأجابهم .

ويبقى لجعفر عند رسول الله ﷺ خطوة خاصة ، فقلبه يتقد شوقًا إليه وحزنًا عليه.

لقد أمضى فى الغربة قرابة خمسة عشر عامًا بعيدًا عن أهله وعشيرته ، مهاجرًا فى سبيل الله يقود الجالية الإسلامية هناك ، ويهزم عمرو بن العاص أمام النجاشى ، ويكون نائب الرسول ﷺ فى هذه العاصمة الثانية ، وعندما جاء بأمر رسول الله ﷺ بعد هذه الأعوام الطويلة لقيه فى خيبر وقد فتحها الله عليه .

فبلغ من سروره بلقائه ما بلغ من سروره بفتح خيبر على المسلمين :

« والله ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر » .

وكان مما يزيد حب جعفر فى قلب النبى ﷺ أنه كان صورته وظله خَلقًا وخُلقًا « أشبهت خَلقِى وخُلقِى ».

وسنة واحدة فى المدينة فقط ليكون بعدها على رأس الجيش نحو الشام ، من الحبشة إلى الشام ،من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ولم يكن يضيره أن يقتل جعفر بمقدار

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٣٠ .

ما كان يضيره أن يطمئن عليه وعلى إخوانه الأمراء والجيش المجاهد فى سبيل الله على ثغور الشام ، وأقر الله تعالى عين نبيه بأحبابه الثلاثة ، فأراه إياهم فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين ، ورأى حبيبه جعفر طيارًا فى الجنة مصبوغ القوادم فى الدم أبدله الله تعالى بيديه اللتين قطعتا فى سبيل الله ، بجناحين يطير بهما فى الجنة حيث يشاء ، ومع الفجر كان رسول الله ﷺ يدخل على بيت جعفر ، ويرى بنيه الصغار ، ويرى زوجه أسماء رضي الله عنها وقد أنهت عجينها ، ونظّفت أولادها ، وطيبتهم ودهنتهم ، وتصف لنا أسماء تلك الزيارة قائلة :(دخل علىّ رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال : « ائتينى ببنى جعفر » فأتيته بهم فشمّهم وذرفت عيناه، فقلت: بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : « نعم ، أصيبوا هذا اليوم » ، قالت : فقمت أصيح واجتمع إلىّ النساء ، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » .

أما عبد الله بن جعفر الصبى اليتيم ، فيلقى لنا ظلالاً جديدة على تلك الزيارة نشهدها بقوله :

(أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمى فنعى لها أبى ، فأنظر إليه وهو يمسح عن رأسى ورأس أخى ، وعيناه تُهراقان الدموع ، حتى تقطر لحيته، ثم قال : « اللهم إن جعفرًا قد قدم إليك إلى أحسن الثواب ، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدًا من عبادك فى ذريته » .

هذا النبى الباكى، الذى يعيش هموم هؤلاء اليتامى البائسين، وهذه الأرملة المفجوعة لا ينسى أن يقول لها كما يحدثنا ابنها عبد الله :ثم قال: « يا أسماء ألا أبشرك » ؟ قالت: بلى بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، قال : « إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة » .

وأشرقت نفس أسماء بالنور ورجت الحبيب المصطفى قائلة : فأعلم الناس ذلك ، وقام عليه الصلاة والسلام إلى المنبر ومعه عبد الله بن جعفر الذى يتابع حديثه لنا قائلاً :

(فأخذ بيدى يمسح بيده رأسى حتى رقى على المنبر ، وأجلسنى أمامه على الدرجة السفلى والحزن يعرف عليه ، فتكلم فقال : « إن المرء كثير بأخيه وابن عمه ، ألا إن جعفرًا قد استشهد وقد جُعل له جناحان يطير بهما فى الجنة » .

وطيَّب نفس أسماء بذلك ، أن غدت زوجة الطيار الشهيد جعفر بشهادة رسول الله ﷺ ، وينقل لنا العبقرى اليتيم تتمة الصورة كأنما نحياها هناك :

(ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلنى معه ، فأمر بطعام فصنع لأهلى ، وأرسل إلى أخى ، فتغدينا عنده والله غداءً طيبًا مباركًا ، عمدت سلمى خادمته إلى شعير فطحنته ،ثم نسفته،ثم أنضجته وأدمته بزيت، وجعلت عليه فلفلا فتغديت أنا وأخى معه، فأقمنا ثلاثة أيام فى بيته ندور معه كلما صار فى بيت إحدى نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا فأتانا رسول الله ﷺ وأنا أساوم شاة أخ لى ، فقال : « اللهم بارك له فى صفقته » ، قال عبد الله : فما بعت شيئًا ولا اشتريت شيئًا إلا بورك لى فيه) .

هذا يوم نُعى له الأمراء الثلاثة ، أما يوم جاء الجيش ، واشتد الصبيان يستقبلون آباءهم وإخوانهم ،كان رسول الله ﷺ يبحث عن ولدى جعفر (لما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون قال:ولقيهم الصبيان يشتدون ، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة ، فقال :« خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطونى ابن جعفر » ، فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون :يا فرار فررتم فى سبيل الله ،قال: فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى ») .

وتحولت المدينة كلها إلى آل جعفر بن أبى طالب،كما تحولت يوم أحد إلى آل حمزة، ولم يعد بين يدى رسول الله ﷺ بعد عبيدة وحمزة وجعفر إلا على بن أبى طالب.

وها هم شعراء الإسلام العظام يتحدثون عن سرية مؤتة وعن الأمراء الثلاثة :

يقول ابن إسحاق : وكان مما بُكى به أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله ﷺ قول حسان بن ثابت شاعر دين الإسلام يرثى جعفراً :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر ... وهَمٌّ إذا ما نوَّم الناس مُسهر
لذكرى حبيب هيَّجت لى عبرةً ... سفوحًا وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المسلمين تواردوا ... شعوبًا وخلفًا بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعًا وأسباب المنية تخطر

وإذا كانت هذه الأبيات تتحدث عن الأمراء الثلاثة . فضعف هذه الأبيات هو لجعفر رضي الله عنه وبنى هاشم رهط النبى ﷺ . والأنصار ينسون أنفسهم وأهليهم أمام حبيبهم ، فعبد الله بن رواحة لم يعرض له حسان إلا فى بيت واحد وهو رهطه وأهله،أمَّا ماذا عن جعفر ؟!

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة[1] أزهر[2]
أغرَّ كضوء الشمس من آل هاشم أبى[3] إذا سيم الظلامة مجسر[4]
فطاعن حتى مال غير موسدٍ لمعترك[5] فيه قنًا متكسرٌ
فصار مع المستشهدين ثوابهُ جنان وملتفُّ الحدائق أخضر

ولم يكن جعفر عند المسلمين إلا صورة من صور النبى الحبيب :

وكنا نرى فى جعفر من محمد وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمر
فما زال فى الإسلام من آل هاشم دعائم عزٍ لا يزلن ومفخر

وهؤلاء الأطواد العظام من آل هاشم هم دعائم هذا الدين :

هُمُ جبل الإسلام والناس حولهم رضام[6] إلى طود[7] يروق ويقهر
بهاليل[8] منهم جعفر وابن أمه علىٌّ ومنهم أحمد المتخيَّر
وحمزة والعباس منهم ومنهم عقيل وماء العود من حيث يعصر

وهم رغم وجود بعضهم فى مكة كالعباس وعقيل :

بهم تفرج اللأواء[9] فى كل مأزمة عماس[10] إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم ذو الكتاب المطهر[11]

وإذا كان حسان بن ثابت قد أوقف شعره على جعفر ﷺ فلم لا يوقفه كعب بن مالك كذلك .

وقال كعب بن مالك :

نام العيون ودمع عينك يهمل[12] سحًا[13] كما وكف[14] الطباب[15] المخضل[16]

---

(١) ميمون النقيبة : مسعود الجد .
(٢) أزهر : أبيض .
(٣) أبى : عزيز الجانب .
(٤) المجسر : المقدام الجسور .
(٥) المعترك : موضع الحرب .
(٦) الرضام : جمع رضم وهى الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض .
(٧) الطود : الجبل .
(٨) البهاليل : السيد الوضىء الوجه .
(٩) اللأواء : الشدة .
(١٠) عماس : مظلم .
(١١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٧، ٨٣٨ .
(١٢) يهمل : يسيل .
(١٣) سحًا : صبًا .
(١٤) وكف : قطر .
(١٥) الطباب : جمع طبابة : وهى سير بين خرزتين فى المزادة فإذا كان غير محكم وكف منه الماء .
(١٦) المخضل : السائل الندى .

في ليلة وردت عليّ همومها   طوراً أحنّ وتارة أتململ
واعتادني حزن فبت كأنني   بنات نعش والسماك [1] موكل
وكأنما بين الجوانح والحشى   مما تأوبني شهاب مُدخِل

كل هذا الحزن ، وهذا الألم ، وهذا الأرق . لماذا ؟

وجداً على النفر الذين تتابعوا   يوماً بمؤتة أسندوا لم يُنقلوا
صلى الإله عليهم من فتية   وسقى عظامهم الغمام المسبل[2]
صبروا [3] بمؤتة للإله نفوسهم   حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم   فُنُقٌ [4] عليهن الحديد المرفل [5]

ولا داعي لذكر أسمائهم ، فيكفى ذكر إمامهم جعفر بن أبي طالب ﷺ :

إذ يهتدون بجعفر ولوائه   قدَّام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر   حيث التقى وعث[6] الصفوف مجدَّلُ
فتغير القمر المنير لفقده   والشمس قد كسفت وكادت تأفل

وهو سيد عظيم من منبت عظيم من بنى هاشم

قرم[7] علا بنيانه من هاشم   فرعاً أشمَّ وسؤدداً ما ينقل
قوم بهم عصم الإله عباده   وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عزة وتكرماً   وتغمدت [8] أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاة حُباهُمُ[9]   ويرى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطون أكفهم   تندى إذا اعتذر الزمان الممحل[10]
وبهديهم رضى الإله لخلقه   وبجدِّهم نُصر النبى المرسل[11]

ونبحث عند كعب بن مالك عن رثائه لعبد الله بن رواحة ، فلا نجده ، لقد اكتفوا بالإمام جعفر بن أبي طالب ، رمزاً لمؤتة كلها ، ولا عجب فقد قطعت يداه ، ووجد به

---

(١) بنات نعش والسماك : هى نجوم .
(٢) المسبل : الممطر .
(٣) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون .
(٤) الفُنُق : الفحول من الإبل .
(٥) المرفل : الذى تجر أطرافه على الأرض .
(٦) وعث الصفوف : التحامها حتى يصعب الخلاص منها .
(٧) القرم : السيد .
(٨) تغمدت من يجهل : سترتهم .
(٩) لا يطلقون حباهم : كناية عن سكوتهم عن السفيه تكرماً .
(١٠) الممحل : شديد القحط .
(١١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٨٣٨ ـ ٨٣٩ .

فى مؤتة ما لا يقل عن تسعين طعنة برمح وضربة بسيف ،وقيل : شُقَّ نصفين ، فقد كان أعظم رمز للفداء والتضحية ، احتفلت السموات والأرض به ، وهو سليل بنى هاشم ، وشبيه النبى ﷺ خَلقًا وخُلقًا .

ولم يكتف حسان بذلك الرثاء الذى ابتدأ بالثلاثة وانتهى بجعفر ، فها هو يخص جعفرًا رضي الله عنه بهذه المرثية الخالدة :

ولقد بكيت وعزَّ مهلك جعفرٍ ... حِبُّ النبى على البرية كلها
ولقد جزعت وقُلتُ حين نُعت لى ... مَن للجلاد لدى العقاب(1) وظلها
بالبيض حين تسَّلُ من أغمادها ... ضربًا وإنهال (2) الرماح وعَلها (3)
بعد ابن فاطمة (4) المبارك جعفرٍ ... خير البرية كلها وأجلها
رزءًا وأكرمها جميعًا محتدًا (5) ... وأعزها متظلمًا وأذلها
للحق حين ينوب غير تنحل (6) ... كذبًا وأنداها يدا وأقلها
فحشًا وأكثرها إذا ما يجتدى (7) ... فضلاً وأبذلها ندى وأبلها
بالعرف ـ غير محمد ـ لا مثله ... حى من أحياء البرية كلها (8)

فقد جعله الشخصية الأولى فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، كل هذا وفاء للحبيب الأعظم محمد ﷺ ، لقد قال عليه الصلاة والسلام : « أما حمزة فلا بواكى له »، فبكته المدينة كلها ، وقال : « على مثل جعفر فلتبك البواكى » ، فبكته المدينة كلها ، وأوقفت شعرها عليه ، وهو لذلك أهل ، ولم يكن يدَّخر ليقتل غيره ، بل كان هو المضحى به فى أتون الحرب وفى أقصى الشمال ، فى بلاد الشام ، لكن رجلاً واحدًا فى هذه الأسرة الإسلامية العالمية لم يكن مشغولاً بالمشاركة فى هذه الفجيعة بمقدار ما كان مشغولاً بتجاوز الحدود فى بكاء نساء جعفر رضي الله عنه ، تنقل لنا عائشة رضي الله عنها قصته ، وقد آذاها عدم مشاركته فى هذا الجو ، تقول :

(لما قُتل ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جلس رسول الله ﷺ يُعرف فى وجهه الحزن ، قالت عائشة : وأنا أطّلع من صائر الباب ـ تعنى من شق الباب ـ فأتاه رجل فقال : أى رسول الله إن نساء جعفر ، قال : وذكر بكاءهن ، فأمره أن ينهاهن ، قال : فذهب الرجل ثمَّ أتى ،فقال: قد نهيتهن ، وذكر أنه لم يطعنه ،

---

(1) العقاب : اسم لراية الرسول ﷺ .
(2) الإنهال : الشرب الأول .
(3) الإعلال : الشرب الثانى يريد الطعن بعد الطعن .
(4) فاطمة: هى فاطمة بنت أسد أم جعفر وعلى رضي الله عنهما .
(5) المحتد : الأصل .
(6) التنحل : الكذب .
(7) الاجتداء : طلب الجدوى .
(8) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٩ .

قال : فأمر أيضًا ، فذهب ثم أتى ، فقال : والله لقد غلبننا ، فزعمت أن رسول الله ﷺ قال : فاحث فى أفواههن التراب ، قالت عائشة فقلت : أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء) [1] .

بينما كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تجهش بالبكاء على عمها قائلة : (واعماه فقال رسول الله ﷺ : « على مثل جعفر فلتبك الباكية») [2] ، أما أسماء فتحدثنا فى رواية أخرى (. . . قالت : فقمت أصيح : واجتمع إلى النساء ، قالت فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا أسماء : لا تقولى هجرًا ولا تضربى صدرًا ») [3] .

شوق الحبيب إلى الحبيب :

ونبحث عن زيد بن حارثة الأسد الهصور ، فينقذنا الذهبى بخبر واحد عنه فى هذه المناسبة بعد استشهاده ، يرويه بسنده عن خالد بن سلمة المخزومى قال: لما جاء مصاب زيد وأصحابه أتى رسول الله ﷺ منزله بعد ذلك ، فلقيته بنت زيد ، فأجهشت بالبكاء فى وجهه فلما رآها رسول الله ﷺ ، بكى حتى انتحب ، فقيل : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « شوق الحبيب إلى الحبيب »[4] .

وزيد رضي الله عنه من خاصة المصطفى ﷺ، وبفقدانه فقد ركنًا من أركانه ، وأحب الناس إليه لا يقل عن جعفر حبًا وثقة ، تصف لنا عائشة اثنين من مواقفه ، ويصف ابن عمر الصورة الثالثة :

١ ـ عن عروة عن عائشة ، قالت : (أتانا زيد بن حارثة ، فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه فقبّل وجهه ، وكانت أم قرفة قد جهزت أربعين راكبًا من ولدها وولد ولدها إلى رسول الله ﷺ ليقاتلوه ، فأرسل إليهم زيدًا فقتلهم وقتلها ، وأرسل بدرعها إلى النبى ﷺ ، فنصبه بالمدينة بين رمحين) [5] .

٢ ـ وائل بن داود عن البهى عن عائشة : (ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا قط فى جيش إلا أمره عليهم ولو بقى بعده لاستخلفه . أخرجه النسائى) [6] .

فلم يذكر تاريخ السيرة رجلاً قائدًا كلف بقيادة السرايا كما ذكر ذلك عن زيد رضي الله عنه ،

---

(١) البخارى ٣/ ١٨٥ .
(٢) المغازى ٢/ ٧٦٦ .
(٣) المغازى ٢/ ٧٦٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٢٣٠ ، وقال المحقق : رجاله ثقات ولكنه منقطع .
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى ، وقال فيه : رواه المحاملى عن عبد الله بن شبيب عنه ، وروى عنه الترمذى عن البخارى عن إبراهيم هذا وحسنه .
(٦) سير أعلام النبلاء للذهبى ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وإسناده حسن .

لكن الأهم من ذلك رأى عائشة رضي الله عنها أنه لو بقى حيًا لاستخلفه ، ودلّ هذا على مقامه عند الحبيب المصطفى ﷺ الذى يجهش فى البكاء عليه ويقول : « هذا شوق الحبيب إلى الحبيب » .

٣ـ وعرف المسلمون قدر زيد عند رسول الله ﷺ ، ينقل لنا هذا العرض عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال : فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لى ، فكلمته فى ذلك فقال :

(إنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، وإن أباه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك) (١) .

وفى الحديث المرسل الذى رواه أبو ميسرة قال : (لما بلغ رسول الله ﷺ قتل زيد وجعفر وابن رواحة قام ﷺ فذكر شأنهم ، فبدأ بزيد فقال : اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، ثلاثًا ، اللهم اغفر لجعفر وعبد الله بن رواحة) (٢) .

أما عبد الله بن رواحة النقيب الأنصارى العظيم، فقد خاض معركتين فى آن واحد:

المعركة الأولى ، معركة الشعر حيث حدث رسول الله ﷺ عن انتصاره فيها ، قائلا لعمر :(« خل يا عمر ، فهو أسرع فيهم من نضح النبل » ، وفى لفظ : « فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل » ورواه معمر عن الزهرى عن أنس)(٣) .

ثم خاض معركة السيف حتى دخل الجنة معترضًا ، وبقى شعره مددًا للأجيال كلها فى التشويق إلى الجنة والتحبب بالشهادة .

هؤلاء هم الأمراء الثلاثة الذى اصطفاهم الله تعالى شهداء إليه ، بينما كان القدر يُعد خالدًا للمستقبل القادم ، فقد كانت هذه هى الصفحة الأولى فى تاريخه الذى حدثنا عنه فيما بعد :

(قاتلت الروم ، وقاتلت العرب ، وقاتلت الفرس ، فلم أجد أشد من قتال الفرس. . .) .

لكن ذكرى مؤتة الصفحة الأولى بقيت خالدة فى ذهنه ، لم ينسها أبدًا ، إذ أتم حديثه بقوله :

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٩ وقال المحقق فيه : ذكره الحافظ فى الإصابة وقال : صحيح .

(٢) المصدر نفسه ٢٢٩ وقال المحقق فيه : رجاله ثقات إلا أنه مرسل .

(٣) المصدر نفسه ٢٣٥ وقال المحقق فيه : إسناده قوى ،وأخرجه الترمذى فى الأدب (٢٨٥١) وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(. . . وكسرت فى يدى تسعة أسياف فى مؤتة ولم تثبت إلا صفيحة يمانية) .

لكن الجزيرة العربية كلها كانت تتماوج بأخبار هذا الجيش ، والقيادات العربية التى تتربص بالإسلام كان الحديث عنه شغله الشاغل ، فكيف يلتقى جيش محمد بثلاثة آلاف مقاتل أمام بحر خضم من جيوش الشرك بمائتى ألف مقاتل ، فيقتل قائد جيش العدو ، ويسوق النساء سبايا ، ولا يخسر إلا اثنى عشر شهيداً فقط ، وعلى رأسه خالد بن الوليد الذى كان قبل أشهر أعظم القادة ضد محمد ﷺ .

وبغض النظر عن قناعات رجال الجزيرة العربية بالنجاح أو الإخفاق أو الفتح ، لكن عظمة التحدى ، ومقارعة الروم فى أرضهم ثأرًا لشهيد سقط على يد أحد أمراء الغساسنة، وعودة الجيش كله سالمًا ، واستعداد أعظم القادة فيه للموت ، أمر حقق أكبر نصر معنوى للإسلام حتى هذا اليوم ، وكانت هذه المعركة توطئة لفتح مكة ، وتمهيداً لرفع هؤلاء الآلاف الثلاثة إلى عشرة آلاف مقاتل بعد ثلاثة أشهر من تاريخه ، أى إلى ارتفاع عدد الجيش الإسلامى إثر هذه المعركة إلى ثلاثة أضعاف ونيف عنه فى مؤتة .

لقد عاد هؤلاء الآلاف الثلاثة ، وانبثوا فى قبائلهم يتحدثون فيها عن قصص البطولة والنصر وعن مقارعة ومنازلة بنى الأصفر ، وعن هز كيان ملوك العرب الغساسنة ، وعن اقتحام هؤلاء القادة الثلاثة ساحة الموت غير عابئين بالحياة، وراحت أشعار ابن رواحة رضي الله عنه وشوقه للجنة ، وشوقه للشهادة والموت ، ودفعه الجيش كله لذلك ، حين تلكأ الجيش قليلاً ليناقش الموقف .

لقد سمع أبطال العرب وقادته عن معارك كثيرة ، وأيام مشهورة ، ولكن فيما بينهم، وكانت وقعة ذى قار بينهم وبين فصائل من جيوش الفرس ، وكانوا يتغنون ببطولاتهم فيها وانتصاراتهم فيها ،لكن مؤتة اليوم قد أنست كل الأيام،وكل الأبطال،وكل الأمجاد.

أولا يكفى أن يكون هذا القائد الضخم خالد بن الوليد هو هو العدو الأول ، هو الذى أصبح اسمه منذ هذه المعركة سيف الله ، وهو الذى عاد بالجيش باثنى عشر شهيداً فقط ، وقد زلزل كيان الروم وغزاهم فى عقر دارهم .

والتربية الجماعية :

التى تمت فى هذه الدورة التدريبية السريعة ، دورة المبتدئين ، كانت أعنف دورات التاريخ الإسلامى ، فإلى الصدام المباشر مع الروم ، والحرب المستعرة مع العرب ، والحرص الهائل على الموت ، فلابد إذن لهذه الجزيرة أن تعلن استسلامها أمام القائد الجديد سيد البشرية محمد ﷺ ، وانتهى عهد الخوف من جلاد بنى الأصفر ، أو الخوف

من سيوفهم ، والهجوم منهم على ثغور الإسلام .

كما يفعل الجندى الواحد فى قبيلته أو بطنه أو فخذه وهو يتحدث عن انتصارات الإسلام عمومًا ، وانتصاراته خاصة فى مؤتة ، لقد كان قصارى أحلام العربى فى البادية العربية أن يفد على قيصر أو كسرى ويتحدث عن مرئياته هناك ، وينال بعض الهدايا منه، إلى وقت يفض جموع جيوشه ، ويقتل أكبر قواده ، ويسوق سبايا منه ، إنها نقلة هائلة ضخمة، وتطور كبير جدًا على الساحة العربية ، وتعبئة معنوية ضخمة لاستقبال الإسلام، والتهيؤ للدخول فيه ، بدأت التطورات الهامة السريعة تتجاوز المرحلة الفردية ، وتتجاوز مرحلة الأشخاص لتنقل القبائل برمتها إلى المواقع الإسلامية .

وهكذا نشهد فى هذا العام ارتفاع الأعداد من المئات إلى الألوف ، على رأسهم هذا الرعيل الأول من جيل بدر والحديبية،يمضى فى عملية التربية ، والإعداد السريع للمعركة والمعارك القادمة الفاصلة ، بحيث تفتح مكة أبوابها للقادم الإسلامى دون قتال .

غزوة ذات السلاسل ، والقائد المظفر الثانى

(ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : قد أعطت مكة المقادة بعد هذين ، فظننت أنه يعنينى وخالد بن الوليد) .

فإسلام خالد وعمرو يعنى استسلام مكة ، وقد شهدنا خالدًا فى الفصل السابق ، وقد أخذ أعلى وسام حربى من رسول الله ﷺ ، (سيف الله) ، فماذا عن عمرو بن العاص ؟ رفيق دربه ، وشريكه فى إسلامه ، وقد عاد جيش مؤتة ، وخالد بن الوليد فى كل فم وعلى كل لسان .

١ ـ ويحدثنا عمرو بن العاص رضي الله عنه فيقول :

قال لى رسول الله ﷺ : « يا عمرو اشدد عليك سلاحك وثيابك وائتنى » ، ففعلت فجئته وهو يتوضأ ، فصعَّد فىَّ البصر وصوَّبه وقال :

« يا عمرو إنى أريد أن أبعثك وجهًا فيسلمك الله ، ويُغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة »، قال: قلت: يا رسول الله! إنى لم أسلم رغبة فى المال، إنما أسلمت رغبة فى الجهاد والكينونة معك. قال: « يا عمرو نِعمًّا بالمال الصالح للرجل الصالح »[1].

٢ ـ محمد بن عمر عن رواته :

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من بلى وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله عمرو بن العاص فعقد له لواءً أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى سراة المهاجرين والأنصار ، فى ثلاثمائة ، عامر بن ربيعة ، وصهيب بن سنان ، وأبو الأعور سعيد بن زيد ،وسعد بن أبى وقاص ، ومن الأنصار ، أسيد بن حضير ، وعبَّاد بن بشر ، وسلمة بن سلامة ، وسعد بن عبادة ، وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من العرب ،وهى بلاد بلى وعذرة وبلقين ، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم ، كانت أم العاص بن وائل بِلوية ، فأراد رسول الله ﷺ أن يتألفهم بعمرو .

٣ ـ قال ابن عقبة وابن إسحاق ، وابن سعد ، ومحمد بن عمر ـ رحمهم الله تعالى : واللفظ له : (بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن

(١) مسند الإمام أحمد / مسند الشاميين ح (١٧١٣٤) .

يدنـوا إلـى أطراف مدينة رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله عمرو بن العاص بعد إسلامه بسنة [1]) [2] .

٤ ـ عن ابن إسحاق قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمى عن غزوة ذات السلاسل أرض بلى وعذرة قال :

(بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلى فبعثه رسول الله ﷺ يستألفهم بذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال لها السلاسل ، وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل ، فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده ، وبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبى عبيدة حين وجهه : « لا تختلفا »، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو : إنما جئت مددًا إلى ، فقال أبو عبيدة : لا ، ولكنى أمير على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه ، وكان أبو عبيدة رجلاً لينًا سهلاً هينًا عليه أمر الدنيا ، فقال له عمرو :بل أنت مدد لى،فقال له أبو عبيدة :يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال: « لا تختلفا » وإنك إن عصيتنى أطعتك ، فقال له عمرو: فإنى أمير عليك وإنما أنت مدد لى ، قال : فدونك ، فصلى عمرو بالناس)[3] .

(قال : وحدثنا يونس عن أبى معشر عن بعض مشيختهم أن رسول الله ﷺ قال : «إنى لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عينًا وأبصر بالحرب »)[4].

٥ ـ وروى الإمام أحمد مرسلاً عن الشعبى قال : (انطلق المغيرة بن شعبة إلى أبى عبيدة فقال : إن رسول الله استعملك علينا، وإن ابن فلان قد ارتبع أمر القوم فليس لك معه أمر ، فقال أبو عبيدة : إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاوع ، فأنا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو) [5] .

٦ ـ وروى ابن حبان والطبرانى برجال الصحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه :(أن رسول الله ﷺ بعثه فى غزوة ذات السلاسل فسأله أصحابه أن يوقدوا نارًا فمنعهم ، فكلموا أبا بكر رضي الله عنه ، فكلمه فقال : لا يوقد أحد منهم نارًا إلا قذفته بها)[6] .

٧ ـ وروى الحاكم عن بريدة رضي الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٧٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٦٢، والمقصود بعد إسلامه بسنة ـ والله أعلم ـ إسلامه على يد النجاشى، أما إسلامه فى المدينة فلم يمر عليه أكثر من أربعة أشهر .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٤) رواه البيهقى عن أبى معشر عن بعض شيوخه .

(٥) مسند أحمد ١/ ١٩٦ .

(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٤ .

فى سرية فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو ألا يوقدوا نارًا ، فغضب عمر بن الخطاب ، وهمّ أن يأتيه ، فنهاه أبو بكر وأخبره أن رسول الله ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب ، فهدأ عنه ،فسار عمرو بالليل ، وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو ، ودوّخها كلها حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه كان به جمع فلما سمعوا به تفرقوا ، فسار حتى انتهى إلى أقصى بلادهم ، ولقى فى آخر ذلك جمعًا ليس بالكثير ، فاقتتلوا ساعة ، وحمل المسلمون عليهم فهزموهم وتفرّقوا ، ودوّخ عمرو ما كان هنالك ، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صارا فيه إلا قاتلهم ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والغنم ، فكانوا ينحرون ويأكلون ولم يكن أكثر من ذلك ، لم يكن فى ذلك غنائم تقسم ، كذا قال جماعة)(١) .

قال البلاذرى : فلقى العدو من قضاعة وعامله ، ولخم ، وجذام ، وكانوا مجتمعين ففضّهُم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم ، وروى ابن حبان والطبرانى عن عمرو أنهم لقوا العدو، فأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم، وبعث عمرو عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بقفولهم وسلامتهم وما كان من غزاتهم)(٢) .

٨ ـ احتلام عمرو بن العاص : روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص قال :

(احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ، ثم صليت بأصحابى الصبح فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت : إنى سمعت الله يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء] ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا)(٣) .

وفى رواية لأبى داود عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان على سرية. وذكر الحديث نحوه فقال :(فغسل مغابنه(٤) وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم ، فذكر نحوه ولم يذكر التيمم)(٥) . قال أبو داود : (وروى هذه القصة عن الأوزاعى عن حسان بن عطية قال فيه فتيمم)(٦) .

٩ ـ وروى ابن حبان والطبرانى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله ﷺ منعى لهم من إيقاد النار ومن اتباعهم العدو ، فقلت : يا رسول الله إنى كرهت أن يوقدوا نارًا فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم ، فحمد رسول الله ﷺ أمره .

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٤ ،وعند الحاكم ٣/ ٤٢ .

(٣) أخرجه أحمد فى مسند الشاميين ١٧١٤٤، ٤/ ٣٠١ وأخرجه أبو داود فى ك الطهارة ح (٣٣٥) .

(٤) المغابن : بواطن الأفخاذ والآباط . (٥ ، ٦) أبو داود / ك الطهارة ح (٣٣٥) .

١٠ ـ روى البخاري عن أبى عثمان النهدى ـ رحمه الله تعالى ـ موقوفًا عليه ، ومسلم والإسماعيلى والبيهقى عنه قال :(سمعت عمرو بن العاص ﷺ يقول: بعثنى رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل وفى القوم أبو بكر وعمر ، فحدثت نفسى إنه لم يبعثنى على أبى بكر وعمر إلا لمنزلة عنده ، قال : فأتيته حتى قعدت بين يديه وقلت : يا رسول الله من أحب الناس إليك قال : عائشة. قلت : إنى لست أسألك عن أهلك . قال: فأبوها . قلت: ثم من ؟ قال : عمر . قلت : ثم من ؟ حتى عد رهطًا . قلت فى نفسى : لا أعود أسأل عن هذا ، وفى رواية الشيخين : فسكت مخافة أن يجعلنى فى آخرهم) (١) .

١١ ـ وصية أبى بكر لرافع بن أبى رافع :(روى ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن رافع ﷺ قال : كنت امرءًا نصرانيًا ، وسميت سرجس ، فكنت أول الناس ، وأهداه بهذا الرمل ، كنت أدفن الماء فى بيض النعام بنواحى الرمل ، فى الجاهلية ، ثم أغير على إبل الناس ، فإذا أدخلتها الرمل غلبت عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبنى فيه ، حتى أمرٍ بذلك الماء الذى خبأت فى بيض النعام ، فأستخرجه فأشرب منه ، فلما أسلمت خرجت فى تلك الغزوة التى بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل .

قال : فقلت : والله لأختارن لنفسى صاحبًا ، قال : فصحبت أبا بكر ﷺ ، فكنت معه فى رحله وكانت عليه عباءة فدكية(٢) فكان إذا نزل بسطها ، وإذا ركبنا لبسها ثم شكها عليه ، بخلال(٣) له ، وذلك الذى يقوله أهل نجد ـ حين ارتدوا كفارًا ـ نحن نبايع ذا العباءة .

قال : فلما دنونا قافلين من المدينة قلت : يا أبا بكر رحمك الله ، إنما صحبتك لينفعنى الله تعالى بك ، فانصحنى وعلمنى ، قال : لو لم تسألنى ذلك لفعلت ، آمرك أن توحِّد الله تعالى ولا تشرك به شيئًا ، وأن تقيم الصلاة ، وأن تؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتغتسل من الجنابة ، ولا تتأمرن على رجلين من المسلمين أبدًا. قال : أما ما أمرتنى به من توحيد الله عز وجل فإنى والله لا أشرك به أحدًا أبدًا ، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا إن شاء الله تعالى ، وأما الزكاة فإن يكن لى مال أؤدها إن شاء الله تعالى ،وأما رمضان فلن أتركه أبدًا إن شاء الله تعالى،وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله تعالى، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله تعالى ، وأما الإمارة فإنى رأيت الناس يا أبا بكر لا يصيبون هذا الشرف وهذه المنزلة عند الناس إلا بها فلم تنهانى عنها ؟

قال : إنك استنصحتنى فجهدت لك نفسى، وسأخبرك عن ذلك إن شاء الله تعالى:

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٨ وهى عند البخارى ك المناقب ح (٣٣٨٩) ،ومسلم ح (٤٣٩٦) .

(٢) فدكية : صنع فدك .

(٣) الخلال : العود يخلل به الثوب والأسنان .

إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بهذا الدين ، فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعًا وكرهًا فلما دخلوا فيه أجارهم الله من الظلم ، فهم عواذ الله وجيرانه وفى ذمته وأمانته ، فإياك أن تخفر ذمة الله فى جيرانه ، فيتبعك الله تعالى فى خفرته ،فإن أحدكم يُخفر فى جاره فيظل ناتئًا(١) عضله(٢) غضبًا لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير ، فالله تعالى أشد غضبًا لجاره ، وفى لفظ ، فالله من وراء جاره .

قال : ففارقته على ذلك ، فلما قُبِض رسول الله ﷺ ، واستخلف أبو بكر على الناس قَدمتُ عليه فقلت له : يا أبا بكر ألم تكن نهيتنى عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، فقلت له : فما حملك على أن تلىَ أمر الناس ؟ قال : اختلف الناس ، وخشيت عليهم الهلاك ، وفى رواية : الفرقة ودعوا إلى فلم أجد بدًا من ذلك)(٣) .

١٢ ـ عوف بن مالك والجزور :(روى البيهقى عن طريق ابن إسحاق قال :كنت فى الغزاة التى بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، هى غزوة ذات السلاسل ، فصحبت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فمررت بقوم وهم على جزور قد نحروها ، وهم لا يقدرون على أن يبعِّضوها ، وكنت امرءًا لبقًا جازرًا ، فقلت لهم : أتعطونى منها عشيراً على أن أقسمها بينكم ، قالوا : نعم ، فأخذت الشفرة فجزأتها مكانى ، وأخذت جُزءًا فحملته إلى أصحابى ، فأطبخناه وأكلناه ، فقال لى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، أنى لك هذا اللحم يا عوف ؟ فأخبرتهما ، فقالا : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا ، ثم قاما يتقيآن ما فى بطونهما منه .

فلما قفلا من ذلك السفر ، كنت أول قادم على رسول الله ﷺ فجئته وهو يصلى فى بيته فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : « أعوف بن مالك ؟ » فقلت:نعم ، بأبى أنت وأمى ، فقال :« أصاحب الجزور ؟ » ولم يزدنى على ذلك شيئًا ، زاد محمد بن عمر ثم قال رسول الله ﷺ « أخبرنى » ، فأخبرته بما كان من سيرنا وما كان من أبى عبيدة بن الجراح ،وعمرو بن العاص،ومطاوعة أبى عبيدة ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح ») (٤) .

* * *

(١) ناتئًا : متنفخًا مرتفعًا . (٢) عضله : جمع عضلة .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦. وهو عند ابن هشام فى السيرة ٢/ ١٠٤٣ وعند الواقدى ٢/ ٧٧١ ـ ٧٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ٦ / ٢٦٨ .

١ ـ المال الصالح للرجل الصالح :

لقد كان عليه الصلاة والسلام يبنى الرجال ، وأنشأ الجيل الأول على يديه ، أما عمرو فقد جاء فى صياغة كاملة ، وبلغ مرحلة القيادة فى الجاهلية ، ويود ﷺ أن يسخر هذه الطاقات كلها لتعمل فى سبيل الله ، فكانت الإشارة النبوية :

يا عمرو : اشدد عليك سلاحك وائتنى .

وكم شد عمرو سلاحه وثيابه ، وتهيأ لحرب الإسلام والمسلمين ، أما الآن فإنه للمرة الأولى يشد ثياب الحرب عليه ويعد سلاحه بأمر رسول الله ﷺ ، فهو يمضى إلى المجهول ، لكنه فى قمة السعادة فقد آن الأوان ليمضى مجاهدًا فى سبيل الله ، وإذا كان خالد بن الوليد وهو الأبرع والأكفأ فى الحرب منه لم يوله القيادة عليه الصلاة والسلام فى مؤتة ، إنما تركه يمضى جنديًا مغمورًا فى هذه الآلاف الثلاثة ، فعمرو إذن سيكون مثل خالد فى خطواته الجهادية الأولى .

وها هو النبى ﷺ يصعِّد فيه النظر ويصوبه ، وفى ذهنه هذا المعدن النفيس الذى يتلألأ رجولة وشهامة فقال له .

يا عمرو إنى أريد أن أبعثك بعثًا فيسلمُك الله ويغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، وكان قلب عمرو يخفق وهو يسمع هذا التكليف النبوى العظيم ، ولا يكاد يجرؤ أن يرفع بصره برسول الله ﷺ ، لكنه وهو يسمع هذا الأمر المحبب إليه ، دار بذهنه صورة قاتمة مع هذا الأمر ، فرسول الله ﷺ يعده بالسلامة والغنيمة ، ويحب له أن تكون غنيمته وافرة فى هذا البعث ، تُرى هل هان فى عين المصطفى ﷺ بحيث راح يعامله لتأليف قلبه بالمال ، وهو قد آمن الإيمان الذى أصبح يضارع الجبال ، والإخلاص لله وحده ، والتخلى عن زينة الدنيا من المال والولد ، هو الذى ربى عليه النبى ﷺ أحبابه والخُلّص لديه .

كان لابد أن يزيل هذا القلق الذى ارتسم على وجهه بعد أن نهب قلبه .

قال : يا رسول الله : إنى لم أسلم رغبة فى المال ، إنما أسلمت رغبة فى الجهاد والكينونة معك فقد صَغُرت الدنيا كلها فى عينيه منذ تلك اللطمة النجاشية فى الحبشة له، والتى أعادت تركيبه وصياغته من جديد ، وبايع النجاشى ابتداءً على الإسلام ، ثم أتى وبايع رسول الله ﷺ عليه .

إنه يريد أن يجاهد فى سبيل الله ، خالصًا له وحده ، بعد أن أفنى عمره مخلصًا للصد عن سبيل الله ، وما كان المال مطمعه فى الجاهلية فى هذه الحرب ، إنما نَصرَ

عقيدته التى ورثها عن آبائه وأجداده ، وهو إذن صغير جدًا لعينى نبيه عندما يود أن يتألفه بالمال، وأعاظم الرجال يبقى المال عندهم وسيلة لا غاية، فالمال سلم المجد عندهم، وصغار النفوس هم الذين يعبدون المال ، أما فى الإسلام ، فالمال والمجد والشهرة أدوات لطاعة لله تعالى ، فكان جواب السيد العظيم :

يا رسول الله : إنى لم أسلم رغبة فى المال إنما أسلمت رغبة فى الجهاد والكينونة معك وياله من تعبير رائع ، والكينونة معك ، فقد ربط نفسه بقائده وحبيبه ورسوله حتى الموت ، وأدرك عليه الصلاة والسلام ما كان يعتمل فى نفس عمرو ، وأزال تلك الغشاوة الثقيلة التى جثت على قلب جنديه الحبيب عمرو ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يعلم أن عَمْرًا يقبل الدنية ، ويعشق المال لفطمه عن ذلك ، ولم يرغبه به ، وحذّره منه ، لكنه عليه الصلاة والسلام يعرف خلو قلب عمرو منه ، وأن المال فى الجاهلية والإسلام إنما كان وسيلة عنده ، ليس رغبة وهدفًا فى حد ذاته ، فأعلمه إنما يقبل ذلك به له ، لأنه رجل صالح ونعماً المال الصالح للرجل الصالح .

والطريق طويل أمام عمرو ، أما زيد وجعفر وابن رواحة ، فقد كانت خاتمة الطريق عندهم ، وهو يضعهم على رأس القيادة .

« ... فإن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليصطلح المسلمون على أمير » .

لقد أدى القادة الثلاثة ما عليهم ومضوا إلى ربهم فى عمر جليل كان كله لله .

أما عمرو فهذه أول خطواته الجهادية فى سبيل الله بعد عمر مثقل بالصد عن سبيل الله ، ولهذا قال له عليه الصلاة والسلام : « فيسلمك ويغنمك » .

٢ ـ إلى بلى وقضاعة ولخم وجذام :

إلى الخط نفسه الذى مضى إليه سلفه خالد بن الوليد ، إلى تلك القبائل العربية الضاربة شمالاً ،والتى صحت بعد هول الصدمة الفاجعة التى تلقتها من خالد ، ولم تكد تصدق هل أنها خسرت المعركة من ثلاثة آلاف مقاتل ، وهل ستبقى تحمل هذا العار إلى الأبد ، ولم لا تغسل المدينة كلها من المسلمين حتى تغسل العار الذى لحقها من ذلك .

لقد رأينا العرب الذين قادهم مالك بن رافلة الأراشى، المائة ألف أنهم كانوا :(مائة ألف من الروم وانضم إليهم مائة ألف من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء وبلى عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له مالك بن رافلة)[1] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٤ .

هذا فى مؤتة ، وفى ذات السلاسل (قال البلاذرى فلقى العدو من قضاعة وعاملة ولخم وجذام وكانوا مجتمعين ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة)(١) .

ولكن عمرو بن العاص لم يكن اختياره اعتباطيا ، بل كان ضمن هدف محدد ، فإن كانت الآلاف الثلاثة الأولى قد مضت لتثأر لمقتل رسول رسول الله ﷺ الذى قتله شرحبيل الغسانى ، فعمرو بن العاص هو ولد قضاعة عامة وولد بلى خاصة إن أم العاص ابن وائل من بلى،ولا يبعد أن يكون عمرو قد مضى فى طفولته لزيارة أخواله من بلى ، فقد مضى رسول الله ﷺ فى طفولته لزيارة أخواله من بنى النجار وهم أخوال جده عبد المطلب ،وتعلم العوم فى طفولته عندهم ، فهل هناك غرابة أن يكون عمرو قد مضى مع أبيه العاص لزيارة أخوال أبيه من بلى .

ومن أجل هذا وجدنا أن ما ذُكر عن هذه الغزوة هو هدف مزدوج :

الهدف الأول الذى رجحته الروايات ، والذى يشير إلى أن جموع قضاعة ولخم وجذام تتأهب لغزو المدينة ، ثأرًا لما نزل بهم فى مؤتة .

الهدف الثانى الذى ذكرته رواية واحدة لابن إسحاق أوردها البيهقى فى دلائله :

(بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلى فبعثه رسول الله ﷺ يستألفهم لذلك)(٢) .

فالمهمة إذن مهمة دعوية ومهمة قتالية قادها بطل الحرب المجرب ،عمرو بن العاص، والداعية الجديد لدين الله،وللجمع بين المهمتين نشهد ذلك فى رواية ثالثة تقول: (**وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب ، من بلى وعذرة وبلقين ، وذلك أن عَمْرًا كان ذا رحم فيهم**) (٣) .

يقول الصالحى : (فإن عَمْرًا كان أحد دهاة العرب ، وكون العرب الذين أمر رسول الله ﷺ أن يستعين بهم أخوال أبيه كما ذكر فى القصة ، فهم أقرب إليه إجابة من غيره)(٤) .

وعظمة شخصية عمرو فى أن يستعمل دهاءه فى تحقيق الأهداف الثلاثة معًا : حرب المحاربين ، وتعبئة المسالمين معه ضدهم ، والدعوة إلى الإسلام ، مهمة تحتاج عبقريا وكان عمرو هو ذلك الرجل .

٣ ـ ومعه سراة المهاجرين والأنصار :

ونلحظ أن عدد السرية المتجهة إلى شمال الجزيرة هو عُشر عدد سرية مؤتة ، فليست

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٤ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢٣ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٢ .
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٧٠ .

المهمة مواجهة مباشرة ، بمقدار ما هى مهمة حرب عصابات ، ومهمة دعوة لدين الله ، فكان معه ﷺ كبار المهاجرين والأنصار ، لقد كانت السرية ثلاثمائة ووجد فى جنودها من سراة المهاجرين اثنان من العشرة المبشرين بالجنة ، وهما سعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص ، ووجد فيها أعظم قيادات الأنصار لم يتخلف من هؤلاء الأعاظم أحد ،فسادة الأوس هم كما تقول عائشة رضي الله عنها : (وثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً كلهم من بنى عبد الأشهل ، سعد بن معاذ ، وعبَّاد بن بشر ، وأسيد بن حضير)[1] .

أما اثنان منهم فكانا تحت إمرة عمرو فى ذات السلاسل ، وهما عبَّاد بن بشر ، وأسيد بن حضير وثالث الثلاثة سعد بن معاذ رضي الله عنه كان قد مضى شهيدًا إلى ربه عز وجل واهتز له العرش .

أما سيد الخزرج بلا منازع ، وأطلق عليه كثير أسيد الأنصار ، فهو سعد بن عبادة ، وكان جنديًا فى سرية عمرو بن العاص ، فقد وضع تحت إمرته رضي الله عنه ـ وهو ابن الأشهر الخمسة فى الإسلام ـ خيرة خلق الله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار،وذلك ليوطن هذا الجيل نفسه فيما بعد كى يستفيد من هذه العبقرية النادرة،ويسمع لها ويطيع فى مجال الحرب والمواجهة .

وهى تجربة كذلك لعمرو بن العاص ليرى نفسه فى لحظة من اللحظات فوق المسلمين جميعًا وأميرًا عليهم ولمّا يفقه الإسلام بعد ، وأمثاله فى عالمنا المعاصر يكونون تحت المراقبة والحراسة .

٤ ـ مدد جديد بخيار أهل الأرض :

ومضى عمرو بن العاص رضي الله عنه : فى هذه الصحراء حتى وصل إلى أرض العدو ، فبلغه أن جمعًا كبيرًا قد استعد لمواجهته (حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل ـ ويقال : السلسل ـ وبذلك سميت الغزوة ذات السلاسل ، بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا ، فبعث عمرو رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يخبره أن لهم جمعًا كثيرًا ويستمده، فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وعقد له لواء ، وبعث معه سراة المهاجرين كأبى بكر وعمر بن الخطاب وعدة من الأنصار رضي الله عنهم وأمر رسول الله ﷺ أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص ، وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا ، وكان أبو عبيدة فى مائتى رجل)[2] .

يكاد يظهر أن مثل هذا الجمع من زعماء الأمة ، لم يلتق أبدًا وبهذه الكثافة تحت راية أحد وقيادته إلا تحت راية رسول الله ﷺ فى الغزوات التى كان يقودها ، وها نحن

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٣٣٧ ، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٢، ٢٦٣ .

نجده الآن يمضى مدداً إلى عمرو بن العاص ، ووصل المدد من العظماء إلى عمرو ، ولا ننسى أن نشير إلى حسن اختيار عمرو لرسوله . فرافع بن مكيث جهنى ، وهذه ديار جذام مجاورة لديار جهينة ، وطريقها واحد إلى المدينة ، فخبرته فى الصحراء لا تبارى ولذلك استطاع أن يذهب ويعود بالمدد بسرعة فائقة لأنه خبير الصحراء وابنها الذى تربى فيها ، وكان اللقاء المثير الغريب بين القائدين عمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح .

لم يكن يشك أحد من هذه القيادات أن عمرو بن العاص - ابن الخمسة أشهر - سوف يدع القيادة لأمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح ثالث الثلاثة ، صدِّيق الأمة وفاروق الأمة ، أما عمرو فلم يملك بعد أى لقب أو أية رتبة عسكرية أو سياسية ، وأن يكون الجميع تحت راية أبى عبيدة بن الجراح هو الأصل الطبيعي ، لكن المفاجأة كانت مذهلة فعمرو بن العاص يرفض أن يكون تبعًا لأبى عبيدة ، وقد أمَّرَه رسول الله ﷺ على الجيش .

الأزمة الأولى :

وتبقى هذه المفاجأة فى الحدود المعقولة ، فلا غرابة أن يصر عمرو على قيادته للثلاثمائة الذين كان عليهم أميرًا من قبل ، وإن كان هذا لم يكن مصدر راحة لكبار المسلمين فى الجيش .

لكن طموح عمرو كان أبعد من ذلك بكثير ، إنه يريد أن يكون أمير الجيشين معًا ، ولم يعرض هذا الأمر بتحرج أو حياء،إنما عرضه بقناعة كاملة ، ومن خلال خبرته الحربية السابقة .

(فلما قدموا أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو : إنما قدمت علىَّ مددًا لى وليس لك أن تؤمنى وأنا الأمير .

وعمرو لا يقبل إمامة أبى عبيدة ولا يرضى إلا إمرته على الجميع .

وأخذ الأمر فى صفوف المسلمين وقيادتهم حيزاً واسعًا واهتمامًا كبيرًا ، فلم يعهدوا فى تاريخهم كله مثل هذه الجرأة على الرعيل الأول ، ولم يشهدوا مثل هذا الإصرار على الإمارة ، فالأصل أن يتقاذفوها لا أن يتنازعوها ، وتفاديًا لتصدع خطير فى الجيش .

(قال المهاجرون : كلا . بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه) .

ولم يكن هناك شك أبدًا أن عَمرًا سيقبل هذا الواقع ، فكلاهما له من رسول الله ﷺ إمرة يتمسك بها ، فليبق كل أمير على أصحابه .

ورفض عمرو هذا الرأى ، من خلال خبرته وتجربته فى الحرب ، فلا يمكن لجيش أن يكون بأميرين فى وقت واحد . وأن يكون التشاور مستمرًا ، فإذا اختلفا ، فأى رأى

يمكن أن ينفذ .

أصرَّ عمرو على رأيه قائلا : لا ، أنتم مدد لنا .

وفي الوقت الذى كان عمرو بن العاص ينافح ويكافح لتبقى له القيادة كلها ، ها هو يتلقى درسًا عظيمًا فى التربية من الرعيل الأول من أبى عبيدة بن الجراح .

وألقى أبو عبيدة درسه النظرى ابتداءً فقال :

يا عمرو : إن رسول الله ﷺ قال : « لا تختلفا » وإنك إن عصيتنى أطعتك ، ومضى عمرو يغذى طموحه بعد أن رأى ذلك اللين والذلة بين المؤمنين من أمين الأمة ، الذى تمثلت به مواصفات الجيل الخالد : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فقد بلغ من شدته على الكفار ، وألا تأخذه فى الله لومة لائم ، أن قتل أباه فى غزوة بدر حتى ضربه الله تعالى مثلاً حيًا لحزب الله .

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] ، ولن تجد فى الدنيا كلها أعظم بطولة ، وأشد رجولة ممن يقتل أباه فى سبيل الله ، فهذا هو حزب الله ، ومن هو فى هذه البطولة وفى هذه الشدة ، وفى هذه العظمة ، هو هو نفسه الذى يلين لإخوانه ويلين لهذا الوافد الجديد ، ليربيه على مفهوم الطاعة ، ويربيه على مفهوم الإيثار ، ويربيه على مفهوم الذل للمؤمنين أن يقول له ولئن عصيتنى لأطيعنك ، وقال عمرو : فإنى أمير عليك وإنما أنت مدد لى ، قال أبو عبيدة : فدونك ، ثم نفَّذ الدرس العملى مباشرة ، وعلى الملأ .

(فصلى عمرو بالناس) .

وها عمرو بن العاص ، وخلال خمسة أشهر يصبح أميرًا على قادة الدنيا وسادة أهل الأرض ، يصبح أميرًا على جيش فيه عظماء الأمة الثلاثة ، الصديق والفاروق والأمين ، وفيه سادة الأنصار سعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، ويتقدم ليصلى بهؤلاء جميعًا ، يسمعون له ويطيعون وجاء المغيرة بن شعبة خريج الدورة الخامسة دورة الحديبية إلى أميره أبى عبيدة قائلاً له : (إن رسول الله استعملك علينا ، وإن ابن فلان قد اتبع أمر القوم ، فليس لك معه أمر ، فقال أبو عبيدة : وهو خريج الدورات كلها والجامعات كلها :

العهد السرى ، دار الأرقم ، الهجرة ، بدر ، الحديبية ، خريج هذه الدورات جميعًا

يعود لتربية أخيه المغيرة بن شعبة قائلا :

(إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاوع ، فأنا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو)

هذا الهدف العظيم والدرس الخالد الذى قدّمه أبو عبيدة ليس لعمرو فقط ، وليس للمغيرة فقط ، وإنما لجميع المسلمين استقاه من قول المصطفى ﷺ : لا تختلفا ، فلا يجوز أن يكون اختلاف فى القيادة ، والمسؤول عن تحقيق هذا الهدف أبو عبيدة وليس عمرو بن العاص المسؤول عن التنفيذ هو الذى يملك من الإيمان ،واليقين ، والإخلاص له ما يستطيع أن يخوض عباب هذا البحر حلمًا وصبرًا وأناة ولينًا ، ويتنازل هو حتى لا يقع الخلاف ، وتتصدع الأمة ، ويتمزق الشمل ، إنه ما ذبح الأمة إلا الخلافات فيها ، كان هذا الدرس العملى الذى تنازل فيه أبو عبيدة رضي الله عنه عن القيادة لأخيه عمرو بن العاص ، ويحسم الأمر ، ويدعه يصلى بالمسلمين ويقف وراءه كما يقف بجواره أبو بكر وعمر وسعد وأسيد والمسلمون جميعًا خلفهم .

الأزمة الثانية :

وجاء الدرس العظيم الثانى من الصديق :

لقد كانت حركة الجيش فى موسم البرد ، ووصف بردها عمرو نفسه بقوله :

فى (. . . ليلة باردة كأشد ما يكون البرد) وراح يتحدث عنها أمام نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذى بعثك بالحق إنى لو اغتسلت لمت ، لم أجد بردًا قط مثله .

وفى مثل هذه الأجواء وحين يجلس الجيش للنوم يحس بلسعة البرد أكثر ، ولن يتمكن أحد من النوم فيه ، فراحوا يجمعون الحطب ليوقدوا النار ، وإذا لغط بدأ ينتشر فى الجيش كله ، إن الأمير ينهاكم أن توقدوا نارًا ، وليست لحظة ، وليست ساعة إنها الليل كله ، فكيف إذن يفعلون فى هذا البرد القارس ، وراحوا يلجؤون لكبار الصحابة يرجونهم أن يراجعوا الأمير،لعله يغير رأيه، فقد كادوا يقتلون من البرد،وتململ الجيش ، وتذمر الجيش ، وحاول بعضهم أن يوقد النار ، فجاء الجواب على لسان الأمير عمرو:إن الأمير ينهاكم أن توقدوا نارًا،وبحث المسلمون عن أفضلهم وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . ففيهم رئيس الوزراء أبو بكر الصديق ، جاؤوا إليه يستشفعونه ، عند عمرو ابن العاص ، لعله يغير أمره فكل لحظة تمر على المسلمين كأنها سنة،ولا صبر على هذا البرد القارس ، ورضى أبو بكر رضي الله عنه أن يكون شفيعًا عند عمرو بن العاص ، ولا شفاعة فوق شفاعته ، فقال عمرو للصديق :

(لا يوقد أحد منهم نارًا إلا قذفته فيها) .

وخرج الصديق ذو القلب الرحيم يكاد يكون دامع العينين لهذا الجواب الفج الغليظ، فلا يعظم الأمير أحد ، ولا يقبل شفاعته أحد ، وخرج أبو بكر للناس ، وقرؤوا الجواب بين عينيه ، فالأمير مصر على موقفه ، وهم يطلبون الإشارة منه أو من عمر أو من أبى عبيدة ، حتى ينفذوا ما يريدون بتوجيههم ولعله اعتمل فى قلوب الكثيرين من المسلمين ، أن عمرو بن العاص لا يزال على جاهليته ، وقد تظاهر بالإسلام وهو يريد أن ينتقم من المسلمين ويعذّبهم ويقتلهم برداً فى هذا الليل فهل يسكت عنه ، ولا يمكن أن يكشف هذا الأمر ، ويقدم على مواجهته إلا عمر رضي الله عنه ، وجاؤوا إليه يوغرونه على عمرو وليس بحاجة إلى أن يوغر صدره أحد ، لكن لا يريد أن ينفرد برأى عن أميره الحقيقى ، وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قال له ولأبى بكر : « لو اجتمعتما على رأى ما خالفتكما » .

فإذا اجتمعا على أمر فلا خيار لعمرو فى مخالفتهما ، لأن رسول الله ﷺ لا يخالفهما، ومضى متوتر الأعصاب غاضبًا إلى الصديق ؛ ليتخذا رأيا واحداً يواجهان به عمرو بن العاص ، أو يدعه يتصرف مع الأمير بما يراه فى هذا الموقف .

(فغضب عمر بن الخطاب ،وهم أن يأتيه فنهاه أبو بكر) لقد تشاجر عوف بن مالك الأشجعى مع خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وتوعده عند رسول الله ﷺ ، ولو أن المسلمين رأوا عمر بن الخطاب يأتى ابن العاص ويناقشه أمام الملأ ، لأسقط فى يد عمر ، وعمرو نفسه يتساءل بنفسه ولا يكاد يصدق ، هل يسمع له ويطيع كل هذه القيادات ، أفتصبح قيادات المسلمين كلها تحت إمرته،وهو يطلب منها الآن ما هو أشق ما يكون على نفسها ، أن تعانى من آلام البرد وشدته فى هذه الصحراء التى لا مأوى فيها ولا بيت ولا ظل يقى منه ،والحطب متوافر ، يمكن أن يوقد النار ، ويبعث الدفء فى كل جسد ، وها هو الآن يتوقع فى كل لحظة تمرداً وثورة ،وكل ما يخشاه هو أن يشارك فيها أحد القادة الثلاثة ، وجاءه أبو بكر فرده ، وعمر شديد وقاس ، فهل يتم الأمر دون أزمة عنيفة بينهما ؟ لكن أبا بكر رضي الله عنه أحكم الموقف وأقنع عمراً بقوله :

« إن عَمْراً لم يستعمله رسول الله ﷺ علينا إلا لعلمه بالحرب » ، وطاعة أولى الخبرة واجبة ، وليس أبو بكر وعمر بأقل خبرة بالحرب من عمرو ، ولكنه الآن هو الأمير وأثبت هذا الجيش أعظم مستوى من الانضباط والطاعة رغم الهياج الضخم والغضب الشديد من عدم إيقاد النار ونفذ عمرو مخططه كاملاً ليبدأ بهجومه مع الفجر ، ولم توقد نار واحدة ، ولم تسجل مخالفة واحدة ؛ لأن المشرف على الأمة ساداتها يربونها على السمع والطاعة للأمير مهما كانت المشقة فيها .

الأزمة الثالثة :

فقد صدرت الأوامر ألا يتبع أحد جنديًا من جنود الأعداء إن فر منه ، ولا يثبت النصر إلا بملاحقة الجندى الفار وقتله وأخذ سلبه ، ولم يُبين عمرو رضي الله عنه سبب هذا المنع وغدا الجيش كله يتململ من شدة أوامره ، والغنيمة التى يطمع بها المقاتل فى سلب العدو كثيرة ، حين يقتل عدوه .

أزمات نفسية تواجه المسلمين من هذه القيادة ، ويذكرون أن رسول الله ﷺ هو الذى أمَّرَه فيصمتون طاعة لله ولرسوله ، لكن القيادة للمعركة برزت فى اليوم الثانى ، وبرزت العبقرية فى هذه القيادة ، فهؤلاء الخمسمائة (سار الليل وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو ودوخها كلها ، حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع فتفرقوا ، فسار حتى إذا انتهى إلى أقصى بلادهم ، ولقى فى آخر ذلك جمعًا ليسوا بالكثير فاقتتلوا ساعة وحمل عليهم المسلمون فهزموهم ، وتفرقوا ، ودوَّخ عمرو ما هنالك وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويأكلون ،ولم يكن أكثر من ذلك ، لم يكن فى ذلك غنائم تقسم ، كذا قال جماعة) [1] .

فقد أصبح اسم المسلمين يثير الرعب فى صفوف هذه القبائل ، ولا يكاد جمع يهم بالهجوم إلا ويرى المسلمين قد انقضوا عليه فينفض الجمع نفسه وينشر الرعب والخوف فى صفوف جيرانه ، والمسلمون فى أرض أعدائهم كأكلة جزور ، ولم يضربوا ويهربوا وانتهى الأمر ، بل يهجمون ويتحدون ، وينتشرون ويلاحقون ، وصاروا سادة الساحة كلها ، وقفل عمرو رضي الله عنه عائداً بجيشه المظفر ، وهو متأهب للمواجهة فى طريق العودة كذلك ، وفى طريق العودة كانت .

الأزمة الرابعة :

التى أعادت ثانية جو الريبة والتململ من القائد ، فقد أصبح عمرو رضي الله عنه جنُبًا ، وسأل المسلمين ، وكلهم فقهاء فى دين الله فأعلموه الغسل من الجنابة أنه هو الحل ، وكيف يتم الغسل فى هذه الصحراء المهلكة والبرد قد جمَّد النبات فكيف بالإنسان ، ورأى عمرو رضي الله عنه خطورة الاغتسال فى هذه الليلة الباردة ، فغسل مغابنه وتوضأ ، وآن الأوان لصلاة الفجر فتقدَّم وصلى بالناس ، وانتشر الخبر فى الجيش كله ، صلى بالناس وهو جنب ، ولا شك أن الناقمين عليه كانوا يزيدون فى نشر هذا الخبر ، فهو يمنع عنهم النار ويدعهم يعانون من شدة القر ، وها هو الآن يخاف القر ، ولا يغتسل ويصلى بالناس

(١) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٦٤ .

وهو على جنابة ، ولا ترتفع الجنابة إلا بغسل ، ويكاد يسود فى صف بعضهم الشك فى إسلامه ، وضعف دينه ، فهم قد غضبوا منه ابتداء حين رأوه يصر على الترأس وحب السيادة ولا يتنازل عن الإمارة لسادة الدنيا أمثال : أبى عبيدة وأبى بكر وعمر ، اجتمعت هذه العوامل كلها فشكلت تياراً كبيراً ضده ، ومع وصول عمر ﷺ إلى المدينة ، ومع وصول الأخبار السارة عن النصر ، ورغم كل النقد حوله ، فلم يتمكن أحد أن ينال من عبقرية قيادته للمعارك التى خاضها ، والتخطيط الجيد لها ، لكن رفعت عليه ثلاث دعاوى أمام رسول الله ﷺ ، وانعقدت .

المحاكمة الميدانية :

التى كان رسول الله ﷺ هو القاضى فيها ، وكان عمرو بن العاص هو الأمير المتهم فيها ، وهذه هى وقائع المحكمة المثيرة العظيمة التى انتهت فى دقائق حيث وصل لنا ملف الدفاع كاملاً كما رواه الحافظان الطبرانى وابن حبان .

الدعوى الأولى والثانية : أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله ﷺ منعى لهم من إيقاد النار ومن اتباعهم العدو .

الدفاع : يا رسول الله : إنى كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم .

الحكم : فحمد رسول الله ﷺ أمره .

وخرج من المحكمة بريئًا من التهم مشهودًا له بالعبقرية الحربية حيث حمد له رسول الله ﷺ فعله .

أما الدعوى الثالثة : ونأخذها من مذكراته ﷺ كما رواها أبو داود وأحمد رحمهما الله :

(احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح) (١).

الدعوى : فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ .

رسول الله : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟

المتهم : فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت : إنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء] .

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

الحُكْم : فضحك رسول الله ﷺ .

وانفضت المحكمة بالبراءة .

أبو بكر ﷺ ورافع :

هذا رافع قبل الإسلام كما يحدثنا عن نفسه :

(كنت امرءًا نصرانيًا ،وسميت سرجس ، فكنت أدل الناس وأهداه بهذا الرمل ، كنت أدفن الماء فى بيض النعام بنواحى الرمل فى الجاهلية ، ثم أغير على إبل الناس ، فإذا أدخلتها الرمل غَلَبتُ عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبنى فيه ، حتى أمُرَّ بذلك الماء الذى خبأت فى بيض النعام ، فأستخرجه فأشرب منه ، فلما أسلمت خرجت فى تلك الغزوة التى بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل)(١) .

هو رافع بن أبى رافع بن عميرة الطائى ،وطيئ قد دخلتها النصرانية ، وكان عدى ابن حاتم سيد طيئ نصرانيًا ، وهو الذى وفد على رسول الله ﷺ فيما بعد ، وهو مغامر بطل صعلوك من صعاليك العرب الذى كان يعيش على الإغارة على القبائل ، واختارها طريقًا لشهرته فى الحياة ، وحدثنا كيف كان يدفن الماء فى بيض النعام بالرمل ، ثم يسرق الإبل إلى هذا الرمل ، فييأس الناس منه ، وفى هذه الصحراء العريضة التى تصهر الإنسان وتصهر الأشياء يخرج مدفونه من الماء فيحيى .

وشاء الله تعالى أن يسلم فى هذه السنة الثامنة وقبيل ذات السلاسل ، وانضم جنديًا مع المدد الذى بعثه أبو عبيدة لعمرو ، ويذكر ابن إسحاق فى المغازى فيما رواه عنه ابن حجر فى الإصابة ؛ (أنه هو الذى كلمه الذئب فيما يزعم طيئ ، وكان فى ضأن يرعاها فقال فى ذلك :

فلمــا أن سـمعت الذئـب نـادى ... يبشــرنـى بأحـمد مـن قـريــب
فألفيــت النبـى يـقــول قـولاً ... صـدوقًا ليس بالقول الكذوب)(٢)

ولا يبعد أن تكون الرواية صحيحة ، فما الذى يدفعه إلى الإسلام ، ولم تسلم قبيلته بعد ، وهو ممعن فى هذه الصحراء ، ويعيش وراء فتكه ولصوصيته ، والواقدى هو الذى حدثنا عن خروجه مع المدد (وكان رافع بن أبى رافع الطائى يقول : كنت فيمن نفر مع أبى عبيدة بن الجراح ، وكنت رجلاً أغير فى الجاهلية على أموال الناس).

وكانت أول رحلاته مع هذا الجيش ، وندع الحديث له بعد ذلك :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٥ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ١/ ٢/ ١٨٨ ت (٢٥٣٤) .

(فلما نفرت فى ذلك البعث قلت : والله لأختارن لنفسى صاحبًا ينفعنى الله به ، فاخترت أبا بكر الصديق ، فصحبته ، وكان له عباءة فَدكية ، فإذا ركب خلها عليه بخلالٍ، وإذا نزل بسطها ،فلما قفلنا قلت: يا أبا بكر : رحمك الله ، علمنى شيئًا ينفعنى الله به . . .) .

وإن كان الواقدى لا ينقل لنا عن صحبته شيئًا مع أبى بكر إلا قصة العباءة ، فقد روى ابن خُزيمة عن طريق ابنه طارق بن رافع ، إضافات ممتعة وهى بلسان أبيه :

(قلت: لأختارن لنفسى رفيقًا صالحًا ،فوفق لى أبو بكر ،فكان ينيمنى على فراشه ، يلبسنى كساءً له من أكسية فدك)(١) .

وبهذه الإضافة تتجلى عظمة الحديث عن العباءة الفدكية ، فقد كان الصديق رضي الله عنه أمة وحده ،فها هو يؤثر صاحبه ، فينيمه على فراشه ، ويلبسه كساءه ، فيبقى بلا كساء ، لا يلبس على جسده إلا العباءة الفدكية التى يشلها بالأعواد حتى تستر صدره وظهره ، فإذا نزل بسطها للجلوس عليها ، وهو سيد المسلمين بلا منازع ، وخير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ ،وعاش إذن فى رحلته هذه يشهد إيثار سيد المسلمين له فى منامه وملبسه ومنزله ، فملأت هذه المعاملة حياته ،وكانت التربية التى تلقاها تربية عملية ، ولم يكتف بذلك فقال : (فلما دنونا من المدينة قافلين قلت : يا أبا بكر إنما صحبتك لينفعنى الله بك ، فانصحنى وعلمنى ، قال : لو لم تسألنى ذلك لفعلت ، آمرك أن توحد الله تعالى ولا تشرك به شيئًا ، وأن تقيم الصلاة ، وأن تؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتغتسل من الجنابة ، ولا تتأمرن على رجلين من المسلمين أبدًا ، قال :

قلت : أما ما أمرتنى به من توحيد الله عز وجل فإنى والله لا أشرك به أحدًا أبدًا ، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا إن شاء الله تعالى ، وأما الزكاة فإن يكن لى مال أؤدها إن شاء الله تعالى ، وأما رمضان فلن أتركه أبدًا إن شاء الله تعالى ، وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله تعالى ، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله تعالى ، وأما الإمارة فإنى رأيت الناس يا أبا بكر لا يصيبون هذا الشرف ، وهذه المنزلة عند الناس إلا بها فلم تنهانى عنها ؟) .

لقد ذكر الصديق لرافع أركان الإسلام الخمسة التى لا يقوم الإسلام إلا بها الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وهذه الأمور من الفروض التى يتزلزل إيمان المسلم ما لم يأت بها ، وإنما يهدم ركنا من أركان دينه لو تخلى عنها ، والاغتسال من الجنابة مفتاح الصلاة التى لا تتم الصلاة إلا به ، لكن ما بال الإمارة ، وما دورها فى رفقة هذه

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ١/٢/١٨٨ ت (٢٥٣٤) .

الأركان حتى لينهاه عنها كما ينهاه عن الشرك بالله تعالى ، وليست أية إمارة إنما لو كانت على اثنين فلا ينصح بها ، فكيف إذا كانت على أكثر ، والبون شاسع جدًا بين تصور رافع وتصور الصديق ، فرافع يرى أن طريق الحياة والشهرة والمجد إنما يتم عن طريق الإمرة والسيادة ، فلم يستوقفه من هذه الوصية شيء كما استوقفته منها هذه الفقرة .

وفى رواية ابن هشام فى السيرة :

(وأما الإمارة فإنى رأيت الناس لا يشرفون عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها فلم تنهنى عنها ؟) [1] .

قال: إنك استنصحتنى فجهدت لك نفسى ، وسأخبرك عن ذلك إن شاء الله : إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بهذا الدين فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعًا وكرهًا، فلما دخلوا فيه أجارهم الله من الظلم ، فهم عواذ الله وجيرانه ، وفى ذمته وأمانته ، فإياك أن تخفر ذمة الله فى جيرانه فيتبعك الله تعالى فى خُفرته ، فإن أحدكم يخفر فى جاره ، فيظل ناتئًا عضله غضبًا لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير ، فالله أشد غضبًا لجاره، (وفى لفظ : فالله من وراء جاره) .

ونخلص هنا ونحن نتلقى عن سيد المسلمين أبى بكر إلى أهمية العدل فى الإسلام ، وأنه ركن من أركان هذا الدين ، وأول ثمرة من ثماره ، فدخول الناس فى دين الله ، هو دخول فى جواره ، وأجارهم الله تعالى بهذا الدخول من الظلم ، ومهمة الأمير والحاكم المسلم أن يحقق العدل الذى قامت به السموات والأرض فى أى حكم يصدره ، وليس الأمر من السهولة واليسر أن يتمكنه أى إنسان .

إن الحكم والإمارة لهما طريقان وخطان متميزان :

الطريق الأول : وهو الذى كان يتصوره رافع بن أبى رافع رضي الله عنه هو طريق الشهرة عند الناس وحب الذكر والصيت ، والرغبة الجارفة فى الزعامة ؛ ليصبح الزعيم حديث الناس ومركز تفكيرهم ، وصاحب السيطرة على قلوبهم وأجسادهم وأموالهم ، وهو طريق الجاهلية ، حتى ولو كان لشهرة عند رسول الله ﷺ .

الطريق الثانى : وهو الذى صحح فيه الصديق هذا الفهم الخاطئ ، وهو أن الحكم والإمارة هى طريق إقامة العدل بين الناس؛ لأن الحاكم مهمته أن ينفذ إرادة الله تعالى فى إجارة عبيده من الظلم ، فلو أخل بهذا التنفيذ فإن هذا يعنى أنه صار مخاصمًا لله ، محاربًا لله تعالى،محل غضب الله وسخطه،والله تعالى هو خصمه ؛لأنه آذى الله تعالى فى جيرانه من خلقه الذين أجارهم من الظلم بدخولهم بهذا الدين . إن مهمة الإسلام

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٠٤٣ .

الأولى إذن في البشرية بعد توحيد الله تعالى والدينونة له بالعبودية والطاعة هي إقامة العدل في الأرض ، والإجارة من الظلم ، فإذا كان الأمير لا يعرف في نفسه القدرة على تحقيق هذا العدل ،فليبتعد عن ذلك حتى لا يصبح خصم الله وعدو الله الذي يطلبه الله تعالى في خفرته .

ولعل هذا المعنى يدركه أول ما يطالب بإدراكه الدعاة والعاملون لهذا الدين في الأرض ، والمجاهدون لإقامة شريعة الله فيها ، وهم أمناء الله تعالى على دينه ، فإذا ببعضهم وقبل أن يصلوا إلى الحكم يتصارعون على المناصب ، وهذا البعض هو من القيادات التي كانت محل ثقة الناس ، وولاء الناس لهم .

ولعل ما أصاب إخوتنا الأفغان يعطينا دليلاً صارخًا على ذلك ، فقد قدَّم الشعب الأفغاني المسلم ومن ورائه شباب العالم الإسلامي قرابة مليون ونصف شهيد ثمنًا لإقامة شريعة الله في الأرض وللتمكين لدين الله في أفغانستان ، وكان أكبر أحلام المسلمين في نهاية هذا القرن أن يسمعوا عن سقوط كابل بيد المجاهدين ، وأذن الله تعالى بالنصر ، ودخل قادة المسلمين كابل ، وسقط الحكم الشيوعي ، وانتظر المسلمون الفجر الذي يزين هذا القرن ويتوجه بإقامة شريعة الله في الأرض ، في هذه الديار التي غدت مهوى أفئدة المسلمين في كل مكان ، وإذا بنا نشهد حربًا بين الإخوة القادة ، تدخل الآن عامها السادس ، ودمرت كل ما تبقى من حياة وعمران في أفغانستان ، وجعلت الناس ينسون مآسي الكفرة الملحدين بما يعانونه من مآسي صراع الإخوة المجاهدين .

ونعود معًا لرافع بن أبي رافع الذي يسمع أخطر درس في حياته عن مفهوم الإمرة من أكبر وزراء رسول الله ﷺ ، لنشهده يشد الرحال إلى الصديق الذي أوصاه ألا يتأمر على اثنين ، حيث صار خليفة للمسلمين في الأرض .

(قال : ففارقته على ذلك ، فلما قُبض رسول الله ﷺ ، واستخلف أبو بكر على الناس قدمت عليه فقلت له :

يا أبا بكر : ألم تك نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، فقلت له : فما حملك على أن تلي أمر الناس ؟ قال : اختلف الناس وخشيت عليهم الهلاك) .

(وفي رواية : الفرقة ، ودعوا إليَّ فلم أجد بدًا من ذلك) .

وصدق صدِّيق الأمة ، كما قالها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثلاثًا عندما سمع عمر يصلي بالناس فقال: « يأبى الله ذلك والمؤمنون إلا أبا بكر،يأبى الله ذلك والمؤمنون إلا أبا

بكر، يأبى الله ذلك والمؤمنون إلا أبا بكر » ، حتى ولو كان عمر هو الإمام ، وحين يصلى اليوم أبو بكر رضي الله عنه وراء عمرو بن العاص إنما هى عملية تدريبية تربوية لهذا الناشئ فى دين الله ، والذى أراد المصطفى ﷺ أن يغسل له صفحة الجاهلية السابقة بهذه الصفحة الناصعة ، ويأخذ مكانه وموقعه فى الأمة ، والذى حدا بالصديق أن يقبل الخلافة هو الذى حدا بأبى عبيدة أن يعطى الإمرة لعمرو تجنبًا للفرقة والخلاف ، ولا شيء يذبح الأمة مثل الخلاف بين قادتها، والصراع على المناصب فى صفوفها فحين كان الصديق رضي الله عنه هو العاصم من الخلاف ، وهو الذى تجتمع عليه الأمة ، كان لابد له من قبول ذلك وهو يتمنى ألا يتأمر على اثنين ، وهو الذى روض نفسه ألا يرضى الإمرة على اثنين خوفًا من الله عز وجل أن يطلبه فى خفرته ،ولم يجد أهم من هذه الوصية يوصى بها رافع صاحبه فى هذه الغزوة ، لقد فطم قلبه عن الدنيا ، وعندها حين يقبل الإمارة إنما يقبلها تكليفًا وكرهًا لا يتشوق إليها بل يفر منها فراره من غضب الله، ولمثل هؤلاء تدين الدنيا، وكما وصفه معاوية رضي الله عنه :

فأما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وبقيت وصيته لصديقه رافع على ما هى عليها وهو يلى أمر الناس ، بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك .

ونبحث عن رافع بعد هذه الوصية فنلقاه وقد تلقى درس الزهد والإيثار عن الصديق يصفه عمرو بن حيان الطائى بقوله :

(كان رافع بن عميرة يغدى أهل ثلاثة مساجد يسقيهم الحيس وما له إلا قميص واحد للبيت والجمعة) وابتعد عن الأضواء ، وترك طريق الشهرة عند الناس ، واكتفى أن يضع خبرته وطاقاته تحت تصرف القادة والرؤساء ، واشتهر فى التاريخ كأعظم أدلائه ، حين قاد جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق إلى الشام ، فالتمس (خالد) دليلاً فدل على رافع بن عميرة الطائى فقال له خالد : انطلق بالناس ، فقال له رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ،والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ،وما يسلكها إلا مغررًا؛ إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها ، فقال له خالد : ويحك ! إنه والله إن لى بد من ذلك [1]، إنه قد أتتنى من الأمير عزمة [2] بذلك ، فمرنى بأمرك ، قال : استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله :

وهنا تطالعنا عبقرية ابن الصحراء المجرب ، فتابع قوله لخالد :

ابغنى عشرين جزورًا [3] عظامًا سمانًا مسانّ [4]، فأتاه بهن خالد ، فعمد إليهن رافع

---

(١) إن لى بد من ذلك : ما لى بد من ذلك . (٢) عزمة : عزيمة .

(٣) جزور : جمال . (٤) مسان : كبار .

فظمأهن ، حتى إذا أجهدهن عطشًا أوردهن فشربن ، حتى إذا تملأن عمد إليهن ، فقطع مشافرهن [١] ثم كعمهن [٢] لئلا يجترن ، ثم أخلى أدبارهن) .

إنه يعيد علينا لصوصيته يوم كان يضع الماء فى بيض النعام فى الصحراء، ويقتاد الإبل إليها ويفوز بالإبل التى يسرقها من العرب ، هذه الطاقات الهائلة والخبرات العظيمة التى كانت تنصب فى الفتك بالناس والإغارة عليهن ، ها هى الآن تنصب لتصنع تاريخ هذه الأمة فى أعظم مغامرة شهدها التاريخ وفى الطريق الذى سلكه خالد بن الوليد لينتقذ إخوانه فى الشام ، ولنتابع هذه الرحلة العجيبة مع هذا الماهر الخبير .

(ثم قال لخالد : سر ؛ فسار خالد معه مغذا بالخيول والأثقال ، فكلما نزل منزلاً اقتط [٣] أربعًا من تلك الشوارف، فأخذ ما فى أكراشها ، فسقاه الخيل ،ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء فلما خشى خالد على أصحابه فى آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة وهو أرمد : ويحك يا رافع : ما عندك ؟ قال : أدركت الرى إن شاء الله ، فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج لقعدة الرجل [٤]؟ قالوا : ما نراها ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلكتم والله إذن وهلكت ، لا أبالكم ، انظروا ، فطلبوا فوجدوها قد قطعت ، وبقيت منها بقية ، فلما رآها المسلمون كبروا ، وكبر رافع بن عميرة ، ثم قال : احفروا فى أصلها ، فحفروا، فاستخرجوا عينًا ، فشربوا حتى روى الناس ، فاتصلت بعد ذلك بخالد المنازل ، فقال رافع : والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة ، وردته مع أبى وأنا غلام . وفى رواية : أيها الأمير : والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبى ، فقال شاعر من المسلمين :

لله عينا رافع أنَّى اهتدى فَوَّز[٥] من قُراقر[٦] إلى سُوى[٧]
خمسًا إذا ما سادها الجيش بكى ما سادها قبلك إنسيٌ يُرى

فلما انتهى خالد إلى سُوى ، أغار على أهله ـ وهم بهراء ـ قبيل الصبح ، وناس منهم يشربون خمراً لهم فى جفنة قد اجتمعوا عليها ومغنيهم يقول :

---

(١) قطع مشافرهن : قطع شفاههن . (٢) كعمهن : شد أفواههن .
(٣) اقتطها: عصر ماء كروشها .
(٤) قعدة الرجل : مقدار ما يأخذ الرجل من الأرض إذا قعد .
(٥) فوَّز : قطع المفازة . (٦ ، ٧) قراقر وسوى : أسماء أماكن فى البادية .

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر | لعل منايانا قريب وما ندرى
ألا عللانى بالزجاج وكرِّرا | علىَّ كميت اللون [1] صافية تجرى
ألا عللانى من سلافة قهوة[2] | تسلى هموم الناس من جيد الخمر
أظن خيول المسلمين وخالدًا | ستطرقكم قبل الصباح إلى الفجر
فهل لكم فى السير قبل قتالهم | وقبل خروج المعصرات من الخدر

فيزعمون أن مغنيهم قتل تحت الغارة ، فسال منه فى تلك الجفنة)[3] .

وهذا رافع كما نراه وقد تتلمذ على يد أبى بكر الصديق فى تلك الدورة القصيرة العملية التى حضرها معه فى غزوة ذات السلاسل ، فصار أزهد الناس وأكرم الناس ، يطعم أهل ثلاث مساجد ، وليس عليه إلا ثوب واحد للبيت والجمعة ، كما رأى معلمه وهو يلبس تلك العباءة ،فيجلس عليها إذا جلس،ويضعها عليه إذا سافر ويشكها بالعود ، بينما يقدم له كساءه وفراشه لينام عليه ، ويبتعد عن الأضواء بعد أن كان يبحث عنها من خلال الإمرة ؛ ليبحث عنه خالد بن الوليد ليكون دليلاً للجيش .

وعوف بن مالك الأشجعى :

الذى التقيناه فى مؤتة وقد تشاجر مع خالد ﷺ ، وكان محقًا فى شجاره ، لكنه أخطأ الأسلوب ، فرباه عليه الصلاة والسلام ، ونصر خالدًا عليه ، وها هو الآن يمضى كما مضى أخوه رافع يصحب أبا بكر وعمر ، فهى فرصة العمر أن يرى المسلمون فى غزاتهم هذين الوزيرين يتأدبان بأدبهما وينهلان من معينهما ، وندع الحديث لعوف كما رواه البيهقى عن طريق ابن إسحاق :

(كنت فى الغزاة التى بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، وهى غزوة ذات السلاسل ، فصحبت أبا بكر وعمر ﷺ ، فمررت بقوم وهم على جزور قد نحروها ، وهم لا يقدرون على أن يبعِّضوها وكنت امرءًا لبقًا جازرًا فقلت لهم : أتعطونى منها عشيرًا على أن أقسمها بينكم ؟ قالوا : نعم ، فأخذت الشفرة فجزأتها مكانى ، وأخذت جزءًا فحملته إلى أصحابى فأطبخناه وأكلناه ، فقال لى أبو بكر وعمر ﷺ : أنى لك هذا اللحم يا عوف ؟ فأخبرتهما،فقالا:والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما فى بطونهما منه،فلما قفل الناس من ذلك السفر كنت أول قادم على رسول الله ﷺ، فجئته وهو يصلى فى بيته فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ،

---

(1) كميت اللون : خالط حمرته قنوء . (2) القهوة : من أسماء الخمر .

(3) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٣ / ٤١٥ ـ ٤١٧ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة .

فقال : « أعوف بن مالك ؟ » فقلت : نعم : فقال : « أصاحب الجزور ؟ » ولم يزدنى على ذلك شيئًا ، زاد محمد بن عمر ثم قال رسول الله ﷺ : « أخبرنى » ، فأخبرته بما كان من سيرنا وما كان من أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، ومطاوعة أبى عبيدة ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح ») .

عوف بن مالك الأشجعى كما ذكرنا من قبل أسلم بعد خيبر ، وأشجع من غطفان فقبيلته كما قال عنها أبو سفيان يوم رآها فى جيش الفتح :(هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد) ، قال العباس :(وأدخل الله تعالى الإسلام فى قلوبهم)(١) ، واختير عوف ليكون بشير المسلمين إلى رسول الله ﷺ بالفتح ، فهو أول من لقيه من الجيش عليه الصلاة والسلام، وقد سأله : « أصاحب الجزور » قال : نعم ، فلم يتحدث أحد إلى رسول الله ﷺ بهذه القصة ، فهو أول قادم ، وهى موضوع خاص لم يشتهر فى الجيش كله ، ولا شك أن الوحى قد نزل إلى رسول الله ﷺ بقصة الجزور ، والظاهر والله أعلم أنها ليست من الأهمية لهذه الدرجة التى يتنزل الوحى من أجلها ، لكن حب رسول الله ﷺ لوزيريه أبى بكر وعمر، وشوقه لأخبارهما، وحرص الوزيرين العظيمين على طاعة الله تعالى فيتقيآن ما أكلا لشبهة فى حله ، فينزل الوحى لرسول الله ﷺ من أجلهما ، ويباهى الله تعالى بهما ملائكته، ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ راح يسأل عوف بن مالك عن أخبار السرية كلها ، وأقر عينه أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، فدعا له بالرحمة.

وباب الشبهة كما ذكر السهيلى فى الروض : (إنما كره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أجرة مجهولة؛ لأن العشير واحد الأعشار على غير قياس ، أو بمعنى العشر (كالثمين بمعنى الثمن) ولكنه عاملهم قبل إخراج الجزور من جلدها وقبل النظر إليها ، أو يكون كرها أجر الجزار على كل حال والله أعلم)(٢) .

لكنه الدرس الثانى الذى يتلقاه عوف رضي الله عنه بعد درس خالد الذى تلقاه فى مؤتة ، وتعلم أن يرجع ليستفتى فى دينه قبل أى عمل يقدم عليه ، وشهدناه فيما بعد من أعلم الصحابة (حدث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولانى، وجبير بن نفير ، وراشد بن سعد، ويزيد بن الأصم ، وشريح بن عبيد ، والشعبى ، وسالم بن النضر ، وسليم بن عامر ، وشداد أبو عمار)(٣) ، ونشهده سيد قومه يوم الفتح ،قال الواقدى :(كانت راية أشجع يوم الفتح مع عوف بن مالك)(٤) ، وهو ثانى أشجع إسلامًا بعد نعيم بن مسعود رضي الله عنه

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٣٣ .
(٢) الروض الأنف للسهيلى ٤ / ٢٤٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/٤٨٨ .
(٤) المغازى للواقدى ٢/٨٠٢ .

الذى فرَّق كلمة المشركين فى الخندق ، ونجده ليس فقط من أعلم الصحابة ، بل من مجاهدى الصحابة كما حدَّث ثابت بن الحجاج الكلابى ، قال : (شتونا فى حصن دون القسطنطينية ، وعلينا عوف بن مالك ، فأدركنا رمضان . . .)[1] .

ونجده أخيرًا قد بشَّره عليه الصلاة والسلام ـ بشفاعته من خلال قصة يسعدنا بروايتها قال : عرَّس[2] بنا رسول الله ﷺ ، فتوسد كل إنسان منا ذراع راحلته : فانتبهت فى بعض الليل ، فإذا أنا لا أرى رسول الله ﷺ عند راحلته ، فأفزعنى ذلك ، فانطلقت ألتمسه ، فإذا معاذ وأبو موسى يلتمسانه ، فبينما نحن على ذلك ، إذ سمعنا هزيزًا[3] بأعلى الوادى كهزيز الوحى ، قال : فأخبرناه بما كان من أمرنا ، فقال :

« أتانى الليلة آت من ربى فخيَّرنى بين الشفاعة ،وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة ، فاخترت الشفاعة » ، فقلت : أنشدك الله ، والصحبة يا نبى الله ، لما جعلتنا من أهل شفاعتك قال : « فإنكم من أهل شفاعتى »[4] .

وعودة إلى عمرو :القائد المظفر الذى فاز بأعظم (الميداليات) بعد هذه الغزوة وهى:

١ ـ اختاره رسول الله ﷺ أميرًا على الجيش .

٢ ـ أثنى على عبقريته الحربية ، وحكم على خصومه ضده .

٣ ـ فاز بما لم يفز به أحد أن يكون أميرًا على أعظم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين وعلى رأسهم : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . ومن الأنصار وعلى رأسهم : سعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وعباد بن بشر .

وشمخت نفسه به ، ورأى أنه خلال خمسة أشهر غدا فوق هؤلاء الناس جميعًا ، ولابد له أن يأخذ من حبيبه المصطفى ﷺ وثيقة بذلك ، يشهد الناس له بها أنه أفضل الجميع وأحب الجميع إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى قائده وحبيبه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكاد رأسه يطال السحاب ليتسمع ويُسمع أنه أفضل الناس وأحب الناس إلى رسول الله طالما أنه كان أميرًا عليهم جميعًا ، ويحدثنا عن هذه المقابلة التاريخية قائلاً :

(بعثنى رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل ، وفى القوم أبو بكر وعمر ، فحدّثتُ نفسى إنه لم يبعثنى على أبى بكر وعمر إلا لمنزلة عنده ، قال : فأتيته حتى قعدت بين يديه وقلت : يا رسول الله من أحب الناس إليك ، قال : « عائشة » ، قلت : إنى

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٩٠ .

(٢) عرَّس : التعريس نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة .

(٣) هزيز : صوت .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح وأخرجه أحمد ٦/ ٢٨ .

لست أسألك عن أهلك ، قال : فأبوها ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر ، قلت : ثم من؟ حتى عدَّ رهطًا ، قلت فى نفسى لا أعود أسأل عن هذا ، وفى رواية الشيخين : فسكت مخافة أن يجعلنى فى آخرهم)(١) .

لقد دخل عمرو رضي الله عنه فى نفسية وخرج فى أخرى ، وتلقى أبلغ درس فى حياته حتى الآن، ورأى أن هذه المناصب والميداليات التى نالها لا يمكن أن تجعله فوق هام هؤلاء الرجال جميعًا ، وأن كل واحد من هؤلاء يعدل الأمة كلها ، وعرف أن العبقرية الحربية لا تكفى لتكون الميزان الوحيد فى الفضل والميزان الوحيد فى الحب ، وانتظر أن يكون له دور بين الرجال الأوائل الذين أحبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرأى أن المسافة شاسعة من الرجال حتى يصل العد إليه ، وصمت حتى لا يكون آخر القوم ، إنه حديث عهد بالإسلام ، وأكرمه النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الإمرة ، تأليفًا لقلبه ، وفسحًا للمجال أمامه كى يفتح صفحة إسلامية هامة فى حياته ، ودفعًا له ليأخذ موقعه فى الحرب ضد الكفار ، وأرسل معه أحب أصحابه إليه مبالغة فى إكرامه ، لكن هذا لا يعنى أن ميزان الرجال قد اختل ، وأنه أصبح الأول على الجميع ، وأدرك أن التفاضل فى الإسلام غيره فى الجاهلية،ففى الجاهلية لا يزيد التفاضل عن البطولة أو البلاغة فى الشعر أو الحكمة فى الرأى،أما فى الإسلام فالتفاضل فى التقوى،والتفاضل فى العمل الصالح: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، و« لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقى أو بعمل صالح » (٢) .

أعظم درس فى التربية الجماعية :

أما أعظم درس فى التربية الجماعية تلقاه الجيش المسلم كله ابتداء بقائده عمرو بن العاص هو الدرس الذى قدمه أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، يوم علم الناس الإيثار ، وعلمهم الزهد فى الدنيا ، وعلمهم الزهد فى المنصب ، وعلمهم إيثار طاعة الله ورسوله على كل شىء ، وعلمهم خطورة الاختلاف ، وعلمهم أن الأمير الواحد مهما كان مستواه خير من الخلاف على الأفضل والأكفأ ، وعلمهم اللين وخفض الجانب والحلم والأناة ، يوم تنازل عن الإمرة لعمرو بن العاص رضي الله عنه ، وما أحوج دعاة اليوم وقادته وزعماؤه أن يقفوا مليًا مع هذا الدرس العظيم ، كما تعلم الجيل كله تقديم الخبير فى الحروب ليمارس طاقاته ويبدع فى الحرب .

---

(١) صحيح البخارى ، المغازى ٤٤ ح ٤٠١٠ ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٤٣٩٦) ، والترمذى فى المناقب (٣٨٢٠ ، ٣٨٢١) ، وأحمد فى مسند الشاميين ح (١٧١٤٣) .

(٢) أحمد ٥ / ٤١١ .

أبو عبيدة وسرية سيف البحر

١ ـ عن جابر رضي الله عنه قال : (خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا ، ففنى زادنا حتى كان الرجل منا يأكل فى كل يوم تمرة ، فقال رجل : يا أبا عبد الله ، وأين كانت التمرة تقع من الرجل ؟ قال : لقد وجدنا فقدها حين فقدناها حتى أتينا البحر ، فإذا حوت قد قذفه البحر ، فأكلنا منها ثمانية عشر يومًا ما أحببنا)[1] .

٢ ـ وعن محمد بن عمر : قال : بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى سرية فيها المهاجرون والأنصار ، وهم ثلثمائة رجل إلى ساحل البحر إلى حى من جهينة ، فأصابهم جوع شديد ، فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى إذا كانوا ليقتسمون التمرة ، فقيل لجابر : فما يُغنى ثلث تمرة ؟ قال : لقد وجدوا فقدها ، قال : ولم تكن معهم حمولة[2] إنما كانوا على أقدامهم ، وأباعر يحملون عليها أزوادهم ، فأكلوا الخبط[3] وهو يومئذ ذو مشرة[4] حتى إن شدق أحدهم بمنزلة مشفر البعير العضة ، فمكثنا على ذلك حتى قال قائلهم : لو لقينا عدواً ما كان بنا حركة إليه لما بالناس من الجهد ، فقال قيس بن سعد : من يشترى منى تمراً بجزُر ، يوفينى الجُزُر هنا ، وأوفيه التمر بالمدينة فجعل عمر يقول : واعجباه لهذا الغلام ، لا مال له يُدَّانُ [5] فى مال غيره ، فوجد رجلاً من جهينة فقال قيس بن سعد : بعنى جُزُرًا وأوفيك سقة [6] من تمر بالمدينة ، قال الجُهنى : والله ما أعرفك ، ومن أنت ؟ قال : أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دليم ، قال الجهنى : ما أعرفتنى بنسبك ، أما إن بينى وبين سعد خُلة ، سيد أهل يثرب ، فابتاع منهم خمس جزر كل جزور بوسقين من تمر ، يشرط عليه البدوى تمر ذخيرة مُصلبة من تمر آل دليم ، قال يقول قيس : نعم ، فقال الجهنى ، فأشهد لى ، فأشهد له نفراً من الأنصار ، ومعهم نفر من المهاجرين ، قال قيس : أشهد من تحب ، فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : لا أشهد ، هذا يدَّانُ ولا مال له ، إنما المال لأبيه ، قال الجهنى : والله ما كان سعد ليُخنى بابنه [7] فى سقة من تمر! وأرى وجهًا حسنًا وفِعالاً شريفًا ، فكان بين عمر

---

(١) البخارى ح ٢/ ٤/ ٦٧ ب حمل الزاد على الرقاب .

(٢) الحمولة : ما يحتمل الناس من الدواب .

(٣) الخبط : ورق السلم .

(٤) المشرة : الأغصان الخضر الرطبة قبل أن تتلون بلون .

(٥) يدَّان : يستدين .

(٦) السقة : جمع وسق وهو الحمل وقدره الشرع بستين صاعًا .

(٧) ليخنى بابنه : ليخفر ذمته .

وبين قيس كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس الجزر ، فنحرها لهم فى مواطن ثلاثة ، كل يوم جزوراً ، فلما كان اليوم الرابع نهاه أميره وقال : تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

وعن محمد بن يحيى بن سهل عن أبيه عن رافع بن خديج قال : أقبل أبو عبيدة بن الجراح ، وعمر بن الخطاب ﷺ فقال : عزمت عليك ألا تنحر ، أتريد أن تُخفر ذمتك ولا مال لك ؟ فقال قيس :يا أبا عبيدة : أتُرى أبا ثابت وهو يقضى دين الناس ، ويحمل الكلّ،ويطعم فى المجاعة،لا يقضى سقة تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله،فكاد أبو عبيدة أن يلين له ويتركه حتى جعل عمر يقول : اعزم عليه ، فعزم عليه ، فأبى عليه أن ينحر ، فبقيت جزوران معه حتى وجد القوم الحوت،فقدم بهما قيس المدينة ظهرًا يتعاقبون عليها، وبلغ سعد ما كان أصاب القوم من المجاعة فقال : إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم فلما قدم قيس لقيه سعد فقال :ما صنعت فى مجاعة القوم حيث أصابهم ؟ قال : نحرت ، قال:أصبت ،انحر، قال: ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت ، ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت ، انحر ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نهيت ، قال : ومن نهاك ؟ قال : أبو عبيدة بن الجراح أميرى ، قال : ولم ؟ قال : زعم أن لا مال لى وإنما المال لأبيك ، فقلت : أبى يقضى عن الأباعد ، ويحمل الكل(١) ، ويطعم فى المجاعة ، ولا يصنع هذا بى ، قال : فلك أربعة حوائط(٢) ، قال : وكتب له بذلك كتابًا ، قال : وأتى بالكتاب إلى أبى عبيدة فشهد فيه وأتى عمر فأبى أن يشهد فيه ، وأدنى حائط منها يجذ خمسين وَسقًا ، وقدم البدوى مع قيس فأوفاه سقته وحمله وكساه ، فبلغ النبى ﷺ فعل قيس فقال : « إنه فى بيت جود » (٣) .

٣ـ قال جابر :(بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلاثمائة راكب ، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيرًا لقريش ، فأقمنا بالساحل نصف شهر ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمى جيش الخبط ،فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر ، فأكلنا منها نصف شهر ، وادهنا من وَدَكها حتى ثابت أجسامنا (٤) ، قال : فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه(٥) ، ثم نظر إلى أطول رجل فى الجيش ، وأطول جمل فحمله عليه فمر تحته ، قال : وجلس فى حجاج(٦) عينيه نفر ، قال : وأخرجنا من وقب عينه كذا وكذا قُلة وَدَك(٧) ، قال : وكان معنا جراب من تمر ، فكان أبو عبيدة يعطى كل رجل منا قبضة قبضة ، ثم أعطانا تمرة تمرة ، فلما فنى وجدنا فقده)(٨) .

---

(١) يحمل الكل : الضعيف الفقير .

(٢) الحوائط : البساتين .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٧٥ ـ ٧٧٧ .

(٤) ثابت أجسامنا : أى رجعت إلى الحالة الأولى .

(٥) نصبه : أوقفه .

(٦) حجاج : الحاء مكسورة ومفتوحة : أى داخل عينه .

(٧) ودك : دسم اللحم .

(٨) مسلم ٣/ك الصيد والذبائح ح (١٨/ ١٩٣٥) .

٤ ـ وعن سفيان قال : سمع عمرو جابرًا يقول فى جيش الخبط : إن رجلاً نحر ثلاث جزائر(١) ، ثم ثلاثًا ، ثم ثلاثًا ، ثم نهاه أبو عبيدة) (٢) ، وكان عمرو يقول : أخبرنا أبو صالح أن قيس بن سعد قال لأبيه : كنت فى الجيش فجاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت ، ثم جاعوا ، قال : انحر : قال : نهيت (٣).

٥ ـ عن جابر قال : (بعثنا رسول الله ﷺ نتلقى عيرًا لقريش(٤) ، وزودّنا جرابًا (٥) من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة ، قال : فقلت : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال : نمصُّها (٦) كما يَمُصُّ الصبى ثم نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى الليل ، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله ، قال : وانطلقنا على ساحل البحر ، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب(٧) الضخم ، فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر ، قال : قال أبو عبيدة : ميتة ، ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفى سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا ، قال : فأقمنا عليها شهرًا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا ، قال : ولقد رأيتنا نغترف من وقب(٨) عينيه بالقلال(٩) الدهن ، ونقتطع منه الفدر(١٠) كالثور ، أو كفدر(١١) الثور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً ،

---

(١) جزائر : جمع جزور وهو البعير. ذكرًا كان أم أنثى .

(٢) مسلم (١٩ / ١٩٣٥) .

(٣) البخارى ٢/٥/٢١١ باب غزوة سيف البحر .

(٤) قال ابن حجر فى فتح البارى : (قوله: (وهم يتلقون عيرًا لقريش):هو صريح ما فى الرواية الثانية فى الباب حيث قال : فيها نرصد عير قريش ، وقد ذكر ابن سعد وغيره أن النبى ﷺ بعثهم إلى حى من جهينة مما يلى ساحل البحر ، بينهم وبين المدينة خمس ليال ، وأنهم انصرفوا ولم يلقوا كيدًا ، وأن ذلك كان فى رجب سنة ثمان ، وهذا ظاهره لا يغاير ما فى الصحيح ؛ لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيرًا لقريش ويقصدون حيًا من جهينة ، ويقوى هذا الجمع ما عند مسلم من طريق عبيد الله بن مقسم عن جابر قال :(بعث رسول الله ﷺ بعثًا إلى أرض جهينة) فذكر هذه القصة ، لكن تلقى عير قريش ما يتصور أن يكون فى الوقت الذى ذكره ابن سعد فى رجب سنة ثمان ؛ لأنهم كانوا حينئذ فى الهدنة ،بل مقتضى ما فى الصحيح أن تكون هذه السرية فى سنة ست أو قبلها قبل هدنة الحديبية ، نعم يحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم بل لحفظهم من جهينة ، ولهذا لم يقع فى شىء من طرق الخبر أنهم قاتلوا أحدًا ، بل فيه أنهم قاموا نصف شهر أو أكثر فى مكان واحد) الفتح ٨/٧٨ غزوة سيف البحر .

(٥) جرابًا : بكسر الجيم وفتحها ، والكسر أفصح وهو وعاء من جلد .

(٦) نمصها : بفتح الميم وضمها ، والفتح أفصح واشهر .

(٧) الكثيب : هو الرمل المستطيل المحدودب . (٨) وقب : هو داخل عينيه ونقرتها .

(٩) بالقلال : جمع قُلة وهى الجرة الكبيرة التى يقلها الرجل بين يديه ، أى يحملها .

(١٠) الفدر : القطع .

(١١) كفَدر الثور : رويناه بوجهين مشهورين (كما فى هامش صحيح مسلم) أحدهما بقاف مفتوحة ، دال ساكنة أى مثل الثور والثانى كفدر : جمع فدرة والأول أصح .

فأقعدهم فى وقب عينيه ، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها ثم رحل[1] أعظم بعير منا ، فمر من تحتها ، وتزودنا من لحمه وشائق[2] ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شىء فتطعمونا ؟ » ، قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله)[3] .

لم نكد نغادر أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فى غزوة ذات السلاسل ، حيث تلقى الجيش الإسلامى منه ذلك الدرس العظيم فى الإيثار والزهد فى الدنيا والمنصب ولين الجانب وخفض الجناح ، والبعد عن الخلاف حتى التقيناه أميرًا على هذه السرية سرية سيف البحر على رأس ثلاثمائة من كرام المهاجرين والأنصار لا ينقصهم إلا أبو بكر الصديق من المهاجرين ، وسعد بن عبادة من الأنصار ، وحتى لا يحرم هذا الجيش الإمرة العظيمة لأبى عبيدة والتى تنازل عنها فى غزوة ذات السلاسل كانت هذه السرية .

وتكاد تكون هذه السرية سرية تدريبية تربوية بحتة ، ليس لها أهداف عسكرية واضحة ، فجهينة التى مضى إليها المسلمون لم تكن ذات شوكة لتقاتل المسلمين ، ولم يسبق أن عبأت القوى لحربهم ، وترصد عير قريش غير وارد بعد هدنة الحديبية ، ونرجح ما رجحه الحافظ العظيم ابن حجر فى أن هذا الترصد هو لحمايتها من جهينة أكثر من احتمال غزوها أو الانقضاض عليها ،فقد انعكست روح صلح الحديبية على أجواء العلاقة بين المسلمين والمشركين فى الظاهر على الأقل ، ولم يقع أى اشتباك ونقض للعهد خلال هذه المدة ، إلا المظاهرة النفسية لليهود فى خيبر وغيرها ، ولفظ رواية مسلم الثانية تؤكد هذا المعنى (نتلقى عيرًا لقريش) .

فالسرية إذن ذات هدف تربوى واضح .

١ ـ وأول أهدافها الصبر على شظف العيش وآلام الجوع ، وآلام السير ، فلم يكن زادهم إلا جرابًا من تمر ، ولم يكن لهم حمولة أو ركوبة إنما كانت الرحلة مشيًا على أقدامهم فى أتون هذا الحر الملتهب ، وكانت من الدورات العنيفة فى الصبر على الجوع حتى لتكاد تنفرد عن غيرها ، وتتميز عن أى غزوة أخرى فى ذلك فأن يصبح طعام الفرد المسلم الواحد تمرة واحدة بعد أن فنيت الأزواد ، وهم خيرة الصحابة وصفوة الأمة هو أبلغ درس للأجيال اللاحقة فى قضية التعامل مع الطعام ، لقد استغرب الجيل الجديد الذى يقص عليه جابر أنباء هذه الغزوة قائلاً :(لقد وجدنا فقدها حين فنيت).

---

(١) رحل : جعل عليه رحلاً .

(٢) وشائق : هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ولا ينضج .

(٣) مسلم ٣/ ١٥٣٥، ١٥٣٦ ح ١٧ / ١٩٣٥ .

إن الرجل اليوم يعتبر فى قمة جوعه لو أمضى يومه وليله على التمر ، ويعتبر فى قمة الزاهدين ، وقلما نجد مثيلاً لذلك إلا فى محاولة ليوم واحد ، يقتدى بها فى سير الصالحين ، والذى يأكل أشهى أنواع الأطعمة دون أن يوقد النار طهيًا لتلك الأطعمة يعتبر زاهدًا كذلك إنه قبل أن يمضى نهاره على الحواضر كما يقولون ، فما بالنا اليوم نجد الجيش الإسلامى الذى يعد ليغير وجه الأرض لا يملك الفرد فيه إلا تمرة واحدة هى طعامه فى اليوم والليلة ، ولا يستطيع الجيل الجديد جيل التابعين أن يستوعب هذه الصورة ، فيكرر أحد أفراده السؤال ثانية لجابر بن عبد الله ﷺ : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال :

كنا نمصها كما يمص الصبى الثدى،ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل ، وقد تطور الطعام فى حالة يسره وفى حالة عسره للجيش كله،فالزاد ابتداء لم يكن يعدو جرابًا من تمر (لم يجد لنا غيره) هو الذى أعطاه رسول الله ﷺ لقيادة الجيش وهى تموينانه كلها ، خلال هذه الرحلة الطويلة ، وقد صادر أبو عبيدة الأزواد جميعًا ، وجعلها تحت إشرافه ، وراح يوزعها على الجميع فالذين كانوا قد أعدوا أهبتهم لهذه الرحلة الطويلة ، وآخرون اكتفوا بالتموين العام ،استووا الآن بعد أن أصبحت حياة الجيش مهددة بالخطر ، (فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان يزود تمر ، وأصبح ﷺ يوزع هذا الزاد بالتساوى على الجيش كله (وكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً ،ثم انخفضت ميزانية التوزيع اليومى حتى غدت قبضة قبضة ،وازدادت الأزمة عنفًا ثم صار يعطينا تمرة تمرة حتى فنى ، وفى رواية أن الأزمة اشتدت أكثر (إذ كانوا ليقتسمون التمرة) . فقيل لجابر : فما يُغنى ثُلث تمرة قال : لقد وجدوا فقدها .

والذى أود أن أشير إليه أن هذه الغزوة ليست من الضرورة والخطورة بحيث لو تأخرت فات المسلمين فيها خير كبير أو وقع عليهم خطر عظيم،فقد مضوا فى رحلتهم هذه لم يلقوا عدوًا ، ولم يواجهوا كيدًا ، كما أنى لا أتصور أن الدولة الإسلامية وفيها العدد العظيم من الموسرين يعجزون عن إمداد هذا الجيش بحيث لا يملك إلا جرابًا من تمر، ويمكن أن يأخذوا معهم العديد من الجمال فينحروها فى طريقهم ، والذى أخلص إليه هو أنه ليس العجز هو الذى دعا إلى هذا النقص الكبير فى المؤونة ، إنما هى عملية مقصودة مصممة تدريبية لخيرة الأمة ؛ لتتعلم على صِعاب الحياة ومشاقها وأهوالها،ولا يستطيع أن يقوم بهذه الدورة إلا القيادات العليا فى الأمة ؛ لتبرز القدوة العالية فيها ، ويظهر البعد عن الدنيا والغنائم والزهد فيها ، فتم اختيار هذه القيادات لتنفيذ هذه المهمة الضخمة العظيمة .

٢ ـ وحين نرى أن الجيش الذى يريد أن يواجه الدنيا يتزود بهذه التمرة الواحدة ،

نرى كيف أنه كان يلجأ لأكل ورق الشجر يبلونه بالماء ، ويتناولونه يملؤون به بطونهم ، وأنى لهذا الورق أن يسد جوعتهم أو يكفى رمقهم ، وطعامه لابد أن يقرح الأشداق ، ويشقق الشفاه ، ويدمى الأفواه ، ومع ذلك فلم يكن لهم خيار منه ، فعليهم مهمة أن يتابعوها وهو أن يمضوا إلى شاطئ البحر حيث وضع رسول الله ﷺ الهدف لهم كى يصلوا إليه ، فهم لا يتناولون التمرة وينامون فى الظلال الظليلة من الأشجار ، إن عليهم أن يتابعوا مسيرتهم تحت وهج الشمس المحرقة ، وعلى أرجلهم لا على رواحلهم ، ويحملون على رقابهم أمتعتهم إلا القليل الذى أعد له بضعة أبعرة لحمله .

إنها سرية البطولة البشرية والرجولة البشرية التى احتسبت فى هذه القيادات ؛لتقرأ البرهان الناصع على الطاعة والانضباط والتحمل والصبر والمقاومة والمجاهدة .

٣ ـ ويأتى الدرس الثالث العظيم الذى يكشف المعادن الثمينة المخبوءة درس قيس بن سعد رضي الله عنه ذلك الشاب الذى يتوقد رجولة ، وجمالاً وفتوة يحس بجوع الجيش ، وهو ابن أبيه سعد بن عبادة أكبر أجواد المدينة ، والذى كانت سفرته تنتقل مع رسول الله ﷺ كل يوم عند وصوله إلى المدينة ، سعد الذى كان ينحر الإبل كل يوم ، ويدعو الناس لمأدبته ، وناره متوقدة فى الليل والنهار تهدى السائرين إلى هذا الطعام ، سعد بن عبادة بيت الجود ، والذى ربى هذا الشاب وها هو ينظر إلى الجيش كله يشرف على الموت من الجوع ، فراح يطرق مضارب البدو من جهينة يعرض عليهم صفقة خيالية أن يبيعوه الجُزُر بالتمر والتمر يوفيهم إياه فى المدينة . . ولا يرضى عمر له هذا التصرف وهو لا يملك شيئًا، غير أن قيسًا رضي الله عنه يملك العزيمة المصممة على طعام الجيش مهما كلف الثمن ولو لم يكن رأسماله إلا تمرة واحدة هى نصيبه طيلة اليوم والليلة فلا يكل ولا يمل وهو يعرض هذه الصفقة (من يشترى منى تمرًا بجزر،يوفينى الجزر هاهنا وأوفيه التمر فى المدينة) ويزداد عجب عمر من هذه الصفقة المزمعة الغريبة،واعجباه لهذا الغلام لا مال له يَدَّانُ فى مال غيره) ، وقيس ماضٍ إلى هدفه يحلم أن ينحر الجزر ويطعم جيش الله تعالى الضارب فى هذه البادية إلى أن وجد بغيته عند هذا الأعرابى الجهينى الأصيل الذى تعرَّف إلى نسبه وعرف أنه ابن سعد بن عبادة ، الذى يضرب المثل بجوده كما يروى عروة بن الزبير رضي الله عنهما .

(أدركت سعد بن عبادة وهو ينادى على أطمه : من أحب شحمًا أو لحما فليأت سعد بن عبادة ، ثم أدركت ابنه مثل ذلك يدعو به) (١) . قال الجهينى : (ما أعرفتنى بنسبك : أما إن بينى وبين سعد خلة ، سيد أهل يثرب) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٦١٣ .

وعقد قيس الصفقة ، أغرب صفقة ، اشترى خمس جزر كل جزور بوسقين من تمر، والأعرابى يشرط قائلا (تمر وخيرة مصلبة[1] من تمر آل دليم) وحاول عمر ﷺ أن يفسد الصفقة ؛ لأن قيسًا لا يملك شيئًا قائلاً للأعرابى : إنما المال لأبيه ، فقال الجهنى : (والله ما كان سعد ليخنى بابنه فى سقة من تمر ، وأرى وجهًا حسنًا وفعالاً شريفًا) . وما أن استلم قيس الجزر حتى مضى لينحر واحدًا منها ، ويدعو الجيش الإسلامى إلى وليمته من اللحم والشحم ، عوضًا عن التمرة الواحدة التى يتسابقون للوصول إليها ، وراح قيس يحمل مؤونة الجيش ، فنحر الجزور الثانى فى اليوم الثانى ، ثم نحر الجزور الثالث فى اليوم الثالث ، وتمتع المسلمون بهذه المأدبة القيسية العظيمة ، يأكلون أشهى الطعام ، فيتقوتون به ويتمتعون بريحة الشواء وطعمه ، وتدخل عمر ﷺ لإيقاف هذه المأدبة ، وإنما يطعم قيس الناس من مال أبيه ، واستطاع أن يعبئ أميره أبا عبيدة ﷺ ؛ ليحظر على قيس أن يتابع مأدبته . ونجد فى رواية البخارى ﷺ أنه كان ينحر كل يوم ثلاث جزر وهو التصور المنطقى لإطعام الجيش ، فحين نعود إلى بدر ، ونرى رسول الله ﷺ يسأل الأسير المشرك : (كم ينحرون كل يوم ؟ قال : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا ، فقال رسول الله ﷺ :« القوم بين التسعمائة والألف»)[2] ،ورواية مسلم:أن رجلاً نحر ثلاث جزائر ، ثم ثلاث جزائر ، ثم ثلاثًا ثم نهاه أبو عبيدة ، والجيش ثلاثمائة ، فيكون قوتًا كافيًا للجيش كله .

والأعجب من هذا تصور سعد بن عبادة ﷺ لابنه قيس، وذلك عندما بلغه ما نزل فى القوم من مجاعة ، فقال : إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم ، وكم كان سعد ﷺ حريصًا على ألا يخيب ظنه بابنه قيس،فما أن رآه حتى سأله لهفًا : ما صنعت فى مجاعة القوم ؟ وكأنها محاكمة ميدانية له إن أخل بواجب الجود عنده ، قال : (نحرت، قال:أصبت .انحر ،ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال :أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال: نحرت ، قال :أصبت انحر : ثم ماذا ؟ قال : نهيت . . .) ولم يكن بد لقيس من طاعة أميره ، وهو يتجرع الغصص ألا يكون قد أوفى على جزره جميعًا لتنحرن ولو كان يعرف أن المنع سيقع لأسرع فى نحر كل ما ابتاعه ليقدمه لجيش حزب الله فى هذه الصحراء المترامية ، وبمقدار ما كان سعد يثق بكرم ابنه ، ويثق بطبعه الذى طبع به على الجود بمقدار ما كان قيس واثقًا بجود أبيه ، وحبه لاستضافة هذا الجيش على حسابه ، فعندما حاكمه أميره أبو عبيدة قائلاً له : عزمت عليك ألا تنحر . أتريد أن تُخفر ذمتك ولا مال لك ؟ فقال :يا أبا عبيدة:أترى أبا ثابت وهو يقضى دين الناس ،ويحمل الكل ، ويطعم فى المجاعة لا يقضى سقة تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله ؟!

(١) مصلبة : ميبسة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٥١ .

٤ ـ ويأتى الدرس الأخير ، والضيافة الربانية لهذا الجيش ، ذى التمرة الواحدة ، والذى صبر عليها ، فلم يحتج ، ولم يتلكأ ، ولم يخالف ، وقد أوقفت فيه ضيافة قيس ابن سعد ، بأمر أمير الجيش أبى عبيدة ، فهل يعود هذا الجيش إلى تمرته ، ويفنى فى هذه الصحراء ،أبدًا . . . فقد أعدت له المأدبة الربانية على ساحل هذا البحر ، كما تواعد موسى مع صاحبه عند مجمع البحرين ، فقد كان ميعاد جيش حزب الله مع مأدبة الله تعالى التى أهداهم إياها من البحر ، على هذا الشاطئ ، ولئن كانت مأدبة عبد الله قيس استمرت ثلاثة أيام ، فقد كانت مأدبة رب الأرباب نصف شهر على بعض الروايات أو شهر على الرواية الأخرى ، لكنها أحيت الجيش كله،فاللحم والشحم متروك مثل المآدب الكبرى اليوم فى أرقى الفنادق ، يأخذ المرء حاجته،يقطع ما يريد من اللحم فيمضى به ، ويشويه ويأكله،ويأخذ الشحم ، فيدهن به جسمه المتآكل المضنى (ويختزنه لطعامه ، وقد بقى الجيش ،دون أية مهمة،إنما هى ضيافة على مأدبة الله عز وجل ، فهم وفد الله وهم حزبه وهم جيشه الذين اختبر إيمانهم ، وصبرهم على الجوع ، والعطش والمشقة ، واختبر طاعتهم وولاءهم لأميرهم وانضباطهم مع قائدهم ، ولم تسجل مخالفة واحدة لواحد منهم ، وقبلوا التمرة وثلث التمرة ، وقبلوا أن يأكلوا ورق الخبط يتقوتون به ، وقبلوا أن يعيشوا فى وهج الشمس ولهيبها المحرق فى الصحراء ، وقبلوا أن ينفذوا كل الأوامر الصادرة لهم من قيادتهم ، فيتنازلوا عن أزوادهم الخاصة لإمرة الجيش تعيد توزيعها عليهم بالتساوى ، وقبلوا ضيافة أخيهم قيس بن عبادة ثلاثة أيام متوالية ، وقبلوا منع قائد الجيش هذه الضيافة بعد ثلاثة أيام دون أن يعترضوا أو ينتقدوا أو يتبرموا بهذا المنع المفاجئ ، والجزُرُ بين أيديهم معدة للنحر ، قبلوا هذا كله ، فأكرمهم الله تعالى بهذه الوليمة التى أعدَّها لهم ، والتى رأينا وصفها فى وسائل الإعلام الصادرة عن هذا الجيش المؤمن .

ـ فأقمنا عليه شهرًا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا .

ـ ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقِلال ، الدهن ، ونقتطع منه الفِدر كالثور أو كقدر الثور .

ـ وتزودنا من لحمه وشائق .

ـ فألقى لنا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منها نصف شهر ، وادهنا من ودكها حتى ثابت أجسامنا .

ـ وأخرجنا من وقب عينيه كذا وكذا قلة ودك .

ـ (فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر ، فأصبنا من لحمها وودكها

وأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سمنا وابتللنا)[1] .

ـ وكى يعرف هذا الجيش الذى هو وفد الله اليوم وفى ضيافته لم ينس أن يصف لنا هذه الدابة لعظمها وذلك حتى تكفى الجيش كله طيلة مدة الإقامة التى كانت مفتوحة لشهر كامل .

ـ وأخذ أميرنا ضلعًا من أضلاعها فوضعها على طريقه ، ثم أمر بأجسم بعير منا فحمل عليه أجسم رجل منا قال فجلس عليه ، فخرج من تحتها وما مست رأسه .

ـ فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينيه .

وأدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أن هذه المائدة مرسلة لهم من الله (فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فإذا دابة تدعى العنبر، قال : أبو عبيدة : ميتة . (ثم جاءته البرقية الربانية الثانية) ثم قال : لا : بل نحن رسل رسول الله ﷺ [2] وفى سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا) .

وشاء الله تعالى أن يشارك رسوله الحبيب فى هذه المأدبة الربانية وهو فى المدينة ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: (هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شىء فتطعمونا ؟) وهو تأكيد على أنهم بعد كل صبرهم ومعاناتهم أهل لهذه المأدبة والضيافة الشهرية ، (فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله).

(١) هذه رواية السيرة لابن هشام ، وما سبق روايات الصحيحين .
(٢) وهذا يؤكد أن الجيش فى مهمة تدريبية أو استطلاعية وليس فى مهمة قتالية .

شعبان : غزوة ابن أبى حدرد ومناوشات مع هوازن

قال ابن إسحاق : وغزوة ابن أبى حدرد الغابة :

وكان من حديثها فيما بلغنى عمَّن لا أتهم ، عن ابن أبى حدرد قال :

تزوجت امرأة من قومى ، وأصدقتها مائتى درهم ، قال : فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحى ، فقال : وكم أصدقت ؟ فقلت: مائتى درهم يا رسول الله . قال: « سبحان الله ، لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واد ما زدتم ، والله ما عندى ما أعينك به » ، قال : فلبثت أيامًا ، وأقبل رجل من بنى جشم ، حتى نزل بقومه وبمن معه بالغابة يريد أن يجمع قيسًا على حرب رسول الله ﷺ ، وكان ذا اسم فى جُشم وشرف، قال : فدعانى رسول الله ﷺ ورجلين معى من المسلمين ، فقال : « اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم » ، قال : وقدَّم لنا شارفًا [١] عجفاء[٢] فحُمِل عليها أحدنا ، فوالله ما قامت به ضعفا حتى دعمها الرجال[٣] من خلفها بأيديهم حتى استقلت[٤] وما كادت ثم قال : « تبلغوا عليها واعتقبوها[٥] » قال : فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريبًا من الحاضر عشيشية [٦] مع غروب الشمس قال : كمنت فى ناحية ، وأمرت صاحبىَّ ، فكمنا فى ناحية أخرى من حاضر القوم ، وقلت لهما : إذا سمعتمانى قد كبَّرت وشددت فى ناحية العسكر ، فكبرا وشدا معى ، قال : فوالله إنا لكذلك ننتظر غرة القوم أو أن نصيب منهم شيئًا ، وقد غشينا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء[٧] ، وقد كان لهم راع قد سرح فى ذلك البلد ، فأبطأ عليهم حتى تخوفوا عليه ، قال : فقام صاحبهم ذلك رفاعة بن قيس ، فأخذ سيفه ، فجعله فى عنقه ، ثم قال : والله لأتبعن أثر راعينا هذا ، ولقد أصابه شر ، فقال له نفر ممن معه : والله لا تذهب نحن نكفيك ، قال : والله لا يذهب إلا أنا ، قالوا : فنحن معك . قال : والله لا يتبعنى أحد منكم ، قال : وخرج حتى يمر بى ، فلما أمكننى نفحته بسهمى[٨] ، فوضعته فى فؤاده ، قال : فوالله ما تكلم ، ووثبت إليه ، فاحتززت رأسه ، وشددت فى ناحية العسكر ، وكبَّرت ، وشدَّ صاحباى ، وكبَّرا . قال : فوالله

---

(١) الشارف : الناقة .

(٢) العجفاء : الهزيلة .

(٣) دعمها الرجال : قووها بأيديهم .

(٤) استقلت : نهضت .

(٥) اعتقبوها : اركبوها معاقبة أى واحدًا بعد الآخر .

(٦) عشيشية : تصغير عَشية .

(٧) فحمة العشاء : أول ظلام الليل .

(٨) نفحته بسهمى : رميته به .

ما كان إلا النجاء ممن فيه ، عندك ، عندك[1] ، بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم ، وما خف معهم من أموالهم . قال : واستقنا إبلاً عظيمة ، وغنمًا كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ ، قال : وجئته برأسه أحمله معي قال : فأعانني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيرًا في صداقي فجمعتُ إليَّ أهلي)[2] .

تطالعنا هذه الرواية وفيها اختلاف عن الروايات الأخرى الأكثر صحة منها ، ونكاد نجزم أنهما حادثتان منفصلتان لولا تشابه المقدمة والعمل على كسب المهر من ابن أبي حدرد رضي الله عنه ومع ذلك فما يعنينا منها وهو خاص بها نذكره فيما يلي :

١ ـ بنو جشم وهم فرع ضخم من هوازن ، لا بدع أن يهتموا بالخطر الزاحف عليهم من الإسلام ورسول الإسلام ، وقد وقعت كثير من المصادمات بينهم وبين المؤمنين في أكثر من موقع ، وهم المرشحون بعد غطفان للمواجهة ، وشيخ بني جشم هو دريد بن الصمة فارس العرب المشهور ، لكنه أصبح هرمًا عاجزًا عن أي قيادة فجاء هذا الشاب من قبيلته يجيش الجيوش لغزو المدينة ليس من جشم فقط ، ولا من هوازن فقط ولكن من قيس كلها ، إنه يريد أن يفتح جبهة عريضة تجر أكبر أحياء العرب لغزو المدينة ، ولذلك فالقضاء عليه قضاء على هذا الاتجاه كله .

٢ ـ ويمضي ابن أبي حدرد أميرًا على سرية ، قوامها ثلاثة أشخاص ليخوض في جيش عدو لجب ، ويحاول اغتيال قائده ، ومضى مع رفاقه الثلاثة على بعير أعجف شارف هزيل لا يكاد يقوى على الحركة وهذا هو السلاح والعتاد والآليات والتموين الذي أخذوه ليمضوا به إلى الغابة حيث تجمع العدو وكتائبه ، ولكن الهدف الواضح في ذهنه حدا به إلى الاختباء في موقع يرى فيه العدو ولا يراه وكمن في ناحية تطل على تحركات هذا العدو موضحًا خطته ، لصاحبيه أن يكبرا حيث يكبر ويشدان حين يشد ، وجلس ينتظر المفاجآت والفرص السانحة التي تمكنه من هدفه .

٣ ـ وساق الله الهدف إليه كأنما يسعى إليه سعيا ، فقد خرج قائد العدو متحديًا يبحث عن الراعي المتخلف ، مضى وحده غير هياب ولاوجل حتى إذا ما حاذاه أشرع سهمه في فؤاده وتجلد البطل لكن دون جدوى فالسهم أصاب مقتلا عنده ، فأجهز عليه ابن أبي حدرد ، ثم كبَّر وكبَّر أخواه وفاجؤوا الجيش بهجومهم الصاعق ، حيث ابذعر الجيش لمقتل قائده ، واستاق الفدائيون الثلاثة الإبل والغنم فيما قدروا عليه ، وآبوا ظافرين بالغنيمة وقتل قائد جيش العدو حيث احتز ابن أبي حدرد رأسه وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

(١) عندك ، عندك : كلمتان بمعنى الإغراء .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٠٤٦ .

٤ ـ ويرى فى هذه المسؤولية التى ألقاها ﷺ على هذا الفتى عظمة الاختيار وفقه الرجال ، وسبر معدنهم من خلال النظرة الأولى ، فهى الفراسة التى أعطاها الله تعالى لنبيه بحيث يدرك أبعاد وأعماق الرجال ونفاسة معادنهم،فيضعهم على محك التجربة ؛ ليخوضوا غمرات الحرب ويقدموا ثمنًا غاليًا لكل ما تصبو نفوسهم إليه وماذا يذكر التاريخ عن البطل العظيم ابن أبى حدرد لو أن رسول الله ﷺ أعطاه مائتى درهم وصرفه ، إنه المجد فى الدنيا والآخرة لا طريق له إلا من أبواب الجهاد .

شعبان : سرية أبى قتادة وآخر مناوشات غطفان

عن ابن أبى حدرد السلمى أنه ذكر (أنه تزوج امرأة فأتى رسول الله ﷺ يستعينه فى صداقها فقال : « كم أصدقت ؟» قال: قلت: مائتى درهم. قال: « لو كنتم تغترفون الدراهم من واديكم هذا ما زدتم ، ما عندى ما أعطيك » ،قال : فمكثت ، ثم دعانى رسول الله ﷺ فبعثنى فى سرية بعثها نحو نجد فقال : اخرج فى هذه السرية لعلك أن تصيب شيئًا فأنفلكه ، قال : فخرجنا حتى جئنا الحاضر ممسين ، قال : فلما ذهبت فحمة العشاء بَعَثَنَا أميرنا رجلين رجلين ، قال : فأحطنا بالمعسكر ، وقال : إذا كبرت وحملت فكبروا واحملوا ، وقال حين بعثنا رجلين : لا تفترقا ، ولا أسألن واحدًا منكما عن خبر صاحبه فلا أجد عنده ولا تمعنوا فى الطلب ،قال : فلما أردنا أن نحمل سمعت رجلاً من الحاضر صرخ: يا خضرة. فتفاءلت بأنا سنصيب منهم خضرة ،قال: فلما أعتمنا كبَّر أميرنا وحمل ، وكبَّرنا وحملنا ، فمر بى رجل فى يده السيف فاتبعته فقال لى صاحبى : إن أميرنا قد عهد إلينا ألا نمعن فى الطلب ، فارجع ، فلما رأيت إلا أن أتبعه قال : والله لترجعن أو لأرجعن إليه أخبرنه أنك أبيت ، قال : فقلت : والله لأتبعنَّه حتى إذا دنوت منه رميته بسهم على جريداء متنه فوقع،فقال :ادن يا مسلم إلى الجنة ، فلما رآنى لا أدنو إليه رميته بسهم آخر فأثخنته رمانى بالسيف فأخطأنى ، وأخذت السيف فقتلته ، واحتززت به رأسه ، وشددنا فأخذنا نعمًا كثيرة وغنمًا قال : ثم انصرفنا قال : فأصبحت فإذا بعيرى مقطور[1] به بعير عليه امرأة جميلة شابة،قال: فجعلت تلتفتُ خلفها فتكبر ، فقلت لها : أين تلتفتين قالت : إلى رجل والله إن كان حيًا خالطكم ، قال : قلت : وظننت أنه صاحبى الذى قتلت : قد والله قتلتُه وهذا سيفه وهو معلق بقتب البعير الذى أنا عليه ، قال :وغمد السيف ليس فى شىء معلق بقتب بعيرها ، فلما قلت ذلك لها قالت :فدونك هذا الغمد فَشُمْهُ[2] إن كنت صادقًا قال : فأخذته فَشُمْتُه فطبقه[3] . قال : فلما رأت ذلك

---

(١) مقطور : مرتبط . (٢) شُمْه : اخرجه .

(٣) فطبق : تطابق السيف مع الغمد .

بكت، قال : فقدمنا على رسول الله ﷺ : فأعطانى من ذلك النعم الذى قدمنا به) [1].

وفى رواية محمد بن عمر الواقدى :

قال عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى[2] :

(تزوجت ابنة سراقة بن حارثة النجارى ، وكان قتل ببدر فلم أصب شيئًا من الدنيا كان أحب إلىَّ من مكانها ، فأصدقتها مائتى درهم . . . فقلت : يا رسول الله، أعنى فى صداقها ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وافقت شيئًا عندنا أعينك به ، ولكنى قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلاً فى سرية فهل لك أن تخرج فيها ؟ فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك » ، فقلت : نعم ، فخرجنا فكنا ستة عشر رجلاً بأبى قتادة وهو أميرنا ،وبعثنا إلى غطفان نحو نجد ، فقال: سيروا الليل واكمنوا النهار ، وشنوا الغارة ، ولا تقتلوا النساء والصبيان ، فخرجنا حتى جئنا ناحية غطفان ، فهجمنا على حاضر منهم عظيم ، قال : وخطبنا أبو قتادة وأوصانا بتقوى الله عز وجل ، وألف بين كل رجلين وقال : لا يفارق كل رجل زميله حتى يقتل أو يرجع إلى فيخبرنى خبره ، ولا يأتنى رجل فأسأل عن صاحبه فيقول : لا علم لى به ، وإذا كبرت فكبروا ، وإذا حملت فاحملوا ، ولا تمعنوا فى الطلب ، فأحطنا الحاضر ، فسمعت رجلاً يصرخ : يا خضرة ، فتفاءلت وقلت : لأصيبن خيرًا ولأجمعن إلى امرأتى ، وقد أتيناهم ليلاً ، قال : فجرَّد أبو قتادة سيفه وجردنا سيوفنا ، وكبَّر ، وكبرنا معه ،فشددنا على الحاضر فقاتل رجال،وإذا برجل طويل قد جرَّد سيفه صلتًا ، وهو يمشى القهقرى ويقول : يا مسلم هلمَّ إلى الجنة ، فاتبعته ثم قال : إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر ، وهو يقول : الجنة !! الجنة ! يتهكم بنا ، فعرفت أنه مستقتل فخرجت فى أثره ، فينادينى صاحبى : لا تبعد ، فقد نهانا أميرنا أن نمعن فى الطلب ، فأدركته فرميته على جريداء متنه . . . فلما رجعت من غزوة خضرة وقد أصبنا فيئًا ، سهم كل رجل اثنا عشر بعيرًا ، دخلت بزوجتى فرزقنى الله خيرًا) [3] .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى حدرد عن أبيه قال : أصبنا فى وجهنا أربع نسوة ، فيهن فتاة كأنها ظبى من الحداثة والحلاوة شىء عجب ، وأطفال من غلمان وجوار ، فاقتسموا السبى ، وصارت تلك الجارية الوضيئة لأبى قتادة ، فجاء محمية بن

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ١١ ، ١٢ .

(٢) فى مسند الإمام أحمد (السلمى) ، وعند الواقدى : الأسلمى ،والأصح الأسلمى كما فى كتب التراجم .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٧٧ ـ ٧٧٩ .

جزء الزبيدى ، فقال : يا رسول الله ، إن أبا قتادة قد أصاب فى وجهه هذا جارية وضيئة ، وقد كنت وعدتنى جارية من أول فىء يُفىء الله عليك ، قال : فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى قتادة فقال : « ما جارية صارت فى سهمك ؟ » قال: جارية من السبى هى أوضأ ذلك السبى أخذتها لنفسى بعد أن أخرجنا الخمس من المغنم، قال: « هبها لى »، فقال : نعم ، يا رسول الله ، فأخذها رسول الله ﷺ فدفعها إلى محمية بن جزء الزبيدى) (١) .

* * *

١ ـ لابد أولاً أن نتعرف على ابن أبى حدرد ، فهو كما ذكره ابن حجر فى الإصابة:

(عبد الله بن أبى حدرد بن .. أسلم بن أفصى الأسلمى أبو محمد له ولأبيه صحبة .. وقال ابن سعد : أول مشاهده الحديبية ، ثم خيبر .

وأما خبره فى خيبر فطريف كما رواه الإمام أحمد وسبق أن ذكرناه فيها :

(أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه رسول الله ﷺ فقال: «ادفع إليه حقه »، قال : لا أجد ، فأعادها ثلاثًا ، وكان ﷺ إذا قال ثلاثًا لم يراجع ، فخرج إلى السوق فنزع عمامته فاتزر بها ودفع إليه البرد الذى كان متزراً به فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه فمرت امرأة عجوز فسألته عن حاله فأخبرها فدفعت له برداً كان عليها) (٢) .

أما رواية الواقدى فتعطينا تفصيلاً أكثر .

(وكان لأبى الشحم اليهودى عند عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى خمسة دراهم فى شعير أخذه لأهله فلزمه ، فقال : أجلنى فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها ، وكان عبد الله ممن شهد الحديبية ، فقال : يا أبا الشحم إنا نخرج إلى ريف الحجاز فى الطعام والأموال ، فقال أبو الشحم حسداً وبغيًا : تحسبُ أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل ، قال ابن أبى حدرد : أى عدو الله تخوِّفنا بعدونا وأنت فى ذمتنا وجوارنا ؟ والله لأرفعنَّك إلى رسول الله ! فقلت : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى ما يقوله هذا اليهودى ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم ، فأسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئًا إلا أنى رأيت رسول الله ﷺ حرّك شفتيه بشىء لم أسمعه ، فقال اليهودى : يا أبا القاسم، هذا قد ظلمنى وحبسنى بحقى ، وأخذ طعامى ، قال رسول الله ﷺ : « أعطه حقه » ،

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٧٧ ـ ٧٧٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٣ .

قال عبد الله ، فخرجت فبعت أحد ثوبيّ بثلاثة دراهم ، وطلبت بقية حقه فقضيته ، ولبست ثوبي الآخر ، وكانت على عمامة فاستدفأت بها ، وأعطانى سلمة بن أسلم ثوبًا آخر ، فخرجت فى ثوبين مع المسلمين ، ونفلنى الله خيرًا ، وغنمت امرأة بينها وبين أبى الشحم قرابة فبعتها منه بمال) [1] .

وقد رواها الطبرانى بسند صحيح كما ذكر ذلك الصالحى فى سبل الهدى والرشاد[2] ولفظه:

(فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق على رأسه عصابة وهو يتزر بمئزر ،فنزع عمامته عن رأسه فاتزر بها ، ونزع البردة ، فقال : اشتر منى هذه ، فباعها منه بالدراهم ، فمرّت عجوز فقالت : مالك يا صاحب رسول الله ؟ فأخبرها ، فقالت : ها دونك البرد، فطرحته عليه ، فخرجت فى ثوبين مع المسلمين . . .)[3] .

هذا هو ابن أبى حدرد الذى شهدناه فقيرًا مملقًا ، ليس عنده قوت أهله فيستدين من اليهودى أربعة دراهم أو خمسة يشترى بها شعيرًا لأهله ، ولا يجد وفاء ذلك ، فيبيع ثوبه ليبقى عاريًا إلا عن الاتزار بعمامته ، فما باله اليوم نراه وبعد سنتين أو أقل يقدم على الزواج بمهر قدره مائتى درهم ! إنه يفعل ذلك طمعًا وإكرامًا فى ابنة الشهيد سراقة بن حارثة النجارى شهيد بدر .

ونعرّف بسراقة هذا من خلال ترجمته فى الإصابة لابن حجر :

(حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدى بن النجار الأنصارى النجارى . . . وأمه الربيع بنت النضر عمة أنس بن النضر استشهد يوم بدر ، وروى أحمد والطبرانى عن طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ، والبخارى ، والنسائى من غير وجه عن حميد عن أنس ، والترمذى من طريق سعيد عن قتادة عن أنس فاتفقوا على أنه قتل يوم بدر ، وفى رواية ثابت أنه خرج نظارًا فأصيب ، فأتت أمه النبى ﷺ فقالت : قد عرفت موضع حارثة منى . . . الحديث [4] وفيه وأنه فى الفردوس ، وهكذا ذكره ابن إسحاق وموسى ابن عقبة وأبو الأسود فيمن شهد بدرًا وقُتِل بها من المسلمين ولم تختلف أهل المغازى فى ذلك . . .) [5] .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٣٤، ٦٣٥ . وسبق أن درسناها دراسة تربوية فى موقعها فى خيبر .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ١٨١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ١٨٢ .

(٤) وتتمته (فإن كان فى الجنة صبرت وإلا رأيت ما أصنع ،قال :« يا أم حارثة ،إنها ليست بجنة واحدة ولكنها جنان كثيرة وإن حارثة لفى أفضلها »، أو قال:« فى أعلى الفردوس » ـ شك يزيد) . مسند أحمد ٣/ ١٢٤ .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/١/ ٣١١ .

فقد كان يحمل طموحات الشباب وأحلامهم الخيالية كما يذكر (ولم أصب شيئًا من الدنيا كان أحب إلى من نكاحها) ولكن أنَّى له أن يسوق لها هذا المهر ، الذى استعظمه عليه الصلاة والسلام قائلا له : « سبحان الله والله لو كنتم تغترفونه من ناحية بطحان ما زدتم » .

وجاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى مهرها ، وبدل أن يعطيه الرسول ﷺ ذلك المهر ، فيعتاد الجلوس ، والطلب والتواكل والاعتماد على الغير فى كسب رزقه ، وجَّهه إلى البطولة والجهاد ليسعى للحصول على المال من خلاله :

« ما وافقت عندنا شيئًا أعينك به ، ولكنى قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلاً فى سرية فهل لك أن تخرج فيها ؟ فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك » .

ومضى شابنا ابن أبى حدرد الأسلمى إلى الموت ، فإما أن ينال الشهادة ويختصر الطريق إلى الحور العين وإما أن يعود سالمًا غانمًا ومعه المال الوفير الذى يصل به إلى ما يصبو إليه من نكاح بنت شهيد بدر حارثة ، واستمع إلى خطبة قائده أبى قتادة : لا يفارق كل رجل زميله حتى يقتل أو يرجع إلى فيخبرنى خبره ، ولا يأتين رجل فأسأله عن صاحبه فيقول لى : لا علم لى به ، وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا ، ولا تمعنوا فى الطلب) .

ومع انتهاء الخطبة تناهى إلى سمعه صراخ رجل (يا خضرة) فخفق قلبه ، وذكر مخطوبته (فتفاءلت ، وقلت : لأصيبن خيراً ولأجمعنَّ إلى امرأتى) .

وآن أوان الحرب والمواجهة (فجرَّد أبو قتادة سيفه وكبَّر ، وجردنا سيوفنا وكبَّرنا معه فشددنا على الحاضر وقاتلنا رجالاً) .

وحانت ساعة الموت والشهادة ، أما التحدى الكبير لابن أبى حدرد :

(وإذا أنا برجل طويل يمشى القهقرى وقد جرَّد سيفه ، مرة يقبل علىَّ بوجهه ، ومرة يدبر عنى بوجهه كأنه يريد أن يستطردنى فأتبعه ، ثم قال : إن صاحبكم لذو مكيدة أمره هذا الأمر ، وهو يقول : الجنة ، الجنة ، يتهكم بنا ، فعرفت أنه مستقتل) .

أفيكون المشرك المتحدى مستقتلاً يستخف بالمسلمين : الجنة ، الجنة ، ولا يستقتل شابنا المجاهد ، إنها فرصة العمر ،ولكنه بين نارين ، نار أن لا يمعن فى الطلب فيستدرجه المشرك ويخالف أميره ، ونار الثورة لله فى قتل هذا المتحدى المتغطرس ، ونار ثالثة من الشوق والحب إلى زوجته بأن يعود إليها وقد ظفر بعدو من أعداء الله فقضى عليه فى حربه هذه .

وغلب عليه نار الثورة لله ، ولو كان بها الموت فى سبيل الله فما أحلاه .

(فخرجت فى أثره وناديت أين صاحبى ؟ فينادينى صاحبى: لا تبعد فقد نهانا أميرنا أن نمعن فى الطلب .

فأدركته فرميته على جريداء متنه[1] ، ثم قال : ادن يا مسلم إلى الجنة ، فرميته حتى قتلته بنبلى ، ثم وقع ميتًا فأخذت سيفه) ، لقد قتل بطلا من أبطال المشركين ، وها هو يتحمل مسؤولية المخالفة .

(وجعل زميلى ينادينى : أين تذهب ؟ إنى والله إن ذهبت إلى أبى قتادة فسألنى عنك أخبرته ، قال : فلقيته قبل أبى قتادة فقلت : أسأل أميرى عنى ؟ فقال : نعم وقد تغيظ علىّ وعليك ، وأخبرنى أنهم جمعوا الغنائم وقتلوا من أشرف لهم) .

ثم كانت ساعة الحساب العسيرة ، لكنه يحمل وسامًا عظيمًا خالدًا هو قتل هذا البطل المتغطرس :

(فجئت أبا قتادة فلامنى ، فقلت : قتلت رجلاً كان من أمره كذا وكذا ، فأخبرته بقوله كله) .

وغفر له أميره هذه المخالفة ، وعاد رضى النفس قرير العين بعد رضا أميره عنه .

(ثم استقنا النعم ، وحملنا النساء ، وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، فأصبحت وبعيرى مقطور بامرأة كأنها ظبى ، فجعلت تكثر الالتفات حولها وتبكى) .

ورقّ لها يسألها إلى أى شىء تنظرين ؟ قالت بخفر وخوف وثقة :

(أنظر والله إلى رجل لئن كان حيًا ليستنقذنا منكم .

فوقع فى نفسى أنه الذى قتلته ، فقلت : قد والله قتلته) ، فهو لم ير أشد بأسًا وشكيمة منه فى الجيش ،وتابع قوله : (وهذا سيفه معلق بالقتب إلى غمده)، فقالت : وقد بدأ الخوف والقلق يغزوانها فى أعماقها بعد أن نظرت إلى الغمد ، (هذا والله غمد سيفه ، فشمه إن كنت صادقًا .

قال : فشمته فطبق ، قال : فبكت ويئست) .

وعرف أنه قتل بطلاً من أبطال المشركين من الآمال التى وضعتها هذه الفتاة عليه أن يسترجعها من المسلمين ،ووصل ابن أبى حدرد مع الستة عشر الأبطال الذين غزوا غطفان فى آخر غزوة لها ، وهو سعيد برؤية حبيبه وقائده ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام ،

---

(١) جريداء متنه : أى موضع القفا المتجرد من اللحم .

حيث بعثه ليشق طريق مجده بالدم والنار، ويصل إلى آماله وطموحاته بالجهاد والشهادة.

(فقدمنا على النبى ﷺ بالنعم والشاء)، وكانت أهنى ليلة،وأحلى ليلة ينامها حيث يفيق صباح اليوم الثانى على قسمة الغنائم ، ويأخذ نصيبه منها ويمضى إلى حبيبته ، فيعطيها مهرها .

ومن خلال الدم والخوف والموت والبطولة كسب ابن أبى حدرد مهره وحدثنا عن ذلك قائلا : (لما رجعت من غزوة خضرة وقد أصبنا فيئًا ، سهم كل رجل اثنا عشر بعيراً، دخلت بزوجتى فرزقنى الله خيراً) أما التقرير العسكرى عنهم فكان كما هو فى السجلات :

غابوا خمس عشرة ليلة ، وجاؤوا بمائتى بعير وألف شاة ، وسبوا سبيًا كثيرًا ، وكان الخمس معزولاً ، وكانت سهمانهم اثنى عشر بعيراً يعدل البعير بعشر من الغنم .

وآب صاحبنا الذى باع ثيابه بأربعة دراهم ليفى دينه وقوت أهله ، قبل أقل من عامين ، ليغدوا اليوم صاحب الإبل والشاء ، وزوج بنت شهيد بدر .

٢ ـ ولم تنته قصتنا مع هذه السرية .

فقائدها أبو قتادة لأول مرة يستلم هذه القيادة ، بعد أن أثبت كفاءته القتالية العالية يوم ذى قرد ، ونعود بعرض موجز له ، لنرى الدوافع التى حدت بالمصطفى ﷺ أن يكلفه بهذه القيادة بعد أن فاز بلقب :

« خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رَجَّالتنا سلمة بن الأكوع »(١) .

أ ـ أيوب عن محمد أن النبى ﷺ أرسل إلى أبى قتادة فقيل : يترجل(٢) ، ثم أرسل إليه ، فقيل : يترجل ، ثم أرسل إليه فقيل : يترجل ، فقال : « احلقوا رأسه » فجاء فقال : يا رسول الله ، دعنى هذه المرة ، فوالله لأعتبنك(٣) ، فكان أول ما قتل رأس المشركين مسعدة) (٤) .

ب ـ الواقدى : حدثنى يحيى بن عبد الله بن أبى قتادة عن أمه ، عن أبيه قال : قال أبو قتادة : إنى لأغسل رأسى ، قد غسلت إحدى شقيه إذ سمعت فرسى جردة تصهل ، وتبحث بحافرها ، فقلت : هذه حرب قد حضرت ، فقمت ولم أغسل شق رأسى الآخر ، فركبت وعلىَّ بردة ، فإذا رسول الله ﷺ يصيح : « الفزع ! الفزع ! » .

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٨٣ ، ومسلم ٣/ ١٤٣٩ .

(٢) يترجل : يمشط شعره .

(٣) لأعتبنك : لأزيلنَّ عتبك على .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٤٥٤ .

قال: فأدرك المقداد، فسايرته ساعة، ثم تقدَّمه فرسى، وكان أجود من فرسه ، وأخبرنى المقداد بقتل مسعدة محرزًا يعنى ابن نضلة، فقلت للمقداد : إما أن أموت ، وإما أن أقتل قاتلِ محرز، فضرب فرسه ، فلحقه أبو قتادة ، فوقف له مسعدة ، فنزل أبو قتادة فقتله ، وجنَّب فرسه معه، قال: فلما مرَّ الناس تلاحقوا ، ونظروا إلى بردى ، فعرفوها ، وقالوا : أبو قتادة قُتِل ، فقال رسول الله ﷺ : « ولكنه قتيل لأبى قتادة عليه بُرْدُه ، فخلوا بينه وبين سلبه وفرسه » ، قال : فلما أدركنى قال : « اللهم بارك له فى شعره وبَشَره ، أفلح وجهك ! قتلت مسعدة » قلتُ : نعم ، قال : « فما هذا الذى بوجهك ؟ » قلت : سهم رميت به ، قال : « فادن منى » ، فبصق عليه فما ضرب على قطُّ ولا قاح .

فمات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة ، وكأنه ابن خمس عشرة سنة .

قال : وأعطانى فرس مسعدة وسلاحه) (١) .

وكما مرَّ خير الرَّجَّالة سلمة بن الأكوع بأعظم امتحان فى أن يتنازل عن جاريته الحسناء لرسول الله ﷺ (وقدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قرفة ، وبعبد الله بن مسعدة فذكر ذلك لرسول الله ﷺ وذكر له جمالها ، فقال: « يا سلمة ، هب لى المرأة لله أبوك » ، فقال : يا رسول الله ، جارية رجوت أن أفتدى بها امرأة منا فى بنى فزارة ، فأعاد رسول الله ﷺ الكلام مرتين أو ثلاثًا حتى عرف سلمة أنه يريدها فوهبها له ، فوهبها النبى ﷺ لخاله حزن بن أبى وهب بن عمرو .. بن مخزوم (٢) فولدت له عبد الرحمن بن حزن) (٣) .

ها هو خير الفرسان يتعرض لنفس الامتحان وهو القائد المظفر الذى شتت شمل جيش المشركين بستة عشر رجلاً وساق أكثر من مائتى بعير وألف شاة غنائم ، ويحدثنا ابن أبى حدرد عن هذا الامتحان لقائده ، فيقول :

(أصبنا فى وجهنا أربع نسوة فيهن فتاة كأنها ظبى ، بها من الحداثة والحلاوة شىء عجيب ، وأطفال وجوار ، فاقتسمنا السبى ، وصارت تلك الجارية الوضيئة لأبى قتادة ، فجاء محمية بن جزء الزبيدى فقال : يا رسول الله ، إن أبا قتادة قد أصاب فى وجهه هذا جارية وضيئة ، وقد كنت وعدتنى جارية من أول فىء يفىء الله به عليك ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى قتادة فقال : « هب لى الجارية » قال : نعم يا رسول الله .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ /٤٥٠، وقال المحقق: انظر الخبر فى الواقدى ، والمعجم الصغير ، والاستيعاب ، والإصابة .

(٢) سبق أن تحدثنا عن الحكمة فى ذلك فى الموقع المناسب .

(٣) وعند مسلم أن رسول الله ﷺ فدى بابنة أم قرفة أسيرًا كان فى قريش من المسلمين ، وهى فى السيرة ٢ /١٠٣٧ .

فأخذها رسول الله ﷺ ، فدفعها إلى محمية بن جزء الزبيدى) .

وإن كان سلمة قد تردد قليلا ، فما كان لأبى قتادة أن يتردد أبدًا ، ونزل عنها لقائده الحبيب عليه الصلاة والسلام ، ليهيئ له الوفاء بوعده مع محمية بن جزء بجارية من أول فيء يفيء الله تعالى به عليه ، ونجاح أبى قتادة رضي الله عنه النجاح الباهر فى قيادة هذه السرية، أهَّله لقيادة جديدة ومسؤولية أكبر .

رمضان سنة ثمان ، إلى بطن إضم فى شهر رمضان قبل فتح مكة

عن عبد الله بن أبى حدرد قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعى ، ومحلم بن جثامة بن قيس حتى إذا كنا ببطن إضم مرَّ بنا عامر الأشجعى على قعود له متيع ووطب من لبن ، فلما مرَّ بنا سلم علينا فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله بشىء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتيعه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ، وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** (٩٤) ﴾ [النساء] (١) .

تهيئة الأجواء لفتح مكة :

٢ ـ (قال محمد بن عمر : لما أراد رسول الله ﷺ التوجه إلى مكة بعث أبا قتادة الحارث بن ربعى رضي الله عنه فى ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار .

حدثنى عبد الله بن يزيد بن قسيط عن أبيه عن ابن أبى حدرد قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى بطن إضم (٢) أميرنا أبو قتادة فى تلك السرية ،وفيها محلم بن جثامة الليثى وأنا فيهم ، فبينا نحن ببعض وادى إضم إذ مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه ، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وسلبه بعيرًا له ومتاعًا ووطبًا (٣) من لبن كان معه،فلما لحقنا النبى ﷺ نزل فينا القرآن : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا**

---

(١) مسند أحمد ٦/ ١١ ، والمتَيِّع : تصغير متاع .

(٢) إضم : واد وجبل حوالى المدينة بينه وبينها ثلاث برد ، وهى فى أرض جهينة على غير طريق مكة. انظر صفة جزيرة العرب / ٣٢٢ للهمدانى .

(٣) الوطب : زق اللبن خاصة .

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ الآية، فانصرف القوم ولم يلقوا جمعًا حتى انتهوا إلى ذى خشب (١) ، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة ، فأخذوا على بين (٢) حتى لحقوا النبى ﷺ بالسقيا (٣))(٤) .

فهى سرية تمويهية ليس لها هدف عسكرى إنما مهمتها التمويه على العدو للمكان المقصود غزوه ، وخاصة بالنسبة لأهل مكة كى لا يعرفوا مسير رسول الله ﷺ إليهم.

وأما مقتل عامر بن الأضبط الأشجعى فسنعرض له فى حينه .

وحيث إنّا على أبواب فتح مكة ، فلابد من استعراض الملاحظات التالية :

أ ـ لقد شهدنا الحرب مع غطفان التى لم يهدأ أوارها حتى قبيل المسير لفتح مكة بشهر ، فقد كانت سرية أبى قتادة الأخيرة فى شعبان إلى غطفان فى أرض نجد ، حيث شهدنا عيينة بن حصن ، يقود هذه الحرب ويحركها فى كل مكان ، ونفاجأ به ينضم للجيش الإسلامى فى فتح مكة ، فمتى تم دخوله للإسلام ؟

ليس بين يدينا نص قاطع فى ذلك ، والفارق الزمنى وجيز جدًا بين قيادته السرايا ضد المسلمين ، وبين انضمامه للجيش الإسلامى ، ونقدر أن ذلك قد تم خلال الشهرين الأخيرين ، ورأينا أنه قد كاد يزمع دخول المدينة بعد شوال سنة سبع ؛ ليعلن إسلامه مع الحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان ثم صرفهما عن ذلك قرة بن هبيرة سيد بنى عامر ، وحين نستعيد حديث الحارث وعيينة بعد هروبه من جيش محمد فى شوال سنة سبع ، (يقول عيينة : هو والله ذاك ، ولكن نفسى لا تقرنى ، قال الحارث : فادخل مع محمد ، قال : أصير تابعًا ! قد سبق قوم إليه فهم يزرون (٥) بمن جاء بعدهم يقولون: شهدنا بدرًا وغيرها ، قال الحارث : وإنما هو على ما ترى ، فلو تقدمنا إليه لكنا من علية أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادعة، وهو موقع بهم موقعة ما وطئ له الأمر ، قال عيينة : أرى والله ، فاتعدا يريدان الهجرة والقدوم على النبى ﷺ إلى أن مر بهما قرة بن هبيرة القشيرى يريد العمرة وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان ، قال قرة : لو استأنيتم تنظروا) (٦) .

---

(١) ذو خشب : واد على ليلة من المدينة . (٢) بيْن : وادبه عين من أعراض المدينة .

(٣) السقيا : قرية جامعة من عمل الفرع ، والفرع من أعمال المدينة .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٧ .

(٥) يزرون: ينتقصون .

(٦) المغازى للواقدى ٢/ ٧٢٩، ٧٣٠ .

واستأنيا فى الشهرين الأخيرين من العام السابع ، ثم دخلت سنة ثمان .

ب ـ ونجد فى ترجمة عيينة عند ابن سعد رواية تشير إلى زيارة عيينة بن حصن المدينة قبل هذا التاريخ ، قال : (أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثنى إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : أجدبت بلاد آل بدر بن عمرو حتى ما أبقت من مالهم إلا الشريد ، ، وذُكِرت له سحابة وقعت بتغلمين[1] إلى بطن نخل[2] ، فسار عيينة بن حصن فى آل بدر نحواً من مائة بيت حتى أشرف على بطن نخل ، ثم هاب النبى ﷺ وأصحابه فوردِ المدينة ، فأتى النبى ﷺ فدعاه إلى الإسلام فلم يبعد ولم يدخل فيه ، قال : إنى أريد أن أدنو من جوارك فوادعنى ، فوادعه ثلاثة أشهر لا يغير أحد من المسلمين على أحد منهم ، ولا يغير أحد منهم على المسلمين ، فلما انقضت المدة انصرف عيينة وقومه إلى بلادهم قد أسمنوا وألبنوا وسمن الحافر من الصلبان[3] ، وأعجبهم مرآة البلد ، فأغار عيينة بذلك الحافر على لقاح النبى ﷺ التى كانت بالغابة ، فقال له الحارث بن عوف : ما جزيت محمداً أسمنت فى بلاده ، ثم غزوته ، قال : هو ما ترى)[4] .

وغزوة الغابة أو ذى قرد كانت فى آخر السنة السادسة وأوائل السابعة بين الحديبية وخيبر كما فى صحيح مسلم .

جـ ـ أما الزيارة الثانية المحتملة فقد تكون فى السنة الثامنة ، وكان مع الأقرع بن حابس التميمى ، فقد أخرج ابن أبى حاتم عن خباب رضي الله عنه قال :

جاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً فى ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبى ﷺ حقروهم فى نفر من أصحابه ، فأتوه فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك كتابًا ، قال : فدعا بصحيفة ودعا عليًا ليكتب ، ونحن قعود فى ناحية ، فنزل جبريل فقال: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم** ... ﴾ الآية [الأنعام : ٥٢] ، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناه)[5] .

(١ ، ٢) تغلمين : اسم موضع قرب بطن نخل ، وبطن نخل : قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة .

(٣) الصلبان : نبات له سنمة عظيمة تحبه الإبل .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٥٥١، ٥٥٢. تحقيق السلمى .

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦، ٢٧ وقال عنه ابن كثير: ورواه ابن جرير من حديث أسباط به ، وهذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية ، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر .

وإن كانت هذه الحادثة تتعارض فى مجال أسباب النزول من حيث الزمن ، فالآية مكية ، وهذان إنما قدما المدينة فى تقديرنا فى السنة الثامنة ، لكن لا يبعد أبدًا أن يكونا جاءا على أمل أن يأخذا موقعًا خاصًا لهما ، ويشترطا لإسلامهما ذلك الموقع ، فرد عليهما رسول الله ﷺ بهذه الآية ، وخرجا غاضبين ، فالقضية كلها عند هؤلاء الزعماء هى قضية السيادة والحكم ، والمصلحة ، وقد رأينا من نقاش الحارث بن عوف ، وعيينة ابن حصن السابق ما يجلى هذا المعنى ، وقضية السيادة قضية حياة أو موت ، فبعد أن يكون السيد الأول فى قومه ينتقل ليكون تابعًا لمحمد بن عبد الله ﷺ ، فالموت أهون عليه من ذلك ما لم ير أن هذا هو الخيار الوحيد لديه ، فالعز الذى وصل إليه فى الجاهلية ، تقطع الرقاب دونه (فقد كان من الجرارين يقود عشرة آلاف ، ولم يكن الرجل يسمى جراراً حتى يرأس ألفًا ، وقد قاد غطفان إلى بنى تغلب)(١) .

د ـ ولاشك أن عيينة عاد فدرس الأمر ، ورأى أمر محمد يعلو علواً منكراً ، فقد بقى وحده فى الساحة يحاربه ، ومن حوله إما مهادن أو متابع ، فرأى أن الإسلام هو الطريق الوحيد للمحافظة على ما تبقى من أمجاد .

فقد روى ابـن سعـد قـال : (أخبرنا على بن محمد القرشى عن على بن سليم عن الزبير بن خبيب قال : أقبل عيينة بن حصن إلى المدينة قبل إسلامه، فتلقاه ركب خارجين من المدينة ، فقال : أخبرونى عن هذا الرجل ؟ قالوا : الناس فيه ثلاثة : رجل أسلم فهو معه يقاتل قريشًا والعرب ، ورجل لم يسلم فهو يقاتله فبينهم التذابح ، ورجل يظهر له الإسلام ، ويظهر لقريش أنه معهم ، قال : ما يسمى هؤلاء القوم ؟ قالوا : يسمون المنافقين ، قال : ما فى من وصفتم أحزم من هؤلاء ، اشهدوا أنى منهم)(٢) .

وبذلك تابع خطاه ودخل المدينة (ثم أسلم قبل فتح مكة بيسير)(٣) ،فذكر بعضهم: (أنه ورسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح ، وهو بين عيينة والأقرع)(٤) .

٣ ـ حدث هام لم نشر له وقد هز أرجاء مكة ، وأفقدها كثيراً من قوتها فى حربها ضد رسول الله ﷺ هو حدث إسلام أبى العاص بن الربيع ، وذلك فى العام السابع للهجرة ، وذلك كما رواه موسى بن عقبة فى مغازيه التى أوردها البيهقى فى دلائله :

(فأقاموا مع أبى جندل وأبى بصير لا يمر بهم عير قريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها

---

(١) المحبر ص ٢٤٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٥٥٣، وقال المحقق فيه : إسناده حسن إلى الزبير بن خبيب .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٥٥٦ .

(٤) ذكر فى المصادر ذلك ، مثل السيرة لابن هشام وابن شبة والطبرى وابن حجر فى الإصابة والتهذيب .

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألون ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير وأبى جندل بن سهيل ومن معه فقدموا عليه ، وقالوا : من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراره . . .

ولم يزل أبو جندل وأبو بصير وأصحابهما الذين اجتمعوا إليهما هنالك،حتى مر بهم أبو العاص بن الربيع - وكان تحته زينب بنت رسول الله ﷺ - من الشام فى نفر من قريش ، فأخذوهم وما معهم وأسروهم ولم يقتلوا منهم أحدًا لصهر أبى العاص رسول الله ﷺ ، وأبو العاص يومئذ مشرك ، وهو ابن أخت خديجة ﵂ لأمها وأبيها ، وخلوا سبيل أبى العاص ، فقدم المدينة على امرأته ، وهى بالمدينة عند أبيها كان أذن لها أبو العاص حين خرج إلى الشام[1] أن تقدم المدينة فتكون مع رسول الله ﷺ ، فكلمها أبو العاص فى أصحابه الذين أسر أبو جندل وأبو بصير وما أخذوا لهم ، فكلمت رسول الله ﷺ فى ذلك فزعموا أن رسول الله ﷺ قام فخطب الناس فقا : « إنا صاهرنا ناسًا ، وصاهرنا أبا العاص ، فنعم الصهر وجدناه ، وأنه أقبل من الشام فى أصحاب له من قريش ، فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، فأسروهم ، وأخذوا ما كان معهم ، ولم يقتلوا منهم أحدًا ، وإن زينب بنت رسول الله ﷺ سألتنى أن أجيرهم ، فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟» فقال الناس : نعم ، فلما بلغ أبا جندل وأصحابه قول رسول الله ﷺ فى أبى العاص وأصحابه الذين كانوا عنده من الأسرى ردَّ إليهم كل شىء أخذ منهم حتى العقال)[2] .

ورواية ابن إسحاق كما يلى :

(وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة حين فرق بينهما الإسلام حتى إذا كانت قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام وكان رجلاً مأمونًا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها [3] معه ، فلما فرغ من تجارته ، وأقبل قافلاً لقيتْه سرية لرسول الله ﷺ ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هاربًا ، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته ، وجاء فى طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح كما حدثنى يزيد بن رومان فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صُفَّة النساء :أيها الناس

---

(١) الصحيح أن زينب خرجت إلى رسول الله ﷺ بعد بدر ، وحادثة هبار بن الأسود والحويرث بن منقذ اللذين أهدر رسول الله ﷺ دمهما لطعنهما ناقة زينب وهى خارجة معروفة .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ١٧٤ . أما رواية الواقدى فتشير إلى أن زيد بن حارثة ﵁ هو الذى أسر أبا العاص ابن الربيع فى سرية بعثه رسول الله ﷺ فيها إلى العيص فى جمادى الأولى سنة ست .

(٣) أبضعوها : بعثوها معه بضاعة .

إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، قال : فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم، قال : « أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم »، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، فدخل على ابنته فقال : « أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له » (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر :

أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له، فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى يفاء عليكم فأنتم أحق به ، فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه ، فردوه عليه ، حتى إن الرجل ليأتى بالدلو ، ويأتى الرجل بالشنة (٢) وبالإداوة (٣) حتى إن أحدهم ليأتى بالشظاظ (٤) حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئًا ، ثم احتمل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ومن كان أبضع معه ، ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا، فجزاك الله خيراً ! فقد وجدناك وفيًا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ ، قال ابن إسحاق : وحدثنى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : ردَّ رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يحدث شيئًا بعد ست سنين) (٥) .

وأهمية إسلام أبى العاص بن الربيع رضي الله عنه تبدو فى الإعلان الرسمى والتحدى بالإسلام فى مكة فما سبق أن أعلن أحد إسلامه فى بطحاء مكة مثله بعد إعلان إسلام عمر رضي الله عنه ، أو إسلام أبى ذر الغفارى ، وهو قد أسقط الأمر فى أيديهم بعد أن أعاد إليهم أموالهم التى لهم بحيث لا يعتبرون إسلامه لو تم فى المدينة طمعًا فى أموالهم ، إنما هو عن رغبة جامحة وقناعة فى هذا الدين ، وليس عن رغبة فى زوجة فقد أقام عندهم ست سنين بدون زينب ، إنما كان عن عقيدة راسخة .

---

(١) وهذا يؤكد أن السرية بعد الحديبية ؛ لأن تحريم نكاح الكفار إنما كان بعد الحديبية .

(٢) الشنة : السقاء البالى .

(٣) الإداوة : المطهرة التى يُتوضأ بها .

(٤) الشظاظ : عود مثقب يشد به فم الغرارة ، والغرارة : وعاء من الخيش توضع به الحبوب .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٩ .

ولا شك أن زلزال أبى بصير وأبى جندل قد هدَّ ركن أبى سفيان وصحبه ، حيث اضطروا هم إلى التراجع عن شرطهم ، أن من جاء محمداً مسلمًا فعلى محمد أن يرده إليهم ، وأضعف هيبة مكة فى فرض أوامرها على أبنائها حيث لم يعودوا يخشون إعادتهم إليها لو أسلموا .

والأثر الآخر لإسلامه ﷺ هو ما رافق إسلامه من إعادة الأموال التى افتقدت كلها إلى أصحابها ، تكريمًا له بصفته صهرًا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ومدى استعداد المسلمين للتنازل عن فيئهم الذى أفاءه الله تعالى عليهم استجابة لرغبة رسول الله ﷺ بذلك دون قيد أو إكراه أو استغلال .

ومما أدهش مكة كذلك بهذا الإسلام،هو هذا الاحترام العظيم المتبادل بينهم ، فيكفى أن تجير بنت محمد ﷺ رجلاً حتى يقبل جوارها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وقد حزَّ هذا فى نفس أبى سفيان حتى ليقول لفاطمة فيما بعد حين اعتذرت عن إجارته :

قال : أجيرى بين الناس ، قالت : إنما أنا امرأة ، قال : إن جوارك جائز ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز ذلك محمد ، بل تجرأ حتى أن يطلب جوار ابنها الحسن ﷺ ابن الأربع سنين لقناعته بقيمة كل فرد فى هذا المجتمع حتى ولو كان صبيًا ، بينما الأمر فى مكة هو للملأ فقط والسادة فقط ، ولا يملك كل فرد فى مكة مثل هذه الميزة أن يجير لمحمد مسلمًا إلا إذا كان ذا شأن وذا سطوة إنها فى أعماق عامة أهل مكة ثورة لاحترام الإنسان وتقديره .

لقد جاءت هذه الأمور متتالية ، فهدت كيان قريش ؛ صلح الحديبية ، ثم التنازل عن أحد شروطه بوساطة من أبى سفيان نفسه ، ثم التحدى الإسلامى المعلن فى أرجاء مكة بدخول أبى العاص الإسلام ، ثم قطع التعبئة الإعلامية ضد محمد وصحبه بأن أعاد الأموال إلى أصحابها فى قلب مكة وأعلن إسلامه ، ولم يعلنه فى المدينة ويسطو على المال ، جاءت هذه الأمور جميعًا لتجعل أجواء مكة تتقبل الإسلام شيئًا فشيئًا . وتضعف هيبة الملأ والسادة لدى جماهير مكة وعامتها .

٤ ـ وتشير بعض الروايات إلى تهيئة أجواء مكة لقبول الإسلام من خلال تعامله ﷺ مع أهل مكة بعد الهدنة ، فبعد أن رفض أهل مكة بوقاحة ، بعد عمرة القضية ضيافة رسول الله ﷺ لهم ، أن يتزوج ميمونة بين ظهرانيهم ، ويدعوهم إلى وليمة عرسها ، ها هو عليه الصلاة والسلام يتجاوز بعظمته هذه الوقاحة والجلافة ،ويحاول أن يسبغ جوا من الود فى مكة ، يساعد على قبول الإسلام ودعوة الإسلام فى صفوفها .

هذه الرواية هى بعث رسول الله ﷺ بهدية إلى أبى سفيان زعيم مكة وهو على شركه :

أ ـ (وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليه قبل أن يسلم بمال يقسمه فى قريش لما بلغ رسول الله ﷺ حاجتهم)(١) .

ب ـ عن عكرمة (أن النبى ﷺ بعث إلى أبى سفيان بن حرب ، وأناس من قريش من المشركين بشيء فقبل بعضهم ورد بعض ، فقال أبو سفيان : أنا أقبل ممن رد ، قال : ثم بعث أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ بسلاح وأشياء فقبل منه)(٢) .

جـ ـ عن عكرمة مولى ابن عباس أن النبى ﷺ أهدى إلى أبى سفيان بن حرب تمر عجوة وكتب إليه يستهديه أدمًا ـ قال : وهب بن جرير فى حديثه عن أبيه ـ مع عمرو بن أمية الضمرى ، قال : فقدم عمرو بن أمية ، فنزل على إحدى امرأتى أبى سفيان ، فلما أصبحت قريش عدوا عليه فأخذوه ، فقال : يا فلانة ، آأخذ من بيتك ودارك ؟ أما والله لو كنت نزلت عند فلانة لمنعتنى ؟! فأحفظتها ، فقامت دونه وقالت لأبى سفيان : لتمنعن ضيفى ، فمنعه وقبل أبو سفيان هدية رسول الله ﷺ)(٣) .

وتؤكد هذه النصوص أن رسول الله ﷺ يحرص على تهيئة أجواء مكة لاستلال الحقد من نفوس قادتها كى تفتح صدرها للإسلام ، وتفتح صفحة جديدة من التعامل مع هذا الدين .

٤ ـ وأسر ثمامة بن أثال سيد بنى حنيفة والذى قطع الميرة والحنطة عن مكة بعد أن أسلم وقد سبق أن تحدثنا عنه فى أحداث السنة السادسة ، لكن من المرجح أن يكون أسره بين خيبر والفتح(٤) ، ويعنينا من حديثه (فلما قدم مكة وسمعته قريش يتكلم بأمر

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٧٤، ٧٥. وذلك حين وقع الجدب بمكة وأكلت قريش العلهز .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٧٥ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح إلى عكرمة .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٧٦ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح إلى عكرمة،وأخرجه أبو عبيد من رواية جرير بن حازم فى الأموال / ٢٤٠. وذكر أن ذلك ـ أى الهدية ـ كانت فى مدة الهدنة التى بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ، أما المحاربة فلا تجوز الهدية ، وكذا أيضًا ابن زنجويه فى الأموال (٢/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠) وذكره ابن حجر من رواية ابن سعد وقال عنه : إسناده صحيح (الإصابة / ١٢٨٥) انظر :الطبقات ١/ ٧٧ .

والملاحظ أن عمرو بن أمية الضمرى الذى أرسله رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان بهديته هو هو نفسه الذى أرسله رسول الله ﷺ لاغتيال أبى سفيان بعد مقتل خبيب رضي الله عنه،وهو الذى أخذ جثة خبيب وابتلعتها الأرض بعد ذلك،وفى هذا قمة الوفاء وعظمة التربية للرجل الذى تكلف بالقتل فى الحرب أو تكلف بالهدية فى السلم .

(٤) يقول الحافظ البيهقى : والذى روى فى حديث محمد بن إسحاق من قول أبى هريرة وإرادة فدائه يدل على شهود أبى هريرة ذلك ، وأبو هريرة إنما قدم على النبى ﷺ وهو بخيبر تشبه أن تكون قصة ثمامة فيما بين خيبر وفتح مكة ، انظر: الدلائل للبيهقى ٤/ ٨١. ونص الرواية تؤكد أن هذا الأمر وقدوم أبى سفيان وكتابة قريش إنما كان بعد هدنة الحديبية .

محمد من الإسلام ، قالوا : صبأ ثمامة فأغضبوه فقال : إنى والله ما صبوت ولكنى أسلمت ، وصدَّقت محمدًا وآمنت به ، وايم الذى نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة ـ وكانت ريف أهل مكة ـ ما بقيت حتى يأذن فيها محمد ﷺ ، وانصرف إلى بلده ، ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ)(١) .

وفى رواية ابن عباس : أن ابن أثال الحنفى لما أتى النبى ﷺ وهو أسير خلى سبيله، فأسلم فلحق بمكة يعنى ثم رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة ، حتى أكلت قريش العلهز (٢) ، فجاء أبو سفيان بن حرب إلى النبى ﷺ فقال : ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون]) (٣) .

والذى أبرز هذا الحدث هو الرواية السابقة الثانية التى تشير إلى مواساة رسول الله ﷺ لأهل مكة حين بعث الهدايا لقادتها ، كما بعث ـ مواساة ـ بالمال لأبى سفيان ليقسمه على قريش ، هذه الروح التى برزت بعد الهدنة ، نلاحظ على الخط نفسه سماحه عليه الصلاة والسلام لثمامة بن أثال أن يعيد بعث الطعام والميرة إلى مكة بعد أن عض قريشًا الجوع ، إنها عملية أسو الجراح ، وإيجاد جو جديد بين مكة والمدينة ، بكسر الحواجز بين الإسلام ومكة المكرمة .

٥ ـ وفى تهيئة أجواء مكة للفتح تطالعنا وفود القبائل بإسلامها :

الأولى : مزينة : وقد جاء وفدها أربعمائة إلى رسول الله ﷺ يعلنون ولاءهم لدين الله بما روى ابن سعد فى الطبقات: (كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم ، قال : أنتم مهاجرون حيث كنتم ، فارجعوا إلى أموالكم ، فرجعوا إلى بلادهم) (٤) .

الثانية : خزاعة : (قال أبو عبد الله: سألت عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبى ، متى كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة كتابه؟ فقال: أخبرنى أبى عن قبيصة بن ذؤيب أنه كتب لهم فى جمادى الآخرة سنة ثمان، وذلك أنه أسلم قوم من العرب كثير، ومنهم ما هو

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٨٠ .
(٢) العلهز : شيء كانوا يتخذونه فى سنى المجاعة يخلطون فيه الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه فى النار ويأكلونه .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٨١ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٩٠ .

بعد مقيم على شركه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية ، لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم مصدق بمحمد ، قد أتوا بالإسلام ، وهو فيمن حوله قليل حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وهاجروا ، فذلك حين كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى بُديل وبشر وسروات بنى عمرو سلام عليكم، فإنى أحمد الله إليكم ، الله لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإنى لم آثم بإلكم ، ولم أضع فى جنبكم ، وإن أكرم تهامة علىَّ أنتم ، وأقربهم رحمًا أنتم ومن تبعكم من المطيبين ، فإنى قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى ولو هاجر بأرضه ـ غير ساكن مكة إلا معتمرًا أو حاجًا ـ وإنى لم أضع فيكم إذ سالمت، وإنكم غير خائفين من قبلى ولا محصورين، أما بعد فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة، وابنا هوذة، وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة .أخذت لمن تبعنى منكم ما آخذ لنفسى، وإن بعضنا من بعض أبدًا فى الحل وفى الحرم ، وإننى والله ما كذبتكم وليحبكم ربكم .

حدثنى عبد الله بن بُديل عن أبيه عن جده عن عبد الله بن مسلمة عن أبيه عن بديل ابن ورقاء مثل ذلك) (١) .

الثالثة : غفار : وكانت غفار قد سبقت خزاعة فى إسلامها قبيلة كاملة كما حدثنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه فى قصة إسلامه ، فقال فى ذلك :

(فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم،وكان يؤمهم إيماء بن رحضة الغفارى وكان سيدهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأسلم نصفهم الباقى ، وجاءت أسلم فقالوا : يا رسول الله ، إخوتنا . نسلم على الذى أسلموا عليه ، فأسلموا فقال رسول الله ﷺ : « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ») (٢) .

الرابعة : أسلم :(وجاءته أسلم وهو بغدير الأشطاط ، وجاء بهم بريدة بن الحصيب فقال : يا رسول الله ، هذه أسلم وهذه محالها ، وقد هاجر إليك من هاجر منها وبقى قوم منهم فى مواشيهم ومعاشهم فقال رسول الله ﷺ: « أنتم مهاجرون حيث كنتم » ، ودعا العلاء بن الحضرمى فأمره أن يكتب لهم كتابًا فكتب : « هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم لمن آمن منهم بالله وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٩ ـ ٧٥٠ .
(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٢٢ ح (٢٤٧٣).

فإنه آمن بأمان الله، وله ذمة الله وذمة رسوله، وإن أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم، اليد واحدة والنصر واحد ، ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قرارهم ، وهم مهاجرون حيث كانوا) (١) .

هذه الظاهرة بحاجة إلى دراسة مستأنية خاصة ونحن نتحدث عن التربية الجماعية التى غدت أساسًا فى هذه المرحلة ، فنحن نذكر فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ ﴾ [الكهف] .

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ㉟ ﴾ [الأنعام] .

١ ـ فهناك إرادة ربانية إذن أن تكون عمليات البناء الأولى عملية فردية لكل شخص ولكل لبنة ليتم بناؤه مستقلا عن عشيرته وقبيلته ، وتأثيرات عشيرته وقبيلته .

وبقى هذا الأمر طيلة العهد المكى ، حتى لم يتجاوز عدد المسلمين الذين انضموا لهذا الدين مائتى مسلم ، خلال ثلاثة عشر عامًا من عمر الزمن(٢) ، وتمت صياغة النوعية القيادية الأولى فى التاريخ .

ولم يشأ الله تعالى أن يرتبط إسلام الأفراد بإسلام زعماء القبائل فى قريش ، بحيث لو أسلم سيد العشيرة لأسلمت العشيرة بأكملها .

٢ ـ وشاءت الإرادة الربانية لهذا الدين كذلك أن يتم إسلام الأنصار الجماعى بعد أن فقدوا أكبر قياداتهم فى حرب بعاث، فجرى الدخول الجماعى فى الإسلام بقيادات شابة ، لا تحمل عُقَدَ الجاهلية وموروثاتها ومبادئها بحيث تؤثر على مجرى التربية الإسلامية لهذا الجيل ، وكان بناء النوعية القيادية الثانية من الأنصار حتى تكون من النوعيتين جيل بدر الذى سبق أن تحدثنا عنه من قبل .

٣ ـ وحين أصبحت المدينة عاصمة الإسلام ، وأصبحت جاهزة لتستقبل كل مسلم من القبائل المجاورة ، والذين بدؤوا يفدون على المدينة من كل صوب ، ورسول الله ﷺ قد جعل المسجد قاعدة الانطلاق والبناء للآحاد والعشرات الوافدين كل يوم ، ويتابع رسول الله ﷺ بناءهم وتربيتهم والعناية بهم ، ولو بلغوا المئات ، فلا يزال المسجد قادرًا على تلقيهم وتوجيههم وتكوينهم التكوين المناسب بالإضافة إلى متابعة التربية من النوعيتين

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨٢ .

(٢) وقبل إسلام الأنصار .

الأولى والثانية لهؤلاء الوافدين الجدد ، أمكن تكوين النوعية القيادية الثالثة التى كانت نواة جيل الحديبية والتى تجاوزت الألف دون أن تصل إلى الألف والنصف من النوعيتين الأولى والثانية بحيث غدت القيادات قادرة على تأدية دورها الفعال فى مجتمعاتها الخاصة وقبائلها ، بما تلقت من تربية عميقة وتكوين دقيق على يد النبى الأعظم ﷺ وصحبه الذين رباهم على عينه .

٤ ـ وبعد صلح الحديبية وخيبر ، وخلال سنتين من الزمن انتقلت العملية الكبرى فى البناء إلى هؤلاء الرواد الأوائل الذين يتابعون عمليات البناء فى قبائلهم ومجتمعاتهم ، بالإضافة إلى الدورات السريعة التى يتلقاها الوافدون الجدد فى المسجد النبوى وقد اتسعت القاعدة وغدت بالآلاف بعد أن كانت بالمئات وتم خلال هاتين السنتين تكوين عواصم جديدة للإسلام ، هى هذه القبائل التى ذكرناها من قبل بحيث تصبح القبيلة كلها مسلمة بفضل جهود أبنائها الأوائل ، إضافة إلى قربها من المدينة المنورة التى كان يفد إليها الصحابى ، فيتعلم ويتدرب ، ويشارك فى الجهاد والحياة الإسلامية ، وقد شهدنا أكبر هذه التجمعات فى مؤتة حيث بلغ عدد الجيش الإسلامى ثلاثة آلاف ، كان معظمه من العناصر الشابة الجديدة التى دخلت فى الإسلام ، وانضمت إلى دورات التأهيل التربوى والعسكرى والجهادى مباشرة أو بواسطة الرواد القياديين الأوائل الذين كانوا يشرفون على هذه الدورات سواءً فى مواقع القيادة العسكرية ، أو مرافقة الجيش ليتحملوا مسؤولية الجانب التربوى فيه .

٥ ـ ولم تمنع هذه التربية الجماعية من متابعة التربية القيادية للأفراد النوابغ الذين يملكون الكفاءات القيادية على جميع مستوياتها من أن يهيئ لهم رسول الله ﷺ دورات عالية تناسب مستواهم ، ويفتح لهم آفاق التدريب واختبار هذه الكفاءات وتوجيهها ، وممارستها، ثم تصحيح بعض شوائبها التى تبرز نتيجة بعض مخلفات الجاهلية فيها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من هذه النماذج: أبان بن سعيد ، وعمرو بن العاص ، وخالد ابن الوليد ، وعثمان بن طلحة من قيادات قريش ، وعمرو بن أمية الضمرى ، وغالب بن عبد الله الليثى، وأبو قتادة بن ربعى الأنصارى، والطفيل بن عمرو الدوسى، والضحاك بن سفيان الكلابى .

٦ ـ وانطلق هؤلاء الرواد يتابعون الدعوة فى قبائلهم حتى تم إسلام أربعة قبائل قبل فتح مكة وهى غفار ومزينة وأسلم وخزاعة ، وغدت هذه المراكز الأربعة مقاطعات إسلامية خالصة ، تابعة لقيادة المدينة ، وعندما جاء الطلب كى تشارك هذه القبائل فى الجهاد سارع شبابها للانضمام للجيش الإسلامى بالمئات ، ونشير إلى أن هذه القبائل

بشكل عام هى من القبائل الصغيرة التى لا يؤبه لها قبل الإسلام لكنها وبعد دخولها فى الإسلام أخذت موقعها الممتاز فى مقدمة الركب بينما تخلفت القبائل الكبرى التى كانت فى مناوشات مع دولة الإسلام أو كانت متربصة نهاية المعركة بين دولة الإسلام ودولة قريش .

٧ ـ ونشير أخيراً إلى انضمام ثلاث قيادات بأشخاصها لا بقبائلها ، وهى من القبائل الكبرى ذات الوزن والثقل فى المجتمع العربى ، وكان إسلام هذه القيادات الثلاث إسلام مصلحة سياسية أكثر منه إسلام قناعة إيمانية ، فلذلك اكتفت بالانضمام إلى الجيش الإسلامى وحدها كمراقبة للساحة حتى تتأكد من النصر النهائى لمحمد ، فتتجه بقبائلها إلى الإسلام ، هذه القيادات الثلاثة هى :

عيينة بن حصن سيد بنى غطفان .

والأقرع بن حابس سيد بنى تميم .

وعلقمة بن علاثة سيد بنى عامر بن صعصعة .

٨ ـ وعندما اتجه رسول الله ﷺ لفتح مكة ، كانت الساحة السياسية هادئة ، وكان هناك حلفان رئيسيان لقريش ولرسول الله ﷺ ، هذان الحلفان هما :

حلف خزاعة مع رسول الله ﷺ ،ولم يعلن أنه حلف إسلامى ، إنما أرادت خزاعة فى الظاهر أن تبنيه على حلف خزاعة مع جد رسول الله ﷺ الذى ينص على: (باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب لخزاعة إذ قدم عليه سراتهم وأهل الرأى غائبهم مقر بما مضى عليه شاهدهم . . . إن بيننا وبينكم عهد الله وعقوده ما لا ينسى أبداً ولا يأتى بلدّ (١) اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرف ثبير ، وثبت حراء، وما بل بحر صوفة، لا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبداً أبداً ، الدهر سرمداً) ، فقرأه عليه أبى بن كعب فقال: (ما أعرفنى بحلفكم ! وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف فكل حلف كان فى الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام)(٢) . بينما انضمت بكر إلى قريش للثارات والعداء المستحكم بين القبيلتين .

---

(١) اللد : الخصومة .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨١ .

فتح مكة

نقض العهد

روى محمد بن عمر عن شيوخه قال :

(كانت خزاعة فى الجاهلية قد أصابوا رجلاً من بنى بكر أخذوا ماله ، فمر رجل من بنى خزاعة على بنى الدّيل بعد ذلك فقتلوه ، فوقعت الحرب بينهم ، فمر بنو الأسود ابن رَزن ـ ذؤيب وسلمى وكلثوم ـ على خزاعة فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، وكان قوم الأسود يودَوْن فى الجاهلية ديتين لفضلهم فى بنى بكر ، فتجاوزوا ، وكف بعضهم عن بعض من أجل الإسلام ، وهم على ما هم عليه من العداوة فى أنفسهم ، إلا أنه قد دخل الإسلام عليهم جميعًا فأمسكوا ، فلما كان صلح الحديبية ، دخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده،وكانت خزاعة حلفاء لعبد المطلب ،وكان رسول الله ﷺ عارفًا ، ولقد جاءته يومئذ خزاعة بكتاب عبد المطلب فقرأه عليه أبى بن كعب ، فقال : « ما أعرفنى بحلفكم ! وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف ، فكل حلف كان فى الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام ») [(١)] .

وعن محجن بن وهب قال : كان آخر ما كان بين خزاعة وبين كنانة أن أنس بن زنيم الديلى هجا رسول الله ﷺ ، فسمعه غلام من خزاعة ، فوقع به فشجّه ، فخرج إلى قومه فأراهم شجَّته ، فثار الشر مع ما كان بينهم ، وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها ، فلما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهرًا من صلح الحديبية ، تكلمت بنو نفاثة من بنى بكر أشراف قريش ، واعتزلت بنو مدلج فلم ينقضوا العهد ـ أن يعينوا بالرجال والسلاح على عدوهم من خزاعة ، وذكروهم القتلى التى أصابت خزاعة منهم ، وضربوهم بأرحامهم ، وأخبروهم بدخولهم معهم فى عقدهم وعهدهم ، وذهاب خزاعة إلى محمد فى عقده وعهده ، فوجدوا القوم إلى ذلك سراعًا إلا أبا سفيان لم يشاور فى ذلك ولم يعلم ، ويقال : إنهم ذاكروه فأبى عليهم ـ وجعلت بنو نفاثة وبكر يقولون: إنما نحن! فأعانوهم بالسلاح والكراع والرجال، ودسوا ذلك سرًا ؛ لئلا تحذر خزاعة ، فهم آمنون غارُّون بحال الموادعة وما حجز الإسلام بينهم ، ثم اتَّعدت قريش الوتير[(٢)] موضعًا بمن معها ،فوافوا للميعاد ،فيهم رجال من قريش من كبارهم، متنكرون متنقبون ـ صفوان بن أمية، ومكرز بن حفص بن الأحنف، وحويطب بن عبد العزى ـ وأجلبوا

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٢ .

(٢) الوتير : موضع معروف جنوب غربى مكة ويبعد عنها ١٦ كم ، وأطلق على حيز منه اليوم الكعكية .

معهم أرقاءهم ، ورأس بنى بكر نوفل بن معاوية الدؤلى فبيّتوا خزاعة ليلاً وهم غارّون آمنون من عدوهم ،ولو كانوا يخافون هذا لكانوا على حذر وعُدَّة ، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى انتهوا بهم إلى أنصاب الحرم ، فقالوا : يا نوفل ، إلهك إلهك ! قد دخلت الحرم ، قال : لا إله لى اليوم ، يا بنى بكر ، قد كنتم تسرقون الحاجَّ ، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم ؟ لا يريد أحدكم يأتى امرأته حتى يستأذنّى ، لا يؤخره أحد منكم اليوم بعد يومه هذا من ثأره ، فلما انتهت خزاعة إلى الحرم ، دخلت دار بديل بن ورقاء ، ودار رافع الخزاعيين ، وانتهوا بهم فى عماية الصبح ودخلت رؤساء قريش فى منازلهم ، وهم يظنون ألا يعرفوا ، وألا يبلغ هذا محمداً ﷺ ، وعن عطاء بن أبى مروان قال : قتلوا منهم عشرين رجلاً وحصروا خزاعة فى دار رافع وبُديل ، وأصبحت خزاعة مُقتلين على باب بُديل ورافع مولى خزاعة ، وتنحت قريش ، وندموا على ما صنعوا ، وعرفوا أن هذا الذى صنعوا نقض للمدة والعهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ .

وقال فى ذلك ابن لقطة الديلى :

ألا هل أتى قصوى العشيرة أننا ... رددنا بنى كعب بأفوق ناصل(١)
حبسناهم فى دارة العبد رافع ... وعند بُديل محبسًا غير طائل
حبسناهم حتى إذا طال يومهم ... نفحنا لهم من كل شعب بوابل(٢)
ذبحناهم ذبح التيوس كأننا ... أسود تبارى فيهم بالقواصل(٣)

قال : ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة إلى أبى سفيان فقالا : هذا أمر لابد له أن يصلح، والله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يردعكم إلا محمد فى أصحابه. قال أبو سفيان : قد رأت هند بنت عتبة رؤيا كرهتها وأفظعتها وخفت من شرها ، فقال القوم : ما هى ؟ قال : رأت دمًا أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة مليًا ثم كأن ذلك الدم لم يكن ، فكره القوم هذا وقالوا : هذا شر .

قال أبو عبد الله : وقد سمعنا وجهًا من أمر خزاعة لم أر عليه الناس قبلنا ولا يعرفونه ، وقد رواه ثقة ومخرجه الذى رُدَّ إليه ثقة مقنع إلا أن الناس قبلنا ينفونه .

وكان أول الحديث ، أنه حدثنى الثقة عندى أنه سمع عمرو بن دينار يخبر عن ابن عمر ، قال : إنه لما قدم ركب خزاعة على رسول الله ﷺ ، فأخبره بمن قتل منهم ، قال

---

(١) ناصل : أى رددته خائبًا .
(٢) الوابل : دفعة الخيل .
(٣) القواصل : القواطع من الأنياب .

رسول الله ﷺ : « فمن تُهْمَتُكُم وظنتكم ؟ » قالوا : بنو بكر ،قال : « كلها ؟ » قالوا: لا ، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة ، ورأس القوم نوفل بن معاوية الديلى قال : هذا بطن من بكر ، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ، ومخيِّرهم فى خصال ، فبعث إليهم ضمرة يخيرهم بين إحدى ثلاث خصال ، بين أن يدوا خزاعة ، أو يبرؤوا من حلف نفاثة ، أو ينبذوا إليهم على سواء . فقال قرطة بن عبد عمرو الأعمى : أما أن ندى خزاعة فإن نفاثة قوم فيهم عرام[١] ، فلا نريهم حتى لا يبقى لنا سبد[٢] ولا لبد[٣] ، وأما أن نبرأ من حلف نفاثة ، فإنه ليس قبيلة من العرب تحج هذا البيت أشد تعظيمًا لهذا البيت من نفاثة ، وهم حلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم ما بقى لنا سبد ولا لبد ، ولكننا ننبذ إليه على سواء فرجع ضمرة إلى رسول الله ﷺ بذلك من قولهم فبعثت قريش أبا سفيان ابن حرب تسأل رسول الله ﷺ أن يجدد العهد،وندمت قريش على رد الرسول بما ردوه.

وعن عطاء بن مروان قال:قال رسول الله ﷺ لعائشة:« قد حرت فى أمر خزاعة».

قال ابن واقد ، فقالت عائشة : يا رسول الله أترى قريشًا تجترئ على نقض العهد بينكم وبينهم ، وقد أفناهم السيف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم » .

قالت عائشة : خير أو شر يا رسول الله ؟ قال : « خير » .

(وروى الطبرانى فى الكبير والصغير عن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بات عندها ليلة ، فقام ليتوضأ إلى الصلاة فسمعته يقول فى متوضئه : « لبيك لبيك لبيك » ثلاثًا ، « نصرت نصرت نصرت » ثلاثًا ، فلما خرج قلت : يا رسول الله ، سمعتك تقول فى متوضئك : لبيك لبيك ثلاثًا نصرت نصرت ثلاثًا ، كأنك تكلم إنسانًا ، فهل كان معك أحد ؟ قال : « هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بكر » ، قالت ميمونة : فأقمنا ثلاثًا ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح بالناس فسمعت الراجز ينشد .

قدوم عمرو بن سالم :

روى الطبرانى فى الكبير والصغير عن ميمونة بنت الحارث والبزار بسند جيد عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، عن عكرمة ، والبيهقى عن ابن إسحاق[٤] ، ومحمد بن عمر عن شيوخه[٥] : أن عمرو بن سالم الخزاعى خرج فى أربعين راكبًا من

---

(١) العرام : الشدة والقوة والبأس .
(٢) السبد : الشعر .
(٣) اللبد : الصوف أى لا يبقى لنا شىء .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٥/٦ .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨٩ .

خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذى أصابهم وما ظاهرت عليهم قريش، ومعاونتهم بالرجال والسلاح والكراع، وحضور صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل، ومن حضر من قريش، وأخبروه الخبر، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد بين أظهر الناس، ورأس خزاعة عمرو بن سالم، فلما فرغوا من قصتهم قام عمرو بن سالم فقال:

يا رب إنى ناشد محمدًا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا(١)
قد كنتم ولدًا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعًا وسجدًا
وجعلوا لى فى كداء رُصَّدا ... فانصر رسول الله نصرًا أيدا
وادعوا عباد الله يأتوا مددا ... فيهم رسول الله قد تجردا
أن سيم خسفًا وجهه تربَّدا ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا

قرم لقرم من قروم أصيدا

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، فما برح حتى مرت عنانة من السماء، فرعدت، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب».

وروى أبو يعلى بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بنى كعب غضبًا لم أره غضبه منذ زمان، وقال: «لا نصرنى الله تعالى إن لم أنصر بنى كعب».

وروى عبد الرزاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بلغه خبر خزاعة قال: «والذى نفسى بيده لأمنعنه مما أمنع منه نفسى وأهل بيتى».

قال ابن عقبة ومحمد بن عمر: إن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن سالم وأصحابه: «ارجعوا، وتفرقوا فى الأودية»، فرجعوا وتفرقوا، وذهبت فرقة إلى الساحل بعارض الطريق.

وأخبر عمرو بن سالم ومن معه أن أنس بن زنيم هجا رسول الله ﷺ، فأهدر دمه.

١ ـ لقد كانت شرارة تجديد المواجهة بين بكر وخزاعة شرارة إسلامية خالصة،

---

(١) الأتلد: القديم.

وليست شرارة جاهلية تقوم على الثارات القديمة ، وذلك بعد أن حجز الإسلام بين الفريقين ، ثم انتهى كل واحد منهما إلى صف ؛ خزاعة إلى صف رسول الله ﷺ ، وبكر إلى صف قريش ، لكن الشرارة كما ذكرها الواقدى فى مغازيه هى (كان آخر ما بين خزاعة وبنى كنانة أن أنس بن زنيم الديلى هجا رسول الله ﷺ ، فسمعه غلام من خزاعة ، فوقع به فشجَّه ، فخرج إلى قومه فأراهم شجته ، فثار الشر مع ما كان بينهم وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها) .

والهجاء فى المجتمع العربى آنذاك أشد وقعًا من السيف ، فالشجة هى رد اعتداء وذود عن محمد رسول الله ﷺ ، والأصل أن تؤنب بنو بكر شاعرها لهجائه سيد العرب والمسلمين ، لا أن يستغل الفرصة لأخذ الثأر من حليفتهم خزاعة .

والذى يؤكد صحة هذا الاتجاه أن رسول الله ﷺ أهدر دم أنس بن زنيم عندما ذُكر له هجاؤه (فلما فرغ الركب قالوا :يا رسول الله ، إن أنس بن زنيم الديلى قد هجاك ، فهدر رسول الله ﷺ دمه) .

وأنس هذا ليس مغمورًا بين الشعراء ، بل هو شاعر له باعه العالى فى الشعر ، وتتناقله الركبان ،والدليل على ذلك،أنه عندما خاف على نفسه بعد إهدار دمه،عاد فمدح رسول الله ﷺ ، وأعلن إسلامه فى هذا الشعر .

ويحتفظ تاريخ الشعر العربى بأن أمدح بيت قالته العرب برسول الله ﷺ هو بيت أنس بن زنيم .

فما حملت من ناقة فوق رحلها   أبـر وأوفـى ذمَّةً مـن محمــد

ونعود إلى القصيدة فيما بعد ، لكن الذى نعنيه أن المدح الذى بلغ هذا الحد من القوة ، يقابله الهجاء وكذلك الذى تتناقله الركبان ، فأن يغضب مسلم لهذا الهجاء الذى تم أمامه ،فيشج شاعر بنى بكر، هو أهون الأمور فى طبيعة الحرب القائمة بين الفريقين.

٢ ـ ووجدت بكر هذه الشرارة مناسبة لتصفية الحسابات السابقة مع خزاعة ، فراحت تعبئ قيادات مكة ، وتزين لها نقض العهد ، والهجوم على خزاعة .

وحتى نتأكد من خطورة هذا الأمر ، نعود إلى الحوار الذى تم بين ثلاثة من القيادات الجاهلية الكبرى ، حول هذا الموضوع بين عيينة بن حصن والحارث بن عوف سيدى بنى غطفان ، وبين قرة بن هبيرة سيد بنى عامر ، عندما همَّ الأولان أن يمضيا إلى المدينة مسلمين .

لقد كان نوفل بن معاوية سيد بنى نفاثة ، ينتظر فرصة الانقضاض على المسلمين من خزاعة ، لكن قريشًا لا تطاوعه .

(ويسمع به - قرة بن هبيرة العامرى - نوفلُ بن معاوية الديلى ، فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش) .

فقال نوفل : (إذا لأجد عندكم شيئًا ! قدمت الآن لمقدمك حيث بلغنى ، ولنا عدو قريب داره وهم عيبة نصح محمد لا يغيبون عليه حرفًا من أمورنا، قال : من هم ؟ قال: خزاعة ، قال : قبُحت خزاعة قعدت بها يمينها ! قال قرة : فماذا ؟ قال : أستنصر قريشًا أن يعينونا عليهم ؟ قال قرة :فأنا أكفيكم ، فلقى رؤساءهم ؛صفوان بن أمية ، وعبد الله ابن أبى ربيعة ، وسهيل بن عمرو ، فقال : ألا ترون ماذا نزل بكم! إنكم رضيتم أن تدافعوا محمدًا بالراح ، قالوا : فما نصنع ؟ قال : تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم ، قالوا : إذن يغزونا محمد فيما لا قبل لنا به ، فيوطئنا غلبة ، وننزل على حكمه ، ونحن الآن فى مدة وعلى ديننا ، فلقى قرة نوفل بن معاوية ، فقال : ليس عند القوم شىء . . .)(١) .

لقد كان صوت العقل هو الذى يحكم تصرفات قريش ، فى وفائها مع محمد ، وتعلم أن نقض العهد يقود إلى احتلال مكة وخطر زوال دينها وأصنامها ، ولهذا كانت تحرص على الاستمرار فى هذه الهدنة والمحافظة عليها ، فما الذى حدا بهذه القيادات أن تتبع هواها وتترك عقلها وتستجيب لاستثارة نوفل ؟ لا ندرى ، ولعل الانتصارات الكبرى التى حققها رسول الله ﷺ فى الجزيرة وخارج الجزيرة جعلتهم يزدادون حقدًا على رسول الله ﷺ ، فهؤلاء الثلاثة ؛ صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعبد الله بن أبى ربيعة ، بقى ثالثهم على عقله دون أن يتهور ، بينما ساهم صفوان وسهيل فى عون نوفل بحربه ضد خزاعة ،ودليل سوء تقديرهما للعواقب أنهما هما اللذان قادا أهل مكة لمواجهة خاسرة ضد الجيش الإسلام الذى يقوده خالد بن الوليد مع زميلهم الثالث عكرمة بن أبى جهل،ولاذ ثلاثتهم بالفرار بعد سويعات من المهاجمة، كما قال حماس بن قيس لزوجه :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمة ... وقطعتنا بالسيوف المسلمة

وأبو يزيد هو سهيل بن عمرو ، لقد قادوا عملية نقض العهد فجرّوا على قريش شرًا لا قبل لها به ، وقاموا بالمواجهة ، ولم يغلقوا عليهم أبوابهم ، ليكونوا آمنين فأدى

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٣٠ ، ٧٣١ .

اندفاعهم إلى مقتل قرابة أربعة وعشرين رجلاً من قريش وحلفائها .

إننا إذن أمام قيادات حاقدة متحمسة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، وغير مدركة أبعاد وامتداد هذا الدين حتى من الناحية السياسية ، بينما انحاز ثلاثة من القادة الكبار إلى الصف الإسلامى ، وهم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، وحدَّد خالد رضي الله عنه هوية هذه القيادات الثلاث حين عرض عليهم الإسلام فأبوا ، وعرف أن الرغبة بالثأر والحقد الشخصى هو الذى يقودهم لذلك .

(فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ ،قلت : من أصاحب إلى رسول الله ، فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا إلى محمد فاتبعناه ، فإنه شرف محمد شرف لنا ، فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً ، فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وتراً قد قُتل أبوه وأخوه ببدر ، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطو ما ذكرت لك) .

وأما سهيل بن عمرو ، فقد طعن بابنه أبى جندل الذى فرَّ إلى الساحل وأقام دولة للإسلام مع أبى بصير اضطرت مكة أن تبعث إلى رسول الله ﷺ بقبولهم عنده ، ولكننا نرى أن الحكمة عند سهيل، لا تتناسب مع شخصه واندفاعه فى صف صفوان وعكرمة .

٣ ـ أما القائد الأعلى لمكة أبو سفيان بن حرب الذى قاد معركة الحرب ، وحافظ على معركة السلم ، فقد كان رافضًا لهذا العون ، ومدركًا أبعاده ونتائجه الوخيمة على مكة ، فقال فيما رواه مجمع بن يعقوب عن أبيه: (هذا والله أمر لم أشهده ، ولم أغب عنه ، لا حُمِّل إلا على ولا والله ما شوورت ، ولا هويت حين بلغنى ! والله ليغزونا محمد إن صدقنى ظنى وهو صادقى ، وما لى بُدّ أن آتى محمداً فأكلمه أن يزيد فى المدة ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر .

فقالت قريش : قد والله أصبت الرأى ، وندمت قريش على ما صنعت من عون بنى بكر على خزاعة ، وعرفوا أن رسول الله ﷺ لن يدعهم حتى يغزوهم)(١) .

وأدرك ـ مع أبى سفيان بن حرب ـ خطورة الموقف ـ ابتداء ـ رجلان عاقلان من قيادات مكة هما الحارث بن هشام ـ أخو أبى جهل بن هشام ـ وعبد الله بن ربيعة،(ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن ربيعة إلى أبى سفيان بن حرب فقالا : هذا أمر لابد له

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨٥ .

من أن يصلح ، ووالله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمد فى أصحابه)[1] .

٤ ـ واستغل نوفل بن معاوية هذا العون المادى والمعنوى وانقض مع قومه على خزاعة ، كما قال شاعرهم :

هم بيتونا بالوتير هجدا   وقتلونا ركعًا وسجدا

وأعملوا فيهم السيف وهم نائمون وغارون وآمنون لما بين الفريقين من الهدنة ، واستطاع نوفل بن معاوية أن يقود معركة الحقد والثأر مهما كانت عواقبها المشؤومة متجاوزًا كل القيم والأعراف والاحتمالات حتى لتلجأ خزاعة إلى الحرم ، فيقتلونهم داخل حرم مكة الآمن ، وأمام بيت قائدهم بُديل بن ورقاء .

(وأصبحت خزاعة مقتلين على باب بديل ، ورافع مولى خزاعة ، ويُذكر نوفل بإلهه وحرم إلهه فيقول : لا إله لى اليوم ، وهو يرى أن دينه الثأر ، ولو استطاع لأجهز على خزاعة جميعًا وأباد خضراءهم ، لولا إجارة سهيل بن عمرو لبقيتهم فى الحرم ، حيث قال لنوفل :

قد رأيت الذى صنعنا بك وبأصحابك ، وما قتلت من القوم ، وأنت قد حصرتهم تريد قتل من بقى منهم وهذا ما لا نطاوعك عليه ، فاتركهم لنا ، قال : نعم ، فتركهم، فخرجوا ، فقال ابن قيس الرقيات يذكر سهيل بن عمرو :

خالط أخواله خزاعة لما   كثرتهم بمكة الأحياء)[2]

وما الذى جنته قريش من وراء هذه التعبئة والتأييد لنوفل ؟ لا شىء ، فهى لا ثأر لها مع خزاعة ، ولكن صديق عدوك عدوك ، فخزاعة طالما أنها حالفت محمدًا ﷺ فهى عدوها مثله .

٥ ـ وأمام تفرق رأى قيادات مكة ، وتقاذفهم التهم واللوم فيما بينهم ، حيث أجهض أمر المواجهة لرسول الله ﷺ هذا الاختلاف ، وعندما جاءهم تحذير رسول الله ﷺ انعكس هذا الخلاف عليهم فى اتخاذ الرأى المناسب لصد هذا الخطر الجاثم الداهم ، ففوّت عليهم الفرصة الأخيرة فى تدارك الحرب .

(روى ابن عائذ عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ومحمد بن عمر عن حزام بن هشام الكعبى ، ومسدد فى مسنده بسند صحيح عن محمد بن عباد بن جعفر أحد ثقات التابعين وأئمتهم، واللفظ لمحمد بن عمر ، قال حزام :

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨٥ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٨٤ .

إن قريشًا ندمت على عودة بنى نفاثة ، وقالوا : محمد غازينا ، فقال عبد الله بن أبى سرح ـ وهو يومئذ فى حال ردته عن الإسلام ، وأسلم بعد ذلك ـ إن عندى رأيًا ، إن محمدًا لن يغزوكم حتى يعذر إليكم ، ويخيّركم فى خصال كلها أهون عليكم من غزوه ؟ قالوا : وما هى ؟ قال : يرسل إليكم أن دوا قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً ، أو تبرؤوا من حلف من نقض الصلح وهم بنو نفاثة ، أو ينبذ إليكم على سواء فما عندكم فى هذه الخصال ؟ فقال القوم : أحر بما قال ابن أبى سرح وقد كان به عالمًا .

قال سهيل بن عمرو : ما خلة أهون علينا من أن نبرأ من حلف بنى نفاثة ، فقال شيبة بن عثمان العبدرى : حفظت أخوالك ، وغضبت لهم ، قال سهيل : وأى قريش لم تلده خزاعة) .

لقد اتهم سهيل فى رأيه أنه يثور لأخواله الذين قتلتهم بنو نفاثة ، وأدرك حجم خطئه يوم أيد نوفلاً فى حربه ، فأراد أن يكفِّر عنه بالبراءة من حلف بنى نفاثة (وهم قسم من بكر والذين قادوا الهجوم ضد خزاعة) .

(قال شيبة : ولكن ندى قتلى خزاعة فهو أهون علينا) ، وأدرك شيبة الفضيحة السياسية فى التخلى عن بنى نفاثة ليقضى عليهم محمد والعار الذى تحمله قريش فى ذلك ، فرأى أن الحل إذا عولج بالمال فأمره سهل ، وقال قرظة بن عبد عمرو : لا والله لا يودون ولا نبرأ من حلف نفاثة ، ولكنا ننبذ إليه على سواء ، ولا ندرى من قرظة هذا ، وهو يبرز لأول مرة بين القيادات ، ويحمل لواء المواجهة ، فتدارك الأمر أبو سفيان ، وقال : (ليس هذا بشىء ، وما الرأى إلا جحد هذا الأمر ، أن تكون قريش قد دخلت فى نقض عهد أو قطع مدة ، وإنه قطع بغير رضى منا ولا مشورة ، فما علينا ، قالوا : هذا الرأى لا رأى غيره) (١) .

وعندما جاء وافد رسول الله ﷺ إلى مكة ، وعرض هذه الخيارات الثلاثة ، نقض الموقف قرظة هذا ، وأبلغ المسلمين رأيه أنه رأى قريش (أما أن ندى قتلى خزاعة ، فإن نفاثة فيهم عرام فلا نديهم حتى لا يبقى لنا سَبَدٌ ولا لَبَدٌ ، وأما أن نتبرأ من حلف نفاثة فإنه ليس قبيلة من العرب تحج هذا البيت أشد تعظيمًا له من نفاثة وهم حلفاؤنا ، فلا نبرأ من حلف نفاثة ،أو لا يبقى لنا سبد ولا لبد ، ولكن ننبذ إليه على سواء ، فرجع ضمرة إلى رسول الله ﷺ بذلك من قولهم) .

وندمت قريش على رد رسول رسول الله ﷺ ، وبعثت أبا سفيان ، ليجدد العقد ويزيد فى المدة ، لقد فوّت الاندفاع الأعمى الفرصة الأخيرة للصلح من مكة ، وأعذر رسول الله ﷺ بعد هذه الخيارات الثلاثة .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣١٠ .

٦ ـ وها هو سيد ولد آدم ﷺ يعيش هاجس نقض قريش للعهد بكيانه كله، فـ (قال لعائشة صبيحة كانت وقعة بنى نفاثة وخزاعة بالوتير «يا عائشة، لقد حدث فى خزاعة أمر» فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشًا تجترئ على نقض العهد الذى بينك وبينهم ، وقد أفناهم السيف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى » ، قالت : يا رسول الله ، خير ؟ قال : « خير » فهو حليف بنى خزاعة وجارهم ولن يضام جاره ولا حليفه .

ونجد بنت الصديق رضي الله عنها بحسها المرهف وفطرتها النقية تقول (أترى قريشًا تجترئ على نقض العهد الذى بينك وبينهم ، وقد أفناهم السيف ؟) هذا الرأى الذى أدركته ، لم تدركه قادة قريش ، وقادوا قومهم إلى الدمار والمواجهة ، ويجيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإحساسه العظيم : « ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى » . ثم كان الهاجس الثانى وهو عند ميمونة رضي الله عنها ، وفى بهيم الليل سمعته يقول فى متوضئه : « لبيك لبيك لبيك ، نُصرت نُصرت نُصرت » حتى لتعجب ميمونة رضي الله عنها من حديثه ، وكأنما يكلم أحدًا فى هذا الليل ، فقال : « هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ، ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بكر » .

ومضى ثلاثة أيام لوصول وفد خزاعة وراجزهم عمرو بن سالم .

٧ ـ ولقد كان عمرو بن سالم الخزاعى من البلاغة والفصاحة ، والشاعرية : بحيث يعبئ الجو كله ضد قريش فى ذلك الوصف الذى أشعل معركة فى النفوس قبل أن تثور بالسلاح :

يا رب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلْدًا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

إنها الاستجارة والاستغاثة بكل العهود والمواثيق التى بينهم وبينه ، حلفه وحلف عبد المطلب جده ، وبالرحم والقرابة ، فهم أخوال قريش ، وكما قال سهيل : (وأى قريش لم تلده خزاعة) ، وبحق هذا الدين الذى انتمى إليه هؤلاء المظلومون ، (ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا) وسبق أن شهدنا دخول خزاعة كلها فى الإسلام ، وكيف غدت مركزًا من مراكز الإسلام فى الجزيرة بعد المدينة ومزينة ، فحريم الإسلام انتهك ، وحليف الإسلام طعن ، وعرين الإسلام استبيح .

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا

ولقد رافق نقض العهد تحديًا سافرًا بالاستهانة بالمجير (وزعموا أن لست أدعو أحدًا) فماذا فعلوا ؟

هم بيتونـــا بالوتـــير هجّــدا وقتلونـــا ركعـــًا وســـجدا
وجعــلوا لـى فـى كـداءٍ رُصّـدا

هذه هى جريمتهم النكراء ، وتحديهم السافر ، وقتلهم الآمنين ، وترويعهم النساء والأطفال في غدر مبيت ونقض مبرم ، لا غموض فيه ولا شبهة ، وها هو يرسل استغاثته العظيمة فى هذا الشعر البليغ :

فانصر رسول الله نصرًا أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا بأن سيم خسفًا وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا قرم لقرم من قروم أصيدا

وهو رسول الله ﷺ الذى لا يهاب حليفه ، ولا يضام جاره ، ولا ينال نصيره .

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الجاهلية وهو الفرد الأعزل يفك العانى،ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، وكان فى الإسلام وهو الفرد الأعزل يرغم معاطس أبى جهل ليرد على الإراشى إبله ، فكيف وقد دانت له العرب فى الحجاز يرضى أن يستباح حمى الإسلام وحريمه فى تحدٍ وَقحٍ سافرٍ من بعض القيادات الحاقدة من قريش ؟!

لقد كان الرد متناسبًا مع عظم الجريمة بكلمة واحد مقتضبة : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

وعندما أرعدت السحابة،قال :« إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب »،وأقسم ـ عليه الصلاة والسلام : « لأمنعن خزاعة مما أمنع منه نفسى وأهلى وبيتى » ، وقام وهو يجر رداءه قائلا : « لا نصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى » .

ثم أمر وفد خزاعة أن يتفرقوا فى الأودية : إذ كانوا أربعين راكبًا ، فقد بدأت الحرب ، وهو لا يريد أى تظاهرات تشد الأنظار إليها ، فطلب من وفد خزاعة أن يتفرق، وهو عائد إلى خزاعة ، حتى لا تقع الحرب إلا فى الوقت والساعة التى يريدها ، ويود إخفاء كل معالمها عن قريش .

٨ ـ ومع هذا فلم يكتف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما سمع من خزاعة ، فكان أن أرسل رسوله ضمرة للوصول إلى حل يحول دون إهراق الدماء ، وذلك فى التبرؤ من حلف نفاثة ، إذا كانت قريش غير راضية بصنيعهم ، بحيث تتحمل نفاثة الغدر وحدها ،

أو دية القتلى من خزاعة ، أو إعلان النبذ على سواء ، كما أدب القرآن الكريم رسوله بهذا الأدب : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]

وفى محادثات خاصة بعيدة عن الجو الجماهيرى ،سأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفد خزاعة : « فمن تهمتكم وظنتكم ؟ » ، قالوا : بنو بكر ، قال : كلها ؟ قالوا : لا ، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة ،ورأس القوم نوفل من معاوية النفاثى ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : « هذا بطن من بكر،وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم فى خصال . . . »، ورأينا من قبل كيف كان جوابهم السفيه لرسول رسول الله ﷺ أن ينبذ إلينا محمد على سواء .

٩ ـ إن رسول الله ﷺ يبنى أمة ، وبنى طريقة التعامل مع العدو ، وعظمة الوفاء بالعهود والمواثيق ، كما يبنى من جهة ثانية ، عظمة الوفاء بالجوار ، وحماية المظلومين والمضطهدين،لقد أرسل رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف جندى ، ليصطدم بدولة الروم ؛ لأن رسولاً له قتل من قبل أحد حلفاء الروم ، فالإنسان له قيمة كبرى فى هذه الرسالة ، ولا يطل دمه ، بل تبذل الدماء كلها للذود عنه ، وها هى صورة غزوة الحديبية ، حين قرّر رسول الله ﷺ أن يخوض حربًا مع قريش؛لأنه بلغه أنها قتلت رسوله عثمان بن عفان ، وبايعه الجيش على الموت ، وها هو اليوم يعبئ كل جيوشه وقواته للثأر لقتلى خزاعة الذين اختاروه على غيره ناصراً ومجيراً ، فلا يمكن أن تطل دماؤهم أو تهدر أرواحهم حين يكون قادرًا على ذلك ، ونجد اليوم الطغاة يئدون شعوبهم بالملايين من أجل أمجادهم ، فإبادة الشعوب لحماية كراسيهم هى الميزان الذى ينطلقون منه ، ومربى البشرية ـ عليه الصلاة والسلام ـ يربيها فى السلم،فيحافظ على عهودها،ويرعى مواثيقها، ويفى بعقودها ، ويربيها فى الحرب ، فيدفع الضيم عنها ، وينصر مظلومها ويفك عانيها.

فيهم رسول الله قد تجردا   أن سيم خسفًا وجهه تربدا

فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا

١٠ ـ وتشير الروايات إلى أن الذين أعلنوا براءتهم من هذا الغدر هم بنو مدلج ؛ لأن سيدهم سراقة بن مالك بن جعشم قد عاهد رسول الله ﷺ أن يكون معه أبد الدهر هو وقومه بعد أن ساخت به فرسه على طريق المدينة ، وحافظ على هذا الحلف ، ووفى به حين نبذ بعض قومه العهد فنقضوه ، وسكت بعضهم على الغدر ، فأقروه . أما هو فقد أعلن براءته من البغى والنكث والغدر ، وهو لم يجد من محمد رسول الله ﷺ إلا وفاءً ، ولم يدخل فى الإسلام إلا بعد فتح مكة .

١١ ـ وقد عرضنا هذه التفصيلات جميعًا ، لتكون صفحة مكة واضحة أمامنا ، وصفحة قياداتها ، والخلافات التى سادت صفوفها ، وتبادل الاتهامات ، وفقدان الثقة ، وتضارب الآراء التى عجز أبو سفيان على جمعها على رأى واحد ، ونمضى مع أبى سفيان إلى المدينة ، لنشهد الصف الإسلامى هناك ، ولأبى سفيان سفارة فى قلب بيت النبى ﷺ ،فابنته أم حبيبة زوج محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا يعنى أنه القادر على أن يدخل بيت محمد دون واسطة ، وأن يحقق بهذه القرابة كل آماله وطموحاته ضمن الخطة التى اختطها وهى جحود الغدر والنقض ، وتجاهله للوصول إلى عقد وعهد جديد يزيد فى المدة ويجددها ، ويجنب قريشًا غزوًا لمكة يكاد يكون رأى العين ولمس اليد .

١٢ ـ ولم يكتف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنبذ العهد إلى قريش وحلفائها ، بل لا بد أن يعلم العرب جميعًا بنقض قريش للعهد ، فتكفل وزير إعلامه حسان بن ثابت رضي الله عنه بتوزيع خبر الغدر على كل وكالات الأنباء العربية آنذاك فى عدة أبيات مضت كالنار فى الهشيم فى المضارب العربية :

(عنانى[١] ولم أشهد ببطحاء مكة ... رجال بنى كعب تحزّ رقابها
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم ... وقتلى كثيرٌ لم تُجنَّ ثيابها[٢]
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى ... سُهَيْلَ بن عمرو وخزها ورقابها
وصفوان عود[٣] حنَّ من شفراسية ... فهذا أوان الحرب شد عصابها
فلا تأمنَنْها يابن أم مجالد[٤] ... إذا احتلبت صرفا[٥] وأعصل[٦] نابها
ولا تجزعوا منا فإن سيوفنا ... لها وقعة بالموت يفتح بابها)[٧]

فقد حدد الغدر الذى نزل ببنى كعب وهم غارون آمنون ، وكان وراء هذا الغدر ثلاثة من قادة مكة المشهورين ، صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل والعرب جميعًا تعلم حلف خزاعة مع رسول الله ﷺ ، ولم يُعر حسان لبنى بكر اهتمامًا كبيرًا ، بمقدار ما ركز فى إعلانه على تبنى قريش لهذا الغدر على يد زعماء مكة ، وأعلن الحرب على مكة لهذا الغدر المبيت ، فهم قد أشعلوا أوارها ، فلابد أن يذوقوا علقها ويكتووا بنارها ، وسيوف المسلمين كفيلة بفتح باب الموت للغادرين الناكثين للعهد ، والناقضين للمواثيق .

---

(١) عنانى : أهمنى .
(٢) لم تُجنَّ ثيابها : لم تستر ، يريد أنهم قُتلوا ولم يدفنوا .
(٣) العود : المسن من الإبل .
(٤) ابن أم مجالد : عكرمة بن أبى جهل .
(٥) الصرف : اللبن الخالص .
(٦) أعصل : اعوج ، والعصل : اعوجاج الأسنان .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣/ ٣٩٨ ت : مصطفى السقا وإخوانه .

وترافقت هذه الأبيات مع أبيات عمرو بن سالم الذى وصف الغدر كذلك ، وطالب محمداً ﷺ بنصر حلفائه ، وهو الذى لا يضام جانبه ، ولا يخفر جاره ، فجاءت أبيات حسان لتعلن على التو الاستجابة النبوية ، وتترجم الكلمة النبوية الخالدة ، شعراً تتناقله الركبان : « نُصِرت يا عمرو بن سالم » .

بينما كانت مكة قد بعثت زعيمها أبا سفيان مباشرة ، ليتفادى الحرب بعد تسوية الصراعات الداخلية فى صفوفها فلنتابع مسيرته إلى هناك .

أبو سفيان والصف الإسلامي الموحد : المهمة الخاسرة

١ ـ روى محمد بن عمر عن حزام بن هشام عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «لكأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول: جدد العهد، وزد فى الهدنة ، وهو راجع بسخطه».

٢ ـ (. . . فخرج أبو سفيان وخرج معه مولى له على راحلتين فأسرع السير وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ فلقى بُديل بن ورقاء بعُسفان ، فأشفق أبو سفيان أن يكون بُديل جاء رسول الله ﷺ بل كان اليقين عنده ، فقال القوم : أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟ قالوا: لا علم لنا بها ،فعلم أنهم كتموه ، فقال : أما معكم من تمر يثرب شىء تطعموناه ، فإن لتمر يثرب فضل على تمور تهامَة ؟ قالوا : لا. فأبت نفسه أن تُقره حتى قال : يا بُديل ، هل جئت محمداً ؟ قال : لا ، ما فعلت ، ولكن سرت فى بلاد بنى كعب وخزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم فأصلحت بينهم . فقال أبو سفيان : إنك والله ما علمت برٌ واصلٌ ، ثم قابلهم أبو سفيان حتى راح بُديل وأصحابه ، فجاء أبو سفيان منزلهم ففتٌ أبعار أباعرهم فوجد فيها نوى من تمر عجوة كأنها ألسنة الطير فقال أبو سفيان : أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً ، وكان القوم لما كانت الوقعة خرجوا من صبح ذلك اليوم فساروا ثلاثًا ، وخرجوا من ذلك اليوم فساروا إلى حيث لقيهم أبو سفيان ثلاثًا ، وكانت بنو بكر قد حبست خزاعة فى دارى بديل ورافع ثلاثة أيام يكلمون فيهم وائتمرت قريش فى أن يخرج أبو سفيان ، فأقام يومين فهذه خمس بعد مقتل خزاعة ، وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبى ﷺ فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ ، فطوته دونه، فقال : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أو بى عنه ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ مشرك نجس،فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ . قال : يا بنية لقد أصابك بعدى شر . فقالت : بل هدانى الله للإسلام ، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ؟ وزاد الواقدى : (يا عجبًا وهذا منك أيضًا ، أأترك ما يعبد آبائى ـ وأتبع دين محمد) . فقام من عندها . فأتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال : يا محمد ، إنى كنت غائبًا فى صلح الحديبية، فاشدد العهد، وزدنا فى المدة ؛ فقال رسول الله ﷺ: « فلذلك جئت يا أبا سفيان ؟ » قال : نعم،فقال رسول الله ﷺ : « هل كان من قبلكم من حدث ؟ » قال : معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل .

فقال رسول الله ﷺ: « فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل» فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول . فلم يرد عليه شيئًا .

فذهب إلى أبى بكر ﷺ فكلمه وقال: تكلم محمداً أو تجير أنت بين الناس ، فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ - زاد ابن عقبة : والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم ، فأتى عمر بن الخطاب ﷺ فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر ، فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله ، وما كان منه متينًا فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعًا فلا وصله الله ، فقال أبو سفيان : جزيت من ذى رحم شراً ، فأتى عثمان بن عفان ﷺ فقال : أنت أمس القوم بى رحمًا ، وفى رواية : إنه ليس فى القوم أحد أقرب رحمًا منك ، فزد فى المدة،وجدّد العهد فإن صاحبك لا يرده عليك أبدًا ، فقال عثمان : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ، فأتى عليًا ﷺ فقال: يا على إنك أمس القوم بى رحمًا، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائبًا، فاشفع لى إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فأتى سعد بن عبادة ﷺ فقال : يا أبا ثابت ، قد عرفت الذى كان بينى وبينك ، وأنى قد كنت لك فى حرمنا جاراً، وكنت لى بيثرب مثل ذلك وأنت سيد هذه البحيرة ، فأجر بين الناس وزد فى المدة ، فقال سعد : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى أشراف قريش والأنصار ، فكلهم يقول : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد على رسول الله،فلما أيس مما عندهم ،دخل على فاطمة الزهراء فكلمها فقال: أجيرى بين الناس ، فقالت : إنما أنا امرأة ، قال : إن جوارك جائز ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز ذلك محمد . قالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله ﷺ ، وأبت ذلك عليه ، فقال : يا ابنة محمد ،هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، قالت : والله ما بلغ بُنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، فلما أبت عليه أتى عليًا ﷺ فقال: يـا أبـا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، قال : صدقت وأنا كذلك ، قال : قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا ؟ قال : لا والله ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : يا أيها الناس : إنى قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يخفرنى أحد ، ثم دخل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إنى قد أجرت بين الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » ثم ركب بعيره وانطلق .

٣ ـ وكان قد احتبس وطالت غيبته ، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة قالوا : والله إنا نراه قد صبأ ، واتبع محمداً سرًا وكتم إسلامه .

فلما دخل على هند امرأته ليلاً قالت : لقد احتبست حتى اتهمك قومك ، فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنُجحٍ فأنت الرجل ثم دنا منها ، فجلس مجلس الرجل من امرأته ، فقالت : ما صنعت ؟ فأخبرها الخبر ، وقال : لم أجد إلا ما قال لى على ، فضربت برجلها فى صدره وقالت : قُبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند إساف ونائلة ، وذبح لهما ، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى ، إبراءً لقريش مما اتهموه به ، فلما رأته قريش ، قاموا إليه فقالوا : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد ، أو زيادة فى مدة ما نأمن به أن يغزونا محمد ؟ فقال : والله لقد أبى على (وفى لفظ : لقد كلمته فوالله ما ردَّ على شيئًا) وكلمت أبا بكر ، فلم أجد فيه خيرًا ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، وقد كلمت عِلية أصحابه ، فما قدرت على شىء منهم ، إلا أنهم يرموننى بكلمة واحدة ، وما رأيت قومًا أطوع لملك عليهم منهم له ، إلا أن عليًا لما ضاقت بى الأمور قال : أنت سيد بنى كنانة ، فأجر بين الناس، فناديت بالجوار ، فقال محمد : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » لم يزدنى . قالوا: رضيت بغير رضى ، وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئًا ، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن خفارك عليهم لهين ، ما زاد علىّ من أن لعب بك تلعبًا .

(قال : والله ما وجدت غير ذلك) (١) .

* * *

١ ـ لقد أدرك رسول الله ﷺ بحدسه العظيم ، وفقهه لنفوس الرجال ، وفراسته فى معادن القوم ، أن أبا سفيان زعيم مكة سيأتى ؛ ليطالب بتجديد عهد الحديبية ، وزيادة مدة الهدنة ، كى يخفى آثار تواطؤ قريش مع بنى بكر حلفائهم ، ويبرئ قريش من الظنة أنها ساهمت فى حرب خزاعة .

إنه يتعامل مع أبى سفيان منذ عشرين سنة ، ويعرف دهاء بنى أمية ، وأبعاد شخصية هذا الخصم ، ويعرف عليه الصلاة والسلام من جهة ثانية الصف الذى يقوده فيناطح

(١) انظر : سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣١٢ ـ ٣١٦ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧ ، ودلائل النبوة للبيهقى : ٥/ ٧ ـ ١١ ، والمغازى للواقدى ٢/ ٧٩١ ـ ٧٩٥ .

الثريا، أدبًا ، وانضباطًا ، وطاعة ، فقال عليه الصلاة والسلام كلمته الخالدة :

« لكأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول : جدد العهد ، وزد فى الهدنة ، وهو راجع بسخطه » .

ويدرك المصطفى ﷺ أن أبا سفيان قادم إلى المدينة ، كما مر معنا فى هذا النص ، فلم يصدر تعميمًا يحظر فيه اللقاء مع أبى سفيان بن حرب ، ويهدد بالموت من يتصل به أو يلقاه ، خشية الوصول إلى الأسرار العسكرية الخطيرة فى الدول،ويعاقب بالإعدام كل من تسول له نفسه أن يتصل بقائد العدو ، فهى الخيانة العظمى عند الدول ، وكم سقطت دول نتيجة تعرف أعدائها على مخططاتها .

لم يفعل الرسول ﷺ شيئًا من ذلك ، ولم يفاجأ بقدومه بحيث لم يتمكن من ذلك التعميم الذى لا يكلفه أكثر من كلمة يقولها،فتصل إلى بيت كل مسلم ، ويستجيش همم شعبه وقياداته،وأن يُبدوا روح الاستعداد للمواجهة والحرب، ويرفع معنوياتهم بالمواجهة، لم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئًا من ذلك كله،وهو واثق من قدوم أبى سفيان ، حتى لزوجه ـ أم حبيبة رضي الله عنها بنت قائد مكة وزعيمها ـ بنت أبى سفيان . لم يؤكد عليها ألا تلتقى مع أبيها إلا بحضوره،فالنساء منهن يأتى الخطر ،وهى ابنته وهو أبوها ، والأجدر حفاظًا على سياسات الدولة العليا أن تمتنع عن لقاء أبيها ، فهو الداهية الأريب الرهيب الذى لم يمسك بمقود المواجهة النبوية منذ بدر،وهو الشخص الأول دون منازع، كل هذا لم يتم فى هذه المدينة العظيمة الخالدة ،بل كان من الممكن حسب أعراف الدول، وفى جو الحرب ، أن تفرض الإقامة الجبرية على أبى سفيان ، ولا يتم لقاء أحد معه إلا رسول الله ﷺ القائد الأعلى للجيش ، ورئيس الدولة ، أو من يأذن له بلقائه فيما يخدم هذه المهمة .

لكننا أمام جيل ربانى ، تربى بكتاب الله ، وعلى يد معلم البشرية وسيدها ، ومربيها ، الذى يعرف جنده ، وشعبه ، والقيادات عنده ، ولم نسمع أى إشارة ، أو تلميح ، أو تلويح من بعيد عن عدم الرغبة فى لقاء جندى أو قائد مع أبى سفيان إنما ترك هذا القائد العدو أن يقوم بنفسه باختيار الشعب المسلم ، قياداته ، وأطفاله ، حتى نسائه، إذ كان بين من التقى معهم أبو سفيان ابنته أم حبيبة ، وابنة محمد ﷺ ـ فاطمة الزهراء ـ ولنشهد عظمة هذا الصف من خلال هذه اللقاءات .

٢ ـ كان اللقاء الأول له مع ابنته أم حبيبة رضي الله عنها والتى مر على بعده عنها قرابة خمسة عشر عامًا ، منذ أن هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ، وبقيت هناك صابرة محتسبة بعد ارتداد زوجها عن الإسلام ، حتى جاءتها سعادة الدنيا والآخرة بخطبة

رسول الله ﷺ لها ، وكان وكيل رسول الله ﷺ النجاشى ملك الحبشة الذى سلم المهر لابن عمها خالد بن سعيد ، وأولم للمسلمين هناك ، ثم جاءت إلى المدينة حيث وصلت والمسلمون فى خيبر ، وها هى تعيش أمًا للمؤمنين بجوار رسول الله ﷺ قرابة سنة ونصف وهذا أول لقاء لها مع أهلها ومع أبيها ـ أبى سفيان ـ بعد هذا الزمن الطويل ، لقد جاء أبو سفيان إلى بيت ابنته ، ولعل مصاهرته لرسول الله ﷺ تشفع له فى تحقيق المهمة التى جاء من أجلها،واستقبلت أباها بترحاب ،وود عظيمين ، وهشّت له وبشّت ، فهو أبوها الذى أمرها الإسلام ببرّه ، ولو كان مشركًا .

وجاء ليجلس إلى الفراش الذى لا يوجد غيره فى غرفتها ، فأسرعت ورفعته ، وانتظر فراشًا آخر يوضع له يتناسب ومقامه فلم تضع شيئًا ، وعلى كل عقله الكبير لم يدرك لم فعلت ذلك ، فسألها فى لهفة مشوبة باستنكار : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ جاء الجواب كوقع الصاعقة على رأسه : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ .

وإذا كان تلقى هذا الجواب فى أهون أمر وأصغره ، فكيف يمكن أن يصل منها إلى سر من أسرار الإسلام السياسية أو العسكرية . ولعلها أكبر طعنة وجهت إليه فى حياته من أقرب الناس إليه ، واستحضر كل حلمه حتى ضبط أعصابه التى كادت تتفجر ، وقال لها بتصنع واضح : يا بنية،لقد أصابك بعدى شر ، لقد غدت إنسانًا آخر بعده ولاشك ، وغدت صياغة جديدة بهذا الدين ، ولم تكتف بذلك ، فهى لا تريد إيذاءه وهى تحبه ، وتحرص على بره ومرضاته ، لكن هذا الحرص وهذا الحب يدفعها إلى أن تختار له ما اختارته لنفسها من خير ، وهل الإسلام شر حتى تغضى عن إجابته ؟ قالت بقوة الواثق الحكيم : بل هدانى الله للإسلام ، ثم تحولت من الابنة المسلمة إلى الابنة الداعية ، فكم هو حلم لا يقاربه حلم أن يدخل أباها الإسلام ، ويذوق حلاوته كما ذاقته ، تابعت حديثها :

وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام ، وأن تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر إنها الحجة التى يسوقها القرآن دائمًا ضد هؤلاء الذين تحجرت عقولهم كهذه الأحجار التى يعبدوها .

وأبو سفيان ليس من البلاهة والجنون بحيث يغيب عن ذهنه هذا المعنى ، ولقد أدرك منذ زمن بعيد أن المستقبل للإسلام فى الأرض ، وعلى الأقل منذ لقائه مع هرقل ، قبل قرابة عامين أو أقل وأن لا إله إلا الله،وأن محمدًا بلغ من القوة بهذا الإله أن تهابه

ملوك بنى الأصفر ، لكن أن يذهب بسيادته التى تقوم على أساس هذه العقيدة الباطلة ، وهو سيد قريش وكبيرها ، وستنتهى هذه السيادة بدخوله بهذا الدين ، فأجابها الإجابة التقليدية بعد أن كان لا يزال يلعق آثار جرحه الغائر :

يا عجباه وهذا منك أيضًا ؟ أأترك ما يعبد آبائى وأتبع دين محمد ؟

إنه علم أنه يطرق بابًا من حديد فى محاولة الوصول إلى كلمة واحدة مع ابنته التى من صلبه فقد غدت ابنة الإسلام وحده ، وزوج رسول الله ﷺ ، وتخطط كى تقوده إلى الإسلام ، فأى جدوى من وراء استدراجها لأخذ أسرار بيت النبوة ، إن لم يستطع أن يمس فراش رسول الله ﷺ ؛ لأنه مشرك نجس فكيف يمكن أن يمس سرًا من أسرار هذا البيت ، وأسرار هذه الدولة ؟ وإذا كان يفكر بغزوها فى أعماقها ودغدغة عواطفها الأبوية ، واستدراجها ، فهى تخطط كذلك لتغزوه فى أعماقه ، وتدخله فى حظيرة الإسلام ، وتعيد صياغته من جديد بهذا الدين ، وافترق الحبيبان بعد غياب خمسة عشر عامًا ، لتزداد الهوة بينهما من جديد ، وأنه لا لقاء إلا بالإسلام ، فما له وهذه المتاهة ولن يدخلها الآن مع أحد من أركان الدولة إن التقى به فلن يفكر أحد منهم أن يدعوه إلى الإسلام .

وإذا كان قد عجز أن يصل إلى شىء مع صديق عمه بُديل بن ورقاء الخزاعى وحليف محمد ، ولم يتمكن أن يصل إلى جواب سؤاله : أخبرونى عن يثرب منذ كم عهدكم بها ؟ وهو سؤال ماهر ذكى يضطر المجيب أن يتلعثم أو يتلكأ ، لكنه كان مع عبقرى مثله ، فقال مع النفير الذين معه : لا علم لنا بها ، وعرف أنهم كتموه ، ثم كان السؤال الثانى الذى تفتقت عنه عبقرية أبى سفيان ودهاؤه فى محاولة لوضع بديل فى اضطراب وتلعثم : أما معكم من تمر يثرب شىء تطعموناه ، فإن لتمر يثرب فضلاً على تمر تهامة ، ولكن بديلاً وصحبه كانوا من التمكن والقوة كالطود الشامخ ، فقالوا : لا .

وحين عجز عن الوصول إلى جواب شاف من الأسئلة غير المباشرة ، لم يكن له بد أن يسأل السؤال المباشر المحدد بعد أن يئس من أن ينزلق لسان بُديل بشىء كان السؤال : يا بُديل ، هل جئت محمدًا ؟ قال : لا ما فعلت ولكنى سرت فى بلاد كعبٍ وخزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم .

وحين عجز عن أخذ جواب مباشر أو غير مباشر تظاهر بالاقتناع ،ومضى بعد ذهابهم إلى بعر أبعرتهم ففته فى يده ، فرأى نوى يثرب فيه فقال : أحلف بالله لقد جاء القوم محمدًا .

وهذا دليل مادى واضح على قدومهم المدينة .

ويتساءل المرء بعدها :كيف يفوت أبو سفيان الداهية الأريب أن مهمته قد فشلت تمامًا منذ أن رأى نوى يثرب فى بعر وفد خزاعة ، فالخبر إذن قد وصل إلى محمد ﷺ ، ووصل فى تفاصيله فما هى جدوى جحود الأمر وإنكاره بعد علم رسول الله ﷺ به ؟

إن الجانب الذى سيصر على جحوده ،هو أن قريشًا لا علم لها بهذا الاعتداء المبيت، وقريش حريصة على استمرار الهدنة والصلح ، ووقوع هذا الأمر من بكر لا يلغى الاتفاق ، ويمكن تسوية هذا الحدث الطارئ بدفع ديات خزاعة ، لكنه تجاهل كذلك أن هذا الأمر قد رفضته قريش من قبل، ونبذت إليه على سواء بعد أن بادأها بإلغاء الاتفاق. فهو يحس فى أعماقه أن بوادر الفشل أصبحت كثيرة ، واحتمالات النجاح ضعفت بعد أن تأكد من وصول وفد خزاعة إلى رسول الله ﷺ لكنها السياسة التى لا تعرف الاستسلام وتؤمن بفن الممكن .

٣ـ وقبل أن يلتقى بأحد من الوسطاء ؛ ليكلم محمداً ﷺ فى مهمته ، مضى ليلقاه وجهًا لوجه ، وهو لقاء يعرف من خلاله الخط الذى يسير فيه بعد .

فأتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال :

يا محمد ، إنى كنت غائبًا فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد وزدنا فى المدة .

لقد صدقت فراسة رسول الله ﷺ السياسية مائة بالمائة : « كأنى بأبى سفيان وقد جاءكم يشد العقد ويزيد فى المدة » وها هو أبو سفيان أمامه يقول له : اشدد العهد وزدنا فى المدة ، والمسلمون شهود لهذا الحديث .

قال عليه الصلاة والسلام : « هل كان من قبلكم من حدث ؟ » .

وكان سؤالاً محرجًا لأبى سفيان ، لكن القرار الذى جاء به من مكة وعلى أساسه تحرك هو جحود هذا الأمر ، وفى حالة العجز التام عن الجحود ، فالتنصل من المسؤولية. فأجاب لتوه :

معاذ الله ، نحن على عهدنا ومدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل .

وعلى كل عبقرية أبى سفيان ودهائه ، فقد بدا بين يدى رسول الله ﷺ كالطفل ، فرسول الله ﷺ لم يكذبه ، ولم يدفعه علمه بكل ما جرى أن يفضح هذا الغدر ، إن له مهمة محددة يريد الوصول إليها هى كتمان أمر أى تحرك على مكة وها هو يتجاهل الأمر، ويتظاهر بتصديق أبى سفيان ليسد الطريق عليه من كل جانب فقال ﷺ : « فنحن على عهدنا ومدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل » .

فإذ لم يكن هناك من حدث طارئ ، ولا داعٍ للتغيير ، فالأصل بقاء العهد والميثاق على ما هو عليه دون تغيير أو تبديل .

وكان هذا الرد السياسى المفحم إغلاقًا لكل الأبواب السياسية فى وجه أبى سفيان .

فَلِمَ التغيير والتبديل طالما أنه لم يطرأ جديد على الساحة يقتضى هذا التغيير .

فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول . . . فلم يرد عليه شيئًا .

نحن ندعو صناع السياسة إلى أن يفقهوا هذا الدرس العظيم فى عالم السياسة ، الذى لم يحتج إلى بيان مديح ، ولا استرسال مسهب ، ولا نقد جارح ؛ لتحقيق الهدف الأكبر وراء هذه المقابلة ، هو كتمان كل شىء عن أبى سفيان ، والمحادثات علنية وفى المسجد .

ولننظر إلى هدف أبى سفيان وهدف رسول الله ﷺ ، أى منهما تحقق ، وأى منهما فشل . هدف أبى سفيان . تجديد العهد ، وزيادة المدة ، حتى لا يغزو محمد مكة ، وخطته : جحود الغدر وتجاهله .

وهدف رسول الله ﷺ : الإغارة على مكة بعد نقض العهد والنكث فيه ، وخطته: السرية التامة عن العدو . وحققت خطة أبى سفيان الفشل الذريع ؛ لأنها لم تقدم أى مبرر للتغيير والتبديل ، حيث ليس هناك من حدث يقتضى زيادة المدة وتجديد العقد ، وحققت خطة رسول الله ﷺ النجاح التام فى عدم الاضطرار إلى اللجوء للحديث فى الغزو ، والتهديد فيه ، إذا كان القوم لم يحدثوا حدثًا ، ولم يغدروا ولم ينكثوا ، فهو عليه الصلاة والسلام على عهده لم يغير ولم يبدل ، وقدَّم الجزاء المناسب لجحود أبى سفيان من جنس عمله ، وتركه عاجزًا عن أى تصرف ، فهو قد سد الأبواب عليه من كل جانب ، وأعطى الأغاليق لرسول الله ﷺ كى يحكم هذا السد عليه من كل جانب ، وهكذا يكون العمل للهدف وخطة الوصول إليه ، وكان هذا درسًا خالدًا فى التربية السياسية تلقاه الجيل المسلم من قائده ، وتعلم منه عبقرية السياسة دون دخل أو التواء .

٤ ـ وكانت الخطوة الثالثة المقابلات مع قادة الدولة الكبار ، فكانت أولى هذه المقابلات مع الوزير الأول فى دولة الإسلام (فذهب إلى أبى بكر رضي الله عنه فكلمه وقال : تكلم محمدًا أو تجير أنت بين الناس فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر ، فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟!! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به،ما كان من حلفنا جديدًا فأخلقه الله ، وما كان منه متينًا فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعًا فلا وصله الله ، فقال

أبو سفيان جزيت من ذى رحم شراً .

فأتى عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : إنه ليس فى القوم أحد أقرب رحمًا منك ، فزد فى المدة وجدّد فى العهد ، فإن صاحبك لا يرده عليك أبدًا ، فقال : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى عليًا رضي الله عنه فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحمًا ، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائبًا ، فاشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه) .

إنهم الأركان الأربعة فى دولة الإسلام ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، الذين كانوا فيما بعد خلفاء الأمة الراشدون ورؤساء دولة الإسلام، على اختلاف أخلاقهم لينًا وشدة، وعلى اختلاف قرابتهم ورحمهم قربًا وبعدًا ، كان الجواب واحدًا لدى الجميع ، كل حسب طريقته ، وقرابته ، وأسلوبه ، وقناعاته ، من دون أن يكون تعميم بذلك ، وتخطيط له ، فهناك حد معين لن يتجاوزه أحد ، لن يجير أحد على رسول الله ﷺ ، ورغم أننا نلاحظ فيما بعد أن أبا بكر رضي الله عنه كان أحرص الناس على تجنب غزو مكة ، وأن عمر رضي الله عنه أشد الناس تحمسًا لفتحها ؛لاختلاف منطلقاتهما فى الحكم ، ومع ذلك ، فكان الجواب واحدًا للوزيرين الكبيرين مع اختلاف اللهجة بينهما شدة ولينًا ، حتى ليضطر أبو سفيان أن يقول لعمر رضي الله عنه : جزيت من ذى رحم شراً ، وعثمان الذى تستحى منه الملائكة، الوزير الثالث فى دولة الإسلام، أقرب الناس رحمًا من أبى سفيان، فهو عثمان بن عفان بن أمية بن عبد شمس ، وذاك أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، فجدهما الأقرب واحد ، ومع ذلك فما تزلزل الحد الأدنى عنده ، وهو اللين فى عريكته ، السهل المحبب فى قومه ، وذاك على رضي الله عنه الذى يلتقى مع أبى سفيان فى الجد الثالث مع هذا سد الطرق على أبى سفيان قائلاً : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، وأنه لا يجير أحد على رسول الله ﷺ ، وها هو يفاجأ فى جولته الثالثة بخيبة أمل مريرة ، ألا يجد لدى مجلس وزراء النبى ﷺ من المهاجرين ، ومن أقرب الناس إليه ، صوتًا واحدًا يرتفع فى الإجارة بين الناس أو يتبنى زيادة المدة وتجديد العهد ، وكاد هذا العنصر الثالث من خطته يتصدع حتى ليكاد ينهار بنيانه كله معه .

٥ ـ فأتى سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال : يا أبا ثابت ، أنت سيد هذه البحيرة ، وقد عرفت الذى كان بينى وبينك ، وأنى قد كنت لك فى حرمنا جاراً ، وكنت لى بيثرب مثل ذلك فأجر بين الناس وزد فى المدة ، فقال سعد : يا أبا سفيان ، جوارى فى جوار

رسول الله ﷺ ، ما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، فأتى أشراف قريش والأنصار فكلهم يقول : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

إن أبا سفيان ليمتلئ حسرة ، وقد غادر مكة والقيادات منقسمة بينها كل يمضى على شاكلته ، فقد قاموا بالتواطؤ مع بكر دون إذنه وقاموا بإمدادهم والحرب معهم دون إذنه، وأجار سهيل بن عمرو أخواله خزاعة بجاهه ، وتقدم بعضهم بنبذ العهد على سواء دون إذنه ، وها هم يحملونه وزرَ تصرفاتهم كلها : ويرمون بأخطائهم عليه ، أين هذا الصف الذى تركه ، من هذا الصف الذى يفاجأ فيه ؟ فسعد بن عبادة هو حليف أبى سفيان فى الجاهلية وهو من أخص المقربين وآثرهم عند رسول الله ﷺ ، وسيد الخزرج بلا منازع ، والخزرج هم جمهرة الأنصار ، ويعيد إلى ذاكرته ذكرى الحلف السابق ، والمواقف الودية بينهما ، ولكن الجواب واحد ، كأنما خرج من مشكاة واحدة ، وفعلاً قد خرج من مشكاة واحدة ، من مشكاة النبوة التى رعت هذا الجيل وربته ، وكل أشراف الأنصار ، وكل أشراف المهاجرين على جواب واحد لا يتغير .

(جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ، ولا يجير أحد عليه) .

٦ ـ وكانت الحلقة الأخيرة من الخطة ، وعبقريته تتفتق عن كل جديد فى محاولة لتجنب الفشل والسقوط السياسى الخطير عند قومه أن يعود إليهم كما ذهب ، وتخفق مهمته كلها بعد طول انتظار ، كانت هذه الحلقة هى اللجوء إلى أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ، وآثرهم عنده إلى فاطمة بنت محمد التى هى أحب الناس إلى أبيها ، والمرأة ضعيفة ، والمرأة عاطفية ، وهو يحمل صورة قد وقعت من قبل أمام بنت محمد الثانية زينب التى أجارت زوجها أبا العاصَ بن الربيع يمضى وهو لا يشك أن هذه الحلقة قد تغير كل الإخفاق الذريع السابق ، فيستأذن عليها ويدخل قائلاً :

يا بنت محمد ، هل لك أن تجيرى بين الناس ؟ فقالت : إنما أنا امرأة ، قال : إن جوارك جائز قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز ذلك محمد ، فقالت : ذلك إلى رسول الله ﷺ وأبت عليه ، ولم يبق فى كنانته إلا السهم الأخير ، فقال لها : مرى ابنك هذا ـ أى الحسن بن على ـ أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، فهو إغراء ضخم أن يكون هذا الطفل الذى لا يزال يلثغ فى لسانه يقوم فيجير بين الناس، وتتحرك أبوة محمد وحنانه لهذه الإجارة ، فيوقف حربًا متوقعة تبيد الأخضر واليابس بين المسلمين وقريش ، ويذكر العرب له إلى آخر الدهر أنه هو الذى حجز بين الفريقين ، وأجار بين الناس .

لم يكن أبو سفيان يدرك ما أعد الله تعالى فى لوح الغيب لهذا الصبى الذى لا يزال

يعثر في مشيته ، ويتعثر فى كلامه ، ويلثغ فى لسانه ، أن يكون سيد العرب والمسلمين حقًا إلى آخر الدهر يوم وقف بعد قرابة خمس وأربعين عامًا ، وأجار بين الناس ، وتنازل عن الخلافة لابن أبى سفيان ـ معاوية ـ فحقن دماء عشرات الألوف من المسلمين ، وقد أعلم رسول الله ﷺ بمهمته قبل أن يغادر هذه الدنيا قائلاً :

« إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » .

ووقف سيد المسلمين إلى آخر الدهر بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية ؛ ليقول فى أروع ختام :

الحمد لله الذى هداكم بأولنا ، وحقن دمكم بآخرنا .

فكانت أبلغ خطبة سمعتها العرب لسيدها العظيم الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنه

أما اليوم فلا . وجواب فاطمة رضوان الله عليها أمام إغراء هذه الأمجاد .

(والله ما بلغ ابنى أن يجير بين الناس . . .) .

وحتى ولو بلغ (. . . وما يجير أحد على رسول الله ﷺ) .

٧ ـ وحين رأى الإخفاق قد بلغ ذروته نظر إلى على رضي الله عنه أعدى العدو الذى قتل حماه وابن حميه ـ الوليد بن عتبة ـ وعتبة بن ربيعة ، وأفراد كثيرين من أهله ، راح أبو سفيان يقول متجاوزاً تلك الدماء والثارات ، ضارعًا لعلى قائلاً : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك شيئًا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، قال : صدقت ، وأنا كذلك . قال : فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا ؟ قال : لا والله ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : (أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، وما أظن أحدًا يخفرنى) ثم دخل على محمد فقال : يا محمد ، إنى قد أجرت بين الناس ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » .

لقد أرضى علىّ غروره يوم قال له : إنك سيد بنى كنانة ، لكن ماذا تفيد الآن هذه السيادة إذا لم يقبل إجارته رسول الله ﷺ ، وقد نصحه على أن هذا الأمر لا يغنى عنه شيئًا ، ومع ذلك ففعله خير من رفضه ، وأحب أن يعرف أثر هذه الإجارة على رسول الله ﷺ ، ومدى قبوله لها، فسمع الجواب الذى أيأسه، مع ما فيه من غموض وكتمان: « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

لقد كان رسول الله ﷺ يكرم أبا سفيان وهو يكنيه بأبى حنظلة ، وكان أبو سفيان

رغم كل لباقته السياسية ، ودبلوماسيته ، يتجاوز هذا الأدب ، فيناديه : يا محمد ، دون أن يخاطبه : بأبى القاسم ، الاسم الذى اشتهر به بمكة ، لكن فى مضمون هذا التقدير يبحث أبو سفيان فلا يجد شيئًا يمسك به إلا كمن يمسك بيده بقبض الريح : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة »،وإن كان معناها الواضح ابتداء أن إجارته مرفوضة،لكن لتعلقه بخيط العنكبوت وحيث لم تأت بالصراحة المعهودة : جوارك مرفوض ، فيمكن أن تحتمل هذه الجملة،ولو بتصور ضعيف إمكانية قبول هذا الجوار :« أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

ومضى أبو سفيان خالى الوفاض فى مهمته ، وتلقى المسلمون كبارهم وصغارهم الدرس الثانى فى التربية السياسية مع جواب رسول الله ﷺ لأبى سفيان : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » فقد جعله فى حيص بيص ، لا يدرى عم ورد ، ولا يدرى مصير جواره ، ولا يدرى ما يود محمد ﷺ أن يفعله فى مكة ، ولا يدرى ما وصل إليه من التفصيلات ، ولم تجد كل الاستفزازات ، وكل الإثارات العاطفية وغير العاطفية ، ولم تجد عبقريته السياسية ، شيئًا فى الوصول إلى شىء يمسكه بيده ، يقوله لقومه ، ويواجه قريشًا به .

يزعم كثير من الناس أن السياسة لا تلتقى مع الإسلام ، فالسياسة كذب ودجل ، ومصالح ، وألاعيب ، ومكر . والإسلام أخلاقياته نظيفة ترفض هذه الأساليب ، وهو دين المبادئ الذى يتعامل بوضوح وصراحة مع الناس ، وهذا الزعم فيه شىء من الحق ، وشىء من الباطل ، فالسياسة هى فن التعامل مع الصديق وفن التعامل مع العدو ، وإذا كان بعض الساسة يبيعون مبادئهم لمصالحهم ، فهذا لا يعنى أن السياسة لا تكون إلا كذلك. إن المدرسة السياسية الإسلامية هى أعلى وأرقى مدارس السياسة فى الأرض ، وتحرك النبى ﷺ فى غزوة الفتح تحركًا سياسيًا قبل أن يكون تحركًا عسكريًا ، فالهدف عند رسول الله ﷺ أن يوجه إلى مكة الضربة القاضية بفتحها ، بأقل قدر ممكن من الدماء ، بحيث تجد مكة نفسها تحت الأمر الواقع فتضطر للاستسلام دون مقاومة ، وهذا العمل السياسى الذى قام به رسول الله ﷺ ، وغطى به تحركه العسكرى ، يدلنا على مدى أهمية العمل السياسى فى كل معركة ، إن الهدف هو الدعوة إلى الله عز وجل ، وفتح هذه القلوب المغلقة للإسلام ، وليس الهدف هو الإبادة ، والقتل ، والسحل للعدو ، فمعركة بدر التى تمت قبل سنين بين ثلاثمائة من المسلمين ، وألف من المشركين ، راح ضحيتها سبعون قتيلاً من المشركين ، وأسر سبعون ، فكيف إذا كان الجيش الإسلامى عشرة آلاف مقاتل يريد أن يدخل مكة عنوة ، لاشك أن القتلى ستكون بالآلاف ، وسيحمل عشرات الألوف وراء هؤلاء الآلاف الحقد والثأر ، والكراهية للإسلام وأهله ،

وفرق كبير بين القائد سيد الأنبياء ، وبين القائد العسكرى الفاتح الذى يفخر بعدد الجماجم التى سحقها لنصره ، ويعتبر النصر الحقيقى بآلاف القتلى الذين ذبحهم لتحقيق هذا النصر ، وما هذان الدرسان فى التربية السياسية فى جامعة النبوة ، فى المسجد إلا نموذجان على فن السياسة العظمى فى طريقة التعامل مع العدو ، فيدخل المدينة لأيام ويغادرها دون أن يتعرف على ذرة من الخطة النبوية ، وقد قابل الكبار ، والصغار ، والرجال ، والنساء ، والأطفال ، وعاد خالى الوفاض ، كما دخل ، دون حاجة إلى كذب أو غدر أو نكث للعهد ونقض له .

٨ ـ وبعودة أبى سفيان إلى مكة ، والناس ينتظرون بلهفة نتائج مهمته ، كان أول من اصطدم بفشله السياسى هى زوجته هند بنت عتبة بعد أن تعبأت أجواء مكة بالظن السيئ فيه أنه تابع محمداً على دينه لتأخره فى مهمته ، وحين كان فى ساعة شوق ولهفة لزوجته هند ، كانت هى فى شوق أشد ، لتطمئن على مكة وسلامتها بعد الرؤيا التى أفزعتها حين رأت الدم يسيل من الحجون إلى الخندمة ثم يتوقف ، وما أن حدثها عن خلاصة مهمته حتى تحركت دون وعى منها وضربت فى صدره برجلها قائلة :

قبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

ويدرك أبو سفيان حليم مكة ، عصبية هند وعنفوانها ، فيمتص الموقف بهدوء ، ويعلم أنه مقبل على إعلان فشله الذريع أمام الملأ من قريش صبيحة اليوم التالى ، وفى مجلس قريش الذين راحوا يتسابقون ، لسؤاله عن مهمته التى حددها لنفسه ابتداءً ، ووافقوه عليها ، وهى تجديد العهد ، وزيادة المدة ، كمحاولة لمنع احتمالات غزو مكة ثأراً لخزاعة، حلفاء محمد . لخص مهمته بقوله بعد سؤالهم :

ـ (ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد،أو زيادة فى مدة ، ما نأمن به أن يغزونا محمد ؟

ـ والله لقد أبى على ، وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، وقد كلمت علية أصحابه فما قدرت على شىء منهم إلا أنهم يرموننى بكلمة واحدة ، وما رأيت قومًا أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن عليًا لما ضاقت بى الأمور قال : أنت سيد بنى كنانة ، فأجر بين الناس ، فناديت بالجوار ، وما أظن أن يرد جوارى ، فقال : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

ـ والله ما زاد علىّ على أن تلعَّب بك تلعبًا . رضيت بغير رضى ، ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهيِّن .

ـ والله ما وجدت غير ذلك) .

وراحوا يتهامسون بالسر بينهم عن احتمالات إسلام أبى سفيان فى السر ، وليس الأمر فشل مهمة بمقدار ما هى خيانة أمة ، وخروج عن ملة ، خاصة وقد ذكّرته هند بذلك قائلة :

لقد حُبِست حتى اتهمك قومك ، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل.

وهو يدرك من وجوه قومه بذكائه اللماح ما تغلى به صدورهم من ظنون نحوه ، وخيبة أمل فيه . . . فلما أصبح فى اليوم الثانى حلق رأسه عند الصنمين ـ إساف ونائلة ـ وذبح لهما ، وراح يمسح بالدم رؤوسهما ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى : أبرأ لقريش مما اتهموه .

وخفتت التهمة والظنون بدينه كما خفتت الثقة العالية بعبقريته ؛ لفشله الذريع فى تجديد العهد ، وزيادة المدة ، وبقيت قريش على أعصابها تنتظر مصيرها المحتمل بغزو محمد ﷺ لها الذى لا ينام على ضيم ، ولا يخفر جاره ، ولا يضام حليفه .

السرية والكتمان فى غزو مكة ، وقضية حاطب

١ ـ روى ابن أبى شيبة عن محمد ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ عن أبى مالك الأشجعى قال : (خرج رسول الله ﷺ من بعض حجره ، وجلس عند بابها ، وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه ، فقال : « ادع لى أبا بكر » فجاء ، فجلس أبو بكر بين يديه فناجاه طويلاً،ثم أمره ، فجلس عن يمينه ، ثم قال :« ادع لى عمر » فجاء ، فجلس إلى أبى بكر ، فناجاه طويلاً ، فرفع عمر صوته ، فقال :

يا رسول الله ، هم رأس الكفر ، هم الذين زعموا أنك ساحر ، وأنك كاهن ، وأنك كذاب ، وأنك مفتر ، ولم يدع عمر شيئًا مما كان أهل مكة يقولونه إلا ذكره ، فأمره أن يجلس إلى الجانب الآخر ، فجلس أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، ثم دعا الناس فقال : « ألا أحدثكم بمثَل صاحبيكم هذين ؟ فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأقبل بوجهه إلى أبى بكر، فقال: « إن إبراهيم كان ألين فى الله تعالى من الدهن اللين » ثم أقبل على عمر فقال : « إن نوحًا كان أشد فى الله من الحجر ، وإن الأمر أمر عمر ، فتجهزوا وتعاونوا » فتبعوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر ، إنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﷺ ، قال : قال لى : « كيف تأمرنى فى غزو مكة ؟ » قلت : يا رسول الله ، هم قومك حتى رأيت أنه سيطيعنى ، ثم دعا عمر فقال عمر : هم رأس الكفر حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه ، وايم الله وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة ، وقد أمركم بالجهاد ؛ ليغزو مكة) (١) .

٢ ـ حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى ،عن محمد بن جبير بن مُطعم قال:(لما ولى أبو سفيان راجعًا ، قال رسول الله ﷺ لعائشة : « جهزينا وأخفى أمرك » وقال رسول الله ﷺ : « اللهم خذ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة » ، ويقال: قال : « اللهم خذ على قريش الأبصار فلا يرونى إلا بغتة ، ولا يسمعون بى إلا فجأة »، قالوا : وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب ، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول : لا تدعوا أحدًا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه ، وكانت الأنقاب مسلمة إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويُسأل عنه ، أو ناحية مكة)(٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٣١٦ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٥ ، وانظر : ابن هشام ٢/٣٩٧ ،ودلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٢، والأنقاب : الطرق .

٣ ـ قالوا: (فدخل أبو بكر على عائشة وهى تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحًا سويقًا ودقيقًا وتمرًا ،فدخل عليها أبو بكر فقال: يا عائشة ، أهَمَّ رسول الله ﷺ بغزو ؟ قالت: ما أدرى ، قال : إن كان رسول الله ﷺ هَمَّ بسفر فآذنينا نتهيأ له ، قالت : ما أدرى . لعله يريد بنى سُليم ،لعله يريد ثقيفًا ، لعله يريد هوازن ! فاستعجمت عليه حتى دخل رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، أردت سفراً ؟ قال : نعم . فقال له أبو بكر : أفأتجهز ؟ قال : نعم ، قال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله ؟ قال: « قريشًا وأخف ذلك يا أبا بكر » ، وأمر رسول الله بالجهاز ، قال : أوليس بيننا وبينهم مدة ؟ قال : « إنهم غدروا ونقضوا العهد ، فأنا غازيهم » . وقال لأبى بكر : « اطو ما ذكرت لك » فظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام ، وظان يظن ثقيفًا ، وظان يظن هوازن، وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظانٌ أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار) (١) .

٤ ـ وعن أبى رافع قال : (سمعت عليًا رضي الله عنه يقول : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (٢) فإن بها ظعينة (٣) معها كتاب فخذوه منها » ، قال : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا لها : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجته مـن عقاصهـا ، فأتينـا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب ابن أبى بلتعة ، إلى ناس بمكة من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ،ما هذا ؟ » فقال : يا رسول الله ، لا تعجل على ، إنى كنت امرءاً ملصقًا فى قريش ، يقول : كنت حليفًا، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: « أما إنه قد صدقكم » فقال عمر: يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فأنزل الله السورة (الممتحنة) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① ﴾ [الممتحنة])(٤) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٦ .

(٢) روضة خاخ : على بريد من المدينة ، والبريد أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال .

(٣) الظعينة : الهودج كانت فيه امرأة أم لا .

(٤) البخارى ٢/ ٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥ .

وذكر السهيلى رحمه الله تعالى أنه قد قيل: إنه كان فى كتاب حاطب : (إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر) (١) .

وفى رواية ابن إسحاق : (حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير ، وغيره من علمائنا قالوا : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم، ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم لى غيرهم أنها سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشًا ، فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم » ، فخرجا حتى أدركاها بالخليفة ـ خليفة بنى أبى أحمد ـ فاستنزلاها ، فالتمسا رحلها فلم يجدا شيئًا ، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كَذَبَ رسول الله ﷺ ولا كَذِبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد منه، قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منه ، فدفعته إليه فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا ، فقال : « يا حاطب ،ما حملك على هذا ؟ » ، فقال : يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءًا ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فأنزل الله تعالى فى حاطب: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٤] إلى آخر القصة)(٢) .

٥ ـ الحكم فى قتل الجاسوس: وفى الحديث دليل على قتل الجاسوس، فإن عمر رضي الله عنه

(١) الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٤/ ٩٧ .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٩٩ .

قال : دعنى فلأضرب عنقه ، فقال له النبى ﷺ : « وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع إلى أصحاب بدر » الحديث ، فعلق حكم المنع من قتله بشهود بدر ، فدل على أن من فعل مثل فعله وليس ببدرى أنه يُقتل . زاد البخارى فى بعض روايات الحديث قال : فاغرورقت عينا عمر ﷺ وقال : الله ورسوله أعلم ، يعنى حين سمعه يقول فى أهل بدر ما قال، وفى مسند الحارث أن حاطبًا قال : يا رسول الله، كنت عريرًا فى قريش، وكانت أمى بين ظهرانيهم ، فأردت أن يحفظونى فيها ، أو نحو هذا ـ ثم فسر العرير : وقال : هو الغريب) (١) .

* * *

١ ـ الجو فى المدينة جو متوتر ، لكنه غامض ، وجاء رسول الله ﷺ صبيحة أحد الأيام ، فاستدعى أبا بكر ﷺ وسارَّه ، ثم استدعى عمر ﷺ وسارَّه ، وارتفع صوت عمر حتى عرف الناس شيئًا ما من موضوع الحديث مع رسول الله ﷺ ، وأمام استغراب الناس ، وأمام الأجيال الوافدة التى لا تعرف إلا رسول الله ﷺ ، أراد عليه الصلاة والسلام أن يعرفهم بشيخى المسلمين أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فقال: « ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين ؟ » فقالوا : نعم يا رسول الله .

ـ فأقبل بوجهه إلى أبى بكر فقال : « إن إبراهيم كان ألين فى الله تعالى من الدهن اللين » .

ـ ثم أقبل على عمر ، فقال : « إن نوحًا كان أشد فى الله من الحجر » .

وراجع الناس قول عمر ﷺ : يا رسول الله هم رأس الكفر ، هم الذين زعموا أنك ساحر ، وأنك كاهن ، وأنك كذاب ، وأنك مفتر ، ولم يدع عمر شيئًا مما يقوله أهل مكة إلا ذكره .

فأدرك المسلمون أن الحديث عن قريش ، والاختلاف بين الشيخين هو على طريقة التعامل معها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الأمر أمر عمر فتجهزوا وتعاونوا » .

ونتوقع أن تكون هذه الحادثة متأخرة ؛ لأن الأمر بالجهاز والتعبئة قد كان ابتداء دون تحديد جهة السير ، وسنرى فيما بعد أن كعب بن مالك ﷺ مضى مع الجيش أشواطًا ، ولم يعرف الجيش بعد أين المسير ، فالطريق الذى مضى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ يمكن أن يقود إلى هوازن وثقيف ودوس ومكة ، ولا يدرون أين يتوجه النبى ﷺ ، وإذا صح هذا النص ، فلعله كان فى خاصة أصحابه دون سائر المسلمين .

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٩٨ .

٢ ـ ونلاحظ فى البداية أن هذا الأمر كان مكتومًا حتى عن الخاصة ، وأخص الخاصة هو الصديق ﷺ ، فهو أول المستشارين وكبير الوزراء فى دولة الإسلام .

لقد أمر رسول الله ﷺ عائشة ﷺ بقوله : « جهزينا وأخفى أمرك » ، وقال : «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة » ، فدخل أبو بكر على عائشة وهى تجهز رسول الله ﷺ ، تعمل قمحًا سويقًا ، ودقيقًا ، وتمرًا ، فدخل عليها أبو بكر فقال : يا عائشة ، أهمَّ رسول الله ﷺ بغزو ؟ فقالت : ما أدرى، قال : إن كان رسول الله ﷺ همَّ بسفر فآذنينا نتهيأ له، قالت: ما أدرى ، لعله يريد بنى سليم، لعله يريد ثقيفًا ،لعله يريد هوازن! وفى مرسل سلمة عند ابن أبى شيبة ثم قال: « جهزينى ولا تعلمى بذلك أحدًا » .

نحن أمام هذا الطراز الرفيع من النساء بنت السادسة عشر من عمرها ، وأبوها الذى تعرف أنه صاحب سر رسول الله ﷺ ومستشاره الأول، وقد تربت فى بيته وبيت النبوة، تكتم أمر هذا الخروج حتى عن أبيها ، وعندها السر المخبوء الذى لا يعرفه أحد إلا هى وزوجها الحبيب ، لكنها فى التربية العالية فى بيت النبوة تحفظ هذا السر عن أبيها حتى وهو يسألها عنه ، فلا تجتهد فى إعطائه شيئًا منه ، بل تعمى الأمر عليه أكثر ، فتصرف نظره إلى ثقيف وسليم وهوازن ، ولا تذكر قريشًا البتة،وهؤلاء النساء اللاتى يقال عنهن: أنهن لا يحملن سرًا ، فإذا بها أعظم من أى قائد وأى مسؤول تؤتمن على هذا السر .

لقد كانت ﷺ أهلاً لحمل هذا السر وهى فى الثامنة من عمرها فى بيت أبيها، حين دخل رسول الله ﷺ على أبيها أبى بكر ، فقال له: « أخرج مَنْ هنا » ، قال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى ، حيث كانت عائشة الصغرى زوج رسول الله ﷺ ، وأحب عليه الصلاة والسلام أن يدربها على السر منذ تلك اللحظة ، فقبل بقاءها فى الغرفة ، وقال: « يا أبا بكر ، قد أذن الله تعالى لى فى الهجرة » ، قال : الصحبة يا رسول الله ، قال : «الصحبة »، وذلك فى الوقت الذى كُتم فيه أمر الهجرة عن كل أصحاب رسول الله ﷺ إلا عن بيت أبى بكر وبيت رسول الله ﷺ .

ولقد تلقت عائشة ﷺ درسًا قاسيًا من ربها حين أفشت سر رسول الله ﷺ إلى ضرتها حفصة ونزل فى ذلك قرآن يتلى :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾ [التحريم] .

ونزل أمر الله تعالى يدعوها إلى التوبة مع أختها حفصة :

﴿ إن تَتُوبَا إلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ④ ﴾ [التحريم] .

(وتعرضت حياتها للخطر بقوله عز وجل : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ⑤ ﴾ [التحريم])(1) .

ومن أجل ذلك كانت حريصة أشد الحرص على أن تكتم أمر الغزو ومكانه عن أبيها رضي الله عنه .

٣ ـ ودخل أبو بكر رضي الله عنه يشكو عائشة أم المؤمنين إلى رسول الله ﷺ فيما بلبلته وأخفت عنه : (يا رسول الله ، هل أردت سفرًا ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » ، قال : أفأتجهز ؟ قال: « نعم »، قال أبو بكر: فأين تريد يا رسول الله ؟ قال : « قريشًا، وأخف ذلك يا أبا بكر » .

وأدرك أبو بكر رضي الله عنه من ساعته ، سر إخفاء الأمر من عائشة عنه فهى أوامر نبوية لا تقبل الاجتهاد ، (قال: أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟ قال: « إنهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا غازيهم » .

ثم عاد رسول الله ﷺ فأكد الأمر الجازم : « اطو ما ذكرت لك » وظان يظن ثقيفًا، وظان يظن هوازن ، وظان يظن أن رسول الله ﷺ إنما يريد الشام) .

وشاع فى المدينة خبر التأهب للغزو ، وترك الأمر لدى الصف المسلم غائبًا عنه .

٤ ـ وأضيف إلى هذا السر الوزير الثانى فى الإسلام عمر بن الخطاب : وأوكل بمهمة مراقبة الطرقات الخارجة من المدينة ، حيث وضع عليها الحرس ، ومراقبة خروج الخارجين من مكة زيادة فى الحيطة والحذر والسرية ، وكل من يود أن يمضى إلى مكة لابد أن يفتش ويساءل دون أن يُعلم بسبب ذلك .

٥ ـ ثم كانت الخطة الثالثة بالتمويه بعد كتمان أمر الغزو عن الجميع ، وبعد مراقبة الأنقاب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها . خطة بعث أبى قتادة فارس رسول الله ﷺ فى سرية معه إلى بطن إضم .

---

(1) روى البخارى عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: إنى أجد منك ريح مغافير (شبيه بالصمغ) قال :« لا ، ولكنى أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحدًا » : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾) البخارى ٦/ ١٩٤ .

(وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار) .

٦ ـ وبعد كل هذه الإجراءات والاحتياطات البشرية فى التنفيذ الدقيق للخطة: «اللهم خذ العيون والأبصار عنهم ، فلا يرونى إلا بغتة ، ولا يسمعوا بى إلا فجأة » ، كان أمر حاطب بن أبى بلتعة البدرى ﷺ فى بعث المولاة إلى قريش بعيدًا عن الأنقاب والطرقات ، فتدخل الوحى الإلهى تلبية لرجاء نبيه وعبده محمد ﷺ (وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب) .

٧ ـ وفى رواية الواقدى عن شيوخه قال : كتب حاطب إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل : (إن رسول الله ﷺ قد أذَّن فى الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد بكتابى إليكم)، ودفع الكتاب إلى امرأة من مزينة من أهل العرج يقال لها : كنود [١] وجعل لها ديناراً [٢] على أن تبلغ الكتاب ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليها محرسًا ، فسلكت على غير نقب ، عن يسار المحجة فى الفُلوق [٣] ، حتى لقيت الطريق بالعقيق[٤] .

وحاطب بن أبى بلتعة ﷺ هو من الجيل القيادى الأول من أهل بدر ، وكان واحدًا من ستة أوكل إليهم أن ينقلوا رسالة رسول الله ﷺ إلى الملوك ، وكان هو صاحب المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وأبدى من الوعى والنباهة والنضج السياسى ما لفت أنظار المقوقس داهية مصر ، يحدثنا عن هذه المهمة بقوله : (بعثنى رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية قال : فجيته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلنى فى منزله ، وأقمت عنده ، ثم بعث إلىَّ وقد جمع بطارقته فقال : إنى سأكلمك بكلام وأحب أن تفهمه منى ، قال ، قلت : هلم ، قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟ ! قال : فقلت: بلى هو رسول الله. قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ ! قال : فقلت : عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله عز وجل حتى رفعه إليه فى السماء الدنيا، قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك ببذرقة يبذرقونك إلى مأمنك ، قال : فأهدى إلى

---

(١) ذكر ابن إسحاق أن اسمها سارة .
(٢) وفى رواية : جعل لها عشرة دنانير .
(٣) الفُلوق : جمع فلق وهو الشق .
(٤) العقيق : أشهر أودية المدينة ويبتدئ بعد ذى الحليفة (حوالى ١٥ كم عن المدينة) .

رسول الله ﷺ ثلاث جوار منهن أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لأبى جهم بن حذيفة ، وواحدة وهبها لحسان بن ثابت الأنصارى، وأرسل إليهم بطرف من طرفهم)(١) .

فهو من الطبقة العليا من الصحابة ولم يكن قد مر على مهمته هذه أكثر من سنة ، فما باله يضعف رضي الله عنه أمام أهله ، ولم يحفظ له تاريخه الناصع أى زلة من هذه الزلات من قبل .

(وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة ، وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرُّض هذه النفس للحظات الضعف البشرى مهما بلغ من كمالها وقوتها ، وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو يعين عليها) .

ثم يقف الإنسان أمام عظمة الرسول الله ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل: « ما حملك على ما صنعت ؟ » فى سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة فى نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : « صدق لا تقولوا إلا خيراً » ليعينه وينهضه من عثرته ، فلا يطارده بها ولا يدع أحداً يطارده بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم فى شدة عمر: « إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، دعنى فلأضرب عنقه » فعمر رضي الله عنه ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم ، أما رسول الله ﷺ ، فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها مع العطف الكريم الملهم الذى تنشئه المعرفة الكلية فى موقف المربى الكريم العطوف المتأنى الناظر إلى جميع الملابسات والظروف ، ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو فى لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيمانى الصحيح فذلك حين يقول : (أردت أن تكون لى عند القوم يد . . . يدفع الله بها عن أهلى ومالى) فالله هو الذى يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها إنما يدفع الله بها ، ويؤكد هذا التصور فى بقية حديثه وهو يقول : (وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع ـ الله ـ به عن أهله وماله) فهو الله حاضر فى تصوره ، وهو الذى يدفع لا العشيرة ، إنما العشيرة أداة يدفع الله بها .

ولعل حس رسول الله ﷺ الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحى فى قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله ﷺ : « صدق . . . لا تقولوا إلا خيراً » .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣٩٦/٤ .

وأخيرًا يقف الإنسان أمام تقدير الله فى الحادث،وهو أن يكون حاطب من القلة [1] التى يعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة ، وأن تدركه لحظة الضعف البشرى وهو من القلة المختارة ، ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع ولا تنفج بالقول : ها هو ذا أحد الذين استودعوا السر خانوه ، ولو أودِعناه نحن ما بُحنا به ! فلم يرد من هذا شىء مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم ، وتواضعهم فى الظن بأنفسهم واعتبارهم بما حدث لأخيهم .

والحادث متواتر الرواية أما نزول هذه الآيات فهو أحد روايات البخارى ، ولا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولكن مضمون النص القرآنى ـ كما قلنا ـ أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذى تواترت به الروايات بمناسبة وقوع هذا الحادث على طريقة القرآن) [2] .

٨ ـ والذى يؤكد هذا المعنى هو انضمام أضعاف الجيش الإسلامى إلى الجيش الأساسى ، وكله من شباب القبائل الذين أسلموا حديثًا ، ولا تزال ارتباطاتهم حية بقبائلهم ،فكان هذا الحادث ـ كما يقال فى علم التربية ـ وسيلة إيضاح سمعية بصرية ، يتم من خلالها الحديث عن تقديم رابطة العقيدة على رابطة القبيلة بكل ما تحتاجه هذه القضية الخطيرة من جهد فى البناء والتربية والتكوين؛لتحول هذه الآلاف إلى أبناء للعقيدة الواحدة ، جاعلين رابطة القبيلة تدور مع رابطة العقيدة ، واختار الله تعالى لهذا الدرس أن يكون أحد البدريين هو الذى ينطلق الحديث عن الآيات بسببه ؛ ليؤكد لهذه الآلاف المؤلفة أن المطلوب منهم هو الانسلاخ التام منذ الآن من رابطة القبيلة والالتحام بالإسلام وقيادته ودولته ، وخاصة بالنسبة لأولئك الأفراد نزاع القبائل الذين لا تزال قبائلهم تقف موقف المحاربة لهذا الدين ، والمعاداة له .

٩ ـ (ولكن مضمون النص القرآنى ـ كما قلنا ـ أبعد مدى ـ كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة؛ليخرج بها من هذا الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى ، وكان ينشئ فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيمًا جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان، ووظيفة المؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى ، وكان كأنما يجمع هذه النبتات

(١) تتضافر الروايات التى تنقل نص الكتاب حيث تشير أن الأمر ظنى عنده فى النفير إلى مكة ، وهذا يشترك فيه مع المسلمين جميعًا .

(٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٥٣٨، ٣٥٣٩ .

الصغيرة الجديدة فى كنف الله ؛ ليعلمهم الله ، ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه، وأنه يريد بهم أمرًا ، ويحقق بهم قدرًا ، ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته ، ويُعرفون بهذه الشارة ، وتلك السمة بين الأقوام جميعًا فى الدنيا والآخرة ، وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته فى عالم الشعور ، وعالم السلوك)[1] .

١٠ ـ ولأن الالتباس قد يقع الآن فى طبيعة هذا الجيش الإسلامى الجديد ، حيث انقادت القبائل الصغيرة فى الحجاز للإسلام بكيانها كله ، وانطلق شبابها يلبون نداء الإسلام للحرب ، فقد تلتبس القضية عند هؤلاء الآلاف من الشباب أن الاستجابة عندهم هو لنداء القبيلة ، وقيادة القبيلة ، والله تعالى يريد لهم التخلص من هذه الازدواجية ، واعتبار تلبية هذا النداء هو استجابة لله ورسوله وحده، فى حرب المحادين لله ولرسوله، ولو كانوا قبيلة رسول الله ﷺ . هذا الاختلاط فى المشاعر والولاء ، وعدم الخلوص منه جر على المسلمين الويلات الكبرى فى التاريخ الإسلامى ، حيث عادت القبيلة بعد حين تستعيد حياتها وتمزق المجتمع الإسلامى إلى صراعات داخلية أنهكته وأجهزت عليه ، فلابد لهذا الجيل الأول أن يمحّص الولاء لله عز وجل من أى ولاء آخر ، ويدور مع الإسلام حيث دار ، فإن كانت قبيلته معه كان معها ، وإن كانت ضده تخلى عنها ، لا أن يدور مع قبيلته حيث تدور ، ولأمر ما نلاحظ أن كل الأحداث الضخام فى فتح مكة تناولها القرآن الكريم بسورة النصر : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر] .

بينما احتفل القرآن الكريم بهذا الحادث ، وأنزل فيه السورة كاملة تقريبًا ؛ لتحدد معالم الولاء والبراء فى هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

لقد كانت هذه الأمور قد تمحصت وتحددت فى جيل الحديبية الذى كانت لبناته فردية مستقلة قائمة على اختيار الإسلام بعيدًا عن موقف القبيلة منه ، فالولاء واضح جلى خالص . أما وقد جاءت وفود العديد من القبائل لتنضم باسم قبائلها إلى الإسلام ، كان لابد من هذا الدرس الإيضاحى الجلى الذى يعزز هذه القواعد جميعًا إلى الصف الإسلامى .

١١ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/٣٥٣٩ ، ٣٥٤٠ .

كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل (١) إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون (٢) ﴾ [الممتحنة] .

والذى يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ، ويهتدى بنوره بعد الضلال ، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته وإدراكه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار أو أشد ، فعدو الله هو الذى يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوى بعد عالم الإيمان المعمور ؛ لهذا يندرج القرآن فى تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم ، حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم : ﴿ وودوا لو تكفرون (٢) ﴾ [الممتحنة] [1] .

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير (٣) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٤) ﴾ [الممتحنة] .

(وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ،وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان ، وإذا هو راجع إلى إبراهيم لا فى عقيدته فحسب ، بل فى تجاربه التى عاناها كذلك ، فيشعر أن له رصيدًا من التجارب أكبر من رصيده الشخصى ، وأكبر من رصيد جيله الذى يعيش فيه ، إن هذه القافلة الممتدة فى شعاب الزمن من المؤمنين بدين الله الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل ما يمر به وقد انتهت فى تجربتها إلى قرار اتخذته ، فليس الأمر جديدًا ولا مبتدعًا ولا تكليفًا يشق على المؤمنين ، ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقى معها فى العقيدة ، ويرجع إليها إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته ، فهو فرع من شجرة ضخمة ، باسقة عميقة الجذور ، كثيرة الفروع ، وارفة الظلال . . . الشجرة التى غرسها أول المؤمنين إبراهيم .

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانيها المسلمون المهاجرون،وفيهم أسوةٌ حسنة: ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ، فهى البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم ،

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤١ .

وهو الكفر بهم والإيمان بالله ، وهى العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده ، وهى المفاصلة الحاسمة الجازمة التى لا تُبقى شيئًا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ، وفى هذا فصل الخطاب فى مثل هذه التجربة التى يمر بها المؤمن فى أى جيل ، وفى قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين.

ولقد كان بعض المؤمنين يجد فى استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو مشرك ـ ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوى قرباهم من المشركين ، فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم فى قوله لأبيه : ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ ، فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك ، قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٤] ، كما جاء فى سورة أخرى)[1] .

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) ﴾ [الممتحنة].

وفى نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفى استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾ [الممتحنة] ،فالأسوة فى إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر،هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التى عاناها هذا الرهط الكريم . . . فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج ،من يريد أن يحيد عن طريق القافلة ، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق،فما بالله من حاجة إليه،فإن الله هو الغنى الحميد.

(بعدئذ يعود فينسم على القلوب التى يعلم الله ما بها من حنين ورغبة فى زوال حالة العداء والجفوة التى تكلفهم هذه المشقة ينسم عليها بنسمة الأمل الندية فى أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام وإلى صفوف المسلمين ، فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين)[2] . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [الممتحنة] .

١٢ ـ ونعود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى رأى أن قضية إفشاء سر المسلمين والصلات مع قيادة أعدائهم دون علم قيادة المؤمنين خيانة وارتداد عن الدين لا عقوبة له إلا قط العنق ، ويطلب أن ينفذ هو هذا الحكم بإذن قيادته ، فيأتى الجواب من المصطفى

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٥٤٢ .
(٢) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٣ .

ﷺ : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، ننتقل إليه ، وهو الأسد الهصور الذى لا يرضيه إلا قتل حاطب ، فإذا به بعد هذه الكلمة الندية من قائده ورسوله الحبيب ، وقد غدا إنسانًا آخر ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وقال : الله ورسوله أعلم لا ليعلنها ثورة لشخصه وذاته ويكبتها فى نفسه لهذا التهاون مع هذه الخيانة ، ويخرج عن طوره قائلا : وإن كان من أهل بدر ، كما كان يفعل كل جاهلى مع قيادته ، بل ينكفئ على نفسه لتطاوله فى حق سيد مسلم من سادات أهل بدر ، ورب العزة جل جلاله قد كتب له فى الأزل مغفرة زلاته يوم شرّفه بحضور غزوة بدر ؛ ليعلن براءته من نفسه وذاته ورأبه واندفاعه ـ ولو لعقيدته ـ بأن يفوّض الأمر إلى الله عز وجل ، والدموع تغمر وجهه : الله ورسوله أعلم . ولا يدرى فقد يكون حاطب بن أبى بلتعة عند الله خيرًا منه .

١٣ ـ ولكن القرآن الكريم جاء ليبنى هذه الأمة الربانية من كل جانب .

فإذا كان الجانب المهم فى بنائها هو معرفتها فضل أهل بدر وأن يتعرف هؤلاء الآلاف العشرة على فضل الجيل القائد الرائد ـ جيل بدر ـ وأنه قد حاز على مرضاة الله ، فهو من جانب آخر يريد بناء هذا الجيش الذى يملك فى صفه أكثر من ثلثيه من حضر أول معركة فى حياته تحت راية الإسلام ورسول الإسلام يريد أن يحرر بمناسبة هذه الحادثة كثيرًا من المعانى ويمحصها فى ضرورة الولاء الخالص للإسلام وحده ولقيادة هذه الأمة كما فعل من مع إبراهيم مع قائدهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جانب ترك تقدير التصرف الأنسب حربًا أو سلمًا أو مودة إلى القيادة النبوية العظيمة . ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة] .

وفى أقل من شهرين يتحقق موعود الله تعالى ، فإذا عكرمة وصفوان وسهيل الذين وُجه اللوم لحاطب من أجلهم ، فهم عدو الله المحارب ، إذا هؤلاء الثلاثة وغيرهم جند من جند الله عز وجل ، وعادت المودة والأواصر والحب بين الجميع تحت راية الإسلام ، والآيات تريد هذا التمحيص الكامل الخالص لهؤلاء الجنود ، لقيادتهم النبوية ، وأن يكونوا من ورائهم فى الموقف المناسب الذى تراه وهو الموقف الأصعب والأعنف فى قبول التواد والتراحم مع هؤلاء الأعداء حين يرى رسول الله ﷺ ضرورة ذلك ليضمهم إلى هذا الدين بدل أن يعمل فيهم السيف ، فيفنيهم عن بكرة أبيهم . ﴿ **وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة] .

١٤ ـ وبقى هذا السر مكتومًا ، وساعد على نجاح الخطة حتى بعد مسيرة الجيش كله إلى مكة .

(فلما نزل رسول الله ﷺ بالعرج[1] ، والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ إلى قريش أو إلى هوازن ، أو إلى ثقيف ، فهم يحبون أن يعلموا ، فجلس فى أصحابه بالعرج وهو يتحدث ، فقال كعب بن مالك :آتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه، فجاء كعب فبرك بين يدى رسول الله ﷺ على ركبتيه ثم قال :

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوف
نسائلها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن : دوسًا أو ثقيفًا
فلست لحاضر إن لم تروها ... بساحة داركم منها ألوفا
فننتزع الخيام ببطن وجٍ ... ونترك دورهم منهم خلوفًا

فتبسم رسول الله ﷺ ، ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بيَّن لك رسول الله شيئًا ، ما ندرى بمن يُبدى بقريش أو ثقيف أو هوازن)[2] .

وكعب من القيادات الكبرى ومن النقباء الاثنى عشر وهو يجهل الهدف الأولى والرئيسى للجيش وهو شاعر رسول الله ﷺ ، وهو أولى الناس بالمعرفة ، ومع ذلك لم يعرف الأمر . . وبقى الأمر مكتومًا عن الخُلص من أصحابه .

١٥ ـ وإذا كانت العرج قريبة من المدينة ، فلم يُزل الالتباس حتى بعد أن نشرت الرايات والألوية ، وتوزعت القيادات والمهمات ، وأخذ الجيش وضعه الطبيعى ، كان عيينة بن حصن قد انضم إلى الجيش .

(فلما نزل ـ رسول الله ـ قُدَيْد[3] عقد الألوية وجعل الرايات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ بالرايات والألوية عضَّ على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ، قال : على قومى ألا يكونوا نفروا على محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله)[4] .

١٦ ـ (وجن جنون هوازن وثقيف لأبيات كعب السابقة ، فبعثوا يرصدون حركة الجيش ، هل هو متجه إليهم أم إلى مكة فبعثوا عينًا منهم وقالوا له : ائت المدينة حتى تلقى محمداً فتستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه، أيبعث إلى قريش بعثًا أو يغزوهم بنفسه، ولا نراه إلا يستفورهم، فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سرف،

(١) العرج : قرية جامعة على نحو ثلاث مراحل من المدينة بطريق مكة تبعد عن المدينة ١١٣ كم .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٢ .
(٣) قديد : واد يمتد بطول ١٢٠ كم بين مكة والمدينة فى منتصف الطريق وهو إلى مكة أقرب .
(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٤ .

فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سرف حتى يصل إلينا ، وإن كان يريد قريشًا فسيلزم الطريق) [1] .

وبقى هذا العين أسيرًا عند المسلمين ، وبقيت هوازن فى حيص بيص لا تدرى أيتجه محمد إليها أم إلى قومه .

١٧ ـ وبقى الأمر سرًا عن قريش تنفيذًا لخطة رسول الله ﷺ : « اللهم خذ العيون والأبصار عنا فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة » ، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى مشارف مكة .

(واجتمع المسلمون بمر الظهران [2] ، ولم يبلغ قريشًا حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم فقد اغتموا وهم يخافون أن يغزوهم رسول الله ﷺ) [3]، ولكنهم يغطون فى سبات عميق ، رغم كل القلق والذعر الذى يحيط بهم . (فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران عشاءً أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار) وهنا لم يعد رسول الله ﷺ يخشى معرفة قريش به ، ولو كان يخشى ذلك لما أمر بإيقاد النار بهذا الحجم ، بل أراد عليه الصلاة والسلام أن تعرف قريشًا بجيش الله الجرار بهذا الحجم وهذه الضخامة ، فتعلن استسلامها له) .

١٨ ـ وحتى ندرك الفارق الضخم بين عظمة التخطيط النبوى ، وتخلف تخطيط قريش ، وتعاملها مع هذا الحدث . (أجمعت قريش بعثة أبى سفيان بن حرب يتحسس الأخبار ، وقالوا : إن لقيت محمدًا فخذ لنا منه جوارًا إلا أن ترى رقة من أصحابه فآذنه بالحرب) [4] .

فهم أجمعوا أمرهم أن يعيدوا وفادة أبى سفيان ثانية إلى المدينة يزيد فى المدة ويجدد العهد ، ولكنهم ـ كما يرون فى عميق تخطيطهم بأنه إذا رأى ضعفًا أو رقة أو تخاذلاً من جند محمد ، فليؤذنه بالحرب ، لزيادة تخويفهم وإرعابهم ، هذا هو المستوى الذى بلغته قريش فى تخطيطها لمواجهة احتمالات حرب محمد لها ، ولنشهد مهمة أبى سفيان فيما يتعلق بهذا الأمر .

١٩ ـ (فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام ، فلقيا بُديل بن ورقاء فاستتبعاه فخرج معهما ، فلما بلغوا الأراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران، وسمعوا صهيل الخيل ، ورغاء الإبل ، فأفزعهم ذلك فزعًا شديدًا ، فقالوا : هؤلاء بنو كعب

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٥ .

(٢) مر الظهران : واد قرب مكة ويبعد عنها قرابة ٢٥ كم .

(٣، ٤) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٤ .

حاشتها الحرب ! فقال بُديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب ، قالوا : فتنجعت هوازن على أرضنا ! والله ما نعرف هذا ! إن هذا العسكر مثل حاج الناس)(١) .

وفى رواية ابن هشام: (وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليل نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال: يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، قال يقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها) .

٢٠ ـ وانتهت مهمة أبى سفيان إلى المدينة فى تجديد العقد وزيادة المدة ، والتهديد بالحرب إن وجد رقة من أصحابه ، أقول : انتهت هذه المهمة بأسر أبى سفيان القائد العام لمكة وقريش سيد البطحاء الذى أجار بين الناس ، وسيد قريش وكنانة .

(قال ابن عقبة : فبينما هم يعنى أبا سفيان ، وحكيم بن حزام وبديلاً بن ورقاء كذلك لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله ﷺ بعثهم عيونًا له ، فأخذوا بخطم أبعرتهم، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان: هل سمعتم بمثل هذا الجيش ، نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم)(٢) .

وروى ابن أبى شيبة عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن قالا : أخذ أبو سفيان وأصحابه وكان حرس رسول الله ﷺ نفر من الأنصار ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الليلة على الحرس فجاؤوا بهم إليه فقالوا : جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة ، فقال عمر وهو يضحك إليهم : والله لو جئتمونى بأبى سفيان ما زدتم ، قالوا : قد والله أتيناك بأبى سفيان ، فقال : احبسوه ، فحبسوه حتى أصبح)(٣) .

٢١ ـ وهكذا شهدنا عظمة التربية النبوية لهذا الجيش على الكتمان والسرية ولشعبه كله عليها ، ابتداء من ابنة السادسة عشرة عائشة رضي الله عنها وانتهاء بأبى بكر الوزير الأول وكبير الوزراء فى دولة الإسلام ، ومرورًا بابنة أبى سفيان قائد العدو أم حبيبة رضي الله عنها .

والمخالفة الوحيدة التى شهدناها فى هذا المنحى كله ، هى مخالفة حاطب رضي الله عنه والتى تدخل الوحى الإلهى لكشفها ، ونزل القرآن الكريم بها يربى الجيل على خطورة سلوكها ، وكانت هذه التربية من التأثير والتفاعل والقوة بحيث حالت دون أى مخالفة أخرى فيما بعد ،والجيش ملىء بحديثى الإسلام ،ومن خاضوا أول معركة لهم تحت راية النبى ﷺ ، وعجز كعب رضي الله عنه أحد وزراء الأنصار ، والرجل الثانى فى الإعلام النبوى أن يعرف مكان اتجاه الجيش وهدفه كما عجز عيينة بن حصن العدو اللدود السابق للإسلام

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٤ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ٥/ ٣٢٦ .

وحتى بعد منتصف الطريق فى تحديد هوية المكان المقصود للغزو ، وانتهت بأخذ أبى سفيان بن حرب القائد العام لجيش مكة أسيرًا،وهو خارج إلى المدينة ؛ ليتعرف الأخبار ، ويجدد العهد ، ويهدد بالحرب إن وجد رقة من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام ، فهل لنا أن نتعلم عظمة التخطيط والمتابعة ودقة التنفيذ لنجاح المهمة من إمام المربين عليه الصلاة والسلام، ونعود باللائمة أولاً وقبل كل شىء على أنفسنا حين نسىء التخطيط أو نسىء التنفيذ أو نسىء المتابعة ، بدل أن نعود بها على العدو والاستعمار ؟ !!

تكوين الجيش الإسلامى والرواد الأوائل

(قالوا : فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية ، وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، وبعث رسولاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ : أسلم ،وغفار ، ومُزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وبعث إلى بنى سُليم ، فأما بنو سليم فلقيته بقديد ، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة .

قال : وحدثنى سعيد بن أبى عطاء ، عن أبى مروان ، عن أبيه ، عن جده قال :

أرسل رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة ، وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم : إن رسول الله يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ جندبًا ، ورافعًا ابنى مكيث إلى جهينة يأمرهم أن يحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ إيماء بن رَحضة ، وأبا رُهم كلثوم بن الحصين إلى بنى غفار ، وضمرة ، وبعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونُعيم بن مسعود ، وبعث إلى مزينة بلال ابن الحارث ، وعبد الله بن عمرو المزنى ، وبعث إلى بنى سُليم الحجاج بن عِلاط السُلمى ، ثم البهزى ، وعرباض بن سارية ، وبعث إلى بنى كعب بن عمرو بشر بن سفيان ، وبُديل بن ورقاء ، فلقيه بنو كعب بقُديد ، وخرج معه من كان من بنى كعب بالمدينة ، وعسكر رسول الله ﷺ ببئر أبى عنبة ، وعقد الألوية والرايات ، فكان فى المهاجرين ثلاث رايات ، راية مع الزبير ، وراية مع على عليه السلام ، وراية مع سعد بن أبى وقاص ، وكان فى الأوس بنى عبد الأشهل راية مع أبى نائلة ، وفى بنى ظفر راية مع قتادة بن النعمان ، وفى بنى حارثة راية مع أبى بردة بن نيار ، وفى بنى معاوية راية مع جبر بن عتيك ، وفى بنى خطمة راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر ، وفى مبيض . . . وفى بنى ساعدة راية مع أبى أسيد الساعدى ، وفى بنى الحارث بن الخزرج راية مع عبد الله بن زيد ،وفى بنى سلمة راية مع قطبة بن عامر بن حَديدة ،وفى بنى مالك بن النجار راية مع عمارة بن حزم ، وفى بنى مازن راية مع سليط بن قيس ، وفى بنى دينار راية يحملها . . . وكان المهاجرون سبعمائة،ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفًا من الخيل مائة فرس ومائة درع وفيها ثلاثة ألوية ؛ لواء مع النعمان بن مقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو، وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرسًا ، ولواءان يحملهما بريدة

ابن الحصيب والآخر ناجية بن الأعجم ، وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرسًا ، فيها أربعة ألوية ، لواء مع سويد بن صخر ، ولواء مع ابن مكيث ولواء مع أبى زرعة ، ولواء مع عبد الله بن بدر ، وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة فيهم ثلاثة ألوية ؛ لواء بشر بن سفيان ، ولواء مع ابن شريح ، ولواء مع عمرو بن سالم ، ولم يكن خرج معه من المدينة لقيه قومه بقُديد)(١) .

(قال : وحدثنى قُزان بن محمد عن عيسى بن عميلة الفزارى قال : كان عيينة فى أهله بنجد ، فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج فى نفر من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبة فسبق إلى العرْج ، فوجده رسول الله ﷺ بالعرْج ، فلما نزل رسول الله ﷺ العرْج أتاه فقال :

يا رسول الله ، بلغنى خروجك،ومن تجمع إليك فأقبلت سريعًا ولم أشعر ، فأجمع قومى فيكون لنا جَلَبَة كبيرة ، ولست أرى هيئة حرب ، ولا أرى ألوية ولا رايات ! فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيئة الإحرام ! فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله » ، وذهب وسار معه ، ووجد الأقرع بن حابس بالسقيا قد وافاها فى عشرة نفر من قومه فساروا معه ، فلما نزلوا قُديد عقد الألوية ، وجعل الرايات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضَّ على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومى ، ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله ، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع ، وعيينة)(٢) .

(ولما نزل رسول الله ﷺ قُديداً لقيته سليم وذلك أنهم نفروا من بلادهم فلقوه وهم تسعمائة على الخيول جميعًا مع كل رجل رمحه وسلاحه ، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم ، فذكرا أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ حيث نزلا عليهم ، وحشدوا ويقال : إنهم ألف ، فقالت سُليم : يا رسول الله ، إنك تُقصينا ، وتستغشنا ، ونحن أخوالك ـ أم هاشم بن عبد مناف ، وعاتكة بنت مرة . . . من بنى سُليم : فقدّمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا ، فإنا صُبُر فى الحرب ، صُدُق عند اللقاء،فُرسانٌ على متون الخيل ،فقال رسول الله ﷺ : « سيروا » فجعلهم مقدمته ، وكان خالد بن الوليد على مقدمة النبى ﷺ حين لقيته بنو سليم بقديد حتى نزلوا مرَّ الظهران ، وبنو سليم معه)(٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٩٩ ـ ٨٠١ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٨٠٣ ، ٨٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢/٨١٢ ، ٨١٣ .

(قال : حدثنى شعيب بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه، قال : خرجت بنو سُليم تسعمائة على الخيول ، والقنا والدروع ظاهرة ، قد طووا ألويتهم ، وراياتهم ، وليس معهم لواء ولا راية معقودة ، فقالوا : يا رسول الله ، اعقد لنا ، وضع راياتنا حيث رأيت ، فقال : « يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها فى الجاهلية ! ما فعل فتى كان قدم مع وفدكم علىّ ، حسن الوجه ، جيد اللسان ؟ قالوا : توفى حديثًا)(١) .

(قال : حدثنى عكرمة بن فروخ ، عن معاوية بن جاهمة بن عباس بن عباس بن مرداس السلمى ، قال : قال عباس : لقيته وهو يسير حتى هبط من المشلل فى آلة الحرب ، والحديد ظاهر علينا ، والخيل تنازعنا الأعنَّة ، فصففنا لرسول الله ﷺ ، وإلى جنبه أبو بكر ، وعمر ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عيينة ، هذه بنو سُليم قد حضرت بما ترى من العدة والعدد » ، فقال : يا رسول الله ، جاءهم داعيك ، ولم يأتنى ، أما والله إن قومى لمعدون مؤدون فى الكراع والسلاح وإنهم لأحلاس(٢) الخيل ورجال الحرب ، ورماة الحدق(٣) ، فقال العباس بن مرداس : أقصر أيها الرجل ، والله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل ، وأطعن بالقنا ،وأضرب بالمشرفية (٤) منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت ولؤمت لنحن أولى بما ذكرت منك ، قد عرفته لنا العرب قاطبة ، فأومأ إليهما النبى ﷺ بيده حتى سكتا)(٥) .

* * *

كان آخر عهدنا بالجيش الإسلامى وفى أضخم تجمع عددى له هو فى غزوة مؤتة ، حيث بلغ ثلاثة آلاف مقاتل ، وها نحن الآن أمام جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ، أى ثلاثة أضعاف ونيف ، فمن أين جاءت هذه الأعداد الضخمة خلال مدة لا تتجاوز بضعة أشهر ، من جمادى الأولى إلى رمضان أى قرابة أربعة أشهر ، وأى امتداد تم للإسلام خلال هذه المرحلة ؟

وسنقف ـ مليًا ـ مع كل سرايا الجيش الإسلامى وكتائبه ، كما ساقها الواقدى رحمه الله ، إذ لم يفصل غيره فى ذلك ، إلا ما ذكروه بالجملة من أنباء القبائل الذين شاركوا

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٨١٣ .

(٢) أحلاس الخيل : جمع حلس وهو الكساء الذى يلى ظهر البعير ، ويريد هنا : لزومهم لظهور الخيل .

(٣) الحدق : جمع حدقة وهى سواد العين ، والمعنى هنا : أنهم يصيبون العين إذا رموا .

(٤) السيوف المشرفية : تنسب إلى مشارف الشام . (٥) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٣ ، ٨١٤ .

فى الغزوة ، وسنتحدث عن الرواد الأوائل فى كل قبيلة ، وهم الذين كانوا حداة قومهم وهداتهم إلى النور ، ونعود كذلك إلى استحضار حديث رسول الله ﷺ الذى يذكر هذه القبائل ، فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قريش ، والأنصار ،ومزينة ،وجهينة ،وأسلم ، وغفار ، وأشجع موالىّ ليس لهم مولى دون الله ورسوله »(١) .

وهذه القبائل المذكورة هى قوام الجيش الإسلامى فى المدينة ، وهم الذين خلصوا من العصبية القبلية ، والانتماء إلى قبائلهم ، وتولوا الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، فكانوا هم نواة حزب الله فى الأرض ، وكانوا هم القاعدة العريضة التى قام الإسلام على أكتافهم ، وسنعرض لهم بالتفصيل :

أولاً : قريش

وهى التى كانت تمثل المهاجرين ، ومنها السابقون الأولون فى الأرض ، وقد تخلت عن ولائها القبلى منذ لحظات الإسلام الأولى ، فقد انضموا إلى رسول الله ﷺ ، وقد انسلخوا عن قبائلهم ، وكانوا نواة الإسلام فى الوجود ، وكانوا الحجر الأساسى لحزب الله فى الأرض ، وفى السنة الأولى للهجرة كانوا يمثلون صفا واحدًا وحزبًا واحدًا تحت اسم « المهاجرين » كما ورد فى وثيقة المدينة :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ،أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رميتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .) (٢) .

كما ذابت القبائل الفرعية من قريش ؛ سهم ومخزوم وهاشم وتيم وعدى ، فقد كان يطلق عليهم قريش ، أو المهاجرون ، وبدأ اسم المهاجرين يضم تحت لوائه نزاع القبائل الأخرى ، وتحت هذا المصطلح يمكن أن ينضم ستة آلاف من الجيش الإسلامى ، مقابل أربعة آلاف من الأنصار ، وقد فاز بلقب المهاجر كل من هاجر إلى رسول الله ﷺ قبل فتح مكة ، فالمسلمون من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار هم جزء من شجرة المهاجرين الضخمة،لكن هذه الشجرة كان جذعها الرئيسى هو قريش ،ولهذا أفردها رسول الله ﷺ بهذا الحديث ، حيث كانت قريش قسمين ضخمين ؛ القسم الأول : وهو الذين

(١) مسلم ٤/١٩٥٤ ح ٢٥٢٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٦٨ .

آمنوا منهم وانضموا لرسول الله ﷺ ، والقسم الثانى : الذى بقى يحمل راية الحرب ضد الإسلام ، وكانت عندما تطلق قبل الفتح ، إنما يقصد بها المشركون من قريش ، وطغا اسم المهاجرين على المسلمين منهم .

لقد كان عدد المهاجرين ـ كما ذكر محمد بن عمر ـ فى جيش الفتح سبعمائة ، بينما رأينا أنهم كانوا فى خيبر ثمانمائة حيث ذكر هناك أن أسلم ثمن المهاجرين(١) ، لكن أسلم اليوم انفصلت برايتها المستقلة بالأسلميين فيبقى المهاجرون سبعمائة هم من قريش ، ونزاع القبائل وأفرادها الذين لم تكن لهم قبيلة معينة خاضت الحرب تحت اسمها الصريح كالقبائل الخمسة المذكورة آنفًا ؛ أسلم وأشجع ، ومزينة ، وجهينة ، وبنى كعب من خزاعة، وغيرها مثل سُليم ، فالفرد من غير أهل المدينة مهاجرىّ ، وجزءٌ من المهاجرين، وأحد السبعمائة المذكورين .

(وكان مع المهاجرين ثلاث رايات ، راية مع الزبير ، وراية مع على ، وراية مع سعد بن أبى وقاص) .

هؤلاء الثلاثة الذين كانوا يحملون راية المهاجرين يوم فتح مكة ، وكانوا فتيانًا صغاراً يوم انضموا لحزب الله فى الأرض ، وعاشوا المحنة منذ لحظاتها الأولى ، فكان عُمْر علىّ يوم أسلم ثمانية أعوام ، وعمر الزبير اثنا عشر عامًا ، وعُمْر سعد ستة عشر عامًا،وها هم اليوم يعودون إلى مكة ـ بعد أن هاجروا منها ـ رجالاً تهتز لهم الأرض ، ويكونون ثلاثة من عشرة هم خيرة أهل الأرض بعد النبيين والمرسلين ،وهم العشرة المبشرون فى الجنة .

وهؤلاء الثلاثة لهم سابقتهم فى الجهاد ، فسعد أول من أراق دمًا للمشركين فى الأرض وأول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وعلىّ أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن وأول من قتل قتيلاً فى الإسلام بالمبارزة ، والزبير أول من أشهر سيفًا فى سبيل الله وهو ابن اثنى عشر عامًا فى مكة .

ولا داعى للحديث عن بقية المهاجرين السبعمائة ، أو الاستفاضة فى الحديث عن هؤلاء الثلاثة ، فهم صنعوا التاريخ الإسلامى ، وهم فجره الأول ، وشمسه التى لا تغيب لحظة عن هذا التاريخ .

ثانيًا : الأنصار

وهم الذين آووا ونصروا ، وذكرهم القرآن فى محكم التنزيل : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا

(١) كان الأسلميون فى خيبر مائة ، وهذا ما أوضح العدد الكلى للمهاجرين .

الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾
[الحشر]

وهؤلاء الأنصار فرعان ضخمان هما : الأوس والخزرج ، ومن كل فرع نبتت قبائل وبطون متعددة :

أ ـ الأوس :

وسيدهم بلا منازع هو سعد بن معاذ ، سيد الأوس جميعًا ، وسيد بنى عبد الأشهل خصوصًا ، وقد استُشهد فى الخندق ، ويليه فى الفضل أسيد بن حضير وعباد بن بشر ، وقد نما عدد الأوس المسلمين ، إذ أنّ قسمًا منهم بقى متريثًا عن الإسلام حتى غزوة الخندق ، (حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله وهم من الأوس ابن حارثة ، وذلك أن فيهم أبو قيس بن الأسلت وهو صيفى ، وكان شاعرًا لهم ، قائدًا يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل كذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق . . .)(١) .

وبعد دخول هذا القسم الكبير من الأوس فى الإسلام ، توزعت رايات الأوس على الصيغة التالية :

١ ـ بنو عبد الأشهل ، راية مع أبى نائلة ، و(أبو نائلة الأنصارى اسمه سلكان بن سلامة بن وقش بن . . . عبد الأشهل الأنصارى الأوسى الأشهلى . . . وهو مشهور بكُنيته ، ثبت ذكره فى الصحيح فى قصة قتل كعب بن الأشرف ، وشهد أحدًا وغيرها ، وكان شاعرًا ومن الرماة المذكورين)(٢) .

٢ ـ وفى بنى ظُفر ، راية مع قتادة بن النعمان ،و(قتادة بن النعمان بن زيد بن . . . ظفر الأوسى ثم الظفرى . . . وقال خليفة وابن حبان وجماعة : شهد بدرًا ، وحكى ابن شاهين عن ابن أبى داود أنه أول من دخل المدينة بسورة من القرآن وهى سورة مريم، وروى عن النبى ﷺ أحاديث . . . وأخرج البغوى عن . . . عاصم بن عمر بن قتادة ، عن قتادة بن النعمان أنه أصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقتُه على وجنته ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١ ، وقد اختلف فى إسلام أبى قيس ، وقيل : إن النبى ﷺ بعث له أن قل : لا إله إلا الله ، أشفع لك بها يوم القيامة فلما حضره الموت قالها ، انظر : الإصابة ٤/ ١٦٠ ـ ١٦٢ .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٧/ ١٩١، ١٩٢ ت (١١٣٥) .

فأرادوا أن يقطعوها فقالوا: لا ، حتى نستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمروه فقال : « لا »، ثم دعا به فوضع راحته على حدقته ثم غمزها ، فكان لا يدرى أى عينيه ذهب ، ومن طريق يعقوب بن محمد الزهرى ، عن ... عاصم بن عمر بن قتادة عن جده أنه سالت عينه على خده يوم بدر فردها ، فكانت أصح عينيه ، قال عاصم : فحدَّثتُ به عمر بن عبد العزيز فقال :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شِيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا

وجاء من وجه آخر أنها أصيبت يوم أحد ، أخرجها الدارقطنى وابن شاهين ... والبيهقى فى الدلائل ... وابن إسحاق ... وذكر الواقدى أنه كان معه يوم حنين وأنه من ظُفر ، وأخرج أحمد عن طريق أبى سعيد بن الحارث عن أبى سلمة عن أبى سعيد[1] فى قصة ساعة الجمعة قال :

(هاجت السماء فخرج النبى ﷺ لصلاة العشاء ، فبرقت برقة ، فرأى قتادة بن النعمان فقال : « ما السرى[2] يا قتادة ؟ » ، قال : يا رسول الله ، إن شاهد العشاء قليل فأحببت أن أشهدها ، فقال : « إذا صليت فائت » ، فلما انصرف أعطاه العرجون[3] ، قال : « خذ هذا فسيضيء لك ، فإذا دخلت البيت ورأيت سوادًا فى زاوية البيت ، فاضربه قبل أن يتكلم ، فإنه شيطان »،وأخرج هذه القصة الطبرانى ... مات فى خلافة عمر فصلى عليه ونزل فى قبره ، وعاش خمسًا وستين سنة) [4] .

٣ ـ وفى بنى حارثة ، راية مع أبى بردة بن نيار ، و(أبو بردة بن نيار الأنصارى خال البراء بن عازب اسمه هانئ ... شهد أبو بردة بدرًا وما بعدها ، وروى عن النبى ﷺ ... قال أبو عمر : مات فى أول خلافة معاوية بعد أن شهد مع علىّ رضي الله عنه حروبه كلها) [5] .

٤ ـ وفى بنى معاوية ، راية مع جبر بن عتيك و(جبر بن عتيك بن قيس ... بن معاوية بن ... مالك بن الأوس الأنصارى ،تقدم فى جابر بن عتيك ،وأنه شهد بدرًا ، وأن منهم من قال : إنه أخو جابر بن عتيك المتقدم ، وكانت معه راية قومه يوم الفتح ، وقال الواقدى : مات جبر بن عتيك الأنصارى سنة إحدى وسبعين ، وقال ابن سعد : هم ثلاثة إخوة ، جابر وجبر وعبد الله ، وكان جبر أكبرهم)[6] .

---

(١) هو أبو سعيد الخدرى ،وهو أخو قتادة من أمه . (٢) السرى : المسير والخروج فى الليل .

(٣) العرجون : السواك .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٥/ت (٧٠٧٠) باختصار .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٧/١٧ ، ١٨ ت (١١٦). (٦) المصدر نفسه ١/١/ت (١٠٦٢) .

٥ ـ وفى بنى خطمة ، راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر ، و(أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى مختلف فى اسمه، قال موسى بن عُقبة : اسمه بشر . . . وقال ابن إسحاق : اسمه رفاعة . . . قال ابن إسحاق : زعموا أن النبى ﷺ ردَّ أبا لبابة والحارث بن حاطب بعد أن خرجا معه إلى بدر ، فأمَّر أبا لبابة على المدينة ، وضرب لهما بسهمهما وأجرهما مع أصحاب بدر ، وكذلك ذكره موسى بن عُقبة مع البدريين، وقالوا : كان أحد النقباء ليلة العقبة، ونسبوه إلى عبد المنذر بن زر بن زيد بن . . . أميّة بن زيد بن . . . مالك بن عوف بن الأوس ، ويقال : إن رفاعة ومعشرًا أخوان لأبى لبابة وكانت راية بنى عمرو ابن عوف يوم الفتح معه[1] . . . يُقال : مات فى خلافة على ، وقال خليفة : مات بعد مقتل عثمان ، ويقال : عاش إلى ما بعد الخمسين)[2] ، وربط نفسه إلى سارية المسجد ، وكانت تحله ابنته لحاجة الإنسان والصلاة فبقى كذلك بضع عشرة ليلة . . . وكان سبب ذلك أن بنى قريظة لما حصرهم رسول الله ﷺ ، وكانوا حلفاء الأوس، فاستشاروه فى أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ [3] فأشار إليهم أنه الذبح ، قال : فما برحت قدماى حتى عرفت أنى خُنت الله ورسوله فجاء وربط نفسه، وقيل : إنما ربط نفسه ؛لأنه تخلف عن غزوة تبوك ، فربط نفسه بسارية فقال : والله لا أحل نفسى ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى يتوب الله على ، فمكث سبعة أيام لا يذوق شيئًا حتى خر مغشيًا عليه ، ثم تاب الله عز وجل عليه . . .)[4] .

٦ ـ وفى بنى أمية راية مع مُبَيّض[5] ، قال ابن حيويه (نبيض) فى كتاب أبى حية ، فتركته .

ب ـ الخزرج :

٧ ـ وفى بنى ساعدة راية مع أبى أسيد الساعدى :

و(أبو أسيد الساعدى : هو مالك بن ربيعة بن . . . ساعدة بن كعب بن الخزرج ، شهد بدرًا وأحدًا وما بعدها ، وكانت معه راية بنى ساعدة يوم الفتح ، وروى عن النبى

---

(١) وهو الأنسب فهو من بنى عمرو بن عوف ، أما راية بنى خطمة فكانت مع خزيمة بن ثابت ذى الشهادتين ، كما روى ابن الأثير فى أسد الغابة ٢/ ١٣٣ ت (١٤٤٦) .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٧/ ١٦٥ ت (٩٧٣) .

(٣) والأصح حكم رسول الله ﷺ كما عند ابن إسحاق (السيرة ٣/ ٣٢٨) ؛لأنهم نزلوا على حكم سعد رضي الله عنه .

(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٦/ ٢٢٦ ت (٦١٩٨) .

(٥) لم أعثر على ترجمة لهذا الاسم (نبيض أو مبيض) فى كتب التراجم ، رغم أن العديد من الصحابة من بنى أمية بدريون ، والغالب أن هناك سقط ، أو تحريف فى النسخة المحققة للمغازى للواقدى فى هذا الموقع ، ودليل ثان على السقط هو أنه لم يذكر إلا خمس رايات للخزرج ، والخزرج أضعاف الأوس فى العدد .

ﷺ أحاديث . . . وكان قد ذهب بصره ، ومات سنة ستين وهو ابن ثمان وقيل خمس وسبعين وقيل ثمانين، وهو آخر البدريين موتًا)[١] ، وأخرج له مسلم أن النبى ﷺ قال: « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ،ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير »[٢] .

٨ ـ وفى بنى الحارث بن الخزرج راية مع عبد الله بن زيد : و(عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد . . . بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الخزرجى الحارثى . . . شهد عبد الله العقبة وبدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى أرى الأذان فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن على ما رآه عبد الله)[٣] .

٩ ـ وفى بنى سلمة راية مع قطبة بن عامر بن حديدة : و(قطبة بن عامر بن حديدة ابن . . . سلمة الأنصارى الخزرجى ، يكنى أبا زيد . . . ذكره فيمن شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها ، وكانت معه راية بنى سلمة يوم الفتح . . . وقال ابن أبى حاتم : توفى قطبة فى خلافة عمر ، وقال ابن حبان : بدرى مات فى خلافة عثمان)[٤] .

١٠ ـ وفى بنى مالك بن النجار راية مع عمارة بن حزم : و(عمارة بن حزم بن زيد ابن . . . مالك بن النجار الأنصارى . . . ذكره ابن إسحاق فيمن شهد العقبة ، قال أبو عمر : اتفق على ذلك جميع أهل المغازى ، وذكره أكثرهم فيمن شهد بدرًا ، وقال ابن سعد : شهد المشاهد كلها ، وكانت معه راية بنى مالك بن النجار يوم الفتح ، وذكره ابن إسحاق فيمن استشهد باليمامة . . . وروى ابن سعد عن الواقدى بسند له ، عن أم سلمة قالت : كانت الأنصار الذين يكثرون إلطاف رسول الله ﷺ ، سعد بن عبادة ، وعمارة ابن حزم ، وأبو أيوب ، وسعد بن معاذ لقرب جوارهم)[٥] .

١١ ـ وفى بنى مازن راية مع سليط بن قيس : و(سليط بن قيس بن عمرو بن عبيد ابن مالك[٦] بن . . . عدى بن النجار ،شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد كلها ، وقتل يوم جسر أبى عبيد الثقفى بالعراق)[٧] .

١٢ ـ وفى بنى دينار راية يحملها[٨] . . .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٦/ ٢٤ ت (٧٦٢٢) .
(٢) مسلم ٤/ ١٩٥٠ ح (٢٥١١) .
(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣/ ٢٤٧ ت (٢٩٥٣) .
(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٣/ ٢٤٢ ت (٧١١١) .
(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٢٧٥ ت (٥٧٠٦).
(٦) لم يُذكر فى نسبه أنه ينتهى إلى بنى مازن بن النجار ، ولعله مالك وحُرِّف إلى مازن ، والأصوب أن تكون معه راية بنى عدى بن النجار ، وهم أخوال رسول الله ﷺ الأدنون .
(٧) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٢/ ٤٤١ ت (٢٢٠٤) .
(٨) بياض فى الأصل ، رغم أن فى بنى دينار الضحاك بن عبد عمرو بدرى ، وسعد بن سهيل بدرى ، وغيرهما بدريون استشهدوا قبل الفتح .

وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة .

١٣ ـ وكان مع سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج جميعًا راية النبى ﷺ .

فقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان : يا رسول الله ، ما نأمن سعدًا أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشًا » ، وقال : وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله وجعل اللواء إلى :

١٤ ـ قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من سعد حين صار لابنه .

هؤلاء الرواد الأربعة عشر من الأنصار على قيادة أربعة آلاف مقاتل .

ويمكن القول : إن السابقين الأولين من الأنصار كلهم قيادات ، فالسبعون عقبيون ، ومائتان وواحد وثلاثون بدريون ، وأعداد لا تحصى شهدوا بيعة الرضوان، فالجيل الأول الذى تحدثنا عنه كله جيل قيادات ، وفى غير هؤلاء الأربعة عشر من هو أقدم سابقة وأفضل فضلاً منهم ، ولكننا نؤكد أن ألفًا على الأكثر هم من السابقين الأولين القياديين، وتبقى الآلاف الثلاثة الأخرى ممن اتبعوهم بإحسان ، وكان لهؤلاء الألف دور فى تربية الآلاف الثلاثة الوافدة الجديدة ، والتى شكلت القاعدة العريضة للجيش الإسلامى فى الفتح ، وكانت قرابة نصفه ، ويكاد يكون العدد نفسه عند المهاجرين البدريين الذين كانوا حوالى مائتين من جيل بدر ، وها هم اليوم يبلغون السبعمائة .

ثالثًا : مزينة

(وبعث إلى مزينة بلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو المزنى . . .) [١] .

(وكانت مزينة ألفًا ، فيها من الخيل مائة فرس ومائة درع ، وفيها ثلاثة ألوية ، لواء مع النعمان بن مُقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو)[٢] ، ولنبحث عن هؤلاء الرواد الثلاثة فى مزينة .

١٥ ـ (بلال بن الحارث بن عاصم بن . . . عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة أبو عبد الرحمن المزنى ، وولد عثمان ، يقال لهم : مزينة ، نُسبوا إلى أمه مزينة ، وهو مدنى ، قدم على النبى ﷺ فى وفد مزينة فى رجب سنة خمس وكان ينزل الأشعر[٣] والأجرد[٤]

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٠ .

(٣، ٤) الأشعر والأجرد : جبلا جهينة بين المدينة والشام .

وراء المدينة ، وكان يأتى المدينة ، وأقطعه النبى ﷺ العقيق[1] . وكان يحمل لواء مزينة يوم الفتح ثم سكن البصرة . . . ، وتوفى بلال سنة ستين آخر أيام معاوية ، وهو ابن ثمانين سنة) [2] .

١٦ ـ عبد الله بن عمرو بن هلال المزنى ، قال البخارى : له صحبة ، وروى ابن جرير من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب ، وغيره فى تسمية البكائين الذين أتوا النبى ﷺ ؛ ليحملهم ، فذكر منهم : عبد الله بن عمرو المزنى وكذا ذكره ابن مردويه من حديث مجمع بن حارثة . . . وروى البغوى عن بكر بن عبد الله المزنى قال : قال لى علقمة بن عبد الله المزنى : غسل أباك أربعةٌ من أصحاب بدر .

لكن البحث عن هذين الرائدين فى مزينة : يفضى بنا أن نبحث عن أول الرواد المزنيين للإسلام ، قبلهما ، وذلك فى احتكاك بين مزينة وبين الإسلام ، وكان هذا فى غزوة أحد .

١٧ ـ وهب بن قابوس المزنى (ذكره ابن السكن فى الصحابة ، وأخرج من طريق محمد بن طلحة عن محمد بن الحصين عن عمرو بن سعد بن معاذ عن أبيه عن جده قال : لقى رجل من مزينة يقال له : وهب بن قابس بالعرج ، فأسلم وبايعه ، ثم أقام فى أهله حتى إذا كان يوم أحد خرج . . .)[3] .

فهو أول مزنى يدخل الإسلام فى السنة الأولى من الهجرة ، ونتابع حديثه عند الواقدى فى مغازيه مع :

١٨ ـ الحارث بن عقبة بن قابوس ، وهو ابن أخيه :

(وأقبل وهب بن قابوس المزنى ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة ، فوجدا المدينة خلوفًا[4] فسألا : أين الناس ؟ فقالوا : بأحد خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نبتغى أثرًا بعد عين ، فخرجا حتى أتيا النبى ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه فأغارا مع المسلمين فى النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم ، خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، فاختلطوا فقاتلا أشد القتال ، فانفرقت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه الفرقة ؟ » ، فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله ، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع ، فانفرقت فرقة أخرى ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه

(١) العقيق : كل مسيل ماء شقه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه ، والمقصود به هنا : عقيق المدينة .
(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ١/ ٢٤٢ ت (٤٩١) .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٦/ ٣٢٧ ت (٩١٧٢) .
(٤) خلوفًا : خلوًا .

الكتيبة؟» فقال المزنى: أنا يا رسول الله ،فقام فذبَّها بالسيف حتى ولوا ، ثم رجع المزنى، ثم طلعت كتيبة أخرى ، فقال: « من يقوم لهؤلاء ؟ » فقال المزنى : أنا يا رسول الله ، فقال: « قم وأبشر بالجنة »، فقام المزنى مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصاهم، ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم ارحمه » ثم يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم محدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه ، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثّل به أقبح المثل يومئذ ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كنحو قتاله حتى قُتل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إن أحبَّ ميتة أموت عليها لما مات عليه المزنى) (١) ، فقد أصبح وهب وابن أخيه رمزاً لجيل الرواد الأوائل ، كما شهدنا آمال الفاروق رضي الله عنه ، وهذه شهادة ثانية من هذا الجيل الرائد لهذا المزنى ، يقصها علينا واحد من مدرسته، وأحد الأعلام الذين سبق ذكرهم: (بلال ابن الحارث المزنى) يقول :

(وكان بلال بن الحارث المزنى يحدث فيقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبى وقاص، فلما فتح الله علينا وقسمت بيننا غنائمنا ، فأسقط فتىً من آل قابوس من مزينة، فجئت سعداً حين فرغ من نومه ، فقال : بلال ؟ قلت : بلال ، قال : مرحبًا بك ، من هذا معك ؟ قلت : رجل من قومى من آل قابوس ، قال سعد : ما أنت يا فتى من المزنى الذى قُتل يوم أحد ؟ قال : ابن أخيه ، قال سعد : مرحبًا وأهلاً ونعم الله بك عينًا ، ذلك الرجل شهدت منه يوم أحد مشهداً ما شهدته من أحد ، لقد رأيتنا وقد أحدق بنا المشركون من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطنا ، والكتائب تطلع من كل ناحية وإن رسول الله ﷺ ليرمى ببصره يتوسمهم يقول : « من لهذه الكتيبة ؟ » كل ذلك يقول المزنى : أنا يا رسول الله ، كل ذلك يردُّها فما أنسى آخر مرة قامها ، فقال رسول الله ﷺ : « قم ، وأبشر بالجنة » ، قال سعد : وقمت على أثره ـ يعلم الله أنى أطلب مثل ما يطلب من الشهادة ـ فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية ، وأصابوه رحمه الله ، ووددت ـ والله ـ أنى كنت أُصبت يومئذ معه ، ولكن أجلى استأخر ، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضّله ، وقال : اختر فى المقام عندنا ، أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحب الرجوع ، فرجعنا ، وقال سعد ـ وهو يستعيد ذكريات عشرين عامًا خلت أو تزيد : أشهد لرأيت رسول الله ﷺ واقفًا عليه ، وهو مقتول وهو يقول : « رضى الله عنك فإنى عنك راضٍ »، ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه ـ وقد نال النبى ﷺ من الجراح ما ناله ـ وإنى لأعلم أن القيام ليشق عليه ـ على قبره حتى وضع

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢٧٤، ٢٧٥ .

فى لحده ، وعليه بردة لها أعلام خضر ، فمدَّ رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمرهُ ، وأدرجه فيه طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه وهو فى لحده ، ثم انصرف .

فما حال أموت عليها أحب إلىَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزنى)[1] .

ويمر الزمن سنتين بعد أحد ، لنشهد رائدًا جديدًا من مزينة هو :

١٩ ـ (خزاعى بن عبد نُهم[2] بن عفيف بن . . . عداء . . . بن عثمان بن عمرو المزنى ، وهو عم عبد الله بن مغفل المزنى ، كان يحجب صنمًا لمزينة اسمه نُهم ، فكسر الصنم ، ولحق بالنبى ﷺ فأسلم ، وهو يقول :

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده	عتيرة نسك كالذى كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت حزمها	أهذا إله ؟ ! أبكم ليس يعقل
أبيت فدينى اليوم دين محمد	إله السماء الماجد المتفضل

فبايع النبى ﷺ وبايعه على مزينة)[3] .

٢٠ ـ ٢٦ ـ ولم يتحرك خزاعى وحده بل مضى مع عشرة من سادة قومه .

قال : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، أخبرنا أبو مسكين وأبو عبد الرحمن العجلانى قالا : قدم على رسول الله ﷺ نفر من مزينة منهم خزاعى بن عبد نُهم ، فبايعه على قومه مزينة وقدم معه عشرة منهم ، فيهم بلال بن الحارث ، والنعمان ابن مقرن ، وأبو أسماء (٢٠) ، وأسامة (٢١) وعبد الله بن درة (٢٢) ، وعبد الله بن درة (٢٣) وبشر بن المحتفر (٢٤) ، قال محمد بن سعد : وقال غير هشام : وكان فيهم دكين بن سعيد (٢٥) ، وعمرو بن عوف (٢٦))[4] .

الوفادة الكبرى :

وقال هشام فى حديثه :

(ثم إن خزاعيًا خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت فقال : اذكر خزاعيًا ولا تهجه ، فقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ خزاعيًا رسولاً بأن الذم يغسله الوفاء

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) نُهم اسم صنم لمزينة ، وكان خزاعى سادنه .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ١٣١ـ ١٣٢ت (١٤٤٢).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٩١ .

وأنـك خير عثمان بـن عمرو وأسناهـا إذا ذكـر الثنـاء
وبايعت الرسول وكـان خيراً إلـى خير وأداك الثـراء
فمـا يعجزك أو مـا لا تطقـه مـن الأشيـاء لا تعجـز عـداء

قال : ما عِداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله قالوا : فإنا لا ننبوا عليك ، قال : فأسلموا ووفدوا على النبى ﷺ ، فدفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعى، وكانوا يومئذ ألف رجل)[١] .

(ويحدثنا عن هذه الوفادة الكبرى كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده قال : كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة وذلك فى رجب سنة خمس ، فجعل رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم فقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم ، فارجعوا إلى أموالكم » ، فرجعوا إلى بلادهم)[٢] .

٢٧ ـ النعمان بن مقرّن بن عائذ . . . بن عثمان بن عمر . . . قـال مصعب : هاجـر النعمان ومعه سبعة إخوة له ، روى عنه أنه قال : قدمنا على رسول الله ﷺ فى أربعمائة راكب من مزينة ، ثم سكن البصرة وتحول إلى الكوفة ، وقدم المدينة بفتح القادسية ، ولما ورد عمر رضي الله عنه اجتماع الفرس بنهاوند كتب إلى أهل البصرة والكوفة ليسير ثلثاهم ، وقال : لأستعملن عليهم رجلاً يكون لها ، فخرج إلى المسجد فرأى النعمان بن مقرّن يصلى ، فأمره بالمسير والتقدم على الجيش فى قتال الفرس وقال : إن قُتل النعمان فحذيفة وإن قتل حذيفة فجرير ، فخرج النعمان ومعه حذيفة والمغيرة بن شعبة ، والأشعث بن قيس ، وجرير ، وعبد الله بن عمر ، فلما أتى نهاوند[٣] قال :

(يا معشر المسلمين ، شهدت مع رسول الله ﷺ إذ لم يقاتل أول النهار ، أخرّ القتال حتى تزول الشمس ، اللهم ارزق النعمان الشهادة بنصر المسلمين ، وافتح عليهم ، فأمّن القوم ، وقال : إذا هززت اللواء ثلاثًا ، فاحملوا مع الثالثة ، وإن قُتلت فلا يلوى أحد على أحد ، فلما هزّ اللواء الثالثة ، حمل الناس معه ، فقُتل وأخذ الراية حذيفة ففتح الله عليهم ، وكانت وقعة نهاوند سنة إحدى وعشرين ، وكان قتل النعمان يوم جمعة ولما جاء نعيه إلى عمر ، خرج إلى الناس فنعاه إليهم على المنبر ، ووضع يده على

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ /٢٩١، ٢٩٢ . (٢) المصدر نفسه ٢٩١ .

(٣) كانت معركة نهاوند أعظم المعارك فى الشرق الإسلامى ، قال عنها ابن حزم فى جوامع السيرة ص ٣٤٦ : وكانت وقعة نهاوند العظيمة التى فلّ الله ـ جل ثناؤه ـ فيها حد المجوس سنة عشرين ، وفيها قتل أمير المسلمين النعمان بن مقرّن المزنى .

رأسه وبكى .

وقال ابن مسعود : إن للإيمان بيوتًا وإن للنفاق بيوتًا ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرّن) [1] .

هؤلاء الرواد ؛ وهب وابن أخيه ، ثم خزاعى بن عبد نهم ، ثم العشرة الذين معه، ثم الأربعمائة فيما بعدُ هم الذين قادوا ألف بطل إلى جيش الفتح، وليس الألف برقم هين ، فأقصى ما استطاعت مكة أن تخرجه من أبطالها يوم بدر ألف مقاتل ، وإذا كانت أفراس المشركين يوم بدر مائتا فرس ، فخيل مزينة فى الفتح مائة فرس ، ومائة درع ، وكانت مزينة هى الفصيل الثالث الذى عدّه رسول الله ﷺ بعد قريش والأنصار ، ممن خلص ولاؤهم لله ورسوله ، وتبرؤوا من ولاء القبيلة .

رابعًا : جهينة

(وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرسًا فيها أربعة ألوية ؛ لواء مع :

٢٨ـ (سويد بن صخر الجهنى: أسلم قديمًا ، وشهد الحديبية ، وبايع بيعة الرضوان، وهو أحد الأربعة الذين حملوا لواء جهينة)[2] ، (وذكره الواقدى فى جملة العشرين الذين خرجوا إلى العرنيين فى سرية غالب بن عبد الله الليثى)[3] .

٢٩ـ ولواء مع ابن مكيث ، وهو : (رافع بن مكيث الجهنى ، شهد بيعة الرضوان وكان أحد من يحمل ألوية جهينة يوم الفتح ، واستعمله رسول الله ﷺ على صدقات قومه ، وشهد الجابية مع عمر)[4] .

٣٠ـ ولواء مع عبد الله بن بدر ،وهو: (عبد الله بن بدر بن بعجة بن معاوية . . . الجهنى . . . قال ابن سعد :كان اسمه عبد العزى ، فغيره النبى ﷺ ، وروى ابن شاهين عن طريق ابن الكلبى . . . قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة ، وفد إليه عبد العزى بن بدر ابن زيد بن معاوية ، ومعه أخوه لأمه يقال له أبو مُروعة وهو ابن عمه ، فقال النبى ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال : عبد العزى ، قال : « أنت عبد الله »، ثم قال له : « ممن أنت ؟ » قال : من بنى غيان ، قال : « بل أنتم بنو رشدان » ، وكان اسم واديهم غويًا فسماه راشدًا ، وقال لأبى مُروعة : « رعب العدو إن شاء الله تعالى » وأعطى اللواءين يوم الفتح لعبد الله بن بدر ، وكان شهد معه أحدًا ، وخط له النبى ﷺ وهو أول من

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣ ت (٥٢٦١) .
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٩٠ ت (٢٣٤٨) .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٣/ ١٥٢ ت (٣٥٩٣) .
(٤) المصدر نفسه ١/٢/ ١٩٠ ت (٥٤٣) .

خط مسجدًا بالمدينة وذكر ابن سعد أنه مات فى خلافة معاوية ، وقال ابن حبّان : كان حامل لواء جهينة يوم الفتح ونزل القبيلة من جبال جهينة)[1] .

٣١ ـ أبو زرعة ، وهو : (معبد بن خالد الجهنى أبو زرعة . . . قال الواقدى : أسلم قديمًا ، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جهينة يوم فتح مكة ، وكان يلزم البادية ، مات سنة اثنتين وسبعين ، وهو ابن بضع وثمانين سنة)[2] .

(وأرسل رسول الله ﷺ رافعًا

٣٢ ـ وجندبًا بن مكيث إلى جهينة يأمرهم أن يحضروا رمضان بالمدينة)[3]، و(جندب ابن مكيث أخو رافع بن مكيث ، واستعمله النبى ﷺ على صدقات جهينة ، قاله ابن سعد ، وسكن المدينة)[4] .

وقد ذكره الواقدى فى الفوارس العشرين الذين مضوا إلى العرنيين[5] .

(وجندب هو الذى قصّ علينا قصته فى سرية غالب الليثى على بنى الملوّح فقال :

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى أحد بنى كلب بن عوف فى سرية كنت فيهم ، وأمره أن يشن الغارة على بنى الملوّح بالكديد وهم من بنى ليث ، فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن مالك بن البرصاء ، فأخذناه فقال : إنما جئت أريد الإسلام ، فقلنا : لا يضرك رباط ليلة إن كنت تريد الإسلام . . . ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس ، فكمنّا ناحية الوادى ، فبعثنى أصحابى ربيئة [6] لهم ، فخرجت فأتيت تلاً مشرفًا على الحاضر يطلعنى عليهم ، حتى إذا أسندت فيه وعلوت على رأسه انبطحت ، فوالله إنى لأنظر إذ خرج رجل منهم من خباءٍ له ، فقال لامرأته : والله إنى لأرى على هذا التل سوادًا ما رأيته عليه صدر يومى هذا، فانظرى إلى أوعيتك لا تكون الكلاب أخذت منها شيئًا ، فنظرت فقالت : والله ما أفقد من أوعيتى شيئًا ، فقال : ناولينى قوسى ونبلى ! فناولته قوسه وسهمين معها ، فأرسل سهمًا ، فوالله ما أخطأ به جنبى ، فانتزعته فوضعته وثبتّ فى مكانى ، ثم رمانى الآخر فخالطنى به أيضًا ، فأخذته فوضعته وثبتّ مكانى ، فقال لامرأته : والله لو كان زائلة لتحرك بعد ، لقد خالطه سهماى ، لا أبالك إذا أصبحت فاتبعيهما ، لا تمضغهما الكلاب ، ثم دخل خباءه وراحت ماشية الحى من إبلهم وأغنامهم ،فحلبوا وعطنوا[7] ، فلما اطمأنوا وهدؤوا شننا

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٣٨ ت (٤٥٤٨) .
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٦/ ١١٨ ت (٨٠٨٧).
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٩ .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٢٦٢ ت (٨٠٧) .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧١ .
(٦) ربئية : طليعة .
(٧) عطنوا : سقوا وبركت الإبل بعد الشرب .

عليهم الغارة فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية ، واستقنا النعم والشاء ، فخرجنا نحدوها قِبَل المدينة . . . وخرج صريخ القوم فى قومهم فجاءنا ما لا قِبل لنا به ، ونظروا إلينا وبيننا وبينهم الوادى وهم موجهون إلينا، فجاء الله الوادى من حيث شاء بماء ملأ جنبيه ، وايم الله ما رأينا قبل ذلك سحابًا ولا مطرًا، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه، فلقد رأيتهم وقوفًا ينظرون إلينا، وقد أسندنا فى المشلل وفتناهم، فهم لا يقدرون على طلبنا . . .)[1].

وأهم ما فى هذه السرية هو جندب بن مكيث ﷺ الذى نجح حين كان طليعة قومه، فاجتاحته السهام دون أن يحير حراكًا حتى أوهم العدو بالأمن ونجحت الغارة عليهم .

هؤلاء الرواد الخمسة من جهينة هم الذين أسلموا من قبل ، وكانوا الدعاة فى قومهم إلى الله تعالى ، فربوا هذه القاعدة العريضة التى بلغت ثمانمائة مقاتل ، انضمت إلى جيش الفتح العظيم .

خامسًا : أسلم

(أرسل رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة ، وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم : إن رسول الله يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة)[2] .

٣٣ـ (أسماء بن حارثة بن هند بن . . . مالك بن أفصى ، ومالك بن أفصى أخو أسلم ، وكثيراً ما يضاف أبناء مالك إلى أسلم ، فيقال له:أسلمى . . . له صحبة ، وكان هو وأخوه هند من أهل الصفة ، قال أبو هريرة : ما كنت أرى أسماء وهندًا ابنى حارثة إلا خادمين لرسول الله ﷺ من طول ملازمتهما بابه وخدمتهما له ، وأسماء هو الذى بعثه رسول الله ﷺ يوم عاشوراء إلى قومه فقال : مر قومك بصيام عاشوراء ، فقال : أرأيت إن وجدتهم طعموا ؟ قال : « فليتموا » .

وتوفى سنة ست وستين بالبصرة ، وهو ابن خمس وثمانين سنة . . .)[3] .

فأسماء إذن مسلم منذ السنة الأولى للهجرة والتى فرض فيها صيام عاشوراء قبل رمضان ، أما :

٣٤ـ (هند بن حارثة . . . قال ابن حبان : له صحبة ،وأخرج ابن قانع من طريق عبد الرحمن بن حرملة عن يحيى بن هند بن حارثة عن أبيه وكان من أصحاب الحديبية : أن النبى ﷺ مرَّ بنفر من أسلم يرمون، فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا »، وحكى البغوى أنه شهد بيعة الرضوان مع إخوة له سبعة،وهم :هند ،وأسماء ،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٥١، ٧٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ٢/٧٥٩ .
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٩٥ ت (١٢٣) .

وخراش ، وذؤيب ، وسلمة ، وفضالة ، ومالك ، وعمران ، قال : ولم يشهدها إخوة فى عددهم ، كذا قال ، وقد أوردوا عليه أولاد مقرن . . .)(١) .

(وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرسًا ولواءان ، يحمل أحدهما بريدة بن الحصيب الأسلمى ، والآخر ناجية بن الأعجم ، أما :

٣٥ـ بريدة بن الحصيب الأسلمى ، فهو الرائد الأول فى بنى أسلم ، وله قصب السبق عليهم ، وكل « أسلم » فى سجل حسناته يحدثنا عن إسلامه فى الفجر الأول ، فيقول :

لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبى ﷺ حملنى الطمع فركبت فى سبعين من بنى سهم فلقيته، فقال: « من أنت ؟ » قلت: بُريدة، فالتفت ﷺ إلى أبى بكر وقال: « برد أمرنا وصلح »، ثم قال : « ممّن أنت ؟ » قلت : من أسلم ، قال : « سلمنا » ثم قال : « ممّن ؟ » قلت : من بنى سهم ، قال : « خرج سهمك يا أبا بكر » ، فقال بريدة للنبى ﷺ : من أنت ؟ قال : « أنا محمد بن عبد الله رسول الله » فقال بُريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فأسلم بريدة ، وأسلم من كان معه جميعًا، قال بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين ، فلما أصبح قال بريدة: يا رسول الله ، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحلّ عمامته ، ثم شدّها على رمح ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة)(٢) ، وتأتى بقية ترجمته بعد أن أدخل قومه الإسلام كما يقول :ناجية بن الأعجم فهو : (أسلم حين مرّ به النبى ﷺ مهاجرًا هو ومن معه ، وكانوا نحو ثمانين بيتًا ، فصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة ، فصلوا خلفه ، وأقام بأرض قومه ، ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد ، فشهد معه مشاهده ، وشهد الحديبية ، وبيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكان من ساكنى المدينة ، ثم تحول إلى البصرة وابتنى بها دارًا ، ثم خرج منها غازيًا إلى خراسان ، فأقام بمرو حتى مات ودفن فيها وولده بها)(٣) ، أما :

٣٦ـ ناجية بن الأعجم الأسلمى ، ذكره ابن سعد فى الصحابة وقال :(لا عقب له وأخرج عن الواقدى عن عطاء عن أبى مروان عن أبيه : حدثنى أربعة عشر رجلاً من أسلم من أصحاب النبى ﷺ أن ناجية بن الأعجم هو الذى نزل فى القليب القليل الماء يوم الحديبية بسهم رسول الله ﷺ أعطاه إياه من كنانته وأمره أن يفور الماء بسهمه ، وأن يصب فيها ماءً توضأ منه . . . وقال العطوى : عقد رسول الله ﷺ لأسلم لواءين يوم

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/ ٢٩٣ ت (٩٠٠٦) .
(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٤٠٥ .   (٣) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٢٠٩ ت (٣٩٨) .

الفتح ، أعطى أحدهما ناجية بن الأعجم ، والآخر بريدة بن الحصيب . . . وقال ابن شاهين فى الصحابة : مات بالمدينة فى آخر خلافة معاوية) (١) .

ولأن عدد أسلم قليل ، والقبيلة صغيرة ، فكان جلُّ شبابها فى الفتح،وكان عددهم أربعمائة فيها ثلاثون فرسًا من أثر هؤلاء الرواد الأوائل الخمسة ، وفازوا بلقب : « أسلم سالمها الله »(٢) كما قال عنهم عليه الصلاة والسلام .

سادسًا : غفار

(وأرسل رسول الله ﷺ إيماء بن رحضة وأبا رهم كلثوم بن الحصين إلى بنى غفار وضمرة)(٣) .

٣٧ـ أما إيماء بن رحضة فهو سيد غفار فى زمانه ووافدهم كان يسكن غبقة من ناحية السقيا ثم انتقل إلى المدينة ، فاستوطنها قبل الحديبية . . . (أبو عمر أسلم قبل الحديبية) (٤) ، (وروى مسلم فى صحيحه قصة إسلام أبى ذر من طريق عبد الله بن الصامت عن أبى ذر ،وفيها :فجئنا قومنا فأسلم نصفهم قبل أن يقدم النبى ﷺ المدينة ، وكان يؤمهم إيماء بن رحضة الغفارى ، ولكن ذكر أحمد فى هذا الحديث الاختلاف على رواية سليمان بن المغيرة هل هو خفاف بن إيماء أو أبوه إيماء وعلى هذا يمكن أن يكون إسلام خفاف تقدم على إسلام أبيه ،والله أعلم . وذكر الزبير بن بكار من حديث حكيم ابن حزام أن إيماء بن رحضة حضر بدرًا مع المشركين فيكون إسلامه بعد ذلك) (٥) .

٣٨ـ أبو رهم هو كلثوم بن الحصين بن . . . غفار الغفارى ،مشهور باسمه وكنيته ، كان ممّن بايع تحت الشجرة،واستخلفه النبى ﷺ على المدينة فى غزوة الفتح . . . ، وقال ابن سعد : بعثه النبى ﷺ يستنفر قومه إلى تبوك ، ووجدت فى كتاب الأدب المفرد للبخارى وفى صحيح ابن حبان ومعجم الطبرانى : (ذكر ابن عروبة أنه رمى بسهم فى نحره يوم أحد فبصق فيه النبى ﷺ فبرأ) (٦) .

(ومر بنو غفار فى ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر الغفارى،ويقال:إيماء بن رحضة)(٧).

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٧/٦/ ٣٢٣ ت (٨٦٣٥) .
(٢) البخارى ٢/٤/ ٢٢٠ ، ومسلم ٤/١٩٥٢(٢٥١٤) .
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ١٩٨ .
(٤) الاستيعاب على هامش الإصابة ١ / ١١١ .
(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ١/ ٩٤ .
(٦) المصدر نفسه ١/٧/ ٦٩ ت (٤١٤) .
(٧) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٩ .

٣٩ ـ وأبو ذر الغفارى المسلم العظيم رابع من أسلم ، والذى دخلت غفار فى الإسلام عن طريقه ، وهم ـ إن شاء الله ـ فى صحيفته ، استفاض حديث إسلامه فى الصحيحين ، ننقل مقتطفات منه :

(... فانطلق يقفوه حتى دخل على النبى ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه ، فقال له النبى ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى » ، قال: والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، قال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا عليه ، فأكب العباس عليه)[١]، أما فى رواية مسلم، عن أبى ذر قوله :(خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام ... قال : وقد صليت يابن أخى قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين، قلت : لمن ؟ قال: لله، قلت: فأين توجه ؟ قال : حيث يوجهنى ربى ، أصلى عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأنى خفاء[٢] حتى تعلونى الشمس ... فقال أنيس (أخوه) : إن لى حاجة بمكة فاكفنى ، فانطلق أنيس حتى أتى مكة ، فَرَاثَ [٣] علىَّ ، ثم جاء ، فقلت : ما صنعت ؟ قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله ، قلت: فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ... قال : قلت : فاكفنى حتى أذهب فأنظر ، قال : فأتيت مكة، فتضعفت[٤] رجلاً منهم، فقلت : أين هذا الذى تدعونه الصابئ [٥] ؟ فأشار إلىَّ ، فقال : الصابئ ، فمال علىَّ أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيًا على ، قال : فارتفعت حين ارتفعت كأنى نصب أحمر[٦] ، قال : فأتيت زمزم ، فغسلت عنى الدماء ، وشربت من مائها ، ولقد لبثت يابن أخى ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لى من طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى[٧] ، وما وجدت على كبرى سخفة جوع[٨] ، وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر، وطاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلى ، فلما قضى صلاته ، قال أبو ذر : كنت أول من حياه بتحية الإسلام ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، قال : « وعليك رحمة الله » ثم قال : « من أنت ؟ » قلت : من غفار ، قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته ، فقلت فى نفسى : كره أنى

---

(١) البخارى ٢/ ٥/ ٦٠ .
(٢) خفاء : هو الكساء .
(٣) راث : أبطأ .
(٤) تضعفت : نظرت إلى أضعفهم .
(٥) الصابئ : منصوب على الإغراء أى خذوا هذا الصابئ .
(٦) نصب أحمر : من كثرة الدماء التى سالت عليه .
(٧) عكن بطنى : طيات بطنى .
(٨) سخفة جوع : رقة الجوع وضعفه وهزاله .

انتميت إلى غفار ، فذهبت آخذ بيده ، فقد عنى صاحبه ، وكان أعلم به منى ، ثم رفع رأسه،ثم قال:« متى كنت ها هنا ؟ » قال :قد كنت هنا منذ ثلاثين ، بين ليلة ويوم . . . ثم غبرت ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال : « إنى وجّهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم » فأتيت أنيسًا فقال : ما صنعت ؟ قلت : صنعت أنى أسلمت وصدقت ، قال : ما بى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت،فأتينا أمنا ، فقالت : ما بى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت ، فاحتملنا حتى أتينا قومنا غِفارًا ، فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إيماء بن رَحَضَةَ الغفارى وكان سيدهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقى ، وجاءت أسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، إخوتنا نسلم على الذى أسلموا عليه ،فأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ : « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله »(١) .

سابعًا : أشجع

(وبعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونعيم بن مسعود ، أما :

٤٠ ـ معقل بن سنان فهو ابن سنان بن مظهر بن . . . أشجع بن ريث بن غطفان . ذكر ابن الكلبى ، وأبو عبيد ، أنه وفد على النبى ﷺ فأقطعه قطيعة . . . وهو روى عن النبى ﷺ ورُوى عنه . . . وقال العسكرى : نزل الكوفة وكان موصوفًا بالجمال ، وقدم المدينة فى خلافة عمر فقيل فيه وكان جميلاً :

أعوذ برب الناس من شر معقل إذا معقل راح البقيع مرجّلا

فبلغ ذلك عمر،فنفاه إلى البصرة وذكر المدائنى بسنده أن عمر سمع امرأة تنشده،وفى مغازى الواقدى أنه كان معه راية أشجع يوم حنين ،ومع نعيم بن مسعود راية أخرى . . . وذكر الواقدى عن طريق زياد بن عثمان الأشجعى قال : كان معقل حامل لواء قومه يوم الفتح إلى أن بعثه الوليد بن عتبة بيعة أهل المدينة ليزيد بن معاوية فلقى مسلم بن عقبة المرى فأنس به وحدّثه ، فقال له : إنى قدمت على هذا الرجل فوجدته يشرب الخمر وينكح الحرام، فلم يدع شيئًا حتى قال فيه ، ثم قال لمسلم : اكتم ، قال : أفعل، لكن علىّ عهد الله وميثاقه لا تمكننى يداى ولى عليك قدرة إلا ضربت الذى فيه عيناك ، فلما قدم مسلم فى وقعة الحرة أتى به ، فضربت عنقه صبراً ، وفى ذلك يقول الشاعر :

---

(١) مسلم ٤/ ١٩٢٠ ح (٢٤٧٣) .

ألا تلكم الأنصار تبكى سراتها وأشجع تبكى معقل بن سنان

وقال البغوى : قتل فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين)[(١)] .

٤١ ـ ونُعيم بن مسعود بن عامر بن . . . أشجع بن ريث بن غطفان ،أسلم فى وقعة الخندق ، وهو الذى أوقع الخلف بين قريظة وغطفان وقريش يوم الخندق ، وخذَّل بعضهم عن بعض ، وأرسل الله عليهم الريح والبرد والجنود وهم الملائكة ، فصرف كيد الكفار عن النبى ﷺ والمسلمين ، ولما أسلم واستأذن النبى ﷺ فى أن يخذل الكفار ، قال له النبى ﷺ : « خذل ما استطعت فإن الحرب خُدعة » .

ومات نُعيم فى خلافة عثمان وقيل : بل قتل يوم الجمل) [(٢)] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر قصة التخذيل هذه عن ابن إسحاق ملخصة فقال: (وذكر ابن إسحاق فى سبب رحيلهم ، أن نعيم بن مسعود الأشجعى أتى النبى ﷺ مسلمًا ، ولم يعلم به قومه،فقال له:« خذّل عنا »،فمضى إلى بنى قريظة وكان نديمًا لهم ، فقال: قد عرفتم محبتى ، قالوا : نعم ، فقال : إن قريشًا وغطفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإلا رجعوا إلى بلادهم ، وتركوكم فى البلاء مع محمد ولا طاقة لكم به ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا منهم ، فقبلوا رأيه ، فتوجه إلى قريش فقال : إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فى الرجوع إليه، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رهنًا فاقتلوهم، ثم جاء غطفان بنحو ذلك ، قال : فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة بن أبى جهل إلى بنى قريظة بأنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى، فاخرجوا بنا حتى نناجز محمداً، فأجابوهم : إن اليوم يوم السبت ، ولا نعمل فيه شيئًا ، ولابد لنا من الرهن منكم حتى لا تغدروا بنا ، فقالت قريش : هذا ما حذّركم نعيم ، فراسلوهم ثانيًا ألا نعطيكم شيئًا ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا ، فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نعيم)[(٣)] .

(وخذَّل الله بينهم ،وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح آنيتهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرّق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً)[(٤)] .

ولقد بنى أبو سفيان قراره بالانسحاب فى شطر منه على انخذال بنى قريظة عن قتال

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/ ١٢٥ ت (٨١٣١).

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥/٣٤٨ ت (٥٢٧٤) .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ٧/٤٠٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٢١ .

رسول الله ﷺ إذ خطب قائلاً : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل)(١) .

(ثم مرت أشجع وهم آخر من مر ، وهم ثلاثمائة معهم لواءان . . . فقال أبو سفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد . . .) .

نعم ، وأبو سفيان أخبر الناس بذلك ، فأشجع فرع من غطفان التى جاهدت الله ورسوله لآخر لحظة من حياتها ، ونعيم بن مسعود بعد غزوة الخندق ، وبعد إسلامه هو الذى قلب الموازين ، وغير الاتجاه ، وعمل ما يعجز جيش عن عمله فى تمزيق كلمة غطفان وقريش واليهود ، ثم عمل ما عمله جيش من الدعاة فى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، وينشر كتاب الله بينهم ، وينحت من صخر فى قلوبهم حتى استطاع خلال ثلاثة أعوام ، أن يغير هويّة القبيلة كاملة من حرب الله ورسوله إلى أن تدخل ضمن القبائل التى تقف بجوار المهاجرين والأنصار والتى تتولى الله ورسوله ،وتذوب فى جيش الإيمان الخالد ، الذى لا ولى له إلا الله ورسوله .

ثامنًا : بنو كعب من خزاعة

فى رواية من روايات هذا الحديث :

(عن أبى أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ قال : « إن أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، ومن كان من بنى كعب موالىٍّ دون الناس ، والله ورسوله مولاهم »)(٢) .

(ثم مرت بنو كعب بن عمرو فى خمسمائة يحمل رايتهم بُسر بن سفيان ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو كعب بن عمرو ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد)(٣) .

(وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة فيهم ثلاثة ألوية : لواء مع بشر بن سفيان، ولواء مع ابن شريح، ولواء مع عمرو بن سالم، ولم يكن خرج معه من المدينة، لقيه قومه بقديد)(٤) .

(وبعث إلى بنى كعب بن عمرو بشر بن سفيان وبُديل بن ورقاء) (٥) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٨٦٦ ح (١٦٧٧) ،وقال فيه المحقق : إسناده صحيح ورواه مسلم والترمذى والحاكم والطبرانى .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٩ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٨٠١ .

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٨٠٠ .

نعيد إلى الذاكرة قول رسول الله ﷺ عندما بلغه عدوان بنى بكر على خزاعة وهو ينظر إلى السحابة المارة : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » [١] .

وما روى عن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث مطولاً ، وفيه أيضًا أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلاً وهو فى متوضئه: « نُصرت ، نُصرت » ،فسألته ، فقال : « هذا راجز بنى كعب يستصرخنى » [٢] .

فقد استعمل رسول الله ﷺ فى هذه المرات الثلاث لفظ (بنى كعب) ولم يستعمل لفظ خزاعة مع أن الحلف بين رسول الله ﷺ وبين خزاعة مسلمهم ومشركهم وإنما خصّ رسول الله ﷺ هذا الفرع من خزاعة لأنه أصبح قلعة إسلامية كما وصفها عمرو بن سالم:

هم بيتونا بالوتير هجّدا وقتلونا رُكعًا وسُجّدا

(وبنو كعب هؤلاء الذين انضموا بنص الحديث إلى ولاية الله ورسوله ، نلقى من روادهم أربعة ذكروا من قبل هم :

٤٢ ـ بُسر[٣] بن سفيان . . . بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة،كان شريفًا كتب إليه النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، له ذكر فى قصة الحديبية ، وهو الذى لقى رسول الله ﷺ لما اعتمر عمرة الحديبية ، وساق معه الهدى ، فأخبره أن قريشًا خرجت بالعوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور . . . الحديث ، وأسلم سنة ست من الهجرة ، وشهد الحديبية مع رسول الله ﷺ ، أخرجه الثلاثة)[٤] .

٤٣ ـ وعمرو بن سالم بن حصين بن . . . بن كعب بن عمرو ،وهو الذى ركب إلى رسول الله ﷺ لما كان من أمر خزاعة وبنى بكر بالوتير حتى قدم المدينة؛يخبره الخبر فأنشده:

اللهم إنى ناشد محمداً . . . .

فقال رسول الله ﷺ : « نُصرت يا عمرو بن سالم . . . » ، فذكر القصة فى فتح مكة ، وأخرج سعيد بن يعقوب فى الصحابة . . . عن عمرو بن سالم قال : قلت : يا رسول الله ، إن أنس بن زنيم هجاك ، فأهدر رسول الله ﷺ دمه . . . قال ابن الكلبى وأبو عبيد والطبرى: إن عمرو بن سالم كان أحد من يحمل ألوية خزاعة يوم فتح مكة)[٥] .

٤٤ ـ بُديل بن ورقاء بن . . . عدى بن ربيعة قال ابن السكن: له صحبة،سكن مكة.

(١) تاريخ الذهبى والمغازى ،ص٥٢٣ . (٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٥٢٠ .
(٣) ورد فى أماكن (بسر) وفى أماكن (بشر) والصحيح (بُسر) كما فى كتب التراجم .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٢١٦ ت (٤١١) .
(٥) الإصابة فى تميز الصحابة ٢/ ٤/ ٢٩٨ ت (٥٨٣٠) .

وعن ... عبد الرحمن بن الحكم بن بشر ؛ أنه سئل عن بديل بن ورقاء ، فقال : مات قبل النبى ﷺ ... وكان إسلامه قبل الفتح وقبل يوم الفتح ... وعن عبد الله بن بديل بن ورقاء قال : سمعت بديل بن ورقاء قال : لما كان يوم الفتح قال لى رسول الله ﷺ ورأى بعارضىّ سوادًا : « كم سنوك ؟ » قلت : سبع وتسعون ، فقال : « زادك الله جمالاً، وسوادًا »، وعن ... سلمة قال : دفع إلىّ أبى بديل بن ورقاء كتابًا فقال: يا بنى هذا كتاب رسول الله ﷺ فاستوصوا به ، فلن تزالوا بخير ما دام فيكم ... فذكر الحديث ، وفيه أن الكتاب بخط على بن أبى طالب ...) [1] .

٤٥ ـ أبو شريح [2] الخزاعى ثم الكعبى خويلد بن عمرو ... وكان معه لواء خزاعة يوم الفتح ... قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمانٍ وستين ذكره فى طبقة الخندقيين ، وقال : أسلم قبل الفتح وكذا قال غير واحد فى تاريخ موته ، روى عن النبى ﷺ أحاديث ...) [3] .

وقد ورد ذكره فى الحديبية : (ثم نادى مناديه : من كان عنده بقية من زاد ، فلينثره على الأنطاع ، قال أبو شريح الكعبى : فلقد رأيت من يأتى بالتمرة الواحدة ، وأكثرهم لا يأتى بشىء، ويأتى بالكف من الدقيق والكف من السويق ، وذلك كله قليل ، فلما اجتمعت أزوادهم وانقطعت موادهم مشى رسول الله ﷺ إليها فدعا لها بالبركة ثم قال : قربوا أوعيتكم ! فجاؤوا بأوعيتهم ، قال أبو شريح : فأنا حاضر فيأتى الرجل فيأخذ ما شاء من الزاد حتى إن الرجل ليأخذ ما لا يجد له محملاً ، ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل ...) [4] .

هؤلاء الأربعة فيهم اثنان من أهل بيعة الرضوان ، ومن جيل الرضوان ، هم الذين بثوا خلال سنتين نور الإسلام فى قومهم، واستطاعوا خلال هاتين السنتين أن يهيئا قومهما للانضمام للحزب الواحد الذى يقوده رسول الله ﷺ بعيدًا عن الولاءات القبلية القائمة .

تاسعًا : كنانة

وهنا لا نجد كنانة قد أعطيت شهادة الانضمام هذه إلى الحزب الواحد ـ حزب الله ورسوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ**

(١) الإصابة فى تمييز ١/١/١٤٦ ت (٦١١) .
(٢) ذكره الواقدى باسم ابن شريح والأصوب أبو شريح كما فى كتب التراجم .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/٩٨ ت (٦٠٨) .
(٤) المغازى للواقدى ٢/٦١٦ .

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة] .

لقد شهد رسول الله ﷺ للفروع الثمانية السابقة بانضمامها إلى حزب الله وانصهارها فيه، وأنها قد تولت الله ورسوله ، وبقى عندنا من هذا الجيش شريحتان هما: بنو كنانة، وبنو سليم .

وبنو كنانة وإن لم يدخلوا صراحة فى هذا الحزب ، فهم قد نالهم شرف الاصطفاء الربانى ، كما فى الحديث الشريف : (حدثنا الأوزاعى ، عن أبى عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »)[1] .

ولم يضم رسول الله ﷺ كنانة لهذا الحزب ؛ لأن فيها قبائل وفروعًا لا تزال تعلن العداء للإسلام فبنو بكر من كنانة ؛ هم الذين أعلنوا انضمامهم صراحة لصف قريش الكافرة ضد رسول الله ﷺ ، وهم الذين اعتدوا على بنى خزاعة ، ومن أجلهم كانت الحرب ، فلم تتحول بكر وضمرة وسعد بن بكر إلى قلاع إسلامية ، رغم وجود أعداد قليلة تجمعت وانضمت إلى الجيش الإسلامى .

(ثم مرت كنانة ، وبنو ليث ، وضمرة ، وسعد بن بكر فى مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثى ، فلما حاذوه كبروا ثلاثًا ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر ، قال : نعم ، أهل شؤم والله ، الذين غزانا محمد بسببهم ، أما ـ والله ـ ما شوورِت فيه ولا علمته ، ولقد كنت له كارهًا حيث بلغنى ، ولكنه أمر حُمَّ)[2] .

(وحدثنى عبد الله بن عامر عن أبى عمرة بن حماس قال: مرَّت بنو ليث وحدهم، وهى مائتان وخمسون يحمل لواءها الصعب بن جثامة)[3] .

٤٦ ـ الصعب بن جثامة : واسمه يزيد بن قيس بن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، أمه زينب بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان ، وحالف جثامة قريشًا ، كان الصعب ينزل ودان والأبواء مـن أرض الحجاز ، وتوفـى فـى خلافة أبى بكر ﷺ . . . عن . . . ابن عباس أن الصعب بن جثامة أخبره أن رسول الله ﷺ مرَّ به،وهو بودان أو

---

(١) مسلم ٣/ ١٧٨٢ ح (٢٢٧٦) .

(٢ ، ٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٠ .

بالأبواء، فأهدى له حمارًا وحشيًا فردَّه عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ فى وجهه الكراهة ، قال : « إنه ليس بنا ردٌ عليك ، ولكننا حرمٌ » [1]) [2] ، (وقال يعقوب بن سفيان : أخطأ من قال : إن الصعب بن جثامة مات فى خلافة أبى بكر خطأ بينًا ، فقد روى ابن إسحاق عن عمرو بن عبد الله أنه حدثه عن عروة قال : لما ركب أهل العراق فى الوليد بن عقبة كانوا خمسة منهم الصعب بن جثامة ، وللصعب أحاديث فى الصحيح من رواية ابن عباس عنه، وذكر ابن الكلبى فى الجمهرة ، أن النبى ﷺ قال يوم حنين : « لولا الصعب بن جثامة لفصحت الخيل ، وذكر أبو بكر بن لال فى كتاب المتحابين . . . قال : آخى رسول الله ﷺ بين عوف بن مالك والصعب بن جثامة ، فقال كل منهما للآخر : إن مت قبلى فتراء لى ، فمات الصعب قبل عوف فتراءى فذكر قصته)[3] .

٤٧ ـ **أبو واقد الليثى** : مختلف فى اسمه قيل : الحارث بن مالك ، وقيل: ابن عوف ابن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة بن على بن كنانة كان حليف بنى أسد وقال البخارى وابن حبان والباوردى والحاكم: شهد بدرًا ،وقال أبو عمر: قيل: شهد بدرًا ولا يثبت ،قال ابن سعد : أسلم قديمًا وكان يحمل لواء بنى ليث ضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح ، وكان خرج إلى مكة وجاور فيها سنة ، فمات ،وقد أنكر أبو نعيم على من قال: إنه شهد بدرًا، وقال : بل أسلم عام الفتح أو قبل الفتح وقد شهد على نفسه أنه كان بحنين ، قال : ونحن حديثو عهد بكفره ، وقد نفى الزهرى على أنه أسلم يوم الفتح ، وأسند ذلك عن سنان ابن أبى سنان الأيلى ، أخرجه ابن منده بسند صحيح)[4] .

والصعب بن جثامة رضي الله عنه إنما كان حليفًا فى قريش ، وأبو واقد حليفًا فى بنى أسد فهذا يعنى أنهما لم يعيشا معظم وقتهما مع قومهما ، ولا ندرى إن كانت كنانة كلها مائتان على تعدد فى حملة الرايات ، وهما أبو واقد والصعب ، أم أن تحت راية كل واحد منهما مائتان ومائتان وخمسون .

عاشرًا : بنو سليم

ولبنى سليم قصة مستقلة فهم يحملون تاريخًا أسود ضد الإسلام والمسلمين، فمحنة بئر معونة التى استشهد فيها سبعون من المسلمين ، وهم القراء ، كان ذلك على يد قبائل من بنى سليم ، كما فى السيرة :

(فساروا حتى نزلوا ببئر معونة،وهى بين أرض بنى عامر وحرَّة بنى سليم كلا البلدين

(١) وكان ذلك فى عمرة الحديبية .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٢٠ ت (٢٥٠١) .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣/ ٢٤٤ ت (٤٠٦٠) .
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٦/ ٢١٢ ت (١٢٠٠) .

منها قريب ، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب ، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله،ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه ،وقالوا : لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سُليم من عصيَّة ورعل وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله إلا كعب ابن زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتث من بين القتلى وعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا . . .)[١] .

(ولم يجد[٢] رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة ، وكان أنس ابن مالك يقول : أنزل الله فيهم قرآنًا قرأناه حتى نسخ: « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه »)[٣] .

وبلغ الأمر برسول الله ﷺ أنه كان يقنت بالصلاة يلعن هذه القبائل :

(فعن خفاف بن إيماء الغفارى قال : قال رسول الله ﷺ فى صلاة : « اللهم العن بنى لحيان ورِعلا وذكوان وعُصَيَّة ، عصوا الله ورسوله ، غِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله »)[٤] .

وبقيت الأجواء متوترة ، والحرب قائمة بين سُليم والإسلام ، وحضروا الخندق مع المشركين ، وكانت آخر وقائعهم مثل وقيعة بئر معونة قبل أشهر من الفتح :

سرية ابن أبى العوجاء السلمى فى ذى الحجة سنة سبع

(حدثنى محمد عن الزهرى قال : لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء سنة سبع، بعث ابن أبي العوجاء السُلمى فى خمسين رجلاً ، فخرج إلى بنى سليم ، وكان عين لبنى سُليم معه ، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فحذرهم وأخبرهم ، فجمعوا جمعًا كبيرًا وجاءهم ابن أبى العوجاء والقوم مُعدُّون له ، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ ، ورأوا جمعهم دَعَوْهم إلى الإسلام فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا لقولهم ، وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه ، فراموهم ساعة ، وجعلت الأمداد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٦٢ .
(٢) وجد : حزن حزنًا شديدًا .
(٣) المغازى للواقدى ١/ ٣٥٠ .
(٤) مسلم ٣/ ١٩٥٣ ح (٢٥١٧) .

تأتى حتى أحدقوا بهم من كل ناحية ، فقاتل القوم قتالاً شديدًا حتى قتل عامتهم ، وأصيب صاحبهم ابن أبى العوجاء جريحًا مع القتلى ، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ)(١) .

لقد كانت السريتان سرية بئر معونة ، وسرية ابن أبى العوجاء سرية دعوة إلى الله عز وجل ، وقد كان على رأس السرية واحد منهم وهو ابن أبى العوجاء السلمى ، ولكن القوم كانوا من الحقد والحرب للإسلام بمستوى لا يدعهم يفكرون ولو لحظة واحدة بمبادئ هذا الدين ، إلى أن آذن الله تعالى بفجر جديد .

يحدثنا عنه سيد بنى سُليم وشاعرهم عباس بن مرداس :

٤٨ ـ ذكر ابن أبى الدنيا فى سبب إسلام عباس حديثًا أسنده عن رجاله عن الزهرى عن عبد الرحمن بن أنس السلمانى عن عباس بن مرداس أنه كان فى لقاح له نصف النهار، فاطلعت عليه نعامة بيضاء ، عليها راكب عليه ثياب بياض فقال لى :

يا عباس ، ألم تر أن السماء كفت أحراسها ، وأن الحرب جرعت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذى نزل عليه البر والتقى يوم الاثنين ليلة الثلاثاء صاحب الناقة القصواء .

قال : فخرجت مرعوبًا ، قد راعنى ما رأيت ،وسعيت حتى جئت وثنًا لى يُقال له : الضَمار ، كنا نعبده ونُكلَّمُ من جوفه ، فكنست ما حوله ، ثم تمسحت به ، فإذا صائح يصيح من جوفه :

قل للقبائل من قريش كلها ... هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يُعبد مدة ... قبل الصلاة على النبى محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتدى

قال : فخرجت مذعوراً حتى جئت قومى، فقصصت عليهم القصة وأخبرتهم الخبر، فخرجت فى ثلاثمائة من قومى من بنى جارية إلى النبى ﷺ بالمدينة ، فدخلنا المسجد ، فلما رآنى النبى ﷺ تبسَّم وقال : « إلىَّ يا عباس ، كيف إسلامك ؟ » فقصصت عليه القصة ، فأسلمت أنا وقومى)(٢) .

وقال ابن حجر فى الإصابة :(. . . وقال ابن سعد:لقى النبى ﷺ وهو متوجه إلى فتح مكة ومعه سبعمائة من قومه فشهد بهم الفتح ، وذكر ابن إسحاق أن سبب إسلامه

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤١ .

(٢) الروض الأنف للسهيلى ٤/ ١٢٠ وهو عند ابن إسحاق فى السيرة ٢/ ٤٢٧ .

رؤيا رآها فى صنم ضَمار ، وزعم أبو عبيدة أن الخنساء الشاعرة المشهورة أمه ، وقد حدّث عن النبى ﷺ . . . ويقال :إنه ممَّن حرَّم الخمر فى الجاهلية ، وسأل عبد الملك بن مروان جلساءه من أشجع الناس فى شعره فتكلموا فى ذلك فقال :

أشجع الناس العباس بن مرداس فى قوله :

أكُرُّ على الكتيبة لا أبالى   أحتفى كان فيها أم سواها

وكان ينزل البادية بالبصرة)[١] .

٤٩ ـ وهناك رائد أول سبق العباس بن مرداس السلمى هو : العباس بن أنس بن عامر السلمى (. . . ذكره ابن إسحاق من طريق أبى بكر بن أبى الجهم ، قال : كان العباس بن أنس شريكًا لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ ، ثم شهد الخندق مع المشركين ، فلما هزم الله الأحزاب ، أسلم العباس فى بنى سُليم ، أخرجه أبو موسى ، وحكى أبو الفرج الأصفهانى ، أنه كان رئيس بنى سليم ، قال : وأثنى عليه خفاف بن نُدبة السُلمِى لما مات فقال : يتقى بخيله عند الموت ، ولا يكالب الصعاليك على الأسلاب ، ولا يقتل الأسرى ، وكان موته فى زمن النبى ﷺ ، وكان ابنه أنس بن العباس من الأمراء فى الفتوح)[٢] .

٥٠ ـ أما أول الرواد ، والرجل الرابع فى الإسلام فهو عمرو بن عبسة من بنى سليم الذى يقص علينا قصة فجره الأول ، وظلماته الأولى إذ يقول :

(رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية ، وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فينزل الحى ليس معهم إله ، فخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة حجارة، فينصب ثلاثة لقدره، ويجعل أحسنها إلهًا يعبده، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلاً سواه ، فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر ، فدلنى على خير من هذا ، فقال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها فإذا رأيته فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين ، فلم تكن لى همة منذ قال لى ذلك إلا مكة ، فآتى فأسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا . . .)[٣] .

وفى رواية مسلم عنه :

(كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وأنهم

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٣٠ ت (٤٥٠٢) .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤/ ٣٠ ت (٤٤٩٦) .   (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢١٧، ٢١٨ .

يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا فقعدت على راحلتى فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جرآء [1] عليه قومه ، فتلطفتُ حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت له: ما أنت[2] ؟ قال : « أنا نبى » ، فقلت : وما نبى ؟ قال : « أرسلنى الله » ، فقلت : وبأى شىء أرسلك ؟ قال : « أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان ، وأن يوحَّد الله لا يشرك به شىء » ، قلت له : فمن معك على هذا الأمر ؟ قال : « حر وعبد » ، قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به ، فقلت : إنى متبعك ، قال : « إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالى وحال الناس ؟ ولكن ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعت بى قد ظهرت فائتنى » .

فذهبت إلى أهلى ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكنت فى أهلى فجعلت أتخبر الأخبار[3] وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم علىّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت : ما فعل هذا الرجل الذى قدم المدينة ؟ فقالوا : الناس إليه سراع ، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك ، فقدمت المدينة ، فدخلت عليه ، فقلت : يا رسول الله، أتعرفنى ؟ قال : « نعم أنت الذى لقيتنى بمكة ؟ » قال : قلت : بلى ، فقلت : يا نبى الله ، أخبرنى عما علمك الله وأجهله ، أخبرنى عنِ الصلاة ، قال : « صلّ صلاة الصبح ، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرنى شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صلّ فإن الصلاة مشهودة [4] محضورة[5] حتى يستقل الظل بالرمح[6] ، ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر[7] جهنم ، فإذا أقبل الفىء فصلّ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلى العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرنى شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار » ، قال : فقلت: يا نبى الله ، فالوضوء حدّثنى عنه ، قال : « ما منكم رجل يقرب وضوءه ، فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرَّت خطايا وجهه وفيه[8] وخياشيمه[9] ، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا

(١) جرآء : جمع جرىء ، وذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين : حِراء ومعناه غِضاب قد عيل صبرهم والصحيح بالجيم .
(٢) ما أنت ؟ ولم يقل : من أنت ؟ لأنه سأل عن صفته لا عن ذاته والصفات مما لا يعقل .
(٣) أتخبر الأخبار : أسأل عنها .
(٤) مشهودة : يشهدها الملائكة .
(٥) محضورة : يحضرها أهل الطاعات .
(٦) يستقل الظل بالرمح : يقوم مقابله فى جهة الشمال وهى حالة الاستواء .
(٧) تسجر جهنم : يوقد عليها إيقادًا بليغًا . (٨) فيه : فمه .
(٩) خياشيمه : جمع خيشوم وهو أقصى الأنف .

خرَّت خطايا يديه مع أنامله[1] مع الماء ، ثم يمسح رأسه إلا خرّ خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء ، فإذا هو قام فصلى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجَّده بالذى هو له أهل ، وفرَّغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمه » .

فحدَّث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ فقال له أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول فى مقام واحد يعطى هذا الرجل ؟ فقال عمرو: يا أبا أمامة لقد كبرت سنى ،ورقَّ عظمى ، واقترب أجلى ، وما بى حاجة أن أكذب على الله ولا على رسول الله ، لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا حتى عدّ سبع مرات ، ما حدثت به أبدًا ولكنى سمعته أكثر من ذلك)[2] .

قال محمد بن عمر : لما أسلم عمرو بن عبسة بمكة، رجع إلى بلاد قومه بنى سُليم، وكان ينزل بصفة وحاذة وهى : من أرض بنى سُليم ، فلم يزل مقيمًا هناك حتى مضت بدر وأحد والخندق وخيبر ، ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك المدينة)[3] .

وهو عمرو بن عبسة بن خالد بن . . . بُهثة بن سليم . . . بن . . . مضر ويكنى أبا نجيح ولقد جنَّب عمرو بن عبسة قومه بنى مالك بن ثعلبة حرب الإسلام والمسلمين ، وكان الخميرة الأولى للإسلام فى بنى سليم، ولم تنزل اللعنة بقومه كما نزلت فى عصية ورعل وذكوان الذين حاربوا الإسلام .

٥١ ـ الحجاج بن عِلاط بن هلال بن . . . سعد السلمى ثم البهزى ،(روى ابن أبى الدنيا فى هواتف الجان من طريق واثلة بن الأسقع ، كان سبب إسلام الحجاج بن علاط أنه خرج فى ركب من قومه إلى مكة،فلما جنَّ عليه الليل استوحش فقام يحرس أصحابه يقول :

أعيذ نفسى وأعيذ صحبى حتى أعود سالمًا وركبى

فسمع قائلاً يقول : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ... ﴾ الآية [الرحمن : ٣٣] ، فلما قدم مكة أخبر بذلك قريشًا فقالوا له : يا أبا كلاب ، إن هذا فيما يزعم محمد أنه أنزل عليه ، قال : فسأل عن النبى ﷺ فقيل له :هو فى المدينة ، قال : فأسلم الحجاج وحسن إسلامه) [4] .

قال ابن سعد : قدم على النبى ﷺ وهو بخيبر فأسلم وسكن المدينة واختط بها دارًا

(١) الأنامل : رؤوس الأصابع .

(٢) مسلم ١/٥٦٩ ـ ٥٧١ ح (٨٣٢) .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/٢١٩ .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/١/٣٢٨ ت (١٦١٧) .

ومسجداً) (١) .

٥٢ ـ العرباض بن سارية (أبو نجيح ، صحابى مشهور من أهل الصفة ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ... ﴾ [التوبة : ٩٢] ، وقال أيضًا كل واحد من عمرو بن عبسة والعرباض بن سارية : أنا رابع الإسلام ولا يدرى أيهما قبل صاحبه،ثم نزل حمص وحديثه فى السنن الأربعة . . . وقال محمد بن عوف : كان قديم الإسلام جداً)(٢) .

قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى سعيد بن عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يغزو مكة بعث إلى الحجاج بن علاط السلمى والعرباض بن سارية السلمى يأمرهما بقدوم المدينة)(٣) ، أما عند الواقدى فى المغازى (وبعث إلى بنى سليم الحجاج بن علاط السلمى ثم البهزى وعرباض بن سارية)(٤) .

قالوا : فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية ، وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، وبعث رسولاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ : أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، وبعث إلى بنى سليم ،فأما بنو سليم فلقيته بقُديد ، وأما سائر العرب فخرجوا إلى المدينة)(٥) .

وهذه صفة انضمام سُليم إلى الجيش الإسلامى فى غزوة الفتح :

(ولما نزل رسول الله ﷺ قُديداً لقيته سليم ، وذلك أنهم نفروا من بلادهم فلقوه وهم تسعمائة على الخيول جميعًا مع كل رجل رمحه وسلاحه ، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم ، فذكرا أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ حيث نزلا عليهم وحشدوا ، ويقال :إنهم ألف فقالت سُليم: يا رسول الله،إنك تُقصينا وتستغشنا ونحن أخوالك ـ أم هاشم بن عبد مناف عاتكة بنت . . ذكوان من بنى سليم ـ فقدّمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا فإنا صُبر فى الحرب صُدقٌ عند اللقاء ، فرسان على متون الخيل ، قال : ومعهم لواءان وخمس رايات والرايات سود ، فقال رسول الله ﷺ : سيروا فجعلهم مقدمته ، وكان خالد بن الوليد على مقدمة النبى ﷺ حين لقيته بنو سُليم بقُديد حتى نزلوا مرَّ الظهران وبنو سليم معه)(٦) .

قال:حدثنى شعيب بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٧١ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٢٣٤ ت (٥٤٩٣) .

(٣) الطبقات الكبرى ٤/ ٢٧١ .

(٤ ، ٥) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٩ .

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٨١٢ ، ٨١٣ .

خرجت بنو سُليم تسعمائة على الخيول ، والقنا والدروع الظاهرة قد طووا ألويتهم وراياتهم ، وليس معهم لواء ولا راية معقودة ، فقالوا : يا رسول الله ، اعقد لنا وضع رايتنا حيث رأيت ، قال : « يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها فى الجاهلية : ما فعل فتى كان قدم مع وفدكم علىٌّ حسن الوجه جيد اللسان ؟ » قالوا : توفى حديثًا)[1] .

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عكرمة بن فروخ السلمى ، عن معاوية بن جاهمة بن عباس بن مرداس قال : قال عباس بن مرداس : لقيته ﷺ وهو يسير حين هبط من المشلل ، ونحن فى آلة الحرب والحديد ظاهر علينا والخيل تنازعنا الأعنة ، فصفقنا لرسول الله ﷺ ، وإلى جنبه أبو بكر وعمر ، فقال رسول الله : « يا عيينة ، هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العُدة والعدد ». فقال: يا رسول الله، جاءهم داعيك ولم يأتنى ، أما والله إن قومى لمعدُّون مؤدون فى الكراع والسلاح ، وإنهم لأحلاس الخيل ورجال الحرب ورماة الحدق ، فقال عباس بن مرداس : أقصر أيها الرجل فوالله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت وخنت لنحن أولى بما ذكرت منك قد عرفته لنا العرب قاطبة ، فأومأ إليهما النبى ﷺ بيده حتى سكتا)[2] .

(وذكر أبو عمر فى ترجمة الضحاك الكلابى أن النبى ﷺ لما سار إلى فتح مكة كان بنو سليم تسعمائة فقال لهم: هل لكم فى رجل يعدل مائة يوفيكم ألفًا؟ فوفاهم بالضحاك وكان رئيسهم وفيه يقول العباس بن مرداس السلمى :

إن الذيـن وفـوا بمـا عاهـدتهم   جيش بعثت عـليهـم الضحـاكـا
أمَّـرْته ذرب اللسـان[3] كأنـه   لمـا تكشَّـفهُ العـدو يـراكا
طـوراً يعـانق باليـدين وتـارة   يفـرى الجماجم صارمًا بتاكًا[4])[5]

(... وقال الواقدى : كان (أى الضحاك) على صدقات قومه ، وكان من الشجعان يعدل بمائة فارس وبعثه النبى ﷺ على سرية ، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إن الذين وفـوا بمـا عاهدتهم   جيش بعثت عليهم الضحاكا)[6]

لقد جاءت سليم بخيل تعدل خيل المسلمين جميعًا ، وهو أكبر تجمع للخيل يشهده

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٨١٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٧٠ ، ٢٧١ ، وهى مذكورة عند الواقدى وفيها نقص أشكل المعنى ، فأخذناها بتمامها من الطبقات .

(٣) ذرب اللسان : حاد اللسان .

(٤) بتاكًا : قطاعًا للرؤوس وغيرها .

(٥) الإصابة لابن حجر ٢/٣/٢٦٧ ت (٤١٦٠) .

(٦) المصدر نفسه ٢ / ٣ / ٢٦٧ ت (٤١٦١) .

الجيش الإسلامى .

(وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفًا فيها من الخيل مائة فرس . . . وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرسًا . . .وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرسًا . . .)(١) .

وقد عدَّ رسول الله ﷺ الضحاك بمائة فارس ، فإذا كانت سليم ألفًا ، فالخيل للمسلمين جميعًا هى ألف كذلك .

وعندما هدَّد عامر بن الطفيل رسول الله ﷺ بغزو المدينة ، قال له :

(أو أغزوك غطفان بألف أشقر وألف شقراء)(٢) فهو يريد أن يجمع عامر وغطفان حتى يغزوه بهذا العدد ، لكن كل هذا العدد الضخم والأعداد الضخمة من بنى سليم لم ترتفع إلى مستوى الطبقة الأولى من أسلم وأشجع ومزينة وجهينة وغفار وقريش والأنصار ، وإن كان رسول الله ﷺ قد أكرمهم وجعلهم مقدمته ، وباهى بهم عيينة بن حصن سيد بنى غطفان ، وعباس سيد بنى سليم وقائدها ، كان يتأرجح بين المؤلفة قلوبهم وبين المهاجرين ، فقد غضب عندما رأى الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يأخذان أكثر منه من غنائم حنين ، وراح يقيس نفسه بهما .

قال ابن إسحاق : وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها فعاتب فيها رسول الله ﷺ فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ :

كانت نهابًا(٣) تلافيتها ... بكرى على المهر فى الأجرع(٤)
وإيقاظى القوم أن يرقدوا ... إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العُبيد(٥) ... بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ (٦) ... فلم أُعطَ شيئًا ولم أُمنع
إلا أفائل(٧) أعطيتها ... عديد قوائمها الأربع(٨)
وما كان حصن(٩) ولا حابس(١٠) ... يفوقان شيخى(١١) فى المجمع

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٠ .
(٢) البخارى ، ك المغازى ب غزوة الرجيع ٥/ ٤٢، ٤٣ .
(٣) نهاب : جمع نهب وهو ما ينهب .
(٤) الأجرع : المكان السهل .
(٥) العُبيد : فرس العباس بن مرداس .
(٦) ذا تدرأ : ذا دفع عن قومى .
(٧) الأفائل : الصغار من الإبل .
(٨) يقال : إنه أعطى أربعة من الإبل ، كما فى رواية ابن سعد فى الطبقات .
(٩) حصن : أبو عيينة .
(١٠) حابس : أبو الأقرع .
(١١) شيخى : هو مرداس أبوه ، وفى رواية : يفوقان مرداس فى المجمع .

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال ابن إسحاق: (فقال رسول الله ﷺ « اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه » . فأعطوه حتى رضى ، فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به رسول الله ﷺ)(١) .

وفى رواية :

(لما أعطى النبى ﷺ المؤلفة قلوبهم يوم حنين مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال :

أتجعل نهبى ونهب العُبيد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى المجمع
وما كنتُ إلا امرءًا منهما ومن تضع اليوم لا يُرفع

العُبيد اسم فرسه ، وحصن الذى ذكره هو أبو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر سيد فزارة ، وحابس أبو الأقرع بن حابس وقد تقدم نسبه فأمر النبى ﷺ بإحضاره فقال: أنت القائل :

أتجعل نهبى ونهب العُبيد بين عيينة والأقرع

وكان النبى ﷺ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [يس : ٦٩]، فقال : « قم يا على فاقطع لسانه »، قال العباس : فقلت : يا على ، وإنك لقاطع لسانى ؟ فقال : إنى ممض فيك ما أمرت ، فمضى بى حتى أدخلنى الحظائر فقال : اعتد ما بين الأربعين إلى المائة ، قلت : بأبى أنت وأمى ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم ، فقال : إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعين وجعلك من المهاجرين ، فإن شئت فخذها ، وإن شئت فخذ مائة وكن من المؤلفة قلوبهم ، فقال : أشر علىَّ ، قال : إنى آمرك أن تأخذ ما أعطاك ، فأخذتها)(٢) .

ونعود بعد هؤلاء الرواد الخمسين الذين قادوا قومهم إلى الإسلام وكانوا نواة حزب الله فى الأرض ونواة جيش الفتح الذى بلغ عشرة آلاف إلى ثلاثة من القادة، حضر منهم اثنان غزوة الفتح، ولم تشر الروايات إلى حضور الثالث، وهم قادة أكبر قبائل العرب، وهم :

١ ـ عيينة بن حصن : سيد بنى غطفان .

٢ ـ الأقرع بن حابس : سيد بنى تميم .

٣ ـ علقمة بن علاثة : سيد بنى عامر .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٩٣، ٤٩٤ . (٢) زهر الآداب للحصرى القيروانى ٣/ ٦١٩ .

لقد أسلم هؤلاء القادة الثلاثة،ولم يحضر قومهم غزوة الفتح ، حضروا بأشخاصهم إلا نفرًا يسيرًا منهم ،ولم يصلوا إلى مستوى الرعيل الأول فقد بقوا من المؤلفة قلوبهم ، واعتبروا ممن أسلم بعد الفتح ، كما ذكر ابن إسحاق :

(وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافًا من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير ، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى حليف بنى زهرة مائة بعير ، وأعطى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة بعير ، وأعطى مالك بن عوف النصرى مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير) (١) .

وجميع هؤلاء قد أسلموا بعد فتح مكة ، ما عدا الأقرع ، وعيينة ، وأبى سفيان فقد ذكر إسلامهم قبل الفتح ، لكنهم عوملوا معاملة مسلمة الفتح ، وكانوا من الطبقة الرابعة من الأمة بعد طبقة بدر والحديبية ، ومن أسلم قبل الفتح .

وسنجد فيما بعد أن هؤلاء الثلاثة عيينة ، والأقرع ، وعلقمة يرتدون مع المرتدين ، ثم يسلمون ويحسن إسلامهم ، وحين نعود إلى القبائل التى دخلت فى حزب الله وشكلت طبقة جيل الفتح ، نجد رسول الله ﷺ يقارنها مع هذه القبائل الكبار ، فيجعل القبائل الكبار بعدها فى الفضل والشرف ، فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «أسلم وغفار ومزينة ، ومن كان من جهينة أو جهينة خير من بنى تميم وبنى عامر،والحليفين أسد وغطفان»(٢) ،وفى رواية : « ومن أسد وطيئ وغطفان »(٣) ، وفى رواية: « من أسد وغطفان وهوازن وتميم » (٤) ، وعامر جزء من هوازن ، وهذه القبائل هى التى شكلت الطبقة الأخيرة فى الأمة فيما بعد ، بل نجد فى ذلك حديثًا مرويًا عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه أخرجه مسلم عن (عبد الرحمن بن أبى بكرة يحدث عن أبيه : أن الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة ، وأحسب جهينة (محمد ـ أحد الرواة ـ هو الذى شك) فقال رسول الله ﷺ : « أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة، ـ وأحسب جهينة ـ خيرًا من بنى تميم وبنى عامر وأسد وغطفان أخابوا وخسروا ؟ » فقال : نعم ، قال : « فوالذى نفسى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٩٣ .
(٢) مسلم ٤/ ١٩٥٥ ح (٢٥٢١) .
(٣) المصدر نفسه ح (٢٥٢١ / ١٩١) .
(٤) المصدر نفسه ح (٢٥٢١ / ١٩٢) .

بيده إنهم لأخير[1] منهم »)[2] .

وهذه القبائل الأربعة هى أكبر القبائل المضرية ، أما طيئ فهى قبيلة من اليمانية ، وليست عدنانية لقد نأى هؤلاء القادة بقبائلهم عن الإسلام ، ولم يعلنوا الانضمام الكامل لهذا الدين إلا فى السنة التاسعة وبعد غزوة تبوك حيث كان عام الوفود ، وأوقفوا حرب رسول الله ﷺ بعد الحديبية إلا غطفان والتى استمرت فى حربها إلى قبيل الفتح .

أما سُليم فقد سكت عنها رسول الله ﷺ ، وإن كان قد فخر بها على عيينة بن حصن حين قدمت فقال له : « يا عيينة ، هذه بنو سُليم قد حضرت بما ترى من العُدَّة والعدد » .

واحتفى بهم عليه الصلاة والسلام حين قال لهم :

« هل لكم فى رجل يعدل مائة يوفيكم ألفًا ؟ » فوفاهم بالضحاك .

وجعلهم ﷺ على مقدمته .

لقد تمكنت سليم أن تطوى الصفحة السابقة صفحة الحرب للإسلام وأهله ، وأن تفتح صفحة مشرقة جديدة ، صفحة الذود عن الإسلام وأهله ، وأن تتقدم بتسعمائة فارس يمثلون طلائع الجيش الإسلامى العظيم وتعلن ولاءها لله ورسوله ضد ولاء القبيلة والعشيرة على لسان شاعرها عباس بن مرداس ، قائلة :

(نذود أخانا عن أخينا ولو نرى ... مصالا لكنا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد ... رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا ... وليس لأمر حمَّه الله دافع)[3]

وانضم عباس شاعرهم وسيدهم إلى المهاجرين كما التحقت سُليم بالمهاجرين ، لكنها لم تبلغ شأو السابقين من أسلم،وغفار ،ومزينة ،وجهينة ،وقريش ، والأنصار وأشجع، وبنى كعب فى الولاء المحض لله ورسوله .

(١) لأخير منهم : هى لغة قليلة تكررت فى الأحاديث وأهل العربية ينكرونها ويقولون : الصواب : خير وشر ولا يقال : أخير ولا أشر ، ولا يُقبل إنكارهم فهى لغة قليلة الاستعمال .

(٢) مسلم ٤/ ١٩٥٦ ح (٢٥٢٢) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٦٤ .

على طريق مكة : أحداث وتربية

١ ـ (وخرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر ، فما حلَّ عُقَده حتى انتهى إلى الصلصل[١] ، وخرج المسلمون وقادوا الخيل وامتطوا الإبل ، وكانوا عشرة آلاف، وقدَّم الرسول ﷺ أمامه الزبير بن العوام فى مائتين من المسلمين . . . وخرج رسول الله ﷺ من المدينة فنادى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر ، وصام رسول الله ﷺ ، قال : وحدثنى مالك بن أنس عن سُمى مولى أبى بكر عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن رجل رأى رسول الله ﷺ بالعرج[٢] يصب الماء على رأسه ووجهه من العطش . . .)[٣] .

٢ ـ (فلما نزل رسول الله ﷺ العرج والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف ، فهم يحبون أن يعلموا ، فجلس فى أصحابه بالعرْج وهو يتحدث، فقال كعب بن مالك : آتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم عِلم وجهه ، فجاء كعب فبرك بين يدى رسول الله ﷺ على ركبتيه ثم قال :

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا[٤] السيوفا
نسائلها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن: دوسًا أو ثقيفا
فلست لحاضر إن لم تروها ... بساحة داركم منها ألوفًا
فننتزع الخيام ببطن وجٍ[٥] ... ونترك دورهم منهم خلوفا

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بيَّن لك رسول الله شيئًا ، ما ندرى بمن يبدى ؛ بقريش أو ثقيف أو هوازن)[٦] .

قال : حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال : لما نزل رسول الله ﷺ بقُديد ، قيل : هل لك فى بيض النساء وأدم الإبل ؟ فقال : إن الله حرمهما علىَّ بصلة الرحم ووكزهم فى لبَّات الإبل) .

٣ ـ وعن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : لما سار رسول الله ﷺ من العرج ،

---

(١) الصلصل : موضع على سبعة أميال من المدينة . (٢) العرج : موضع على أربعة وثمانين ميلاً من المدينة .
(٣) المغازى للواقدى ٨٠١/٢ . (٤) أجممنا السيوف : أرحناها .
(٥) بطن وج : واد بالطائف . (٦) المغازى للواقدى ٨٠٢/٢ .

فكان فيما بين العرج والطلوب[1] نظر إلى كلبة تهرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها ، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له: جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها ، لا يعرض لها أحد من الجيش ولأولادها)[2] .

٤ ـ (قال : حدثنى معاذ بن محمد عن عبد الله بن سعد قال : لما راح رسول الله ﷺ من العرج تقدمت أمامه جريدة [3] من خيل طليعة ،تكون أمام المسلمين ، فلما كانت بين العرج والطلوب أتوا بعين من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، رأيناه حين طلعنا عليه وهو على راحلته فتغيّب عنا فى وهدة [4] ، ثم جاء فأوفى على نشز [5] ، فقعد عليه ، فركضنا إليه فأراد أن يهرب منا ، وإذا بعيره قد عقله أسفل من النشز وهو يغيّبه[6] ، فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجل من بنى غفار ، فقلنا : هم أهل هذا البلد ، فقلنا : من أى بنى غفار أنت ؟ فعيى[7] ولم ينفذ لنا نسبًا ، فازددنا به ريبة، وأسأنا به الظن ، فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريبًا ، وأومأ بيده إلى ناحية ، قلنا : على أى ماء ، ومن معك هنالك ؟ فلم ينفذ لنا شيئًا ، فلما رأينا ما خلط ، قلنا : لتصدقنا أو لنضربن عنقك ، قال : فإن صدقتكم ينفعنى ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم ، قال: فإنى رجل من هوازن من بنى نصر بعثتنى هوازن عينًا وقالوا :

ائت المدينة حتى تلقى محمدًا فتستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه ، أيبعث إلى قريش بعثًا أو يغزوهم بنفسه ولا نراه إلا يستفورهم ،فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سَرِف[8] فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سَرِف حتى يخرج إلينا ، وإن كان يريد قريشًا فسيلزم الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : « وأين هوازن ؟ » قال : تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع ، وأجلبوا فى العرب وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم ، فتركت ثقيفًا على ساقٍ قد جمعوا الجموع ، وبعثوا إلى الجرش[9] فى عمل الدبابات والمنجنيق، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعًا ، قال رسول الله ﷺ: « وإلى من جعلوا أمرهم ؟ » قال : إلى فتاهم مالك بن عوف ، قال رسول الله ﷺ : « وكل هوازن قد أجاب إلى ما دعا إليه مالك ؟ » قال : قد أبطأ من بنى عامر أهل الجد والجلد، قال : « من ؟ » قال : كعب وكلاب ، قال : « ما فعلت هلال ؟ » قال : ما أقل من

(١) الطلوب : ماء فى الطريق بين مكة والمدينة .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٤ .
(٣) جريدة من الخيل : قطعة مختارة منها .
(٤) وهدة : الأرض المنخفضة .
(٥) نشز : المكان المرتفع .
(٦) يغيبه : يحاول إخفاءه .
(٧) فعيى : عجز عن الكلام والجواب .
(٨) بطن سَرِف : مكان يبعد ١٢ كم عن مكة وفيه قبر ميمونة رضي الله عنها .
(٩) الجرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة .

ضوى[1] إليه منهم ، وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سفيان بن حرب، فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون ، فقال رسول الله ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما أراه إلا صدقنى » ، قال الرجل : فلينفعنى ذلك ؟ فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه ، وخافوا أن يتقدّم ويحذر الناس ، فلما نزل العسكر مرّ الظهران أفلت الرجل ، فطلبه خالد بن الوليد فأخذه عند الأراك[2] وقال : لولا وليت عهدًا لك لضربت عنقك ، وأخبر به رسول الله ﷺ فأمر به يحبس حتى يدخل مكة ، فلما دخل رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس[3])[4] .

٥ ـ (قال أبو عبد الله: وقد سمعت فى إسلام أبى سفيان بن الحارث وجهًا آخر قال:

لقيت رسول الله ﷺ أنا وعبد الله بن أبى أمية بنيق العقاب ، فطلبنا الدخول على رسول الله ﷺ ، فأبى يدخلهما عليه فكلمته أم سلمة زوجته فقالت : يا رسول الله صهرك وابن عمتك وابن عمك وأخوك من الرضاعة ، وقد جاء الله بهما مسلمين ، لا يكونان أشقى الناس بك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لى بهما أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فالقائل لى بمكة ما قال : لن يؤمن لى حتى أرقى فى السماء » ،وذلك قول الله عز وجل : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ إلى آخر الآية [الإسراء: ٩٣]، فقالت: يا رسول الله إنما هو من قومك ما هو وقد تكلم وكل قريش قد تكلم ونزل القرآن فيه بعينه ، وقد عفوت عمّن هو أعظم جرمًا منه ، وابن عمك وقرابته وأنت أحق الناس عفوًا عن جرمه فقال رسول الله ﷺ :« هو الذى هتك عرضى ، فلا حاجة لى بهما » ، فلما خرج إليهما الخبر قال أبو سفيان بن الحارث ومعه ابنه : والله ليقبلنى أو لأخذت بيد ابنى هذا فلأذهبن فى الأرض حتى أهلك جوعًا وعطشًا، وأنت أحلم الناس وأكرم الناس مع رحمى بك ، فبلغ رسول الله ﷺ مقالته فرقّ له ، وقال عبد الله بن أبى أمية : إنما جئت لأصدقك ، ولى من القرابة ما لى والصهر بك ، وجعلت أم سلمة تكلمه فيهما ، فرقّ رسول الله ﷺ لهما فدخلا ، فأسلما)[5] .

ويقال:إن عليًا علّمه لما جاء ليسلم أن يأتى النبى ﷺ من قبل وجهه فيقول : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ... ﴾ الآية [يوسف : ٩١] ، ففعل فأجابه : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ... ﴾

---

(١) ضوى : أوى واستجاب .
(٢) الأراك : موضع بعرفة .
(٣) أوطاس : واد بهوازن .
(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٥ ، ٨٠٦ .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٠ ، ٨١١ .

الآية [يوسف : ٩٢] ، فأنشده أبو سفيان :

لعمرك إنى يوم أحمل راية ليغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى)[١]

٦ ـ (وقدم العباس على رسول الله ﷺ مسلمًا ، قال ابن هشام :لقيه بالجحفة[٢] ، فأرسل ثقله إلى المدينة وسار مع رسول الله ﷺ، قال البلاذرى : وقال رسول الله ﷺ: « هجرتك يا عم آخر هجرة ، كما أن نبوتى آخر نبوة »)[٣] .

٧ ـ (روى مسلم والترمذى عن جابر ،والشيخان وأبو داود والنسائى والطحاوى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة فى غزوة الفتح فى رمضان يصوم ويصومون ، حتى بلغ الكديد[٤] بين عُسفان وقُديد ، وفى رواية : بين عسفان وأمج ، وفى حديث جابر : كراع الغميم ، بلغه أن الناس شقّ عليهم الصيام ، وقيل له : إنما ينظرون فيما فعلت ، فلما استوى على راحلته بعد العصر ، دعا بإناء من لبن أو ماء ـ وجزم جابر بأنه ماء ـ وكذا ابن عباس ، وفى رواية فوضعه على راحلته ليراه الناس ، فشرب فأفطر فناوله رجلاً إلى جنبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس صام فقال : « أولئك العصاة ، أولئك العصاة » فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر)[٥] .

(وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن صيام فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم » وكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : « إنكم مصبحوا عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا » فكانت عزيمة)[٦] .

٨ ـ (روى البيهقى عن ابن شهاب رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله ، أرانى فى المنام ، وأراك دنونا من مكة ، فخرجت إلينا كلبة تهرّ فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فإذا هى تشخب لبنًا، فقال رسول الله ﷺ : « ذهب كلبُهم ، وأقبل دَرُّهُم، وهم سيأوون بأرحامهم وإنكم لاقون بعضهم فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه »)[٧] .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٤/٦/٨٦ ت ٥٣٥ .
(٢) الجحفة : فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة ، تبعد ١٥٠ ميلاً عن المدينة .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٢٣ . (٤) الكديد : تبعد عن مكة ٩٠ كم .
(٥) المصدر نفسه ٥/ ٣٢٣، ٣٢٤ وهى عند البخارى ٢/ ٥/ ١٨٥، ١٨٦ وعند مسلم ٢/ ٧٨٥ ح (١١١٣، ١١١٤/ ٨٨ ، ٩٠) .
(٦) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٢٢، وهى عند مسلم ٢/ ٧٨٩ ح (١١٢٠/ ١٠٢) .
(٧) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٢٥ .

(وفى رواية الواقدى : « ذهب كلبهُم ، وأقبل درهم ، سائلوكم بأرحامهم ، وأنتم لاقون بعضهم فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه ») [١] .

٩ ـ (ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران[٢] عشاءً ، وأمر أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار وجعل على الحرس عمر بن الخطاب ، قال عروة كما عند ابن عائذ وبه جزم ابن عقبة وابن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهم : وعميت الأخبار عن قريش فلم يبلغهم حرف واحد عن مسير رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل ، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم)[٣] .

١٠ ـ (أخرج البيهقى عن أبى الوليد سعيد بن مينا قال : لما فرغ أهل مؤتة ورجعوا أمرهم رسول الله ﷺ بالسير إلى مكة ، فلما انتهى إلى مر الظهران نزل بالعقبة وأرسل الجناة[٤] يجتنون الكباث[٥] ، فقلت لسعيد : وما هو ؟ قال : ثمر الأراك ، فانطلق ابن مسعود فيمن يجتنى فجعل الرجل إذا أصاب حبة طيبة قذفها فى فيه، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقى ابن مسعود، وهو يرقى فى الشجرة فيضحكون فقال رسول الله ﷺ: « تعجبون من دقة ساقيه فوالذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أُحد »[٦] كان ابن مسعود ما اجتنى من شىء جاء به وخياره فيه إلى رسول الله ﷺ فقال :

هذا جناى وخياره فيه   إذ كل جان يده إلى فيه

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله ﷺ نجتنى الكُباث وأن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالأسود منه فإنه أطيب » قالوا : كنت ترعى الغنم ؟ قال:« نعم وهل من نبى إلا قد رعاها ؟!» [٧] وقال :إن ذلك كان يوم بدر[٨] يوم جمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان ، رواه البخارى فى الصحيح عن يحيى بن بكير مختصرًا لم يذكر التاريخ فيه)[٩] .

* * *

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٢ .

(٢) مر الظهران : تبعد عن مكة ثلاثة عشر ميلاً .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٢٤ .

(٤) الجناة : الذين يقطفون الثمر .

(٥) الكباث : وفى فتح البارى ٩/ ٥٧٦ قال ابن التين :ثمر الأراك الغض منه ، والبرير ثمره الرطب واليابس . . . قال أبو زياد : يشبه التين يأكله الناس والإبل والغنم ، وقال أبو عمرو : هو حار كأن فيه ملحًا .

(٦) المستدرك للحاكم ٣/ ٣١٧ وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٧) حتى هنا هو عند البخارى باب الأطعمة ٩/ ٥٧٥ ، ٥٧٦ ح (٥٤٥٣) من فتح البارى .

(٨) لاشك فى خطأ الرواية إذ هى الفتح وليس بدرًا ؛لأن المسلمين لم يكونوا فى هذا المكان إلا فى غزوة الفتح ، وهو ذهول من الراوى ، وبدر كانت قرب البئر المعروف بين مكة والمدينة ولا كباث هناك .

(٩) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٩ .

لقد كان خروج رسول الله ﷺ من المدينة فى العاشر من رمضان ، وها هو على أبواب مكة فى السابع عشر منه لثلاث عشر خلون منه كما فى الرواية السابقة ، وكان فتح مكة وغزوة حنين وغزوة الطائف والعودة من الطائف وعمرة الجعرانة وتوزيع غنائم حنين والعودة إلى المدينة حيث وصلها كما ذكر الواقدى (وقدم رسول الله ﷺ يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة) (١) ، أى فى السابع والعشرين منها ، وهذا يعنى أن هذه الرحلة والرفقة مع سيد الثقلين محمد ﷺ قد استغرقت شهرين ونصف ، لهؤلاء الآلاف العشرة ، فكانت عملية تربية خالدة لهذه القاعدة العريضة مع سيدها وقائدها محمد عليه الصلاة والسلام ، بعد أن كانت عملية التربية مع الرواد الأوائل الذين ذكرناهم ،واستغرقت تلك التربية الأولى حوالى السنتين منذ صلح الحديبية وفتح خيبر وذلك فى نهاية السنة السادسة ، هاتان السنتان كان منهما دورة تدريبية خاصة على أعلى مستويات التربية فى الوجود ،رعاها رسول الله ﷺ والمسلمون بين يدى قائدهم ، وليسوا مقيمين داخل البيوت والقصور والأفنية إنما هم فى الصحراء أو فى مكة أو فى الجبال والأودية حيث كانت حنين،أو على أسوار الطائف حيث كانت غزوة ثقيف،فى غزوة فيها من المشقة والعسر والضنك والتدريب العنيف والمواقف والأحداث ما يكون كافيًا لانصهار هذا الجيل واستحقاقه أن يمثل القاعدة العريضة لحزب الله ، وسنقف مع الفقرات السابقة التى عرضنا لها من أحداث وأشخاص ومواقف تبرز دور التربية وعظمتها لهذا الجيل الجديد الفريد .

١ ـ لقد كان أمر رسول الله ﷺ الذى وجهه للقواعد الإسلامية المنتشرة فى القبائل أمرًا واضحًا محددًا (فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية ومن حولهم من المسلمين :من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة،وبعث رسولاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ ـ أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ـ وبعث إلى بنى سليم ، فأما بنو سليم فلقيته بالقديد وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة)(٢) .

وجاء المسلمون من كل فج يلبون دعوة رسول الله ﷺ ، وكان عليه الصلاة والسلام حريصًا على أن يحضر هذه الدورة التربوية العامة كل من دخل فى الإسلام خلال هذه المرحلة ، ويريد أن يواجه بهم قريشًا التى حادّت الله ورسوله ونقضت العهد ونكثت وغدرت بعونها لبكر على خزاعة .

ورمضان هو شهر الصوم ، وكان بالإمكان تأجيل افتتاح هذه الدورة وبدايتها حتى ينتهى الصوم فى شهر رمضان ؛ لحرمة الشهر والصوم فرض على المسلمين ، ولضمان

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٦٠ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٩ .

القدرة عليه من المسلمين فى كل مكان،لكن الأوامر كانت من الصراحة والوضوح بحيث توجب على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر رمضان بالمدينة .

والمعنى الرئيسى من هذه الدعوة بهذه السرعة هو أن عملية الثأر للدماء المراقة لا يمكن أن تؤجل ، فسرعة الحركة والقدرة على الرد أمران ضروريان لحماية السمعة السياسية لرسول الله ﷺ فى قبائل العرب المجاورة المنتشرة فى دنيا العرب ، وتأجيل الرد على هذا النكث قد يفتح المجال لتحالفات جديدة بين مكة والأعداء المجاورين وتهيئ فرصة التعبئة للمواجهة،فقد كانت هوازن تعد العدة للغزو ولو خططت لذلك مع مكة وخصوصًا بعد عودة أبى سفيان من المدينة لكانت هناك صعوبة قد تبلغ حد الاستحالة فى فتح مكة ، وتدرب المسلمون من هذا النداء على الجدية الخالصة والسرعة اللازمة فى الحركة ولو كان ذلك فى رمضان شهر الصوم ، والذى لا يحتمل فى الحالة العادية التحركات العسكرية الضخمة .

ولعل المعنى الثانى من حضور رمضان فى المدينة هو ربط العبادة بالجهاد لهذا الجيل الجديد ، والتعرف على الأولويات لهذا الدين فصيام رمضان فرض ، والجهاد فى سبيل الله فرض ، لكن الظروف الصعبة ، والمحن الضخمة قد تقدم فرض الجهاد على فرض الصيام حين يتم التعارض فى ذلك ،وأن يأتى هذا الجيل ليصوم رمضان مع قائده ويتعرف على آداب الصيام وفضائله ويعيش هذا الجو الروحانى مع قائده عليه الصلاة والسلام هو هدف مهم كذلك فى تحديد هذا اللقاء والبداية فيه ، وأمضى المسلمون بضعة أيام من رمضان فى المدينة ،وشهدوا هذا الجو الروحانى العظيم فى صيامهم وسحورهم وفطورهم مع قائدهم العظيم فى عاصمة الإسلام الأولى فى الوجود فى المدينة المنورة ، وتم التقاء الجيل الرائد بالجيل الجديد ، وتم التعرف والاختلاط والتعايش بين الجيلين بحيث أصبح المسلمون أسرة واحدة ، ولو لم يكن فى هذه الدورة إلا هذه الأيام القلائل التى اجتمعت فيها هذه الآلاف المؤلفة ولأول مرة فى التاريخ يفطرون فى وقت واحد ،ويمسكون فى وقت واحد ، ويؤدون العبادات فى المسجد والمساجد المجاورة فى وقت واحد لكان من حضرها من أسعد الناس فى التاريخ ، فكيف إذا كانت الدورة ليست عشرة أيام بل قرابة ثمانين يومًا مع رسول الله صلوات الله عليه .

إن الدعاة إلى الإسلام اليوم ينتهزون فرصة قدوم رمضان ؛ليقيموا حفلاً جماعيًا فى إفطار مشترك لعشرة من الشباب أو أكثر حد على مستوى العشرات ، ويدعون الموجهين ليشاركوا فى هذا الحفل البهيج ، وتبقى آثار هذا المهرجان خالدة فى نفوسهم يتغذون من رحيقها طيلة العام كله ، وحين نسمع عند هؤلاء الدعاة عن المؤتمرات العامة التى يحضرها

المئات والألوف ويصل بعضها إلى عشرات الألوف حيث يستمر المؤتمر ثلاثة أيام أو أربعة، ويتناولون الفطور المشترك والغداء المشترك والعشاء المشترك ، ويوجهون الدعوات إلى كبار العلماء والدعاة ليشاركوهم مؤتمرهم هذا ، ويتفرغون للندوات والمحاضرات وليالى السمر والتوجيه الطيب بأخذ الفرد زاده من هذا المؤتمر فى أوربا وأمريكا إلى العام كله ، أما الإعداد للمؤتمر فقد يأخذ من جهة الجمعيات الإسلامية أشهراً كاملة لضبطه وإنجاحه ، فكيف بنا بهذا المؤتمر الذى اقترب من عشرة آلاف .

وابتدأ فى رمضان فى عمليات الصوم الجماعى والإفطار الجماعى ، وعلى رأس هذا المؤتمر سيد الخلق وإمام الوجود وصحبه من الجيل الإسلامى الرائد الذين صاغهم عليه الصلاة والسلام وكونهم بيده الشريفة ورعاهم وهم نبتات صغار حتى استغلظ الواحد منهم واستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . هذا الجيل الرائد هو الذى يشرف على تربية هذا الجيل القديم الذى جاء من كل فج عميق ومن أعماق البادية ومن كل حدب وصوب ليحضر رمضان بالمدينة .

٢ ـ **بداية التحرك** ، يحضر هذا الجيل كله بآلافه المؤلفة والذى يدريه هو أنه ماضٍ إلى معركة ، لكنه لا يعرف أين هذه المعركة وصدرت الأوامر النبوية لهذا الجيل الذى سيمضى غداً تحت لهب الشمس وفى أتون الصحراء وفى مرجل الرمل المحرق تصدر الأوامر له منذ بداية التحرك .

(وخرج رسول الله ﷺ من المدينة فنادى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر ، وصام رسول الله ﷺ . . .)(١) .

لقد كان الصوم اختيارياً فى هذا التحرك ولم يكن إجباراً أما رسول الله ﷺ فقد صام وأكثر المسلمون كانوا على صيامه والمفطرون يأخذون بالاختيار المتاح لهم دون حرج وكان أول منزل لرسول الله ﷺ بهذا الجيش بعد قرابة مائة وخمسين كيلو متراً من المدينة فى العَرج ، ولا يزال المسلمون يتابعون صومهم والمفطرون يفطرون ورسول الله ﷺ على راحلته والمسلمون جميعاً يرونه (وعن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن رجل رأى رسول الله ﷺ بالعرج يصب الماء على رأسه ووجهه من العطش) ،فهو يعانى فى ذاته الشريفة من الجوع والعطش ما يعانون ، وينزلون فى هذا الموقع والماء والطعام هو أشهى ما يكون مع هذه الراحة ، ويترك الأمر لكل مسلم باختياره ودون أى إثم يقع عليه لو أفطر ، ومع ذلك فالكثير من المسلمين يصومون بصوم رسول الله ﷺ .

ولا تزال الألوية والرايات والأسلحة الثقيلة كلها مطوية ، وإنما أمام المسلمين جريدة

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٨٠١ .

من خيل طليعة تشق الطريق للمسلمين وتحرسهم من أى غدر أو هجوم قد يقع عليهم ، بل صورة هذه الآلاف المؤلفة أنها ليست ماضية إلى الحرب والمواجهة (وخرج المسلمون فقادوا الخيل وامتطوا الإبل ، وقدّم رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فى مائتين من المسلمين)[1] وقد رأينا من قبل أن خيل المسلمين كانت قرابة الألف هنا فلم تنضم لهم بنو سليم بعد والمسلمون بآلافهم يتشوقون للتعرف على طبيعة المعركة القادمة وساحتها وجهتها ومع من ، وراحوا يسألون قياداتهم ورؤساء أركانهم ووزارة الإعلام المسؤولة عن الإعلام عن المعركة لكن دون جدوى ، وكانت المحاولة التى سبق وتحدثنا عنها والتى قام فيها كعب بن مالك رضي الله عنه رجل الإعلام الثانى بعد حسان رضي الله عنه فقال : (آتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم عِلم وجهه ، فجاء كعب فبرك بين يدى رسول الله ﷺ على ركبتيه ثم قال :

قضينـــا مـــن تهامـــة كـل ريـــب	وخيـــبر ثم أجممنـــا الســـيوفا
نسائلهـــا ولـــو نطقـت لقالـــت	قواطعهـــن دوســـًا أو ثقيفـــًا
فلســت لحاضـــر إن لـــم تروهـا	بســاحـــة داركـــم منهـــا ألوفـــا
فننتـــزع الخيـــام ببطـــن وجٍ	ونـــترك دورهـــم منهـــم خلوفـــا

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك ،فجعل الناس يقولون: والله ما بين لك رسول الله ﷺ شيئًا ،ما ندرى بمن يبدى بقريش أو ثقيف أو هوازن)[2] .

وبقى الجيش يتحرق ليتعرف على وجهة رسول الله ﷺ ، لكن السرّية كانت تقتضى إخفاء ذلك،وكل هذه الاحتمالات قائمة ثقيف وهوازن ودوس ومكة،ولا تزال التوجيهات تقضى حتى بعد انتهاء المرحلة الأولى من الاستراحة بالمحافظة على كل مظاهر القوة العسكرية وعدم إبدائها ، والمحافظة على امتطاء الإبل وقيادة الخيل وإخفاء الأسلحة الكبيرة ، والجيش كله ملتزم بالأوامر الصادرة ولم يحفل بمخالفة واحدة ، أو احتجاج أو تذمر أو عصيان إنما يتربى على يدى قائده فى تنفيذ كل ما يأمره به .

٣ـ **انضمام عيينة بن حصن** ، وهو الذى يدور مع القوة حيث تدور ، فهو دائمًا مع الحصان الغالب ، وحينما رأى رياح محمد ﷺ تهب لا يقف أمامها شىء حنى رأسه للعاصفة (وكان فى أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهًا وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج فى نفر من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبه فسبق إلى العرج ، فلما نزل رسول الله ﷺ العرج أتاه فقال : يا رسول الله ، بلغنى خروجك ومن يجتمع إليك ، فأقبلت سريعًا ولم أشعر

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٨٠١ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٢ .

فأجمع قومى فيكون لنا جلبة كثيرة ، ولست أرى هيئة حرب لا أرى ألوية ولا رايات ، فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيئة الإحرام فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله »)[1] .

لقد كان وجود عيينة بن حصن فى جيش الفتح وجودًا رمزيًا وإعلان استسلام غطفان ، العدو اللدود خلال ثمانية أعوام ، وانضمامه إلى رسول الله ﷺ ولم يكن معه إلا نفر قليل من قومه .

ومن أجل هذا عندما نشرت الألوية والرايات فى قُديد كاد يتميز غيظًا أن يجد الجميع قد سبقوه إلى الإسلام :

(فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عض على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومى ألا يكونوا نفروا مع محمد ،فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله)[2] .

٤ـ التحرك الثانى إلى قديد : وقد حفل هذا التحرك بحدثين صغيرين فى حجمهما كبيرين فى دلالتهما :

أ ـ الحدث الأول : الكلبة التى واجهت المسلمين فى طريقهم :

فعن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : لما سار رسول الله ﷺ من العرج فكان فيما بين العرج والطلوب نظر إلى كلبة تهرّ على أولادها وهم حولها يرضعونها،فأمر رجلاً من أصحابه يقال له : جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها لا يعرض لها أحد من الجيش ولأولادها .

هذا الاحترام للبهيمة يتربى هذا الجيل عليه حيث يبعث رسول الله ﷺ من يحمى هذه الكلبة التى كانت ترضع أولادها وتهر خوفًا عليهم وإعلامًا بوجودها فلا يعتدون عليها .

إنا لنتذكر مع هذه الحادثة ذلك التراحم العجيب الذى ذكره القرآن حين علم سليمان عليه السلام منطق الطير والحيوان ، حيث وقفت نملة تخطب فى قومها قائلة : ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)** ﴾ [النمل] .

وعلى خط الجيش الإسلامى الأول الذى يقوده سليمان عليه الصلاة والسلام يمضى

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٤ .

الجيش الثانى الذى يقوده محمد عليه الصلاة والسلام فتأتى الكلبة تهر محذرة الجيش من الاعتداء عليها مستغيثة بمحمد عليه الصلاة والسلام أن لا يؤذوها ، فيستجيب لها قائد الجيش ويبعث أحد جنوده حماية لها ولأولادها من الاعتداء ، وهى مصرة على البقاء فى الطريق ومتأكدة من الحماية النبوية لها فى لغة قد ألفتها لرسول الوجود كله إنسه وجنه وطيره وبهائمه ، فأصدر أوامره عليه الصلاة والسلام أن لا يعرض أحد لها بسوء .

ب ـ أما الحدث الثانى فهو العين من هوازن ، هو فرد واحد مهمته أن يحقق الهزيمة بجيش كامل، وكان هذا دور الخيالة الطليعة بأن تكشف الطريق ، وترتاد المجهول وتعرف المتربصين والماكرين ، وقد كانت يقظتهم بحيث رأوا تحركاته المشبوهة وقدموه للقيادة النبوية (رأيناه حين طلعنا عليه وهو على راحلته ، فتغيَّب عنا فى وهدة ، ثم جاء فأوفى على نشز فقعد عليه فركضنا إليه فأراد أن يهرب منا وإذا بعيره قد عقله أسفل من النشز وهو يغيّبه) ، فقد كان متقنًا لمهمته تمامًا بحيث يشرف على الجيش كله ويشهد عدده وتحركاته وسلاحه وخيله فيغيب فى الوادى ليضيع على المسلمين ، ثم يأخذ مكانًا عاليًا يطل عليهم ويغيب جمله فى الوادى حتى لا يكشفه ، وقبضت عليه المخابرات النبوية وراحت تجرى التحقيق الأول معه .

(فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجل من بنى غفار ، فقلنا : هم أهل هذا البلد ، فقلنا: من أى غفار أنت ؟ فعيى ولم ينفذ لنا نسبًا ، فازددنا به ريبة وأسأنا به الظن فقلنا: فأين أهلك ؟ قال :قريبًا وأومأ بيده إلى ناحية ، قلنا : على أى ماء ، ومن معك هنالك؟ فلم ينفذ لنا شيئًا) ، وليس من الصعوبة بمكان على المسلمين أن يتحققوا من هُويته ، فمعهم من غفار قرابة خمسمائة ، ولابد أن يتعرفوا عليه ، لكن هذا الأمر يلجأ إليه حين التثبت من صحة كلامه ، لكنه منذ السؤال الأول راح يتلعثم فى الإجابة ولم يتمكن من الانتساب إلى أى قبيلة أو بطن من بطون غفار كما أنه لم يعرف من أرضهم ومائهم أى اسم . (فلما رأيناه خلط قلنا : لتصدقنا أو لنضربن عنقك ، قال: فإن صدقتكم ينفعنى ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم ، فقال : فإنى رجل من هوازن ومن بنى نصر بعثتنى هوازن عينًا) .

وبهذا الاعتراف وقع فى يد المسلمين بعد التهديد الذى وجه إليه ، وراح يعد الخطة الكاملة التى كلف بها من هوازن : (ائت المدينة حتى تلقى محمدًا فتستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه ، أيبعث إلى قريش بعثًا أو يقودهم بنفسه ولا نراه إلا يستفورهم ، فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سرف فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سرف حتى يخرج إلينا وإن كان يريد قريشًا فسيلزم الطريق) .

هذه هى المعلومات المكلف بالحصول عليها ، وقد كان يماشى الجيش ، فهو يخشى أن يدخل فيه ويكشف أمره ، فكان يسابق حركة الجيش ، وهنا ندرك عظمة السرّية التى حافظ عليها رسول الله ﷺ حتى بعد ١٥٠ كم من خروجه من المدينة ، ولم يتمكن أحد من التعرف على مكان اتجاهه ، وأبيات كعب قد بثت الذعر فى قلب دوس وهوازن وثقيف إن كانوا هم المقصودون كما موّهت على الخروج الرئيسى نحو مكة ، ولم ينف عليه الصلاة والسلام ولم يثبت إنما اكتفى بالابتسامة التى يلقى بها صحبه ، وجاء دور التحقيق النبوى مع عين هوازن .

(فقال رسول الله ﷺ : وأين هوازن ؟ قال : تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع وأجلبوا فى العرب ، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم فتركت ثقيفًا على ساق قد جمعوا الجموع ، وبعثوا إلى الجرش فى عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جميعًا).

وأفرغ الجاسوس كل ما فى جعبته من معلومات ، كان رسول الله ﷺ يشك فيها ، وتأكد له أن هوازن معدة لحربه بالتواطؤ مع ثقيف وراح ﷺ يتابع الأمور الدقيقة فى هذه التجمعات (« وإلى من جعلوا أمرهم ؟ » .

ـ إلى فتاهم مالك بن عوف النصرى .

ـ « وكل هوازن قد أجاب إلى ما دعا إليه مالك بن عوف ؟ » .

ـ قد أبطأ من بنى عامر أهل الجد والجلد .

ـ « قال : من ؟ » .

ـ قال : كعب وكلاب .

ـ قال : « ما فعلت هلال ؟ » .

ـ قال : ما أقل من ضوى إليه منهم).

وها هو الجاسوس يقدم معلومات جديدة عن كل ما عنده حتى يسلم بروحه ولا تطير عنقه من جسده ،(قال : وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سفيان ابن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به،وهم خائفون وجلون، فقال رسول الله ﷺ: « ما أراه إلا قد صدقنى ، حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ـ فلينفعنى ذلك .

ـ فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه .

وخافوا أن يتقدم ويحذر الناس، فلما نزل العسكر مر الظهران أفلت الرجل ، فطلبه خالد بن الوليد فأخذه عند الأراك، قال : لولا وليت عهداً لضربت عنقك ، وأخبر به رسول الله ﷺ فأمر به فحبس حتى يدخل مكة، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، فدعاه إلى الإسلام ، فأسلم ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس)(١) .

وهكذا غدت المعلومات لسيد القادة ﷺ عن عدوه واضحة جلية فى كل شىء بينما كانت معلومات عدوه عنه معمية لا يعرفون عنه أى شىء ، وتلقى القادة الكبار فى جيش الفتح هذا الدرس العظيم فى الحرب بأن قوة الجيش بما لديه من معلومات عن عدوه ، وضعف العدو بما يجهل من معلومات عن الجيش المسلم .

٥ ـ كما انضم قائد جديد هو الأقرع بن حابس سيد بنى تميم بعد فى السقيا(٢) وقبل قُديد مع عشرة من قومه ، ومثَّل اشتراكًا رمزيًا لبنى تميم فى الجيش الإسلامى ، وتميم أكبر قبائل العرب كما يقول الشاعر :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وللاستفادة السياسية من هذه الظاهرة أمام قريش ولوجود سيد غطفان عيينة وسيد بنى تميم الأقرع فى هذا الجيش،وحتى تستسلم قريش وتعلم أن لا طاقة لها بمحمد وصحبه سُخرت هذه الظاهرة لذلك ، فإذا كانت لا تقيم وزنًا لهذه القبائل الصغرى المنضمة للجيش ، كما سيظهر فيما بعد من أبى سفيان فهى تعلم أن غطفان وتميم بالنسبة لمضر أكبر هذه القبائل .

فقد كانت العرب تطلق على بكر وتميم الجُفَّان(٣) لكثرة عددهما ، كما كانت تعتبر غطفان من الجماجم العشرة ، وتميم كذلك(٤) ، ويسمى ابن حزم تميم بقوله : وهى قاعدة من أكبر قواعد العرب(٥) .

من أجل هذه الظاهرة ولتوظيفها التوظيف السياسى المطلوب (دخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعيينة)(٦) .

٦ ـ لكن أهم من هذه المظاهر جميعًا هو انضمام أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى ربيعة إلى الجيش الإسلامى وهما من سادة قريش وأعيانها وهذا هو سجل أبى سفيان فى الجاهلية :

(كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة ،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٥ .

(٢) السقيا :على بعد مائة وثمان أميال من مكة المكرمة .

(٣) الجُف : العدد الكثير .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٨٧ .

(٥) المصدر نفسه ص٢٠٧ .

(٦) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٤ .

أرضعته حليمة أيامًا ، وكان يألف رسول الله ﷺ وكان له تربًا ، فلما بُعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط ولم يكن دخل الشعب ، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه ، وهجا حسان فقال :

ألا مبلغ حسان عنى رسالة ... فخلتُك من شر الرجال الصعالك
أبوك أبو سوء وخالك مثله ... فلست بخير من أبيك وخالك

فقال المسلمون لحسان : اهجه ، قال : لا أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فسأل رسول الله فقال : « كيف آذن لك فى ابن عمى أخى أبى ؟ » قال : أسلُّك منه كما تُسلُّ الشعرة من العجين فقال حسان شعرًا ، وأمره رسول الله ﷺ أن يذاكر أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعض ذلك فذاكره ، قال : فمكث أبو سفيان عشرين سنة عدوًا لرسول الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه)[1] ، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ .

هذه هى الصفحة الأولى وأبو سفيان بن الحارث نفسه الذى وجّه حسان له رسالة شعرية قال له فيها :

ألا أبلغ أبا سفيان عنا ... مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدًا وأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركًا برًا حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء
فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء
لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء)[2]

(ثم إن الله ألقى فى قلبه الإسلام ، قال أبو سفيان : من أصحب ومع من أكون ؟ قد ضرب الإسلام بجرانه فجئت زوجتى وولدى فقلت : تهيؤوا للخروج فقد أظل قدوم محمد عليكم ، قالوا : قد آن لك أن تُبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمدًا وأنت موضع فى عداوته وكنت أولى الناس بنصره ، فقلت لغلامى مذكور : عجّل بأبعرة وفرس ، قال : ثم سرنا حتى نزلنا الأبواء[3] ، وقد نزلت مقدمتُه الأبواء فتنكرت وخفت أن أُقتل وكان قد هدر دمى فخرجت وأجد ابنى جعفر على قدمى نحوًا من ميل فى الغداة

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٦ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام م٢/ ٤٢٣ .
(٣) الأبواء : على بعد مائة وسبعة وعشرين ميلاً من المدينة .

التى صبح فيها رسول الله ﷺ الأبواء ، فأقبل الناس رِسلاً رِسلاً (١) ، فنخيت فرقًا من أصحابه ، فلما طلع مركِبُه تصديت له تلقاء وجهه ، فلما ملأ عينيه منى أعرض عنى بوجهه إلى الناحية الأخرى فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى وأعرض عنى مراراً ، فأخذنى ما قرب وما بعد ، وقلت : أنا مقتول قبل أن أصل إليه وأتذكر بره ورحمته وقرابتى فيمسك ذلك منى ، وكنت أظن أن رسول الله ﷺ يفرح بإسلامى فأسلمت وخرجت معه على هذه الحال حتى شهدت فتح مكة وحنين ، فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسى وبيدى السيف صلتًا ولم يعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلى فقال العباس : يا رسول الله ،هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث فارض عنه ، قال : « قد فعلت فغفر الله له كل عداوة عدانيها » ، ثم التفت إلىّ فقال : « أخى لعمرى » فقبلتُ رجله فى الركاب)(٢) .

هذا أبو سفيان الذى قال عنه رسول الله ﷺ وعن أمثاله : « تجدون الناس معادن ، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس فى هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه » وفى رواية: « أشدهم له كراهية قبل أن يقع فيه »(٣) .

ويمثل هذا النمط لذلك رفيق أبى سفيان بن الحارث فى إسلامه عبد الله بن أبى ربيعة الذى مثل أعظم تحدٍ وكراهية وتكذيب لرسول الله ﷺ قبل إسلامه .

(فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة وهو ابن عمته فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له :

يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك عند الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك عند الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ـ أو كما قال له ـ والله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت هذا ما أظن أنى أصدقك)(٤) .

لقد كانت هذه الكلمة من أقسى ما لاقاه رسول الله ﷺ فى حياته من ابن عمته ، ومن أجل هذا رفض رسول الله ﷺ ابتداء إسلامهما كما فى رواية الزهرى عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس :

---

(١) رِسلاً رِسلاً : جماعات جماعات .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٩/٤ ، ٥٠ .

(٣) مسلم ١٩٥٨/٤ ح (٢٥٢٦ / ١٩٩) .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام م ٢٩٨/١ .

(وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ بثنية العُقاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما ، فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك[١] فقال :

« لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال »، فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبى سفيان بن الحارث ابنٌ له فقال : والله ليأذنن لى رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه فقال :

لعمـــرك إنى يـوم أحمـل رايـة — لتغلـب خيـل اللات خيـل محمـد
لا كالمدلـج الحـيران أظلــم ليلــه — فهــذا أوانـى حـين أهدى وأهتدى
هــدانى هــاد غــير نفسـى ونالنـى — مـع الله مـن طـــرَّدت كل مطــرَّد
أصــد وأنــأى جاهـدًا عـن محمـد — وأدعــى وإن لــم أنتسـب لمحمـد
هُـمُ مـا هُـمُ من لـم يقل بهواهـم — وإن كـــان ذا رأى يُلـــم ويفنـــد
أريــد لأرضيهـــم ولســت بـلائطٍ — مع القوم ما لـم أهـد فى كل مقعد

فذكروا أنه حين أنشد رسولَ الله ﷺ : ومن طرَّدت كل مطرَّد ،ضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال : « أنت طرَّدتنى كل مطرد ؟ »)[٢] .

أما كيف كان التحول العجيب لأبى سفيان بن الحارث فقد كان سببه (فإنه هرب وقدم على قيصر ملك الروم فقال : ممن أنت ؟ فانتسب له أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، قال قيصر : أنت ابن عم محمد إن كنت صادقًا ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قلت : نعم : أنا ابن عمه ، فقلت : لا أرانى عند ملك الروم ، وقد هربت من الإسلام لا أعرَف إلا بمحمد ، فدخلنى الإسلام وعرفت أن ما كنتُ فيه باطل من الشرك، ولكنا كنا مع قومٍ أهل عقول باسقة وأرى فاضل الناس يعيشون فى عقولهم ورأيهم ، فسلكوا فجًا فسلكناه ولمَّا جعل أهل الشرف والسن يقتحمون عن محمد ، وينصرون آلهتهم ويغضبون لآبائهم فاتبعناهم)[٣] .

وكما أن عمرو بن العاص لقى مفتاح هدايته عند النجاشى ، فقد لقى أبا سفيان بن

---

(١) أم سلمة هى أخت عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، ومن هنا كان عبد الله صهره ، فهى زوجة رسول الله ﷺ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٧، ٢٨ وسنده صحيح . (٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨١١ ، ٨١٢ (١٣) .

الحارث مفتاح هدايته عند قيصر ، حيث لم يعرف عنده إلا بمحمد وهو الهارب منه ، وكذلك فالذى دفع العظيمين لعداوة محمد ﷺ هو ثقتهم بعقول آبائهم وأشرافهم إذ يقول عمرو كما قال أبو سفيان :

(إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم، وكانوا ممن يوازى حلومهم الجبال، فلما بعث النبى ﷺ فأنكروا عليه فلذنا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا، فإذا حق بين)[1].

بقى عندنا أن نعرف أن هذا العدو الذى حارب الإسلام عشرين عامًا أو تزيد ، ما هو موقعه فى الإسلام ؟

نشهد ذلك من روايتين :

الأولى : ما رواه حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة »[2] .

الثانية : (وكان رسول الله ﷺ يقول : « أبو سفيان أخى وخير أهلى ، وقد أعقبنى الله من حمزة أبا سفيان بن الحارث »[3] .

فكان يقال لأبى سفيان بعد ذلك أسد الله وأسد الرسول)[4] .

ونودّع أبا سفيان بن الحارث رضي الله عنه هنا بهذه الحادثة :

وقال (وأتى أبو سفيان بن الحارث النبى ﷺ وابنه جعفر بن أبى سفيان معتمين ، فلما انتهيا إليه قالا : السلام عليك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « أسفروا تُعرفوا » قال : فانتسبوا له وكشفوا عن وجوههم وقالوا : نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: « أى مطرَّد طردتنى يا أبا سفيان؟ »، أو « متى طردتنى يا أبا سفيان ؟ » قال : لا تثريب يا رسول الله ؟ قال : « لا تثريب يا أبا سفيان » وقال رسول الله ﷺ لعلىّ بن أبى طالب : « بصِّر ابن عمك الوضوء والسنة ورح به إلىّ » ، قال : فراح به إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله على بن أبى طالب فنادى فى الناس: ألا إن الله ورسوله قد رضيا عن أبى سفيان فارضوا عنه)[5] .

٧ ـ وبعد الأبواء حيث التقى رسول الله ﷺ بأبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى ربيعة ، وصل عليه الصلاة والسلام إلى منتصف الطريق فى الجحفة والتى تبعد ثلاثًا

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣ / ٥ / ٢ ت (٥٨٧٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٠٥ وقال فيه المحقق : رجاله ثقات ،لكنه مرسل كما قال الحافظ فى الإصابة ٤/ ٧/ ٨٦ ت (٥٣٥) .

(٣ ـ ٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٥٢ .

وعشرين ميلاً عن الأبواء ، كان لقاء رسول الله ﷺ مع عمه العباس الذى كان يمثل قلم استخباراته فى مكة وسفيره فيها ،وكانت مكة تعلم ذلك ، ولابد لنا أن نعرض إلى سجل العباس العظيم رضي الله عنه فى خدمة هذا الدين رغم عدم إعلانه ذلك .

أ ـ عندما أراد رسول الله ﷺ أن يرتاد قبائل العرب بعد وفاة أبى طالب وخديجة ، وبعد عودته من الطائف ، قال لعمه العباس :

(« لا أرى عندك ولا عند أخيك منعة ، فهل أنت مخرجي إلى السوق غداً حتى نقر فى منازل قبائل الناس » وكانت مجمع العرب قال فقلت : هذه كندة ولفها وهى أفضل من يحج البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل عامر بن صعصعة فاختر لنفسك ؟ قال : فبدأ بكندة فأتاهم)(١) .

ب ـ (عن عويم بن ساعدة قال: لما قدمنا مكة قال لى سعد بن خيثمة ومعن بن عدى وعبد الله بن جبير : يا عويم انطلق بنا حتى نأتى رسول الله ﷺ فنسلم عليه ، فإنا لم نره قط وقد آمنا به فخرجت معهم فقيل لى : هو فى منزل العباس بن عبد المطلب فرحنا إليه فسلمنا عليه ، وقلنا له : متى نلتقى ؟ فقال العباس بن عبد المطلب : إن معكم من قومكم وهو مخالف لكم ، فأخفوا أمركم حتى ينصدع هذا الحاج ونلتقى نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر ، فتدخلون على أمر بين . . .) (٢) ، فهو الناطق الرسمى باسم رسول الله ﷺ يحدد زمان ومكان اللقاء .

جـ ـ (عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا . . . حتى قدمنا مكة . . . فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا : نعم ، قال : وكنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً ـ قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : « تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ » قال : نعم : هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر ؟ » قال : نعم) (٣) ، وهو إذن المسؤول عن حمايته وإجارته ، (وكان أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين) (٤) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٣/ ١٣٨ ، وقد رواه عن الحافظ أبى نعيم ومغازى الأموى بسنده .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١/ ٤٤٠ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٥ .

د ـ وكان يثق به فى أمره كله ، (أخبرنا محمد بن عمر عن عبيد بن يحيى بن معاذ ابن رفاعة بن رافع قال : فخرج القوم تلك الليلة ، ليلة النصر الأول بعد هذه يتسللون وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى ذلك الموضع ومعه العباس بن عبد المطلب ليس معه أحد من الناس غيره ، وكان يثق به فى أمره كله فلما اجتمعوا كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يا معشر الخزرج ـ وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج ـ إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله من كان منا على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتؤوا رأيكم وائتمروا برأيكم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه ، وأخرى: صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم ؟

قال : فأسكت القوم فقال عبد الله بن عمرو بن حرام :

نحن والله أهل الحرب غذّينا بها ، ومرّنا عليها ، وورثناها كابراً عن كابر ، نرمى بالنبل حتى تفنى ، ثم نطاعن بالرماح حتى تنكسر الرماح ، ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا ، فقال العباس :أنتم أصحاب الحرب،فهل فيكم دروع ؟ قالوا : نعم شاملة ، وقال البراء بن معرور : إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما يُنطق به لقلناه ،ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ) (١) .

وهل هناك أخطر من البيعة على الإسلام والجهاد فيما يخص أمر المؤمنين ؟ حتى ليحضرها العباس من دون المؤمنين أجمعين ؟

هـ ـ وهو المسؤول عن الترتيبات الأمنية كاملة لهذا اللقاء .

(عن سفيان بن أبى العوجاء قال : حدثنى من حضرهم تلك الليلة ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ وهو يقول : يا معشر الأنصار أخفوا جرْسكم فإن عليكم عيونًا ، وقدّموا ذوى أسنانكم فيكونون الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى مجالسكم واكتموا أمركم ، فإن طويتم هذا الأمر حتى ينصدع هذا الموسم فأنتم الرجال وأنتم لما بعد اليوم ، فقال البراء : لك والله عندنا كتمان ما تحب أن نكتم، وإظهار ما تحب أن نظهر ، وبذل مهج أنفسنا ، ورضا ربنا عنا،إنا أهل خلفة وافرة،وأهل منعة وعز ،وقد كنا على ما كنا عليه من عبادة حجر ونحن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٤ .

كذا فكيف بنا اليوم حين بصّرنا الله ما أعمى على غيرنا وأيدنا بمحمد ﷺ ؟ . . .)[١] .

و ـ (وكان من أوائل من أسلم : فعن ابن عباس قال : قد كان من كان منا بمكة من بني هاشم قد أسلموا فكانوا يكتمون إسلامهم ويخافون يظهرون ذلك فرقًا من أن يثب عليهم أبو لهب وقريش فيوثقوا كما أوثقت بنو مخزوم سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وغيرهما ؛ فلذلك قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر: « من لقى منكم العباس وطالبًا وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين »)[٢] .

فكتمان إسلامهم إذن توجيه نبوى خالص ، وليس دافعه الخوف على الذات .

ز ـ وأسر في بدر وحوسب حساب المشركين :

(عن عكرمة قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ :كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت ، فكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم إسلامه وكان ذا مال متفرق في قومه فخرج معهم إلى بدر وهم على ذلك)[٣] .

وعن مقسم أبي القاسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان الذى أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة ، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعًا وكان العباس رجلاً جسيمًا فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر : « كيف أسرت العباس يا أبا اليسر »، فقال : يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ولا بعد ، هيئته كذا ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أعانك عليه ملك كريم »[٤] .

عن محمد بن إسحاق قال : (حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما أمسى القوم يوم بدر والأسارى محبوسون في الوثاق فبات رسول الله ﷺ ساهرًا أول ليله فقال له أصحابه :يا رسول الله،مالك لا تنام ؟ قال : « سمعت أنين العباس في وثاقه » ، فقاموا إلى العباس فأطلقوه ، فنام رسول الله ﷺ)[٥] .

عن محمد بن إسحاق قال:(قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب حين انتُهى به إلى المدينة :« يا عباس،افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر فإنك ذو مال » قال : يا رسول الله ، إني كنت مسلمًا ولكن القوم استكرهوني ، قال : « الله أعلم بإسلامك إن يك ما تذكر

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٨ .

(٢ ، ٣) المصدر نفسه ٤/ ١٠ .

(٤) المصدر نفسه ٤/ ١٢ .

(٥) المصدر نفسه ٤/ ١٣ .

حقًا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك » ، وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب فقال العباس : يا رسول الله احسبها لى من فداى ، قال : « لا ، ذاك شىء أعطاناه الله منك » ، قال : فإنه ليس لى مال ، قال : « فأين المال الذى وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ثم قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا وكذا »، قال : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله ففدى العباس نفسه وابن أخيه وحليفه)(١) .

ح ـ **الهجرة الأولى** :(أخبرنا على بن عيسى النوفلى عن إسحاق بن الفضل عن أشياخه، قال عقيل للنبى ﷺ : من قتلت من أشرافهم أنحن فيهم ؟ قال : « قُتل أبو جهل » قال : الآن صفى لك الوادى ، وقال له عقيل : إنه لم يبق من أهل بيتك أحد إلا وقد أسلم ، قال : « فقل لهم: فليلحقوا بى » ، فلما أتاهم عقيل بهذه المقالة خرجوا وذكر أن العباس ونوفلاً وعقيلاً رجعوا إلى مكة أمروا بذلك ليقيموا ما كانوا يقيمون من أمر السقاية والرفادة والرئاسة وذلك بعد موت أبى لهب ، وكانت السقاية والرفادة والرئاسة فى الجاهلية فى بنى هاشم ، ثم هاجروا بعد إلى المدينة فقدموها بأولادهم وعيالهم)(٢) .

ط ـ **السفارة** : (أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى ابن أبى سبرة عن حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال : أسلم العباس بمكة قبل بدر ، وأسلمت أم الفضل معه حينئذ ، وكان مقامه بمكة إنه كان لا يغبى على رسول الله ﷺ بمكة خبرًا إلا كتب به إليه ، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه ، وكان لهم عونًا على إسلامهم، ولقد كان يطلب أن يقدم على النبى ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ :« إن مُقامَك مجاهدٌ حسن » ، فأقام بأمر رسول الله ﷺ)(٣) ، فقد كان بمثابة سفير النبى ﷺ بمكة ، وأهل مكة يدركون ذلك ويعرفونه .

(وعن سهل بن سعد الساعدى قال : استأذن العباس بن عبد المطلب النبى ﷺ فى الهجرة فقال له : « يا عم ، أقم مكانك الذى أنت به ، فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة »)(٤) .

ى ـ **مناقبه** : (وكان رسول الله ﷺ يعظمه ، ويكرمه بعد إسلامه ، وكان وصولاً

---

(١) الطبقات الكبرى ٤/ ١٣ ، ١٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٦، ١٧ .
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٣١ .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ١٦٥. والحديث ضعيف لوجود إسماعيل بن قيس فى سنده كما فى فضائل الصحابة ٢/ ٩٤١ ح (١٨١٢) .

لأرحام قريش ، محسنًا إليهم ، ذا رأى سديد ،وعقل غزير)[1] ، قال النبى ﷺ له :

(« هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفًا وأوصلها »[2] ، وقال : « هذا بقية آبائى »)[3] .

وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أن العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله ﷺ مغضبًا وأنا عنده ، فقال: ما أغضبك ؟ قال : يا رسول الله ، ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة وإذا لقونا لقونا بغير ذلك ، قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّ وجهه ثم قال : « والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحتكم لله ولرسوله » ثم قال : « أيها الناس ، من آذى عمى فقد آذانى ، فإنما عمُّ الرجل صِنوُ أبيه »[4] .

ثلاثة قادة كبار من بنى هاشم وبنى المغيرة، انضموا إلى الجيش النبوى على الطريق، وغدا العباس بعد ذلك رفيقه الدائم .

(ولقيه العباس بن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل بالسقيا ، فدخل عليه العباس فلم يخرج حتى راح رسول الله ﷺ ، وكان ينزل معه فى كل منزل حتى دخل مكة)[5] .

٨ ـ ولما كانت الليلة التى نزل فيها بالجحفة ، كانت رؤيا الصديق رضوان الله عليه فى نومه للكلبة التى تنبح على المسلمين ، ثم استلقت وصمتت ، فعند الواقدى :

(ولما كانت الليلة التى نزل فيها بالجحفة رأى أبو بكر الصديق ﷺ أن النبى ﷺ وأصحابه لما دنوا من مكة ، خرجت عليهم كلبة تهر فلما دنوا منها استلقت على ظهرها وإذا أطباؤها[6] تشخب لبنًا ، فذكرها أبو بكر فقال رسول الله ﷺ : « ذهب كلبهم وأقبل درهم ، والقوم سائلوكم بأرحامكم وأنتم لاقون بعضهم ، فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه ») ، وهذه أول مرة يعلن رسول الله ﷺ احتمال الاتجاه إلى مكة أمام هذا الجيش وقياداته ويعلن من جهة ثانية أن مكة ستأتى مستسلمة مهادنة : « ذهب كلبهم وأقبل درّهم » ، وأن هذه الهدنة والاستسلام قد يتم توقيعها على يد قائد مكة أبى سفيان بن حرب : « فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه » .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ١٦٥ .
(٢) قال المحقق فيه فى فضائل الصحابة ٢/ ٩٢٤ : إسناده صحيح.
(٣) فضائل الصحابة ٢/ ٩٣٠ وقال المحقق فيه : إسناده مرسل ورجاله ثقات .
(٤) الجامع الصحيح للترمذى ٥/ ٦٥٢ ح (٣٧٥٨) وقال فيه :هذا حديث حسن صحيح .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٢ .
(٦) أطباؤها : جمع طبى وهى حلمات الضرع التى من خف وظلف وحافر وسبع .

ولا شك أن الخبر قد انتشر وأذيع فى الجيش ليهيئ الجو النفسى للمواجهة ، وهو نوع من رفع الروح المعنوية إلى أعلى قمة ، فالنصر بإذن الله قادم ، وأهل مكة سائلون المؤمنين بأرحامهم أن يحفظوها .

ورواية البيهقى عن ابن شهاب الزهرى لم تحدد وقت الرؤيا ، فعلى صحة رواية الواقدى أن هذه الرؤيا كانت فى الجحفة على بعد قرابة مائة ميل من مكة ، مع أن الجو حتى هذه اللحظة لم يسمح فيه رسول الله ﷺ بإظهار قوة الجيش وإبراز راياته حرصًا على الكتمان عن مكة أن يصل إليها شيء من أخبار غزو رسول الله ﷺ لها،ولا يبعد أن يكون هذا الإعلان على مستوى خاص للقيادات العليا ، وأن يكون أمر رسول الله ﷺ بعدم قتل أبى سفيان إن وُجد أن يكون ذلك على أبواب مكة ، لقد كانت حماية الكلبة الأولى على الطريق التى بعث رسول الله ﷺ لحمايتها وأولادها هى المقدمة الأولى لتباشير رؤيا الكلبة الثانية التى استسلمت وراحت أثداؤها تشخب لبنًا وسكتت عن الهرير.

٩ ـ (فلما نزل قُديد عقد الألوية وجعل الرايات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضّ على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومى ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله)[١] .

وقُديد تبعد عن مكة قرابة مائة وعشرين كيلاً أو ٦٠ ميلاً ، فهناك تم تمييز القبائل على راياتها وبرزت القيادات فى الجيش ، والتى أعلنها رسول الله ﷺ ، فهو الذى سمى حملة الرايات فى كل قبيلة ، وغالبًا ما يحمل الراية سيد القبيلة أو قائدها العسكرى المشهور فيها .

وفى قلب هذه التعبئة العسكرية والإعداد للمواجهة وصلت خيول سليم ، تسعمائة فارس على تسعمائة فرس أو حصان ، ولم ينشروا الرايات حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يأمر بتوزيعها عليهم وتسليمها لقياداتهم ، وهكذا نجد الجيش يلد ولادة فى هذه المنطقة لتمضى بأخباره الركبان إلى كل مكان ، ومع ذلك فليس يعرف تجاه الجيش ، فعين هوازن حسب ما كُلف به من مهمة أن يمضى مع الجيش إلى سرف ، وهناك يعرف هل يقصد رسول الله ﷺ مكة أو هوازن أو ثقيف ؟ وبطن سرف لا تبعد أكثر من بضعة عشر كيلاً من مكة المكرمة .

١٠ ـ والأمر الذى وجهه رسول الله ﷺ بعد قُديد هو من قبيل الاستعداد والتعبئة للعدو ، حيث رجّح رسول الله ﷺ الفطر على الصيام ولو كانوا فى رمضان ، حيث

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٤ .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم »، وكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، وقد رؤى رسول الله ﷺ صائمًا فى هذا المكان.

ورغم أننا استعرضنا فى الفصل السابق : تكوين الجيش الإسلامى ، كل قبيلة على حدة براياتها وقياداتها فنحن هنا سنعرضها كما وردت فى المغازى بصيغتها المجملة حيث تبرز التعبئة العامة لهذا الجيش .

(وعسكر رسول الله ﷺ ببئر أبى عِنَبَةَ ، وعقد الألوية والرايات ، فكان فى المهاجرين ثلاث رايات ، راية مع الزبير ، وراية مع سعد بن أبى وقاص ، وراية مع على عليه السلام ، وكان فى الأوس بنى عبد الأشهل راية مع أبى نائلة ، وفى بنى ظفر راية مع قتادة بن النعمان ، وفى بنى حارثة راية مع أبى بردة بن نيار ، وفى بنى معاوية راية مع جبر بن عتيك ، وفى بنى خطمة راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر ، وفى بنى أمية راية مع مبيض . . .) ورايات الخزرج كانت (وفى بنى ساعدة راية مع أبى أسيد الساعدى،وفى بنى الحارث بن الخزرج راية مع عبد الله بن زيد ، وفى بنى سلمة راية مع قطبة بن عامر ابن حديدة ، وفى بنى مالك بن النجار راية مع عمارة بن حزم ، وفى بنى مازن راية مع سليط بن قيس وفى بنى دينار راية يحملها . . . وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفًا فيها من الخيل مائة فرس ومائة درع ، وفيها ثلاثة ألوية ، لواء مع النعمان بن مقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرسًا ، ولواءان يحمل أحدهما بريدة بن الحصيب الأسلمى ، والآخر ناجية ابن الأعجم وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرسًا فيها أربعة ألوية لواء مع سويد بن صخر ، ولواء مع ابن مكيث ، ولواء مع أبى زرعة ، ولواء مع عبد الله بن بدر وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة فيهم ثلاثة ألوية ، لواء مع بشر بن سفيان ، ولواء مع ابن شريح ، ولواء مع عمرو بن سالم ، ولم يكن خرج معه من المدينة لقيه قومه بقُديد ، قال : حدثنى عتبة بن جبير عن الحصين بن عبد الرحمن قال : لم يعقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات حتى انتهى إلى قُديد ، ثم جعل رايات المهاجرين والأنصار على ما ذكرنا وقال : كانت راية أشجع مع عوف بن مالك . . .)[1] .

من الجحفة إلى مر الظهران :

١١ ـ ها هو الجيش الإسلامى العظيم يسير بخيله وألويته وراياته وقياداته وأبطاله وجنوده ، وهو لا يعرف إلى الآن هدفه نحو أى عدو يمضى إلا بعض القرائن التى توحى

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٠ ، ٨٠١.

أنه قاصد مكة ، والجيش بين صائم ومفطر ، والمفطرون أغلب الجيش ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم » ، وكانت رخصة فمنا من صام ، ومنا من أفطر ، حتى انتهى عليه الصلاة والسلام إلى كديد[1] ، وبلغه أن الناس قد شق عليهم الصيام ، وقيل له : إنما ينظرون فيما فعلت فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من لبن أو ماء وجزم جابر بأنه ماء وكذا ابن عباس ، وفى رواية وضعه على راحلته ليراه الناس ، فشرب فأفطر فناوله رجلاً إلى جنبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس صائم ، فقال : « أولئك العصاة ، أولئك العصاة » فلم يزل مفطرًا حتى انسلخ الشهر [2] .

لقد كانت القدوة العملية أبلغ من القول ، وحتى يرى المسلمون من رسول الله ﷺ أن الجهاد مقدم على الصيام ، كان أن أشرف على راحلته بحيث يراه الناس جميعًا ، ويمسك بالإناء فيفطر بين الظهر والعصر أو عند العصر ويعطى الإناء إلى أحد المسلمين بجواره معلنًا أنه آن الأوان للإفطار ، فالحرب وشيكة والمواجهة قريبة ، وبعد أن رأى المسلمون رسول الله ﷺ يفطر لم يعد هناك من مجال للتنطع والاستمرار بالصيام ، ومن أجل ذلك عندما قيل له : إن بعض الناس صام قال : « أولئك العصاة » .

وما أبلغ هذا المعنى فى أعماق الجيش المسلم أن يُحكم على من يصوم فرض رمضان بالمعصية ؛ لأن هذا يفوّت عليه القيام بفريضة الجهاد وهو تدريب حى لهذا الجيش كى يرضع لبان الجهاد فى كل ذرة من كيانه حين يرى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يفطر لأن هذا أقوى له على العدو ، ومواجهته .

وتحددت مسيرة الجيش وتحدَّد العدو عندما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران فعرف الجيش أنه قاصد مكة ، مكة المكرمة حيث بيت الله العتيق ، فهى إلى الآن دار كفر يحكمها المشركون الكافرون ،ولابد من حربهم ولو فى قلب بيت الله العتيق لتكون كلمة الله هى العليا فيها ، وفى مر الظهران لم يكتف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالإفطار إنما أمر مناديًا ينادى فى الجيش : (ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : « إنكم مصبحوا عدوكم ، والفطر أقوى لكم فأفطروا » فكانت عزيمة فأفطرنا) .

إن عملية إنقاذ الأمة من الظلم الذى يحيق ولو بفئة صغيرة منها من الأهمية بمكان بحيث يتقدم على قدسية صيام رمضان ، فالثأر من قريش وبكر الطغاة الظلمة الذين بيتوا بنى كعب ركعًا وسجدًا لا يمكن أن يؤجل أو يؤخر حتى انتهاء رمضان ، ولابد من سرعة المبادرة لتحقيق الهدف الكبير فى تحرير مكة من سلطان قريش التى حادت الله ورسوله ،

(١) كديد : تبعد عن مكة قرابة ٩٠ كم .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٢٤.

ونصر بنى كعب حلفاء رسول الله صلوات الله عليه ، بل أصبح فرضًا على المسلمين أن يفطروا استعدادًا لمواجهة العدو .

١٢ ـ ونجحت الخطة فى أعظم أبعادها ،ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران الذى يبعد ٢٥ كم عن مكة ، وأصبحت مكة بحكم المدينة الساقطة بيد رسول الله ﷺ، ومكة لا تدرى شيئًا عن هذا الجيش الجديد الذى بلغ عشرة آلاف بطل ، ولكى يسقط فى يد مكة نهائيًا ،كانت الخطة الجديدة لبث الرعب والخوف فى قلب العدو .

(ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون مر الظهران عشاء ، وأمر أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب) ، فالمعركة لابد أن يحس فيها كل جندى وكل فرد فيها هدف بحد ذاته عليه أن يساهم فى النصر ، وعلى كل جندى أن يسعى ليشعل نارًا للتدفئة أو للطعام أو للنار حتى تنظر مكة فتعرف ضخامة وقوة هذا الجيش العظيم ،ولن يعرف العدد ليلاً إلا من خلال النيران الموقدة ، وعميت الأخبار عن قريش فلم يبلغهم حرف واحد عن مسير رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم) .

١٣ ـ وكما تعرف الجيش المسلم على فضل العباس بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبى ربيعة من الذين انضموا حديثًا للإسلام ، كان لابد أن يتعرفوا على فضل جندى لا يؤبه له فى الجيش لقصر قامته ، وقد يتساءل الجيش عن مغزى انضمامه له ، وهذا الفضل يعرف حتى والجيش يتناول الكباث ويستمع إلى نصيحة رسول الله ﷺ فى الطيب اللذيذ منه ، ها هم يضحكون من هذا الجندى القصير الذى تقتحمه العين من قصره،ويضحكون من دقة ساقيه فيستمعون إلى جواب يذهلهم ويمسك أفئدتهم:

« تعجبون من دقة ساقيه ، فوالذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد »[١] .

وهو لم يكن يجنى ليأكل ، بل كان يجنى ليطعم حبيبه المصطفى ﷺ وهو ينشد فرحًا بهذا الجهد :

هذا جناى وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وتباسط المسلمون مع قائدهم الحبيب حيث انطلق الجيش يطعم ثمر الأراك قائلين له: كنت ترعى الغنم ؟ قال : « نعم وهل من نبى إلا قد رعاها » [٢] .

---

(١) هو فى مسند أحمد (١/ ٤٢١) بلفظ : عن ابن مسعود أنه كان يحتبى سواكا من الأراك لرسول الله ﷺ وكانت الرياح تكفؤه ، وكان فى ساقيه دقة فضحك القوم فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى فى يده لهما أثقل فى الميزان من أحد » وقال المحقق فيه فى كتاب فضائل الصحابة ٢/ ٨٤٣ : إسناده حسن .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٩ ، والمستدرك للحاكم ٣/ ٣١٧ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبى : صحيح .

وذلك حتى تتربى نفوس الصفوة من خلقه على التواضع لله ، والصبر على مشاق الحياة للحصول على الرزق الكفاف مهما كان العمل ، وللتعلم على الرحمة بهذه البهائم حتى يمتلئ القلب رحمة بعدها بخلق الله عز وجل،فربى الله تعالى من صنعهم على عينه بهذا العمل الشريف الذى يصل القلب بالله تعالى فى هذه البيداء،وعلى رأس هؤلاء كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص] .

وأمضى عشر سنوات ﷺ وهو يرعى الغنم لشعيب قبل أن يكلمه الله تعالى بعد أن قضى الأجل ، وسيد ولد آدم الذى يقود الآن هذه الآلاف العشرة هو هو نفسه الذى كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة يسد بها رمقه بأمر رب العالمين ، فلا يجد فرد فى هذا الجيش حرجًا وهو قادم من البادية راعيًا للغنم والإبل ، وكم اكتسب هذا الجيش من الخبرات العظيمة والتربية الضخمة فى طريقه من المدينة إلى مكة :

أ ـ عرف أهمية الجهاد فى حس المسلم وأنه مقدم على الصيام ؛ ولهذا كان الخروج فى العاشر من رمضان .

ب ـ تدرب على الصبر على الجوع والعطش ، فمنهم الصائم فى قلب هذا الحر والصحراء والهجير ، ومنهم المفطر .

جـ ـ تدرب على الانضباط والطاعة فى كل شىء ، فهو يسير إلى حرب ولا يعرف الاتجاه المطلوب إلا عندما يصبح على أبواب العدو .

د ـ تدرب على الكتمان ، فلا يتفشى الخبر ، ولا يتجاوز القيادات العليا ، رغم كل الشائعات ومحاولات التنفس للخبر من أكبر الشخصيات الإعلامية والعسكرية التى لم يسمح لها بالتعرف على وجهة المعركة .

هـ ـ تدرب على أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ،فقبل قدوم أبى سفيان ابن الحارث وعبد الله بن أبى ربيعة هم أعدى العدو ، وأبغض الناس إلى الله ورسوله ، فإذا جاءا وأسلما يستمع الجيش للنداء الخالد من قيادته :

(ألا إن الله ورسوله قد رضيا عن أبى سفيان بن الحارث فارضوا عنه) .

و ـ تدرب الجيش على اليقظة والسهر على أمن الجيش كله ، فالطليعة من الفرسان

هى التى كانت ترتاد الطريق ، وهى التى كشفت جاسوس هوازن ، وعرف رسول الله ﷺ منه أسرار هوازن وقريش ، فأصبح كل شىء معروفًا لرسول الله ﷺ بمقدار الجهالة التامة المطبقة لقريش عن رسول الله ﷺ .

ز - تدرب الجيش على حمل السلاح عندما يقتضى حمله، وإلقائه عندما يقتضى إلقاؤه فقد بقيت الألوية والرايات والأسلحة مطوية حتى بعد منتصف الطريق ، ثم عندما صدر الأمر فإنما ولد الجيش ولادة فى قديد .

ح - تدرب الجيش على المسؤولية الفردية لكل فرد فيه ، فكل فرد بذاته وشخصه من هؤلاء العشرة آلاف مسؤول عن إشعال نار تبقى متقدة طيلة الليل .

ط - تدرب الجيش على الحرب المعنوية فى كيفية بث الرعب فى صفوف العدو ، ومحاولة كسب المعركة بالاستسلام دون نزيف الدماء الذى قد يفنى الآلاف من الفريقين.

ى - تدرب الجيش على القدوة العملية فرسول الله ﷺ يصوم كما يصوم الناس ، ويجوع كما يجوع الناس ، ويمسح وجهه ويضع الماء على رأسه من شدة العطش طاعة لله تعالى ، ثم هو عليه الصلاة والسلام حين اقتضى الأمر الفطر يأخذ بإناء الماء ، وعندما يستوى على راحلته يشربه ويسقى من فى جواره حيث تراه الآلاف المؤلفة فتحتذى حذوه.

ك - تدرب الجيش على حفظ حق الإنسان والحيوان ، فالكلبة ، تحرس أولادها حتى لا يؤذيها الجيش ، فحق الأمن والحياة مصون حتى لهذه البهائم .

ل - تدرب الجيش على أن تكون قضية الدعوة هى الهدف قبل قضية القتل ، فالقوم سائلوكم بأرحامهم وهم مستسلمون فلم القتل والمجازر فيهم .

م - تدرب الجيش على أن قائده عليه الصلاة والسلام هو الذى كان يرعى الغنم فى مكة كما كان يرعاها كل رسول قبله وهو سيد ولد آدم .

ن - وتدرب الجيش على أن يكون خروجه لله ولرسوله لا للذات ولا للقبيلة ولا للعشيرة ، إنما مولاهم الله ورسوله لا مولى له إلا الله ؛ ليكون أعظم جيش عقيدة على وجه الأرض .

س - وتدرب الجيش على تقويم الأفراد والرجال بالعقيدة لا بالمظاهر والأبهة ، فساقا عبد الله بن مسعود أثقل فى الميزان من أحد .

القائد الأسير وتربيته

١ ـ (لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشًا خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان : ما هذه ؟ لكأنها نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ ، فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس : احبس أبا سفيان عند حطم الخيل[1] ، حتى ينظر إلى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبى ﷺ تمر كتيبة كتيبة على أبى سفيان فمرت كتيبة قال: يا عباس ،من هذه ؟ قال: هذه غِفار . قال : ما لى ولغفار ، ثم مرَّت جهينة قال مثل ذلك ، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرّت سُليم فقال مثل ذلك ، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال : من هذه ؟ قال : هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة يحمل الراية، فقال سعد بن عبادة : يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم نَستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان : يا عباس ، حبذا يوم الذمار، ثم جاءت كتيبة وهى أقل[2] الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه وراية النبى ﷺ مع الزبير بن العوام، فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال كذا وكذا ، قال : « كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » ، قال : وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون)[3] .

٢ ـ (وقال حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال :

فلما نزل رسول الله ﷺ بمرّ الظهران قال العباس ـ وقد خرج مع رسول الله ﷺ من المدينة [4] : يا صباح قريش والله لئن بغتها رسول الله ﷺ فدخل عنوة إنه لهلاك قريش آخر الدهر ، فجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وقال : أخرج إلى الأراك ؛ لعلى أرى حطابًا أو صاحب لبن أو داخلاً يدخل مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ

---

(١) هى فى فتح البارى : عند خطم الجبل ، وهو الأصح ٨ / ٥ .

(٢) فى فتح البارى ، قال عياض : وقع للجميع بالقاف ، ووقع فى الجمع للحميدى « أجلّ » بالجيم وهى أظهر ، ولا يبعد صحة الأولى ؛ لأن عدد المهاجرين كان أقل من عدد غيرهم من القبائل ٨ / ٩ .

(٣) البخارى ٢/٥/١٨٦ .

(٤) هذه الجملة ليست فى رواية ابن إسحاق ، وواضح أن العباس انضم إلى رسول الله ﷺ من الجحفة .

ليأتوه فيستأمنوه،فخرجت فوالله إنى لأطوف بالأراك إذ سمعت صوت أبى سفيان وحكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء وقد خرجوا يتجسسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فسمعت صوت أبى سفيان وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط نيرانًا فقال بُديل : هذه نيران خزاعة حمَّشتها الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعة ألأم من ذلك وأذل فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم ، فقال : لبيك ، فداك أبى وأمى ، ما وراءك ؟ قلت : هذا رسول الله فى الناس قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به ، فى عشرة آلاف من المسلمين ، قال : فكيف الحيلة فداك أبى وأمى ، فقلت : تركب فى عجز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله ﷺ ، فإنه والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فردفنى فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين نظروا إلى وقالوا : عمّ رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ ، حتى مررت بنار عمر فقال لأبى سفيان : الحمد لله الذى أمكن منك بغير عهد ولا عقد .

ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبة وسبقت عمر كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء .

ودخل عمر فقال : يا رسول الله : هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعنى أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إنى قد أمَّنته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى أحد ، فلما أكثر فيه عمر ، قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه رجل من بنى عبد مناف،ولو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما ذاك إلا لأنى عرفت أن إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « اذهب به فقد أمَّناه حتى تغدو به علىَّ الغداة » ، فرجع به العباس إلى منزله .

فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال :« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبى وأمى ما أوصلك وأكرمك،والله ظننت أنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئًا بعد،فقال:« ويحك ، أولم يأن أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى وأمى ما أوصلك وأكرمك ، أما هذه ففى النفس منها شىء ، فقال العباس : فقلت : ويلك تَشَهَّدْ شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك ، فتشهد ، فقال رسول الله ﷺحين تشهد :«انصرف به يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله » .

فقلت له : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا يكون له فى قومك فقال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

فخرجت به حتى حبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادى ، فمرّت عليه القبائل ، فيقول : من هؤلاء يا عباس ؟ فأقول سُليم ، فيقول : ما لى ولسليم ، وتمر به القبيلة ، فيقول : من هذه ؟ فأقول : أسلم ، فيقول : ما لى ولأسلم ؟

وتمر جهينة ، حتى مرّ رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ، فقال : يا أبا الفضل ، من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار ، فقال : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا ، فقلت : ويحك ! إنها النبوة ، قال : فنعم إذن ، قلت : إلحق الآن بقومك فحذرهم ، فخرج سريعًا حتى جاء مكة،فصرخ فى المسجد:يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به ، فقالوا : فمه ؟ قال : من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق داره فهو آمن)[1] .

(هكذا رواه بهذا اللفظ ابن إسحاق عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس موصولاً ، وأما أبو أيوب السختيانى فأرسله وقد رواه ابن إدريس عن ابن إسحاق عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس بمعناه)[2] .

٣ـ(وعن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال :وخرج رسول الله ﷺ كما يقال فى اثنى عشر ألفًا من المهاجرين والأنصار ومن طوائف العرب ؛ من أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة ، ومن بنى سليم وقادوا الخيول فأخفى الله عز وجل مسيره على أهل مكة حتى نزلوا بمرّ الظهران وبعثت قريش أبا سفيان وحكيم بن حزام ومعهما بُديل بن ورقاء فلما طلعوا على مرّ الظهران حين بلغوا الأراك وذلك عشاء ، رأوا النيران والفساطيط والعسكر وسمعوا صهيل الخيل ، فراعهم ذلك فقالوا : هذه بنو كعب [3] حشَّتها [4] الحرب ، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : هؤلاء أكثر من بنى كعب ، قالوا : فلعلهم هوازن انتجعوا الغيث بأرضنا ولا والله ما نعرف هذا أيضًا فبينما هم كذلك لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله ﷺ بعثهم عيونًا له بخطيم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ؟ فلما دخل بهم العسكر لقيهم عباس بن عبد المطلب فأجارهم

(١ ، ٢) المغازى للذهبى ٥٣٨ ـ ٥٤١ ، وهو فى السيرة م٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٥ .

(٣) المقصود ببنى كعب هنا خزاعة .   (٤) حشَّتها : حمستها .

وقال : يا أبا حنظلة ، ثكلتك أمك وعشيرتك ، هذا محمد فى جمع من المؤمنين ، فادخلوا عليه فأسلموا ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فمكثوا عنده عامة الليل يحادثهم ويسألهم،ثم دعاهم إلى الإسلام ، فقال لهم :« اشهدوا أنه لا إله إلا الله »، فشهدوا ، ثم قال : « اشهدوا أنى رسول الله » ، فشهد حكيم وبُديل ، وقال أبو سفيان : ما أعلم ذلك ، وخرج أبو سفيان مع العباس ، فلما نودى للصلاة ثار الناس ففزع أبو سفيان وقال للعباس : ماذا يريدون ؟ قال : الصلاة ، ورأى أبو سفيان المسلمين يتلقون وضوء رسول الله ﷺ : فقال : ما رأيت ملكًا قط كالليلة ولا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر ، فسأل أبو سفيان العباس أن يُدخله على رسول الله ﷺ فأدخله فقال أبو سفيان : يا محمد قد استنصرت آلهتى ، واستنصرت إلهك فوالله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت علىّ فلو كان إلهى محقًا وإلهك مبطلاً لقد غلبتك ، فشهد أن محمدًا رسول الله .

وقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ، أجئت بأوباش الناس من يُعرف ومن لا يُعرف إلى أصلك وعشيرتك ، فقال رسول الله ﷺ : « هم أظلم وأفجر ، فقد غدرتم بعقد الحديبية ، وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه » ، فقال بُديل : قد صدقت يا رسول الله ، فقد غدروا بنا ، والله لو أن قريشًا خلوا بيننا وبين عدونا ما نالوا منا الذى نالوا ، فقال أبو سفيان وحكيم : قد كنت يا رسول الله حقيقًا أن تجعل عدّتك وكيدك لهوازن ، فإنهم أبعد رحِمًا وأشد عداوة ، فقال رسول الله ﷺ: « إنى لأرجو أن يجمعهما لى ربى : فتح مكةَ وإعزاز المسلمين بها ، وهزيمة هوازن ، وغنيمة أموالهم وذراريهم » .

فقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ، ادع لنا بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفَّت أيديها آمنون هم ؟

قال رسول الله ﷺ : « نعم ، من كفّ يده وأغلق داره فهو آمن » قالوا : فابعثنا نؤذن بذلك فيهم ، قال : « انطلقوا فمن دخل دارك يا أبا سفيان ، ودارك يا حكيم ، وكفّ يده فهو آمن » ، ودار أبى سفيان بأعلى مكة ودار حكيم بأسفل مكة .

فلما توجها ذاهبين ، قال العباس : يا رسول الله ، إنى لا آمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه فيكفر فاردده حتى نفقَهُ فيرى جنود الله معك ، فقال أبو سفيان : أغدرًا يا بنى هاشم ؟ فقال العباس : ستعلَم إنا لسنا بغُدَر ولكن لى إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر إلى جنود الله وإلى ما أعد للمشركين ، فحبسهم بالمضيق دون الأراك إلى مكة حتى أصبحوا،وأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى :« لتصبح كل قبيلة قد ارتحلت ، ووقفت مع

صاحبها عند رايته ، وتظهر ما معها من الأداة والعدة » ، فأصبح الناس على ظهر ، وقدَّم رسول الله ﷺ بين يديه الكتائب ، فمرت كتيبة على أبى سفيان فقال : يا عباس أفى هذه رسول الله ؟ قال : لا ، قال : فمن هؤلاء ؟ قال : قضاعة ، ثم مرّت القبائل على راياتها . . . فمرت الكتائب يتلو بعضها بعضًا على أبى سفيان وحكيم وبُديل لا تمر عليهم كتيبة إلا سألوا عنها حتى مرّت عليهم كتيبة الأنصار وفيها سعد بن عبادة فنادى سعد أبا سفيان فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحُرمَة .

فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان فى المهاجرين ،قال:يا رسول الله أمرت بقومك أن يُقتلوا ، فإن سعد بن عبادة ومن معه حين مروا بى نادانى سعد فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة وإنى أناشدك الله فى قومك ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة فعزله وجعل الزبير مكانه على الأنصار مع المهاجرين ، فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحجون وغرز راية النبى ﷺ . . .)(١) .

٤ ـ قال : وحدثنى عبد الله بن جعفر قال : سمعت يعقوب بن عتبة يخبر عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال : (. . . ثم قال رسول الله ﷺ للعباس بعد ما خرج : « احبسه بمضيق الوادى إلى خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها » ، قال العباس : فعدلت به فى مضيق الوادى إلى خطم الجبل ، فلما حبست أبا سفيان قال : غدرًا يا بنى هاشم ؟! قال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ولكن لى إليك حاجة ، فقال أبو سفيان : فهلا بدأت بها أولاً ، فقلت : إن لى إليك حاجة فكان أفرخ لروعى ، قال العباس : لم أكن أراك تذهب هذا المذهب .

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه ، ومرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها ، فكان أول من قدَّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى بنى سُليم وهم ألف فيهم لواء يحمله عباس بن مرداس ، ولواء يحمله خُفاف بن نُدبَة ، وراية يحملها الحجاج بن علاط، قال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : خالد بن الوليد ، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، فلما حاذى خالد العباس وإلى جنبه أبو سفيان كبَّر ثلاثًا ثم مضوا ، ثم مرّ على إثره الزبير بن العوام فى خمسمائة منهم مهاجرون وأفناء (٢) العرب كلها ومعه راية سوداء ، فلما حاذى أبا سفيان كبَّر ثلاثًا وكبَّر أصحابه ، فقال : من هذا ؟ قال : الزبير ابن العوام ، قال : ابن أختك ؟ قال : نعم ، ومرّ بنو غِفار فى ثلاثمائة يحمل رايتهم

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٣٩ ـ ٤٤ وهى رواية محمد بن فليح عن موسى بن عُقبة عن ابن شهاب الزهرى ، ورواية ابن أبى أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عُقبة .

(٢) أفناء : يقال هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو ، وعلى الغالب هم أفراد من قبائل متنوعة لم تشارك قبائلهم فى تشكيل الجيش .

أبو ذر الغفارى ، ويقال إيماء بن رحضة ، فلما حاذوه كبَّر ثلاثًا ، قال : يا أبا الفضل ، من هؤلاء ؟ قال : بنو غفار ، قال : ما لى ولبنى غِفار ، ثم مضت أسلم فى أربعمائة فيها لواءان يحمل أحدهما بريدة بن الحصيب والآخرَ ناجية بن الأعجم فلما حاذوه كبَّر ثلاثًا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : أسلم ، قال : يا أبا الفضل ما لى ولأسلم ما كان بيننا وبينهم مرة قط ، قال العباس : هم قوم مسلمون دخلوا فى الإسلام ، ثم مرت بنو عمرو بن كعب فى خمسمائة يحمل رايتهم بُسر بن سفيان قال : منٍ هؤلاء ؟ قال : بنو كعب بن عمرو ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد ، فلما حاذوه كبَّروا ثلاثًا ، ثم مرت مزينة فى ألف معها ثلاثة ألوية وفيها مائة فرس يحمل ألويتها النعمان بن مقرّن ، وبلال ابن الحارث ، وعبد الله بن عمرو فلما حاذوه كبَّروا ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : مزينة، قال : يا أبا الفضل ما لى ولمزينة ، قد جاءتنى تقعقع من شواهقها ، ثم مرت جهينة فى ثمانمائة مع قادتها فيها أربعة ألوية ؛ لواء مع أبى زوعة[1] ، ولواء مع سويد بن صخر ، ولواء مع رافع بن مكيث ، ولواء مع عبد الله بن بدر ، قال : فلما حاذوه كبروا ثلاثًا ، ثم مرت كنانة ، وبنو ليث ، وضمرة ، وسعد بن بكر فى مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثى ، فلما حاذوه كبَّروا ثلاثًا فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر ، قال : نعم ، أهل شؤم والله الذين غزانا محمد بسببهم ،أما والله ما شوورت فيه ولا علمنه ، ولقد كنت له كارهًا حيث بلغنى ولكنه أمر حَمّ ، قال العباس : قد خار الله لك فى غزو محمد ، ودخلتم فى الإسلام كافة .

قال : وحدثنى عبد الله بن عامر عن أبى عمرة بن حماس قال : مرّت بنو ليث وحدها وهم مائتان وخمسون يحمل لواءها الصعب بن جثامة ، فلما مر كبّروا ثلاثًا فقال: من هؤلاء ؟ قال : بنو ليث ، ثم مرت أشجع وهم آخر من مرّ وهم ثلثمائة معهم لواءان ؛ لواء يحمله معقل بن سنان ،ولواء مع نُعيم بن مسعود،فقال أبو سفيان : هؤلاء هم كانوا أشد العرب على محمد ، قال العباس : أدخل الله الإسلام فى قلوبهم فهذا من فضل الله عز وجل ، ثم قال : ما مضى بعد محمد ؟ قال العباس : لم يمضِ بعد ، لو رأيت الكتيبة التى فيها محمد ﷺ رأيت الحديد والخيل والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، قال: أظن والله يا أبا الفضل ومن له بهؤلاء طاقة ؟ فلما طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء طلع سواد وغبرة من سنابك الخيل ، وجعل الناس يمرون كل ذلك يقول : ما مرّ محمد ، فيقول العباس : لا،حتى مر يسير على ناقته القصواء بين أبى بكر، وأسيد ابن حضير وهو يحدثهما ، فقال العباس : هذا رسول الله فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار ، فيها الرايات والألوية مع كل بطن من الأنصار راية ولواء فى

---

(١) ذكره هناك أبو روعة ، وفى ص ٨٠٠ أبو زرعة ، والغالب أنه خطأ المحقق .

الحديد لا يرى منهم إلا الحَدَق، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيها زَجَل وعليه الحديد بصوت عالٍ وهو يزعجها(1) ، فقال أبو سفيان : يا أبا الفضل ، من هذا المتكلم ؟ قال : عمر ابن الخطاب ، قال : لقد أَمِر أمر بنى عدى بعد قلة وذلة ، فقال العباس : يا أبا سفيان إن الله يرفع من يشاء بما يشاء ،وإن عمر ممّن رفعه الإسلام ، ويقال: كان فى الكتيبة ألف دارع ، وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عبادة وهو أمام الكتيبة ، فلما مرّ سعد براية النبى ﷺ نادى : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحُرمة ، اليوم أذلّ الله قريشًا ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ زعم سعد حين مرّ بنا ومن معه قال : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا ، وإنى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبر الناس وأرحم الناس وأوصل الناس ، قال عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان : يا رسول الله ، ما نأمن سعدًا أن يكون منه فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشًا » .

قال : وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله ، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ لم يخرج من سعد حين صار لابنه فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بإمارة من النبى ﷺ ، فأرسل رسول الله ﷺ بعمامته فعرفها سعد فدفع اللواء إلى ابنه قيس)(2) .

٥ ـ (قال : فحدثنى عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن ساعدة قال العباس : فانج ويحك ، فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم ، قال : فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كدَاء وهو يقول : من أغلق بابه فهو آمن ، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة ، فأخذت برأسه فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد وقد جعل لى : من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن طرح السلاح فهو آمن ، قالت : قبَّحك الله رسولَ قوم ، قال : وجعل يصرخ فى مكة : يا معشر قريش ، ويحكم إنه قد جاء ما لا قبل لكم به ، هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد فأسلموا ، قالوا : قبحك الله وافد قوم ، وجعلت هند تقول : اقتلوا وافدكم هذا ، قبَّحك الله وافد قوم ، قال : يقول أبو سفيان : لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم ، رأيت ما لم تروا ، رأيت الكراع والرجال والسلاح فما لأحد بهذا من طاقة)(3) .

* * *

(1) يزعجها : خطأ ،والغالب أنه يزعها ، يقال :وزعه يزعه فهو وازع،وهو الذى يكف الناس ويحمل أولهم على آخرهم ، والوازع الحابس للعسكر الموكل بالصفوف يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر .

(2) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٨ ـ ٨٢٢ .

(3) المصدر نفسه ٢/ ٨٢٢ .

١ ـ تركنا أبا سفيان وقد مُنى بأكبر فشل سياسى فى حياته ، حيث قال له قومه حين أجار بين الناس بوصية ابن أبى طالب : ما زاد على أن لعب بك تلعبًا .

وقالت له زوجته بعد أن ضربت برجليها فى صدره : قُبحت من رسول قوم .

ثم ها هو يكلف بمهمة ثانية بعد أن استفاقوا من هول الصدمة كانت هذه المهمة هو أن يتجسس الأخبار وقالوا له :

إن لقيت محمدًا فخذ لنا منه جوارًا إلا أن ترى رقة من أصحابه فآذنه بالحرب ، واختار رفيقًا له هو حكيم بن حزام ولم يختره عبثًا فهو قريب نسبًا من محمد ، فهو ابن أخى خديجة بنت خويلد وله من مواقفه السابقة أنه ممن ساهم فى فك الحصار عن بنى هاشم ، فيكاد يكون وسيطًا بين محمد وبين أبى سفيان ، إنه يحسن الحساب حين يحسب خارج الساحة الإسلامية ، وبذكائه الحاد اختار رفيقًا ثالثًا هو بُديل بن ورقاء الخزاعى ، وباختياره بُديلاً حقق أربعة أهداف بضربة واحدة :

الهدف الأول : هو إحراج بُديل فى تبنى وجهة نظر مكة وقريش ، والذى يخرج عن إجماعها متهم فى هذه الظروف وهو يعلم أن بُديلاً قد مضى من قبل وقابل محمدًا سرًا، وأخبره بعدوان بكر وقريش على خزاعة ، ورغم أنه خُزاعِى ، لكنه من أشراف مكة ووجوهها وممن اختار الإقامة فيها .

الهدف الثانى : إشعار محمد ﷺ أن بُديلاً إذا جد الجد فهو من حلفاء قريش لإبراز الصف الموحد لقريش ضد رسول الله ﷺ ، فها هو سيد خزاعة ماض ليحاور مع أبى سفيان ويمثل مكة ودولتها فى مواجهة محمد وحلفه .

الهدف الثالث : هو التخفيف من حدة محمد ﷺ واندفاعه للثأر من خزاعة ، فهذا بُديل سيد بنى خزاعة حريص على التفاهم وحل الأزمة سياسيًا دون اللجوء إلى الحل العسكرى والحرب ، وهو ماض مع أبى سفيان لتحقيق الهدف المطلوب نفسه : (إن لقيت محمدًا فخذ لنا منه جوارًا إلا أن ترى رقة من أصحابه فآذنه بالحرب) .

الهدف الرابع : إمكانية نجاح الحوار والحل السلمى بوجود هذين العضوين فى الوفد فكما فعلوا فى الحديبية حيث قدموا للمفاوضات رجال الصف الثانى فى مكة ، بنى عامر ابن لؤى بعد بنى كعب بن لؤى ، وهنا يريد أبو سفيان أن يعلن عن هوية مهمته وهى الحل السلمى واستمرار الصلح وتسوية الأزمة سياسيًا بلا خوف ولا رعب ولا دماء ، أما لو كانت مهمته عسكرية فله من عكرمة وخالد وصفوان وعمرو بن العاص ما هو أنسب لهذه المهمة لقد كان أبو سفيان عقلية سياسية جبارة إذا قيس فى الحدود العربية لكنه

خارج هذا الإطار ، وفى حربه لمحمد ﷺ قد رأينا قمة خسارته السياسية فى عودته خائبًا من المدينة ولعل تلك الخيبة والفشل هى التى أوحت له بهذا الحل السياسى الذكى واختيار أعضاء الوفد المرافق والمكلف بالمباحثات مع محمد بن عبد الله ، وقبلت مكة على مضض بذلك .

٢ ـ (فلما بلغوا الأراك من مرّ الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران وسمعوا صهيل الخيل ، ورغاء الإبل فأفزعهم ذلك فزعًا شديدًا وقالوا :هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب ، فقال بديل هؤلاء أكثر من بنى كعب قالوا : فتنجعّت هوازن على أرضنا ، والله ما نعرف هذا، إن هذا العسكر مثل حاجّ الناس، فبينما هم كذلك لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله ﷺ بعثهم عيونًا له بخطيم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ؟) .

إنه مستوى متخلف جدًا لقيادة مكة حين ترى جيشًا كأنما هو عديد الحجيج يوم عرفة بجوار مكة وعلى بعد ٢٠ كم منها ولا تعرف لمن هذا الجيش وأراد بُديل بن ورقاء أن يثأر شيئًا ما لقومه خزاعة،فقال لأبى سفيان : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب ، ولا يغيب عن ذهن بُديل أنها ليست خزاعة فما كان لقومه أن يجمعوا هذا الجمع لغزو مكة دون إخباره ، ويعلم أن خزاعة مهما جمعت لن تجمع عُشر هذا الجيش ، فإذا كانت مكة حين خرجت وحدها لم تستطع أن تجند أكثر من ألف مقاتل فهل تستطيع خزاعة أن تفعل أكثر من ذلك ؟ إنما يقصد وخز أبى سفيان بما جنوه على قومه خزاعة وما أججوا من ثارات وكان أبو سفيان أدهى من بُديل حيث أدرك مرماه فقال له :

خزاعة ألأم من ذلك وأذل .

وأكبر قبائل العرب جوارًا لهم هى هوازن ، فهل قدمت هوازن تطلب المرعى والكلأ فى أراك مكة ؟ لم يسبق لها أن فعلت ذلك ، هل الموسم موسم حج أو أيام عرفة ؟ أبدًا وكأنما الحاج حاجّ عرفة ، ما هذا ؟

ولم يخطر بذهن قائد مكة وفى حساباته كلها أن يكون محمد بن عبد الله ﷺ هو الذى يغزو مكة،فعهده به قبل عام فى عمرة القضية عام واحد فقط ، أن كان معه ألفان فقط وهذا الجيش أضعاف أعداد جيش محمد ، ومع هذا فلم يخطر على باله أبدًا أن يتمكن محمد بهذه السرعة والضخامة من التحرك لغزو مكة دون أن يعرف بذلك أحد ، وهنا ندرك مستوى التخطيط العظيم بين القائدين،قائد يعبئ خلال نصف شهر عشرة آلاف مقاتل ، ويغزو بهم مكة فى عقر دارها ، وقائد لا يدرى عن عدوه شيئًا ، وقد غدت

عاصمته محاصرة على وشك السقوط وإذا أخذنا صورتين متقابلتين ندرك من خلالهما عظمة التخطيط والاستعداد للمواجهة :

الصورة الأولى : حيث تمكن أبو سفيان أن يعبئ عشرة آلاف مقاتل من قبائل الحجاز ونجد جمعت بينهم عقيدة الشرك فى حرب محمد ﷺ ، كما استطاع أن يغزو محمدًا فى حلفائه اليهود ويضمهم إليه ،وكان يمكن أن تسقط المدينة كما سقطت مكة، غير أن عظمة القيادة النبوية استطاعت أن تقيم الخنادق حول المدينة خلال ثلاثة أيام صمدت هذه الخنادق أمام أشرس هجوم وأعنفه ،وردته خاسرًا ذليلاً دون أن يتمكن من فعل شىء إلا مقتل بضعة عشر جندى من الجانبين ، ونحن لا ننسى أبدًا التدخل الإلهى فى النصر ، لكننا نتحدث عن الجهد البشرى العظيم فى التخطيط لإحاطة المدينة كلها بخنادق من الجهة التى يمكن لمكة الدخول منها ،وعظمة التنفيذ من هذا الجيش الفدائى العظيم الذى لا يجد التمرات يقيم بهن أوده ، وينحسر أعظم هجوم شهدته الحجاز : ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** (٢٥) ﴾ [الأحزاب] .

الصورة الثانية : حيث ينتقل رسول الله ﷺ إلى طور الهجوم : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » ، فيتحرك بعشرة آلاف مقاتل ينزل بها بمر الظهران بجوار مكة ، وكان أول إنجاز لهذا الجيش وأعظم إنجاز له هو أسر قائد العدو من اللحظات الأولى للمعركة ، ويعنى هذا الإنجاز انتهاء المعركة من اللحظات الأولى فيها ، بعد أسر القائد العام لجيش مكة وقواتها المسلحة .

لقد كان رسول الله ﷺ يريد أن ينهى المعركة قبل وقوعها ، وقد دعا ربه أن يأخذ العيون والأرصاد عن مكة فلا يرونهم إلا بغتة ،ولا يشهدونهم إلا فجأة ، واستجاب الله تعالى لدعاء عبده محمد ﷺ فأخذ العيون والأرصاد ، وأوقع بعضهم فى يده وتدخل الوحى حين عجز العلم البشرى عن معرفته ،وحين اقترب رسول الله ﷺ من مكة ـ حيث قرر أن ينزل جيشه ـ دعا المسلمين إلى البحث عن أبى سفيان فى الأراك .

(روى الطبرانى عن أبى ليلى ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمرّ الظهران فقال: « إن أبا سفيان بالأراك فخذوه » ، فدخلنا فأخذناه) (١) .

ويبقى الجهد البشرى مطلوبًا فى كل لحظة ، حيث يأتى التوفيق الإلهى مباركًا هذا الجهد ومسددًا له ، فالحراسة مستمرة لا تنقطع وكان رئيس الحرس فى هذه الليلة التى أُخِذ فيها أبو سفيان هو عمر بن الخطاب ﷺ ، وعيون النبى ﷺ مبثوثة فى كل مكان

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٢٤ .

حول الجيش وداخله وبهذا الجهد تم القبض على أبى سفيان وصاحبيه(١) .

(روى ابن أبى شيبة عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قالا : أُخِذَ أبو سفيان وأصحابه ، وكان حرس رسول الله ﷺ نفر من الأنصار ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ تلك الليلة على الحرس فجاؤوا بهم إليه ، فقالوا : جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة ، فقال عمر وهو يضحك إليهم : والله لو جئتمونى بأبى سفيان ما زدتم ، قالوا : قد والله أتيناك بأبى سفيان ، فقال : احبسوه ، فحبسوه حتى أصبح ، فغدا به على رسول الله ﷺ)(٢) .

لقد كان القبض على أبى سفيان يفوق الخيال عند عمر بن الخطاب ﷺ ؛ لأنه أثمن هدف على الإطلاق وأدرك بفراسته العظيمة حين قيل له أنه قُبضَ على نفر من أهل مكة ، كان أبو سفيان أول ما خطر فى ذهنه ، وكان أبو سفيان وهو لا يملك صلاحيات التصرف فيه إلا من خلال أوامر القيادة النبوية ، فأمر بحبسه حتى أصبح .

أما فى رواية ابن إسحاق عن ابن عباس ، ورواية ابن راهويه عن ابن عباس كذلك كما يرويها العباس ﷺ :

(لما نزل مر الظهران رقّت نفس العباس لأهل مكة ، فقال : واصباح قريش ، والله لئن دخلها رسول الله ﷺ عنوة قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال العباس: فأخذت بغلة رسول الله ﷺ الشهباء فركبتها ، وقلت : ألتمس حطابًا أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، فوالله إنى لفى الأراك ألتمس ما خرجت إليه إذ سمعت كلام أبى سفيان . . . قال العباس: فعرفت صوت أبى سفيان ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى ، فقال : لبيك يا أبا الفضل مالك ؟ فداك أبى وأمى ، وعرف صوتى ، فقلت: ويلك ! هذا رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف مقاتل ، فقال :

واصباح قريش ، والله بأبى أنت وأمى، فما تأمرنى ؟ هل من حيلة ؟ قلت : نعم ، اركب عجز هذه البغلة فأذهب بك لرسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فإنه والله إن ظُفِر بك دون رسول الله ﷺ لتقتلن ، فركب خلفى ورجع صاحباه) (٣) .

---

(١) أخذنا برواية البخارى وابن عقبة ، أما رواية ابن إسحاق فقد وردت بسند صحيح عند ابن مردويه ، وسنحاول الجمع بين الروايتين .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٢٦ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : (وعند ابن إسحاق أن العباس خرج ليلاً فلقى أبا سفيان وبُديلاً ، فحمل=

٣ ـ لقد تركنا العباس عم رسول الله ﷺ فى مكة ليلة العقبة ، وقد استوثق لابن أخيه محمد ﷺ من الأنصار ، وقد أدار مباحثات العقبة ، وحدّد زمانها ومكانها ، ثم شهدناه أسيرًا بين يدى رسول الله ﷺ فى بدر يتضور فى وثاقه ، فلا ينام رسول الله ﷺ من ألمه عليه ، ثم يدفع فداءه وفداء ابن أخيه وحليفه ، وها نحن نشهده فجأة ينهى رسول الله ﷺ مهمته فى مكة بعد أن غدت مكة على وشك الاستسلام ، ويدعوه ليختم به الهجرة قبل الفتح ، فيكون آخر المهاجرين وأفضلهم كما كان رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، وها هو يمضى من الجحفة مع رسول الله ﷺ ، وخلال ساعات يغدو أكبر الوزراء والمستشارين بين يديه ، فينزل حيث ينزل رسول الله ﷺ ، ويرحل حيث يرحل، وإذا هو فى القمة وفى علية أصحابه ، وها هو كما قاد محادثات العقبة التى قامت على أعقابها دولة المسلمين فى المدينة ، ها هو يمضى ليقود مباحثات جديدة ينهى بها دولة الكفر فى مكة ، فهو أعظم الساسة على الساحة ، إنه يتحرك بمبادرة منه ليلة نزول رسول الله ﷺ ليلقى رجلاً أو حطابًا يبعث به إلى مكة يدعوهم لينقذوا أنفسهم من الهلاك والموت ، قبل أن يدخلها رسول الله ﷺ عنوة فيكون ذل وهلاك قريش إلى آخر الدهر، ولولا الصلاحيات الواسعة التى يملكها لما أقدم على مثل هذه المبادرة ، فهو يشعر أن مهمة السفير الدبلوماسية لم تنته بعد ، وعليه أن يختمها بوثيقة استسلام تجنب قريشًا نزيف الدم المرتقب ، وتقنعها بتوقيع وثيقة الصلح الأخيرة مع رسول الله ﷺ ، ولم نجد أحدًا يجرؤ على مثل هذه المبادرة غيره ﷺ لأنه لا يملك أحد من الصلاحيات مثل ما يملكها هو ، وكان قدر الله السعيد الذى أنقذ الله به قريشًا من الهلكة أن يلتقى العباس سفير النبوة ، وصديق أبى سفيان القائد العام لمكة ورئيس دولتها معًا فى بهيم الليل ، وقد أُخِذَ أبو سفيان أسيرًا من المخابرات النبوية ، وبقدوم العباس ، عَرَفَ الحرس وعلى رأسهم قائده عمر بن الخطاب ﷺ صلاحيات العباس ﷺ مسلم اليومين أو الثلاثة أنه مفوض شخصى من رسول الله ﷺ ، وحين نأخذ بالرواية لابن إسحاق نشهد تنازع الصلاحيات بين السلطة المدنية السياسية التى يمثلها العباس ﷺ والسلطة الأمنية العسكرية التى يمثلها عمر بن الخطاب، ولكل مسؤول سلطة مضى يستعمل سلطته، ونشهد هذا التنازع كما رواه ابن إسحاق وكما تحرك به العباس ﷺ وهو يعلم وجود هذه التعليمات والصلاحيات:

ـ أبا سفيان على البغلة ورجع صاحباه) ويمكن الجمع بأن الحرس لما أخذوهم استنقذ العباس أبا سفيان . . . ولكن عند ابن عائذ : (فدخل بُديل وحكيم على رسول الله ﷺ فأسلما) فيحمل قوله : (ورجع صاحباه) أى بعد أن أسلما ، واستمر أبو سفيان عند العباس لأمر رسول الله ﷺ أن يحبسه . . . وفى مغازى موسى ابن عقبة ما يؤيد ذلك وفيه : (فلقيهم العباس فأجارهم وأدخلهم إلى رسول الله ﷺ لما أصبح) ويجمع بين ما عند ابن إسحاق ومرسل أبى سلمة بأن الحرس أخذوهم ،فلما رأوا أبا سفيان مع العباس تركوه معه ٨ / ٧ ـ ٨ ك المغازى .

(قال العباس: فجئت بأبى سفيان وكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . . .).

ولا يمكن أن يتطرق الشك لديهم بأن العباس إنما ينفذ أوامر رسول الله ﷺ وهو على بغلته الخاصة ، وهذا فوق إدراكهم أن يعرفوه أو يعرفوا طبيعة التعليمات النبوية الموجهة لعم محمد عليه الصلاة والسلام .

(حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما رآنى قام ، فقال : من هذا ؟ قلت : العباس ، فذهب ينظر فرأى أبا سفيان خلفى ، فقال : أى عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء . . .) .

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائد الحرس الأعلى ، والعباس المستشار الخاص لرسول الله ﷺ يدرك كل واحد منهما حدود صلاحياته وطبيعة مهمته ، ولكل هدفه نحو رئيس دولة مكة وقائد جيشها العام أبى سفيان بن حرب ، ووجهة النظر الأمنية والعسكرية هى : قتل أبى سفيان الذى قاد أشرس حرب وأعنفها ضد الإسلام والمسلمين خلال ست سنوات، ووجهة النظر السياسية والدبلوماسية هى: إنقاذ رئيس دولة مكة، وتوقيع وثيقة الصلح والاستسلام من قبله،وكل واحد من الزعيمين يود تنفيذ صلاحياته، وتطبيق هدفه .

(فاجتمعنا على باب قُبَّة رسول الله ﷺ ودخل عمر على أثرى ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه) .

ولمع الموت بين عينى أبى سفيان ، وشهد رأسه ملقى عن جسده بإشارة واحدة من رسول الله ﷺ بتنفيذ رغبة رئيس مخابراته .

(قال : قلت : يا رسول الله إنى قد أجرته) .

وجرض أبو سفيان بريقه الذى جف فى حلقه ، هل يرى الحياة بعد أن رأى الموت يتراقص أمام ناظريه ؟ ولم يكتف العباس رضي الله عنه بذلك ، بل أقدم على ابن أخيه محمد ﷺ فالتزمه (ثم التزمت رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل)،فالعباس لن ينثنى حتى ينقذ رأس أبى سفيان ولو بقى إلى آخر الليل بجوار ابن أخيه رسوله الحبيب ، وعمر رضي الله عنه بكل ما أوتى من بلاغة وموقع متقدم وعالٍ عند رسول الله ﷺ ، يريد أن ينهى بلحظة واحدة حياة أبى سفيان .

وتقاذفت السلطتان الاتهامات ،لكن الغريب أن تكون السلطة السياسية والدبلوماسية هى التى توجه الاتهام إلى السلطة الأمنية والعسكرية :

(فلما أكثر عمر فى شأنه ، فقلت : مهلاً يا عمر فوالله لو كان من رجال بنى عدى ابن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف) .

لو كنا فى دولة من دول الأرض التى لا تعرف لشريعة السماء طعمًا ولا مذاقًا ولا تربية، لأقدم قائد الجيش الإسلامى ومدير مخابرات الدولة المسلمة على قتل العباس لهذه الكلمة ، فهو متهم أصلاً ، وعليه أن يكون مراقبًا ، ولم يمر على إسلامه يومان أو ثلاثة وها هو يتآمر مع رئيس دولة العدو ، لو كان هذا فى هذا العصر لأعدم العباس وأبو سفيـان رميًا بالرصاص ؛ لأن العباس المسلـم الجديد اتهم عمر بن الخطاب بالتحيز لقبيلته ولعشيرته ، وهو الذى أفنى حياته فى حرب قبيلته وعشيرته ، وهو المعروف عنه أنه لا تأخذه فى الله لومة لائم ، بينما العباس هو الذى أمضى حياته كلها ممالئًا لقومه ،وها هو يسلم فى اللحظة الأخيرة .

ورسول الله ﷺ لم يعلن عفوه بعد .

لكننا أمام الجيل الذى صنعه الله تعالى على عينه بقيادته وجنده ، وعمر بن الخطاب الرجل الثانى فى الأمة ، والذى قال فيه عليه الصلاة والسلام :« لو كان بعدى نبى لكان عمر » ، هذا النموذج الخالد بدل أن يسجن أو يقتل أو يرد على الاتهامات بسيل من السباب والشتائم ،ويغضب لنفسه وللنيل منه أمام رسول الله ﷺ وتجريحه والاتهام بنيته بدل أن يفعل هذا كله راح يتحدث عن أعظم حب وسعادة يحملها بإسلام العباس عم محمد ﷺ ، ويبرز ما يحمله فى قلبه من إجلال وتعظيم ووفاء للعباس الذى عاش على أعصابه طيلة حياته فى قلب دولة العدو وبين يديهم ، وكأنما راح يعتذر من العباس رضي الله عنه مسلم اليومين أو الثلاثة .

ولـن نشهد مثل هـذا أبدًا فـى كـل أهـل الأرض ودول الأرض وعالـم الأرض ولن نشهده أبدًا إلا عند جيل النبوة والرعيل الذى تربى بعين الله وكلئه ورعايته .

(قال عمر رضي الله عنه : مهلاً يا عباس ـ وفى لفظ :يا أبا الفضل ـ فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم) .

لقد ذاب هذا الجيل حبًا بنبيه وقائده عليه الصلاة والسلام وانخلع من ذاته لتكون ذات رسول الله ﷺ هى محور حبه ، منها ينطلق وبها يحب ويكره ،فغدا إسلام العباس

عم رسول الله ﷺ أحب إلى عمر من إسلام أبيه الخطاب، وهذا شرط أساسى من شروط الإيمان .

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[1] ، وقد تمثل هذا الجيل هذا الأمر واقعًا حبًا نشأ وتربى عليه، فأين مكان عبد مناف وعدى عند عمر رضي الله عنه ، بعد هذا المستوى العظيم الذى ارتقى إليه.

ولقد بلغ عمر رضوان الله عليه من التجرد أنه عندما فرض العطاء اعتبر بنى هاشم هم أول الخلق عطاء ونظر إلى أقربهم لرسول الله ﷺ فكان أول الأمة تسجيلاً فى ديوان العطاء (فعن العباس بن عبد الله بن معبد قال :لما دوّن عمر بن الخطاب الديوان كان أول من بدأ به في المدعى بنى هاشم، ثم كان أول بنى هاشم يدعى العباس بن عبد المطلب)[2] .

وحسم رسول الله ﷺ الأمر بالنسبة لمصير أبى سفيان الذى كان يتراقص أمامه الموت فقال : « اذهب به فقد أمناه حتى تغدو علىّ به الغداة » وتغلبت السلطة السياسية على السلطة الأمنية ، فرجع به إلى منزله ، فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ .

٤ ـ وفى رواية موسى بن عقبة: (فأدخلوا على رسول الله ﷺ ، فمكثوا عنده عامة الليل يحادثهم ويسألهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام فقال لهم :« اشهدوا أن لا إله إلا الله » فشهدوا ، ثم قال : « اشهدوا أنى رسول الله » فشهدوا ، فشهد حكيم وبُديل ، وقال أبو سفيان : ما أعلم ذلك) .

أما بُديل بن ورقاء فهو مع رسول الله ﷺ قلبًا وقالبًا ، وهو الموتور الثائر الذى حمى قومه خزاعة من القتل حين لجؤوا إلى داره ، ولو لم يكن يملك هذه الحماية لذبح العشرات والمئات من قومه من بنى بكر .

(قال أبو سفيان وحكيم : جئت بأوباش الناس من يعرف ومن لا يعرف إلى أصلك وعشيرتك ، فقال رسول الله ﷺ : « هم أظلم وأفجر ، غدرتم بعقد الحديبية وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه » ، فقال بُديل : قد صدقت يا رسول الله ، فقد غدروا بنا والله، لو أن قريشًا خلوا بيننا وبين عدوّنا ما نالوا منا الذى نالوا). فبُديل أقرب قلبًا لرسول الله ﷺ من قريش ولعله أسلم قبل ولم يعلن إسلامه ، وليس عنده عقدة أبى سفيان لو أسلم أن ينتزع الملك منه لكن أبا سفيان يقود قومه بالجاهلية وعقائدها ، وموروث الآباء والخطر كبير وماحق عليه لو أسلم عند قومه وعشيرته ، ولقد

(١) مسلم ١/٦٧ ح (٧٠ / ٤٤).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٣٢ .

رأى من قبل يوم أشيع إسلامه ، كيف سقطت قيادته ، واستهانت به حتى امرأته .

وأما حكيم ، فهو من المعادن النفيسة المخبوءة التى طفا عليها ران الكفر، لكن أعماقها من الصفاء والنقاء ما يجعله مؤهلاً لتلقى نور الله والاستجابة لدعوته ، وتنتظر هذه الأعماق عملية اختلاع هذا الران أو إزاحته على الأقل ليصل النور فتتوهج به دون أى عقد أو موروثات تشين هذا القلب أو تمس هذا المعدن .

(روى ابن عساكر عن عطاء قال : لا أحسبه إلا رفعه إلى ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ليلة قربه من مكة فى غزوة الفتح :

« إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ، وأرغب لهم فى الإسلام » قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عتَّاب بن أسيد ، وجُبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ») [1] .

وحكيم كان يتربى على يدى رسول الله ﷺ من خلال عمته خديجة بنت خويلد التى كانت تصف له خُلق رسول الله ﷺ حتى كأنه يعيشه ويعاينه ، وجاء الوقت المناسب الذى وجد فيه نفسه وجهًا لوجه أمام الحبيب المصطفى ﷺ ، فكان تلك المحادثة التى مسحت ذلك الران عن قلبه ، وأبرزت قلبه كما هو دون أى لوثة ، فما أن دعى للإسلام حتى استجاب على الفور .

بينما بقى أبو سفيان يتلكأ ويتلعثم ، وسنعود إليه وحده فيما بعد .

ومن المحادثات التى التقطها لنا ابن عقبة عن رواته فى هذه الليلة :

(فقال أبو سفيان ، وحكيم : قد كنت يا رسول الله حقيقًا أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن ـ ولعلها كلمة حكيم ـ فأبو سفيان لم يؤمن بعد ، فإنهم أبعد رحمًا وأشد عداوة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لأرجو أن يجمعهما لى ربى؛ فتح مكة وإعزاز المسلمين بها ، وهزيمة هوازن وغنيمة أموالهم وذراريهم ») .

فإذًا لابد أن يدرك قادة مكة أن الأمر فيها هو إعزاز دين الله وتحكيم شريعته ، وليس سلطان أبى سفيان أو سلطان محمد بن عبد الله ، وهوازن كذلك ليست هى الهدف لأنها أبعد رحمًا، بل لأنها تعادى الله ورسوله وتحارب شرعته ، والهدف واحد نحو هوازن ومكة فى استسلامهما لشريعة الله .

ونلاحظ هنا خوف حكيم وأبى سفيان أن ينزل بمكة ما ينزل بهوازن من غنيمة أموالهم وذراريهم .

---

(١) المغازى للواقدى ٥ / ٣٣١ .

(فقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ادع لنا بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفَّت يدها ، آمنون هم ؟ قال رسول الله ﷺ: « نعم ، من كفّ يده وأغلق داره فهو آمن » ، قالوا : فابعثنا نؤذن بذلك فيهم ، قال : « انطلقوا فمن دخل دارك يا أبا سفيان ودارك يا حكيم وكف يده فهو آمن »)(1) .

ومضى حكيم رضي الله عنه وبديل يعمر قلبهما بالإسلام ، وتركا أبا سفيان يعالج مصيره بين يدى رسول الله ﷺ .

٥ ـ ونعود إلى أبى سفيان الذى زال شبح الموت من رأسه بعد أن أنقذه العباس رضي الله عنه وأجاره ، وبقى ينتظر المصير المجهول ليعود فى الغداة ويلتقى برسول الله ﷺ ، والهمّ جاثم على صدره طيلة الليل وهو يفكر بأمره وأمر محمد ﷺ ، إن الذكرى المرة للقائه بقيصر ملك الروم كأنما هى الساعة ماثلة بين عينيه ، لقد خرج والغيظ يأكل قلبه ولخص الأمر بقوله :(لقد أمرَ أمرُ ابن أبى كبشة أن تهابه ملوك بنى الأصفر) ،ولا تزال ترن فى أذنه منذ ذلك الوقت كلمة هرقل :

(فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم)،فأين إذًا حرب قريش له إن كان سيملك ملك قيصر ؟ وهرقل نفسه يتابع قوله : (فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) (2) .

(فقلت لأصحابى : لقد أمِرَ أمر ابن أبى كبشة أن تهابه ملوك بنى الأصفر ، فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام) .

لقد غزى فى أعماقه أكبر غزو بعد ذلك اللقاء التاريخى مع هرقل ، وعرف يقينًا بأن محمداً سينتصر ، لكن قضية الإسلام والنبوة كانت موطن أخذ ورد عنده منذ أن كانت الدعوة الأولى فى مكة :

أ ـ فمنذ أن استمع ليلاً سراً إلى رسول الله ﷺ وكُشف أمره ، قال للأخنس بن شريق : (يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها) (3) .

ب ـ وأحس قبل أن تنهش قلبه عقدة الزعامة بخطورة حرب محمد ﷺ فى بدر ، فقد استطاع بذكائه أن يُفلت القافلة من يد محمد ﷺ ، وبعث إلى قريش : إنما خرجتم

---

(1) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٤٠ ، عن مغازى موسى بن عقبة .

(2) البخارى ١/١/٦ .

(3) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٣١٥ ، ٣١٦ .

لتمنعوا عيركم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا ، فكان جواب أبى جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ، فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونُسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب فى مسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا فامضوا .

(ولحق الرسول أبا سفيان بالهدة ، فأخبره بمضى قريش فقال :

واقوماه ،هذا عمل عمرو بن هشام، كره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس، وبغى والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب أصحاب محمد النفير ذللنا إلى أن يدخل مكة) (١).

جـ ـ لقد كان حتى هذه اللحظة يفكر بعقله الراجح بعيدًا عن الاندفاع والعصبية العمياء التى تذهل العقل ، وأدرك أن الهزيمة لو تمت لقريش فهو ذل لقريش حتى يدخل محمد مكة بالمسلمين .

أما بعد بدر فقد اختلفت الصيغة ، وتغيرت الصورة تمامًا أمامه ، لقد فوجئ بقتل بكره حنظلة وأسر ولده الثانى عند محمد بن عبد الله ، وفوجئ بأكبر كارثة فى بيته وقومه ، فزوجه هند قد فجعت بأبيها وأخيها وعمها وبكرها ، وأصبح الثأر من محمد وصحبه هو الهاجس الدائم فى الصباح والمساء لها ، وهؤلاء عتبة وشيبة والوليد سادة بنى أمية ، ومكة كلها خيم عليها الموت ، فقد قتل قرابة خمسة وعشرين صنديدًا من صناديدها وأبطالها كانوا هـم أئمة الكفر ، وليس هـذا فقط هو الذى تغير فى الساحة عند أبى سفيان ، إنما أهم من هذا كله أنه وجد نفسه قائدًا لمكة دون منازع بعد سقوط تلك القيادات صرعى فى قليب بدر ، وإذا ترأس أبو جهل فى بدر فبغى ، وهى معركة واحدة فهو الآن رئيس مكة ، ولا تثبت رئاسته إلا بالثأر لقتلى مكة ففى كل بيت مناحة ، لقد وجد نفسه هو رأس الحربة فى وجه محمد ﷺ .

وحتى يرضى نفسه فى زعامته ، ويرضى زوجته فى الثأر للأحبة ، ويرضى الموتورين فى مكة بالثأر لقتلاهم ، ها هو يشنها حربًا شعواء على محمد وصحبه .

(فلما رجع المشركون إلى مكة من بدر حرَّم أبو سفيان الدهن حتى يثأر من محمد وأصحابه عمن أصيب من قومه ، فخرج فى مائتى راكب . . . حتى سلكوا النجدية فجاؤوا بنى النضير ليلاً فطرقوا ـ سلام بن مشكم ـ ففتح لهم فقراهم وسقى أبا سفيان خمرًا وأخبره من أخبار النبى ﷺ وأصحابه ، فلما كان السحر خرج فمرّ بالعريض فيجد رجلاً من الأنصار مع أجير له فى حرثه فقتله وقتل أجيره ، وحرّق بيتين بالعريض ،

(١) المغازى للواقدى ١/ ٤٣ .

وحرّق حرثًا لهم ورأى أن يمينه قد حلُت ، ثم ذهب هاربًا وخاف الطلب . . .) (١) .

د ـ ويعرف أبو سفيان في أعماقه أنه إنما يضحك على نفسه بهذا الثأر (فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب . . فقالوا : انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبستها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش . . . وهم طيبو الأنفس يجهزون بهذه العير جيشًا إلى محمد ، وقد ترى من قُتِل من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا ، قال أبو سفيان : وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فأنا والله الموتور الثائر ، قد قُتِل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي، فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج إلى أحد فباعوها وصارت ذهبًا عينًا وكانت العير ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار)(٢) .

وها هو يبلغ في أحد ذروة مجده (فأقبل فأشرف على أصحاب النبي ﷺ في عُرض الجبل فنادى بأعلى صوته : اعل هُبَل ، ثم يصيح : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ يوم بيوم بدر ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال ، وحنظلة بحنظلة ، فقال عمر رضي الله عنه : أجيبُه ؟ قال: « بلى فأجبه » فقال أبو سفيان : اعلُ هُبَل ، فقال عمر : الله أعلى وأجل ، ثم قال أبو سفيان : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، إلا إن الأيام دول وإن الحرب سجال ، فقال عمر : لا سواء قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار، قال أبو سفيان : إنكم تقولون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا ، لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال عمر : الله مولانا ولا مولى لكم ، قال أبو سفيان : قم إلي يا بن الخطاب أكلمك ، فقام عمر . فقال أبو سفيان : أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ،قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر) (٣) .

ولم ينته من سكرته بهذا الانتصار الجزئي حتى بقيت الغصة في حلقه ، عندما علم أن محمداً حي و يسمع كلامه .

هـ ـ وأمام هذا النصر الوهمي ، مضى أبو سفيان ـ وقد ترأس فبغى ـ فحشد العرب كافة لحرب محمد ﷺ في الخندق (وكان القوم جميعًا الذين وافوا الخندق من قريش وسليم، وغطفان وأسد عشرة آلاف فهي عساكر ثلاثة، وعناج الأمر إلى أبي سفيان)(٤).

وكيف كانت نفسية أبي سفيان بعد الخندق ؟

---

(١) المغازي للواقدي ١/ ١٨١ . (٢) المصدر نفسه ١/ ٢٠٠ .

(٣، ٤) المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤ ، وعناج الأمر : مِلاكُه .

يجيبنا على هذا السؤال الرسالتان المتبادلتان بين أبى سفيان ورسول الله ﷺ :

(وكان أبو سفيان على طمع أن يغير على بيضة المدينة كتب كتابًا فيه :

باسمك اللهم ، فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سِرْتُ إليك فى جمعنا ، وإنا نريد ألا نعود إليك أبدًا حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ، تبقر فيه النساء .

وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى ، فلما أتى بالكتاب دعا رسول الله ﷺ أبى ابن كعب فدخل معه قبته ، فقرأ عليه كتاب أبى سفيان ، وكتب إليه رسول الله ﷺ :

من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب .. أما بعد ، فقديمًا غرَّك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تُذكر اللات والعزى ، وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح[1] ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهُبَل حتى أذكرك ذلك ») [2] .

فهو الآن يتميز غيظًا ويأكل قلبه حسرة أن يعود كما قال الله تعالى فيه : ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** (٢٥) ﴾ [الأحزاب] ، وصحا من سكرته على الواقع المرير الذى مُنى به من الفشل الذريع الذى أصابه وحلفاءه ، وأعاد حساباته جميعًا ، فأدرك أن مجده الذى بلغ الذروة فى أحد ، قد بدأ بالأفول بعد الخندق ، ويئس نهائيًا من إمكانية النصر على محمد .

و ـ وراح بتجارة قريش ، فارًا من هذا الواقع المرير ، الذى انتهى بالاعتراف بمحمد ودولته فى عقد الحديبية ، وبحق محمد فى دخول مكة ، فكان ذلك اللقاء الذى جمعه من هرقل ، وانتهى بنفسيته كما قال :

فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام .

لقد كانت هذه الذكريات تنثال عليه من كل جانب طيلة الليلة التى حُبس فيها عند العباس ، ويصل إلى اليقين بنصر محمد عليه ، فهل يا ترى كان ذاك لعبقرية محمد وقوته ، وكلاهما من بنى عبد مناف ، وبطبيعة كبريائه رفض أن يعبد ذلك لهذا السبب

---

(١) الراح : الأكف .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٩٢، ٤٩٣ .

وعرف أن إله محمد هو الحق ، وأن اللات والعزى وهبل آلهة مبطلون .

وأغفى على هذه القناعة ليجد نفسه مدعواً للمثول بين يدى محمد رسول الله ، وحين كان يمضى إلى رسول الله ﷺ عادت إلى ذاكرته تلك المسامرة بينه وبين أمية بن أبى الصلت قبل قرابة عشرين عامًا من اليوم إذ كان يقول : (كنت أرى فى كتبى أن نبيًا يبعث فى حرتنا فكنت أظن بل كنت لا أشك أنى أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذ هو فى بنى عبد مناف فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحدًا يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن ربيعة ، فلما جاوز الأربعين ولم يوح إليه علمت أنه غيره ، قال أبو سفيان : فخرجت فى ركب أريد اليمن فى تجارة فمررت بأمية بن أبى الصلت ، فقلت له كالمستهزئ به : يا أمية قد خرج النبى الذى قد كنت تنعته ، قال : إنه حق فاتبعه ، قلت : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعنى من اتباعه إلا الاستحياء من بنات ثقيف ، إنى كنت أحدثهن أنى هو ، يريننى تابعًا لغلام من بنى عبد مناف ، ثم قال لأبى سفيان : كأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد رُبطت كما يربط الجدى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيك ما يريد ، رواه الطبرانى فى معجمه)(١) .

وها هو الآن قد ربط كما يربط الجدى وهو ماضٍ إلى محمد يحكم فيه بما يريد .

٦ ـ وكان ذلك اللقاء الخالد بين يدى رسول الله ﷺ وأبى سفيان كان من الممكن أن يعيد مع ذلك الماضى كله والذى حشد فى رأس أبى سفيان طيلة الليل ، ويذيبه حياء وخجلاً ، وكان من الممكن أن يسفهه ويحقره ويستهزئ به ، ويمرغ كرامته فى الوحل ، وكان من الممكن أن ينزل به أشد أنواع الأذى والإهانة ، كما كان يفعل سفهاء مكة معه، كان من الممكن أن يكون هذا كله ، وإذا به يفاجأ أن الأمر عند محمد رسول الله هو أمر هذا الدين ، وأمر هذه العقيدة إذ صفح عن كل ما كان فى تلك الصفحة السوداء المقيتة المخزية ، وراح يحدثه عن الإسلام : (فلما أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ ») .

سمع أبو سفيان هذا السؤال العظيم فأحس بنفسه أنه قطرة فى بحر العظمة المحمدية، ولم يتمالك عن القول ، بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد ، وفى رواية ابن عقبة : (يا محمد استنصرت آلهتى ، واستنصرت إلهك ، فوالله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت علىّ ، فلو كان إلهى محقًا وإلهك مبطلاً لقد غلبتك) (٢) .

(١) السيرة الحلبية ٣/ ١٩ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٤٠ .

فأين مستوى تفكيره وما يحمل فى نفسه من خوف ورعب وغيظ وحرب وحقد وكبر أمام هذا السمو الإنسانى الخالد ، فكل ما يسأل عنه : « ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله » .

ثم كان السؤال الثانى : « ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟» .

(قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه فوالله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئًا ، فقال له العباس : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم)[(١)] .

وذكر عبد بن حميد : (أن النبى ﷺ حين عرض الإسلام على أبى سفيان قال له : كيف أصنع بالعزى ، فسمعه عمر رضي الله عنه من وراء القبة فقال له : تخرأ عليها ، فقال له : أبو سفيان : ويحك يا عمر ، إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى)[(٢)] .

ويرى عمر رضي الله عنه الذى فاته قتل أبى سفيان أن يقتل ظلام الشرك فى قلبه الذى لا يزال يحن إليه ، فأبو سفيان الذى قال لعمر يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم .

يناسبه وقد أصبح اليوم أسيرًا بيد محمد ﷺ أن يقال له عن هذه الآلهة المزيفة التى استنصرها طيلة حياته فلم تنصره ، يناسبه أن يقول له عمر رضي الله عنه : تخرأ عليها .

أما أبو سفيان فهو الذى يرى الحلم والعفو والوصل بعد الغلظة والجفوة والكيد والحقد ، يرى نفسه أمام بحر النور الزاخر الذى يتسع لكل التفاهات الى تمثل ذلك الزبد الذى يغيب فى البحر ، فهو مع رسول الله ﷺ يبثه الشك الذى فى قلبه ، والهم الذى يحمله ، والأمل الذى يحدوه ، والألم الذى يعانى منه ، فلا غرو أن يقول له : دعنى مع ابن عمى فإياه أكلم .

ولقد كان العباس يدرك أعماق صديقه أبى سفيان الذى عاش معه عمره كله صديقًا فى رحلاته وتجارته .

(قال العباس : قلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئًا ، قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن »)[(٣)] .

أما فى رواية البيهقى التى وردت بسند حسن[(٤)] عن زياد بن عبد الله عن محمد بن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٠٣ . (٢) السيرة الحلبية ٣/١٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٠٣ .

(٤) زياد بن عبد الله البكائى (صدوق ثبت فى المغازى) ، ابن إسحاق (صدوق يدلس) الزهرى (الإمام الثبت الفقيه) عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (ثقة فقيه ثبت) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

إسحاق عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : (جاء العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ بأبى سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان يشهد أن لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؟ » ، قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا الفضل ، انصرف بضيفك الليلة إلى أهلك واغد به » ، فلما أصبح غدا به عليه ، فقال العباس : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى إن أبا سفيان رجل يحب الشرف والذكر فأعطه شيئًا ، فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وما تسع دارى ؟ فقال : « من دخل الكعبة فهو آمن » ، فقال : وما تسع الكعبة ، فقال : « من دخل المسجد فهو آمن » ، فقال : وما يسع المسجد ؟ فقال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » فقال : هذه واسعة)(١) .

وهكذا يفتح أبو سفيان صفحة جديدة فى حياته ، ينتقل فيها من ظلام الشرك إلى نور الإسلام ، ولا يزال فى قلبه شىء من صحة النبوة ، وذلك من آثار المُلك الذى سيحوله منذ الآن تابعًا وفردًا فى جيش محمد بن عبد الله .

وأدرك رسول الله ﷺ أن هذه النزعة حب الفخر والذكر الذى ركَّز عليه العباس صديقه فأعطاه منه رسول الله ﷺ زعامة المستسلمين للدين الجديد ، وأن يكون بيته هو رمز بيت السلام فى مكة فهو الزعيم الذى يحارب وهو الزعيم الذى يصالح ، وهو الآن يحرص على أن يبلغ الخبر لقومه قريش قبل أن يجتاحهم الجيش العظيم ، لكن ما الذى يحول دون المقاومة إن وجد تيارًا قويًا يدعو لذلك لابد له أن يستسلم يقينًا ويعلم أن لا قدرة له على المواجهة .

٧ ـ (فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ :« يا عباس احبسه فى مضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ») .

أما رواية موسى بن عقبة فى مغازيه : (فقال العباس : يا رسول الله ، إنى لا آمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه ، فيكفر فاردده حتى تقفه فيرى جنود الله معك ، فأدركه عباس فحبسه) .

لا يزال هذا الخلل فى التيار عند أبى سفيان يشوِّه الرؤيا كلها عنده ، ولا تزال الأحكام معظمها تصدر عن الصراع بينه وبين محمد بن عبد الله ، وقد راعه فى حلمه وعفوه ووصله ، لكن هذا لا يعنى عنده صحة نبوته ورسالته من الله ، ومن أجل ذلك

(١) دلائل النبوة للبيهقى وقال فيها المحقق : نقلها باختصار ابن عبد البر فى الدرر ص ٢١٧ ، والصالحى فى السيرة الشامية ٥ / ٣٣٠ .

لما حبس وحيل بينه وبين المضى إلى مكة ليبلغ رسالة الاستسلام إلى قومه حسب أنه قد غُدر به ، وسيساق إلى مقصلة الموت بعد أن أعلن إسلامه .

(قال : أغدراً يا بنى هاشم ؟

فقال العباس : ستعلم أنا لسنا بغُدر ، ولكن لى إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر إلى جنود الله وإلى ما عُدَّ للمشركين فحبسهم بالمضيق دون الأراك إلى مكة حتى أصبحوا وأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى لتصبح كل قبيلة قد ارتحلت ووقفت مع صاحبها عند رايته ، وتظهر ما معها من الأداة والعدة)[1] .

إن قضية الإيمان بالله ووحدانيته قد تجاوزها أبو سفيان ، وهى لا تمس موقعه وزعامته ولا تقتضى منه أن ينخلع أو يتخلى عن هذه الزعامة ليكون تبعًا لمحمد بن عبد الله ، أما الإيمان برسول الله ، فهذه تعنى أنه أصبح فردًا مسلمًا من هذه الآلاف المؤلفة التى عليها أن تسمع وتطيع لرسول الله ، وقد كان صادقًا مع نفسه حين قال : أما هذه ففى النفس منها شيئًا ، ثم اضطر إلى الإيمان خوفًا أن تُضرب عنقه ، وما الذى يمنعه إن غادر الأسر أن يعلن أنه إنما أسلم خوفًا من السيف ، وها هو يعد العدة للمواجهة ، إذن فالقضية التى يجب أن تحسم فى نفسه هى منطق القوة ، وأنه عاجز عن مواجهة محمد ابن عبد الله أو جمع الجموع له أو الدفاع المستميت عن مكة .

ونفسيات الزعماء يصعب أن ترى النور وهى قادرة على الاستمرار فى الزعامة ، خصوصًا وهى تحس بالخطر على زعامتها وقيادتها .

وحين خرجت الإشاعات عندما تأخر فى المدينة أنه قد أسلم،كان أول شىء فعله بعد وصوله مكة المكرمة،أن مضى فى صبيحة اليوم الثانى وأمام الملأ من أهل مكة فـ (حلق رأسه عند الصنمين إساف ونائلة ، وذبح لهما وجعل يمسح بالدم رؤوسهما ، ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى ، أبرأ لقريش مما اتهموه) [2] ، ولو أسلم لعُزِل مباشرة من قيادة مكة .

إن رسول البشرية محمد رسول الله ﷺ الفقيه فى نفوس هذه النوعيات والذى يسبر أغوارها وأبعادها ومنحنياتها يدرك أن المنطق الوحيد الذى يقنع أبا سفيان الآن هو منطق القوة ، وقد رأى أبو سفيان الجيش منتشراً فى السهل لا يعرف منه ولا من كتائبه ونوعياته أحد ، أما عندما يتم العرض العسكرى الكامل بكامل الأسلحة والدروع المضادة ، وبالأسلحة الخفيفة والثقيلة وبراياته وألويته وقياداته ورؤساء أركانه من القبائل العربية المشاركة فى هذا الزحف على مكة المكرمة .

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٤١ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٥ .

وقد انحصر تفكير أبى سفيان القائد الداهية عندما حبس بأن بنى هاشم يغدرون به ويقتلونه بعد أن أمنوه على حياته وأجاروه من الموت ، فكان الجواب الحاسم من العباس ابن عبد المطلب ، ستعلم أنا لسنا بغُدر ولكن لى إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر جنود الله .

وهذه هى عظمة تربية الخصوم من إمام البشرية وهاديها محمد رسول الله ﷺ ، لقد أخذ بمجامع قلب أبى سفيان وأسره حين لم يوجه له حتى ولو كلمة عتاب ، وأغضى عن كل حربه معه ، وحق له أن يفديه بأبيه وأمه وأن يعلن للدنيا عظمة عفو محمد ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، ولكن هذا شيء والإيمان بالرسالة شيء آخر ، تُرى ماذا كان يفعل بمحمد لو وقع أسيراً بين يديه ، هل يبقيه لحظة واحدة على قيد الحياة لكنها عظمة الرجولة ، وعظمة الرجال حين يغضى عن كل حربه معه ، ولا يسأله كلمة واحدة عن مواقفه السابقة ، ومع أن أبا سفيان هو قائد معسكر الشرك ، وهو الذى قاد العرب كلها ليستأصل شأفة محمد ويحارب عقيدته لكنه يعلم أن هذه العقيدة لها متطلباتها ، ولها تكاليفها عندما يتبناها المرء فى حياته ، وهو يرى دائمًا كيف يفدى أصحاب محمد محمداً بالمهج والأرواح وله الكلمة المأثورة المشهورة .

والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا حب أصحاب محمد محمداً .

وقد سبق هذه التربية التى أرادها رسول الله ﷺ لخصمه الأكبر فى رؤية جنود الله، سبقها حبس ليلة داخل المعسكر قبل لقاء رسول الله ﷺ ليتسنى له أن يتعرف على المسلمين عن كثب فكان ما يلى :

(وخرج أبو سفيان مع العباس فلما نودى للصلاة ثار الناس ففزع أبو سفيان وقال للعباس : ماذا يريدون ؟ قال : الصلاة ، ورأى أبو سفيان المسلمين يتلقون وضوء رسول الله ﷺ فقال : ما رأيت ملكًا قط كالليلة ، ولا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر)(١) .

وهذا هو الهدف المقصود من سجنه لهذه الليلة فى معسكر المسلمين حتى يرى بأم عينه مدى حب هذه الآلاف العشرة لقائدها وحبيبها محمد عليه الصلاة والسلام ، ومدى استعدادها للموت فى سبيله حين تقتتل على وضوئه .

لقد تحدث عروة بن مسعود من قبل أمام أبى سفيان عن هذا الحب والتفانى الذى رآه فى الحديبية ، لكنه هو يراها عيانًا ، وإذا كانوا فى الحديبية ألفًا وخمسمائة ، وصالحتهم

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٤٠ .

قريش فكيف وهم اليوم عشرة آلاف .

وتبقى القضية فى ذهن أبى سفيان قضية ملك وقيادة .

وها نحن نشهد الآن الحلقة الخامسة من التربية النبوية لخصمه الأكبر .

لقد كانت الحلقةِ الأولى ، يوم وجه بالجدار الصلب من الصف الإسلامى الموحد وفشل فى مهمته فى المدينة وكان على رأس هذا الجدار الصلب ابنته أم حبيبة بنت أبى سفيان .

وكانت الحلقة الثانية ، يوم أخذ أسيرًا من جنود المسلمين ومضى مكبلاً إلى رسول الله ﷺ ، ورأى صراع السلطتين السياسية والأمنية حوله والموت يتراقص أمام ناظريه .

وكانت الحلقة الثالثة من التربية هى قبول إجارته وحبسه فى معسكر المسلمين ورؤيته للصلاة عند المسلمين .

وكانت الحلقة الرابعة ، يوم رأى عظمة العفو ، وذاق عظمة الحلم من رسول الله ﷺ وفداه بأبيه وأمه .

وكانت هذه هى الحلقة الخامسة هى أن يرى جنود الله عند خطم الجبل حيث تبرز الكتائب إثر الكتائب . . . ولاشك أن العباس قد تعرَّف على كل فصائل الجيش الإسلامى قبل رؤية أبى سفيان،وحيث إنه هو سفير النبوة فى مكة فلا عجب أن يكـون هو المكلف باستعراض الجيش الإسلامى مع أبى سفيان إضافة إلى ما بينهما من صداقة قديمة، وهو الذى حماه وأجاره .

وكان رعب أبى سفيان من استمرار اعتقاله هو أول المطاف .

(فلما حبست أبا سفيان قال : غُدرًا يا بنى هاشم ؟ فقال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ، ولكن لى إليك حاجة، فقال أبو سفيان : فهلا بدأت بها أولاً فقلت : إنى لى إليك حاجة فكان أفرخ لروعى ، قال العباس : لم أكن أراك تذهب هذا المذهب)(١) .

وبدأت طلائع الجيش الإسلامى العظيم تظهر أمام رئيس دولة مكة أبى سفيان .

ومرَّت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها ، فكان أول من قدَّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى بنى سُلَيْم وهم ألف يحمل لواءهم عباس بن مرداس السلمى ، ولواء يحمله خُفاف بن ندبة ، ولواء يحمله الحجاج بن علاط .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٨١٨ .

وأبو سفيان يعلم أن سُلَيْمًا كانت معه فى غزوة الأحزاب ضد رسول الله ﷺ وقبائلها هى التى أوقعت محنة بئر معونة بالمسلمين ، وها هو يرى عباس بن مرداس الشاعر الفارس الأشهر فى بنى سليم ، ويرى سنابك الخيل تهتز منها الأرض ، ألف فارس وفرس على رأسهم جميعًا من ؟ خالد بن الوليد .

(قال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : خالد بن الوليد) .

وكلمة خالد وحدها كفيلة أن تُغيب وعى أبى سفيان،فقال والغيظ يخنقه : الغلام ؟ قال : نعم ، والغلام هنا لها مدلولها الضخم ، فهو الذى ساد قومه منذ أن كان غلامًا ولا يزال فى فتوته ، هنا يقود الخيالة فى جيش النبوة ، أما الحجاج بن علاط فما ينسى أبو سفيان أبدًا ذلك السهم الغائر فى صدره يوم استخف بعقول قريش كلها وأوهمهم أن محمدًا أسير عند قادة خيبر وراحوا يجمعون أمواله فرحًا بذلك .

وها هو العباس بجواره (حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلة له وتخلَّق(١) وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة ، فطاف بها فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحرّ المصيبة .

قال : كلا والله الذى حلفتم به ، لقد افتتح محمد خيبر ، وتُرك عروسًا على بنت ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه ، قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؛ قال: الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلمًا فأخذ أمواله ، قالوا : يا لعباد الله ، انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن) ، وها هو الحجاج بن علاط السلمى، هل يأمر أبو سفيان باعتقاله وإعدامه بعد ذلك الغدر بهم ، ويفرك عيناه، إنه الآن هو الأسير ، وليس الحجاج بن علاط السلمى وحده بل معه ألف فارس وفرس من سليم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، (فلما حاذى خالد العباس ، وإلى جنبه أبو سفيان : كبَّر ثلاثًا ثم مضوا ، ثم مرّ الزبير بن العوام فى خمسمائة منهم مهاجرون وأفناء العرب ومعه راية سوداء ، فلما حاذى أبا سفيان كبَّر ثلاثًا وكبّر أصحابه، فقال: من هذا ؟ قال : الزبير بن العوام ، قال : ابن أختك ؟ قال: نعم) ، والزبير شوكة فى حلق أبى سفيان فكم قتل من صناديد قريش وأبطالها فى تاريخه ، إنه ابن صفية بنت عبد المطلب .

(ومرَّ بنو غفار فى ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر ويقال : إيماء بن رحضة ، فلما حاذوه كبَّر ثلاثًا ، قال : يا أبا الفضل من هؤلاء ؟ قال : بنو غِفار ، قال : مالى ولبنى غفار) .

---

(١) أخذ خلوقًا : أى طيبًا وعطرًا .

وبنو غفار لا يأبه أبو سفيان لهم كثيرًا ، لكنه يعلم أنهم ممن خنقوا قريشًا فى طريق تجارتها إلى الشام .

(ثم مرَّت أسلم فى أربعمائة . . . فلما حاذوه كبَّر ثلاثًا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : أسلم ، قال : ما لى ولأسلم ، ما كان بيننا وبينها مرَّة قط ، قال العباس : هم قوم مسلمون دخلوا فى الإسلام)[1] .

وصحيح أن أسلم من القبائل العربية الصغيرة التى لا تقيم قريش لها وزنًا لكن ما لها تنضم لمحمد وليس بينها وبين قريش من قبل حرب ولا خصومة ، وكان العباس يحرص على أن يُعلم أبا سفيان أن الأمر أمر هذا الدين ، فمن أسلم ودخل فيه أصبح من حزب الله يوالى من والاه الله تعالى ورسوله ، ويحارب من حارب الله ورسوله ، فكان جواب العباس يصب فى هذا المجال : هم قوم هداهم الله للإسلام .

(ثم مرَّت بنو عمرو بن كعب فى خمسمائة يحمل رايتهم بسر بن سفيان ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو كعب بن عمرو ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد ، فلما حاذوه كبروا ثلاثًا) .

وهل ينسى وهو يتجرع غيظًا أن هذا الجيش كله ليس زاحفًا لغزو مكة إلا من أجل هؤلاء ، بنى كعب الذين غدروا بهم ، وظاهروا بكرًا عليهم ؟ ويدرك أن المصير المظلم الذى ستقدم عليه مكة إن قاومت ، ما هو إلا من أجل هؤلاء من خزاعة ، الذين حالفوا محمدًا يوم الحديبية ، وهو قادم لنصرهم بعد أن قتّلوا ركعًا وسجدًا فى حرم الله .

(ثم مرَّت مزينة فى ألف فيها ثلاثة ألوية ، وفيها مائة فرس . . فلما حاذوه كبَّروا ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : مزينة ، قال : يا أبا الفضل ما لى ولمزينة ، قد جاءتنى تقعقع من شواهقها) .

ومزينة قريش ثانية فقد عبأت قريش فى بدر ألفًا وكان معها سبعون فرسًا ، وهذه مزينة وحدها يمكن أن تغزو قريشًا مع أفراسها المائة ، وقد انحدرت من شواهق الجبال نصرة لله ولرسوله .

(ثم مرَّت جهينة فى ثمانمائة مع قادتها . . . فلما حاذوه كبروا ثلاثًا) .

وهذا جيش ثان من جهينة بجوار جيش مزينة بجوار من سبقوه من غِفار وأسلم وعمرو بن كعب .

(ثم مرَّت كِنانة ، بنو ليث وضمرة وسعد بن بكر فى مائتين يحمل لواءهم أبو واقد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٤٧ .

الليثى ، فلما حاذوه كبروا ثلاثًا فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر) .

فها هى خزاعة وبكر العدوان اللدودان تجتمع فصائلهما تحت راية الإسلام العظيم ، فوق ذلك الصراع القبلى المقيت .

يقول أبو سفيان : نعم أهل شؤم والله ، الذين غزانا محمد بسببهم ، أما والله ما شوورت فيه ولا علمته ، ولقد كنت له كارهًا حين بلغنى ولكنه أمر حمٌ .

فهو يبث همه وشجنه للعباس بن عبد المطلب صديقه القديم ، ومجيره الجديد ، وأخيه فى الإسلام اليوم ، ويؤكد له رفضه لغدر بكر بخزاعة ، وتواطؤ بعض قيادات قريش معهم ، فيهتبل أبو سفيان الفرصة ليتابع عملية التربية التى أرادها رسول الله ﷺ، وكلف العباس بتنفيذها ومتابعتها .

يقول العباس : قد خار الله لك فى غزو محمد ﷺ ، ودخلتم فى الإسلام كافة ، إنه يريد أن يصقل هذا القلب الجاسى ، ويفتت هذا الفؤاد القاسى ، الذى لا يزال يُمدّ بالقيح والصديد من حب الزعامة والشهرة ، ويذكره ، بفضل الله على قريش أن دخل قادتها جميعًا فى الإسلام بسبب غدر بكر .

(ثم مرت أشجع وهم آخر من مرّوا وهم ثلثمائة . . فقال أبو سفيان : من هؤلاء؟ قال : أشجع ، قال : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد) وهو يعرفهم فقد كانوا معه فى حرب محمد يوم الأحزاب ،ونعيم بن مسعود حامل لوائهم اليوم هو الذى مزق صف اليهود وغطفان وقريش .

ويتابع العباس على الوتيرة نفسها فى طرق الباب ، ومحاولة كسر كل أغلاله ، باب قلب أبى سفيان قائلا له : أدخل الله الإسلام فى قلوبهم فهذا من فضل الله عز وجل .

فسكت ثم قال : ما مضى بعد محمد ، قال العباس : لم يمض بعد .

فكل ما رآه أبو سفيان من جيوش القبائل هى بعد مقدمات لجيش الرحمن ، جيش المهاجرين والأنصار ، الكتيبة الخضراء الخرساء التى التقت فيها القيادات الأولى والتى جاهدت منذ فجر التاريخ الإسلامى يقول العباس : لو رأيت الكتيبة التى فيها محمد ﷺ رأيت الحديد والخيل والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة، قال : أظن والله يا أبا الفضل، ومن له بهؤلاء طاقة ؟) .

فهو قد ذاق الأمرين خلال السنوات الثمانية من كتيبة الأنصار والمهاجرين ، وكل هؤلاء الذين رآهم هم جيش جديد ، وكتائب جديدة لم تكن قبل فتح مكة .

(فلما طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء طلع سواد وغبرة من سنابك الخيل ، وجعل الناس يمرون ، كل ذلك يقول : ما مرَّ محمد ، فيقول العباس : لا ، حتى مرَّ يسير على ناقته القصواء بين أبى بكر وأسيد بن حضير وهو يحدثهما ، فقال العباس : هذا رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار ، فيها الرايات والألوية مع كل بطن من الأنصار راية ولواء فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدَق ، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيها زجل وعليه الحديد بصوت عالٍ وهو يزعها) .

لقد كان نصف الجيش من المهاجرين والأنصار خمسة آلاف ، وعندما كانوا ثلاثمائة ، ذبحوا سبعين من صناديد قريش، وأسروا سبعين وعندما كانوا سبعمائة سقط سبعون شهيدًا منهم حول رسول الله ﷺ ، ولم تتمكن قريش من التقدم شبرًا واحدًا نحو المدينة .

ولقد فرَّ أبو سفيان منهم وهم سبعمائة[1] فى غزوة حمراء الأسد ، خوفًا من مواجهتهم ثانية حيث وصفهم معبد الخزاعى بقوله :

كادت تهد من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميلٍ معازيل
فظلتُ أعدو أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا انفطمطت البطحاء بالجيل

واضطروا لمصالحتهم وهم ألف وخمسمائة ، فكيف يواجهونهم اليوم وهم خمسة آلاف مقاتل يردفهم خمسة آلاف أخرى من القبائل المجاورة ، فقال أبو سفيان : ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ، ولا خبرنيه مخبر ، سبحان الله ما لأحد بهذه طاقة ولا يدان ، ثم قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا .

وهذا هو الهدف الرئيسى من رؤية أبى سفيان لحزب الله وجيشه ، هو أن يشعر من أعماقه أنه لا طاقة له بمحمد وصحبه ، فما رأى وما سمع مثل اليوم ، وعاد العباس ليخلع الأقفال المتبقية على قلب أبى سفيان ليقول له :

ويحك يا أبا سفيان ، ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال : نعم فالنبوة إذن[2] .

لقد ضاقت الهوة كثيرًا جدًا فى قلب أبى سفيان لتصل إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ بعد ما رأى ما رأى من القوة العظيمة التى ساقت العرب جميعًا تحت رايته ، وهو أميل إلى أن تكون النبوة ؛ لأن هذا النصر والمدد لا يتأتى من العظمة الشخصية فقط ، لابد

---

(١) لأن رسول الله ﷺ أذن مؤذنه (ألا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا أمس) فبقوا سبعمائة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٠٣ .

أن الله تعالى الذى نصره قد بعثه رسولاً إلى العباد .

قال له العباس : فانج ويحك فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم .

٨ ـ ولم لا تكون النبوة ، وها هو العباس يبلغه مقالة رسول الله ﷺ وأوامره الصريحة بدخول الخيل من كداء .

(قالوا : ثم التفت رسول الله ﷺ إلى رجل من الأنصار إلى جنبه ، فقال : كيف قال حسان بن ثابت فقال :

عدمنا خيلنا إن لم تروها　　تثير النقع مطلعها كداء

فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوها من حيث قال حسان ».

وقبل أن يودع العباس أبا سفيان ، عادت ذاكرتهما إلى الوراء عشرين عامًا أو تزيد حينما ترافقا فى تجارة إلى اليمن .

(قال : ومن ذلك خبر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال :

خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيه أبو سفيان بن حرب ، فورد كتاب حنظلة ابن أبى سفيان : إن محمداً قائم فى أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله، ففشا ذلك فى مجالس أهل اليمن ، فجاءنا حبر من اليهود فقال : بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال : قال العباس فقلت : نعم ، قال : نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟ قلت : لا والله ولا كذب ولا خان ، وما كان اسمه عند قريش إلا الأمين ، قال : هل كتب بيده ؟ فأردت أن أقول : نعم ، فخشيت من أبى سفيان أن يكذبنى ويرد على ، فقلت : لا يكتب ، فوثب الحبر وترك رداءه وقال : قتلت يهود وذبحت يهود ، قال العباس : فلما رجعنا إلى منازلنا قال أبو سفيان : يا أبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك فقلتُ : قد رأيت لعلك تؤمن به ؟

قال : لا أؤمن به حتى أرى الخيل فى كداء ، قلت : ما تقول ؟ قال :

كلمة جاءت على فمى إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع على كداء .

قال العباس : فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ونظر أبو سفيان إلى الخيل قد طلعت من كداء ، قال يا أبا سفيان تذكر تلك الكلمة ، قال : إى والله إنى لأذكرها)[١] .

فهو من اللحظات الأولى فى فجر الدعوة ، رأى اليهود وأحبارها تفزع من محمد وتؤمن بنبوته ، وهو كذلك من الأيام الأولى حين تناقش مع أمية بن أبى الصلت عرف

---

(١) السيرة الحلبية ٣٠١/١ .

أن النصارى يؤمنون بنبوته .

(ومن ذلك ما جاء عن أمية بن أبى الصلت أنه قال لأبى سفيان : إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا ،فكنت أظن أنى هو،وكنت أتحدث بذلك ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبد مناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو يتصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه ، فعرفت أنه غيره ، قال أبو سفيان : فلما بُعث محمد ﷺ قُلتُ لأمية ، فقال أمية : أما إنه حق فاتبعه ، فقلت له : فأنت ما يمنعك من اتباعه ، قال : الحياء من نساء ثقيف أنى كنت أخبرهن أنى هو ، ثم أصير تبعًا لفتًى من بنى عبد مناف)[١] .

(ثم قال لأبى سفيان : كأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك ما يريد ، رواه الطبرانى فى معجمه)[٢] .

وها هو قبل عام ونيف يسمع تصديق قيصر بنبوته ويقول لأبى سفيان :

(فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه)[٣] .

وهل بلغ أبو سفيان من العز والمجد والعقل أن يكون أعقل وأدهى وأعرق مجداً من ملك بنى الأصفر أحد ملكى الدنيا ، وقاهر الفرس آنذاك ، وأعظم حاكم فى الأرض ويقول : لو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، كل هذا ألا يكفيه ليؤمن بنبوة محمد ﷺ .

ولقد أتِى به إلى محمد مربوطًا كما يربط الجدى ، وحكم فيه رسول الله ما شاء ، وعفا عنه فكان أحلم وأبر وأوصل من عرف ، ولقد انتهت عقدة الذل من محمد أو الإهانة أو القتل ، فما الذى يحول بينه وبين الإيمان بالنبوة من أعماقه ، أما من ظاهره فقد أعلنها ، بقى عنده الحياء من نساء مكة ، كما كان الحياء من نساء ثقيف عند أمية أن يعرف أنه أصبح تابعًا لمحمد ، وقد عرف وأعلنها فى الظاهر على الملأ :

اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله مع أن رسول الله أعطاه الفخر الذى يريده سيد مكة فى الصلح والحرب .

٩ ـ ونستبق الحدث لنشهد الرد النهائى للشك والانبلاج بالنور المحمدى فى قلبه ، وذلك بعد فتح مكة ، فى الروايات الصحيحة المروية عنه :

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٣٠١ .
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٩ .
(٣) البخارى ١/١/٦ .

١ ـ قال : أخبرنا محمد بن عبيد قال : حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن أبى إسحاق السبيعى أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسًا فقال فى نفسه : لو جمعت لمحمد جمعًا ، قال : إنه ليحدث نفسه إذ ضرب النبى ﷺ بين كتفيه وقال : « إذن أخزاك الله » ، قال : فرفع رأسه فإذا النبى ﷺ قائم على رأسه فقال :

ما أيقنت أنك نبى حتى الساعة إن كنت لأحدث نفسى بذلك) (١) .

٢ ـ قال : أخبرنا الفضل بن دكين أبو نعيم ، ومحمد بن عبد الله الأسدى قال : حدثنا يونس بن أبى إسحاق عن أبى السفر قال : لما رأى أبو سفيان الناس يطؤون عقبى رسول الله ﷺ حسده فقال بينه وبين نفسه : لو عاودت هذا الرجل فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره ثم قال : « إذن يُخزيك الله ، إذن يخزيك الله » ، فقال : أتوب إلى الله وأستغفره والله ما تفوهت به ما هو إلا شىء حدثت به نفسى)(٢) .

٣ ـ قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى المكى قال: حدثنا عبد الرحمن ابن أبى الرجال عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : خرج النبى ﷺ ملتحفًا بثوب من بعض بيوت نسائه وأبو سفيان جالس فى المسجد ، فقال أبو سفيان : ما أدرى بم يغلبنا محمد ؟ فأتى النبى ﷺ حتى ضرب فى ظهره وقال : « بالله يغلبك » ، قال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله) (٣) .

فنحن نشهد الآن اليقين النهائى الذى يغمر قلب أبى سفيان حيث شهد بعينه أن محمداً يوحى إليه ، فقد أعلمه ربه بما يُحدّثُ به أبو سفيان نفسه ، كما أنه الآن يدفع النبى ﷺ بالراح (أى الأيدى) كما كتب له فى رسالته ويطلب الأمان لقريش منه، وها هو يرى الخيل تطلع من كداء فلم لا يؤمن ، وقد ملأ اليقين قلبه وكينونته ؟

١٠ ـ (وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عبادة فهو أمام الكتيبة ، فلما مرّ سعد براية رسول الله ﷺ نادى أبا سفيان ، فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا . . فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال : يا رسول الله ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٤ ، ٨٥ . تحقيق ودراسة د. عبد العزيز السلوبى ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح إلى أبى إسحاق ، وأبو إسحاق السبيعى هو عمرو بن عبد الله الهمدانى كوفى تابعى مكثر ثقة عابد روى عن بعض الصحابة ، اختلط بآخره ومات سنة ١٢٩هـ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٥ ، ٨٦ وقال المحقق فيه : إسناده حسن إلى أبى السفر ، وأبو السفر هو سعيد بن يحيى الهمدانى الثورى الكوفى ثقة من الثالثة توفى سنة ١١٢هـ .

(٣) إسناده صحيح إلى عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى المدنى القاضى تابعى ثقة متفق على توثيقه روى له الجماعة ويرسل كثيراً مات سنة ١٣٥هـ وهو فى الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٦ ، ٨٧ .

أمرت بقتل قومك ؟! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال : كذا وكذا ، وإنى أنشدك الله فى قومك ، وأنت أبرُّ الناس، وأوصل الناس، وأرحم الناس، فقال رسول الله ﷺ : « كذب[1] سعد يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم يعظِّم الله فيه الكعبة اليوم يوم تكسى فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا »)[2] .

ورواية البخارى (فقال سعد بن عبادة : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة . . . فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال : قال كذا وكذا ، فقال: « كذب سعد ، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة »)[3] .

(وقد روى الأموى فى المغازى أن أبا سفيان قال للنبى ﷺ لما حاذاه : أمرت بقتل قومك . . . وأرسل إلى سعد ، فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس)[4] .

لابد أن نقف عند سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو الذى انتهت إليه راية النبى ﷺ ، وهو الذى أمضى فى حرب قريش ثمانى سنوات لا يهدأ لها أُوار ، وسبق أن وقع أسيرًا فى يد قريش بعد بيعة العقبة الثانية ، وقبل ابتداء الحرب بين الفريقين .

قال : (ونفر الناس من منى ، فتنطس القوم الخبر ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيبًا فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله[5] ، ثم اقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه ، وكان ذا شعر كثير ، قال سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع عليه نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض ، شعشاع حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، قال : فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ، قال : فقلت فى نفسى : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى ، إذ آوى إلىّ رجل منهم مِمَّن كان معهم ، فقال : ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم . . تُجاره[6] وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية ، قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما ، قال: ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما

---

(١) كذب سعد : قال الحافظ ابن حجر : (فقال : كذب سعد : أى أخطأ) الفتح ٨/ ٩ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٣٥ .
(٣) البخارى م٢/ ٥/ ١٨٧ .
(٤) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٩ .
(٥) نسع رحله : الشراك الذى يشد به الرحل .
(٦) تجاره : أى جمع تاجر فكسر وفتح مثل تجاره .

فى المسجد عند الكعبة فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف باسمكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة ، قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، قال: فجاءا فخلصا سعدًا من أيديهم فانطلق ،وكان الذى لَكَمَ سعدًا سهيل بن عمرو . . . قال ابن هشام : وكان الرجل الذى أوى إليه أبا البخترى بن هشام .

قال ابن إسحاق: وكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين ، قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر ، فقال :

تداركت سعدًا عنوة فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلتُه طلّت هناك جراحه وكان حريًا أن يهان ويهدرا (١)

لقد ذاق سعد الإهانة والضرب والذل منذ اللحظات الأولى للبيعة وهو سيد قومه الخزرج الذى تغضب له مئات السيوف ، وسعد المعروف بحدته وعنفه وقد بقى مع قومه يجاهد فى سبيل الله هذه السنوات الثمانية وآن الأوان للثأر اليوم ممن حادوا الله تعالى وحادوا رسوله وكذبوه ، فلا عجب أن يُهدّد أبا سفيان بقوله : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا .

وأبو سفيان ـ بطل السلام والأمن ـ يعلم أن سعدًا من القوة والغلظة على أعداء الله وهو يحمل راية رسول الله يمكن أن يفنى قريشًا عن آخرها ، ومن ورائه قومه من الخزرج الذين قدّموا الشهداء والضحايا والجراحات مع قريش ، وهذا أوان الثأر .

ويدرك أبو سفيان بثاقب نظره أن سعدًا ، وهو يحمل هذا التاريخ الطويل من الحرب مع قريش قد يهلك قريشًا كلها ، فأحس أن عليه مسؤولية جسيمة ، وهو لا يضمن نجاح مهمته لو أريقت دماء القرشيين ، وتحركت الثارات فمن يضمن القلوب أن تقرّ بعد ذلك ومن سيستجيب له فى أن يغلق بابه إذا كسر عليه بابه ، أو قتل أبوه أو أخوه أو عمه ، ويوم الملحمة هو يوم الالتحام والقتال والدماء ، ويوم استحلال الحرمة هو استحلال للدماء فى حرم الله ؛ دماء هؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله ، وأخرجوه والمسلمين من ديارهم وأبنائهم .

فوجد أبوسفيان الفرصة سانحة أن ينادى أعظم من فى الوجود برًا وحلمًا وفضلاً ؛ ليمنع مذبحة قريش على يد ألد أعدائها سعد بن عبادة ، الذين أسروه ولطموه وجرجروه فى شوارع مكة وعذبوه .

ومع أن الذى أجار سعدًا هو أخو أبى سفيان بن حرب الحارث بن حرب ، ومع أن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٥٠، ٤٥١ .

أبا سفيان قصد سعداً بالذات فيمن قصده يوم جاء المدينة يشد العقد ويزيد المدة ، وذكَّر سعداً بالماضى الحليف معه فقال له :

يا أبا ثابت ، قد عرفت الذى كان بينى وبينك ، وأنى قد كنت لك فى حرمنا جاراً ، وكنت لى فى يثرب مثل ذلك، وأنت سيد هذه البحرة فأجر بين الناس وزد فى المدة، فقال سعد : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ . مع هذا كله فهو لا يأمن سعداً الذى يتقد غيظًا على أعداء الله ، فلم لا يجير أبو سفيان إذاً أهل مكة جميعًا بقوله لمحمد رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة . . . وإنى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبر الناس وأوصل الناس وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب سعد ، يا أبا سفيان : اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة ، اليوم يوم تكسى فيه الكعبة ، اليوم يوم أعزّ الله فيه قريشًا » .

إن اتجاه الرحمة المهداة للبشرية لا يمكن أن يتم على يده استئصال قومه ، واستباحة بيضة بلده، ولا يمكن له وهو الذى نالت رحمته الجمادات والحيوانات والبهائم العجماوات أن يكون سبب هلاك قومه واستئصالهم ، فهذا اليوم هو يوم المرحمة لا يوم الملحمة ، وهذا اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ولا تستحل فيه حرمات الله ، وهذا اليوم يُعزّ الله قريشًا بدخولها فى دين الله ، وليس يوم ذلها بقتلها محادة لله ولرسوله .

وأخطأ سعد رضي الله عنه .

وفى رواية ابن إسحق: (أن سعداً لما قال، سمعه رجل من المهاجرين - قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: « أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها »)(١).

إن هذه الجملة الخالدة التى أعلنها عليه الصلاة والسلام هى إعلان مبادئ وهى إقامة دولة العقيدة لا دولة الثارات القبلية ولا دولة الجاهلية المستعلية ، إنها دولة حزب الله تعالى الذى سيكون رحمة حتى لقريش العاتية المعادية ، فهى الآن إن استسلمت أمنت ودخلت فى دين الله .

١١ - (وقال ضرار بن الخطاب الفهرى فيما ذكره محمد بن عمر ، وأبو عثمان سعيد ابن يحيى الأموى شعراً ، يستعطف رسول الله ﷺ على أهل مكة حين سمع قول سعد ، قال أبو الربيع : هو أجود شعرٍ قاله .

ولا نُبعد أبداً أن يكون أبو سفيان هو الذى أرسل إلى ضرار بمقالة سعد .

وعند ابن إسحاق وعند ابن عساكر ، من طريق ابن الزبير عن جابر ، أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ بهذا الشعر ، فكأن ضراراً أرسل به المرأة ليكون أبلغ فى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م٢/٤٠٦، ٤٠٧ .

انعطاف رسول الله ﷺ على قريش :

يا نبى الهدى إليك لجا[1] حيُّ قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إلهُ السماء
والتفت حلقتا البطان[2] على القوم ونودوا بالصيلم[3] الصلعاء
إن سعدًا يريد قاصمة الظهر بأهل الحصون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيظ رمانا بالنسر[4] والعوّاء[5]
وغِر الصدر[6] لا يهم بشىء غير سفك الدما وسبى النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند[7] بالسوءة السوآء[8]
إذ ينادى بذل حىّ قريش وابن حرب[9] بذا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة الأدبار - أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بُهم[10] الخزرج والأوس أنجمُ الهيجاء
لتكونَنّ بالبطاح قريش فقعة[11] القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسد لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمر سكوتًا كالحية الصمّاء[12]

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ، فنزع اللواء من يده ، وجعله إلى ابنه قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه) [13].

(قال محمد بن عمر : فأبى سعد أن يسلِّم اللواء إلا بأمارة من رسول الله ﷺ ، فأرسل النبى ﷺ بعمامته ،فدفع اللواء إلى ابنه قيس ويقال : إن رسول الله ﷺ أمر عليًا فأخذ الراية فذهب بها إلى مكة حتى غرزها عند الركن) [14] .

(قال أبو عمر رحمه الله تعالى : قد روى أن رسول الله ﷺ أعطى الراية للزبير إذ نزعها من سعد ، وروى أبو يعلى عن الزبير ﷺ أن رسول الله ﷺ دفعها إليه فدخل

---

(١) لجا : لجأ .
(٢) حلقتا البطان : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير ، ويقال هذا للأمر إذا اشتد .
(٣) الصيلم : الداهية .
(٤) النَّسر : النجم المعروف .
(٥) العوّاء : من العُوَّة وهى الدُّبر ، وكأنهم سموها بذلك لأنها دبر الأسد من البروج .
(٦) وغِر الصدر : حرّه .
(٧) هند : بنت عتبة .
(٨) السوءة السوآء : الخلة القبيحة .
(٩) ابن حرب : أبو سفيان .
(١٠) البُهَم : الفارس الذى لا يُدرى من أين يؤتى ؛ لشدة بأسه ، والجمع بُهَم .
(١١) الفقعَة : جمع فقع ، ضرب من الكمأة وهى البيضاء الرخوة .
(١٢) الحَية الصمَّاء : التى لا تسمع .
(١٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٣٥، ٣٣٦ .
(١٤) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٢ .

مكة بلواءين ، وبه جزم موسى بن عقبة) (١) .

قال الحافظ : (والذى يظهر فى الجمع أن رسول الله ﷺ أرسل عليًا ؛ لينزعها وأن يدخل بها ،ثم خشى تغير خاطر سعد فأمر بدفعها لابنه قيس ، ثم إن سعدًا خشى أن يقع من ابنه شىء يكرهه رسول الله ﷺ وسعد ، فسأل رسول الله ﷺ أن يأخذها فحينئذ أخذها الزبير ،ويؤيد ذلك ما رواه البزار بسند على شرط البخارى عن أنس رضي الله عنه قال : كان قيس فى مقدمة النبى ﷺ لما قدم مكة ، فكلَّم سعد النبى ﷺ أن يصرفه عن الموضع الذى هو فيه مخافة أن يقدم على شىء فصرفه عن ذلك . انتهى) (٢) .

ونجحت خطة أبى سفيان فى توظيف كل الطاقات لحماية قريش من الإبادة فقد بعث إلى ضرار بما سمعه من سعد ،وبعث ضرار بهذا الشعر العظيم يستعطف به سيد الخلق أن يرحم قريشًا التى التفت عليها حلقتا البطان حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء .

لقد كان ضرار بن الخطاب الفهرى هو الذى افتتح معركة الشعر جذلاً بالانتصار حين أسر سعد بن عبادة،وها هو يختتم معركة الشعر يتعطف ويتذلل لرسول الله ﷺ خوفًا من بطش سعد بن عبادة . وحين يعلن فى بداية الطريق أن سعدًا والمنذر سادة الخزرج تطل جراحهم،وتهدر فلا قوة تحميهم وهذا سعد يجر كما تُجرُّ البهيمة،ويلكم كما يلكم العبد، ويجذب من شعره ، وينسون أنه سيد الخزرج الذى تعرفه الإنس والجن كما يروون عن مقتله برواية راوٍ من الجن :

(قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده) (٣)

سعد بن عبادة معروف كذلك عند الجن منذ فجر الدعوة الأول .

(وسمع أهل مكة هاتفًا يهتف ويقول قبل إسلام سعد :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فحسبوا أنه يريد بالسعدين:القبيلتين ؛سعد هذيم بن قضاعة ، وسعد بن زيد مناة من تميم حتى سمعوه يقول :

فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا على الله فى الفردوس منية عارف

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٣٧ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ٨/ ٩ . (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٦١٣ .

فعلموا أنه حينئذ يريد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) (١) .

فسعد بن عبادة هذا الذى كان أكبر أعلام المدينة ، يفخر ضرار بن الخطاب بأسره وتعذيبه ، ويتحسر على أن فاته المنذر بن عمرو قائلا يفتخر ويتحسر :

تداركت سعداً عنوة فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته طلت هناك جراحُه وكان حريًا أن يهان ويهدرا

ها هو ضرار بعد ثمان سنين بعد ذلك الفخر الأجوف،يقف مذعوراً مرعوبًا من سعد ابن عبادة ، هذا الذى يصفه بقوله :

إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء

ولا عجب ففى الأبطح كان يُجرُّ ويهان .

خزرجى لو يستطيع من الغيظ رمانا بالنسر والعوّاء
وغر الصدر لا يهم بشىء غير سفك الدما وسبى النساء

وهو يعترف بأنه البطل الرهيب الذى لا يضارعه أحد ، وهو السيد فى قومه الذى تستجيب له الألوف اليوم .

فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة الأدبار أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهَم الخزرج والأوس أنجم الهيجاء

وهذا يعنى أن نهاية قريش ستكون على يده ويد جنده الأُسد الأشداء ، وكما قال أبو سفيان لرسول الله ﷺ : أمرت بهلاك قومك .

لتكونن بالبطاح قريش فقعة القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسد لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمر سكوتًا كالحية الصماء

وهذا ليس اتهامًا له ، بل هو ما أعلنه : اليوم تستحل الحرمة ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم أذل الله قريشًا ، وهند بنت عتبة ، وأبو سفيان بن حرب الشهداء على ذلك :

قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوءة السوآء
إذ ينادى بذل حى قريش وابن حرب بذا من الشهداء

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ١/ ٢/ ١٩٩ .

ويعلن رسول الله ﷺ ابتداء المبادئ العظمى التى تحكم المسيرة وتحكم الجيش ، وتحكم حزب الله :

« اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا » .

وهل من عز فى هذا الوجود يعدل انتصار محمد بن عبد الله الذى تنتمى إليه قريش وتفخر به، وتسعد به وهو الذى يعلن للدنيا : « نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا، ولا ننتفى من أبينا »(١) ، والنضر بن كنانة هو قريش .

وهنا نبحث عن عظمة التربية الخالدة لسيد ولد آدم بين هذه العواطف الملتهبة ، والقيادات المتصارعة ،جيش من عشرة آلاف محارب تتلظى حقدًا على قريش التى حاربت الله ورسوله خلال عشرين عامًا، وجاءت بالعرب من تهامة ونجد تستأصل شأفة الإسلام، وتبيد خضراء المسلمين .

وقيادات قريش هذه ذهلت لعظمة محمد وطمعت فى سعة عفوه ، وتأمل ألا تراق قطرة دم لقريش ، وهى لا ترضى إلا عزل أكبر قيادات محمد ﷺ ورئيس أركان الجيش الإسلامى ، الذى سلمه رسول الله ﷺ رايته العظمى .

فكيف يتصرف إمام المربين فى الوجود بين هذه العواصف المتضادة المتصارعة ، والجيش فى أعداده الوفيرة وكتائبه الضخمة إنما يريد سبى قريش وقتل رجالها وسبى نسائها، كما هى حالة كل منتصر فى كل معركة .

لقد كاد هذا الجيش فى قياداته الأولى أن يهلك من أجل الغنائم ، فى فجر الحرب الإسلامية الأولى فى بدر : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (١) ﴾ [الأنفال] ، وهى التى فسرها عبادة بن الصامت بقوله :

(فينا نزلت أهل بدر حين اختلفنا فى النفل يوم بدر ، فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا)(٢) .

ونزلت المحنة الكبرى فيه يوم أحد ،حين استهوت الغنائم معظم الرماة ، فقصَّ الله تعالى قصته فى كتابه :

﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم**

---

(١) صحيح الجامع الصغير للألبانى ٣/ ٦/ ٢٧ ح (٢٦٢٩) ، رواه أحمد وابن ماجه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٦٦٦ .

مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾ [آل عمران] .

وأولاء الرعيل الأول ، وقيادات هذا الجيش كله ، الذين لم يتجاوزوا سبعمائة وكلهم اليوم يقودون هذا الجيش إلا من كتب الله تعالى له الشهادة ، ووراءهم أقوامهم، فكيف يعود هؤلاء جميعًا بعد حرب يستعدون لها منذ عشرة أيام ، ثم يمضون بعد ذلك لا يروون ظمأ سيوفهم إلى الدماء ، وظمأ أرواحهم إلى الشهادة ، وظمأ نفوسهم إلى الغنيمة ؟ هل يمكن أن تنتهى المعركة هكذا دون شيء ؟

كيف يوفق رسول الله ﷺ بين هذه العواطف المتأججة ، والنفوس المتصارعة ، والرغبات الجامحة وهو يقود هذه المسيرة الضخمة نحو مكة ، كيف يربى هذه القاعدة العريضة بعد تربية تلك القيادات الخالدة ، والقيادات الخالدة هى نفسها تنادى :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا .

ورسول الله تعالى يواجه الآن أعنف موقف من رئيس أركانه ، وحامل رايته العظمى ،وسيد الأنصار ،أكبر وأعظم كتائب جيشه وأمهرها إعدادًا وتدريبًا وأسلحة فيهم ألف دارع ، لا يرى منها إلا الحَدَق ، والمدججة بالحديد ، يريد أن يصدم هذه الكتيبة الضخمة التى تربو على أربعة آلاف مقاتل ، وهى أعظم فرق جيشه وأعلاها تدريبًا وإيمانًا وتسليحًا وإخلاصًا ووفاء ، كيف يفعل بها حين يعزل قائدها إرضاء لأبى سفيان وأمثاله الأعداء الألداء الذين حاربوا الله ورسوله .

كيف يربى رسول الله ﷺ هذه القاعدة العريضة ؟ وكيف يلبى إصرار قريش وزعاماتها على عزل سعد بن عبادة عن القيادة ؟

فكانت الحكمة العظمى فى تحويل الراية من سعد بن عبادة إلى قيس بن سعد ،فلقد بقيت في يده حين انتقلت إلى يد ابنه ، وعرف الأنصار أن الراية لم تنزع من قائدهم ، وأن قيسًا هو هو أبوه سعد .

لكـن كيف يتم امتصاص هذه العواطف المتأججة التى تود الثأر من قريش ؟ وخزاعة التى تود الثأر من بكر،فكانت الخطة العظمى فى ذلك بعد إعلان الأمان العام : من أغلق بابه فهو آمن ، وهى التى سنعرض لها فيما بعد ، وبلغ السمو بسعد بن عبادة ﷺ مبلغًا لا يصل إليه إلا ذلك الجيل الفريد فى تاريخ البشرية ، والذى رباه رسول الله ﷺ بيده ، حين بعث إلى رسول الله ﷺ يناشده أن يعزل ابنه قيس بن سعد ؛ حتى لا يقع منه ما يفسد خطة النبى ﷺ فى التعامل مع قريش .

(ويؤيد ذلك ما رواه البزار بسند على شرط البخارى عن أنس ﷺ قال : كان قيس فى مقدمة رسول الله ﷺ لما قدم مكة ،فكلم سعد النبى ﷺ أن يصرفه عن الموضع الذى هو فيه مخافة أن يقدم على شىء ، فصرفه عن ذلك).

واستلم الراية العظمى ؛ راية رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ، بإصرار سعد على نزعها من ابنه قيس .

١٢ ـ (فحدثنى عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن ساعدة قال : قال له العباس : فانج ويحك ، فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم ، قال: فخرج أبو سفيان ،فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كداء وهو يقول : من أغلق بابه فهو آمن ، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة ، فأخذت برأسه فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد ، وقد جعل لى من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن طرح السلاح فهو آمن، قالت: قبحك الله رسول قوم ، وجعل يصرخ بمكة : يا معشر قريش، ويحكم ، إنه قد جاء ما لا قبل لكم به ، هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد فأسلموا ، قالوا : قبحك الله وافد قوم ، وجعلت هند تقول : اقتلوا وافدكم هذا ، قبحك الله وافد قوم ، قال : يقول أبو سفيان : لا تغرنّكم هذه من أنفسكم ، رأيت ما لم تروا ، رأيت الرجال والكراع والسلاح ، فما لأحد بهذا طاقة)[(١)] .

لقد شهد أبو سفيان جنود الله ، وشهد القبائل والرايات ، وشهد الكتيبة الخشناء الخضراء ، والتى لا يرى منها إلا الحدق،والتى فيها ألف دارع والمدججة بالحديد ، وشهد جيشًا ما رأت عينه مثله قط ولا خبّره مخبر ، وشهد بعظمة ملك محمد بن عبد الله وهو يعرف أن القضية ليست قضية العدد فقط ، إنما قضيته الحب والفداء والتضحية فقد شهد الصلاة للمسلمين ، وشهد اقتتالهم على وضوء رسول الله ﷺ وشهد الحب الذى لم يره فى بلاط كسرى ولا بلاط قيصر ولا بلاط النجاشى وأن هذه الآلاف العشرة على استعداد أن تباد كلها فداء لظفر محمد عليه الصلاة والسلام ، وشهد نفسه فى أعماقها التى ذابت أمام عظمة محمد ﷺ ، فهو يكرر : بأبى أنت وأمى يا محمد ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ،شهد عظمة حب محمد فى قلبه قبل أن يشهد له بالرسالة والتى فى نفسه منها شىءٌ وشهد استجابته لرغبته يوم عزل سعدًا خوفًا على قريش من سطوته ، وشهد نفسه كيف لم يعد يملك ضبط نفسه فى الإعجاب بعظمة هذا القائد ، بعظمة هذا الملك ،بعظمة هذا النبى ، فقد غدا يطلق الثناء على عواهنه .

يا أبر الناس ، يا أوصل الناس ، يا أرحم الناس .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٣ .

لقد غدا على استعداد أن يُقتل مع هذا الجيش كله فيما لو مُسَّ محمد ﷺ بشوكة تؤذيه في رجله، وأصبح جنديًا من حزب الله، رغم تلك اللوثة الصغيرة التى لا تزال تفح فحيح الأفعى فى قلبه تشككه فى النبوة . إن عظمة الرجولة وعظمة البطولة وعظمة الملك وعظمة الوفاء وعظمة الرحمة وعظمة البر وعظمة الحب وعظمة الحلم وعظمة العفو ، فهذه قد غدت تملأ كيانه وتغمر وجدانه ونمت تربيته تربية كاملة حتى قبل إسلامه ، فراح ينفذ المهمة بدقة ملقيًا وراء ظهره كل ما تواجهه به زوجته والمتحمسون من قومه والمتعصبون من عشيرته ،إنه يصرخ غير هياب ولا وجل على شيء: يا معشر قريش،قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به؛ بعشرة آلاف عليهم الحديد ، ويسيل الوادى بالناس ويجتمعون بقائدهم الذى عرفوه بطلاً مغواراً وسيداً شجاعًا يسألونه عن الحل ،فيدعوهم إلى الدخول فى إجارته: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن (قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى دارك ؟ قال: من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن)[١] ، فهذه الجماهير كلها تمضى مذعورة فارة إلى مكمنها ومأمنها ، إلا هند زوجه تأخذ بشاربه وتقول :(اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قُبِّح من طليعة قوم ، فقال أبو سفيان : (ويحكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به) ،ومن يجرؤ على هذا الموقف إلا أبو سفيان قائد قريش كلها والعرب كلها لحرب محمد عليه الصلاة والسلام ،وأدرى الناس به ها هو يعلن : أسلِموا تَسلَموا ، ويصرخ معلنًا محذراً منذراً ، واستجاب أكثر أهل مكة له بينما جيَّش الجناحَ العسكرى بقيادة هند وأضرابها جيشًا صغيراً للدفاع عن مكة ، نتحدث عنه فيما بعد ، وقد ننتهى فى جولتنا مع أبى سفيان رضي الله عنه ـ منذ أن أعلن أنه لن يسلم حتى يرى الخيل تطلع من كداء فى فجر الدعوة الأول . إليه وهو يرى الخيل تطلع من كداء فيسلم وتسلم مكة معه ، ولم يكن ليتم لولا التربية النبوية الخالدة له وهو يحاربه وهو يكيد له ، فهل فى الوجود مثل هذه التربية ؟ هل من مثيل ؟!

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٣٣٨ .

مع الرسول ﷺ إلى مكة

١ ـ قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى وغيره :

(لما ذهب أبو سفيان إلى مكة بعدما عاين جنود الله تمر عليه ، فانتهى المسلمون إلى ذى طوى[١] ، فوقفوا ينتظرون رسول الله ﷺ حتى تلاحق الناس ، وأقبل رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء ، وهو على ناقته القصواء ، معتجراً بشق بردة حمراء)[٢] .

(وعن أنس رضي الله عنه قال : لما دخل رسول الله ﷺ استشرفه الناس فوضع رأسه على رحله متخشعًا ، رواه الحاكم بسند جيد وقوى ، ورواه أبو يعلى من طريق آخر)[٣] ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداء ، ورايته سوداء ، ولواؤه أسود ،حتى وقف بذى طوى ، وتوسط الناس ، وإن عثنونه[٤] ليمس واسطة رحله أو يقرب منها تواضعًا لله عز وجل ، حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى وكثرة المسلمين ثم قال: « إن العيش عيش الآخرة » قال: وجعلت الخيل تمعج[٥] بذى طوى فى كل وجه،ثم ثابت وسكنت حين توسطهم رسول الله ﷺ،رواه محمد بن عمر)[٦].

(وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام ، رواه الإمام أحمد ومسلم والأربعة) [٧] .

(وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح من كداء من أعلى مكة ، رواه البخارى والبيهقى) [٨] ، (وعن جابر رضي الله عنه كان لواء رسول الله ﷺ يوم دخل مكة أبيض ،رواه الأربعة) ،(وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لواء رسول الله ﷺ يوم الفتح أبيض ، ورايته سوداء تُسمى العقاب ، وكانت قطعة مرط مرحل[٩] ، رواه ابن إسحاق) [١٠] .

(وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فتبسم إلى أبى بكر رضي الله عنه فقال : « يا أبا بكر ، كيف قال

---

(١) ذى طوى : واد بمكة وهو داخلها اليوم .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام م٢/ ٤٠٥ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٤٢ .
(٤) العثنون : اللحية .
(٥) تمعج : تسير فى كل اتجاه .
(٦) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٤ .
(٧) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٤٢ ، وعند مسلم ٢/ ٩٩٠ ح (١٣٥٨) .
(٨) الفتح ٨/ ١٨ ح (٤٢٩٠).
(٩) المرط المرحل : كساء من صنع اليمن .
(١٠) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٤٢ .

حسان ؟ » فأنشده أبو بكر قول حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع مطلعها كداء

ينازعن الأعنة مسرجات   يلطمهن بالخمر النساء

فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوها من حيث قال حسان »(١) .

٢ ـ (وفى الصحيح وغيره عن عروة أن الرسول ﷺ أمر الزبير بن العوام أن يدخل من كداء من أعلى مكة ، وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه ، وفى الصحيح أيضًا عن العباس أنه قال للزبير بن العوام : يا أبا عبد الله ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية ؟ قال : نعم)(٢) .

(وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وكان على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسُلَيْم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب أن يدخلوا من الليط ، وهو أسفل مكة ، وأمره أن يغرز رايته عند أدنى البيوت)(٣) .

(وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن رباح أن أبا عبيدة كان على البياذقة ـ يعنى الرجالة)(٤) (وأمر أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على الحُسَّر كما عند الإمام أحمد ومسلم)(٥).

٣ ـ (وذكر ابن إسحاق أن أصحاب خالد لقوا ناسًا من قريش منهم سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية كانوا تجمعوا بالخندمة ليقاتلوا ، وقد كان حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يُعد سلاحًا قبل دخول رسول الله ﷺ ويصلحُ منه فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لى علّه   هـذا سلاح كامـل وألّه(٦)

وذو غرارين سريع السلّه

ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئًا من قتال ، فقتل كرز بن جابر أحد بنى محارب بن فهر وخنيس بن خالد حليف بنى مُنقذ ، وكانا فى خيل خالد بن الوليد فشذا عنه فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًا ، قتل خنيس قبل كرز بن جابر فجعله كرز بن جابر بين

---

(١) رواه البيهقى بإسناد حسن . انظر : الفتح ١٨/٨ .

(٢ ، ٣) فتح البارى ٦/٨ .

(٤) مسلم ١٤٠٧/٣ ح (٨٦ / ١٧٨٠) .   (٥) المصدر نفسه ٣ / ١٤٠٥ .

(٦) الألة : الحربة لها سنان طويل .

رجليه ثم قاتل عنه حتى قُتِل وهو يرتجز ويقول :

قد علمت صفراء من بنى فهر نقية الوجه نقية الصدر

لأضربن اليوم عن أبى صخر[1]

وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين قريب من اثنى عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزموا فخرج حماس منهزمًا حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقى علىّ بابى ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنـك لـــو شـــهدت يـــوم الخندَمه إذ فـرَّ صفـــوان وفـــرَّ عِكــرمـه
وأبـو يـزيــد[2] قـائـم كالمـوتمـــه واستقبلتهـم بالسـيوف المسْـلمـه
يقطعـن كـل سـاعد وجمجمــه ضــربًا فـلا يسمـع إلا غمغمــه
لهــم نهيــت خلفنـــا وهمهمــه لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه)[3]

وعند موسى بن عقبة : واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة ، وقد تجمَّع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش ، فقاتلوا خالدًا فقاتلهم فانهزموا وقتل من بنى بكر نحو عشرين رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور ،وارتفعت طائفة منهم على الجبال وصاح أبو سفيان : من أغلق بابه وكف يده فهو آمن ، قال : ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال : « ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ » فقالوا : نظن أن خالدًا قوتل وبُدئ بالقتال فلم يكن له بد أن يقاتل ثم قال : قال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد بن الوليد :« لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟» فقال :هم بدؤونا بالقتال ،ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففت يدى ما استطعت ، فقال: قضاء الله خير . وذكر ابن سعد أن عدة من أصيب من الكفار أربعة عشر رجلاً، ومن هذيل خاصة أربعة)[4] .

٤ ـ عن عبد الله بن رباح عن أبى هريرة قال : وفدت وفود إلى معاوية وذلك فى رمضان، فكان يصنع بعضنا لبعض الطعام، فكان أبو هريرة مما يكثر ما يدعونا إلى رحله، فقلت : ألا أصنع طعامًا فأدعوهم إلى رحلى ؟ فأمرت بطعام يُصنع ، ثم لقيت أبا هريرة من العشى ، فقال : الدعوة عندى الليلة فقال : سبقتنى ؟ قلت : نعم ، فدعوتهم ،

---

(١) أبو صخر : قال ابن هشام :وكان خنيس يكنى أبا صخر ، وقال : خنيس بن خالد من خزاعة م٢/٤٠٨ .

(٢) أبو يزيد : سهيل بن عمرو .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام م٢/٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨/ ١١ .

فقال أبو هريرة : ألا أعلمكم بحديث من حديثكم يا معشر الأنصار ، ثم ذكر فتح مكة فقال : أقبل رسول الله ﷺ حتى قدم مكة ، فبعث الزبير على إحدى المجنبتين ، وبعث خالدًا على المجنبة الأخرى ، وبعث أبا عبيدة على الحسَّر(١) فأخذوا بطن الوادى ورسول الله ﷺ فى كتيبته ، قال : فنظر فرآنى ، فقال : « أبو هريرة ؟ » قلتُ : لبيك يا رسول الله ، فقال : « لا يأتينى إلا أنصارى » زاد غير شيبان : « اهتف لى بالأنصار » قال : فأطافوا به ، ووبشت قريش أوباشًا(٢) لها وأتباعًا ، فقالوا : نقدِّم هؤلاء فإن كان لهم شىء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم » ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى، ثم قال: « حتى توافونى بالصفا»، قال : فانطلقنا ، فما شاء أحد منا أن يقتل أحدًا إلا قتله وما أحد منهم يوجه إلينا شيئًا .

وفى رواية له:« يا معشر الأنصار ،هل ترون أوباش قريش ؟ » قالوا : نعم ، قال: « فانظروا ، إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا » وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله .

قال : فجاء أبو سفيان : فقال : يا رسول الله ، أبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، ثم قال : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ، ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة : وجاء الوحى ، وكان إذا جاء الوحى ،لا يخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضى الوحى ،فلما انقضى الوحى قال رسول الله ﷺ:« يا معشر الأنصار » قالوا : لبيك يا رسول الله ، قال : « قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته» قالوا : قد كان ذاك ، قال : « كلا ، إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم والمحيا محياكم والممات مماتكم » فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم » قال : فأقبل الناس إلى دار أبى سفيان وأغلق الناس أبوابهم (٣) .

وفى الرواية الثانية لمسلم : (فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، قال أبو سفيان ، قال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

---

(١) الحسر : الذين لا دروع لهم .

(٢) وبشت قريش أوباشًا : جمعت جموعًا من قبائل شتى .

(٣) مسلم ٣/ ١٤٠٥ ح (٨٤ / ١٧٨٠) .

فقالت الأنصار : أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة فى قريته ، ونزل الوحى على رسول الله ﷺ قال: « قلتم : أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة فى قريته، ألا فما اسمى إذن ؟» [١] ثلاث مرات ،« أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » قالوا : والله ما قلنا إلا ضنًا بالله ورسوله، قال : « فإن الله ورسوله يُصدقانكم ويعذرانكم »)[٢] .

٥ ـ وروى محمد بن عمر عن جابر قال : كنت ممن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه يوم الفتح،فلما أشرف رسول الله ﷺ من أذاخر ورأى بيوت مكة وقف عليها فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته فقال : « هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا فى كفرها » فذكرت حديثًا كنت سمعته منه قبل ذلك بالمدينة : « منزلنا إذا فتح الله علينا مكة فى خيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر »[٣] .

وروى البخارى وغيره عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أنّى تنزل غدًا ؟ تنزل فى دارك ؟ قال : « وهل ترك لنا عقيل من دار »[٤] .

وروى البخارى والإمام أحمد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:« منزلنا إن شاء الله تعالى إذا فتح الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر »[٥] ، يعنى بذلك المحصب ، وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت على بنى هاشم ، وبنى المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ [٦] .

(وروى محمد بن عمر عن أبى رافع رضي الله عنه قال : قيل للنبى ﷺ : ألا تنزل منزلك من الشّعب ؟ فقال : « وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ » ، وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ، ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل فى بعض بيوت مكة غير منازلك فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لا أدخل البيوت » ولم يزل رسول الله ﷺ مضطربًا بالحجون لم يدخل بيتًا ، وكان يأتى المسجد لكل صلاة من الحجون)[٧] .

٦ ـ (عن عبد الله بن مغفّل قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته

---

(١) فما اسمى إذن ؟ قال القاضى: يحتمل هذا وجهين : أحدهما : أنه أراد ﷺ أنه نبى لإعلامى إياكم بما تحدثتم به سرًا ، والثانى : لو فعلت هذا الذى خفتم منه ، وفارقتكم ورجعت إلى استيطان مكة ، لكنت ناقضًا عهدكم فى ملازمتكم ، ولكان هذا غير مطابق لما اشتق منه اسمى وهو الحمد ، وكنت أوصف حينئذ بغير الحمد) انظر : شرح مسلم ٣/١٤٠٧ فى الهامش .

(٢) مسلم ٣ / ١٤٠٧ ، (٨٦ ، ٨٧) .

(٣) المغازى للواقدى ٢/٨٢٨ .

(٤) فتح البارى ٨/١٣ ح (٤٢٨٢) .

(٥) المصدر نفسه ٨ / ١٤ح (٤٢٨٤) .

(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٣٤٩ .

(٧) المغازى للواقدى ٢/٨٢٩ .

وهو يقرأ سورة الفتح يرجّع صوته بالقراءة)[1] ، قال معاوية بن قرة : لولا أنه يجتمع الناس حولى لرجّعتُ كما رجّع عبد الله بن مغفل يحكى قراءة النبى ﷺ ، قال شعبة : فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : ثلاث مرات ، ورواه البخارى فى التفسير وفضائل القرآن والمغازى والتوحيد ومسلم فى الصلاة والنسائى والحاكم)[2] .

(وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: « هذا ما وعدنى » ، ثم قرأ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾) [3] .

٧ـ (روى أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس ﷺ قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنَّ إبليس رنة فاجتمعت إليه ذريته فقال : ايأسوا أن تردوا أمة محمد ﷺ إلى الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن أفشوا فيها ـ يعنى النوح والشعر)[4] .

(وروى ابن أبى شيبة عن مكحول أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة تلقته الجن يرمونه بالشرر ، فقال جبريل : تعوذ يا محمد بهؤلاء الكلمات : « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما بث فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر الليل والنهار ، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير يا رحمن)[5] .

وروى البيهقى عن ابن أبزى رحمه الله قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل ، فقال : « تلك نائلة أيست أن تُعبد ببلدكم هذه أبدًا » .

٨ ـ (عن أم هانئ ﷺ قالت : لما كان عام الفتح فرَّ إلىَّ رجلان من بنى مخزوم فأجرتهما ، قالت : فدخل علىَّ علىٌّ فقال : أقتلهما ، قالت : فلما سمعته يقول ذلك أتيت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فلما رآنى رسول الله ﷺ رحب وقال : « ما جاء بك يا أم هانئ » قالت : قلت يا رسول الله ، كنت أمنت رجلين من أحمائى ، فأراد على قتلهما ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أجرنا من أجرت » ثم قام رسول الله ﷺ إلى غسله فسترته فاطمة ، ثم أخذ ثوبًا فالتحف به ، ثم صلى ﷺ ثمان ركعات سبحة الضحى ، رواه مسلم والبيهقى)[6] .

(وعنهما أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة اغتسل فى بيتها ، وصلى ثمان ركعات

---

(١) فتح البارى ٨/ ١٣ ح (٤٢٨١) .

(٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٤٨ .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٥٠ .

(٥) المصدر نفسه ٥ / ٣٥١ .

(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٥٠ ، وفى مسلم ١/ ٤٩٧ ح (٨٠ / ٣٣٦).

قالت : لم أره صلى صلاة أخف منها ، غير أنه يتم ركوعها وسجودها . رواه البخارى والبيهقى) (١) .

٩ ـ (روى الإمام أحمد والطبرانى برجال ثقات، ومحمد بن عمر والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق ﷺ قالت : لما كان عام الفتح ونزل رسول الله ﷺ بذى طوى قال أبو قحافة لابنة له ـ قال البلاذرى : اسمها أسماء ـ كانت من أصغر بناته : يا بنية ، أشرفى بى على أبى قبيس ، وقد كُفَّ بصره فأشرفت به عليه فقال: أى بنية ، ماذا ترين؟ قالت : أرى سوادًا مجتمعًا كثيرًا ، وأرى رجلاً يشتد بين ذلك السواد مقبلاً ومدبرًا ، فقال : ذلك الرجل الوازع ، ثم قال : ماذا ترين ؟ قالت: أرى السواد قد انتشر وتفرَّق فقال : إذن والله انتشرت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى فخرجت سريعًا حتى إذا هبطت به الأبطح لقيتها الخيل وفى عنقها طوق لها من ورق ، فاقتلعه إنسان من عنقها) .

* * *

١ ـ ها هم المسلمون جميعًا بكل عساكرهم وقبائلهم يتجمعون فى ذى طوى انتظارًا لرسول الله ﷺ حتى يصل إليهم والخيل تمعج بذى طوى فى كل وجه ، إن الخيل لتهيج تبحث عن نبيها ﷺ لتكون فى خدمته ، (ثم ثابت وسكنت حين توسطهم رسول الله ﷺ فهى تدرك أنها ماضية لأشرف فتح فى الوجود تحت إمرة النبى ﷺ فقرابة الألفين من الخيل ، والعشرة آلاف من الجيش فى أعظم عرض عسكرى مهيب يمضى إلى مكة دون أن يجرؤ أن يقف فى طريقهم أحد ، وأى قائد لا يشمخ بأنفه ، ويعلو بنفسه تيهاً وعُجبًا أمام هذا النصر المظفر ، وقد دانت له القبائل بقياداتها وأشرافها ورجالاتها ، وهذان سيدا أكبر القبائل العربية بجواره الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن سيدا تميم وغطفان ، لقد دان الأبطال والأسود والرجال له لكنه عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم ما أُعطى هذه السيادة إلا بعظمة عبوديته وتذلله لربه، فهو أطوع خلق الله لله ، وأعظم خلق الله تواضعًا لله ، وحين تتساقط كل قيادات الدنيا هاوية إلى الأرض بشموخها بانتصاراتها ، يرتفع سيد الخلق ليكون فوق هامات الخلق جميعًا بعظمة تواضعه وتذلله لله .

وتوسط الناس وإن عثنونه ليمس واسطة رحله أو يقرب منها تواضعًا لله عز وجل حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى وكثرة المسلمين ، ثم قال : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » .

إنه قبل ثمان سنين فقط يفر مختفيًا عن قومه ليلاً ويخرج من خوخة أبى بكر مع

---

(١) فتح البارى ٨/ ١٩ ح (٤٢٩٢) .

صاحبه ويمضيان للغار يقيمان فيه ثلاثة أيام تحسبًا من طلب قريش ، ووقفت الدنيا كلها ضده إلا الله وحده :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة] .

إنه منذ خرج من بلده كانت نقطة انطلاق عزة الإسلام من هناك فمضى إلى المدينة ليقيم دولة الإسلام فيها وها هو الآن وبعد ثمان سنين يدخل بلده بهذه الجموع الغفيرة وهذه الجيوش الجرارة قد انتصر على كل من عاداه وأطاعه كل من حاربه واختبأ فى بيته كل من قاتله ومع هذا ما ازداد إلا تواضعًا لله .

عمامته سوداء على رأسه أو حمراء وهى قطعة من بُرد لعائشة ﵂ لا نياشين ولا زينة ولا نجوم ولا شيء يزهو به ، على رأسه المغفر استعدادًا للحرب وهو على ناقته القصواء، فلم يركب الخيل التى تبعث الفخر والخيلاء فى النفس، وكتيبته الخضراء المدججة بالحديد والسلاح .

أما أبطال مكة وصناديدها فقد تركوا النساء يواجهن الخيل حيث يمضى الجيش إلى مكة فليس بين ذى طوى ومكة إلا تجاوز هذا الوادى وراية رسول الله ﷺ قد ارتفعت فى الحجون ترفرف خفاقة بنصر الإسلام بحراسة الزبير بن العوام ﵁ ابن الثانية عشرة فى مكة يوم أسلم وابن الخامسة والعشرين يوم مضى مهاجرًا بدينه ، وابن الخامسة والثلاثين اليوم ، ممثل رسول الله ﷺ فى مكة وحامل رايته وحين أعلن أبا سفيان ذات يوم : والله لا أؤمن حتى أرى الخيل تطلع من كداء .

وحين بعث حسان برسالته الحربية قائلاً :

عدمت بنيتى إن لم تردها ... تثير النقع من كتفى كداء

أو :

عدمنا خيلنا إن لم تردها ... تثير النقع مطلعها كداء

وها هو عليه الصلاة والسلام سيد المتواضعين وسيد العظماء يشهد نصر الله تعالى له ويسأل أبا بكر مبتسمًا : « يا أبا بكر كيف قال حسان ؟ » فأنشده أبو بكر أبياته ، فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوها من حيث قال حسان » .

ومضت الخيل تتسابق فرحة نشوى بأمر رسول الله ﷺ تصعد كداء منفذة لأمر الله

تعالى ورسوله ، ولم يكن أمام هذه الخيل وأمام هذا الجيش الذى يقوده رسول الله ﷺ للمواجهة إلا النساء خرجن يقاومن الخيل ويقفن فى وجوهها ، ويذدن عن مكة حين اختفى الأبطال وأووا إلى بيوتهم أو صعدوا فراراً إلى الجبال ينظرون محمداً وأصحابه ، أما القائد الأعظم ﷺ فقد أعاد إلى ذاكرته يوم الحديبية يوم وقفت قريش بالعوذ المطافيل تقسم ألا يدخل مكة عليها عنوة أبداً ، وها هو اليوم عليه الصلاة والسلام يدخل مكة عنوة عليها يحكم ما يشاء برجالها وأبطالها وأشرافها فيذكر فضل الله تعالى عليه بذلك ويقرأ بصوت مرتفع صورة الفتح يرجعها ويكررها وفيها :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح] ، وكان فتح خيبر ، وكانت عمرة القضاء ، ودخلوها محلقين ومقصرين لا يخافون ، وها هم اليوم يدخلون فاتحين وآن الأوان لتفتح مكة ذراعيها مستسلمة لله ولرسوله بعد حرب لله ورسوله تنوف عن عشرين عاماً فيقول عليه الصلاة والسلام بعد أن رجّع سورة الفتح: « هذا ما وعدنى ربى ، ثم قرأ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ » [النصر] .

وها هو يسبح ربه ويستغفره ، ويمضى بجيشه إلى مكان لا يعرفه إلا القليل من الجيش قد اختاره عليه الصلاة والسلام موقع القيادة فى مكة إلى مكان يحمل أشجى الذكريات التاريخية يوم قررت قريش وكنانة إبادة بنى هاشم وبنى المطلب مع محمد وصحبه حين قرروا وفى المكان الذى عقدوا فيه المؤتمر وكتبوا فيه الصحيفة (ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ) ، ويذكر وفاء أبى طالب عمه الذى أعلن لقريش : (إن ابن أخى أخبرنى ـ ولم يكذبنى ـ إن الله برئ من هذه الصحيفة التى فى أيديكم وفى كل اسم هو له فيها وترك فيها عذركم وقطيعتكم إيانا ، وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبدًا حتى نموت عن آخرنا)[(١)] ، وهذا المكان التاريخى الذى عقد فيه هذا المؤتمر الجائر الظالم ،وتعاهدوا على إبادة حيين من بنى عبد مناف إذا لم يسلموا محمداً لهم هو المكان المناسب لقيادة الجيش الإسلامى الذى يقوده محمد عليه الصلاة والسلام ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يذكر هذا لجابر بن عبد الله الفتى المسلم فى المدينة ، ونقل لنا جابر تلك الذكرى فقال : (كنت ممن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر فلما أشرف على أذاخر نظر إلى بيوت مكة ووقف عليها فحمد الله وأثنى عليه

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٨٢ .

ونظر إلى موضع قبته والتى بناها له أبو رافع ﷺ) فقال : « هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت علينا قريش فى كفرها » قال جابر: فذكرت حديثًا كنت أسمعه منه ﷺ قبل ذلك بالمدينة: « منزلنا غدًا إن شاء الله ، إن فتح الله علينا مكة بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » .

ويمر الزمن ، ويغدو خيف بنى كنانة موطن قيادة الجيش الإسلامى ، ومنزل رسول الله ﷺ هذا ما نقله لنا الفتى جابر أما ما نقله لنا الفتى أسامة بن زيد ﷺ حبّ رسول الله ﷺ ،ورفيق رحله حيث سأل حبيب المصطفى ﷺ قائلاً : يا رسول الله ، أنَّى تنزل غدًا ؟ تنزل فى دارك ؟ قال : « وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار ؟ » .

أما أبو رافع ﷺ والذى كلف ببناء القبة حيث تقاسمت قريش على الكفر ينقل لنا معلوماته عن هذا الأمر فيقول : (قيل للنبى ﷺ : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ فقال: « وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ » وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ، ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل فى بعض بيوت مكة غير منازلك، فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لا أدخل البيوت » ولم يزل رسول الله ﷺ مضطربًا بالحجون لم يدخل بيتًا وكان يأتى المسجد لكل صلاة من الحجون) (١) .

وإنها لعظمة النبوة وعظمة الوفاء وقد فتحت مكة على مصراعيها ، وفتحت ذراعيها لاستقبال الحبيب المصطفى ﷺ مكة أحب بلاد الله إلى الله والمصطفى أحب خلق الله إلى الله ومع ذلك لم يرض رسول الله ﷺ أن ينزل بيوت مكة أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إليه وفاء للأنصار الذين قال لهم : « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »، فتصرف تصرف المسافر الذى يقيم خارج بلده ،ويمضى للصلاة فى كل وقت من الحجون إلى المسجد ، وتتمنى كل ذرة تراب فى مكة أن تكون موطئ قدم له ، ولكنه بقى على العهد مع أنصاره الذين محضوه الود وبذلوا فى سبيله المهج والأرواح .

والذى يؤكد هذا المعنى،الحادثة التى رواها مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ.

٢ ـ الأنصار والحب والثأر : (قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى ، وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادى ، فقال : « يا أبا هريرة ، ادع لى الأنصار » فدعوتهم فجاؤوا يهرولون ، فقال : « يا معشر الأنصار ، هل ترون أوباش قريش ؟ » قالوا : نعم ، قال : « انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا » وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله ، وقال : « موعدكم الصفا » قال : فما أشرف يومئذ أحد لهم

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٩ .

إلا أناموه)[1] .

هؤلاء الأنصار من دون غيرهم الذين أمضوا عمرهم ، وهم ينتظرون لحظة الثأر هذه من قريش التى حاربتهم وغزتهم فى عقر دارهم ، وحاولت استباحة المدينة أكثر من مرة، وقتلت أشرافهم ، وعقرتهم بالجراح والآلام ، هؤلاء الأنصار الذين عبَّر عنهم قائدهم بقوله : (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا) ، قريشًا هذه التى قال فيها رسول الله ﷺ يوم بدر :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم احنهم الغداة »[2] .

هؤلاء الأنصار هم المعنيون بالثأر من قريش ، للماضى الحافل بين الفريقين ، ومن أجل ذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يضطلعوا بهذا الدور حصد كل من يقف لمقاومة الجيش الإسلامى ، وقتل كل من تسول له نفسه المواجهة فلم يغلق عليه بابه ، ولم يلجأ إلى المسجد أو إلى دار أبى سفيان وفى إطار تربية القاعدة العريضة ، والأنصار يمثلون السواد الأعظم من الجيش والنفوس الثائرة المتأججة المتهيجة للقتال فلا يمكن أن يُتجاهل هذا الوضع النفسى الذى قد يؤدى إلى انفجار بطريق آخر،ولابد أن تمتص هذه الثورة من هؤلاء الموتورين، فكان هذا الأمر: « أرأيتم أوباش قريش؟ » قالوا: نعم، قال:« انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا » .

ومضى الأنصار يجوبون مكة فما أشرف أحد يومئذ لهم إلا أناموه ، وجاءت الأنصار حسب موعدها مع قائدها رسول الله ﷺ تطوف بالصفا حيث يطوف فيها عليه الصلاة والسلام وجاء رئيس أركان مكة ليتلافى الوضع وقد وقع ميثاق الاستسلام قبل تحرك الجيش جاء إلى رسول الله ﷺ يستغيث صارخًا :

يا رسول الله أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم .

فأعاد عليه الصلاة والسلام تعليماته الصارمة التى لا تقبل التعسف ولا التأويل :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » وأحس الأنصار أن رسول الله ﷺ لا يريد فناء قريش ولا ذلها ، وأنه حريص على الأمن فى مكة ، وأحسوا أن الأوان قد آن بعد فتح مكة واستسلام قريش ليعود إليها

(١) فما أشرف أحد يومئذ إلا أناموه : أى ما ظهر لهم أحد منهم إلا قتلوه فوقع على الأرض أو يكون بمعنى أسكنوه بالقتل كالنائم يقال : نامت الريح : إذا سكنت ، وضربه حتى سكن أى مات ، ونامت الشاة وغيرها: ماتت ، قال الفراء : النائمة الميتة. انظر : صحيح مسلم هامش ص ١٤٠٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م ١/ ٦٢١ .

عليه الصلاة والسلام مقيمًا بعد أن غادرها مكرهًا،فهو الحنين إلى الوطن ، وهو الإحسان إلى الأهل،وهو الحرص على القربى وهذا يعنى فراق الأنصار لقائدها الحبيب الذى قدموا له من آيات الحب والولاء ما لم يقدمه أحد لأحد بعد حب الله تعالى .

وأبو سفيان الذى يستغيث اليوم خوفًا على إبادة قريش هو صاحب الجملة الأثيرة المشهورة : ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمداً . فهو الفراق الذى يفوق عندهم فراق أرواحهم ، وجاء الوحى .

وكان إذا جاء الوحى لا يخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحى ، وانقضى الوحى .

وجاء النداء الثانى من رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار » قالوا : لبيك يا رسول الله ، وأدركوا أن ما فى أعماقهم سيعرض الآن على صفحة الوحى من رب السموات والأرض الذى لا تخفى عليه خافية ووصلت أرواحهم إلى حناجرهم خوفًا من أن يكونوا أساؤوا لرسول الله ﷺ ، قال : « قلتم : أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة فى قريته » ، قالوا: قد كان ذاك ، فهل تختم حياتهم وجهادهم بالإحباط أمام هذا الظن الذى راود قلوبهم ؟ لقد احترقت أعصابهم خوفًا من هذا المصير الرهيب .

يقول عليه الصلاة والسلام :« ألا فما اسمى إذن ؟ ألا فما اسمى إذن ؟ ألا فما اسمى إذن ؟ أنا محمد عبد الله ورسوله » .

وكانت أحرج لحظة انفرجت فى أسعد إجابة وأجمل بشارة :

« أنا محمد عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

ويالها من لحظة غمرت هذا الجيل السعيد الأول ، جيل العطاء والفداء بفيوض ربانية غامرة من الأمن والسكينة والرضا ، من الحب والود ، من قرار العيون والقلوب إلى قائدهم عليه الصلاة والسلام يدع أهله ، وقريته وبلده وعشيرته بعد أن فُتحت له ، واستقبلته معتذرة يدعها ويمضى مع رفاق دربه ورفاق جهاده ، ورفاق حياته مع أنصاره محدداً الخط النهائى للمستقبل .

« فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وعبروا عن هذا الرضا ، وعن هذه الطمأنينة وعن هذه السكينة التى تدفقت فى قلوب المؤمنين فكانوا أحقَّ بها وأهلها ، قالوا :

والله ما قلنا إلا ضنًّا بالله ورسوله .

قال : « فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم » .

فلقد جاء تصديقهم من رب السموات والأرض ، وجاء عذرهم من رب السموات والأرض فماذا يريدون بعد ذلك إذا كان رسول الله ﷺ سيعود معهم إلى ديارهم .

٣ ـ حرب القادة الرفاق : ونعود فى الذاكرة إلى خالد رضي الله عنه عندما هم أن يمضى إلى المدينة فيعلن إسلامه ويبحث عن أحب الناس إليهم وأقربهم ودًا منه ، ورفاق دربه الطويل الطويل فى خط الحياة كله ، يقول : (فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف ، فأبى أشد الإباء وقال :

لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبدًا فافترقنا ، وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترًا ، وقد قُتل أخوه وأبوه فى بدر ، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطوِ ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره)[١] .

هذان القائدان هما اللذان استغلتهما هند بنت عتبة وطالبت بقتل زوجها الذى خان قضية مكة : (اقتلوا الحميت[٢] الدسم[٣] الأحمس[٤] قُبِّح من طليعة قوم)[٥] .

هذان القائدان مع سهيل بن عمرو الذين طفا فيهم حماس الجاهلية ونخوتها ، والحفاظ على الثأر والكرامة المهدورة يأملون أن يصدوا هذا الهجوم الذى يقوده محمد ﷺ ضدهم : (فدعوا إلى قتال رسول الله ﷺ ، وضوى إليهم ناس من قريش وناس من بنى بكر وهذيل ، وتلبسوا السلاح ، ويقسمون بالله ، لا يدخلها محمد عنوة أبدًا) فقد تمكن بغض الإسلام وبغض محمد من قلوبهم قاتل الأحبة تمكنًا أعمى عيونهم عن الحقيقة ، وعن نداءات أبى سفيان المتكررة :

(ويلكم لا تغرَّنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به)،لقد كان جند خالد الذين تحت رايته أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب هؤلاء الوافدون الجدد الذين انضموا للجيش لأول مرة على رأسهم قياداتهم العريقة فى الإسلام والجهاد وفيهم أبطال وفرسان مغاوير ومشاهير وعلى رأس هؤلاء جميعًا خالد بن الوليد

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٩ .

(٢) الحميت : زق السمن .

(٣) الدسم : الكثير الودك .

(٤) الأحمس هنا : الشديد اللحم ، وتشبهه بالزق لعبالته وسمنه .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٠٥ .

وهو القائد العسكرى الأعلى الذى انتهت له قيادة المجنبة اليمنى وكلف بدخول مكة من أسفلها من الليط ، وها هو يواجه هذا التجمع العسكرى الحاشد وعلى رأسه رفيقى حياته صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ورفيقه الثالث سهيل بن عمرو ولم تمر سنة واحدة بعد على انتقاله إلى المعسكر الإسلامى بعد عشرين عامًا أمضاها زعيمًا وقائدًا فى صف المشركين ،ترى هل حانت الفرصة للقاءات السرية بحيث يتفق مع هؤلاء القيادات ويتمرد على رسول الله ﷺ وينضم إليها للدفاع عن مكة ، وتنجح خطة الغدر من الخلف كما نجحت من قبل خطة الالتفاف من الخلف فى غزوة أحد وعشيرته مخزوم يكاد يكون كل قياداتها وأبطالها ومغاويرها فى الجيش المقابل ومن قادة مكة لو كان هذا فى غير أمة العقيدة لكان هذا هو الأصل ، وهذه الفرصة السانحة للانقضاض على محمد وصحبه والاتفاق مع عكرمة وسهيل وصفوان لذبح المسلمين وأسرهم وطرد الجيش الإسلامى منها فصداقة أربعين عامًا أو تزيد لا تقضى عليها صداقة أشهر مع عدو لدود أمضى حياته فى حربه وحرب أهله وعشيرته وهجا أباه وابن عمه أبا جهل وسجل التاريخ الأسود لهؤلاء الملأ الكبار من قومه ، أما فى دولة العقيدة وحيث تربية النبوة تصوغ هذه النماذج لا مكان أبدًا لمثل هذه التصورات السخيفة فهو يتوق إلى الجهاد ولو كان جهاد أعز الناس عليه وأقرب الناس إليه جهاد سهيل وعكرمة وصفوان وجيشهم الذى معهم من قريش وغيرها ، لقد كان جيش خالد فى منأى عن هذا الامتحان فجله من أسلم وغفار وجهينة ومزينة وسليم وليس فيه أحد من قريش فهم يقاتلون ببسالة واندفاع وحماس دون أى صراع مع داخلهم وأعماقهم ، وحماسهم لدينهم ولانتصار عقيدتهم ، وأخذ قريش غنيمة لهم، لا حد له، ولا سقف له أما خالد رضي الله عنه فهو يقاتل ذاته ويصارع نفسه يوم يصارع عكرمة وصفوان وسهيلاً ،ومع هذا كله فهناك صراع آخر هو أمر رسول الله ﷺ له ألا يقاتل .

(فلما دخل خالد بن الوليد من حيث أمره رسول الله ﷺ وجد الجمع المذكور ، فمنعوه الدخول وشهروا له السلاح ورموه بالنبل قالوا : لا تدخلها عنوة)(١) .

وعند موسى بن عقبة:(ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال: « ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ » فقالوا : نظن أن خالدًا قوتل وبُدئ بالقتال فلم يكن له بد أن يقاتل ثم قال : وقال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد بن الوليد : « لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففت يدى ما استطعت فقال : « قضاء الله خير » ، فخالد رضي الله عنه إذن قائد عقيدة ولديه أوامر بالكف عن القتال لكن ما يفعل ولم يرعو رفاقه عن حربه يتحدونه ويصرون على مواجهته يكف يده ولا

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٤٥ .

يكفون أيديهم) (١) .

(ورواه الطبراني من حديث ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « إن الله حرّم مكة ... » الحديث ، فقيل له : هذا خالد بن الوليد يقتل ، فقال : « قم يا فلان فقل له : فليرفع القتل » فأتاه الرجل فقال له : إن نبي الله يقول لك : اقتل من قدرت عليه فقتل سبعين ثم اعتذر الرجل إليه فسكت . وقال : وقد كان رسول الله ﷺ أمر أمراءه ألا يقتلوا إلا من قاتلهم) (٢) .

وحتى نعرف الوضع النفسي لهذا التجمع السريع من أوباش قريش وغيرها ، والذين أرادوهم محك اختبار أكثر مما أرادوهم مواجهة حقيقية كما في صحيح مسلم :

« ووبشت قريش أوباشًا لها وأتباعًا فقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا »(٣) .

ولو قدّر للأنصار أن تكون مواجهتهم مع هذا التجمع لكان الحصد الحقيقي الذي عناه رسول الله ﷺ ابتداء لكن التجمع كان في أسفل مكة من حيث دخل خالد رضي الله عنه والأنصار كانوا قد دخلوا مكة من حيث دخل رسول الله ﷺ فقد قتل الأفراد الذين يحملون السلاح للمواجهة ورفضوا أن يغلقوا بابهم عليهم وبعد أن بذل خالد بن الوليد الذي انتهى قائدًا للمشركين منذ أقل من سنة ليصبح (سيف الله) تعالى وحين لم يكن بد من المواجهة ، قاد المعركة بعبقريته الحربية ، وحب رسول الله ﷺ يملك عليه كيانه ويغمر فؤاده فيقاتل ويرتجز قائلاً :

إذا ما رسول الله فينا رأيته كلجة بحر نال فيها سريرها
إذا ما ارتدينا الفارسية فوقها ردينية يهدى الأصم خريرها
رأينا رسول الله فينا محمدًا لها ناصرًا عزّت وعزّ نصيرها

فهو روح الحياة لكتائب الإيمان ، وهو الذي تخفق به قلوبهم حيث راياتهم تخفق ، وسيوفهم تخفق في نحور المشركين .

وفي لقطتين فنيتين نتعرف منهما على هذا الجيش الطارئ الذي أراد أن يقدّم مسرحية عسكرية لعلها تنجح في إرهاب المسلمين وتخويفهم وقد غشوا جنودهم فلم يوافوهم بالحقيقة .

هذه اللقطة الأولى قبل المعركة لحماس بن قيس أحد بني بكر وهو في حواره مع

(١ ، ٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨ / ١١ .
(٣) مسلم ٣/ ١٤٠٥ من ح (٨٤ /١٧٠٨) .

امرأته حيث جلس يصلح سلاحه :

فقالت له امرأته : لمن تعد هذا ؟

قال : لمحمد وأصحابه فإنى أرجو أن أخدمك منهم خادمًا فإنك إليه محتاجة .

قالت : ويحك لا تفعل ولا تقاتل محمداً والله ليضلن هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه.

قال : سترين)[1] .

وراح ينشد :

إن يقبلوا اليوم فمالى عله   هذا سلاح كامل وأله

وذو غرارين سريع السله

هذه اللقطة الأولى ، وهو ينتفش بسلاحه ، ويستعد للمواجهة ويطمح بأن يأتى بخادم من المسلمين لامرأته وكانت اللقطة الثانية الفظيعة المرعبة نعرض معها قول ابن إسحاق :

(وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد وأصيب من المشركين ناس قريب من اثنى عشر رجلاً ثم انهزموا ،وجعل أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام يصيحان : يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم ، ويطرحون السلاح فى الطرق حتى يأخذه المسلمون)[2] .

وهنا تأتى اللقطة الفنية النفسية الخالدة بعد المعركة لصاحبنا حماس بن خالد:(ورجع حماس منهزمًا حتى انتهى إلى بيته ، فدقّه ففتحت له امرأته فدخل وقد ذهبت روحه فقالت له : أين الخادم الذى وعدتنى ؟ ما زلت منتظرة لك منذ اليوم (تسخر منه) .

فقال : دعى هذا عنك وأغلقى علىَّ بابى :

ثم قال :

إنك لو شهدت يوم الخندمه   إذ فر صفوان وفرَّ عكرمه
وأبو يزيد قائم كالموتمه   واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه   ضربًا فلا تسمع إلا الغمغمه

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٣ .   (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٤٦ .

لهـــم نهيــت خـلفنـــا وهمهمـــه لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه)[1]

٤ ـ **رسول الله ﷺ فى قبته** : حين دخل رسول الله ﷺ مكة ، وفُتحت له ، وأقام قبته حيث تقاسموا على الكفر ، كان هذا يعنى انتصار شريعة الله فى الأرض والهزيمة الكبرى للشرك فيها وكان إبليس هو الذى يقود معسكر الكفر فى الوجود فى أكبر مأتم له فى حياته .

فقد روى أبو يعلى ، وأبو نُعيم عن ابن عباس ﷺ قال :

(لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنَّ إبليس رنة فاجتمعت إليه ذريته) ، وكان هذا الاجتماع الطارئ لابد منه لشياطين الجن جميعًا بعد هذه النكبة الكبرى التى نزلت بهم أما خطبته فكانت :

(ايأسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا) .

فلا جدوى من المقاومة لثنيهم عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك ،حتى لا يبذلوا جهدًا مضنيًا دون فائدة ، أما الذى بالإمكان فهو فتنتهم عن هذا الدين بشغلهم بالنوح والشعر بحيث يبقى الشعر هو المستأثر بقلوبهم وأفئدتهم عن هذا الدين الذى إذا دخلت بشاشته النفوس شغلت به النفوس عن كل شىء،(عن لبيد شاعر العربية الأكبر الذى قيل له : ما أحدث من الشعر فى الإسلام،قال لبيد:أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران)[2].

ومع الشعر كذلك النوح الذى يبقى فى هذه الأمة من أمر الجاهلية ،حيث تلطم الخدود وتشق الجيوب ويدعى بدعوى الجاهلية فى النوح ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر الطعن فى النسب والنياحة على الميت »[3] .

كما تطالعنا محاولة أخرى للشياطين تنم عن مدى ما عندهم من حقد وكيد فى محاولة انتصار للشرك المنهار فى أرض العرب وهؤلاء مثل صفوان وعكرمة وسهيل الذين لم يعلنوا استسلامهم وخضوعهم لشريعة الله تعالى ونصر رسوله .

(وروى ابن أبى شيبة عن مكحول أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة تلقته الجن يرمونه بالشرر فقال جبريل لرسول الله ﷺ : تعوّذ يا محمد بهؤلاء الكلمات :

أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٣٤٦ .
(٢) الإصابة لابن حجر م٣/٦/٤ ت (٧٥٣٥) .
(٣) مسند أحمد ٢/٤٩٦ .

وما يعرج فيها ، ومن شر ما بثَّ فى الأرض ، وما يخرج منها ، ومن شر الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير يا رحمن) ، وكم هى محاولات بائسة يائسة من هؤلاء الذين اجتمعوا ليطفؤوا نور الله تعالى من مردة الجان ولم يعلموا بأن نصر الله والفتح قد أزف ، وأن الحق قد جاء وما يبدئ الباطل وما يعيد .

وكما يئس إبليس وأعلن يأسه وفشله فى حربه التى قادها آلاف الأعوام وأدخل الشرك فى هذه الأمة ودعا حزبه أن يكفوا عن هذه المحاولات فقد يئست كذلك نائلة شيطانة هذا الصنم أن تعبد كذلك ، كما روى البيهقى عن ابن أبزى قال :

(لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل ، فقال : « تلك نائلة أيست أن تُعبد ببلدكم هذا أبدًا » .

وانضمت مع إبليس إلى اليائسين بعد أمن لها جاوز الألف عام منذ أن جاء عمرو بن لحى الخزاعى بالأصنام إلى مكة المكرمة ، والتى سنعود إلى حديثها التفصيلى فيما بعد .

وتطالعنا فى قبة النبى ﷺ كذلك ، زيارة أم هانئ رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ التى لم تره منذ أن غادر مكة إلى المدينة .

وها هى فرحة بانتصار الإسلام العظيم وفتح مكة من المسلمين .

(فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها فاستجارا بها وقالا : نحن فى جوارك فقالت : نعم أنتما فى جوارى ، قالت أم هانئ : فهما عندى إذ دخل علىٌّ فارسًا مدججًا فى الحديد ولا أعرفه فقلت له : أنا بنت عم رسول الله ﷺ وخفق قلبها رعبًا منه لكنها تعلم موقعها من رسول الله ﷺ ، قالت : فكف عنى وأسفر عن وجهه فإذا علىّ عليه السلام فقلت : أخى ،فاعتنقته وسلمت عليه ، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما) ، ولا عجب فى ذلك منهما فهما ليسا فى بيتهما وليسا فى الكعبة وليسا فى بيت أبى سفيان فالأصل أن يقتلا لهذا التجاوز (قلت : أخى من بين الناس يصنع بى هذا . قالت : وألقيت عليهما ثوبًا وقال : تجيرين المشركين ؟ وحلت دونهما فقلت : والله لتبدأن بى قبلهما ، قالت : فخرج ولم يكد فأغلقت عليهما بيتًا وقلت : لا تخافا) .

ومضت إلى رسول الله ﷺ ، يكاد قلبها يثب من بين يديها شوقًا إليه ، وتتزاحم الأفكار على رأسها كيف تشكو أخاها عليًا إلى رسول الله ﷺ ، ونمضى معها تحدثنا عن هذا اللقاء السعيد قائلة(١) :

فذهبت إلى خباء رسول الله ﷺ بالبطحاء فلم أجده ، ووجدت فيه فاطمة فقلت :

---

(١) رواها الواقدى بسنده عن ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى مرة مولى عقيل عن أم هانئ .

ماذا لقيت من ابن أبى على ؟ أجرتُ حموين لى من المشركين فتفلَّت عليهما ليقتلهما ، قالت : فكانت أشد علىّ من زوجها وقالت : تجيرين المشركين ؟) .

ولا عجب ففاطمة ﵂ منطقية مع نفسها رفضت إجارة أبى سفيان ، ورفضت لولدها الحسن أن يجيره وقالت له : لا يجير على رسول الله ﷺ أحد ، أما أم هانئ فقد زاد هَمّها وغمها ، فكيف إذا رفض رسول الله ﷺ إجارتها وهى امرأة لا وزن لها بين كبار المسلمين وبينما هى فى هذه الهواجس طلع رسول الله ﷺ وعليه رهجة الغبار (١) ، فقال : « مرحبًا بفاختة أم هانئ » ، وعليه ثوب واحد فقلتُ : ماذا لقيت من ابن أبى على ؟ ما كدت أنفلت منه أجرت حموين لى من المشركين فتفلَّت عليهما ليقتلهما ، فقال رسول الله ﷺ : « ما كان ذاك قد أمَّنا من أمَّنت ، وأجرنا من أجرت » .

وكادت تمس بيدها السماء نشوة واعتزازًا بهذا المجد ، فرسول الله ﷺ يجيز جوارها لهذين ولكل من تجيرهم غيرهما ، وياله من مقام رفيع سما بها الإسلام فيه ، وغدت تستطيع أن تواجه وتهاجم ابنة ابن عمها محمد فاطمة وتهاجم وتواجه أخاها عليًا بعد أن أخذت هذه المكرمة النبوية الخاصة .

« أمَّنا من أمَّنت ، وأجرنا من أجرت » .

(ثم أمر فاطمة فسكبت له غسلاً فاغتسل ، ثم صلى ثمان ركعات فى ثوب واحد ملتحفًا به ، وذلك ضحى فى فتح مكة)(٢) .

ويناسب هذا المقام بعد هذا السفر الطويل ، وآثار الغبار تلفح وجهه وجسمه ﷺ أن يمضى فيغتسل ويصلى شكرًا لله صلاة الفتح فى أعظم منٍّ منّ الله تعالى عليه به ، حيث فتحت مكة أبوابها له ، وها هو يمضى بقلب عار خاشع متبتل ، بعد هذه الصلاة ليكون أول عهده بمكة بيت الله الحرام يحف به جيش حزب الله الذى جاء من أقاصى الحجاز مع قيادات غطفان وتميم ، وقد أعلنوا استسلامهم لله تعالى موحدين هاجرين الشرك والوثنية ومعلنين كلمة التوحيد : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وسنتابع المسيرة مع رسول الله ﷺ إلى هناك إلى الكعبة التى حُرِمها رسول الله ﷺ عشر سنين ، وها هو سادنها اليوم جندى فى حزب الله .

---

(١) رهجة الغبار : آثار الغبار .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٩ ، ٨٣٠ .

مع رسول الله ﷺ من قبته إلى الكعبة

١ ـ (عن عبد الله (هو ابن مسعود) رضي الله عنه قال : دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ») .

٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما من الأزلام فقال النبى ﷺ : « قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط » ، ثم دخل البيت فكبَّر فى نواحى البيت وخرج ولم يصلِّ فيه .

٣ ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد ومعه بلال ، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ فى المسجد ، فأمره أن يأتى بمفتاح البيت فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وعثمان بن طلحة فمكث فيه نهاراً طويلاً ، ثم خرج فاستبق الباب فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائمًا فسأله : أين صلى رسول الله ﷺ ؟ فأشار إليه إلى المكان الذى صلى فيه قال عبد الله : فنسيت أن أسأله كم صلى من سجدة .

٤ ـ قال : ومكث رسول الله ﷺ فى منزله ساعة من النهار واطمأن واغتسل ثم دعا براحلته القصواء فأدنيت إلى باب قبته ، ودعا للبس السلاح ، والمِغفَرُ على رأسه ، وقد صفَّ له الناس فركب براحلته والخيل تمعج بين الخندمة إلى الحجون ومرَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه يسير يحادثه فمرّ ببنات أبى أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبى أحيحة وقد نشرن رؤوسهن يلطمن وجوه الخيل بالخُمر ، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فتبسم وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخُمر النساء

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها ومعه المسلمون تقدم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبَّر فكبَّر المسلمون بتكبيره حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم : اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته آخذ

(١ ، ٢) البخارى ٢/ ٥/ ١٨٨ .

(٣) المصدر نفسه / ١٨٩ .

بزمامها محمد بن مسلمة،وحول الكعبة ثلاثمائة صنم، وستون صنمًا فرصصته بالرصاص وكان هُبَل أعظمها وهو وجاه الكعبة على بابها وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح فجعل رسول الله ﷺ كلما مرَّ بصنم منها يشير بقضيب فى يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسراء] فيقع الصنم لوجهه)(١) .

٥ ـ (وفى لفظ لقفاه من غير أن يمسه وفى ذلك يقول تميم بن أسد الخزاعى :

ففى الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا

قال أئمة المغازى رحمهم الله تعالى : فطاف رسول الله ﷺ سبعًا على راحلته يستلم الركن الأسود بمحجنه فى كل طواف فلما فرغ من طوافه نزل عن راحلته .

وعند ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : فما وجدنا مناخًا فى المسجد حتى أنزل على أيدى الرجال ثم خرج بها قالوا :وجاء معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرج الراحلة فأناخها الوادى ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطَّلع فيها وقال : « لولا أن تُغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلوًا » فنزع له العباس بن عبد المطلب ويقال :الحارث بن عبد المطلب دلوًا فشرب منها وتوضأ ، والمسلمون يبتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون : ما رأينا ملكًا قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به .

وأمر بهُبل فكسر وهو واقف عليه فقال الزبير بن العوام لأبى سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كُسِر هُبل أما إنك كنت منه فى غرور حين تزعم أنه أنعم، فقال أبو سفيان:

دع عنك هذا يا بن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

ثم انصرف رسول الله ﷺ فجلس ناحية من المسجد والناس حوله :

(وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يوم الفتح قاعدًا وأبو بكر قائم على رأس رسول الله ﷺ بالسيف)(٢) رواه البزار .

٦ ـ روى محمد بن عمر عن عبد الله بن عمر وابن أبى شيبة عن أبى هريرة رضي الله عنه ومحمد بن عمر عن علقمة بن أبى وقاص الليثى رحمه الله تعالى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه يزيد بعضهم على بعض .

قال عبد الله : كان عثمان قد قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة مسلمًا مع خالد بن

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣١ ، ٨٣٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

الوليد ، وعمرو بن العاص قبل الفتح ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة ، فجاء بلال إلى عثمان فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتى بالمفتاح ، فقال : نعم هو عند أمى سلافة ، فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنه قال : نعم ، وأن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ رسولاً فجاء ، فقالت : لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدًا ، فقال عثمان : يا رسول الله ، أرسلنى أخلصه لك منها ، فأرسله ، فقال : يا أمَّه ، ادفعى إلىَّ المفتاح ، فإن رسول الله ﷺ قد أرسل إلىَّ وأمرنى أن آتيه به فقالت أمه : لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدًا . (وقالت : أعيذك بالله أن تكون الذى تذهب مأثرة قومه على يديه)[(1)] ، فقال عثمان : لا لات ولا عزى ، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنك إن لم تفعلى قتلت أنا وأخى فأنت قتلتينا ، فوالله لتدفعنَّه أو ليأتين غيرى فيأخذه منك ، فأدخلته فى حجزتها وقالت : أى رجل يدخل يده ها هنا ؟

قال الزهرى فيما رواه عبد الرزاق والطبرانى ، فأبطأ عثمان ورسول الله ﷺ قائم ينتظره حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول: « ما يحبسه ؟ فيسعى إليه رجل؟».

فبينما هى على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر رضي الله عنهما فى الدار ، وعمر رافع صوته حين أبطأ عثمان : يا عثمان اخرج ، فقالت أمه : يا بنى ، خذ المفتاح فإن تأخذه أنت أحبُّ إلىَّ من أن يأخذه تيم وعدى فأخذه عثمان فخرج يمشى به حتى إذا كان قريبًا من وجه رسول الله ﷺ عثر عثمان فسقط منه المفتاح فقام رسول الله ﷺ إلى المفتاح فحنا عليه بثوبه .

وروى الفاكهى عن ابن عمر أن بنى أبى طلحة كانوا يقولون : لا يفتح الكعبة إلا هم فتناول رسول الله ﷺ المفتاح ففتح الكعبة بيده .

وروى ابن أبى شيبة بسند جيد عن أبى السفر قال : (لما دخل رسول الله ﷺ مكة دعا شيبة بن عثمان بالمفتاح مفتاح الكعبة فتلكأ فقال لعمر : « قم فاذهب معه فإن جاء به وإلا فاجلد رأسه » فجاء به فأجاله فى حجره)[(2)] .

٧ ـ روى أبو داود وابن سعد ومحمد بن عمر واللفظ له أن رسول الله ﷺ أمر عمر ابن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر قد ترك صورة إبراهيم فلما دخل رسول الله ﷺ رأى صورة إبراهيم ، فقال : « يا عمر ، ألم آمرك ألا تدع فيها صورة ؟ قاتلهم الله جعلوه شيخًا

---

(١) جملة من المغازى للواقدى ٢/ ٨٣٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

يستقسم بالأزلام » ثم رأى صورة مريم فقال : « امسحوا ما فيها من الصورة ، قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون » .

وعند ابن أبى شيبة عن ابن عمر : (أن المسلمين تجردوا من الأزر وأخذوا الدلاء وانجروا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها فلم يدعوا أثرًا من المشركين إلامحوه وغسلوه)(١) .

قال : وحدثنى ابن أبى ذئب عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ الكعبة فرأى فيها صورًا فأمرنى أن آتيه فى الدلو بماء ، فيبُلُّ الثوب ويضرب به الصور ويقول : « قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون »)(٢) .

٨ ـ (قالوا : وأمر رسول الله ﷺ بالكعبة فغلقت عليه ومعه أسامة بن زيد وبلال ابن رباح وعثمان بن طلحة فمكث فيها ما شاء الله وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة قال ابن عمر : فسألت بلالاً كيف صنع النبى ﷺ حين دخل البيت ؟ قال : جعل عمودين عن يمينه وعمودين عن يساره وثلاثة وراءه ، ثم صلى ركعتين .

ثم خرج رسول الله ﷺ والمفتاح فى يده ، ووقف على الباب خالد بن الوليد يذُبُّ الناس عن الباب حتى خرج رسول الله ﷺ)(٣) .

(قال : فحدثنى على بن محمد بن عبيد الله عن منصور الحجبى عن أمه صفية بنت شيبة عن برة بنت أبى تجراة قالت : أنا أنظر إلى رسول الله ﷺ حين خرج من البيت فوقف على الباب وأخذ بعضًا إلى الباب ، فأشرف على الناس وبيده المفتاح ، ثم جعله فى كمه) (٤) .

٩ ـ (قالوا (٥) : فلما أشرف رسول الله ﷺ على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة فهم جلوس قام على بابه فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

يا معشر قريش ، ماذا تقولون ، ماذا تظنون ؟ » قالوا : نقول خيرًا ، ونظن خيرًا ، نبى كريم، وأخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿٩٢﴾ ﴾ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فخرجوا كأنما نشروا من قبورهم فدخلوا فى الإسلام ثم قال رسول الله ﷺ : « الا إن كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة (٦) يُدعى فهو تحت

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٣٥٨ ، ٣٥٩ . (٢) المغازى للواقدى ٢ / ٨٣٤ .

(٣، ٤) المصدر نفسه ٢/ ٨٣٥ .

(٥) قالوا : روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب والبخارى فى صحيحه عن مجاهد وابن أبى شيبة ، وابن إسحاق عن صفية بنت شيبة والبيهقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص (قالوا) انظر : سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٦٤ .

(٦) المأثرة : الخصلة المحمودة التى تُؤثر ويتحدث بها .

قدمى هاتين ، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة منها أربعون فى بطونها أولادها ، ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها كلكم لآدم وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية :

« ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات].

يا أيها الناس ، الناس رجلان ، فبرٌ تقى كريم ، وكافرٌ شقى هين على الله .

ألا إن الله تعالى حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ووضع هذين الأخشبين، فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى،ولن تحل لأحد كائن بعدى ،لم تحل لى إلا ساعة من نهار يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا ولا ينفر صيدها،ولا يعضد(١) عضاها (٢)، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى (٣) خلاها » (٤) فقال العباس وكان شيخًا مجربًا : إلا الإذخر(٥) يا رسول الله فإنه لابد لنا منه للقين (٦) وظهور البيوت، فسكت رسول الله ﷺ ساعة ثم قال : « إلا الإذخر فإنه حلال ولا وصية لوارث ، وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر (٧) ،ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها ،والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم وهم يرد عليهم أقصاهم،ويعقل عليهم أدناهم ،ومشدهم على مضعفهم،ومثريهم على قاعدهم،ولا يُقتل مسلم بكافر،ولا ذو عهد بعهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين،ولا جلب (٨) ولا جنب(٩) ،ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم(١٠) ،ولا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها،والبينة على المدعى واليمين على من أنكر،ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم،ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ،وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر وعن لبستين : ألا يحتبى (١١) أحدكم بثوب واحد يفضى بعورته إلى

(١) لا يعضد : لا يقطع .
(٢) عضاها : شجر شوكها .
(٣) يختلى : يقطع .
(٤) خلاها : الرطب من الحشيش فيها .
(٥) الإذخر : نبات معروف ذكى إذا جف ابيض .
(٦) القين : رواية الواقدى : للقبر .
(٧) للعاهر الحجر : الخيبة ولا يثبت له نسب أو الرجم .
(٨) لا جلب : لا يكلف رب الماشية بجلبها إلى الساعى على الزكاة .
(٩) لا جنب : أى يجنب رب المال بماله أى يبعده عن موضعه .
(١٠) الأفنية : جمع فناء وهى سعة أمام البيت .
(١١) احتبى بالثوب : اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه .

السماء ، وألا يشتمل الصماء»[1] .

فقام رجل فقال: يا رسول الله إنى قد عاهرت فى الجاهلية،فقال :« من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين لا يملكها ، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ، ولا يرث ولا يورَّث ، ولا إخالكم إلا عرفتموها ، يا معشر المسلمين كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر » ـ وهى الساعة التى أحلت لرسول الله ﷺ ولم تحل لأحد قبله ،ثم قال لهم :« كفوا السلاح» ـ فقام أبو شاة فقال : اكتب لى يا رسول الله،فقال:« اكتبوا لأبى شاة،أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم»)[2].

(قال الزهرى فيما رواه عبد الرزاق والطبرانى : ثم نزل رسول الله ﷺ ومعه المفتاح فتنحى ناحية من المسجد ، فجلس عند السقاية) .

وروى ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عبيدة : أن رسول الله ﷺ بعد خطبته عدل إلى جانب المسجد فأُتِى بدلو من ماء زمزم فغسل منها وجهه ما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان إن كانت قدر ما يحسوها حساها إلا مسح جلده ، والمشركون ينظرون فقالوا : ما رأينا ملكًا قط أعظم من اليوم ، ولا قومًا أحمق من القوم)[3] .

١٠ ـ (روى عبد الرزاق والطبرانى عن الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج من البيت قال على : إنا أعطينا النبوة والسقاية والحجامة فما قوم بأعظم نصيبًا منا ، فكره رسول الله ﷺ مقالته ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع المفتاح إليه وقال : غيبوه)[4] .

(وروى أيضًا عن سعيد بن المسيب قال : دفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة يوم الفتح وقال : خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة لا يظلمكوها إلا كافر) [5].

(وقال عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة : أن رسول الله ﷺ قال لعلى يومئذ حين كلمه فى المفتاح : « إنما أعطيكم ما تُرزؤون ولم أعطكم ما ترزؤون » يقول : أعطيتكم السقاية لأنكم تغرمون فيها ولم أعطكم البيت قال عبد الرزاق : أى أنهم يأخذون من هديته)[6] .

١١ ـ روى أبو يعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن هشام عن بعض أهل العلم والبيهقى وابن أبى شيبة والأزرقى ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ لما حانت الظهر

---

(١) اشتمال الصماء : أن يجلل جسده كله بكساء أو إزار لا يرفع شيئًا من جوانبه ، والفقهاء يقولون : هو أن يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبه فتنكشف عورته .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٦٤ ، ٣٦٥ . (٣) المصدر نفسه ٥ / ٣٦٦ .

(٤ ـ ٦) المصدر نفسه ٥ / ٣٦٨ .

أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة ليغيظ بذلك المشركين وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فرَّ جماعة من وجوههم وتغيبوا وأبو سفيان بن حرب وعتاب وفي لفظ ابن أبي شيبة خالد بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ـ وأسلموا بعد ذلك فقال عتاب أو خالد بن أسيد :لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون يسمع هذا فيسمع ما يغيظه ، وقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا وقال بعض بني سعيد بن العاص : لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة ،وقال الحكم بن أبي العاص : هذا والله الحدث العظيم أن يصبح عبد بني جمح على بنية أبي طلحة .

(وقال الحارث بن هشام : إن يكن الله تعالى يكرهه فسيغيره ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « قد علمت الذي قلتم » فقال الحارث وعتَّاب ، نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك)(١) .

١٢ ـ روى الإمام أحمد والبيهقي عن الأسود بن خلف رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح قال : جلس عند قرن مسفلة فبايع الناس على الإسلام فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله)(٢) .

١٣ ـ (روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأم هانئ يوم الفتح: « هل عندك من طعام نأكله ؟ » قالت : ليس عندي إلا كسر يابسة وإني لأستحيي أن أقدّمها إليك ، فقال : « هلمي بهن » فكسَّرهن في ماء وجاءت بملح ، فقال : « هل من أدم ؟» فقالت : ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خل ، فقال : « هلميه » فصب عليه الطعام وأكل منه ثم حمد الله ثم قال : « نعم الأدُم الخل ، يا أم هانئ لا يفقر بيت من أدم فيه خل »)(٣) .

١٤ ـ قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح،فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: « أفضالة ؟ » قال : نعم ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خُلق شيء أحب إليَّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ، قال : فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ،

(١ ـ ٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧١ ـ ٣٧٣ .

فقالت : هلم إلى الحديث ، فقال : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت :هلم إلى الحديث فقلت :لا   يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمدًا وقبيله   بالفتح يوم تكسّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيّنًا   والشرك يغشى وجهه الإظلام

ذكره أبو عمر فى الدرر ولم يذكره فى الاستيعاب وهو على شرطه ، وذكره القاضى فى الشفاء بنحوه) [1] .

أولاً : تحطيم الوثنية

بضع ساعات من عمر البشرية تعدل عمر البشرية كله ، نحياها مع رسول الله ﷺ فى أعظم ساعات النصر الربانى وفى جوانب مكة المكرمة وفى البيت العتيق .

١ ـ فى قلب مكة :

مكث رسول الله ﷺ فى منزله ساعة من النهار حتى اطمأن الناس فاغتسل ، ثم دعا براحلته القصواء فأدنيت إلى باب قبته ،وعاد للبس السلاح والمِغفر على رأسه . فتشريفًا وتعظيمًا لمكة ولبيت الله الحرام ، يغتسل ﷺ ويتهيأ لدخولها ، واختار ﷺ أن يخرج على ناقته القصواء حتى يراه الناس جميعًا ، ويراهم واختار أن يعود إلى لبس السلاح فهو فى حالة حرب ، وقد فتح مكة بقوة جيش الله وحزب الله فهو هنا القائد العسكرى الذى يعلن بعد لأى نهاية هذه الحرب مع قريش أعدى العدو ، وها هو يخرج من بيته .

(وقد حفَّ الناس به ، فركب راحلته ، والخيل تمعج بين الخندمة إلى الحجون ، ومر رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر الصديق يسير معه يحادثه) .

لقد كان آخر عهده بمكة ، وقبل عمرة القضاء أن مضى فى الهاجرة إلى بيت أبى بكر الصديق فى ساعة مبكرة لم يكن يأتى فيها أحد لأحد ، وخرج مستخفيًا مع أبى بكر من خوخة له فى بيته ، وقد أهدر دمه ، وعاد قبل أقل من عام ضمن سلطان مكة وطواغيتها الذين يحكمون ، وأصنامها المقدسة ، عاد ليعتمر مع ألف وأربعمائة من أصحابه ، أما اليوم فها هو يمضى فى مكة تحف به الناس من كل جانب وقد اختفى الطواغيت فى بيوتهم أو فروا خارج مكة ، أو أووا إلى الجبال يشهدون من هناك الفاتح العظيم ، وخلت مكة من الرجال ، فلا شىء إلا النساء ناشرات شعورهن ، وقد رحن يلطمن النساء بخمرهن .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧١ ـ ٣٧٣ .

إنه التاريخ يعيد نفسه قبل ثمانية أعوام مضى فى شوارع مكة مع صاحبه أبى بكر والدنيا كلها ضده ليس معه إلا هذا الصاحب وها هو اليوم يتحادث مع أبى بكر فى شوارع مكة وخيل المسلمين تمعج بين الخندمة والحجون تبحث عن قتال فلا تجده ، ونسوة مكة يقارعن الخيل بالخمر ويبتسم رسول الله لصاحبه الصديق ، وذكريات الماضى كله تنثال عليه ، ويستعيد بيت حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو يتحدث عن هذه الصورة الحية التى كانت خيالاً شعريًا ، فغدت واقعًا حيًا .

تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء

ونسوة بنى أحيحة هؤلاء قد كان أبوهم أعز أهل مكة وأشرس المشركين فى حرب الإسلام والمسلمين وحين نزل به المرض نذر لله :

لئن أقامنى الله من مرضى لا يعبد إله أبى كبشة فى مكة .

ومضى أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية وهؤلاء أولاده الشباب جميعًا جنود فى الصف الإسلامى إبان بن سعيد بن العاص ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وعبد الله بن سعيد بن العاص .

وقبل أقل من عامين كان أبان بن سعيد من طواغيت مكة ومن أبطالها المحاربين لمحمد وهو الذى أجار عثمان بن عفان وأركبه خلفه وقال له :

أقبل وأدبر لا تخف أحدًا ... بنو سعيد أعزة الحرم

وهؤلاء بنو سعيد أعزة الحرم اليوم فى ظل اللواء الإسلامى الخفاق ، لواء لا إله إلا الله وحده ، وقد نكست رايات قريش ، وفر فرسانها العظام المقاتلون الذين جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ .

وفـــر صفـــوان وفـــر عكرمـه ... وأبـو يـــزيد قائـــم كالمـــوتمـه
وقطعتنـــا بالســـيوف المســـلمه ... يقطعـن كـل ســـاعـد وجمجمـه

لهـــم نهيـت خلفنـــا وغمغمـــه

وسعد بن عبادة الذى كان يجرجر فى شوارع مكة قبل ثمانية أعوام ها هو اليوم يحمل ابنه راية الإسلام ، راية النبى ﷺ ، وينظر إلى نساء مكة الثكلى واليتامى والجرحى والأيامى فيراهن فى أسوأ حالاتهن فيقول : (قد كان يذكر لنا من نساء قريش حسن وجمال ما رأيناهن كذلك ، فغضب عبد الرحمن بن عوف حتى كاد أن يوقع بسعد وأغلظ له ، ففرّ منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من

عبد الرحمن؟ فقال: « وماله ؟» فأخبره بما كان، فغضب ﷺ حتى كاد وجهه يتوقد ثم قال:

« رأيتهن وقد أصبن بآبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن ، خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد ، وأبذله لزوج بما ملكت يد » (١) .

٢ ـ عند الكعبة المشرفة :

وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدخل البيت الحرام ويمضى إلى الركن إلى الحجر الأسود ، هذا الحجر الذى وضعه بيده الشريفة قبل خمسة وعشرين عامًا حين كادت تقع الحرب فى قريش حوله فزعم أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسنَّ قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا به هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : « هلمَّ إلى ثوبًا » فأُتى به ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده »(٢) .

كان هذا حين كان قومه من أهل مكة يعرفونه ، أما الآن وهو يشير بمحجنه إلى الركن ، ويكبر (فكبر المسلمون بتكبيره فرجَّعوا التكبير ، حتى ارتجت مكة تكبيرًا) ولأول مرة فى تاريخها يتجلجل فيها هذا النداء العظيم والتكبير (حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون وطاف رسول الله ﷺ بالبيت آخذ بزمام الناقة محمد بن مسلمة) .

٣ ـ أعظم انقلاب فى مكة :

إنه طواف لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية ، لقد مضى على الوثنية فى مكة أكثر من ألف عام ، وها هى تستفحل وتستفحل حتى ليرتفع عدد الأصنام فى الكعبة إلى ثلاثمائة وستين صنمًا ، وولدت البشرية من جديد ، وجاء فجرها السعيد على يد سيد الوجود محمد ﷺ (وفى يده قوس وقد أخذ بسية القوس فجعل رسول الله ﷺ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن فى عينه ويقول: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]، فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه، وفى لفظ: لقفاه من غير أن يمسه.

ها هى الآلهة تتحطم وتنهار فمن يثأر لها ويثور ويقول : حرِّقوا محمدًا وانصروا الآلهة ، أين أبو جهل عمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأمية

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/٣٩٧ والحديث فى مسلم ٤ / ١٩٥٨ ح (٢٠٢ / ٢٥٢٧) .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٩٧ .

ابن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، وسعيد بن العاص ، وعتبة بن ربيعة ؟ أين هؤلاء الملأ الذين أخرجوا رسول الله ﷺ من مكة لأنه ينال من آلهتهم ويسفّه أحلام من مضى من آبائهم حين كانوا يعبدونها ؟ أين الجماهير الثائرة للآلهة ؟ إما أغلقوا عليهم أبوابهم ذعرًا وخوفًا على حياتهم ، وإما التجؤوا إلى بيت أبى سفيان الذى وقع وثيقة الاستسلام والإسلام عن قومه جميعًا ، وإما اندسوا فى الحرم بين الناس فمن دخل المسجد فهو آمن لا يجرؤ واحد منهم أن يرفع صوته ، أو يعلن احتجاجه ، أو فروا إلى رؤوس الجبال ، يشهدون تحطيم آلهتهم التى عاشوا على تقديسها والذبح لها والصلاة لها تقربًا وزلفى إلى الله .

أين هؤلاء جميعًا والجمع الإسلامى الهادر الذى يكبر وهو يرى تكسّر الأصنام بمعجزة ربانية بطعنة من محجن أو طعنة بسية القوس فيهوى وفيها ما هو مرصع بالرصاص فيذوب الرصاص ويتحطم الصنم؟ إنه عيد البشرية اليوم أن انتكست الوثنية وتهاوت آلهتها وأصنامها لا تدفع عن نفسها شيئًا ولا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا ، ولا تملك لغيرها ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا .

لقد كان عليه الصلاة والسلام يكره هذه الآلهة منذ نعومة أظفاره ، ويرفض تقديسها مع قومه ، ويرفض حضور أعيادهم للذبح للآلهة والقربان لها وأمضى عمره حتى الأربعين من عمره لا يقر لها بقدسية ولا يقدم لها نسكًا ولا يكره شيئًا كراهته لها ، وكان الوحى والبعث وكانت الرسالة ، وكانت الحرب الفكرية على الآلهة والمهاجمة العلنية والتى استمرت ثلاثة عشر عامًا لا يهدأ لها أوار حتى انتهت بإخراجه عليه الصلاة والسلام من مكة ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] .

وكاد ﷺ أن يدفع حياته ثمنًا لهذه المعركة الفكرية ضد الوثنية وأنقذه الله تعالى من كيدهم ومكرهم وتحولت الحرب الفكرية إلى حرب فعلية ومضت ثمانية أعوام حتى آن أوان لقطف ثمارها فى هذه اللحظة والأصنام تكسر وكل عبادها خزايا نادمين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء .

وكان الحدث الأضخم وذروة نصر هذا الدين يوم أن جاء عليه الصلاة والسلام ليكسر إله الآلهة هُبَل أعظم أصنام مكة الذى كان وجاه الكعبة ، (وأمر بهبل فكُسِر وهو واقف عليه) ها هو يهشم وجهه ، فلا من معترض ، ويسحق بالأقدام فلا من ثائر ، هُبل نفسه الذى أعلن أبو سفيان انتصاره يوم أحد حيث أوفى على رأس الجبل وهو يقول فى أول إعلان للنصر : اعل هُبَل .

فيأتى الجواب له من عمر بن الخطاب على لسان رسول الله ﷺ: الله أعلى وأجل، ثم يأتى نائب الإله الأكبر ونائباه اللات والعزى يأتى ليفخر بنصر عزاه قائلا :

لنا العزى ولا عزى لكم ، فيأتيه جواب الجيش الصامد الجريح بلسان قائده الحبيب وبإعلان عمر رضي الله عنه الله مولانا ولا مولى لكم .

ويمر عامان ، ويجيش أبو سفيان الجيوش ويفاجأ بالخندق ، فيتميز غيظًا من محمد وأصحابه ويكتب له: باسمك اللهم فإنى أحلف باللات والعزى لقد سِرتُ إليك بجمعنا، وإنا نريد أن لا نعود إليك أبدًا حتى نستأصلك . . . فإن نرجع عنكم فلكم منا كيوم أحد تُبقر فيه البطون .

أما جواب النور الهادى للبشرية لأبى سفيان قائد جيش الشرك فكان : « . . وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهُبل حتى أذكرك ذلك » .

وأزفت الآزفة وآن الأوان ، وهذا إساف ونائلة يكسران ، وهذا هبل يحطم ، فأين أبو سفيان ها هو أبو سفيان يرى بأم عينيه تحطم هبل ، وإساف ، ونائلة كما ذكر ذلك له رسول الله ﷺ ويذكره الزبير رضي الله عنه قائلاً :

يا أبا سفيان ، قد كسر هُبَل أما إنك قد كنت منه يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه أنعم ، قال أبو سفيان : دع عنك هذا يا بن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان ، ألف عام خلت أو تزيد ، وغضب الله تعالى على المشركين قائم ، من أجل ذلك الإله البشرى الذى عبدوه من دون الله،من أجل عمرو بن لحى الخزاعى.

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدّثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى: « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قُصبه[1] فى النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه » ، فقال أكثم : عسى أن يضرَّنى شبهه يا رسول الله ؟ قال : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيَّب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى »)[2] .

وقال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم :

أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ـ وهم ولد عملاق ـ يقال :عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ،

---

(١) قُصْبه : وهى الأمعاء .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٧٦ ونحوه فى مسلم ٤/ ١٩٢ ، ح (٥١/ ٢١٢٨) .

رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنمًا ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنمًا يقال له: هبل ، فقدم به مكة فنصبه رأمر الناس بعبادته وتعظيمه)(١) ، وهكذا كان هبل أقدم أصنام العرب .

ويقال : إنه أول ما كان من أمر عمرو هذا فى عبادة الأصنام : أنه كان حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جُرهم عن مكة ، جعلته العرب ربًا لا يبتدع لهم ببدعة إلا اتخذوها شِرعة ؛ لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم ، فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكانت هناك صخرة يلتِ عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف ، وكانت تسمى صخرة اللات (أى الذى يلتُّ العجين) فلما مات هذا الرجل قال لهم عمرو : إنه لم يمت ، ولكن دخل فى الصخرة ، وأمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتًا يسمى اللات)(٢) .

ويصف ابن الكلبى هبل بقوله : (وكان هبل أعظم أصنام العرب التى فى جوف الكعبة وحولها ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدًا من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر ، وكان يقال له : هُبل خزيمة ، وكانت تضرب عنده القداح)(٣) .

أما إساف ونائلة فيمثلان أبشع صورة من صور حمق العرب وجاهليتها الجهلاء وضلالتها العمياء .

قال ابن إسحاق : واتخذوا إسافًا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندها ، وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة من جُرهم - هو إساف بن بغى ، ونائلة بنت ديك - فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين)(٤) .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنها قالت : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : (ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جُرهم أحدثا فى الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجرين)، والله أعلم .

وها هو إساف ونائلة اللذين جاء أبو سفيان وتبرك بهما وذبح عندهما وتمسح بهما وقال لهما : لا أفارق عبادتكما حتى أموت بعد أن عاد من مهمته الخاسرة من مكة،ها هو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٧٧ .
(٢) الروض الأنف للسهيلى م١/ ١/ ١٠٢ .
(٣) الأصنام لابن الكلبى .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٨٢ .

يراهما يتهشمان ويداسان بالأقدام ، فلا يغضب لهما أحد .

إنه أعظم انقلاب فى تاريخ البشرية حين تحطمت الوثنية والأصنام وأعلن إبليس لجنده فى الأرض :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكن رضى ما دون ذلك ، فيما تحقرون من أعمالكم » .

٤ ـ محاولة الاغتيال :

ولعل فضالة بن عبيد الليثى الذى رأى الفرصة مواتية ليثأر للأصنام المقدسة ، ويثأر للآلهة المهشمة ، واقترب من رسول الله ﷺ ليغتاله ، لعله لو نجح فى ذلك لأصبح رمزاً للعرب والوثنية مثل عمرو بن لحى، واعتبر هذا المقتل هو ثأر الآلهة من الذين كفروا بها، واقترب وفى ذهنه تلك الأحلام الوردية من المجد الذى سيمضى به فى قومه بنى بكر ثم قريش ثم العرب قاطبة أن يقتل محمد بن عبد الله الذى حطم الطواغيت والأصنام والمقدسات والآلهة ، وها هو يقترب أكثر فأكثر ، فتأخذه الرعدة ولقد أخذت الرعدة قبله من هو أجرأ منه ، فرعون هذه الأمة أبى جهل حين أراد اغتيال رسول الله ﷺ فرأى فحلاً من الإبل لم ير مثل هامته وأنيابه قط ، لو هم رمى أبو جهل بحجره لا تبلغ أبا جهل ، وهذه إحدى المحاولات التى لم تنقطع من الاغتيال تبرز لنا واضحة بهذا الجلاء.

قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم ، قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال: لا شيء كنت أذكر الله فضحك رسول الله ﷺ ثم قال :« استغفر الله »، ثم وضع يده على صدره فسكن، ولنسمع إلى فضالة الجديد الذى دخل معمل التغيير، بهذه اللمسة النبوية العظيمة فغيرت كل تكوينات ذراته فى بناء جديد وإنسان جديد يقول: (والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خُلق شيء أحب إلىَّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ليكون الإيذان الجديد بتكسير الأصنام لصديقة عمره التى دعته إلى الحديث الشجى والخلوة اللذيذة والنشوة العارمة فجاءها فضالة الجديد بإيمانه الجديد بيقينه ، وقد عمر الإيمان صدره وقد ملأ حب محمد ﷺ كل ذرة من ذرات كيانه بهذه اللمسة ، فقال :

قالت: هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لـو ما رأيت محمـدًا وقبيلـه ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّنًا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

٥ ـ الصلاة أمام مقام إبراهيم :

وانتهى عليه الصلاة والسلام من الطواف ، وأنهى عهدًا بائدًا مر عليه قرابة ألفى عام

وأمر مناديه ينادي بمكة :

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره .

ومضى عليه الصلاة والسلام بعد الطواف (ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه ، فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطَّلع فيها وقال : « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلوًا » فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوًا فشرب منه وتوضأ، والمسلمون يبتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصيبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون : ما رأينا مَلِكًا قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به) .

ومضى رسول الله ﷺ إلى مقام إبراهيم وهو لاصق بالكعبة فصلى ركعتين .

إنها النبوءة الكبرى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فها هنا اتصل التاريخ واختُصر الزمان والمكان وطويت الأرض وطوى الليل والنهار فهذا مقام إبراهيم حيث كان أثر قدمه فيه في بناء الكعبة ، وها هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام يتلقى موعود الله له :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾

[البقرة]

وها هو ﷺ يتخذ من مقام إبراهيم مصلى ، وها هو يطهر البيت الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود ، يطهره من أوضار الوثنية وأقذارها ، ويهيئ لهذا الجيل العظيم خيرة أجيال البشرية ليصلي لله قائمًا وراكعًا وساجدًا .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾

[البقرة]

لقد استمر هذا المتاع القليل ما ينوف عن ألف عام ، وتلك الأجيال المرتدة الكافرة إلى جهنم وبئس المصير .

ويمضي الزمن بإبراهيم وإسماعيل حيث يبلغ إسماعيل السعي ويناهز الطفولة ليشارك مع أبيه إبراهيم في بناء البيت على قواعده الأولى : **﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً**

مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة] .

واستجاب الله دعاء أبى الأمة المسلمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ووهب له من ذريته من إسماعيل أمة مسلمة بقيت على هدى الله وملة إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحى فغير الدين ، واتخذه الناس ربًا من دون الله فأحل لهم الحرام وحرَّم لهم الحلال، وآن الأوان لاستجابة الله عز وجل للدعوة الأخيرة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة] .

وحقق الله تعالى موعود نبيه إبراهيم بابنه محمد ﷺ بعد آلاف الأعوام ، وكان أهل السموات والأرض ينتظرون قدوم هذا النبى الذى يتلو على هؤلاء العرب الأميين آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وبقيت البشرية تئن من أوجاعها ووثنيتها وشركها ، حتى جاء نبى النبيين الذى أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين بالإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران] .

وها هو نبى الملحمة ، ونبى المرحمة ، ونبى النبيين ، قد وقف يصلى عند مقام أبيه إبراهيم وأعلن للدنيا قوله : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى » .

وها هى مكة التى حاربته عشرين عامًا تعلن استسلامها وهو فى ساحة المسجد الحرام لا يجد مناخًا لناقته ، فيُتلقى على الأكف (فما وجدنا مناخًا فى المسجد حتى أُنزل على أيدى الرجال ، وذلك بعد أن انتهى طوافه بالبيت العتيق ، وأنهى بطوافه تاريخ الوثنية النتن فى مكة المكرمة وكسر هُبَل أمام عباده وسدنته وجاء وعد الله كما كان يردد عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء] ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ] .

٦ ـ ورى من ماء زمزم :

(ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة والدرع والمغفر ، وعمامته بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى ماء زمزم فاطلع فيها وقال : « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلوًا » فنزع له العباس بن عبد المطلب ، ويقال : الحارث بن عبد المطلب دلوًا ، فشرب منه .

إنها بئر أبيه إسماعيل وفى ذلك يشترك مع جميع أولاد إسماعيل فيها ، لكنها غاضت فترة طويلة من الزمن إلى أن ألهم الله تعالى جده عبد المطلب بحفرها ثانية لتسقى الحجيج الأعظم .

(قال ابن إسحاق : وكان أول ما ابتُدئ به عبد المطلب من حفرها كما حدثنى يزيد ابن أبى حبيب المصرى[1] ، عن مرثد بن عبد الله اليزنى[2] ، عن عبد الله بن زرير الغافقى[3] أنه سمع على بن أبى طالب رضي الله عنه يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها قال : قال عبد المطلب :

إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال : احفر طيبة ، قال :قلت : وما طيبة ؟ قال: ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر بَرَّة، قال :قلت : وما برة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر المضنونة ، قال :قلت : وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر زمزم ، قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل)[4] .

(فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين إساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها ، فجاء بالمعول ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جدَّه فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذَيْن تحفر عندهما ، فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُد عنى حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرتُ به ، فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر [5] ، ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج)[6] .

فسقاية الحاج وإن كانت ابتداء من اختصاص بنى عبد مناف حين وزعت مآثر مكة ، وكانت السقاية من آبار خارج الحرم ، لكن زمزم هى من اختصاص عبد المطلب وبنيه ، ورسول الله ﷺ هو من بنى عبد المطلب لكنه رسول البشرية كافة ، وخشى إن هو نزع دلواً من ماء زمزم أن يرى المسلمون جميعًا حقًا لهم فى ذلك فى انتزاع الدلاء اقتداء بنبيهم محمد عليه الصلاة والسلام مهما امتد الزمان والمكان ولهذا قال رسول الله ﷺ :

« لولا أن تُغلب بنو عبد المطلب لنزعتُ منها دلواً » ، وترك النزع لبنى عبد المطلب

---

(١) ثقة فقيه من الخامسة .

(٢) ثقة فقيه من الثالثة .

(٣) ثقة رمى بالتشيع .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ١٤٢، ١٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ١/ ١٤٦ .

(٦) المصدر نفسه ١/ ١٤٧ .

حيث قام بذلك عمه العباس ﷺ فشرب منه .

وها هى زمزم تمتد عبر الآماد والآفاق حتى يومنا هذا فتسقى الحجيج الأعظم الذى يفد إلى بيت الله الحرام .

(وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم . . .) .

فكل قطرة من وضوء الحبيب المصطفى ﷺ حق يقتتل عليه المسلمون جميعًا لينالوا بركته،بل قل : كل ذرة من كل قطرة ماء توضأ بها المصطفى ﷺ هى حلم يود كل مسلم أن يصل إليه .

حق لقريش وهى ترى هذا الاقتتال ، وهذا الازدحام على وضوئه أن تقول :

(ما رأينا ملكًا قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به) .

فالطغاة والجبارون يستطيعون أن يتحكموا بأجساد الناس ويقودونهم إلى قتال أعدائهم أما الأنبياء والهداة فى الوجود ، فيتعاملون مع قلوب الأمة ، ومن الذى يضطر المسلمين أو يجبرهم على الاقتتال على وضوئه ﷺ إنه الحب الدفين الذى يملأ كل ذرة فى كيانهم أما المشركون الذين لم يؤمنوا بعد بنبوة محمد وحاربوه وطردوه وأرادوا اجتثاثه بأخذهم العجب ولا شك بهذا الاقتتال ، ويعرفون أنه لا شيء إلا الحب ، وقد سمعوا بملوك الأرض فما رأوا وما سمعوا بمثل هذا الحب :

(ما رأينا ملكًا قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به) .

٧ ـ داخل البيت العتيق :

أ ـ قبل الدخول :

(عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما من الأزلام فقال النبى ﷺ : « قاتلهم الله ، لقد علموا ما استقسما بها قط »)(١) .

(ووقع فى حديث جابر عند ابن سعد وأبى داود أن النبى ﷺ أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذى أخرجها)(٢) ، والذى يظهر أنه محا ما كان من الصور مدهونًا وأخرج ما كان مخروطًا ، وأما حديث أسامة أن النبى ﷺ دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها وقد نفذ فى الحج ، فهو محمول على أنه بقيت بقية خفى

(١) فتح البارى للعسقلانى ٨/ ١٦ ح (٤٢٨٨) . (٢) المصدر نفسه ٨/ ١٧ .

على من محاها أولاً).

إنها الحرب على الوثنية بجميع صورها وأشكالها ، ما دق منها وما عظم ابتداء من هُبَل وانتهاء بالصورة المرسومة على جدران الكعبة ، بل قام المسلمون جميعًا ، وألقوا أزرهم ومضوا يمحون بالماء كل آثار الوثنية والشرك ، فكلما تكسر أصنام البيوت وتكسر أصنام الكعبة فتكسر الصور المجسدة ، وتطمس الصور المرسومة ويبقى بيت الله تعالى خالصًا له وحده ، وليس فيه صورة لأحد حتى ولا لإبراهيم بانيه ، ولا لإسماعيل شريكه فى رفع قواعد البيت العتيق .

إن عملية التربية لا يكفى فيها الأوامر الصادرة ، وإن قضية التوحيد لله وحده لا يكفى فيها التوجيهات النظرية فلابد لهذا الجيش المسلم ولهذه القاعدة العريضة ولكل من دخل فى دين الله أن يعلم أن الشرك محرم بجميع صوره ، وجميع مظاهره وجميع دلالاته وهذه القضية لا تحمل المهادنة قط ولا تحمل المساومة قط ، وذلك عندما يغدو المسلمون قادرين على ذلك .

لقد صمتوا على هذه المظاهر وطافوا فى ظلالها فى عمرة القضية لأن السلطان للمشركين ، ولم يكن يعنيهم إزالتها فى ذلك الوقت أو الحوار على التخفيف منها كحل وسط على الطريق أو دخلت فى بنود صلح الحديبية أما وقد سقط سلطان طواغيت مكة وفتحت مكة لرسول الله ﷺ فلا مجال لمراعاة أحد ، ولا مساومة أحد ، ولا الخوف من غضب الجماهير الحاقدة المؤمنة بهذه الأصنام والتماثيل .

فكل مسلم فى هذا الجيش يرى بعينه رفض رسول الله ﷺ دخول أول بيت أقيم لله فى الأرض ، وأقدس بيت فى الأرض ، قبل أن تمحى منه معالم الوثنية وآثارها ، ورأى المسلمون رسول الله ﷺ وهو يزيل بيده صورة أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل ، ووضح لهذه القاعدة العريضة أن الأمر الأول هو أمر العقيدة فطواغيت الأرض ، وكبار مجرمى مكة يمكن أن يكون موضوع قتلهم مجال حوار ، ومجال شفاعة ، ومجال رجاء أما مظاهر الشرك والوثنية فلا؛ لأن دولة المبادئ لا ترضى لنفسها حوارًا حول مبادئها ومجالاً على حساب هذه المبادئ ، ودولة العقيدة ترفض الازدواجية ، والمجاملة بين العقيدة والشرك ، لقد رفضها رسول الله ﷺ وهو فرد أعزل وحيد مستضعف ، وقال للمشركين كما علمه ربه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون] .

وها هو يرفضها عليه الصلاة والسلام أمام صناديد قريش وأبطالها ، وسدنتها ، وعابديها ، وأربابها رفضها أمام هؤلاء جميعًا حين غدا قادرًا على إزالتها ومحوها أو طمسها.

ب ـ مفتاح البيت وعثمان بن طلحة :

والظاهر أن المفتاح أعيد لعثمان بن طلحة رضي الله عنه بعد إزالة الصور والتماثيل من الحرم، وها هو عليه الصلاة والسلام قد توضأ وتجهز لدخول بيت الله الحرام فطلب المفتاح من عثمان ، وكانت القصة الطريفة فى ذلك والتى رواها محمد بن عمر عن عبد الله بن عمر وابن أبى شيبة عن أبى هريرة قال عبد الله : كان عثمان قد قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة مسلمًا مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل الفتح ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة فجاء بلال إلى عثمان فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتى بالمفتاح فقال : نعم ، هو عند أمى سلافة ، فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنه قال نعم وأنه عند أمه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ رسولاً فجاء ، فقالت : لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدًا .

وكيف تدفع سلافة المفتاح إلى قاتل الأحبة ، فيصبح بيد محمد بن عبد الله ، إن الشجى فى حلقها من مقتل ولديها لما يزل كما هو وما تزيده الأيام إلا قوة .

وكان ذلك يوم أحد (وقاتل عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح فقتل مسافع بن طلحة، وأخاه الجلاس بن طلحة وكلاهما يشعره سهمًا فيأتى أمه سلافة فيضع رأسه فى حجرها فتقول : يا بنى من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلاً حين رمانى وهو يقول : خذها وأنا ابن أبى الأقلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك)[1] .

وتدخل عثمان بن طلحة قائلا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أرسلنى أخلصه لك منها ، فأرسله ، فقال : يا أمه ادفعى إلىَّ المفتاح فإن رسول الله قد أرسل إلى وأمرنى أن آتيه به .

(فقالت أمه : أعيذك بالله أن تكون الذى تذهب مأثرة قومه على يديه)[2] ، لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدًا ، فقال : لا لات ولا عزى إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنك إن لم تفعلى قتلت أنا وأخى فأنت قتلتينا ، فوالله لتدفعنه أو ليأتين غيرى فيأخذه منك ، فأدخلته فى حجزتها وقالت : أى رجل يدخل يده ها هنا ؟) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م٣/ ٧٤ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣٣ .

إنها لا تزال تعيش حياة الجاهلية ولا تدرى أن الكون قد شارك المصطفى ﷺ فرحته بزوالها ، ولا تزال القضية فى ذهنها أن الحجابة لبنى عبد الدار ، فأن يأتى غلام بنى هاشم ليغتصب هذه المأثرة من قومها سوف تراق الدماء لذلك وتهيج الحروب ، ألم يتم ذلك من قبل ؟ وانقسمت قريش إلى المطيبين والأحلاف ، وكادت أن تهيج حرب تدمر الفريقين لولا تدخل العقلاء من الفريقين وتقسيم المآثر بين بنى عبد مناف وبنى عبد الدار، وبنو عبد مناف اليوم يعتدون ويريد محمد بجيشه أن يأخذ مفتاح الكعبة، فكيف تسلم له؟

(قال الزهرى فيما رواه عبد الرزاق والطبرانى ، فأبطأ عثمان ورسول الله ﷺ قائم ينتظره حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق ، ويقول : « ما يحبسه ؟ فيسعى إليه رجل » .

فبينما هما على ذلك رأى عثمان وأمه ، وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر رضي الله عنهما فى الدار وعمر رافع صوته حين أبطأ عثمان ، يا عثمان اخرج ، فقالت :

يا بنى خذ المفتاح ، فإن تأخذه أنت أحب إلى من أن تأخذه تيم وعدى ، فأخذه عثمان فخرج يمشى به حتى إذا كان قريبًا من وجه رسول الله ﷺ عثر عثمان فسقط منه المفتاح ، فقام رسول الله ﷺ إلى المفتاح فحنى عليه بثوبه) .

(وروى الفاكهى عن ابن عمر : أن بنى أبى طلحة كانوا يقولون : لا يفتح الكعبة إلا هم ، فتناول رسول الله ﷺ المفتاح ففتح الكعبة بيده) .

ولم نبعد ونتحدث عن أم عثمان بن طلحة ولا نعود بالذاكرة سنين إلى الوراء مع عثمان بن طلحة رضي الله عنه نفسه وندع هذه الذكريات لعثمان يقول فيما رواه ابن سعد عن إبراهيم بن محمد العبدرى، ومحمد بن عمر عن شيوخه، قالوا : قال عثمان بن طلحة:

لقينى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعانى إلى الإسلام فقلت: يا محمد العجب لك حيث تطمع أن أتبعك وقد خالفت دين قومك وجئت بدين محدث (١) .

فهو لم يكن يرضى لنفسه الجرأة على الحديث معه ، ولم تكن تلك الثارات والدماء بينهما ، وأين مقام محمد فى قريش آنذاك من مقام عثمان بن طلحة فعثمان من سدنة البيت المعترف بهم والمقرين لهم بالحجابة ، ومحمد ﷺ يحاربه الملأ من قومه ، ويرمونه بالشعر والسحر والجنون .

(... فأقبل يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت عليه ونلت منه) .

وهى فرصة مواتية أن يشارك قومه فى النيل من محمد وإيذائه ، وذلك حين أراد

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

الدخول عن البيت الذى يملك عثمان مفتاحه ، ويجد لذلك لذة فى النيل منه .

(.. فحلم عنى ثم قال :

« يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت » .

فقلت : لقد هلكت قريش وذلت ، قال : « بل عمرت يومئذ وعُزت » .

ودخل الكعبة .

لقد كان عثمان بن طلحة سليل المعدن النفيس يعرف الرجال، وها هو يتلقى أول درس فى التربية من محمد ﷺ الذى يتلذذ فى إيذائه وكان هذا الدرس هو فى حلمه عنه، وترفعه على هذه السفاسف ومضى ﷺ صُعُدًا بعثمان بحيث يوسّع آفاقه بأن هذا المفتاح سيكون يومًا بيد محمد ﷺ ، فاهتز كيان عثمان وأعطت التربية مفعولها وثمرتها المقصودة

(.. فوقعت كلمته منى موقعًا فظننت أن الأمر سيصير كما قال ..)[1] .

وازداد إعجاب عثمان رضي الله عنه بحلم محمد وعقله وخلقه وفهمه بالإسلام .

(فأردت الإسلام فإذا قومى يزبروننى زبرًا شديدًا) .

ثم وجد المتنفس بعد ذلك حين دعاه خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الإسلام وهو يائس منه ؛ لأن أباه وأعمامه وإخوته قتلوا جميعًا فى أحد فى حربهم لمحمد ﷺ غير أن طيب الأصل ونفاسة المعدن كان يتوهج فى داخله فيصهر كل نداءات الثأر فى قلبه حيث يعطينا خالد رضي الله عنه فى رواية إسلامه مجهرًا أضاء به ذلك المعدن إذ يقول :

(وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تُخرج إلىَّ فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان ابن طلحة ، فقلت : إن هذا لى لصديق ولو ذكرت له ما أريد ، ثم ذكرت من قُتِل من آبائه فكرهت أذكّرَه ، ثم قلت : ومَاذا على وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت :

إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر ، لو صُبَّ عليه ذنوب من ماء لخرج ، وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبيه فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى بفج مناخة) .

فإذن كان يتهيأ رغم كل ثاراته للغدو إلى محمد ليعلن إسلامه قبل أن يفاتحه خالد بذلك رغم كل أحقاد الجراحات والثارات التى يحملها وأسلم قلبه لله مع صديقه عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد .

---

(١) المغازى للواقدى ٧٤٨/٢ .

وها هو الآن يقدم المفتاح لرسول الله ﷺ بصفته جنديًا فى حزب الله ويأخذ رسول الله ﷺ المفتاح منه ، ويفتح الكعبة بيده الشريفة ، ويطلب الماء لإزالة صورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام قائلاً : « قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام » ، ثم يمضى عليه الصلاة والسلام خطوات إلى الأمام ويصلى ركعتين فى المسجد وسط حفل إزالة الصور والرسوم الباقية ، ثم يخرج ليلقى عثمان بانتظاره أمام الباب .

وعلى بن أبى طالب وهو يرى المفتاح بيد ابن عمه محمد ﷺ فيقول :

يا رسول الله اجعل لنا الحجابة مع السقاية .

وها هو المفتاح بيد رسول الله ﷺ يضعه حيث يشاء ، ويستعيد عثمان فى ذاكرته تلك الحادثة الفريدة التى قال له فيها رسول الله ﷺ :

« يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت » .

وها هو فى يده عليه الصلاة والسلام يضعه حيث يشاء ،لا شىء يمنعه أن يعطيه عليًا أو يبقه عنده أو يعيده لعثمان، وهو يرى عزَّ قريش التى علت فيه على الأرض كلها شرفًا برسول الله ﷺ كما قال له ﷺ : « بل عمرت قريش وعزت ».

وها هو رسول الله ﷺ ينادى عثمان ولا يدرى مصير المفتاح ولا مصيره ، وليضعه رسول الله ﷺ حيث يشاء فهو رسول الله ، لكنه يتمنى فى أعماقه أن يعود إليه وتبقى هذه المأثرة لبنى عبد الدار .

(فلما دعانى بعد أخذه المفتاح ذكرت قوله ما كان قال ، فأقبلت فاستقبلته ببشر واستقبلنى ببشر ثم قال :

« خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة لا ينزعها إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف » .

وفى رواية ابن إسحاق : « هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء»)(١) .

قال عثمان : فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال : « ألم يكن الذى قلت لك ؟ » فذكرت قوله لى بمكة فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله ، فأعطاه المفتاح)(٢) .

وعادت أرواح قريش إليها وهم يرون رسول الله ﷺ يعيد المفتاح لعثمان بن طلحة ويلقى درسًا عاليًا فى التربية يستمع إليه الجيش المسلم كله يخاطب به عليًا ﷺ بأن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م٢/ ٤١٢ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٣٦٧ .

الانتساب إليه من أهل بيته مسؤولية وأمانة وتضحية قبل أن تكون كسبًا وثراءً واستئثارًا « إنما أعطيكم ما ترزؤون ، ولا أعطيكم ما ترزؤون » يقول: أعطيكم السقاية لأنكم تغرمون فيها ولم أعطكم البيت ، قال عبد الرزاق : أى أنهم يأخذون هديته) .

ثانيًا : إعلان المبادئ

وقريش بجميع قياداتها وقواعدها التى التجأت إلى المسجد تنتظر الحكم النهائى عليها، وتتوقع الموت فى كل لحظة ، فكان الانفراج الثانى على قريش بعد إعطاء المفتاح لعثمان هو جواب رسول الله ﷺ لعلى أخص أهله وأقربهم إليه حين طلب منه أن يضم لهم الحجابة مع الرفادة ، يمنع ذلك عنهم لأن لهم الغرم لا الغنم .

(لما خرج رسول الله ﷺ من البيت قال على : إنا أعطينا النبوة والسقاية والحجابة، ما قوم أعظم نصيبًا منا ، فكره رسول الله ﷺ مقالته ثم دعا عثمان بن طلحة ودفع إليه المفتاح ، وقال : « غيبوه »)(١) ، واعتبر أهله ظلمة لو انتزعوه منهم ، ووقف عليه الصلاة والسلام عند عضادتى الباب بعد خروجه من الكعبة، وخالد بن الوليد يذب الناس عن الباب ، ووقفت الدنيا كلها تصغى إلى سيدها العظيم ماذا يقول : (لما خرج من البيت استكف له الناس (٢) وأشرف على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة (٣) ـ وهم جلوس ـ قام على بابه فقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ولأول مرة منذ ألف سنة خلت يعلن شعار التوحيد فى مكة المكرمة وفى بيت الله العتيق بعد أن كان الشعار السابق :

(لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا لك هو لك وما ملك)(٤) ، وكان هذا هو إهلال قريش وكنانة خلال هذه الأحقاب .

وقد صدق وعده ، ولم يأت النبى ﷺ ليحل محل تلك الآلهة مع عظمته ومزيد فضله ، إنما أعلنت مع الوحدانية العبودية التامة لله وحده من سيد ولد آدم :

« لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده » .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٦٦.
(٢) استكف له الناس : جلسوا عند عتبة الباب .
(٣) ليط بهم حول الكعبة : تجمعوا والتفوا حول الكعبة.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٧٨ .

وعلى من نُصِر ؟ على كل الأحزاب الذين تألبوا ضده .

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ⑩ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪ ﴾ [الأحزاب] .

هؤلاء هزمهم الله تعالى وحده .

وهؤلاء رؤوس الأحزاب المهزومين أمامه ، هؤلاء هم قريش ينتظرون القرار المصيرى فيهم :

« يا معشر قريش ، ماذا تظنون،ماذا تقولون ؟ » قالوا :نقول خيراً ، ونظن خيراً ، نبى كريم ، وأخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنى أقول كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ⑨٢ ﴾ [يوسف] ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فخرجوا كأنما نشروا من قبورهم فدخلوا فى الإسلام.

لقد أصدر ﷺ عفوه العام قبل إعلان الدستور الإسلامى ، وطوى أصعب صفحة فى حياته ، وأشق صفحة فى حياته من حرب أهله له ، وقومه له ، وطوى كل سفاهات الجاهلية وحقد الجاهلية ونتن الجاهلية ، طوى هذا كله مع قومه ، وفتح صفحة جديدة للدخول فى الإسلام ، وشعرت قريش كأنما بُعثت بعد الموت ، وكأنما الناس حشروا من قبورهم بهذا العفو العظيم الذى لا يستطيعه قلب بشر إلا أن يكون قلب نبى أو قلب نبى الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وكانت هذه المقدمة العملية التى بثت الأمن فى كل قلب ، وبثت الطمأنينة بكل نفس ، وتهيئ المناخ الملائم للتفاعل مع الدستور الجديد .

وبهذا العفو الذى قدمه عليه الصلاة والسلام ، والإمكان صار بإمكانه أن يعلن أول مبدأ من مبادئه ، وهو :

١ ـ **إلغاء الثأر** : وهذا يعنى إلغاء مجتمع بكامله يقوم كله خلال آلاف السنين على الثأر وسفك الدم الحرام ،والحروب التى قطعت أواصر هذا المجتمع ، فكان دينه أن يقتل بعضه بعضًا ، وفخره فى ذبح بعضه بعضا .

٢ ـ **إلغاء الربا** : والظلم الذى كان سمة الجاهلية حيث يتحكم أغنياؤها بفقرائها ، ويستبيحون أموالهم الحرام ليزداد الغنى غنى والفقير فقراً وفاقة .

٣ ـ **إلغاء مآثر الجاهلية** : والتى كانت الطبقية فى المجتمع تقوم عليها ، فيكون بعضهم أربابًا لبعض بحجة هذه المآثر ، وتحددت هذه المبادئ فى نص واحد :

« ألا إن كل ربًا فى الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يُدَّعى فهو تحت قدمى هاتين » .

وفى دولة النبوة ، ودولة العقيدة يبدأ تطبيق المبادئ من القمة لا من القاعدة ، فيبدأ التنفيذ من السلطة العليا ويمتد إلى الأفراد العاديين بعد ذلك ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث » .

٤ ـ إلا سدانة البيت وسقاية الحاج : فهاتان المأثرتان عليهما عماد عبادة الحج والسقاية التى اختص بها بنو هاشم والتى يضعون ثروتهم لخدمة الحجيج ورعايتهم، وبقيت حجابة البيت عند بنى عبد الدار الذين قال لهم رسول الله ﷺ : « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم »،فقد أعطاهم الله تعالى هذا الحق إلى يوم القيامة.

٥ ـ إلغاء الدول الجاهلية وقيام الدولة الإسلامية : والتى كانت تقوم على الصراع القبلى ، والتميز بالأنساب والفخر والتعصب للقبيلة ، فكما أن هناك دولة قومية ودولة شيوعية ، ودولة وطنية فهناك دولة قبلية التى تجعل من القبيلة الصنم الذى يُعبد من دون الله ، وقامت الدولة الإسلامية التى تنطلق من استسلام الخلق لرب العالمين :

« ألا وإن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ⑬ ﴾ [الحجرات] .

٦ ـ المساواة فى الأصل والتمايز على أساس التقوى : « يا أيها الناس ، الناس رجلان : فبر تقى كريم ، وكافر شقى هين على الله » .

٧ ـ تحديد دية القتيل شبه العمد : وذلك لإيقاف مسلسل القتل المرتبط بالثأر « ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة ، مائة ناقة ، أربعون منها فى بطونها أولادها » .

٨ ـ حرمة مكة المكرمة : « ألا إن الله تعالى حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، ووضع هذين الأخشبين فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى ، ولن تحل لأحد كائن بعدى ،لم تَحِلَّ لى إلا ساعة من نهار ـ يقصّرها ﷺ بيده هكذا ـ ولا ينفر صيدها ، ولا يعضد عضاهها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها » .

فقال العباس ـ وكان شيخًا مجربًا : إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لابد لنا منه للقبور وظهور البيوت ، فسكت رسول الله ﷺ ساعة ثم قال :« إلا الإذخر فإنه حلال ».

٩ ـ إلغاء الوصية للوارث : وذلك بعد أن أعطى الله تعالى لكل ذى حق حقه فى

كتابه ، فلا تحل الوصية للوارث إلا إذا جاز ذلك الورثة جميعًا ، هذه الوصية عن طيب خاطر .

لقد كان الابن الأكبر فى الجاهلية يرث مال أبيه كله ، وتحرم المرأة من الميراث ، فأنهى الله تعالى هذا الظلم القائم فى هذا المجتمع الجاهلى ووزع الأنصباء والسهام وأعطى كل ذى حق حقه .

١٠ ـ **تنظيم الأنساب وتحريم الزنا** : التى كانت تقوم على التبنى أحيانًا ،وعلى الزنا أحيانًا أخرى ، فجعل الله تعالى للعاهر الرجم بالحجر وجعل نسب الولد للفراش الذى ولد فيه ، وليس لمن يدعيه .

١١ ـ **ولاية الزوج** : فهو السيد فى البيت وله الطاعة « ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها » .

١٢ ـ **إخوة الإسلام والمسلمين** : « والمسلم أخو المسلم،والمسلمون إخوة والمسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم وهم يرد عليهم أقصاهم ويعقل [1] عليهم أدناهم ومُشِدُّهم على مُضْعِفهم ، ومثريهم على قاعدهم » .

١٣ ـ **حرمة الدم البشرى إلا بحق**:« ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده».

١٤ ـ **اختلاف العقيدة يلغى التوارث** : « ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين » .

١٥ ـ **تنظيم جباية الزكاة** : « ولا جلب ولا جنب ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم » .

١٦ ـ **فى تنظيم حكم سفر المرأة**: «ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم».

١٧ ـ **وتحريم الجمع بين الزوجة وعمتها وخالتها** : « ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » .

١٨ ـ **وفى تنظيم أصول القضاء** : « والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر »

١٩ ـ **النهى عن صيامين** : « وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر » .

٢٠ ـ **النهى عن صلاتين** : « ولا صلاة بعد العصر ولا بعد الصبح » .

٢١ ـ **والنهى عن لبستين** : « وعن لبستين ألا يحتبى أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، وألا يشتمل الصماء »، فقام رجل فقال : يا رسول الله إنى قد

---

(١) وهى عند البيهقى فى الدلائل:«ويسعى بذمتهم أدناهم ، يعقد عليهم أولهم ، ويرد عليهم أقصاهم »٥/ ٨٧.

عاهرت فى الجاهلية .

٢٢ ـ إلغاء الحقوق المترتبة على الزنا : فقال : « من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين لا يملكها ، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ولا يرث ولا يورث ولا أخالكم إلا عرفتموها » .

٢٣ ـ إيقاف القتال : « يا معشر المسلمين ، كفوا السلاح ـ إلا خزاعة عن بنى بكر ـ من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر منه ».

والملاحظ أن هذه المبادئ العليا تناولت إلغاء الجاهلية وإقامة دولة الإسلام على المساواة فى الأصل والتفاضل بالتقوى وعالجت أحكامًا كبرى كإلغاء الربا والزنا والثأر ومآثر الجاهلية وأحكامًا عملية فى إلغاء الوصية للوارث والتوارث بين ملتين مختلفتين والولد للفراش وللعاهر الحجر مما هو يمارس يوميا فى واقع الأمة .

وأحكامًا تنظيمية فى: لا جلب ولا جنب، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر.

وأحكامًا تعبدية لمن يتجه إلى الصلاة والصيام والزكاة واللباس فيما هو محظور عنه وتبقى الإباحة بعدها والحث على العبادة .

وسمة هذه القوانين جميعًا هى التصاقها بواقع هذه الآلاف المؤلفة فى بيوتهم ، وفى مجالسهم وفى عباداتهم وفى نفوسهم وفى عاداتهم وتقاليدهم .

وأنهى رسول الله ﷺ خطبته وأنهى معها عهدًا من الظلمات ران على البشرية مئات القرون ، وأطلق النور فى الوجود ، وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)** ﴾ [الفتح] .

ثم مضى بعد خطبته (إلى جانب المسجد فأتى بدلو من ماء زمزم ، فغسل منها وجهه ما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان إن كانت قدر ما يحسوها حساها وإلا مسح جلده والمشركون ينظرون ، فقالوا : ما رأينا ملكًا قط أعظم من اليوم ، ولا قومًا أحمق من القوم)(١) .

تطبيق المبادئ ، والحدث العظيم

وكان لابد من التطبيق العملى لهذه المبادئ علنًا وأمام الناس جميعًا ، وحان وقت

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٦٧ من رواية ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عبيدة .

أذان الظهر فـ (أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة ليغيظ بذلك المشركين ، وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فرَّ جماعة من وجوههم وتغيبوا وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة وأسلموا بعد ذلك فقال عتَّاب أو خالد بن أسيد :

ـ لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون يسمع هذا فيسمع ما يغيظه ، وقال الحارث :

ـ أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان :

ـ لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصا ، وقال بعض بنى سعيد بن العاص :

ـ لقد أكرم الله سعيدًا إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة ، وقال الحكم بن أبى العاص :

ـ هذا والله الحدث العظيم أن يصيح عبدُ بنى جُمَح على بَنِيَّة أبى طلحة ، وقال الحارث بن هشام :

ـ إن يكن الله تعالى يكرهه فَسَيُغَيِّرُه ، وفى رواية :أن سهيل بن عمرو قال مثل قول الحارث، فأتى جبريل النبى ﷺ فأخبره خبرهم فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « قد علمت الذى قلتم » فقال الحارث وعتاب :

ـ نشهد أنك رسول الله صلى الله عليك وسلم ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك)[1] .

وخير تعبير يمثل عظمة هذا الحدث ودوره فى مكة هو ما قاله الحكم بن أبى العاص: (هذا والله الحدث العظيم أن يصيح عبد بنى جمح على بَنِيَّة أبى طلحة) .

فهو أبلغ تعبير عن هذا الانقلاب البشرى العظيم أن يصعد بلال بن رباح عبد أمية ابن خلف الجمحى بقدميه السوداوين على ظهر الكعبة أقدس بيت عند العرب ، فيؤذن فوقه: الله أكبر الله أكبر، أكبر من كل طواغيت الجاهلين وهاماتهم وعقائدهم وعصبياتهم.

ـ أشهد أن لا إله إلا الله هذا الإعلان الذى حرمته مكة منذ ألف عام .

ـ أشهد أن محمدًا رسول الله ، رغم أنف كل الطواغيت الأموات والأحياء وتنفيذ دعوة إبراهيم قبل أربعة آلاف عام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٧٢ ، ٣٧٣ وقال فيه رواه أبو يعلى عن ابن عباس وابن هشام عن بعض أهل العلم والبيهقى عن ابن إسحاق وعن عروة ، وابن أبى شيبة عن أبى سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب والأزرقى عن ابن أبى مليكة ومحمد بن عمر عن شيوخه رحمهم الله تعالى : أن رسول الله ﷺ لما حانت صلاة الظهر أمر بلالاً . . .) .

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

ـ حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فلا رشد ولا فلاح ولا نجاح إلا بهذا الدين ، هذا الدين الذى عرضه عليهم رسول الله ﷺ ، قبل عشرة أعوام ، وكل الطواغيت أحياء :

ـ « كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » فقال أبو جهل:

ـ هاتها وأبيك وعشر كلمات ، فقال رسول الله ﷺ :

« تشهدون أن لا إله إلا الله وتنبذون ما تعبدون من دونه » ، فقالوا كما حدثنا الله تعالى بلسانهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص] .

وانطوى الملأ ، ونفذ الصبر ، وذاقوا العذاب ، فكانت :

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

يعلنها عبد بنى جمح الأسود الزنجى كأن رأسه زبيبة فوق بيت الله الحرام .

فأى انقلاب فى التاريخ يعدل هذا الانقلاب ؟!

المأدبة العظمى لقائد الفتح

وصلى المسلمون الظهر ، وآن أوان القيلولة ، وبهذا الفتح المبين يحسن أن تنصب آلاف الموائد ، وتنحر مئات النياق والشياه احتفاء بهذا الفتح ، وإطعامًا لهذا الجيش الذى لا يجد ما يأكله .

وتصادر آلاف الأقوات ، من الإبل والغنم والدقيق والطعام لإطعام هذا الجيش ، وتكريم قائده ، وكانت أعظم مأدبة لقائد هذا الفتح هى هذه المأدبة .

(روى الطبرانى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأم هانئ يوم الفتح : « هل عندك من طعام نأكله ؟ » قالت : ليس عندى إلا كِسَرٌ يابسة ، وإنى لأستحى أن أقدمها إليك ، فقال : « هلمى بهن » فكسرهن فى ماء وجاءت بملح ، فقال : « هل من أدم ؟ » فقالت : يا رسول الله ، ما عندى إلا شىء من خل ، فقال : « هلميه » ،

فصبَّه على الطعام ، وأكل منه ثم حمد الله ثم قال : « نعم الأدُم الخل ، يا أم هانئ ، لا يفقر بيت من أدم فيه خل » (١) .

هذه هى البشرية كلها ترنو إلى هذا الفاتح العظيم ، الذى قهر الجبابرة من أعدائه ، يكتفى أن يكون هذا طعامه كسرات من خبز يابسة ، وملح وشىء من خل ، والمأدبة بعظمتها غنية عن أى تعليق .

اليوم تعظم الكعبة اليوم أعز الله قريشًا :

فلقد عادت حرمتها كما كانت من قبل يوم خلق الله السموات والأرض ولابد أن يقوم النبى ﷺ بتحديد حدودها ، ليكون الرابع فى البشرية وخاتمها الذى يحددها .

(روى الأزرقى عن محمد بن الأسود ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم كان جبريل ﷺ يدله على مواضعها فلم تُحرك حتى كان إسماعيل ﷺ فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان قصى بن كلاب فجدّدها ، ثم لم تُحرك حتى كان يوم الفتح فبعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد الخزاعى فجدَّد أنصاب الحرم)(٢) .

إنه هو البلد الأمين الذى دعا له إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة] .

وانتهى متاع الذين كفروا ومضوا إلى جهنم وبئس المصير ، وعادت اليد المؤمنة المباركة لتسيطر على الحرم ، عاد حفيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وشبيهه ودعوته ورسوله عاد ليجدد أنصاب الحرم ، ويحدد معالم هذا البلد الأمين .

الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا :

وانتهت المأدبة ، وانتهت القيلولة ، ومضى رسول الله ﷺ بعدها يستقبل الناس فيبايعونه على الإسلام .

(روى الإمام أحمد ، والبيهقى عن الأسود بن خلف رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح قال : جلس عند قرن مسفلة فبايع الناس على الإسلام ، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إله

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٥٥ .   (٢) المصدر نفسه ٥/ ٣٧٣ .

إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله)[1] ، وجاء فى السيرة الحلبية : (أنه كان يبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط)[2] .

لقد كانت حصيلة عشرين عامًا ألف وخمسمائة ، وحصيلة يوم واحد بعد الفتح ألفين من المسلمين ، فقد جاء نصر الله والفتح وهؤلاء الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا ، وآن الأوان لشكر الله تعالى على ذلك : ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ③ ﴾ [النصر] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٧١ ، ودلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٩٤ .

(٢) السيرة الحلبية ٣/ ١١١ .

المخالفات الكبرى

١ ـ (روى الإمام أحمد والطبراني برجال ثقات،ومحمد بن عمر والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت : لما كان يوم الفتح ونزل رسول الله ﷺ بذى طوى ، قال أبو قحافة لابنة له . . . كانت من أصغر ولده: يا بنية ، أشرفى بى على أبى قبيس ـ وقد كُفَّ بصره ـ فأشرفت به عليه فقال : أى بنية ، ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعًا كثيرًا ، وأرى رجلاً يشتد بين ذلك السواد مقبلاً ومدبرًا ، فقال : ذلك الرجل الوازع ثم قال : ماذا ترين ؟ قالت : أرى السواد قد انتشر وتفرّق ، فقال : إذن والله انتشرت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى فخرجت سريعًا حتى إذا هبطت الأبطح لقيتها الخيل وفى عنقها طوق لها من ورق ، فاقتلعه إنسان من عنقها ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد خرج أبو بكر بأبيه رضي الله عنهما يقوده وكان رأس أبى قحافة ثغامة بيضاء فلما رآه رسول الله ﷺ قال: « هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه، فأجلسه بين يدى رسول الله ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ صدره وقال: « أسلم تسلم » فأسلم ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشدكم بالله والإسلام طوق أختى فوالله ما جاء به أحد ، ثم قال الثالثة فما جاء به أحد فقال : يا أخية احتسبى طوقك فوالله إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل)(١) .

قال البلاذرى : (ورمى بعض المسلمين أبا قحافة فشجه ، وأخذت قلادة أسماء ابنته فأدركه أبو بكر وهو يستدمى فمسح الدم عن وجهه)(٢) .

٢ ـ (وروى ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن الأزهر رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ عام الفتح وأنا غلام شاب ، ينزل عند منزل خالد بن الوليد وأتى بشارب فأمرهم فضربوه بما فى أيديهم ، فمنهم من ضرب بالسوط وبالنعل وبالعصا وحثا رسول الله ﷺ التراب)(٣) .

٣ ـ وعن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها : أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقيل :ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون به إلى

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٥١، ٣٥٢ ،وفى مسند أحمد ٦/ ٣٤٩ ، وعند البيهقى فى الدلائل ٥/ ٩٥، ٩٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٥٢ . (٣) المصدر نفسه ٥/ ٣٨٦ .

رسول الله ﷺ، فلما كلمه أسامة فيها تلوّن وجه رسول الله ﷺ فقال: « أتكلمنى » وفى لفظ : «أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » قال أسامة : يا رسول الله استغفر لى ، فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ خطيبًا فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما أهلك الناس ـ وفى لفظ : « بنى إسرائيل » وفى لفظ : « الذين من قبلكم » ـ أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف » وفى لفظ : « الوضيع قطعوه » وفى لفظ : « أقاموا عليه الحد ، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة (وفى رواية النسائى « قم يا بلال ، فخذ بيدها فاقطعها » فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت رجلاً من بنى سليم ، قالت عائشة : فكانت تأتينى فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ) رواه الإمام أحمد[١] ، والشيخان[٢] والنسائى والبيهقى[٣])[٤] .

٤ ـ (وقام إليه رجل فقال : يا رسول الله قُتِل رجل بالمزدلفة ، فقال :

« إن أعتى الناس على الله ثلاثة: من قتل فى حرم الله ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحل الجاهلية ») [٥] .

٥ ـ دخل جندب بن الأدلع الهذلى مكة يرتاد وينظر والناس آمنون ، فرآه جندب بن الأعجم الأسلمى فقال : جندب بن الأدلع قاتل أحمر بأسًا ؟ قال : نعم ، فمه ، فخرج جندب يستجيش عليه حيه ، فكان أول من لقى خراش بن أمية الكعبى فأخبره ، فاشتمل خراش على السيف ثم أقبل إليه والناس حوله وهو يحدثهم عن قتل أحمر بأسًا فبينما هم مجتمعون عليه إذ أقبل خراش بن أمية ، فقال : هكذا عن الرجل ، فوالله ما ظن الناس إلا أنه يُفَرِّج الناس عنه لينصرفوا ،فانفرجوا فحمل عليه خراش بن أمية بالسيف فطعنه به فى بطنه وابن الأدلع مستند إلى جدار من جدر مكة فجعلت حشوته تسيل من بطنه وإن عينيه لَتُرنُقَان [٦] فى رأسه وهو يقول : فعلتموها يا معشر خزاعة فانجعف فوقع فمات فسمع رسولَ الله ﷺ بذلك فقال : « يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، لقد قتلتم قتيلا لأدِيَنَّهُ إن خراشًا لقتَّال ـ يعيبه بذلك ـ لو كنت قاتلاً مؤمنًا بكافر لقتلت خراشًا » [٧] .

---

(١) مسند أحمد ٦/ ١٦٢ .

(٢) مسلم فى الحدود (١٦٨٨) ، والبخارى فى الأنبياء ٦/ ٣٧٧، ٣٧٨ .

(٣) النسائى (٤٩٠٣) ، ولفظ : « قم يا بلال » ورد عند النسائى فى الكبرى (٧٣٧٦) ، ودلائل النبوة ٥ / ٨٨.

(٤) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٨٧ .

(٥) دلائل النبوه للبيهقى ٥ / ٨٧ .

(٦) لترنقان : تتغلقان .

(٧) ابن أبى شيبة عن الزهرى والواقدى عن شيوخه ٢/ ٨٤٣ ، وسبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ خطيبًا بعد الظهر وأسند ظهره إلى الكعبة .

وعند ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه ﷺ ركب راحلته فحمد الله وأثنى عليه وقال: « أيها الناس ، إن الله تعالى حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ويوم خلق الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين،ولم يحرّمها الناس ،فهي حرام إلى يوم القيامة،فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا،ولا يعضد فيها شجرًا لم تحل لأحد كان قبلي ، ولم تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها ـ ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله تعالى أحلها لرسول الله ﷺ ولم يحلها لكم ») [1] .

« أيها الناس ، إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية ، يا معشر خزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل فقد والله كثر إن نفع فقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّهُ ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فديته كاملة وإن شاؤوا فقتله »، ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة ، قال ابن هشام : مائة ناقة ، قال ابن هشام : وبلغني أنه أول قتيل وداه رسول الله ﷺ[2] .

٦ ـ روى مسلم عن عبد الله بن مطيع بن الأسود عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكة : « لا يقتل قرشي صبرًا بعد اليوم إلى يوم القيامة ».

وروى محمد بن عمر عن الحارث بن البرصاء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة على الكفر »[3] .

٧ ـ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » رواه الشيخان[4] .

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى قال : زرت عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير الليثي وهي مجاورة بثبير فسألها عن الهجرة فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٨٣ وقال فيها : روى الشيخان البخاري (١٨٣، ١٨٤) في العلم ، ومسلم (١٣٥٥) والترمذي عن أبي شريح الكعبي وابن منيع بسند صحيح وابن أبي عمر والإمام أحمد والبيهقي عن ابن عمر ، وابن أبي شيبة ، والشيخان عن أبي هريرة وابن أبي شيبة عن الزهري ، وابن إسحاق عن بعض أهل العلم ، ومحمد بن عمر عن شيوخه) .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٣٨٣ ، والمغازي للواقدي ٢/ ٨٦٢ .

(٤) البخاري في الجهاد ٦/ ٢٨، ٢٩ ، ومسلم في الإمارة ٣/ ١٤٨٧ . انظر : سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٨٥ .

أحدهم بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن عنه فأما اليوم فقد أظهر الله تعالى الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث كان ولكن جهاد ونية . رواه الشيخان)(١) .

* * *

١ ـ **المخالفة الأولى** : مع أخت أعظم رجل فى الإسلام .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذى لم تطلع الشمس ولم تغرب على أفضل منه بعد النبيين والمرسلين ،والذى كان الرجل الأول فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، والذى كان أول من آمن بالله ورسوله فى الأرض يتأخر إسلام أبيه عشرين عامًا إلى ما بعد فتح مكة ، ولم يمنعه تأخر إسلام أبيه أن يكون الداعية الأول فى الإسلام ، فيسلم على يديه ثلثى العشرة المبشرين بالجنة ، فالهداية من الله تعالى وهو لا يملكها ولا يوقف دعوته حتى يسلم أباه ، وأبو قحافة يدرك أن أبا بكر رضي الله عنه من أعظم أصحاب محمد .

(قالت : فنزلت به ، فجعلت الجارية ترعب لما ترى فيقول : يا بنية لا تخافى فوالله إن أخاك عتيقًا لأثر أصحاب محمد عند محمد ، قال : وعليها طوق من فضة فاختلسه بعض من دخل)(٢) .

وجاء الصديق بأبيه إلى رسول الله ﷺ ليسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام للصديق إكرامًا له : « لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه » تكرمة لأبى بكر ، وقد أدركه الصديق والدماء تسيل منه وأدرك أخته وقد ذهب طوقها ، فنادى فى المسلمين يطالب به ، ولم يسمع جوابًا واكتفى بقوله :(يا أخية، احتسبى طوقك فإن الأمانة اليوم فى الناس قليل) لقد قال هذا الصديق عن جيل الفتح فإذا قورن بجيل الحديبية يصح عليه هذا التعميم لكنه إذا قورن بأجيال الأرض فيبقى الجيل المثالى ، الذى يُفقد فيه فى معركة وجيش من أضخم الجيوش آنذاك طوق واحد لا يعرف مصيره .

إن جيشًا الأمانة فيه قليلة حين يفقد طوق أو قلادة فيه ، لهو أعظم الجيوش فى الوجود أمانة ولا شك ، وحيث لم يعرف الذى أخذ الطوق مع أنه لا شىء يمنع أن يكون من الغنائم ، لكن لجهل فاعل ذلك اعتبرنا هذه هى من المخالفات الكبرى فى أيام الفتح ولم يقم أبو بكر رضي الله عنه وهو أعلى سلطة فى الدولة وأعلى شخصية فيها بعد رسول الله ﷺ باعتقال المئات وتعذيبهم من أجل طوق أخته ، وثأرًا لأبيه المدمى ، إنما اكتفى بقوله لأخته : احتسبى طوقك ، وهذا كل ما نفذه من عقوبة فى حق المتهمين .

٢ ـ **المخالفة الثانية** : حيث أتى إلى رسول الله ﷺ بشارب خمر والعرب تعشق الخمر

---

(١) البخارى ١٧٨/٧ ،ومسلم ١٤٨٨/٣ ح (١٨٦٤) . (٢) المغازى للواقدى ٨٢٤/٢ .

وتفنى فيها وهى جزء أساسى من حياتها ، وحوالى نصف الجيش أو أكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، انضموا للجيش الإسلامى قبل بضعة عشر يومًا فقط ، ومع هذا لم تنقل لنا الإحصائيات إلا هذه المخالفة شارب خمر واحد ، ونفذ فيه الحد مباشرة فراح المسلمون يضربونه بما فى أيديهم من السياط والنعال والعصى ويحثو رسول الله ﷺ التراب عليه إشعارًا إلى أن المؤمنين صف واحد ضد العصاة لا يجيرهم أحد ، ولا يدفع عنهم أحد ، وهذه الدولة الإسلامية الجديدة، لابد لها أن تنفذ حدود الله فى العصاة، وهذا الشعب كله غدا يطبق عليه شرع الله منذ اليوم الأول للفتح ولا مجال للمسايرة أو اللين أو الإغضاء عن تطبيق حد الله ولو لحظة واحدة ، ويتعلم المسلمون من قائدهم عليه الصلاة والسلام أن حدود الله أولى بالرعاية والحماية ، وليست مجال اجتهاد شخصى حين يكون الحاكم قادرًا على تطبيقها ، فقبل يومين كان الساجدون للأصنام والمقدسون لها وكان الزناة والمرابون ،أما اليوم وبعد يوم واحد من الفتح أو فى اليوم الأول فقد جاء الحق وظهر أمر الله ، وزهق الباطل ،فكانت إقامة حد الله هى الدليل الصحيح على إسلامية هذه الدولة وخضوعها لله رب العالمين .

٣ ـ المخالفة الثالثة : شأن المرأة المخزومية وحد السرقة :

وإذا كانت المخالفة الأولى قد نجت من العقوبة لعدم معرفة صاحبها والمخالفة الثانية أتى بصاحبها فضرب لأنه شرب الخمر لكنه مجهول لا نعرف نسبه فهو من عرض الناس، وقد لا يفكر أحد بالشفاعة له .

أما المخالفة الثالثة هذه ، فهى ذات شأن خطير فالمرأة التى سرقت من مخزوم ، ومخزوم سرة قريش ، وقائد الجيش خالد بن الوليد منها ، فله سلطة عليا فى الدولة وهو سيف الله فى الأرض كما سماه رسول الله ﷺ وبنو مخزوم من أعرق قبائل قريش وهى التى حملت لواء الحرب ضد رسول الله ﷺ عشرين عامًا ،ومنها كبار القادة والزعماء فى الجاهلية والإسلام ، وسوف يثلم شرف القبيلة كله لو نفذ الحد على هذه المرأة ، ويمكن أن يفنى بنو مخزوم عن آخرهم ،ولا يدعوا بنى هاشم يقطعون يد امرأة منهم ولو كانت سارقة ، فهى علامة دائمة تشين القبيلة ، وكل من رآها سوف يعير القبيلة كذلك ، ولم يأخذ الهم مخزومًا فقط لذلك إنما أخذ الهم قريشًا كلها ، وقريش هى قبيلة محمد ﷺ وسوف ينال من شرف قبيلة محمد لو قطعت يد هذه المرأة بأنه وهو النبى الموحى إليه ، وامرأة من قبيلته تسرق وحسب رواية مسلم عن عائشة زوج النبى ﷺ : (أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح)[١] .

ويمكن أن تحل القضية بإيقاف حد السرقة لاعتبارات سياسية وعسكرية عديدة وجيهة

---

(١) مسلم ح (١٦٨٨/٣) .

وبحثت قريش الأمر فرأت أن أعظم وساطة لرسول الله ﷺ يمكن أن تتم عن طريق أحب الناس إليه أسامة بن زيد الذى يردفه خلفه طيلة مدة الفتح ، فهو ابن ابنه زيد من قبل، وهـو الأثير عنده وهـو أحب الناس إليـه . . . فكلموا أسامة فى ذلك دون أن يجرؤ أحد أن يفاتح رسول الله ﷺ فى هذا الأمر غيره ، إنه الولد الأثير المحبب المدلل عنده فليؤت من قبله، فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ! » .

هذا هو دور الوساطة فى الإسلام من أحب الناس إلى رسول الإسلام ، هى جريمة ومعصية تحتاج إلى استغفار (فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله) .

وكان الأمر يمكن أن يتم بالسر ، لكن رسول الله ﷺ الذى يربى البشرية كلها ، قام فى العشية خطيبًا فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وبذلك حدّد رسول الله ﷺ سنة من سنن الله تعالى فى هلاك الأمم هو الظلم بحيث يطبق الحد على الضعيف ويعفى منه الشريف ، فليس تعطيل حدود الله فقط هو سبب هلاك الأمم إنما تعطيلها عن فريق لشرفه ووجاهته ومركزه وتطبيقها على فريق آخر لضعفه وعجزه حيث لا ظهر له ولا سند هو سبب رئيسى ويكاد يكون السبب الرئيسى فى هلاك الأمم .

وحيث جاء رسول الله ﷺ بإنقاذ البشرية من الهلاك فلابد أن ينال الحد الشريف قبل الوضيع ، ويطبق على الأمير قبل الفقير ، ويقسم عليه الصلاة والسلام بقوله :

« لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وأتبع القول الفعل وجىء بالمرأة المخزومية ، ولأول مرة فى تاريخ بنى مخزوم ، وتاريخ قريش ، وتاريخ العرب ينفذ هذا الحد ويطبق على الشريف ، ولا يستثنى منه أحد

« ثم أمر بتلك المرأة فقُطعت يدها » .

وكان هذا إيذانا بانهيار الظلم فى الأرض على يد سيد ولد آدم ، وتعلم حزبه الذى يتربى على يديه قضيتين رئيسيتين لا تقبلان النقاش :

القضية الأولى : أنه لا شفاعة فى حد من حدود الله ، وليس من حق أى حاكم أو صاحب نفوذ أن يعطل هذا الحد أو يلغيه أو يوقفه .

القضية الثانية : أن السبب الرئيسى فى هلاك من سبق من الأمم هو تطبيق الحد على

الضعيف وإعفاء الشريف منه ، وهم الحراس الأمناء على هذه الشريعة فيما بعد حين ينطلقون حكامًا فى الأرض يحكمون بشريعة الله وتطبيق الحد ، ولو كان قاسيًا لكنه هو العدل بعينه ، قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد : وتزوجت ، وكانت تأتينى بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ .

٤ ـ **المخالفة الرابعة** : عن قتيل قتل بمزدلفة لم يعرف قاتله أو لم يصلنا ماذا جرى بقاتله .

٥ ـ **المخالفة الخامسة** : من حلفاء محمد ﷺ من بنى خزاعة ومن رجل من جيل الحديبية خيرة أجيال الأرض من خراش بن أمية الكعبى .

وإنما قتل خراش جندب بن الأدلع ، قاتل أحمر بأسًا ، حيث قتله غيلة فقتل به فى اغتيال مماثل ، لكن الأمر الصادر من رسول الله ﷺ :

« ألا كل دم أو مأثرة فى الجاهلية تحت قدمىّ هاتين وإن أول دم أضعه هو دم ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب قتلته هذيل » .

وجندب بن الأدلع قتل أحمر بأسًا قبل الإسلام ، ولم يكن الثأر من بكر التى غزت خزاعة قبيل الفتح .

ولو كان الثأر قائمًا لتم الثأر من هذيل لقتلها ربيعة بن الحارث ، ولأن هذا الباب حين يفتح سوف يعيد الثارات السابقة كلها ويحيل العرب إلى بركان من الدماء .

ولهذا غضب رسول الله ﷺ لهذا القتل وتحدث عنه بلهجة شديدة عنيفة محذرًا من مغبته وعاقبة نتائجه .

« أيها الناس،إن أعدى الناس على الله من قتل فى الحرم،أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية » ، وقد جمع هذا القتل عنصرين كبيرين من العدوان ، فالقتل بالحرم ، والقتل بذحول الجاهلية ، ورسول الله ﷺ يريد أن يبنى أمة جديدة ترتبط بدولة حضارية لها سلطان مهاب هو الذى ينفذ الحدود وهو الذى يأخذ بالقصاص وهو الذى ينفذ الشريعة وإلا ستبقى الجاهلية مئات القرون الأخرى دينها أن يقتل بعضها بعضا .

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام معنفًا صاحبه وجنديه خراش:« إن خراشًا لقتال » .

وقال ﷺ : « لو كنت قاتلا مسلمًا بكافر لقتلت خراشًا » .

وقال ﷺ : « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن نفع قتلتم قتيلا لأَدِيَنَّهُ » .

وقال ﷺ : « من قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فديته كاملة ، وإن شاؤوا فقتله » .

وأعقب ﷺ القول الفعل، ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة.

قال ابن هشام : ويلغنى أنه أول قتيل وداه رسول الله ﷺ (١) .

إن فرق ما بين الجاهلية والإسلام هى وضع القتل والثأر بيد السلطة الحاكمة المسلمة وليست بيد الأفراد فقد كانت الجاهلية العاتية حين يقتل فرد من أفرادها يسعون للثأر من رئيس القبيلة نفسه لتمتد الثارات بعد ذلك أشهرًا وسنين لا تنتهى ولا يمكن أن تنتهى .

إن القتيل الذى وداه رسول الله ﷺ هو قاتل فاتك فى الأصل ولنشهد كيف قتل أحمر بأسًا من قبل .

(روى ابن أبى شيبة عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : خرج غزىٌ(٢) من هذيل فى الجاهلية وفيهم جندب بن الأدلع الهذلى يريدون حى أحمر بأسًا من أسلم وكان أحمر بأسًا رجلاً من أسلم شجاعًا لا يُرام ، وكان لا ينام فى حيِّه ، ينام خارجًا من حاضره وكان إذا نام غطّ غطيطًا منكرًا لا يخفى مكانه ،وكان الحاضر إذا أتاهم فَزَع صرخوا : يا أحمر بأسًا ، فيثور مثل الأسد ، فلما جاءهم ذلك الغزى من هذيل قال لهم جندب بن الأدلع : إذا كان أحمر بأسًا قد قيَّل(٣) فى الحاضر فليس إليهم سبيل ، وإن له غطيطًا لا يخفى فدعونى أتسمع ، فتسمَّع الحِسَّ فسمعه ، فأتاه حتى وجده نائمًا فقتله ؛ وضع السيف على صدره ثم اتكأ عليه فقتله ثم حملوا على الحى فصاح الحى يا أحمر بأسًا فلا شىء لأحمر بأسًا قد قتل فنالوا من الحى حاجتهم ، ثم انصرفوا وتشاغل الناس بالإسلام)(٤) .

فجندب إذن مجرم قتل أحمر بأسًا وهو نائم ، وغزا مع قومه هذيلاً ونالوا منهم ، وخراش إنما قتل جندبًا وهو واقف ، ثأر لقتله أحمر بأسًا واغتياله ، ومع هذا كله لم يغفر رسول الله ﷺ لخراش هذا الثأر بعد أن نهى عنه وقضى على آثاره وإن إحياءه إحياء للثارات من جديد وتمزيقًا لصف هذه الأمة المسلمة التى تناست ثاراتها ، والتحمت بعقيدة جديدة ودين جديد بقيادة جديدة ، وقيادة وحيدة هى قيادة رسول الله ﷺ ،وأمة جديدة تكونت بهذا الدين :

---

(١) لعل هذا كان بعد فتح مكة،لكن المشهور أن رسول الله ﷺ ودى أكثر من قتيل من قبل ومن هؤلاء العامرين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى .

(٢) الغزى : مجموعه غازية .

(٣) قيَّل : نام القيلولة .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٨٢ والمغازى للواقدى ٢/ ٨٤٣ .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران] .

لقد كانوا بتمزقهم وتناحرهم وعدوانهم على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله تعالى برسوله ﷺ وهددهم بأن العودة إلى الاختلاف والفرقة عودة إلى عذاب الله وغضبه .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران] .

٦ ـ لا هجرة بعد الفتح :

وبفتح مكة المكرمة عقر دار الشرك أغلق المجتمع الإسلامى على المهاجرين والأنصار وأخذت هذه الطبقة من القاعدة العريضة حدها النهائى لتمثل جيل الفتح والتى بلغت ذروتها بعشرة آلاف حيث ختمت بآخر المهاجرين العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وفلسفة الهجرة ابتداءً تقوم على الرحيل إلى دار الإسلام من دار الكفر حيث يفتتن المسلم عن دينه ويعذب فى سبيل عقيدته فيفر من الأرض الظالم أهلها إلى دولة الإسلام ودار الإسلام إلى رسول الله ﷺ ويمضى يجاهد فى سبيل الله حيث يوجهه القائد الأعظم ﷺ يجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، أما وقد غدت مكة داراً للإسلام وأقيمت فيها حدود الله وتحطمت الوثنية وجاء الحق وزهق الباطل فقد انتهت مبررات الهجرة ، ومضت الهجرة لأهلها كما تقول عائشة رضي الله عنها : كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن عنه فأما اليوم فقد أظهر الله تعالى الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث كان ولكن جهاد ونية)(١) .

ولا يمكن أن يدخل فى هذا الركب أحد بعد هذا الفضل .

﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾ [الحديد] .

وهذه محاولة من المحاولات التى أخفقت فى دخول هذا الحزب بعد الفتح .

روى ابن أبى أسامة عن مجاهد مرسلاً قال : جاء يعلى بن صفوان بن أمية رضي الله عنه بعد

---

(١) البخارى ٢/ ١٩٤ باب وقال الليث .

الفتح فقال : يا رسول الله ، اجعل لأبى نصيبًا من الهجرة ، فقال : « لا هجرة بعد اليوم » فأتى العباس فقال : يا أبا الفضل ألست قد عرفت بلائى ؟ قال : بلى ، وماذا ؟ قال : أتيت رسول الله ﷺ بأبى ليبايعه على الهجرة فأبى ، فقام العباس معه فى قيظ ما عليه رداء، فقال لرسول الله ﷺ : أتاك يعلى بأبيه لتبايعه على الهجرة فلم تفعل، فقال : « إنه لا هجرة بعد اليوم » ، قال : أقسمت عليك يا رسول الله لتبايعه ، فمد رسول الله ﷺ يده فبايعه فقال : « قد أبررت عمى ولا هجرة »)[1] ، أما الجهاد فماض إلى يوم القيامة لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل .

وهذه محاولة ثانية يحدثنا عنها (مجاشع قال : أتيت النبى ﷺ بأخى بعد الفتح فقلت : يا رسول الله جئتك بأخى لتبايعه على الهجرة ، قال : « ذهب أهل الهجرة بما فيها » ، فقلت : على أى شىء تبايعه ؟ قال : « أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد » ، فلقيت معبدًا بعد وكان أكبرهما فسألته فقال : صدق مجاشع) [2] [3] .

---

(1) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٨٦ .

(2) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٢٥ ح ٤٣٠٦ .

(3) لنا عودة إلى موضوع الهجرة وتجددها وعرض آراء العلماء فيها فيما بعد قبل نهاية الكتاب إن شاء الله .

أكابر مجرميها

(وقد كان رسول الله ﷺ أمر أمراءه ألا يقتلوا إلا من قاتلهم غير أنه أهدر دم نفرٍ سمَّاهم ، وقد جمعت أسماءهم من مفرقات الأخبار وهم :

عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، والحويرث بن نُقَيْذ . . . ومقيس بن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء الرسول ﷺ ، وسارة مولاة بنى المطلب وهى التى وجد معها كتاب حاطب) [1] .

١ ـ عبد العزى بن خطل :

قال ابن إسحاق : (عبد الله بن خطل رجل من بنى تيم بن غالب)[2] .

(وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وهاجر إلى المدينة ،وبعثه رسول الله ﷺ ساعيًا ، وبعث معه رجلاً من خزاعة ،وكان يصنع له طعامه ويخدمه ،فنزلا فى مجمع ـ والمجمع حيث يجتمع الأعراب يؤدون فيه الصدقة ـ فأمره أن يصنع له طعامًا ونام نصف النهار، واستيقظ والخزاعى نائم ولم يصنع له شيئًا ،فعدى عليه فضربه فقتله ،وارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة ، وكان يقول الشعر يهجو به رسول الله ﷺ ،وكان له قينتان وكانتا فاسقتين فيأمرهما ابن خطل أن يغنيا بهجاء رسول الله ﷺ)[3] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر ، فلما نزعه جاء رجل فقال : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال : « اقتله »،قال مالك : ولم يكن النبى ﷺ فيما نرى يومئذ محرمًا)[4] .

فهو مرتد عن الإسلام ، وقاتل لنفس بريئة عمدًا ، ومعلن حربه على الإسلام والمسلمين حين يخصص قينتيه لتغنيا بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين .

ونستمع إلى قتله من قاتله أبى برزة الأسلمى .

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ١١/٨، وذكر اسم كعب بن زهير نقلاً عن الحاكم ، والحارث بن طلاطل الخزاعى عن أبى معشر ، وهند بنت عتبة ، ووحشى بن حرب ولم يثبت إهدار دم هؤلاء .

(٢) السيرة النبوية ٤٠٩/٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٣٨/٥ .

(٤) البخارى ١٨٨/٥/٢ .

قال : (... أخرجت عبد الله بن خطل وهو معلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام)[1] .

كما ينقل لنا الواقدى جزءاً من حديث نفسه بعد قتل الخزاعى : (... فلما قتله قال: والله ليقتلنى محمد إن جئته فارتد عن الإسلام ، وساق ما أخذ من الصدقة وهرب إلى مكة فقال له أهل مكة : ما ردك إلينا ؟ قال : لم أجد دينًا خيراً من دينكم ، فأقام على شركه)[2] .

لقد كان قتله فى الحقيقة هو قتل مسلم من رعايا المدينة ، فرَّ منها وارتد وقتل نفسًا بريئة ،ومضى إلى العدو يناصره ويكيد للمسلمين ، ويعبئ الأجواء ضدهم .

(وأما القينتان ، فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما ، فقُتلت إحداهما ؛ أرنب أو فرْتنا ، وأما فرْتنا فاستؤمن لها حتى آمنت ،وعاشت حتى كسر ضلع من أضلاعها زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه فماتت منه ، فقضى فيها عثمان ثمانية آلاف درهم ، ستة آلاف ديتها ، وألفين تغليظا للجرم) .

لقد كان معتدّاً بردته وحربه لرسول الله ﷺ فـ (لما دخل رسول الله ﷺ إلى ذى طوى أقبل ابن خطل من أعلى مكة مدججًا فى الحديد على فرس وبيده قناة ،فمرّ ببنات سعيد بن العاص فقال لهن : أما والله لا يدخلها محمد حتى تُرين ضربًا كأفواه المزاد ،ثم خرج حتى انتهى إلى الخندمة فرأى خيل الله ، ورأى القتال فدخله رعب حتى ما يستمسك من الرعدة ، فرجع حتى انتهى إلى الكعبة فنزل عن فرسه وطرح سلاحه ،وأتى البيت فدخل تحت أستاره،فأخذ رجل من بنى كعب سلاحه وأدرك فرسه عايراً[3] فاستوى عليه ولحق برسول الله ﷺ بالحجون)[4] .

لقد كان يهدد ويتوعد تخايلاً وكبراً أمام بنات سعيد بن العاص ، أن محمداً ﷺ لن يدخل مكة حتى تفجر الدماء كأفواه القرب ، وحَلمت بنات سعيد بن العاص بذلك ، وانتظرن أبطال الخندمة ، وإذا بالخيل تنزل عليهن من كداء ، فرحن ينشرن شعورهن ، وحين فُقد الرجال رحن يواجهن الخيل بخمرهن ، أما ابن خطل فقد أصابته الرعدة عندما رأى خيل الله ،مثل ما أصابت إبليس الرعدة والرجفة يوم رأى جبريل يزع الملائكة يوم بدر ، وكان سلاح ابن خطل وفرسه غنيمة للمسلم الخزاعى الذى انضم إلى جيش رسول الله ﷺ فى الحجون .

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٥٩ .

(٣) عايراً : ذاهبًا .

(٤) المغازى للواقدى ٢ / ٨٢٦ ، ٨٢٧ .

٢ ـ المرتد الثانى : مقيس بن أبى صبابة :

قال ابن إسحاق :(وقدم مقيس بن صبابة من مكة مسلمًا فيما يظهر فقال: يا رسول الله ، جئتك مسلمًا ،وجئتك أطلب دية أخى ، قُتل خطأ ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابة ، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتدًا ، فقال فى شعر يقوله :

شفى النفس أن قد مات بالقاع[1] مسندًا ... تُضرِّج[2] ثوبيه دماء الأخادع [3]
وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تلم[4] فتحمينى [5] وطاء المضاجع [6]
حللت به وترى [7] وأدركت ثؤرتى ... وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به فِهرًا وحملت عَقله [8] ... سراة بنى النجار أرباب فارع [9]) [10]

وقال مقيس بن صبابة أيضًا :

جللته [11] ضربة باءت لها وشل [12] ... من ناقع الجوف [13] يعلوه وينصرم
فقلت والموت تغشاه أسرته ... لا تأمنن بنى بكر إذا ظلموا) [14]

إنه مجرم فاتك وغدر،يعلم أن أخاه قتل خطأ،فتظاهر بالإسلام حتى أخذ دية أخيه، ثم انقضَّ على قاتل أخيه فقتله غدرًا وغيلة ، وافتخر بأنه أول راجع إلى الأوثان . إنما ضحك على المسلمين بإظهاره الإسلام ليأخذ الدية ، ويقتل القاتل الخطأ وهو يحسب أن يد العدالة لن تطاله،وأن هروبه من الله ورسوله إلى الأوثان والشرك سيحميه إلى الأبد، وما كان لمثل هذا المجرم أن يترك أو يعفى عنه ، فهو ذو معدن خسيس منحط ولابد ، أن تناله يد الإسلام فتؤدبه وتؤدب أمثاله ، وهو خائن لدينه وأمته وعليه أن يتحمل تبعة جريمته وخيانته .

وها نحن نتابع المسيرة معه :

(قالوا : وأما مقيس بن صبابة فإنه كان مع أخواله بنى سهم ، كانت أمه سهمية

---

(١) القاع : المنخفض من الأرض .
(٢) تضرج : تلطخ .
(٣) الأخادع : عروق القفا .
(٤) تلم : تحل .
(٥) تحمينى : تمنعنى .
(٦) وطاء المضاجع : لينها .
(٧) الوتر : طلب الثأر .
(٨) العقل : الدية .
(٩) فارع : حصن للأنصار .
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣ .
(١١) جللته : علوته .
(١٢) وشل : قطر .
(١٣) ناقع الجوف : الدم .
(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٤ .

فاصطبح الخمر يوم الفتح فى ندامى له ، فأتى نميلة بن عبد الله الليثى وعلم بمكانه فدعاه فخرج إليه وهو ثملٌ يتمثلُ بهذه الأبيات ، أنشدنيها ابن جعفر وغيره :

دعينى أصطبح يا بكرُ إنى | رأيت الموت نقّب عن هشام
ونقب عن أبيك أبى يزيد | أخى القينات والشرب الكرام [1]
بهم أرست رواسى من ثبير | ومن ثور ولم تصمم صمام
تعنينى الحمام كأن رهطى | خزاعة أو أناس من جذام) [2]

وليطمئن مقيس فرهطه بكر ، وأخواله سهم ، والذى يتولى تنفيذ حد الله فيه أحد قومه بنى بكر نميلة بن عبد الله الليثى ، وهو الأولى بتأديبه وشفاء النفس فى تحقيق حد الله فيه .

(فضربه (نميلة) بالسيف حتى برّده ويُقال : خرج وهو ثمل بين الصفا والمروة فرآه المسلمون فهبتوه بأسيافهم وقال شاعرهم ، وقد نسبه ابن إسحاق إلى أخت القتيل) [3] .

لعمرى لقد أخزى نُميلة رهطه | وفجّع أضياف الشتاء بمقيس
فلله عينا من رأى مثل مقيس | إذا النفساء أصبحت لم تخرس)[4]

٣ ـ المرتد الثالث : عبد الله بن سعد بن أبى سرح :

قالوا : (أى شيوخ محمد بن عمر) :

(وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يكتب لرسول الله ﷺ الوحى فربما أملى عليه رسول الله ﷺ : « سميع عليم » فيكتب :عليم حكيم، فيقرأ رسول الله ﷺ ،فيقول : « كذلك الله » ويقره ، وافتُتن وقال: ما يدرى محمد ما يقول ، إنى لأكتب له ما شئت ، هذا الذى كتبت يوحى إلىّ كما يوحى إلى محمد ، وخرج هاربًا من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح فلما كان يومئذ جاء ابن أبى سرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أخاه من الرضاعة فقال : يا أخى ، إنى والله اخترتك فاحتبسنى ها هنا واذهب إلى محمد فكلمه فىّ فإن محمداً إن رآنى ضرب الذى فيه عيناى ، إن جرمى أعظم الجرم وقد جئت تائبًا ، فقال : بل اذهب معى ، قال عبد الله : والله لئن رآنى ليضربن عنقى ولا يناظرنى ، قد أهدر دمى ، وأصحابه يطلبوننى فى كل موضع . . .) .

لقد أدرك ابن أبى سرح جريمته ولم يأت ثملا متخايلا مثل مقيس بن صبابة ولم يأت

---

(١) الشرب الكرام : صديق السكارى ونديمهم .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٦٠، ٨٦١ .
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨٦١ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤١٠ .

متحديًا بضرب كأفواه المزاد مثل ابن خطل ، إنما عاش شعور القناعة بالجرم العظيم الذى ارتكبه وأن القتل هو الذى يستحقه ولاشك ، ولكن هل من شفاعة ؟ وأمله ضعيف جدًا بذلك أمام عظم جرمه (إن جرمى أعظم الجرم ، وقد جئت تائبًا) .

(فقال عثمان : انطلق معى فلا يقتلك إن شاء الله ، فلم يرع رسول الله ﷺ إلا بعثمان آخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبى سرح واقفين بين يديه ، فأقبل عثمان على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمه كانت تحملنى وتمشيه ، وترضعنى وتقطعه ، وكانت تلطفنى وتتركه فهبه لى ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ،وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبى ﷺ بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام وإنما أعرض النبى ﷺ عنه إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه ، فلما رأى ألا يقدم أحد ، وعثمان قد أكب على رسول الله ﷺ يقبل رأسه وهو يقول : يا رسول الله ، تبايعه فداك أبى وأمى ، فقال رسول الله ﷺ :« نعم » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال :«ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الفاسق فيقتله ؟ !» .

فقال عباد بن بشر : ألا أومأت إلىّ يا رسول الله ؟ فوالذى بعثك بالحق إنى لأتبع طرفك فى كل ناحية رجاء أن تشير إلىّ فأضرب عنقه ، (ويقال : قال هذا أبو اليسر ، ويقال : عمر بن الخطاب) .

فقال رسول الله ﷺ : « إنى لا أقتل بالإشارة » ، وقائل يقول : إن النبى ﷺ قال يومئذ : « إن النبى لا ينبغى أن تكون له خائنة الأعين » .

فبايعه رسول الله ﷺ .

لقد سبق عليه الكتاب وعمل بعمل أهل النار ، ولم يكن بينه وبينها إلا ذراع فعمل بعمل أهل الجنة ، وقبل رسول الله ﷺ توبته ، فقد أراد الله تعالى به الخير رغم عظيم جرمه .

فلم يقدم أى مسلم بين يدى رسول الله ﷺ على قتل ابن أبى سرح هيبة منه صلوات الله وسلامه عليه ، وإكرامًا لعثمان بن عفان صهره وختنه على ابنتيه ويد الكثير منهم على السلاح ينتظرون الإشارة فقط لقطِّ رأسه عن جسده .

ثم كانت الإرادة الربانية لمقام النبوة ألا يقتل بخائنة الأعين ، ولا يقتل بالإشارة ، أو يظهر شيئًا،ويبطن شيئًا فمقام النبوة من العظمة والعلو والسمو ألا يستعمل العين أو اليد فيقتل بها ،ولو كان يستحق القتل ولو كان المجرم المرتد الفاتك،وهو الرحمة للعالمين وهو النور والهدى للبشرية كلها،وهكذا سبقت سعادته شقاوته ، ومضت المهلة المقررة للقتل،

فقبل رسول الله ﷺ بيعة ابن أبى سرح .

(فبايعه رسول الله ﷺ فجعل يفر من رسول الله كلما رآه فقال عثمان لرسول الله ﷺ : بأبى أنت وأمى لو ترى ابن أم عبد الله ، يفر منك كلما رآك ، فتبسم النبى ﷺ فقال : « أو لم أبايعه وأؤمنه ؟ » قال : بلى، أى رسول الله ، ولكنه يتذكر عظيم جرمه فى الإسلام ، فقال النبى ﷺ :« الإسلام يجب ما كان قبله »،فرجع عثمان إلى ابن أبى سرح فأخبره ، فكان يأتى فيسلم على النبى ﷺ مع الناس)(١) .

ولنمض مع ابن أبى سرح قدمًا إلى الأمام ، إذ بقى منطويًا على نفسه مغمومًا بذنبه إلى أن أطلقه عثمان رضي الله عنه ثانية بعد إطلاقه الأول وإعادة الحياة إليه بالإسلام ، فها هو يعيد إليه الحياة بالجهاد .

(وهو الذى افتتح إفريقية زمن عثمان وولى مصر بعد ذلك،وكانت ولايته لمصر سنة خمس وعشرين ، وكان فتح إفريقية من أعظم الفتوح ، بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار وذلك سنة ثمان وعشرون ، وأما الأساود فكان فتحها سنة إحدى وثلاثين بالنوبة ، وقال خليفة : وفى سنة سبع وعشرين عُزِل عمرو عن مصر ووُلى عبد الله بن سعد ، وقال ابن البرقى فى تاريخه : حدثنا أبو صالح عن الليث قال : كان ابن أبى سرح على الصعيد فى زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ، وكان محموداً فى ولايته وغزا ثلاث غزوات ؛ إفريقية وذات الصوارى والأسود ، وروى البغوى بإسناد صحيح عن زيد ابن أبى حبيب قال : خرج ابن أبى سرح إلى الرملة ، فلما كان عند الصبح قال : اللهم اجعل آخر عملى الصبح ، فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه فذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه ـ يرحمه الله، وذكره البخارى من هذا الوجه ، وأخرج السراج عن عبد العزيز ابن عمران قال : مات ابن أبى سرح سنة تسع وخمسين فى آخر عهد معاوية)(٢) .

٤ ـ القتيل الثالث : الحويرث بن نقيذ :

(وأما الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصى ، فإنه كان يؤذى النبى ﷺ فأهدر دمه .

قال ابن هشام : وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة ، فنخس بهما الحويرث بن نقيذ ، فرمى بهما إلى الأرض)(٣) ، وعند الصالحى : (ونخس بزينب بنت رسول الله ﷺ)(٤) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٥٦ ، ٨٥٧ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٤/ ٧٧، ٧٨ ت (٤٧٠٢) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤١٠ .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٤٠ .

(فبينما هو فى منزله قد أغلق عليه بابه، فسأل عنه على بن أبى طالب ﷺ فقيل : هو فى البادية : فأخبر الحويرث أنه يطلب فتنحى علىٌ عن بابه ، فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى آخر فتلقاه علىٌ فضرب عنقه) (١) .

لقد كانت رجولته وجرأته على الطعن ببنات محمد ﷺ ،ولم يكن من الشرف والرجولة بحيث يصارع فى الميدان ، لقد قالت هند بنت عتبة عنه وعن هبار بن الأسود اللذين ظهرت شجاعتهما فى النيل من النساء متمثلةً فى البيت المشهور : (ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم :

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة   وفى الحرب أشباه النساء العوارك)(٢)

وانتهى الحويرث بن نقيذ ،بينما أنقذ الله تعالى زميله هبار بن الأسود .

٥ ـ المستأمن الثانى : هبار بن الأسود :

فقد شاءت إرادة الله تعالى نجاته وإسلامه إذ فرَّ من مكة ولم يقع بين يدى جيش الله وجنده .

(قال محمد بن عمر ،حدثنى واقد بن أبى ياسر عن يزيد بن رومان قال :قال الزبير ابن العوام : ما رأيت رسول الله ﷺ ذكر هباراً قط إلا تغيظ عليه،ولا رأيت رسول الله ﷺ بعث سرية قط إلا قال :« إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه » والله لقد كنت أطلبه وأسأل عنه،والله يعلم لو ظفرت به قبل أن يأتى إلى رسول الله ﷺ لقتلته ، ثم طلع على رسول الله ﷺ وأنا جالس عنده ، فجعل يعتذر إلى رسول الله ﷺ ويقول : سُبَّ يا محمد من سبَّك ، وأوذى من آذاك ، فقد كنت موضعًا فى سبك وأذاك ، وكنتُ مخذولاً وقد نصرنى الله وهدانى للإسلام: فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ استحياءً مما يعتذر هبار ، وجعل رسول الله ﷺ يقول: « قد عفوت عنك، والإسلام يجب ما كان قبله » وكان لسنًا ، وكان يسبُّ حتى يبلغ منه فلا ينتصف من أحد فبلغ رسول الله ﷺ حلمه وما يحمل عليه من الأذى فقال : « هبار ، سُب من سبَّك »(٣) .

هذه رواية الزبير الحريص على قتله ، وتلك رواية هشام بن عمارة ، عن سعيد ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه عن جده قال :

كنت جالسًا مع النبى ﷺ فى أصحابه فى مسجده ، منصرفه من الجعرانة ، فطلع هبار بن الأسود من باب رسول الله ﷺ ، فلما نظر القوم إليه قالوا :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٣٤٠ .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٥٦ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/٨٥٨، ٨٥٩ .

يا رسول الله ، هبار بن الأسود ، قال رسول الله ﷺ : « قد رأيته » ، فأراد بعض القوم القيام إليه فأشار النبى ﷺ : « أن اجلس » .

فهنا عند هبار يشير عليه الصلاة والسلام بالجلوس ، ويومئ به لأنه الأمن والطمأنينة للمحكوم عليه بالإعدام ، أما هناك وعند ابن أبى سرح فلا إشارة لأن النبى ﷺ لا يغتال ولا يقتل بالإشارة ، وقد فاتهم ركبه يوم الفتح ، ومضى الزمن طويلا بعد إهدار دمه ، ووصل إلى موطن الأمن والسلام فى الوجود فكيف يُخاف .

(ووقف عليه هبار فقال: السلام عليك يا رسول الله، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . . .) .

إنه هو نفسه الذى آذى ابنته زينب (فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن الأسود بن عبد العزى والفهرى فروّعها هبار بالرمح وهى فى هودجها ، وكانت المرأة حاملا فلما ريعت طرحت ذا بطنها)[1] .

إنه هو نفسه الذى كان تغيظ عليه رسول الله ﷺ ، وهو نفسه الذى كان يوصى كل سرية إن وجدته أن تحرّقه بالنار ، ثم عدل رسول الله ﷺ إلى قطع يديه ورجليه وقتله، إنه هو نفسه الآن بين يدى محمد وجنده وحزبه الذين يتقربون إلى الله تعالى وإلى رسوله بدمه .

ولكن كيف وقد قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، أما بعد هذا فلا ، فقد دخل حظيرة الأمن بالإيمان .

ويتابع هبار :

(. . . ولقد هربت منك فى البلاد ، وأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرّك وصفحك عمّن جهل عليك) .

فهو أحلم الخلق ، وأبر الخلق ، وأصفح الخلق ، وأفضل الخلق ، إنه محمد رسول الله ﷺ الرحمة المهداة .

(. . . وكنا يا رسول الله ، أهل شرك ، فهدانا الله عز وجل بك ، وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح عمّن جهل عليك ، وعما كان يبلغك عنى ، فإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى) .

وهل يمكن أن يكون فى الوجود أعظم خلقًا وحلمًا من رسول الله ﷺ ؟ ! أبدًا .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٥٤ .

فقال : « قد عفوت عنك ، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام ، والإسلام يجب ما كان قبله » (١) .

٦ ـ المستأمنة الثالثة :

(وسارة مولاة عمرو بن صيفى بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت مغنية نواحة بمكة ، وكانت قدمت على رسول الله ﷺ قبل الفتح ، وطلبت منه الصلة وشكت الحاجة فقال رسول الله ﷺ : « ما كان من غنائك ما يغنيك ؟ ! » فقالت : إن قريشًا منذ قتل من قُتل منهم ببدر تركوا الغناء ، فوصلها رسول الله ﷺ وأوقر لها بعيراً وطعامًا ، ورجعت إلى قريش ، وكان ابن خطل يلقى عليها هجاء رسول الله ﷺ فتُغنى به ، وهى التى وجد معها كتاب حاطب بن أبى بلتعة ، فأسلمت وعاشت إلى خلافة عمر ابن الخطاب) (٢) .

٧ ـ لا يقتل قرشى صبراً بعد اليوم :

روى مسلم عن عبد الله بن مطيع بن الأسود وعن أبيه ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكة : « لا يُقتل قرشى صبرًا بعد اليوم إلى يوم القيامة »(٣) .

ويسوق لنا محمد بن عمر سبب هذا الإعلان بقوله فيما رواه عن أبى حصين الهُذلى:

(لما قُتل النفر الذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهم سمع النوح عليهم بمكة ، وجاء أبو سفيان بن حرب فقال : فداك أبى وأمى البقية فى قومك) .

إنه أبو سفيان زعيم الحرب وزعيم السلام، فهو الذى قال عند تهديد سعد بن عبادة:

يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ، ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ ونزعت الراية منه لابنه قيس وهو الذى قال ، عندما أمر رسول الله ﷺ بحصد أوباش قريش :

يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، وتم إعلان إيقاف القتال وهو الذى يقول الآن ، وقد سمع النوح فى مكة :

فداك أبى وأمى البقية فى قومك .

فكان الإعلان النبوى عن منع القتل عن المهدر دمهم بعد أن لم يتم قتلهم فى المدة التى أباحها الله تعالى لنبيه ساعة من نهار من صبح يوم الفتح إلى عصره .

قال عليه الصلاة والسلام : « لا يُقتل قرشى صبرًا بعد اليوم » ، قال محمد بن

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٥٨ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٤٧ .
(٣) مسلم ٣/ ١٤٠٩ .

عمر: يعنى على الكفر .

ولقد شمل عفو النبى ﷺ كل كافر من قريش ، وهم المطلوبون الملاحقون ، فلن يقتلوا صبرًا وهم محبوسون على الكفر ، وقد أعاد الله تعالى الأمن إلى مكة كحرمتها يوم خلق الله السموات والأرض وعمَّم رسول الله ﷺ الأمر فى حديث آخر بحيث يكون أبعد من الأمن الفردى ليكون الأمن الجماعى .

(وروى أيضًا عن الحارث بن البرصاء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة على الكفر »[1] .

وهكذا كانت نهاية أكابر المجرمين الذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة،انتهت نهاية النفر الثمانية الذين أحصاهم ابن حجر فى الفتح والأربع نسوة، انتهت بقتل نصفهم واستئمان نصفهم الآخر ، إذا أخذنا بجميع الروايات التى ورد فيها هذا الأمر[2] .

حيث ورد أن الحارث بن الطلاطل الخزاعى قتله على بن أبى طالب ، وهو أحد هؤلاء الثمانية ثم صدر العفو الأخير يوم الفتح بعد العصر ، فلا يقتل بعد اليوم قرشى صبرًا إلى يوم القيامة .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٦٢ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ١٢ .

أئمة الكفر الأربعة والتربية النبوية للعدو

الأربعة الكبار الذين رفضوا السلام والأمن وقرروا الحرب والمواجهة من قيادات مكة هم : هند بنت عتبة ، عكرمة بن أبى جهل ، صفوان بن أمية ، سهيل بن عمرو .

ولنتابع الخطا مع كل واحد من هؤلاء ، ما هو المدى الأعلى والذروة التى بلغها فى حرب الإسلام وأهله ، وكيف تم التحول العجيب لهؤلاء إلى الإسلام .

١ ـ هند بنت عتبة ـ تتمة الأربعة (١) :

أ ـ لا نبالغ إذا حددنا شخصية هند بقولنا : إنها أكبر حاقدة فى التاريخ العربى آنذاك فهى تمثل بيئة الكفر والحرب ضد رسول الله ﷺ قبل أن تفقد أحبابها وأغلى ما فى وجودها فى بدر ، وكانت تضارع الخنساء فى عظيم مصيبتها وها نحن نراها فى أحد ، ونشهد ماذا يفعل الحقد فى النساء .

(قال ابن إسحاق : ووقفت هند بنت عتبة كما حدثنى صالح بن كيسان والنسوة اللاتى معها ، يمثلن(٢) بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن(٣) الآذان والآنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدمًا(٤) وقلائد ، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشيًا غلام جبير بن مطعم وبقرت(٥) عن كبد حمزة فلاكتها(٦) فلم تستطع أن تسيغها(٧) فلفظتها(٨) ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر — والحرب بعد الحرب ذات سعْر(٩)
ما كان عن عتبة لى من صبر — ولا أخى وعمه وبكرى(١٠)
شفيت نفسى وقضيت نذرى — شفيت وحشى غليل(١١) صدرى
فشكر وحشى علىَّ عمرى — حتى ترم(١٢) أعظمى فى قبرى)(١٣)

---

(١) إذا أخذنا بالقول أنها واحدة من النسوة الأربع اللاتى أهدر دمهن .
(٢) يمثلن : يشوهن .
(٣) يجدعن : يقطعن .
(٤) الخدم : جمع خدمة وهى الخلخال .
(٥) بقرت : شقت .
(٦) لاكتها : مضغتها .
(٧) أن تسيغها : أن تبتلعها .
(٨) لفظتها : طرحتها .
(٩) السُعُر : الالتهاب (وسُكِّن للشِّعر) .
(١٠) بكرى : لعله قيس بن الفاكه بن المغيرة من أول أزواجها وقد قُتل قيس فى بدر .
(١١) الغليل : العطش .
(١٢) ترم : تبلى وتتفتت.
(١٣) السيرة النبوية لابن هشام م ٣/ ٩١ .

وقالت هند بنت عتبة أيضًا :

(شفيت من حمزة نفسى بأحد ... حتى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عنى ذاك ما كنت أجد[1] ... من لذعة[2] الحزن الشديد المعتمد[3]
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد ... تقدم إقداما عليكم كالأسد)[4]

لقد فقدت فى بدر ابنها البكر ، وأباها ، وأخاها ، وعمّها ، وشفت حقدها فى أحد ومضت كاللبؤة الكاسرة لا يرضيها إلا حرب محمد وأهله والقضاء عليهم .

وها هى تعود إلى مكة بعد هذه الملحمة والتمثيل بالشهداء وتبحث عن كبدها الحرى فلا تجد أنها اشتفت فى كل ما فعلته فقالت :

(رجعت وفى نفسى بلابل[5] جمة[6] ... وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم ... بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئًا ولم يكن ... كما كنت أرجو فى مسيرى وركبى)[7]

إنها تود كبدين آخرين تلوكهما ، وجثتين تمثل بهما إضافة إلى كبد حمزة ﷺ وجثته ، إنها تود من بنى هاشم كبد محمد رسول الله وجثته لتطفئ غلتها فهو الذى جاء بهذا الدين وسبب قتل الأحبة .

وتود كبد على بن أبى طالب وجثته فهو الذى قتل أخاها الوليد ، وساهم فى قتل أبيها عتبة فهو شريك حمزة بن عبد المطلب فى كل شىء لهذا قالت والغصة فى حلقها :

رجعت وفى نفسى بلابل جمة ... وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

ب ـ وحين فشل أبو سفيان فى مهمته الأولى بعد الحديبية :

(وانطلق إلى مكة (أبو سفيان) وكان قد حُبس وطالت غيبته ، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة وقالوا : والله إن نراه قد صبأ واتبع محمدًا سرًا وكتم إسلامه فلما دخل على هند ليلاً قالت : لقد حُبست حتى اتهمك قومك ، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل ، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة ، فجعلت تقول ، ما صنعت ؟ فأخبرها الخبر وقال : لم أجد إلا ما قال لى على ، فضربت برجليها فى صدره وقالت : قُبّحت من رسول قوم)[8] .

---

(١) أجد : أتألم .
(٢) اللذعة : ألم الثأر أو ما يشبه بها .
(٣) المعتمد : القاصد المؤلم .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام م٢ / ٩١ .
(٥) البلابل : الأحزان .
(٦) جمة : كثيرة .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام م٢/١٦٨ .
(٨) المغازى للواقدى ٢/ ٧٩٥ .

جـ ـ أما أعنف الأزمات بينها وبينه فقد كانت عندما وقع وثيقة استسلام مكة مع رسول الله ﷺ :

(فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كداء وهو يقول : من أغلق بابه فهو آمن ، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة،فأخذت برأسه فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد ، وقد جعل لى : من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن ، قالت : قبحك الله رسول قوم، قال : وجعل يصرخ بمكة :

يا معشر قريش ويحكم ، إنه قد جاءكم ما لا قِبل لكم به ، هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد ، فأسلموا ، قالوا : قبحك الله وافد قوم ، وجعلت هند تقول :

اقتلوا وافدكم هذا ، قبحك الله وافد قوم .

قال : يقول أبو سفيان : ويلكم لا تغرّنكم هذه عن أنفسكم ، رأيت ما لم تروا ، رأيت الكراع والرجال والسلاح ، فما لأحد بهذا طاقة)[1] .

وفى رواية ابن إسحاق : (فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوا الحميت[2] الدسم[3] الأحمس[4] ، قُبّح من طليعة قوم ، قال : ويلكم لا تغرّنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قِبل لكم به)[5] .

د ـ وانقسمت مكة إلى معسكرين : معسكر على رأسه أبو سفيان قبل بشروط الصلح ، وأغلق عليه بابه ـ أو مضى إلى الكعبة أو دخل دار أبى سفيان ـ ينتظر مصيره المجهول ، ومعسكر آخر على رأسه هند بنت عتبة والقادة الكبار الثلاثة عكرمة وسهيل وصفوان يقسمون : لا يدخلها علينا محمد عنوة أبدًا ، واستنفروا الأحابيش حول مكة ، ووضعوا الخطة التالية ، كما فى صحيح مسلم وغيره :

(لما كان يوم فتح مكة : وبشت قريش أوباشًا لها وأتباعًا فقالوا : نقدم هؤلاء ، فإن كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا ، فرآنى رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا هريرة » ، قلت : لبيك . قال : « اهتف بالأنصار ، ولا يأتينى إلا أنصارى » . قال : ففعلت ما أمرنى به فأتوه فقال : « انظروا قريشًا وأوباشهم فاحصدوهم حصدًا » ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى فانطلقنا ، فما أحد يوجه إلينا شيئًا ، وما منا أحد

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٢٣ .
(٢) الحميت : زق السمن .
(٣) الدسم : الكثير الودك .
(٤) الأحمس : شديد اللحم .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام م٢/ ٤٠٥ .

يريد أحدًا منهم إلا أخذه . فجاء أبو سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، فألقى الناس سلاحهم »)(١) .

هـ ـ وتناهى إلى سمعها أخبار الحرب الدائرة بين خالد بن الوليد والقادة الثلاثة والتى لخصها حماس بشعره الذى قاله لزوجه :

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فــرَّ صفوان وفــرَّ عكرمــه
وأبو يـزيــد قــائـم كالموتمــه ... واسـتقبلتهم السـيوف المسلمــه
يقطعـن كـل ســاعـد وجمجمـه ... ضربـًا فلا تُسـمَعُ إلا الغمغمــه
لهــم نهيــت خلفـنـا وهمهمــه ... لــم تنطقى فى اللــوم أدنى كلمــه

آن الأوان بعد هذه الهزيمة الكبرى أن تعى وتعقل وتثوب إلى رشدها فهل تفر كما فر القادة الثلاثة أم تختبئ فى بيتها وتطلب الأمان عن طريق زوجها . وقد انتهى معسكرها وفر قادته ؟

و ـ وها هى تعرض سجل حياتها بعد الهزيمة . كما حدثت به مولاة لمروان بن الحكم فيما بعد تقول فيه :

(أنا عاديته كل العداوة ، وفعلتُ يوم أحد ما فعلتُ من المثلى بعمّه وأصحابه ، وكلما سيرت قريش مسيرة فأنا معها بنفسى أو معينة لقريش ، حتى إن كنتُ لأعين كل من غزا إلى محمد حتى تجرَّدت من ثيابى ، فرأيت فى النوم ثلاث ليالٍ ولاءً بعد فتح مكة ، رأيت كأنى فى ظلمة لا أبصر سهلا ولا جبلا ، وأرى تلك الظلمة انفرجت علىّ بضوءٍ كأنه الشمس ، وإذا رسول الله ﷺ يدعونى . ثم رأيت فى الليلة الثانية كأنى على طريق يدعونى وإذا هُبَلُ عن يمينى يدعونى ، وإذا إساف عن شمالى يدعونى ، وإذا برسول الله ﷺ بين يدىّ يقول : هلمى إلى الطريق ، ثم رأيت الليلة الثالثة كأنى واقفة على شفير جهنم يريدون أن يدفعونى بها ، وإذا بهبل يقول : أدخِلوها ، فالتفت فأنظر رسول الله ﷺ من ورائى آخذ بثيابى . فتباعدت من شفير النار فلا أرى النار ففزعت . فقلت : ما هذا وقد تبين لى . فغدوت من ساعتى إلى صنم فى بيت كنا نجعل عليه منديلا ، فأخذت قدومًا فجعلت أفلذه وأقول : طالما كنا منك فى غرور ، وأسلمت)(٢) .

لقد بدأت ترى هذه الرؤى بعد أن فقدت صوابها بالهزيمة المنكرة التى حاقت بقريش

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٤٦/٥ ، ٣٤٧ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٨١/٥ .

وبدأت عودة الوعى عندها تأخذ مداها ، وكانت الهزيمة الساحقة الصاعقة هى الصاعق الكهربى الذى زلزل أعماقها ، وحطّم الران الذى يسيطر على قلبها ، وأمكن دخول النور إليه من خلال ذلك الركام . وكان ضئيلاً فى البداية ثم بدأ يتوهج قليلاً قليلاً حتى اهتز ثانية ، ودخل الإسلام فى إعادة بناء ذراته من جديد .

ز ـ ولعل الحدث الذى هزها بعد الفتح هى نظرتها إلى جيش الله بآلافه المؤلفة وهو فى الكعبة قائم طيلة الليل بين راكع وساجد ، يكبر لله ، ويحطم الأصنام ، ويناجى ربه تضرعًا وخفية . كانت هذه المناظر تتراءى أمامها ، وتحتشد وتحتشد ، حتى خرجت على غير وعى منها تلك الكلمة المشهورة :

ما رأيت الله عُبِدَ حق عبادته إلا هذه الليلة .

وفى رواية عن سعيد بن المسيب قال : (لما دخل رسول الله ﷺ مكة ليلة الفتح لم يزالوا فى تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا . فقال أبو سفيان لهند : أترين هذا من الله ؟ قالت : نعم هذا من الله . قال : ثم أصبح ، فغدا أبو سفيان على رسول الله ﷺ فقال : « قُلت لهند : أترين هذا من الله ؟ قالت : نعم . هذا من الله » .

فقال أبو سفيان : أشهد أنك عبد الله ورسوله والذى يُحلف به ما سمع قولى هذا أحد من الناس إلا الله عز وجل وهند) (١) .

لقد أشرق قلبها بنور الإسلام قبل أن تتلفظ به ،حيث رأت العباد الزهاد المجاهدين، وقامت لتوها إلى الصنم الذى أمضت عمرها تقدسه وتغطيه بالمنديل وتستره . قامت إلى القدوم ، لتلبى ذلك النور الذى تأجج فى صدرها ، ومضت إلى الصنم تقطعه فلذة فلذة صارخة من أعماقها ، طالما كنا منك فى غرور،وأبو سفيان ، كأنما ملك الدنيا ، حين رأى هند تفعل ذلك ، فقد انتهى هذا الفصام النكد فى بيته بينه وبينها وانضمت إلى حزبه.

ح ـ وكان اليوم الثانى حيث نشهد فيه عظيمة النساء التى كانت أشدهن كرهًا للإسلام، كيف تفعل بمعدنها النفيس فى الإسلام . فها هى الآن تقود النساء إلى الإسلام . كما قادتهن من قبل لحرب الإسلام .

(قال الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله تعالى :

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام فجلس لهم ـ فيما بلغنى ـ على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلس رسول الله ﷺ فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا . فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٧٠ .

بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنقبة متنكرة خوفًا من رسول الله ﷺ أن يُخبرها بما كان من صنيعها بحمزة. فهى تخاف أن يأخذها بحدثها ذلك ، فلما دنين من رسول الله ﷺ قال:

« بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئًا » .

فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال .

فقال : « ولا تسرقن » .

فقالت : والله إنى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة ، وما أدرى أكان ذلك حلالاً أم لا ؟ فقال أبو سفيان ـ وكان شاهدًا: أمّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل .

فقال رسول الله ﷺ : « وإنك لهند بنت عتبة » !

فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .

ثم قال : « ولا تزنين » .

فقالت : يا رسول الله ! أو تزنى الحرة ؟!

ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » .

فقالت : قد ربيناهم صغارًا ، وقتلتهم يوم بدر كبارًا ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب [(١)] .

قال : « ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن » .

قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : « ولا تعصيننى فى معروف » .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر : « بايعهن ، واستغفر لهن رسول الله » .

فبايعهن عمر ، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ، ولا يمس امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه)[(٢)] .

وها هى هند تتفاعل مع هذه العظمة النبوية والتى أغضت عن كل سفاهاتها الجاهلية، فلا تتمالك أن تعبر عن هذه المشاعر كما حدثتنا عائشة رضي الله عنها قالت :

---

(١) استغرب : معلومًا ومجهولاً : بالغ فى الضحك .

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٣/ ٦١، ٦٢ ، دار المعارف تحقيق : أبى الفضل إبراهيم .

(جاءت هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحبَّ إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحبَّ إلى أن يعزوا من أهل خبائك .

قال : « وأيضًا والذى نفسى بيده ») (١) .

إنه تعبير صادق عن ذلك الانهيار النفسى للبناء الجاهلى المتداعى الذى كان أكبر أحلامه ، وأعظم آماله دحر محمد وأهله وذلهم وهزيمتهم ليقام عوضًا عنه هذا البنيان الإسلامى السامق الذى يرى أكبر أحلامه وأعظم آماله أن يكون بيت محمد رسول الله أعز بيت فى الدنيا ، وأعلاه مجدًا وذروة وأرومة ، وكيف لا ، وهو بيت رسول الله ﷺ الذى أنقذها من النار التى كان هبل يدفعها فيها ، وأنقذها من الظلمة المهلكة العاتية إلى النور الأبلج .

وتتجلى العظمة النبوية المحمدية فى هذا الجواب الخالد لرسول البشرية كلها ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى كان يريد الذل لبيت هند وأبى سفيان ؛ لأنه بيت قيادة الشرك والوثنية وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد هذا العز والمجد لهذا البيت أن يكون أعز البيوت وأرفعها بعد أن دخل حظيرة الإسلام ، أو ليس خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ؟

وها هى تتابع بعد هذا الإسلام قائلة معترفة سعيدة قريرة العين بهذا الدين .

(الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتمسنى رحمتك يا محمد . إنى امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة به ، ثم كشفت عن نقابها ، فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مرحبًا بك »).

إنها بشخصيتها العظيمة الخالدة ، لم تدع فقرة من فقرات البيعة على الإسلام إلا أبدت فيها رأيها . فهى ترفض فى قيمها الجاهلية : أن تزنى الحرة ، فكيف لا تبايع على ذلك ، وهى ترفض فى قيمها الجاهلية إتيان البهتان وتراه من القبائح الممجوجة ، والتجاوز عنه أعظم ، وهى لا تجد حرجًا أن تعبر عن لوعتها على بكرها المقتول فى بدر، (ربيناهم صغارًا وقتلتهم ببدر كبارًا)، ولا تجد حرجًا أن تسأل عما كانت تأخذ من أبى سفيان الهنة بعد الهنة ، وهل هو سرقة أم لا ـ وأبو سفيان زوجها ـ وهى تعلن فى النهاية استسلامها الكامل لله ولرسوله . وهى تفقه معنى الشهادة بالوحدانية والشهادة بالرسالة .

---

(١) البخارى ٥/٤٩ ، ذكر هند بنت عتبة .

قال : « ولا تعصينني في معروف » .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف .

وتعلم أن الإسلام هو الانقياد الكامل لله تعالى ورسوله فيما يأمر فيه وينهى عنه .

وليت مسلمي اليوم يفقهون معنى هذه الشهادة ، كما فقهتها مسلمة الدقائق الأولى وجاهلية العمر كله هند بنت عتبة ، ولما يمر على إسلامها لحظات ، وأين مسلمو الأرض اليوم من معنى لا إله إلا الله ؟؟

إنها قبل يوم واحد لا تزال أكبر حاقدة في التاريخ على محمد وصحبه وتدعو إلى قتل زوجها الذي أسلم واستسلم وتعبئ مكة كلها لحرب محمد ، وها هي اليوم وبعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام ، لم تجلس هذا المجلس لتسلم وفي ذهنها أن تعصى محمداً رسول الله في ذرة من ذرات أوامره ونواهيه .

ط ـ وها هي تود رضي الله عنها : أن تمسح كل الأجواء القاتمة السابقة ، وأن تُعبّر عن فرحتها بهذا الحدث السعيد أو قل أسعد حدث في حياتها من خلال هذه الهدية المتواضعة .

فعن أبي حصين الهذلي قال : (لما أسلمت هند بنت عتبة أرسلت إلى رسول الله ﷺ بهدية وهو بالأبطح ـ مع مولاة لها بجديين مرضوفين (١) وقَد (٢) ، فانتهت الجارية إلى خيمة رسول الله ﷺ فسلمت واستأذنت . فأذن لها فدخلت على رسول الله ﷺ وهو بين نسائه أم سلمة زوجته وميمونة، ونساء من نساء بني عبد المطلب، فقالت: إن مولاتي أرسلت إليك بهذه الهدية وهي معتذرة إليك وتقول: إن غنمنا اليوم قليلة الوالدة. فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكم في غنمكم ، وأكثر والدتها » .

فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسُرَّت بذلك ، فكانت المولاة تقول: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى من قبل ولا قريبًا، فتقول هند : هذا دعاء رسول الله ﷺ وبركته ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام . ثم تقول :

لقد كنت أرى في النوم أني في الشمس أبدًا قائمة، والظل مني قريب لا أقدر عليه. فلما دنا رسول الله ﷺ رأيت كأني دخلت في الظل) (٣) .

لقد كانت الوجبة الأولى والوليمة العظيمة يوم الفتح هي كسرات الخبز والملح والخل عند أم هانئ . أما اليوم فالوجبة هذان الجديان المشويان ، وممَّن ؟ من عدوة الإسلام

---

(١) مرضوفين : مشويين على الرضف ، والرضف الحجارة المحمّاة على النار .

(٢) القد : جلد السخلة .

(٣) المغازي للواقدي ٢/٨٦٨ ، ٨٦٩ .

الأولى التى غدت سيدة الإسلام الأولى فى مكة ، وفى بيت أبى سفيان .

٢ ـ عكرمة بن أبى جهل تتمة الثمانية :

أ ـ ورث العداوة عن أبيه كابراً عن كابر. وخاض كل الحروب ضد رسول الله ﷺ. وقال لخالد بن الوليد ﷺ عندما دعاه للإسلام قبل الفتح : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبدًا وهو أحد القادة الأربعة الكبار الذين رفضوا المصالحة مع رسول الله ﷺ وقادوا الجموع لمواجهته معلنين : لن يدخلها علينا عنوة أبدًا . وجرب حظه وألقى سهمه الأخير فى حرب محمد رسول الله ﷺ ، وما هى إلا ساعات حتى اندحر مع أركان حربه . وفرَّ يبغى ملاذًا آمنًا يأوى إليه ، وفاته الأمان الأول حين لم يغلق عليه بابه ولم يلجأ إلى الكعبة أو إلى بيت أبى سفيان . بل أعلن أنه المحارب حتى آخر لحظة . ولم نتحدث عنه ، وقد أغنانا بالحديث عن نفسه بقوله :

ب ـ (بلغنى أن رسول الله ﷺ نذر دمى يوم الفتح ، وكنت فى جمع من قريش بأسفل مكة وقد ضوى إلىَّ من ضوى. فلقينا هناك خالد بن الوليد ، فأوقع بنا ، فهربت منه أريد والله أن ألقى بنفسى فى البحر ، وأموت تائهًا فى البلاد قبل أن أدخل فى الإسلام ، فخرجت حتى انتهيت إلى الشعيبة) (١) .

لقد كان يفكر فى كل شىء إلا الإسلام أن يلقى نفسه فى البحر ، أو يمضى تائهًا فى البلاد حتى يلقى مصرعه ، ولو مضى كذلك ، فمن هو فى التاريخ حتى يذكره التاريخ ، إنه سينتهى كما انتهى أبوه من قبل فرعون هذه الأمة الذى حلم بأن يكتب تاريخ قريش بالدم ، وتعزف عليه القيان ويشرب الخمر ، وتُضرب الدفوف .

هذه هى بيئة عكرمة . وزوجه ابنة عمه الحارث بن هشام أم حكيم ، وبنو مخزوم هم العدو الألد لرسول الله ﷺ ، لكن الذى غيَّر لعكرمة تاريخه ، وقاده إلى النور هى زوجه أم حكيم بنت الحارث ابن هشام التى وصفها عكرمة بقوله : (وكانت زوجتى أم حكيم بنت الحارث امرأة لها عقل) . ولنشهد عقلها العظيم .

جـ ـ (لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ، وأسلمت أم حكيم بنت الحارث ابن هشام امرأة عكرمة بن أبى جهل ، وأسلمت امرأة صفوان بن أمية البغوم بنت المعذّل من كنانة ، وأسلمت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وأسلمت هند بنت منبّه بن الحجاج وهى أم عبد الله بن عمرو بن العاص فى عشر نسوة من قريش . . . ثم قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبى جهل : يا رسول الله قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٧٧ .

تقتله فأمّنهُ . فقال لها رسول الله ﷺ : « هو آمن » . فخرجت أم حكيم فى طلبه ومعها غلام لها رومى)(1) .

ماذا تفعل وليس لها محرم يرافقها ، والوقت يدركها ، فلئن فاتها الركب ومضى إلى اليمن فأين تجده ، فلتغامر بحياتها لإنقاذه من الهلكة وهو كافر، وعزمت عزمتها المخزومية ومضت مع غلامها الرومى نحو الشعيبة .

د ـ وشاءت إرادة الله تعالى لهذا القلب المتفطر بالحقد أن تكون صدمته الكهربية فى خطر الموت الذى لاقاه فى البحر (فقد روى ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى عن سعد ابن أبى وقاص رضي الله عنه والبيهقى عن عروة: أن عكرمة ركب البحر، فأصابتهم ريح عاصف).

هذه الريح العاصف التى تنال الإنسان مؤمنًا أو كافرًا ، فتمضى به إلى الله .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) ﴾ [يونس] .

(فنادى عكرمة اللات والعزى ، فقال أهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئًا)، والشعور بالموت يزلزل كيان الإنسان كله . ورافق هذا الشعور ، الدعوة إلى إخلاص الدعاء لله وحده من ركاب السفينة، ووجد عكرمة نفسه متخلفًا فى عقله وفكره، وما تغنى الآلهة واللات والعزى عنه ، إنه هو الشارد وحده والضال وحده ، والمعاند وحده .

وأمام هذا التفاعل العنيف بين رهبة الموت ، ودعوة الأبعدين لله وحده . وهو الذى يدعو إليه محمد ، ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) ﴾ [ص] .

(فقال عكرمة : والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، لا ينجينى فى البر غيره . اللهم لك عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده. فلأجدنه عفواً غفوراً كريمًا . . .) (2) .

هـ ـ ونعود إلى أم حكيم رضي الله عنها نتابع معها خطواتها ورحلتها باحثة عن زوجها الفار من الله ورسوله .

(فخرجت أم حكيم فى طلبه ومعها غلام لها رومى ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تمنيه، حتى قدمت به على حى من عك فاستغاثتهم عليه، فأوثقوه رباطًا. وأدركت عكرمة

(1) المغازى للواقدى 2/ 850 ، 851 .
(2) سبل الهدى والرشاد للصالحى 5/ 377 ، 378 .

وقد انتهى إلى البحر ، فركب سفينة ، فجعل نوتى يقول له: أخلص ، أخلص ، قال : أى شىء أقول ؟ قال : قل : لا إله إلا الله . .) .

لا إله إلا الله هى التى يقاتل عليها محمداً وأبوه منذ وعى على الدنيا ، وهو يرفض أن يقولها. لكن هنا وحين لم يكن من الموت بد فلابد من قولها،إذن هى الحق.(. . . قال عكرمة : ما هربت إلا من هذا) ، وأين الهروب (وإن هـذا أمـر تعرفـه العرب والعجم حتى النواتى !!) .

ووجد نفسه ينطق دون أن يشعر،وقلبه يخفق بالإسلام :(. . . ما الدين إلا ما جاء به محمد)،وأحس بالتحول الهائل الذى غيَّره مائة وثمانين درجة (. . . وغيَّر الله قلبى).

وكما أن صديقه عمرو بن العاص وجد لحظة تغير قلبه النجاشى جاهزاً لأخذ البيعة منه على الإسلام وجد عكرمة زوجته .

(قال عمرو : وغير الله قلبى عما كنت عليه ، وقلت : عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت . . .)

(وقال عكرمة :وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم حتى النواتى، ما الدين إلا الذى جاء به محمد) .

(وقال عمرو من قبل: وأنا بعد ناءٍ عن الإسلام: أرى لو أسلمت قريش كلها ما أسلمت).

(وقال عكرمة من قبل لخالد : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً) .

وكان النجاشى جاهزاً لأخذ البيعة من عمرو ،وأتت امرأة عكرمة فى اللحظة المناسبة لتقود زوجها إلى النور ، حيث قرر عكرمة الدخول فى هذا الدين .

(. . . وغيَّر الله قلبى، وجاءتنى أم حكيم على هذا الأمر، فجعلت تليح إلىّ وتقول:

يابن عم ، جئتك من عند أبرِّ الناس، وأوصل الناس، وخير الناس ، لا تهلك نفسك فوقف لها حتى أدركته . فقالت له:إنى قد استأمنت لك رسول الله ﷺ فأمَّنك . فرجع معها) .

وكان له مهمة أخرى ، حين حدثته عما لقيت من غلامه الرومى (وأخبرته خبره فقتله عكرمة ، وهو يومئذ لم يسلم) .

وعاد معها بعد غياب طويل وشوق شديد ، وبعد أن قتل غلامه الذى راح يراودها عن نفسها فتمنيه ، وها هو عكرمة زوجها الحبيب الذى تجشمت المشاق من أجله ، وعرضت نفسها للخطر ، على عرضها ونفسها لإنقاذه ، ها هو عكرمة ، وقد التقت معه وهما وحيدان فى الصحراء يطلب منها ما يطلب المرء من زوجته ، إنه ليس غلامها

الرومى إنه زوجها الحبيب المفدى بالروح والنفس والمهج ، ومع ذلك تفعل معه ما فعلته مع غلامها الرومى ، وتفيض البسمة من وجهه ويبدأ وجهه يقطب إيذانًا بالغضب بعد العتب ، لم تتمنع منه ، وكان الدرس الثانى الذى يعادل درس خطر الموت الذى تلقاه من زوجته أم حكيم ، وأعطاه دفعة أو دفقة كهربية جديدة ، جعلت الإيمان يجد ملاذًا له فى قلبه بعد كسر الران من الحقد والكفر الذى انهار .

(وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها ، فتأبى عليه وتقول : إنك كافر وأنا مسلمة) فيقول : إن أمرًا منعك منى لأمر كبير .

ولو لم يكن شعاع الإيمان قد نفذ إلى قلبه لكان قد ثنى بها بعد غلامها الرومى ، وقتلها لإسلامها وتَمنُّعِها عنه . لكنه قد تغير، وهو يرى فى زوجته ذلك الملاك الطاهر الذى يقوده إلى محمد بن عبد الله ، ويذلل كل العقبات التى كانت تحول بين عكرمة وابن عمه محمد ، فهو لن يجد حرجًا أو يبحث عن وساطة للدخول عليه ، بعد أن أخذت له زوجه الأمان منه .

و ـ ونعود إلى المسلمين الذين بلغهم تغيير القرار النبوى عن عكرمة ، من إهدار دمه بحيث يتقرب كل مسلم إلى الله تعالى بدمه إلى إعطائه الأمان ، فلو مسَّه أحد لطرد من رحمة الله ، ولو كان ابن أبى جهل .

ولا يزال المسلمون يعانون من آخر فجوره يوم قاتل المسلمين حتى اللحظة الأخيرة ، وإذا بالمسلمين يستمعون إلى رسول الهدى يقص عليهم أخبار عكرمة مع تعليمات مشددة بعدم إيذائه بشىء ، ولو كان بأبيه أبى جهل فرعون هذه الأمة ، وتعييره به .

إنها تعليمات من أعجب ما روى التاريخ تصدر من محمد رسول الله ﷺ تطالب المسلمين بالكف عن سب فرعون الأمة أبى جهل بن هشام .

(فلما وافى مكة قال رسول الله ﷺ : « يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبوا أباه فإن سبَّ الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت ») ، وبدأت أنظار القوم تترقب هذا القادم الفار من الله ورسوله ، فهل قبضت عليه شرطة النبى لتقوده إلى المقصلة وهو من أكبر مجرمى الحرب ، وها هو قد لاح قادمًا مع زوجته .

(قال ابن عقبة والزهرى فيما رواه البيهقى وعروة وغيرهما :

فلما رأى رسول الله ﷺ عكرمة وثب إليه ، وما على رسول الله ﷺ رداء ، فرحًا بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف عكرمة بين يديه وزوجته منتقبة .

فقال : يا محمد ، إن هذه أخبرتنى أنك أمنتنى .

فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ، فأنت آمن » .

وانتهى حساب أعرق أئمة الكفر بهذا اللقاء الخاطف الذى لم يتجاوز الثوانى القليلة. وابتدأ الحوار حول العقيدة ، وانتهى حساب السياسة .

(قال عكرمة : فإلام تدعو يا محمد ؟

قال : « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة، وتفعل وتفعل » حتى عدد خصال الإسلام ،وليت راوينا ذكرها لنا جميعًا.

(وحيث لا ظل للسيف ، ولا للخوف ، وبعد أن تبددت ظلمات قلبه ، فى ظلمات البحر جاءهم الموج من كل مكان) ، قال عكرمة : والله ما دعوت إلا إلى خير ، وأمر حسن جميل ،وأدلى عكرمة رضي الله عنه بتصريح صحفى نقلته وكالات أنباء المسلمين فى الدنيا قبل أن يسلم ، وأدلى بأهم اعتراف عنده وأخطره : (قد كنت فينا يا رسول الله قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه ، وأنت أصدقنا حديثًا ، وأبرنا برًا ، ثم قال عكرمة : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله) .

(قال عكرمة : ثم ماذا ؟) .

فقد أسلس الآن قياده لعدوه الألد محمد بن عبد الله ، وصار أحب إليه من سمعه وبصره .

قال رسول الله ﷺ : « تقول : أشهد الله ، وأشهد من حضر أنى مسلم مهاجر مجاهد » .

فقال عكرمة ذلك .

ومن تحرير العقيدة إلى تحرير القلوب ونجوى الأرواح .

(فقال رسول الله ﷺ : « لا تسألنى اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه ») .

وهذا يعنى أنه صار من آثر أصحاب محمد ـ عليه الصلاة والسلام ، وذلك خلال لحظات فقط لا تجاوز بضع دقائق .

وماذا يريد عكرمة ، إن وراءه سجلاً قاتمًا أسود يملأ حياته فى حرب الله ورسوله ، فهل يطلب مال الدنيا أم يطلب محو ذلك التاريخ ، إن الرجال الكبار هم الذين يصنعون التاريخ ويريد الآن أن يصنع تاريخًا جديدًا ، بعد محاولة كتابة تاريخه الجاهلى بدمه واجتثاث جذور محمد عدوه، وحانت أغلى فرصة لطى تلك الصفحة السابقة كلها، ولا يملكها إلا رسول رب العالمين ، ذو الحظوة العظمى عند ربه .

(فقال عكرمة : فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها ، أو مسير وضعت فيه ، أو مقام لقيتك فيه ، أو كلام قلته فى وجهك أو أنت غائب عنه) .

ويستجيب القلب النبوى الأعظم الذى يتسع فى الصفح حتى يغمر ابن أبى جهل والملايين أمثاله حين يذعنون لله ولرسوله .

(فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها ، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك إطفاء نورك ، فاغفر له ما نال منى من عرض فى وجهى أو أنا غائب به عنه ») .

وانتهت كل طلبات عكرمة ، وقائمة المطاليب العظمى من الأموال والمتاع والرياش.

(فقال عكرمة : رضيت يا رسول الله) .

هذا الأخذ ، أما العطاء والبذل فماذا عند عكرمة أنه سيقدم مكافئًا لهذا العطاء ثم قال عكرمة :(أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها فى صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها فى سبيل الله ، ولا قتالاً كنت أقاتل فى صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه فى سبيل الله) (١) .

وحيث كان أحد الأربعة الكبار الذين قاوموا الإسلام لآخر لحظة ، وعاهد الله تعالى أن ينفق ويجاهد فى سبيل الله ، كما أنفق وجاهد فى الصد عن سبيله ، نراه فيما بعد أحد القادة الأربعة الكبار الذين اختارهم الصديق لمواجهة المرتدين ثم المضى بهذا الدين إلى موعود الله تعالى فى أرضه فى الشام وفارس ، وصدق ما عاهد الله عليه ، وقضى نحبه فى اليرموك شهيدًا فى سبيل الله .

٣ ـ ثالث الأربعة الكبار : صفوان بن أمية :

(إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة . . .) .

أ ـ وكما التقيا فى وجهة السير فى المواجهة ، التقيا فى وجهة السير فى الفرار نحو اليمن ، وكانا قد التقيا من قبل فى الموقف الموحد ضد الإسلام .

يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه فى قصة إسلامه :

(فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية . فقلت : يا أبا وهب ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة

---

(١) هذه الرواية كاملة عند الواقدى فى المغازى ٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٣ ، وعند البيهقى فى الدلائل بعضها ٥/ ٩٧ ـ ٩٩، وعند ابن إسحاق فى السيرة م ٢/ ٤١٨ .

رأس ، قد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف .

فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ، ما اتبعته أبدًا .

فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترًا ، قد قتل أخوه وأبوه يوم بدر .

فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان) .

ب ـ ونقف عند قصة وتره وثأره يوم بدر ، وكيف خطط لاغتيال رسول الله ﷺ بعد بدر ثأرًا لأبيه وأخيه ، ونشهد كيف تلقى خبر مصرع أبيه وأخيه .

(قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم ابن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البخترى ابن هشام ، فلما جعل يعدّد أشراف قريش ، قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى ، فقالوا : ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال : ها هو ذاك جالس فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا) [١] .

وحَسِب صفوان ابتداء أن الحيسمان الخزاعى قد أصابه لوثة فى عقله ، وهو يعدد أشراف مكة القتلى ، وكادت اللوثة أن تنزل بصفوان حين تأكد أن أباه وأخاه قد قتلا يوم بدر والحيسمان يعقل كل ما يقول .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير قال :

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير ، فذكر أصحاب القَليب ومصابهم فقال صفوان: والله إن [٢] فى العيش بعدهم خير ، قال عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيالٌ أخشى عليهن الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم عِلة : ابنى أسير بين أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان وقال : علىَّ دينْك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شىء والعجز عنهم ، فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك ، قال : أفعل .

قال : ثم أمر عمير بسيفه ، فَشُحِذَ له وسمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عمر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٦٤٦ .

(٢) إنْ : بمعنى ما .

ابن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوّهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذى حرش بيننا [1] ، وحزرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه ، قال : فأدخله على ، قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه فى عنقه فلبد بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير . فدنا ثم قال : انعموا صباحًا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » ، فقال : أما والله يا محمد ، إن كنت بها لحديث عهد ، قال: « فما جاء بك يا عمير ؟ » ، قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : « فما بال السيف فى عنقك ؟ » ، قال : قبّحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئًا ، قال : « اصدقنى ما الذى جئت له ؟ » ، قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القَليب من قريش ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فتحمَّل صفوان بدينْك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك » .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من أخبار السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ : « فقّهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ، ففعلوا ، ثم قال : يا رسول الله إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ؟

قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة .

(١) حرش بيننا : أفسد بيننا .

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبداً (١) .

جـ ـ كان هـذا آخر العهد بين صفوان وعمير ، وفى الوقت الذى فرّ فيه صفوان خارج مكة ، وفى الوقت الذى كانت أم حكيم بنت هشام تبذل كل ما تملك من جهد لتأخذ أمانًا لعكرمة ، كان عمير بن وهب رضي الله عنه يبذل كل ما لديه من جهد ليأخذ أمانًا لصفوان ، فصفوان يبقى سيد بنى جمح بلا منازع ، وعمير يشفق عليه أن يكون حطبًا للنار غداً.

(روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير ، والبيهقى عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير ابن وهب : يا نبى الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومى ، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه فى البحر ، فأمّنه ﷺ وقال : « هو آمن »).

د ـ أما صفوان فيريد أن يسابق الزمن قبل أن يُقبض عليه ، ويُقطع رأسه ، ومعه غلامه يسار ، (وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: ويحك : انظر من ترى !). فهو يخشى أن يدركه الطلب (قال : هذا عمير بن وهب .قال صفوان:ما أصنع بعمير ؟ والله ما جاء إلا يريد قتلى ، قد ظاهر محمداً علىّ). ولن يتمكن صفوان أن يفر من عمير، فعمير بن وهب شيطان قريش ، ولا يدركه أحد، ولحق بصفوان فأدركه ، وأين المفر ، إذا كان عمير جاء قاصداً قتل صفوان ؟!

(فلحقه فقال:يا عمير ،ما كفاك ما صنعت بى ؟ حمَّلتَنِى دينْك وعيالك ، ثم جئت تريد قتلى) وصفوان يعلم أن المسلمين قد قتلوا آباءهم وإخوانهم فى سبيل الله ، فما الذى يمنع أن تكون هذه مهمة عمير .

(قال عمير : يا أبا وهب ، جُعِلت فِداك ، جئتك من عند أبرّ الناس ، وأوصل الناس، فداك أبى وأمى، الله الله فى نَفسكَ أن تهلكها ، هذا أمان من رسول الله ﷺ، قد جئتك به) .

وأنى لصفوان أن يثق بهذا الأمان ، وهو يعرف عراقة جريمته ، وحربه لمحمد بن عبد الله .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٦٦٣ .

قال صفوان ولا يزال يذكر تلك الصفعة الأليمة التى تلقاها من عمير يوم مضى ليقتل محمداً فأسلم معه .

(قال صفوان : اغرب عنى فلا تكلمنى) .

وذلك كما قال لخالد يوم دعاه إلى الإسلام .

ولكن عميرًا الذى يفيض حبًا وحنوًا على سيد قومه ، لم يغضب لنفسه ، وعاد يتكلم بحرارة الثكلى على ابنها :

(قال : أى صفوان ، فداك أبى وأمى، أفضل الناس ، وأبرّ الناس ، وخير الناس، ابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك وملكه ملكك) .

ويعرف صفوان فى أعماقه أن محمدًا أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ، لكن مشكلة الصراع بينهما هى الصراع على السلطة ، وقد أنهى محمد ﷺ سلطان الشرك ، ولم ينه سلطان قريش ، فالعز والسؤدد والذى قاده لقريش وهو ابن قريش الصميم سيبقى لها أبد الدهر ، فهؤلاء العرب جميعًا تحت حكمه وسلطانه ، إنما الذى انتهى وتحطم ، أصنام قريش ، وهبل ، والعزى ، وبقية الأوثان ، ووصلت إلى مسامعه : «اليوم أعز الله قريشًا ، اليوم تعظم فيه الحرمة ، اليوم تعظم فيه الكعبة ، فلقد عظمت الكعبة ، ودخلها رسول الله ﷺ وصلى فيها وأعاد مفتاحها لعثمان بن أبى طلحة صديقه القديم ، فكان للكلمات الأخيرة التى قالها عمير أثر عجيب هز أوتار قلبه ، وخالط رحيق روحه رغم وجود الران من الكفر على قلبه ، وهو يخشاه على نفسه ، ويعلم كم أوضع فى حربه ، لكن هذه الكلمات الأخيرة راح صداها يصرخ فى أعماقه : ابن عمك ، عزه وعزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ،لكن أنى له الأمان لينعم بهذا العز ، وهذا الملك وهذا الشرف قبل أن يقذف نفسه فى البحر ، ولا يدرى أحد مصيره .

(قال : إنى أخافه على نفسى) .

فقد تغيرت اللهجة عن البدايات التى ابتدأت : إنك قاتلى ، اغرب عن وجهى .

(قال : هو أحلم من ذلك وأكرم) ، ويعرف صفوان أن محمدًا أحلم من ذلك وأكرم ، لكنه يعرف نفسه أنه أحقد وأجرم .

قال كلمته الأخيرة : (لا أرجع معك حتى تأتينى بعلامة أعرفها) .

وما كاد عمير يصل إلى هذا الموقف ، حتى أعيدت روحه إليه ، قال :

امكث مكانك حتى آتيك به .

وعاد عمير أدراجه إلى مكة ، يريد أن يسابق الزمن قبل أن يسبقه ، وينقذ صفوان سيد قومه وهل راودت نفس صفوان أن يدع عميراً ويمضى فاراً بنفسه ، إنه الموت أمام هذه المغامرة ، لكن قدميه تسمرتا ، فلو كان عمير متواطئًا لفتك به منذ أن رآه . لكنه يحن عليه حنين الجارية كى يقبل أمان محمد ﷺ ، فكيف سيكون مجده وموقعه بعد أن يعفو عنه محمد .

هـ ـ (فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن صفوان أبى أن يأنس لى حتى يرى منك أمارة يعرفها) .

ورسول الله ﷺ يريد أن يدخر صفوان بن أمية سيد بنى جمح ، لعل قلبه يعمر بالإسلام .

(فنزع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه إياها ، وهى البرد الذى دخل فيه رسول الله ﷺ معتجراً به) .

(فخرج عمير فى طلبه الثانية ، فقال له : قد دعاك إلى أن تدخل فى الإسلام ، فإن رضيته وإلا سيرك شهرين ، فهو أوفى الناس وأبرهم ، وقد بعث إليك ببرده الذى دخل فيه معتجراً ، تعرفه ؟ قال : نعم ، فأخرجه ، فقال : نعم ، هو هو).

وها هو صفوان يعود إلى أين ؟ إلى محمد الذى خطط لقتله ، ومع من ؟ مع عمير ابن وهب الذى كلفه بقتله ، ولكن هذا البرد علامة كافية لصدق عمير ، وكل حلمه الآن أن يفوز بالأمان .

ورسول الله ﷺ يربى هذا العدو الكافر إنه لا يريد له أن يدخل فى الإسلام عنوة خوفًا من السيف ، إنما يريد له أن يعيش فى الجو الإسلامى ، ويتحرك داخل المجتمع الإسلامى ، ويعرف هذا الجيل الجديد الذى بناه محمد ﷺ ، جيل الرحمن الذى بنى بكتاب الله وبتربية رسول الله ، والذى لا يعرف فى قلبه إلا الله .

(فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يصلى بالمسلمين العصر فى المسجد ، فوقفا ، فقال صفوان : كم تصلون فى اليوم والليلة ؟ قال : خمس صلوات ، قال : يصلى بهم محمد ؟ قال : نعم) .

لقد بدأ صفوان يأنس رويدًا رويدًا ، ويذهب خوفه ورعبه ، وبدأ ينتظر لحظة الخلاص.

و ـ (فلما سلم صاح صفوان :يا محمد ، إن عمير بن وهب جاءنى ببردك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك ، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سيرتنى شهرين .

قال : « انزل أبا وهب ».

قال : لا والله حتى تبين لى) .

فلا تزال الأقفال قائمة بينه وبين الإسلام ، وكل ما تحرك فى قلبه هو عظمة محمد ابن عبد الله إن عفا عنه ، ورفض النزول عن دابته حتى يسمع الجواب بأذنه .

(قال : « أنت بالخيار أربعة أشهر ») .

وكأنما أُلقى جبل عن كاهله ، فقد نال الأمن الذى يريد ، وليمض إلى بيته فقد هدَّه التعب، وأهلكه الرعب والخوف، وسوف يمضى منزويًا عن الدنيا، يراجع مصيره بهدوء، ويقرر مصيره بهدوء ، فهو بالخيار أربعة أشهر .

ز ـ ويمر اليوم تلو اليوم ، وهو يرى المسلمين يملؤون فجاج مكة ، فلا يعرض له أحد بسوء ولا يجرؤ أحد أن ينظر إليه بريبة ، فقد نال أمان محمد بن عبد الله .

والمسلمون فى مكة قائمين راكعين ساجدين ، يوحدون الله تعالى ، وهو متربص مراقب متريث إلى أن جاءه طلب من رسول الله ﷺ يود أن يستقرض منه خمسين ألف درهم ، ولم يتردد لحظة واحدة ، فهو يريد أن يكسر حاجز الجفاء بينه وبين محمد ﷺ وهو الكريم الجواد، ومحمد أكرم الناس وأبرهم وأجودهم، وقد جرَّب ذلك بنفسه. ثم كان الطلب الآخر حين تناهى إلى سمعه أن محمدًا ماضٍ إلى هوازن ، فجاءه رسول الله ﷺ ، فجاء إليه رجلاً قال له عليه الصلاة والسلام : « يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا » . قال وهو متوجس خيفة : أغصبًا يا محمد ؟ قال : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » ، قال : ليس بهذا بأس .

ويهتز صفوان للندا ،ويطرب للثقة القائمة بينه وبين محمد بن عبد الله . . . ومضى فأمر غلمانه أن يخرجوا له مائة درع بما يكفيها من السلاح ، وجاءه الطلب ثانية يضرب على وتر الثقة العظيمة نفسها أن يكفيهم حملها ، ولم يتردد صفوان لحظة فى أن يرافق محمدًا وصحبه ، وأن يحملها إلى أوطاس .

ومع هذا كله ، فلم تأت بعد الصدمة الكهربية التى تنقله إلى حظيرة الإسلام ، لكن الحاجز بينه وبين الإسلام بدأ ينحسر ويضعف ،والران بدأ يتآكل أمام عظمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى يقود العرب بين يديه إلى حرب ضخمة ، هائلة إلى حرب هوازن الذى كان آخر عهده بها وهو صغير عندما كانت حرب الفجار .

وسنبقى مع صفوان عند الأمان إلى أن نعود معه بعد حنين فنشهد إسلامه هناك .

٤ ـ رابع الأربعة الكبار سهيل بن عمرو :

لم نستعرض تاريخ سهيل بن عمرو ﷺ وقد كفانا المؤونة ، واستعرض هو ذلك التاريخ .

(قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر ، اقتحمت بيتى ، وأغلقت علىّ بابى وأرسلت إلى ابنى عبد الله بن سهيل أن اطلب لى جواراً من محمد ، وإنى لا آمن أن أُقتل، وجعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه ، فليس أحد أسوأ أثراً منى ، وإنى لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد وكنت الذى كاتبته مع حضورى بدراً وأحداً ، وكلما تحركت قريش كنت فيها) .

ومع هذا فعنده أمل ضعيف رغم كل حربه العنيفة أن يطغى حلم محمد على غضبه، ويعطيه تلك الإجارة . إنه فى بدر أخذ أسيراً فى بيت رسول الله ﷺ كما تحدثنا سودة ﷺ أم المؤمنين تقول : والله إنى لعندهم (أى عند آل عفراء فى مناحتها على ولديها) إذ أتينا فقيل : هؤلاء الأسارى قد أُتى بهم ، قالت : فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه : وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه فى حبل قالت: فوالله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت : أى أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم الا متم كرامًا ،فوالله ما أَنبَهَنِى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت : « يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ » قالت : قلت : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت)(١) .

ولا عجب فسهيل سيد عشيرتها بنى عامر بن لؤى،وزوجها السابق أخوه السكران بن عمرو ﷺ فهو أحد أحمائها ، وإن كنا لا نرى أثراً لسهيل فى أحد ، لكنه فى الحديبية مضى يصنع تاريخ الجاهلية فى أعنف رد ومواجهة ضد رسول الله ﷺ .

(قال:ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال: « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ،فقال رسول الله ﷺ : « اكتب : باسمك اللهم » ، فكتبتها ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك،ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ،فقال رسول الله ﷺ: « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض »)(٢) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٦٤٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م٢/ ٣١٧ .

(فبينما الناس على ذلك قد اصطلحوا، والكتاب لم يكتب أقبل أبو جندل بن سهيل، قد أفلت يرسف فى القيد متوشح السيف خلا له أسفل مكة ، فخرج من أسفلها حتى أتى رسول الله ﷺ وهو يكاتب سهيلاً، فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بلبته ، وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ، فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل ـ فقال سهيل : هذا أول ما قاضيتك عليه ردوه ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » ، فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شىء حتى ترده إلى فردَّه رسول الله ﷺ ، فكلم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه فأبى سهيل ، فقال مكرز وحويطب : يا محمد نحن نجيره لك فأدخلاه فسطاطًا فأجاراه ، وكفَّ أبوه عنه)(١) .

وكان موقفه الأخير فى إعلان الحرب ضد رسول الله ﷺ وكونه أحد القادة الأربعة الثوريين الذين رفضوا الأمان والاستسلام ، ثم كانت الهزيمة المنكرة .

إذ فرَّ صفوان وفر عكرمه وأبو يزيد قائم كالموتمه(٢)

لكن كل هذه المواقف العنيفة كانت تقابل بمواقف من الليونة والإغضاء عن سفاهة سهيل .

(ففى بدر : قال عمر ﷺ لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو ، ويدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا ، فقال رسول الله ﷺ : «لا أمثّل به فيمثّل الله بى ولو كنت نبيًا » ، قال ابن إسحاق : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال فى هذا الحديث :« إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمُّه »)(٣) .

وفى الحديبية : منذ أن رأى رسول الله ﷺ وجه سهيل قال : (فلما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ : « سَهُلَ أمرهم »)(٤) .

فلما رآه النبى ﷺ حين طلع قال : « أراد القوم الصلح »(٥) .

وقبيل فتح مكة،(قال رسول الله ﷺ كما روى ابن عساكر عن عطاء قال: لا أحسبه إلا رفعه إلى ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ليلة قربه من مكة فى غزوة الفتح : « إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ،وأرغب لهم فى الإسلام ،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٦٠٨ .
(٢) الموتمة : التى قتل زوجها وبقى لها أيتام .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام م٢/٦٤٩ .
(٤) المغازى للواقدى ٢/٦٠٣ .
(٥) المصدر نفسه ٢/٦٠٥ .

قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عتَّاب بن أسيد ، وجبير بن مُطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ») (١) .

فهو واحد من أربعة موطن أمل رسول الله ﷺ بالإسلام ، ويرى نفاسة معدنه من خلال كل الركام القاتم المتلبد فوقه ، فهو يربأ به عن الشرك لذلك .

ولا شك أن هذه الأمور جميعًا قد تناهت لسهيل ، ومدى احترام رسول الله ﷺ ، وتقديره له ، رغم كل ما يقدمه من حرب وإثم واعتداء عليه .

(وروى حميد بن زنجويه فى كتاب الأموال من طريق ابن أبى حسين قال :

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ودخل البيت ، ثم خرج فوضع يده على عضادتى البيت فقال : ماذا تقولون ؟ فقال سهيل بن عمرو : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، فقال : « أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ») (٢).

لقد كان هذا العفو العام لا يكفى لسهيل بن عمرو ، ولهذا انقحم فى بيته ، وبعث ابنه عبد الله بن سهيل يجيره . ولنتابع الخطا مع عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ كما يحدثنا عنها سهيل ﷺ : (فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ ، فقال: « نعم ، هو آمن بأمان الله ، فليظهر ») .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك بل نهى عن إيذائه ولو بلمحة البصر، فقال: « من لقى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه » ولماذا ؟ « لعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام » وآن الأوان لسهيل أن ينضم إلى هذه الحظيرة النبوية « ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع » .

ومضى عبد الله بن سهيل إلى أبيه بمقالة رسول الله ﷺ وقلبه يخفق أملاً بإسلامه، وخفق قلب سهيل بحب محمد وإعظامه الذى ملأ كيانه فقال : (كان والله برًا صغيراً وكبيراً)،تشاء إرادة الله تعالى أن يتأخر إضاءة قلبه بالنور الإلهى إلى ما بعد حنين.(وخرج إلى حنين مع النبى ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة) (٣) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٣١ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٣/١٤٦ ت (٣٥٦٦) .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨٤٧ .

نصف شهر ونيف : تربية وبناء

ذكر قدر إقامته ﷺ بمكة :

(عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يصلى ركعتين ، وفى لفظ : أقمنا مع رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر نقصر الصلاة) رواه البخارى ،وأبو داود،وعنده: سبعة عشر،وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : غزوت مع رسول الله ﷺ الفتح فأقام بمكة ثمانى عشرة ليلة لا يصلى إلا ركعتين . رواه أبو داود . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ أقام بمكة عام الفتح خمس عشرة يقصر الصلاة . رواه أبو داود من طريق ابن إسحاق والنسائى من طريق عراك بن مالك كلاهما عن عبيد الله وصححه الحافظ)(١) .

وإنها لقمة الوفاء النبوى العظيم لأصحابه الأنصار، فمكة بلده وأحب أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إليه ، فلم يتعامل معها أنها بلده قط ، إنما أصبح مقامه المدينة كما وعد الأوس والخزرج يوم بيعة العقبة: « المحيا محياكم والممات مماتكم» ،فهو مسافر يقصر الصلاة، وبلده هى التى آوته واحتضنته ، وفدته بالأرواح والمهج . فيها يقيم ، ولم يرض ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن ينزل داخل بيوت مكة إنما كان مضطربًا بين الحجون وبين الحرم بالأبطح خارج البيوت فى قبة ضربت عليه ،ونزل معه صحبه ونزل معه جيشه القادم من مكة بآلافه العشر خارج بيوتات مكة خمسة عشر يومًا أو تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة ويصلى ركعتين ركعتين . وكان لابد من هذه الإقامة ، فقد انضمت مكة كلها إلى الإسلام برجالها وشبابها وشيوخها ونسائها ، وبقى بعض الأفراد على شركهم بأمان خاص من رسول الله ﷺ .

لقد عبأت مكة فى حربها ضد رسول الله ﷺ ألف مقاتل ، وها هو ضعف هذا العدد ينضم اليوم إلى الإسلام . ولابد من نزع آثار الحرب والموت بين الفريقين ، ولابد من تفقيه الناس دينهم .

وما أروعها من إقامة حيث عاد المهاجرون يعلمون أبناءهم وإخوانهم وأمهاتهم الإسلام ، بعد أن كانوا يقاتلونهم فيقتلون ويقتلون . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٩٠ ، وهى عند البخارى ٢/ ٥/ ١٩١ .

وفى أقل من شهر ، غدا أعداء الله ـ الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم ـ غدوا مؤمنين مسلمين وتحقق موعود الله بالمودة بينهم ، ولنتابع أهم الأحداث التى تمت خلال هذه الأيام المعدودات .

أولاً : بقية القيادات وإسلامها

١ ـ الحارث بن هشام :

وهو أخو أبى جهل بن هشام ، وقد ورث المجد بعد أخيه ، وغدا السيد المرموق من سادات بنى مخزوم حتى أنه كان يُضرب به المثل فى السؤدد كما يقول الحافظ ابن حجر[١]:

(وكان يضرب به المثل فى السؤدد حتى قال الشاعر :

أظننت أن أباك حين تسبنى ... فى المجد كان الحارث بن هشام
أولى قريش بالمكارم والندى ... فى الجاهلية كان والإسلام)

وكان حسان بن ثابت له بالمرصاد ، فراح يضرب المثل بالفرار فى بدر حين قال :

(إن كنت كاذبة التى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

فأجابه الحارث :

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا فرسى بأشقر مزبد
فعلمت أنى إن أقاتل واحداً ... أُقتل ولا ينكى عدوى مشهدى
ففررت عنهم والأحبة فيهم ... طمعًا لهم بعقاب يوم مرصد

ويقال : إن هذه الأبيات أحسن ما قيل فى الاعتذار من الفرار ، قال الزبير : شهد أحدًا مشركًا وأسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه)[٢] .

أما قصة إسلامه يوم فتح مكة فقد كانت مرتبطة بقصة فراره ، حيث التجأ وزهير بن أبى ربيعة إلى أم هانئ بنت أبى طالب فأجارتهما بعد أن كاد علىّ يقتلهما ، قالت : (فرجعت إليهما فأخبرتهما وقلت لهما : وإن شئتما فأقيما ، وإن شئتما فارجعا إلى منازلكما ، قالت : فأقاما عندى يومين فى منزلى ثم انصرفا إلى منازلهما) [٣] ، ويأخذ الحديث الحارث قائلاً :

(١، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٣٠٧ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣٠ .

(فانطلقنا، فأقمنا يومين ثم خرجنا إلى منازلنا ، فجلسنا بأفنيتها لا يعرض لنا أحد ، وكنا نخاف عمر بن الخطاب فوالله إنى لجالس فى ملاءة مورسة على بابى ما شعرت إلا بعمر بن الخطاب فإذا معه عدة من المسلمين فسلم ومضى . . .) .

والحارث بن هشام أحس بعمق منّ رسول الله ﷺ بالحياة حتى ليقبل إجارة ابنة عمه أم هانئ له ، وبهذه الإجارة يمتنع عشرة آلاف من المسلمين عن المساس به ولو كان أعدى العدو عمر بن الخطاب .

ويبقى لا يجرؤ أن يلقى رسول الله ﷺ حين يذكر ما أجرم ويذكر ما أُنعم عليه من الفضل .

(وجعلت أستحيى أن يرانى رسول الله ﷺ ، وأذكر رؤيته إياى فى كل موطن مع المشركين ثم أذكر برَّه ورحمته وصلته ، فألقاه وهو داخل المسجد . . .) .

وكانت تلك اللحظة الصعبة أولاً أقل من نظرة تأنيب أو نظرة عتاب ، أو كلمة ثأر .

كل هذا لا وجود له فى قاموس النبوة فى قاموس سيد ولد آدم .

(فلقينى بالبشر) .

ولم يكتف بذلك بل وقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينتظر الخصم الألد الحارث بن هشام الذى اختاره إبليس ليكون معه فى بدر حين تبدى بصورة سراقة بن مالك، وقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينتظر الحارث بن هشام ليسلم عليه كما ينتظر المشتاق حبيبًا قادمًا إليه .

(فوقف حتى جئته فسلمت عليه ، وشهدت بشهادة الحق ، فقال :

« الحمد لله الذى هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام ») .

ومضى الحارث يعمر قلبه نور الإسلام ، لم تكن صدمته إلا شدة برّ محمد به وإحسانه إليه ، فلا يحتاج لأكثر من ذلك ، ولم ينتظر إلى حنين ويتربص النتائج . لقد أشرق قلبه بالنور ، وهزته هذه الكلمة الخالدة : « ما كان مثلك يجهل الإسلام » فكان يقول : (فو الله ما رأيت مثل الإسلام جُهِلَ) (١) .

٢ ـ ولدا أبى لهب :

وإذا كان الله تعالى شاءت إرادته أن يخرج من صُلب أبى جهل عكرمة ، فقد شاءت إرادته أن يخرج من صلب أبى لهب عتبة ومعتب ، وأبو لهب هو الوحيد الذى ذكر

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٧٤ .

هجاؤه باسمه الصريح فى القرآن :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾ [المسد] .

أما هو وامرأته وولده عتيبة فقد انتهيا إلى جهنم وبئس المصير ، وأنقذ الله تعالى ولديه عتبة ومعتب من النار ، لقد كان رسول الله ﷺ يسأل بلهفة وقلق عنهما .

(روى ابن سعد عن ابن عباس عن أبيه قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة فى الفتح قال لى : « أين ابنا أخيك عتبة ومعتّب ابنى أبى لهب ، لا أراهما ؟ » .

قال : تنحيا فيمن تنحى من مشركى قريش .

فهما سلالة العداوة الأبدية التى كانت بين رسول الله ﷺ وعمه أبدا كما قال له : لا زلت عدوًا لك أبدًا .

(فركبت إليهما بعرفة فأتيت بهما) .

ولا شك أن أوصالهما كانت ترجف من الخوف ، فقد آن الأوان للثأر منهما ومن أبيهما .

(فدعاهما إلى الإسلام فأسلما ثم بايعا) .

ورسول الله ﷺ يريد أن يطوى صفحة أبى لهب من الساحة المكية ، ويقضى على آثارها ليفتح صفحة الإسلام داخل هذا البيت .

(ثم قام رسول الله ﷺ فأخذ بأيديهما وانطلق حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يُرى فى وجهه فقال :

« إنى استوهبت ابنى عمى هذين من ربى ، فوهبهما لى ») (١) .

(وأخرج الطبرانى من وجه آخر إلى على أن النبى ﷺ دخل يوم الفتح بين عتبة ومعتب يقول للناس : « هذان أخواى وابنا عمى ـ فرحًا بإسلامهما ـ استوهبتهما من الله فوهبهما لى » ، ويُجمع بأنه دخل المسجد بينهما بعد أن أحضرهما العباس)(٢) .

٣ ـ حويطب بن عبد العزى :

قال محمد بن عمر : حدثنى ابن أبى سبرة ، عن موسى بن عقبة ، عن المنذر بن جهم قال :

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣/٦/١٢٢ ت (٨١١٥) .

(لما كان يوم فتح مكة هرب حويطب بن عبد العزى حتى انتهى إلى حائط عوف فدخل هناك ، وخرج أبو ذر لحاجته وكان داخله ، فلما رآه هرب حويطب فناداه أبو ذر: تعالى ، أنت آمن ، فإن شئت أدخلتك على رسول الله ﷺ ، وإن شئت فاذهب إلى منزلك) .

وحويطب من الوفد المفاوض فى الحديبية ، ومن قادة وسادة عامر بن لؤى ، ولن يخفى على محمد بن عبد الله ﷺ ، فهو ليس نكرة فى قومه (قال : وهل من سبيل إلى منزلى ؟ ألقى ، فأُقتل قبل أن أصل إلى منزلى ، أو يَدخل علىّ منزلى فأُقتل) ، إنه يرى الموت شاخصًا أمام عينيه ، وما فراره إلا تأخيرًا لساعة الموت . (قال : فأنا أبلغ معك منزلك ، فبلغ معه منزله ، ثم جعل ينادى على بابه : إن حويطبًا آمن ، فلا يهجم عليه ، ثم انصرف أبو ذر إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « أوليس قد أمَّنا كل الناس إلا من أمرت بقتله ») (١) .

وانضم حويطب إلى سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية الذين يعيشون فى السلام لا فى الإسلام،ويترك لهم المجال حرًا حين يشهدون المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية الربانية ؛ لتنحات تلك الأقنعة والأكنة عن قلوبهم مع مرور الزمن ، ويتسلل نور الإسلام إلى قلوبهم من خلال هذا الركام .

٤ ـ فارَّان جديدان :

وإذا كانت أم هانئ ﵂ أجارت اثنين من أحمائها من قيادات بنى مخزوم فالغريب أن زوجها هبيرة بن أبى وهب لم يفز بهذه الإجارة ، وفرَّ هاربًا مع وزير إعلام مكة عبد الله بن الزبعرى .

(وهرب هبيرة بن أبى وهب ، وهو يومئذ زوج أم هانئ بنت أبى طالب هو وابن الزبعرى جميعًا حتى انتهيا إلى نجران ، فلم يأمنا من الخوف حتى دخلا حصن نجران ، فقيل لهما : ما وراءكما ؟ قالا :

أما قريش فقد قُتلت، ودخل محمد مكة، ونحن والله نرى محمداً سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلحارث وكعب يصلحون ما رثَّ من حصنهم ، وجمعوا ماشيتهم) .

لقد كان هذان الزعيمان خير دعاية لرسول الله ﷺ ، وخير إعلان عن الانتصار الإسلامى فى الساحة العربية ، حتى لترتجف اليمن من وصول محمد ﷺ إليها .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٥٣ .

(فأرسل حسان بن ثابت أبياتًا يريد بها ابن الزُبعرى أنشدنيها ابن أبى الزناد :

لا تعدمن رجلاً أحللت بُغضَهُ نجـران فى عيش أحـذٍ [1] لئيـم
بليت قناتك فى الحـروب فألفيت خمـانة [2] جوفـاء ذات وصـوم
غضب الإله على الزبعـرى وابنـه وعذاب سـوء فى الحيـاة مقيـم)

وابن الزبعرى أشهر شخصية عربية جاهلية محاربة ، فشعره هو منتدى العرب ضد محمد ﷺ ،ووصلت الأبيات ابن الزبعرى ، وأمضى ليله ساهرًا لا يرقأ له جفن ، فى الوقت الذى تناهت الأنباء إلى هبيرة بن أبى وهب بإسلام زوجته هند (أم هانئ) التى كان يذوب حبًا بها ، وشوقًا إليها ، وكان كلا الرجلين يعانى من صراع محموم فى داخله يود أن يهدأ إلى نفسه ، ولا ينزع هدوءه وخلوته أحد . أما هبيرة ، فيزداد حقدًا على حقد ، ويغريه الشيطان بالنيل من زوجته التى صبأت ، ويزيد الركام فوق الركام ، والثأر فوق الثأر ، بينما كان ابن الزبعرى يمضى فى اتجاه معاكس تمامًا إلى داخله إلى أعماقه يخوض فى أوحال هذا الركام ، ويشهد سواده وقتامته وظلمته ، ويود لو يحطمه إلى النهاية ، وطالعنا هبيرة بن أبى وهب بشعره الشجى العصبى الذى يخاطب به زوجته هند قائلاً :

أشاقتك هند أم تآل سؤالها كذاك النوى أسبابها وانفتالها
وقد أرِّقت فى رأس حصن ممنَّع بنجران يسرى بعد ليل خيالها

وتبرز العصبية العفنة الجاهلية لتزكم أنفه وتعمى بصره عن محمد بن عبد الله .

وإنِّى مـن قـوم إذا جد جدهم على أى حال أصبح اليوم حالها
وإنِّى لحامٍ من وراء عشيرتى إذا كرهت نحو المعالى فحالها

فهو الوارث لمجد أبى الحكم بن هشام والوليد بن المغيرة والمحافظ عليه والحامى له.

وإن كـلام المرء فـى غير كنهـه لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها

وبعد ذلك الشوق وذلك الأرق وذلك الجوى لزوجه وحبيبته هند ، يذكر إسلامها ، وهدنتها لمحمد ، وحبها له ، فيقشعر جسده ، وينتفخ غضبه فيقول :

وإن كنـت قـد تابعـت ديـن محمـد وقطَّعـت الأرحـام منك حبالهـا
فكونـى على أعلى سـمين بهضبـة ململمـة حمـراء يبـس تلالهـا

(١) الأحذُّ : اللئيم المنقطع . (٢) خمانة : ضعيفة .

ويقوم مع الضحى يود أن يحدث ابن الزبعرى بهذه القصيدة الجديدة الثائرة على أم هانئ وإسلامها ليبوح له بهذا السر الجديد ، أنه بدأ يحقد على زوجه لمتابعتها محمد ، إذ يراه يتأهب ويشد الرحال ليغادر نجران .

(فقال هبيرة بن أبى وهب : أين تريد يا بن عم ؟

قال : أردتُ والله محمداً .

قال هبيرة ـ وكأنما لسعته حية : أتريد أن تتبعه ؟

قال : أى والله .

قال وقد تميز غيظًا وحقدًا : (يا ليت أنى رافقت غيرك ، والله ما ظننت أنك تتبع محمداً أبدًا .

قال ابن الزبعرى : هو ذاك ، فعلى أى شيء نقيم ؟! مع بنى الحارث بن كعب ، وأترك ابن عمى وخير الناس وأبرّهم ، ومع قومى ودارى) (١) .

وانطلقا فى طريقين مختلفين ، هذا إلى النار تحت عتبة الجاهلية ودخانها الأسود ، وذاك إلى الجنة يمزق تلك الحجب كلها ، والأقنعة كلها ، قاصداً منبع النور ، حيث نلتقى معه بعد حنين .

---

(١) المغازى للواقدى ، مقتطفات ٢/ ٨٤٧ ـ ٨٤٩ .

ثانيًا : هدم الطواغيت

١ ـ هدم العزى :

(قال ابن سعد : ثم سرية خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمان ، وكان بيتًا بنخلة ، قال ابن إسحاق وابن سعد : وكان سدنتها وحجابها بنى شيبان من بنى سُليم حلفاء بنى هاشم وكانت أعظم أصنام قريش ، وجميع كنانة ، وذلك أن عمرو بن لحى كان قد أخبرهم أن الرب يشتى بالطائف عند اللات ، ويصيف عند العزى ، فعظموها وبنوا لها بيتًا وكانوا يهدون إليها كما يهدون للكعبة .

وروى البيهقى عن أبى الطفيل ﷺ : وكانت بيتًا على ثلاث سمرات . انتهى .

قال محمد بن عمر وابن سعد: وبعث رسول الله ﷺ يوم فتح مكة خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها فخرج فى ثلاثين فارسًا من أصحابه ، قال ابن إسحاق : فلما سمع سادنها السلمى بسير خالد إليها علّق عليها سيفه، وأسند فى الجبل الذى هى فيه وهو يقول:

يا عُزّ شدى شدة لا شوى لها ... على خالد ألقى القناع وشمرى
يا عُزّ إن لم تقتلى المرء خالدًا ... فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

قال أبو الطفيل وابن سعد ومحمد بن عمر : فأتاها خالد فقطع السمرات وهدمها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: « هل رأيت شيئًا ؟ » قال: لا، قال : « فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها » ، فرجع خالد وهو متغيّظ ، فلما رأت السدنة خالدًا انبعثوا فى الجبل وهم يقولون : يا عزّى خبليه ، يا عزّى عوّريه ، ولا تموتى برغم، فخرجت إليه عجوز سوداء عُريانة ثائرة الرأس ـ زاد أبو الطفيل : تحثو التراب على رأسها ووجهها فضربها خالد وهو يقول :

يا عُزّ كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

فجزلها اثنتين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : « نعم تلك العزّى قد يئست أن تعبد ببلادكم أبدًا »)(١) .

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٣٠٠، وهى عند ابن إسحاق فى السيرة م٢/ ٤٣٦، ٤٣٧، وعند الواقدى ٣/ ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، وعند ابن سعد فى الطبقات ٢/ ١٤٥ ، ١٤٦ ، وعند البيهقى فى الدلائل ٥/ ٧٧ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم] .

والعرب لا يعظمون بعد الله تعالى شيئًا أكبر من تعظيمهم اللات والعزى،إذ يقسمون بهما أكثر مما يقسمون بالله عز وجل ، وقد شهدنا أبا سفيان حين علا إلى الجبل فقال : اعل هبل ، فهو الصنم الأول فى الكعبة ، بينما كانت الأصنام الثلاثمائة والستون هى دون هبل فى القداسة .

ووجدناه حين أراد أن يفخر على المسلمين قال لهم : لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم .

فقال له عمر رضي الله عنه بأمر نبيه ﷺ : الله مولانا ولا مولى لكم .

وإن كانت اللات ذات قيمة عظمى عند العرب ، لكن مقامها فى الطائف وهى ممنعة من ثقيف ولم يأن الأوان بعد لهدمها .

وأن يسير خالد بن الوليد لهدمها ، وهو ابن الوليد بن المغيرة وحيد قريش ،له عند العرب مغزىً كبير ، وأن يكون الفوارس الذين معه من سُليم،وسليم هم سدنة العزى ، فله مغزى آخر كذلك .

يحدثنا خالد رضي الله عنه عن أبيه وماذا كان يعمل عند العُزَّى ، وذلك بعد أن هدمها .

(ثم قال خالد : أى رسول الله ، الحمد لله الذى أكرمنا وأنقذنا من الهلكة ، إنى كنت أرى أبى يأتى إلى العزى يجر ماله من الإبل والغنم فيذبحها للعُزَّى ويقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف إلينا مسروراً) (١) .

لقد كانت العرب تعرف ذلك للوليد ، وقد مات على ذلك ، فإذا بابنه خالد بن الوليد رضي الله عنه هو الذى يقوم بهدم هذه الآلهة .

وعندما قال الشيطان على لسان رسول الله ﷺ بعد قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ عندما قال الشيطان : وإن شفاعتهن لترتجى، سجد شيوخ مكة وكبارها كلهم ، وحين لم يتمكن الوليد من السجود ، رفع التراب إلى جبهته وسجد عليه ، ويأتى ابنه اليوم ليهدم هذه الآلهة ، يعنى أعظم انقلاب فى تاريخ العرب نحو هذه الآلهة ، وها هو سادنها يدعوها لتدافع عن نفسها ، فهو لن يقف فى وجه خالد ابن الوليد البطل العربىِ المظفر ، وكل ما فعله أن علق عليها سيفه ، وهرب إلى الجبل

(١) اخبار مكة للأزرقى ١/١٢٨ .

وهو يناشدها وينشدها :

يا عُزّ شدى شدة لا شوى (١) لها ... على خالد ألقى القناع وشمرى
يا عُزّ إن لم تقتلى المرء خالدًا ... فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

وعوضًا عن أن تقتل العزى خالد بن الوليد ، فيقطع خالد السمُرات التى أقفيت العزى عليها ، ويهدم البيت الذى يحج إليه العرب ، فقد أخبرهم عمرو بن لحى أن الرب يشتى بالطائف عند اللات لبرد الطائف ، ويصيف عند العزى لحر تهامة ، وعاد وهو سعيد بأن كتب الله تعالى على يديه هدم هذا الطاغوت الأكبر الذى يعبد من دون الله ، وأنقذ الأمة من هذه الخرافات ، ويلقاه نبيه المصطفى ﷺ قائلا له : « هل رأيت شيئًا ؟» قال : لا ، قال : « فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها » .

وأحس خالد ﷺ بغيظ من هذه الآلهة المدعاة ورأى السدنة خالدًا ففروا مصعدين فى الجبل، وراحوا يدعون آلهتهم: يا عُزَّى خبليه ، يا عُزَّى عوريه ، ولا تموتى برغم .

وإذا بالشيطانة الرهيبة تظهر ، تود أن تخبل خالدًا وتعوّره حيث برزت عجوز سوداء عريانة ثائرة الرأس تحثو التراب على رأسها ووجهها ، وهذا الذى ينتظره خالد ، فقد عاد ليرى شيئًا لم يره من قبل ، وكان سيف الله الخالد خالد هو الذى قطَّ هذه الشيطانة الكاذبة التى أضلت الناس قرونًا طوالاً فجزلها اثنتين ، وهو يصرخ :

يا عُزَّ كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

لقد خرجت نائلة من قبل تدعو بالويل والثبور ، وهذه العزى اليوم وقد قطعت نصفين ، وابن الوليد بن المغيرة الذى كان يهدى الإبل والغنم لها ، ابن الوليد يعلن كفره بها ، وقتله لها بدل أن تقتله ، أو تخبّله أو تعوّره ، ويبشره المصطفى ﷺ أن الله كتب على يديه هدم أكبر معاقل الوثنية فى جزيرة العرب ، هدم العزَّى فقال له : « نعم، تلك العزَّى ، قد يئست أن تعبد ببلادكم أبدًا » .

وتقر عين خالد ﷺ ويعلن فرحه أمام نبيه ﷺ بقوله :

(يا رسول الله، الحمد لله الذى أنقذنا بك من الهلكة وأكرمنا بك ، لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ماله من الإبل والغنم ، فيذبحها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف إلينا مسرورًا) .

وفى مراجعة عظيمة لما كانت عليه الأمة من الظلمات ، وما آلت إليه من النور يبدو

---

(١) لا شوى : لا بقيا لها .

الفرق شاسعًا بين الموقفين .

(ونظرت إلى ما مات عليه أبى ، وإلى ذلك الرأى الذى كان يعاش فى فضله ، وكيف خُدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع) ، لقد كان الوليد هو حكيم قريش وسيدها الذى يفزع إليه بالملمات ، ويتبرك برأيه الميمون ، وهو هو نفسه الذى كان يذبح المائة من الإبل عند العزى وتقر عينه بذلك لحجر لا يضر ولا ينفع ولا يدفع عن نفسه الأذى والضر .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾ [الأعراف] .

لقد بقيت هذه الآيات كلامًا نظريًا حتى جاء رسول الله ﷺ فهدمها بمحجنه ، ثم جاء جنديه خالد فهدمها وقتل العزى بسيفه ، ولم تستطع أن تدفع عن نفسها ، ولم تتقن استعمال سيف السادن ، ولم تخبل خالدًا ، ولم تعوره . بل سقطت تحت الأحذية والنعال ، وارتفع صوت التوحيد فى الوجود بعد هذه القرون الطوال .

إنه حدث من الأهمية بمكان يعلن صدق دعوة المصطفى ﷺ والتى بقى العرب يكذبونها عشرين عامًا حتى جاءت ساعة الصفر التى أسقطت هذه الطواغيت ، وكان الإعلان الأكبر فى هذا الحدث أنها انتهت إلى غير رجعة ، ولن تعبد فى أرضكم هذه أبدًا بعد تلك القتلة التى قتلت فيها ، وهُدِم بيتها الذى كانت تنشد فيه .

فعن ابن إسحاق : أن عمرو بن لحى اتخذ العزى بنخلة ، فكانوا إذا فرغوا من حجتهم لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ، ويحلون عندها ، ويعكفون عندها يومًا وكانت لخزاعة ، وكانت قريش وبنو كنانة كلها يعظمون العزى مع خزاعة وجميع مضر ، وكان سدنتها الذين يحجبونها بنو شيبان من بنى سُليم ، حلفاء بنى هاشم ، وقال عثمان: وأخبرنا محمد بن السايب الكلبى قال : كانت بنو مضر وجشم وسعد بن بكر وهم عجز هوازن يعبدون العزى ، قال الكلبى : وكانت اللات والعزى ومناة فى كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وترايا (تتراءى) للسدنة وهم الحجبة ، وذلك من صنيع إبليس وأمره)(١) .

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢٦، ١٢٧ .

٢ ـ هدم سواع (١) :

وإذا كانت العزى قد كلف بهدمها خالد بن الوليد، فقد كُلف عمرو بن العاص ﷺ بهدم سواع ، وهو ابن العاص بن وائل سيد بنى سهم الخصم الألد لرسول الله ﷺ ، والذى اشترك مع الوليد بن المغيرة بأنهما من المستهزئين ، فإذا بأبنائهما يحملان راية التوحيد ، ويقومان بهدم آلهة الآباء والأجداد ، وكان هذا فى شهر رمضان سنة ثمان ، ولعلهما مضيا فى يوم واحد .

قال محمد بن عمر وابن سعد : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل بن مُدرِكة ، وكان على صورة امرأة ليهدمه ، قال عمرو : فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد ؟ فقلت : أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قلتُ : لم ؟ قال : تُمنع ، قلتُ : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك ، هل يسمع أو يبصر ؟ قال : فدنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم نجد فيه شيئًا ، ثم قلتُ للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله تعالى(٢) .

٣ ـ هدم مناة :

وذلك فى سرية سعد بن زيد الأشهلى ﷺ إلى مناة وهو بالمشلل لِستٍّ بقين من رمضان سنة ثمان من فتح مكة .

قالوا : بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان ، فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلى لهدمها فخرج فى عشرين فارسًا حتى انتهى إليها وعليها سادن ، فقال السادن ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشى إليها ، وتخرج إليه امرأة سوداء عُريانة ، ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها ، فقال السادن : مناة ، دونك بعض غضباتك ، ويضربها سعد بن زيد الأشهلى فقتلها ، ويُقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدَّموه ، ولم يجد فى خزانتها شيئًا وانصرف راجعًا إلى رسول الله ﷺ (٣) .

---

(١) سواع : سمى على اسم سواع بن شيث بن آدم ﷺ ، قال الجوهرى :(وسواع اسم صنم كان لقوم نوح ﷺ ، ثم صار لهذيل ، وكان بُرهاط ، قرية جامعة على ثلاثة أميال من مكة ساحل البحر يحجون إليه ، وقال الأزرقى ـ نقلا عن الكلبى ـ أنه كان برُهاط من بطن نخلة أو رُهاط من ينبع ، ورجح الأولى لقربها من هذيل) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٣٠٣ ، وهى فى المغازى ٢/ ٨٧٠ ، وفى الطبقات لابن سعد ٢/ ١٤٦ .

(٣) وهى فى الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٤٦، وفى المغازى للواقدى ٢/ ٨٧٠ .

٤ ـ هدم ذى الكفين :

قال محمد بن عمر : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بث السرايا ، فبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى ، وبعث إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة ، الطفيل بن عمرو الدوسى ، فجعل يحرّقه بالنار ويقول :

يا ذا الكفين لست من عُبادكا   ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حششت النار فى فؤادكا)[1]

أ ـ وقد ورد ذكر سواع فى القرآن بين آلهة وأصنام قوم نوح فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ﴾ [نوح] .

ب ـ ومع أن هذيل لم تخض معركة مباشرة مع الرسول ﷺ بكيانها القبلى . لكن فريقًا كبيرًا من هذيل شارك فى حرب مكة مع صفوان وعكرمة ممن أطلقت عليهم مكة أوباش قريش أو المرتزقة من نزاع القبائل ، وخضت شوكتها ، فلم تتمكن من الوقوف أمام تكسير أعز مقدساتها ، سواع الذى تحج إليه وتقدّسه ، وترك السادن لسواع الدفاع عن نفسه كما فعل سدنة العزى ، ولم يكن يشك أن عَمْرًا سوف يصيبه العطب أو المس أو الجنون أو الشلل لو هدم سواع الآلهة ، وقال لعمرو : لا تقدر على ذلك .

جـ ـ وها هو السادن ينتظر غضبة الآلهة ومنعها لعمرو من هدمها ، ثم يراها وقد غدت قاعًا صفصفًا بعد أن كانت تعبد من دون الله وينظر عمرو إلى السادن قائلاً : كيف رأيت ؟

فكان الجواب من أعماق قلبه : أسلمت لله .

د ـ أما مناة فهى ثالثة الآلهة المدعاة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ [النجم] .

وكان أكبر عبادها ومقدسيها من غسان والأوس والخزرج ، ولهذا اختار رسول الله ﷺ أحد قادة الأنصار الذين يدينون لهذه الآلهة سابقًا بالولاء والعبودية وهو سعد بن زيد الأشهلى رضي الله عنه من بنى عبد الأشهل رهط سعد بن معاذ الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم . وحتى تُنتزع من غسان والأوس والخزرج تلك الهالة للآلهة المزيفة ، وقد خرجت مناة

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٧٠ ، وذو الكفين صنم من خشب كان لعمرو بن حُمَمَة الدوسى .

تلك الشيطانة الثائرة تدعو بالويل والثبور كما خرجت من قبلها العزى ونائلة تلطم وجهها وصدرها فقد انتهى عهدها ، وأشرق نور الإسلام بالأرض ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد ، وقُتلت مناة كما قتلت العزى ، وبقيت اللات تتربص بالطائف حتى تنهار ثقيف تحت ضربات الإسلام وجنوده .

هـ ـ أما ذو الكفين صنم عمرو بن حممة ،فقد كان حلمًا للطفيل بن عمرو الدوسى أن يقوم بإحراقه كما يحدثنا ابن إسحاق عنه :

ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم من قومى ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين ، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله مكة قلت : يا رسول الله، ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة حتى أحرِّقه .

قال ابن إسحاق ، فخرج إليه فجعل طفيل يوقد عليه النار ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبَّادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا (١)

و ـ وحتى تتطهر النفوس كلها من أرجاس الوثنية كان النداء النبوى الخالد ، الذى نقله لنا جبير بن مطعم رضي الله عنه :

(لما كان يوم الفتح نادى منادى رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله فلا يتركنَّ فى بيته صنمًا إلا كسره أو حرَّقه ، وثمنه حرام » .

قال جبير : وقد كنت أرى قبل ذلك الأصنام يطاف بها مكة ، فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم ، وما من رجل من قريش إلا وفى بيته صنم إذا دخل مسحه وإذا خرج مسحه تبركًا به) (٢) .

لقد كان أعظم انتقال فى تاريخ البشرية أن تتحول مكة معقل الوثنية عند العرب إلى دار التوحيد فى الأرض كما كانت من عهد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحين دعا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم] .

تحققت الآن دعوته على يد دعوته محمد ﷺ وبدأ تكسير الأصنام وحرقها فى كل

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨٥ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٧١ .

بيت خاصة وقد أعلن أن ثمنها حرام ، لقد كانت الوثنية والأصنام فى البيوت أهم من الطعام والشراب اليومى ، وأصبحت الحركة الثورية اليوم هى تحطيم هذه الآلهة كسرًا وحرقًا ، ولا عجب أن يكون أشد الناس فى هذا الموضوع ابن أبى جهل عكرمة ﷺ وبعد أن أسلم حيث نصب نفسه محتسبًا للتوحيد .

(كان لا يسمع بصنم فى بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره) [1] ، وبنت عتبة بن ربيعة هند (جعلت تضرب صنمًا فى بيتها بالقدوم فلذة فلذة وهى تقول : كنا منك فى غرور) [2] . ومضى الغرور وانبلج النور .

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢٣ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٧١ .

ثالثًا : غزوة بنى جذيمة

١ ـ (باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ، أخبرنا معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال :

بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منهم أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيرى ، ولا يقتلن رجل من أصحابى أسيره ، حتى قدمنا على النبى ﷺ فرفع النبى ﷺ يده فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين (١) .

٢ ـ ورواية ابن إسحاق فى السيرة ، قال ابن إسحاق : فحدثنى حكيم بن حكيم بن عبَّاد بن حنيف عن أبى جعفر محمد بن على قال :

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعيًا ، ولم يبعثه مقاتلاً ، ومعه قبائل من العرب، سليم بن منصور ، ومدلج بن مُرَّة فوطئوا بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكُتفوا ، ثم عُرضوا على السيف ، فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ») (٢) .

ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال : « اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ ، فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى معلفة الكلب ، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلّا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم على ـ رضوان الله عليه ـ حين فرغ منهم ، هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطًا لرسول الله ﷺ مما لا يعلم،ولا تعلمون ،ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال : أصبت وأحسنت ، قال : ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات .

---

(١) البخارى ٥/٢٠٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٨ ـ ٤٣٠ .

٣ ـ وعند ابن سعد (أنهم لما وضعوا السلاح قال لهم : استأسروا فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكتف بعضًا ، وفرَّقهم بين أصحابه ، فلما كان السحر نادى خالد : من كان معه أسير فليدافّه ، والمدافَّة : الإجهاز عليه بالسيف ، فأما بنو سُليم فقتلوا من كان فى أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم) (١) .

٤ ـ وعن أبى سعيد قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شىء فسبَّه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

* * *

١ ـ رسول الله ﷺ وقد رأى قائده الحبيب خالد بعد النصر المظفر فى مؤتة ، وبعد النصر المؤزر فى فتح مكة يريد له أن يتحرك داعيًا لا قائدًا مقاتلاً ، فكفاءته فى القيادة أصبحت حديث القاصى والدانى ، ولقب سيف الله رفعه إلى الأوج أما خالد الداعية فلم يجرب حظه بعد،وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة من الأحابيش حول مكة، ولابد أن يُغزوا بدعوة الإسلام .

قال ابن إسحاق : وقد بعث رسول الله ﷺ فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعيًا ، لم يبعثه مقاتلاً) (٣) .

وطبيعة خالد طبيعة محاربة ، فلذلك عندما دعا بنى جذيمة للإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا كما فى رواية البخارى ، وجعلوا يقولون :صبأنا صبأنا ، وهذه الكلمة عند قريش تعنى الردة عن الدين .

ولا يبعد أن يكون عند خالد رضي الله عنه غموض فى مسؤوليته المهمة ؛ لأنه عندما دافع عن نفسه ، قال : (جاءنى رسول الله ﷺ أن أغير عليهم) ، فهو سيف الله ومهمة سيف الله أن يجاهد المشركين ويقاتلهم .

ولذلك عند أدنى شبهة عرضت له أمرهم بوضع السلاح فوضعوه ثم أخذهم أسرى يأسر بعضهم بعضًا ، لا يزال مفهوم الجهاد عند خالد رضي الله عنه هو قتل الكفار ، ويريد أن يكفر عن مواقف عمره السابقة بمواقف جديدة وملاحم يسطرها فى الجهاد فى سبيل الله،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٤٨/٢ .
(٢) مسلم ١٩٦٧/٤ ح (٢٢٢ / ٢٥٤١) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٨/٣ .

وتتوق نفسه لأن يجندل الكفار كما كان يجندل المسلمين ، ولم يلق ﷺ من التربية خلال هذه الأشهر التى أسلم فيها ما يجعل معنى أن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعَم ، وعندما قاتله أهل مكة وقاتلهم عذره رسول الله ﷺ ، فقبل عذره . وسمعة خالد العسكرية يحرص أن يحافظ عليها ، هذه السمعة التى غزت بنى جذيمة قبل وصول خالد لهم .

فعند ابن هشام فى السيرة : فحدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم من بنى جذيمة قال :

لما أمرنا خالد أن نضع السلاح قال رجل منا يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة ، إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبدًا ، قال : فأخذه رجال من قومه ، فقالوا : يا جحدم ، تريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووُضعت الحرب ، وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم السلاح لقول خالد .

والروايات التى هى أدنى صحة مما ذكرنا ، أو هى ضعيفة ، وهى عند الواقدى لا تدع شيئًا من الشبهات فى هذا المجال (فأنتهى إليهم بأسفل مكة ، فقيل لبنى جذيمة : هذا خالد بن الوليد معه المسلمون ، قالوا : ونحن قوم مسلمون ، وقد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد وأذّنا فيها ، فانتهى إليهم خالد فقال : الإسلام ، قالوا : نحن مسلمون ؟ قال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين القوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا منهم ، فأخذنا السلاح لأن ندفع عن أنفسنا من خالف دين الإسلام ، قال : فضعوا السلاح ، فوضع القوم السلاح) (١) .

ولعلها ليست السمعة العسكرية فقط التى دعت جحدم ، بل مقتل عمه الفاكه بن المغيرة ، وعوف بن أبى عوف غدراً من بنى جذيمة ، وطبيعة العرب أن تقوم الثارات بينهم لمثل هذه الدماء .

(قالوا : إنا مسلمون ، والناس قد أسلموا ، وفتح محمد مكة ، فما نخاف من خالد ؟ فقالوا : أما والله ليأخذنكم بما تعلمون من الأحقاد القديمة) .

وبدأ الشك يتسرب للنفوس عندما أمر خالد بأسر القوم .

وأثار أسرهم لغطًا فى الجيش كله .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٨٧٦ .

(فلما كتفوا دفع إلى كل مسلم الرجل والرجلين ،وباتوا فى وثاق ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يكلمون المسلمين فيصلون ثم يربطون ، فلما كان فى السحر والمسلمون قد اختلفوا بينهم ، فقائل يقول : ما نريد بأسرهم نذهب بهم إلى النبى ﷺ ، وقائل يقول: ننظر هل يسمعون أو يطيعون ونبلوهم فنخبرهم ، والناس على هذين القولين) .

ومع ذلك فالأسر قد يوجد بعض العذر فيه من خلال وجهتى النظر المعروضتين .

(فلما كان في السحر ، نادى خالد بن الوليد: من كان معه أسير فليذافّه . والمذافة: الإجهاز عليه بالسيف) .

وكيف صدر هذا الأمر من خالد رضي الله عنه ، وكيف كانت الصورة فى ذهنه عنهم ، لا تسعفنا الروايات إلا بما رواه ابن إسحاق قائلاً :

(وقد قال بعض من يعذر خالدًا إنه قال : ما قاتلت حتى أمرنى عبد الله بن حذافة السهمى وقال : إن رسول الله ﷺ أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام) (١) .

وإذا أخذنا برواية الحديث الصحيح فى البخارى والذى يرويه لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو الذى كان من أشد المعارضين للقتل ، نجده يسوق الحجة أو الشبهة بالأحرى لخالد والتى دفعته لقتلهم، وهى أنهم: (لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون: صبأنا . صبأنا) .

أما رواية الواقدى عن عبد الملك بن عبد الرحمن بن الحارث فقال :

(أمر رسول الله خالد بن الوليد يغير على بنى كنانة ، إلا أن يسمع أذانًا أو يعلم إسلامًا ، فخرج حتى انتهى إلى بنى جذيمة فامتنعوا أشد الامتناع ، وقاتلوا وتلبسوا السلاح، فانتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء لا يسمع أذانًا ، ثم حمل عليهم فقتل من قتل ، وأسر من أسر ، فادَّعوا بعد الإسلام ، قال عبد الملك : وما عتب رسول الله ﷺ فى ذلك على خالد ، ولقد كان المقدَّم حتى مات ولقد خرج معه بعد ذلك إلى حنين على مقدمته) (٢) .

وأجود عرض لهذه الحادثة وتحليلها نجده فى كتاب خالد بن الوليد لمحمد الصادق عرجون رحمه الله ، نعرضه هنا لنفاسته ، إذ يقول تعقيبًا على رواية البخارى :

(هذه هى الرواية التى نعتمد عليها فى فهم هذه القصة لأنها :

أولاً : وردت فى كتاب أجمعت الأمة على اعتماده فى أخذ دينها وفروع شريعتها لما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٣٠ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٨٣ .

تواتر عن مؤلفه العظيم من الدقة فى فحص أحوال الرواة،واختيار أفضلهم حفظًا وجودة أداء ، وحسن تلق ، وبعدًا عن مزالق العصبية المذهبية أو الطائفية ، وأبلغهم فى تحرى الصدق والخشية لله تعالى .

ثانيًا : رواية مستقيمة النسج لا اضطراب فيها ،لم تدخل حادثة بحادثة ، ولا مزجت حديثًا بحديث ، فهى تحكى الواقعة منذ أن بدأت إلى حين انتهائها فى أسلوب موجز محكم ، يؤدى لباب الغرض فى منأى عن الخيال .

ثالثًا : رواية شاهد معاين اشتهر بالدقة والتحرى ، وكان زعيم المنكرين على أمير السرية صنيعه واحتفظ بأسيره فلم يقتله ، وأمر أصحابه فصنعوا مثل صنيعه ، فأحرى به أن يحدث النبى ﷺ بما رأته عيناه ، ووعته أذناه .

هذه الرواية الصحيحة تروى أن خالدًا ﷺ دعا بنى جذيمة إلى الإسلام كما أمر رسول الله ﷺ ، وتذكر هذه الرواية أن القوم لما دعاهم أمير السرية إلى الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ،وهذا صريح فى أن خالدًا لم يبدأ القوم بقتال ، ولا أظهر لهم نية فى القتال ،بل دعاهم إلى الإسلام كما أمره النبى ﷺ ، وصريح فى أنهم لم يحسنوا الإخبار عن إسلامهم أى دخولهم فى الإسلام وإيمانهم بالله ورسوله ، ففهم عبد الله بن عمر ومن كان معه من أصحابه أن القوم مسلمون بعقيدتهم ، ولم يبال العنوان عن هذه العقيدة أن يكون صريح كلمة التوحيد ، أو ما يؤدى إلى فهم معناها ، وعذر القوم بجهلهم وقبل منهم فى حقن دمائهم قولهم : صبأنا .

وفهم أمير المسلمين خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن ذلك كان من القوم تقية ، واستبعد ألا يحسنوا التعبير عن إسلامهم بعنوانه الذى ارتضاه الله للناس وهو كلمة التوحيد التى أمر النبى ﷺ أن يقاتل الناس حتى يقولوها ، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم بها ، فلم يكتف خالد من القوم بما اكتفى به ابن عمر ، وخالد أمير الناس ، ولم يرض عدولهم عن عنوان الإسلام إلى هذه الكلمة ووجد منهم إصرارًا ، قال بدر الدين العينى فى شرح البخارى : (وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ . فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام حقيقة ، وأما خالد فإنه لم يكتف بذلك حتى يصرّحوا بالإسلام) .

ويرشح عذر خالد ﷺ فى عدم اكتفائه بقولهم (صبأنا) أن هذه الكلمة كانت عندهم كالتعيير والسب ، وكان كثير من المسلمين إذا قيل له : صبأت ، أنف من قبولها ، وهذا خالد بن الوليد نفسه حين خرج مسلمًا يأبى أن يقول له عكرمة بن أبى جهل (قد صبوت يا خالد) فيقول : (لم أصب ولكنى أسلمت) ، وذلك عمر بن الخطاب فى

قصة إسلامه يصرخ به جميل بن معمر الجمحى فى أندية قريش (ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ) وعمر خلفه يقول : (كذبت ، ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله) وهذا ثمامة بن أثال الحنفى وقد أخذته خيل رسول الله ﷺ وهو يريد العمرة فأسلم وبشّره النبى ﷺ وأمره بالعمرة ، فقال له قائل بمكة : (صبوت يا ثمامة ؟ قال : لا ، ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ) .

أفلا يعذر خالد رضي الله عنه إذا لم يرض من القوم فى التعبير عن إسلامهم وإعلانه قولهم (صبأنا) ، وهو نفسه مع أولئك الأجلة ما كانوا يقبلون على إسلامهم أن يُقال فيه : (صبوا ؟) بلى ، إن له لعذرًا واضحًا ، وقد عذره النبى ﷺ ودافع عنه بقوله :

« لا تؤذوا خالدًا فإنه سيف من سيوف الله ،سلّه الله على المشركين » .

وليست براءة النبى ﷺ مما صنع خالد إلا بيانًا لوجه الخطأ فى التأويل ، وعدم درء الحدود بالشبهات ، ولاشك أن قولهم : (صبأنا) إن لم يكن إسلامًا صريحًا فإنه شبهة قوية تدرأ حد القتل حتى يتبين الأمر ، فالخطأ الذى كانت منه البراءة هو الإسراع وعدم التلبث ، ولذلك لم يعاتبه النبى ﷺ مواجهة ، ولم يعزله عن الإمارة وقيادة الجنود ، بل أقرّه على مكانه وفضله .

وقد عذر أئمة الإسلام بطل الإسلام اقتداءً بالنبى ﷺ ، وأقاموا له صوى الحق فى هذه الحادثة،قال الخطابى:(يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الإنفة ، ولم ينقادوا إلى الدين ، فقتلهم متأولاً،وإنما نقم رسول الله ﷺ على خالد موضع العجلة وترك التثبت) وقال الداودى: (لم ير ﷺ القود فى ذلك لأنه متأول) وقال ابن تيمية : (فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فقالوا : صبأنا ، فلم يقبل ذلك منهم ، وقال : إن هذا ليس بإسلام فقتلهم ، ولم يكن خالد معاندًا للنبى ﷺ بل كان مطيعًا له ، ولكن لم يكن من الفقه بالدين بمنزلة غيره ، فخفى عليه حكم هذه القضية ، إلى أن قال ابن تيمية : فإن خالدًا لم يتعمد خيانة النبى ﷺ ولا مخالفة أمره ، ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده ، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة بن زيد فى الذى قتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذى قال أنا مسلم) .

(والمتأمل فى هذه القصص يرى أن وقعة النبى ﷺ مع أسامة كانت أشد وأعنف حتى تمنى أسامة أن لو لم يكن أسلم إلا يومئذ ، ولم يكن له ﷺ موقف مع خالد فى مواجهته مع أن حادث خالد كان أعظم لأن قتلاه على بعض الروايات يربون على السبعين، وقتيل أسامة رجل واحد ، وقد يكون فى قبول عبد الله بن عمر وأصحابه أن

يأخذوا أسرى من بنى جذيمة ـ كما صرحت به رواية البخارى وجه وجيه من العذر لخالد، وأن فضلهم عليه كان فى التلبث بأسراهم وأنه هو يُعجل فأمر بالقتل وقتل من قتل، وبعيد جدًا أن يكون ابن عمر وأصحابه جازمين بإسلام القوم ثم يقبلونهم أسرى فى أيديهم) (١) .

وبعد أن تجلت لنا الصورة الصحيحة ، نقف وراء الحادثة مع جوانب التربية النبوية العظيمة فيها :

١ ـ نفسية خالد رضي الله عنه وهو يقود سرايا الإسلام لحرب الطواغيت والكفار . نفسية القائد الذى يريد نصر الإسلام ، وتثبيت أركانه أمام الطغاة وأتباعهم المتحدّين لهذا الدين. والقوة هى السبيل الوحيد لهزيمة هؤلاء الأعداء ، فهو يريد أن يتقرَّب إلى الله تعالى بقتل الكفار .

٢ ـ ومن جهة أخرى : هو حديث عهد بالإسلام ، فلم يتجاوز بعد ثمانية أشهر تاريخ دخوله الإسلام ، يريد رضي الله عنه أن يكون جاهدًا فى حرب الكفر كجهده فى حرب الإسلام ، وقد أفنى عمره الماضى كله فى محاربة الله ورسوله ، فهو يريد أن يضيف صفحات جديدة من نصر هذا الدين والتمكين له وأن لا يأخذه فى الله لومة لائم من قريب أو صديق أو عدو ، فكل أولئك فى جنب الله سواء ، لقد أقدم بكل ما يملك من طاقة على حرب أعز صديقين عليه وأقرب مقربين إليه فى فتح مكة ، وهما عكرمة وصفوان ، وهما اللذان اصطفاهما من بين قريش كلها ليعرض عليهما رفقته فى الإسلام إلى المدينة لكنهما أبيا عليه ، ومع هذا لم يجد حرجًا ولا لحظة واحدة فى حربهم حتى عاتبه رسول الله ﷺ فى هذا القتال قائلاً :

« لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ؛ ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففت يدى ما استطعت ، فقال : « قضاء الله خير » (٢) .

وكان الأولى بخالد لو كان عنده شىء من الحرج من قتال أعز الناس عليه أن يعاتب بالتلكؤ فى حربهم لا بالإسراع فى حربهم من رسول الله ﷺ . إنه قد تطهر من أدران الجاهلية وأوزارها ، ويريد أن يكون أشد ما يكون فى الإسلام بعد ما كان أشد ما يكون فى الجاهلية ، كما وصفه عليه الصلاة والسلام ووصف أعاظم الرجال أمثاله :

---

(١) خالد بن الوليد ، لمحمد الصادق عرجون ص ٨٩ ـ ٩٤ مقتطفات. ط. ثانية ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٧٨هـ ـ ١٩٦٧م .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/١١ .

« تجدون الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس فى هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه »[(١)] .

٣ ـ وانطلاقًا من هاتين النقطتين نستطيع أن نفقه خالدًا ﷺ فى توجيهه عملية قتل المتلكئين عن الإسلام ، ومع هذا فلم يكتف فى اجتهاده الشخصى ، إنما وجد من خيار الصحابة من يفتى بقتلهم أمام هذه المواقف وهو عبد الله بن حذافة السهمى ، ووجد فى هذه الفتوى ما هو أقرب لنفسه والصق بهمته وقلبه فأصدر أمره بقتل الأسرى الموجودين فى أيدى المسلمين من بنى جُذيمة ، مخلصًا لله سبحانه نفسه من كل مراعاة أو مهادنة للذين تلكؤوا أو تحايلوا فى اختيار الإسلام ليتطهر المجتمع من أولئك المذبذبين بين الإسلام وعدمه ، والذين يريدون أن ينجوا من القتل بهذه الأساليب .

٤ ـ لكن الجيل الأول والذى تربى فى مدرسة النبوة منذ عشرين عامًا أو تزيد ، تختلف القضية عنده عما عند خالد ﷺ ،هذا الجيل الذى عاش آلام الدعوة ،وذاق لذة الصبر على لأوائها ، وضحى من أجل تبليغ هذا الدين ، وبقى ثلاثة عشر عامًا يجاهد بلا سلاح ولا سيف جهاد الكلمة الخالصة ، هذا الجيل يدرك أن الهدف الرئيسى من هذا الجهاد كله هو هذه القلوب وهدايتها ، وليس هذه الأرواح وإزهاقها . وعندما استجاب لأمر قائده بأخذ الأسرى من بنى جذيمة ، وأطاعه فى ذلك طمعًا فى تدريب هذا الأسير على الإسلام وتفقيهه إياه ، والتمكن من عرض الإسلام عليه بعد أن ألقى السلاح واستسلم فى المعركة ،لا يمكن لهذا الجيل أن يقدم على قتل من يربيه على الإسلام ويجد عنده هذه الرغبة الصادقة فيه ، ولم يترددوا لحظة واحدة فى إطلاق سراح هؤلاء الأسرى عوضًا عن قتلهم .

(وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم) .

٥ ـ ولم تكن عندهم شبهة معصية لأمير فى إطلاق السرى دون قتلهم ، فالمبدأ العام الذى رضعوه فى حياتهم كلها أن كلمة الإسلام تعصم الدم ، والقتل العمد جزاؤه جهنم وإن كان عندهم شبهة فى الأسر فأطاعوا لكن ليس عندهم شبهة فى القتل ، ومعصية القتل العمد أكبر بكثير من الخطأ فى الأسر .

وفى رواية لأبى بشير المازنى يقول : كان معى أسير منهم ، قال : فلما نادى خالد: (من كان معه أسير فليذافّه) أخرجت سيفى لأضرب عنقه ، فقال لى الأسير : يا أخا الأنصار ، إن هذا لا يفوتك ، انظر إلى قومك ! قال : فنظرت فإذا الأنصار طرًا قد

---

(١) مسلم ١٩٥٨/٤ ح (٢٥٢٦/١٩٩) .

أرسلوا أساراهم، قال : قلت : انطلق حيث شئت ، فقال : بارك الله عليكم ، ولكن من كان أقرب رحمًا منكم قد قتلونا ، بنو سليم .

لقد فقه هذا الجيل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار دينه ، وعاش كل معانيه ومراميه ، فلم يتردد فى إطلاق سراح الأسرى وعدم تنفيذ الأوامر الصادرة له من القيادة حين رأى القوم مسلمين .

٦ ـ ولم يكتف هذا الجيل بإطلاق الأسرى ، إنما راح يراجع قائد السرية خالد بن الوليد سيف الله فى خطأ الأمر الذى أصدره ، ويشدّد عليه فى النكير أمام أمر كهذا فى قوم مسلمين ، مما جعل خالد يعتذر عن أمره أكثر مما جعله يهدد ويتوعد من خالف أمره، ويتحدث عن دوافع هذا الأمر أمامهم ، وكاد الجو أن يفسد بين الأمير العظيم وجنوده من المهاجرين والأنصار .

٧ ـ واختلف الأمر تمامًا فى بنى سليم ، فبنو سليم حديثو عهد بالإسلام ، قد انضموا إلى الجيش الإسلامى وهو فى طريقه إلى فتح مكة ، ويحملوا الخلفية التى يحملها خالد ﷺ فى الحرص على الانتقام والثأر من أعداء الله ، كما اختلطت القضية عندهم فى توافق القتل مع الأخذ بثارات الجاهلية بينهم وبين بنى جذيمة ، فوافق الأمر هواهم ، ولم يترددوا لحظة واحدة فى تنفيذ أمر القتل .

(وكانت بنو جذيمة قد أصابوهم ببُرزة وهم موتورون يريدون القود منهم)(١) .

(ثم إن بنى الشريد (من بنى سُليم) حرموا على أنفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم من بنى كنانة ، فأغار عمرو بن خالد بن صخر على بنى فراس فقتل منهم نفرًا منهم عاصم بن المعلى وفضلة والمُعارك وعمرو بن مالك وحصن وشريح وسبى سبيًا فيهم ابنة مكدَّم)(٢) .

هذا وإن كان الثأر بين بنى سليم وبنى فراس من كنانة ففى شريعة الجاهلية قد غدا كل بنى كنانة عرضة للثأر ، وبنو جذيمة من كنانة ، وقد حانت فرصة فى هذه المعركة ليأخذوهم أسرى ، ولكنهم ملتزمون بالإسلام ، فلم يفعلوا شيئًا حتى جاءهم أمر خالد ﷺ سيف الله بقتلهم فقتلوهم ، ولم يقدموا على هذا الأمر بثارات الجاهلية حين أخذوهم أسرى فلم يمسوهم بسوء ، حتى جاء أمر خالد .

وهذه صورة من صور توافق الهوى مع الأمر الشرعى ، الذى قد يفسد أحيانًا فقه

(١) المغازى للواقدى ٢/٨٧٨ .

(٢) أيام العرب . يوم بُرزة ص٣٢٠ لمحمد أحمد جاد المولى بك .

هذا الأمر ، بينما لم تقع هذه الصورة من الجيل الأول المجاهد .

٨ ـ ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ من الشهود والثقات ، ولم تعد القضية عنده ﷺ قضية رجل ولا قضية قائد ، إنما الأمر قضية منهج لهذا الدين قد ثُلِم ، ولا يمكن السكوت عليه حتى لا تشوهَّ صورة هذا المنهج عند أوليائه وعند أعدائه ، هذا المنهج الذى يعطى الأمان لمن أسلم ويجعل له من الحقوق ما لغيره ولو كان أقدم منه عشرين عامًا فى هذا الدين ، هذا المنهج الذى يشعر أعداء الله فيه أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم بلا ثارات قديمة ، ولا نزعات جاهلية ، ولا حسابات عصبية ، فقد أعلن رسول الله ﷺ أن أمر الجاهلية تحت قدميه ، وأعلن أن كل مأثرة أو دم تحت قدميه إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، فكيف إذا برز من خلال التطبيق العملى أن سرية لمحمد ﷺ قتلت الناس بعد أن أمنتهم،وبعد إسلامهم،إن هذا الخطر أكبر بكثير من مراعاة خاطر فرد، أو مجاملة قائد ، أو مسايرة زعيم حرصًا على عدم غضبه ، فلذلك قام عليه الصلاة والسلام أمام المسلمين جميعًا ، ليبلغ الشاهد منهم الغائب ، وفيهم بعض الزعماء الذين ما زالوا على الكفر ، قام ليعلن للدنيا كلها براءته من هذا الصنيع الذى أقدم عليه أكبر قواده : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » كررها مرتين أو ثلاثًا شاهرًا يديه حتى ليظهر بياض إبطيه. لتعلم الدنيا أن هذا الصنيع لا يقره الإسلام ، ولا يتحمل وزره ولو كان صادرًا عن سيف الله خالد بن الوليد ، ولو أن هذا الأمر قد يعتبره القائد تشهيرًا فيه ، وإعلانًا لخطئه على الملأ وأمام الناس جميعًا ، فلا ضير ؛ لأن سلامة المنهج فوق سلامة الأشخاص ، والحرص على تطبيق المبادئ فوق الحرص على مراعاة خواطر الأشخاص ، فهذا الأمر دين والدين لله ، ليس لأحد مهما عظم وصاية عليه ، أو مراعاة له على حساب هذا الدين، فكانت هذه البراءة الخالدة إعلانًا للدنيا كلها ، براءة من صنيع خالد ، وليست براءة من خالد .

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » قالها ثلاثًا .

٩ ـ ومن المهم جدًا أن نقف أمام عظمة التعبير النبوى ، فليست البراءة من خالد بن الوليد ، وإعلان سقوطه فى المجتمع ، وتحويله إلى مجرم حرب . إن البراءة من خطأ صدر من خالد بن الوليد من صنيعه وأمره بقتل الأسرى الذين ترجح إسلامهم بعد الأسر على الأقل ، هى براءة من العمل ، وليست براءة من البطل ، البطل يخطئ ، ويحاسب على الخطأ ، وقد يعلن خطؤه إذا اقتضى الأمر على الأمة كلها حين يمكن أن يمس المنهج لو لم تعلن هذه البراءة ، أما البطل ، أما النياشين والألقاب التى أخذها فلا تزال له ، ولا يزال سيف الله خالد بن الوليد ، ولا يزال : « نعم أخو القبيلة والعشيرة هو » ولا

يزال : « قد كتب الله النصر على يديه فى مؤتة » وهذا كله لا يتعارض مع البراءة من صنيعه فى بنى جذيمة ، وإعلان البراءة من هذا الصنيع على الأمة بحيث يصل حتى إلى أعدائها والمتربصين بها ، بل إن وصول هذه البراءة إليهم هى هدف بحد ذاته ، كى يطمئن العدو أن لا عذر فى الإسلام ، ويطمئن العدو ، أنهم إذا قالوا لا إله إلا الله عصموا دماءهم وأموالهم بها ، وأنه إن وقعت حادثة تخالف هذا المنهج ، فقد أعلن رسول رب العالمين براءته من هذا الخطأ ، واستمرار المنهج وديمومته وخلوده .

١٠ ـ وفى خطوة عملية جادة لمحو آثار هذا الخطأ كان إرسال على رضي الله عنه فى مهمة شخصية من رسول رب العالمين ، ليتفادى نتائج هذا الخطأ ويدى القتلى ، ويرمم هذا النزيف القائم ، وما أروع هذه الرؤيا وتفسيرها حول هذا الحادث الجلل .

(قال ابن هشام . . . قال رسول الله ﷺ : « رأيت كأنى لقِمت لقمة من حيس فالتذذت بها ، فاعترض فى حلقى شىء منها حين ابتلعتها فأدخل علىٌّ يده فنزعه » ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله ، هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ، ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليًا فيُسهّله)(١) .

وكان تصديق الرؤيا فى التو ، فجاءه عليه الصلاة والسلام ما اعترض فى حلقه ، وكان غصة له فى الخلل فى هذا التطبيق القائم لشريعة الله ، فابتعث عليًا لينزع هذا الخلل ، ويخرج هذا الشىء الذى ابتلع .

« يا على، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى لهم ميلغة الكلب .

فلابد من جبر هذه الخواطر الكسيرة ، وصحيح أن الدماء والأرواح لا تعود ، لكنه اعتراف لهم من رسول الله ﷺ بخطأ قائده، والتعويض عن خسائرهم، والديات لقتلاهم، حتى ليدى لهم الإناء الذى يلغ به الكلب عندهم ، فليست القضية قضية سيطرة مخزوم ولا قريش ، وليست القضية قضية ذبح كل من يعارض والإجهاز عليه إن طالب بحقه ، وليست القضية قضية طغاة حكموا واستباحوا الدماء والأموال . إنهم احتكموا إلى شرع رب العالمين ، رب العالمين الذى لا يحابى أحدًا من خلقه على أحد ، ويعلن الخطأ ، ويتحمل رسول رب العالمين نتائج هذا الخطأ، ويرضى كل فرد فى بنى جذيمة، حتى لو فقد الحجر الذى يلغ به الكلب فسوف يعطيه قيمته ، ويتحمل آثار هذا الخطأ .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٩ .

إنه دين يحكم ، دين الله وشريعة تسود ، شريعة الله ، لا يظلم فيها فرد ، ولا يهان فيها مخلوق ، ولا يهدر فيها دم ولا مال حتى ولو كان ميلغة الكلب .

ويبلغ تشبع على ﷺ بهذا الدين ومبادئه وأحكامه ، وسريانها فى دمائه ما نراه من هذا التصرف الذى أقدم عليه باجتهاده الفردى :

(حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه ، بقيت بقية من المال ، فقال لهم على ﷺ حين فرغ منهم : هل بقى لكم مال لم يود إليكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أعطيكم من هذه البقية من هذا المال احتياطًا لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون). ففعل هذا ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال : أصبت وأحسنت .

لم تشهد البشرية فى تاريخها كله مثل هذا النهج، ولا مثل هذه التربية، فعلى ﷺ يدرك أن رسول الله ﷺ هو بحاجة إلى الدرهم الواحد ، فقد فتحت مكة ، ولم يصب أحد شيئًا من الغنائم ، واضطر عليه الصلاة والسلام لاستدانة المال من قيادات المشركين فى قريش ، وكان الحرص على الميزانية يقتضى من على ﷺ أن يعود بهذا المال المتبقى لرسول الله ﷺ يسد بها حاجة الآلاف العشرة التى تدين له ، وليس عنده شىء يعطيها لهم، كان الأولى بعلى ، وهو يعرف قيمة كل درهم ، ألا يفرّط فيه ، فقد أدى الحقوق حتى ميلغة الكلب، لكن حرص على ﷺ على نصاعة صورة العقيدة كان أكبر بكثير عنده من حرصه على سلامة الميزانية ، وحرص على ﷺ على جبران الخواطر الكسيرة المقهورة كان أكثر من حرصه على المحافظة على جبران الخزينة المقدمة على الإفلاس .

وأقر رسول الله ﷺ لأخيه فى الدنيا والآخرة ، لحبيبه على هذا الاجتهاد ، وقال له : « أصبت وأحسنت » .

فقد يأتى مظلوم بعد مغادرة على فتبقى حرقة فى كبده أنه لم يود ولم يجبر ، فكان هذا المال احتياطًا لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا يعلمون .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية].

١١ ـ ووصل خالد بن الوليد ﷺ إلى مكة وقد سبقته البراءة من صنيعه ، وقد تأثر أيما تأثر لهذه المخالفات والاعتراضات على أمره ، لكن البراءة النبوية تعنى أن اجتهاد إخوانه الكبار من المهاجرين والأنصار أصح من اجتهاده، وعند وصوله لم يسلم من النقد والتجريح فبعد إنكار عبد الله بن عمر ﷺ، وسالم مولى أبى حذيفة فى ساحة المعركة، يواجه بنقد عنيف لموقفه فى مكة المكرمة من عبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر .

أما عبد الرحمن بن عوف فيصل به الأمر إلى اتهامه بدوافعه إذ إنه ثأر من بنى جذيمة

لقتلهم عمه الفاكه بن المغيرة ، فذكَّره خالد أن أبا عبد الرحمن بن عوف قد قتلته كذلك بنو جذيمة ، فهم غادرون بقيادات قريش .

ويؤكد عبد الرحمن رضي الله عنه أنه قد ثأر لقاتل أبيه وقتله منذ زمن ، لكن الآن وثارات الجاهلية قد أبطلت فكيف تؤخذ بالإسلام .

وكل ما تطالعنا به الرواية الصحيحة في مسلم (أنه كان بين عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد شيء فسبَّه خالد . . .) .

ورسول الله ﷺ يشهد هذا الحوار أو يبلغه ، لكن عندما وصل إلى مرحلة أن يتجرأ خالد بن الوليد على سبّ عبد الرحمن بن عوف ، فهذا يعنى أنه لابد من معالجة هذه النفسية الجموحة ، بما يكبح جماحها بحيث تدرك حدودها ، وتعرف فضل الجيل الأول الذى تحدثت عنه التوراة والإنجيل ، فضل السابقين الأولين من المهاجرين ، ولابد أن تعود الذاكرة بخالد إلى أحد يوم قاد المذبحة للمسلمين حربًا على الله ورسوله ، بينما جرح عبد الرحمن بن عوف عشرين جرحًا ، من سيوف ورماح العدو ، وأبلى أعظم البلاء فى صد هجوم خالد بن الوليد ، فهل لخالد أن يتجاوز هذا الحد مع هذا الجيل ، ويستعلى بإمرته للجيش ، ويرى أنه أكبر من هؤلاء العظام ، لابد أن يتربى خالد ويتلقى الدرس القاسى الثانى من حبيبه المصطفى ﷺ قائلاً له : « يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فإنك لو أنفقت ملء أحد ذهبًا ما بلغت مدَّ أحدهم ولا نصيفه » ، واختار رسول الله ﷺ ذكر أحد بالذات حتى تتجسد لخالد الصورة تمامًا يوم انقض على المسلمين وأكبر هدفه قتل محمد وأصحابه ، ويوم كان عبد الرحمن بن عوف يقى رسول الله ﷺ بنفسه وجسده ويسقط بين رماح خالد وجيشه وسيوفهم فى عشرين جرحًا خطيرًا تنتابه من كل جانب .

لابد أن يدرك خالد بن الوليد ، ولو كان سيف الله الذى سلّه الله على المشركين ، ولو كان قاهر الروم ، ولو كان هادم العزى ، ولو كان فاتح مكة ، لو كان معه كل هذه الأمجاد ، فدرهم واحد من عبد الرحمن بن عوف فى العسرة وأيام الشدة ليعدل جبل الذهب الذى ينفقه خالد اليوم ، وليس هذا خاصًا بعبد الرحمن ، إنما بكل ذلك الجيل ، جيل بدر ، وجيل أحد ، وجيل الحديبية .

حتى عمار بن ياسر حليف قريش وليس أصيلاً فيها ، عندما هاجمه عمار لموقفه واستبا معًا تلقى الدرس الثالث من رسول الله ﷺ قائلاً له عن عمار :

« مه يا خالد ، لا تقع بأبى اليقظان ، فإنه من يعاده يعاده الله ، ومن يبغضه يبغضه

الله ، ومن يسفهه يسفهه الله » [1] .

فهذا الجيل قد خلُص من حظ نفسه منذ زمن بعيد ، وأصبح حزب الله حقًا بشهادة رب العالمين لا يغضب إلا لله ، ولا يرضى إلا لله ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] ، وهؤلاء جيل بدر الذين نزل فيهم هذا النص بعد أن قتلوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم فى سبيل الله وحده لا شريك له .

١٢ ـ وبالمستوى نفسه من التوازن ، وبهذا الانتصار النبوى لهذا الجيل لا يعنى إلغاء دور خالد ولا يعنى بهذه الفضيلة حق النيل منه ، فعندما بلغ رسول الله ﷺ أن هناك من يسب خالدًا ، ولعله ثورة لرسول الله ﷺ يوم تبرأ من صنيع خالد ، أوقف رسول الله ﷺ هذا النيل وأعلمهم أن ما فاز به من شرف لم يحصلوا عليه منذ عشرين عامًا فقد فاز بلقب سيف الله ، ولا يزال بعد هذه الخطيئة هو هو نفسه سيف الله ، فأعلن للدنيا بعد أن أعلن براءته من صنيعه ، أعلن للدنيا أن خالدًا لم يتزعزع من مواقفه ولا من مسؤولياته ولا من رتبه العسكرية قيد أنملة ، قال عليه الصلاة والسلام :

« لا تسبوا خالدًا فإنه سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين » .

ولم تحمل الروايات الصحيحة أبدًا أن رسول الله ﷺ عاتب خالدًا على صنيعه ، فهو يعلم أنه أكبر من الشبهات فى نيته ،وهو يعلم عليه الصلاة والسلام أنه إنما تحرك فى كل ما تحرك به نصرًا لله ولرسوله، لا نصرًا لنفسه ، ولا ثأرًا لعمه ، ولا حبًا فى القتل، ولكنه تأول فأخطأ ، فلا يجوز سبه ولا النيل منه .

أى تربية فى الدنيا تعدل هذه التربية فى وضع كل قواعد التعامل بين المتقدمين والمستجدين من جيل النبوة والفوارق الكبرى بين جيل بدر وجيل الفتح من دون أن يبخس لأحد حقه . و(كلاً وعد الله الحسنى وللسابقين درجة) .

أما كان فيكم رجل رحيم

(قال ابن إسحاق : وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس عن الزهرى عن

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٨٨١ ، ٨٨٢ .

ابن أبى حدرد الأسلمى قال : كنت يومئذ فى خيل خالد بن الوليد فقال لى فتًى من بنى جذيمة وهو فى سنى ، وقد جمعت يداه إلى عنقه فى رُمة [1] ونسوة مجتمعات غير بعيد عنه : يا فتى ، فقلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت آخذ بهذه الرُمَّة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أقضى إليهن حاجة ثم تردنى بعد ، فتصنعوا لى ما بدا لكم ؟ قلت : والله ليسير[2] ما طلبت ، فأخذت برمته فقدته بها حتى وقف عليهن فقال : اسلمى حبيش على نَفَد من العيش :

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم	بحلية أو ألفيتكم بالخوانق[3]
ألم يكُ أهلاً أن ينوّل عاشق	تكلف إدلاج[4] السرى والودائق[5]
فلا ذنب لى قد قلت إذ أهلنا معًا	أثيبى بود قبل إحدى الصفائق[6]
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى	وينأى الأمير بالحبيب المفارق

قالت : وأنت فحييت سبعًا وعشرًا وترا ، وثمانية تترى ، قال : ثم انصرفتُ به فضربت عنقه ، قال ابن إسحاق : فحدثنى أبو فراس بن أبى سنبلة الأسلمى عن أشياخ منهم عمن كان حضرها منهم ، قالوا : فقامت إليه حين ضربت عنقه ، فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت عنده)[7] .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : إنى لست منهم إنى عشقت امرأة فلحقتها فدعونى أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم، فإذا امرأة أدماء طويلة ، فقال لها : اسلمى حبيش قبل نفاد العيش ، وذكر البيتين الأولين بمعناهما ثم قالت : نعم فديتك، قال: فقدموه فضربوا عنقه ،فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال رسول الله ﷺ : « أما كان فيكم رجل رحيم » [8] .

* * *

هؤلاء الضاربون فى البادية دينهم هواهم ما لم يعصمهم الله تعالى بالإسلام ، وهذا نموذج وقف حياته على محبوبته فى قبيلة اشتهرت بالحب العذرى فيها وهى بنو جذيمة فمنهم الشاعر العذرى المشهور قيس بن الملوح الذى ملأ الدنيا بأشعاره وغزله ، وهذا أحد

---

(١) الرمَّة : الحبل البالى .
(٢) يسير : سهل .
(٣) حلية والخوانق : موضعان .
(٤) الإدلاج : السير بالليل .
(٥) الودائق : شدة الحر فى الظهيرة .
(٦) الصفائق : المصائب الكبيرة .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٣٣ ، ٤٣٤ .
(٨) دلائل النبوة للبيهقى ١١٨/٥ .

هذه النماذج الذى لم يكن له هم من الدنيا قبل أن تُضرب عنقه إلا أن يلقى محبوبته فيلقى عليها النظرة الأخيرة والوداع الأخير ، ثم يقدم فيرفض الإسلام وتضرب عنقه، ثم تقدم محبوبته ، فتقبله حتى تموت بجواره من لظى الحب وسعيره الذى قضى عليها ، وما كنا لنقف عند هذه الحادثة إلا لأن المسلمين وقفوا عندها ، ونقلوها لرسول الله ﷺ فيما تحمل من عنف العاطفة بين العشاق والمحبين ،ولم يستنكر رسول الله ﷺ هذا اللون من العاطفة الحادة ولم يستغربه ، بل استنكر هذه المواقف العنيفة من هذين المحبين ، وعدم مراعاة هذه العواطف والتعامل مع هذا الواقع ، والمضى فى تنفيذ القتل أمام إنسان لا يعنيه الكفر والإسلام بشىء ففيم يُقتل وتُقتل معه محبوبته، لقد كان فى تربية هذا الرجل وتذكيره بالإسلام ما يهيئه ليدخل فى دين الله ويرعى حق الله فى نفسه ومعشوقته . إن عدم مراعاة هذه الأوضاع هو الذى حدا ببنى جذيمة أن يواجهوا الجيش ، ولقد وجدنا حرصهم على نسائهم بارزاً فى الدفاع والذود عنهن حتى يغادرن ساحة المعركة (١) .

إن هذا المعنى الخالد الذى دعا له رسول الله ﷺ فى مراعاة العواطف الإنسانية الحادة بين الرجل والمرأة ومعالجتها بحكمة ويسر(٢) . يجب أن يبقى راسخًا فى ذهننا ونحن نعالج الفتيان والفتيات الذين يعيشون خلال فترة مراهقتهم هذه العواطف العنيفة

---

(١) من ذلك ما رواه ابن إسحاق قال : وقال غلام من بنى جذيمة وهو يسوق بأمه وأختين له وهو هارب بهن من جيش خالد :

رخّين أذيال المروط وارتقن مشى صبيات كأن لم يفزَعَن
إن تُمنع اليوم نساء تُمنَعَن

وقال غِلمة من بنى جذيمة يقال لهم بنو مساحق يرتجزون حين سمعوا بخالد فقال أحدهم :

قد علمت صفراء بيضاء الإطل يحوزها ذو ثلة وذو إبل
لأغنين اليوم ما أغنى رجل

(٢) أصح الروايات فى هذه الحادثة هى ما رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير والنسائى عن عبد الله بن عباس (أن النبى ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال لهم : إنى لست منهم عشقت امرأة فلحقتها فدعونى أنظر إليها ثم اصنعوا بى ما بدا لكم فإذا امرأة طويلة أدماء فقال لها : اسلمى حبيش قبل نفاد العيش (ثم ذكر البيتين).

قالت : نعم فديتك ، قال : فقدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال : « أما كان فيكم رجل رحيم » مجمع الزوائد ٦/ ٢١٠ ، وقال فيه : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وإسناده حسن .

كما ساق الهيثمى رواية أخرى عن عصام المزنى وكانت له صحبة فقال :

كان النبى ﷺ إذا بعث جيشًا أو سرية يقول لهم : « إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم أذانًا فلا تقتلوا أحدًا »، فبعثنا النبى ﷺ فى سرية وأمرنا بذلك ، فخرجنا نسير بأرض تهامة ، فأدركنا رجلاً يسوق ظعائن فعرضنا عليه الإسلام ، فقلنا : أمسلم أنت ؟ قال : وما الإسلام ؟ فأخبرناه ، فإذا هو لا يعرفه ، قال : إن لم أفعل فما أنتم صانعون ؟ قلنا : نقتلك . قال: هل أنتم منظرى حتى أدرك الظعائن. فقلنا : نعم ، ونحن مدركوه، فخرج فإذا امرأة فى هودجها فقال : اسلمى حبيش قبل انقطاع العيش ، فقالت : اسلم عشراً وتسعًا تترى ثم قال : =

الحادة ، والتى تسيطر على التكوين الإنسانى فتعطله عن وظيفته ، وقد نفقد المراهقين من شبابنا وفتياتنا حين لا نحسن التعامل مع هذه الظاهرة .

= أتذكر إذ طالبتكم فوجدتكم بحلبة أو أدركتكم بالخوانق
فلم يكُ حقًا أن ينوّل عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لى إذ قلت أهلنا معًا أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن يشحط النوى وينأى الأمير بالحبيب المفارق

ثم أتانا فقال : شأنكم ، فقدمناه فضربنا عنقه ، ونزلت الأخرى من هودجها فجثت عليه حتى ماتت) .
قلت : روى أبو داود طرفًا من أوله ـ رواه الطبرانى والبزار وإسنادهما حسن ٦/٢١١ .
وفى تخريج حمدى السلفى للمعجم الكبير للطبرانى يقول فى الحديث : ورواه البيهقى فى دلائل النبوة من طريق النسائى أيضًا .
قلت : فى إسناده على بن الحسين بن واقد : وثقه النسائى وغيره ، وضعفه أبو حاتم ١١/٢٩٢، ٢٩٣ .

رابعًا : أحكام إسلامية وتربية عملية

لقد كان هم رسول الله ﷺ أن يربى هذه الأمة فى هذا الجمع الضخم الذى لم يلتق قبل اليوم . فكانت الخطبة فى اليوم الأول من الفتح ، ثم الخطبة فى اليوم الثانى ، وكان من أهم الأحكام التى أعلنها رسول الله ﷺ فى نصف الشهر هذا ما ذكره ابن أبى ذئب عن الزهرى قال :

(نهى رسول الله ﷺ يوم الفتح عن ثمن الخمر ، وثمن الخنزير ، وثمن الميتة ، وثمن الأصنام ، وحلوان الكاهن) (١) وهذه المنهيات الخمس تكاد تكون فى المجتمع الجاهلى من أربح التجارات وأكثرها رواجًا آنذاك فى مجتمع يقوم فى علمه على الكهانة، وفى دينه على عبادة الأصنام ، وفى لذاته على الخمر ، وأراد الإسلام أن يجتث هذه المفاسد من جذورها ، ليصبح المجتمع نظيفًا مجتنبًا لكل ما يمت لهذه الفواحش بصلة .

وعن الربيع بن سبرة عن أبيه قال : حرَّم رسول الله ﷺ متعة النساء يومئذ(٢) ، كان هذا فى الأمر النظرى ، وفى التطبيق العملى .

عن ابن عباس قال : أهدى صديق لرسول الله ﷺ من ثقيف راوية خمر ، فقال رسول الله ﷺ : « أما علمت أن الله تعالى حرَّمها » فسارّ الرجل غلامه : اذهب بها إلى الحزورة فبعها ، فقال رسول الله ﷺ : « بم أمرته ؟ » قال : ببيعها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الذى حرَّم شربها ، حرَّم بيعها » ، فبلغنى أنها فرّغت فى البطحاء (٣) .

وأحيانًا يكون التحريم جوابًا على أسئلة الأمة التى تريد أن تعرف كل شىء من أحكام دينها ، وقد لا تبلغ هذه الأحكام كل فرد من الأمة ، فيأتى السؤال ليؤكد ويقرر الحكم .

فعن جابر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ يوم الفتح: ما ترى فى شحوم الميتة يُدهن بالسقاء ؟ فقال : « قاتل الله اليهود ، حرَّم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها »(٤) .

وجاء الجواب بصيغة غير مباشرة حتى ينفر السائل ومن وراءه من التحايل على النصوص كما فعل بنو إسرائيل ، وعن ابن المسيب قال : سئل رسول الله ﷺ يومئذ عن ثمن الخمر ؟ فقال : « قاتل الله اليهود ، حرَّم عليهم الشحم فباعوه وأكلوا ثمنه »(٥) .

---

(١) مغازى الواقدى ٢/ ٨٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٦٤ .

(٤، ٥) المصدر نفسه ٢/ ٨٦٥ .

ويبوح رسول الله ﷺ بحبه المتيم لمكة ، وفى الوقت الذى يعلن فيه قدسية مكة منذ الأزل،وحب الله تعالى لها فيقول فيما رواه أبو عمرو بن عدى بن الحمراء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح وهو بالحزورة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلىّ ، ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت » (١) .

التعايش بين المسلمين :

ولعل أخطر قضية تمت خلال هذه الفترة هى التعايش بين المسلمين من قريش والذين دخلوا الإسلام من جديد وبين الأنصار من أهل المدينة ، وبينهم ثارات يمكن أن تفنى كلا الفريقين لو تركت للعرب ليأخذوا فيها ، لقد عاش العرب عشرات القرون لا دين لهم إلا أن يقتل بعضهم بعضا ، وأفنتهم الثارات فيما بينهم فأصبحوا أسوأ ذات بين ،بين الأمم كلها ، فكانت هذه المرحلة وبإشراف النبى ﷺ يتعايش فيها المهاجرون مع مسلمة الفتح، ينظر الرجل إلى قاتل أبيه وقاتل أخيه وقاتل ابنه فيسلم عليه ويتعامل معه ويتحدث معه، وكان هذا الاختلاط تحت راية الإسلام أعظم ما شهدته البشرية من تربية وكان نقلة هائلة للعرب من الجاهلية إلى الإسلام ، لقد أشرف عليه الصلاة والسلام على نقل الأوس والخزرج الذين أفنتهم الحرب وخاصة فى بعاث إلى مجتمع خاضع لنظام ودولة وحكم وسلطة ، وانتهى سلطان القبيلة لسلطان الله وشرعه وحكمه ، واستغرق سنين حتى آتت هذه التربية أكلها ، أما هذه التجربة ، فهى تجربة سريعة أرادها الله تعالى كى تمسح كل آثار الجاهلية الماضية ويُعفى عليها ، ولم تشهد هذه الفترة ولا مخالفة واحدة من الثأر والانتقام بعد حادثة قتل خزاعة لرجل بثارات الجاهلية وفى شبهة أحالته إلى قتل عمد، إن الحديث النظرى سهل عن هذا الأمر ، ولا يمكن أن يوفيه حقه إلا تلك المعاناة التى تجعل ضبط الأعصاب أشد هولاً من القتل نفسه عند الموتورين والمفجوعين ، ولا نعرف قدره إلا عندما ندرك مدى تحكم هزلية العادة فى النفس البشرية الجاهلية ، ولا يكفى أن يتم التعايش بين هذين العدوين اللدودين اللذين استمر العداء والدم والثارات بينهم عشرين عامًا ، بل لابد من تطور عواطف البغض والحقد إلى عواطف التآلف ثم المحبة والمودة ، وضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة يوم اعتبر كل تلك المرحلة بما فيها من حروب وضغائن ودماء وثارات ، مرحلة بين أخ كريم وابن أخ كريم ، وبين عائلة واحدة كما جرى بين يوسف وإخوته ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف] ، فتعايش على وبنو أمية، وتعايش الأنصار ومسلمة الفتح حيث كانوا يصلون معًا ، ويستمعون معًا لرسول الله ﷺ ، وأدرك الناس أن عهدًا جديدًا للبشرية جاء، أنهى عهد

---

(١) مغازى الواقدى ٢/ ٨٦٥ .

الظلمات السابقة كلها ، وبزغ النور الذى أضاء هذه البشرية تحت راية قوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ [آل عمران] ، وتحت راية قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾ [الأنفال] ، وتحت راية قوله ﷺ : « إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح »[١] .

---

(١) من خطبته ﷺ يوم الفتح .

خامسًا : محطات الإقلاع الثلاث

ونحن نودع فتح مكة يحسن بنا أن نتحدث عن محطات الإقلاع الثلاث التى تمت فى عهد رسول الله ﷺ وكانت كلها فى شهر رمضان أو فى نصفه الثانى بتعبير أدق .

المحطة الأولى :

نزول الوحى على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، وفى شهر رمضان والذى كان فاصلاً بين عهدين ، بين عهد كان فيه محمد بن عبد الله قد اعتزل البشرية فى تلة هذا الجبل يتحنث ويعبد ربه الليالى ذوات العدد ، إلى عهد يغدو فيها أمينًا على البشرية ، ورسولاً إلى البشرية كافة ،عليه أن يغادر دثاره ويتحرك للإنذار ابتداءً من عشيرته الأقربين وانتهاء بالعالمين .

لقد كانت هذه محطة الإقلاع الأولى ، والتى كان من ثمرتها جهد ثلاثة عشر عامًا فى مكة وعامين فى المدينة حيث تكون أعظم أجيال البشرية جيل بدر ، وتكوّن جيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

المحطة الثانية :

محطة إقلاع جديدة كانت من بدر وفى السابع عشر من رمضان حيث كان من الممكن لو لم يكن نصر بدر أن تكون نهاية البشرية البائسة منذ ذلك اليوم .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة فإن شئت لا تعبد فى الأرض » .

ليجعل الله تعالى هذا النصر فرقانًا بين عهدين فى تاريخ البشرية ، ويقتل فيها أربعة وعشرون صنديدًا من طواغيت مكة ، فكانت (فرقانًا بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية ، عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار ، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، والإسلام بوصفه تصورًا جديدًا للحياة ومنهجًا جديدًا للوجود الإنسانى ، ونظامًا جديدًا للمجتمع ، وشكلاً جديدًا للدولة ، بوصفه إعلانًا لتحرير الإنسان فى الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التى تغتصب ألوهيته وحاكميته . الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ؛ لأنه لم يكن يملك أن يقف كامنا منتظرًا على طول الأمر ، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة

مجردة فى نفوس أصحابه ، تتمثل فى شعائر تعبدية لله وفى أخلاق سلوكية فيما بينهم ، ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد والمنهج الجديد والدولة الجديدة والمجتمع الجديد فى واقع الحياة ، وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التى تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين أولاً ، ثم فى حياة البشرية كلها أخيراً . . . وهى لهذا التطبيق الواقعى جاءت من عند الله)[1] .

ومن بدر أقلع المسلمون فى أرض العرب ينشرون هذا الدين . وفى أقل من نصف المدة السابقة ، كان عشرة آلاف مقاتل يقرعون أبواب مكة ليفتحوها للإسلام وبالإسلام ، وهم خلاصة البشرية وصفوتها آنذاك .

المحطة الثالثة :

وكانت محطة الإقلاع الثالثة هى فتح مكة،التى تحدث عنها رب العزة ـ جل جلاله ـ وذكـر أنهـا هى التى فتحت الباب على مصراعيه للناس ـ كل الناس ـ كى يدخلوا فى دين الله عز وجل ، وكان هذا فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر] .

هذا الفتح هو الذى كان المقدمة الطبيعية ليلتقى بعد سنتين وعلى ثرى مكة نفسها عشرة أضعاف جيل الفتح ، أو اثنا عشر ضعفًا فى الروايات الأخرى ، يلتقى فى عرفات مائة ألف ، أو مائة ألف وثلاثون صحابى يدينون لله تعالى بالوحدانية وللنبى ﷺ بالرسالة.

من الفرد الواحد الذى يتلقى من جبريل عليه الصلاة والسلام فى حراء قوله عز وجل : **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾** [العلق] .

إلى الفرد الواحد على ثرى عرفات بعد بضعة عشر كيلو متراً من حراء يقف هذا الفرد الواحد نفسه وتحت رايته مائة ألف وثلاثون يستمعون لقول الله عز وجل : **﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾** [المائدة : ٣] .

إن محطات الإقلاع الثلاث هذه قد تمت كلهـا فـى رمضان وليس بعيدًا أن تكـون قـد

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٠/ ١٥٢٢ .

تمت كلها فى السابع عشر من رمضان .

فبدر بلا خلاف فى السابع عشر من رمضان ولا عبرة بمن شذ عن ذلك .

وإنزال القرآن على النبى ﷺ فى رمضان : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقد يكون فى السابع عشر منه كما روى ابن كثير (وقيل أنها (أى ليلة القدر) تقع ليلة سبع عشرة وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعًا عن ابن مسعود ، وروى موقوفًا عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبى العاص وهو قوله عن محمد بن إدريس الشافعى ويحكى عن الحسن البصرى ، ووجهوه بأنها ليلة بدر وكانت ليلة جمعة هى السابعة عشرة من رمضان وفى صبيحتها كانت وقعة بدر وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾) [(١)] .

وأن يكون فتح مكة لثلاث عشر بقين من رمضان كما فى رواية .

وهكذا نعيش محطات الإقلاع الثلاث هذه ، والتى تتجدد ذكراها كل عام وفى هذا الموعد لتكون نبراسًا للدعاة الحداة اليوم ، أن يحيوا محطات الإقلاع فى حياتهم لتغير دافعهم إلى التمكين والنصر والسيادة ، وما ذلك على الله بعزيز .

أما محطة الإقلاع الأولى : البعثة ، فقد كانت الأمم تنتظر هذه الانطلاقة الكبرى فى التاريخ التى تغير وجه العالم .

(فعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال : « أجل » ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن :

يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وحرزًا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، يفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صُمًا ، وقلوبًا غلفًا .

قال عطاء ، ثم لقيت كعب الأحبار رحمه الله فسألته فما أخطأ فى حرف)[(٢)] .

وفى الإنجيل :

(جاء الله من طور سيناء وظهر بساعير ، وأعلن بفاران ـ وظهور نبوة محمد ﷺ كانت فى فاران وهى مكة ، وأنزل عليه القرآن بها ـ وفى التوراة أن إسماعيل أقام بقرية

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٥ .

(٢) السيرة الحلبية ١/ ٣٤٦، ٣٤٧ .

فاران) (١) .

وأما محطة الإقلاع الثانية : والتى حضر فيها جبريل المعركة مع رسول الله ﷺ ، واندياح الإسلام فى الأرض بعدها ، يحدثنا القرآن عنها بقوله :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال] .

ونبحث عن معالم هذه الانطلاقة الثانية فى البشارات الأولى للأنبياء ، فنجدها عند النعمان السبئى رضي الله عنه إذ يقول :(لما سمعت بذكر النبى ﷺ قدمت عليه وسألته عن أشياء، ثم قلت له: إن أبى كان يختم على سفر، ويقول: لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبى قد خرج بيثرب، فإذا سمعت به فافتحه، قال النعمان: فلما سمعت بك فتحت السفر فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تحل وما تحرم ، وإذا فيه أنت خير الأنبياء ، وأمتك خير الأمم ، واسمك أحمد ﷺ، وأمتك الحمادون، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم فى صدورهم، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريل معهم ، يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على فراخه)(٢) .

وهذه الانطلاقة الثالثة فى فتح مكة ، بهذه الآلاف المؤلفة يحدثنا الله تعالى عنها فى كتابه العزيز فى سورة الفتح : **﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾** [الفتح] .

وأظهره على الدين كله ، ودُكَّت الوثنية تحت سنابك خيل جيش النبوة .

كما تحدثنا التوراة عن هذا النبأ السعيد :

جاء فى الترجمة العربية المطبوعة فى لندن سنة ١٨٢٣ ، ١٨٤٤م هكذا :

(وجاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، **ومعه ألوف الأطهار** ، فى يمينه سنة من نار) (٣) .

وستبقى ذكرى رمضان وفى النصف الثانى منه ذكر هذه المحطات الثلاث، والتى مثلت كل واحدة منها عهداً، ومرحلة من مراحل انطلاق الإسلام وانسياحه فى الأرض العربية.

---

(١) السيرة الحلبية ١/٣٤٨ . (٢) المصدر نفسه ١/٣٤٩ .

(٣) بشرية المسيح ونبوة محمد فى نصوص كتب العهدين. لمحمد أحمد ملكاوى. هامش ص ٢٠٩ .

خطوط عريضة فى تربية القاعدة العريضة

فنحن هنا أمام عهد جديد لم يكن بإمكان إمام المربين عليه الصلاة والسلام أن يلتقى بكل صحبه كل يوم فى المسجد ، وهم موزعون فى أصقاع الحجاز وغيرها ، وهذا يعنى أن هذه الشجرة الباسقة قد امتدت فروعها بعد أن تجذرت فى الأرض ، وغطت مساحة واسعة منها ، فأصبحت كل قبيلة دخلت فى الإسلام بمثابة معهد جديد تابع للجامعة الكبرى فى المدينة المنورة ، وغدا أبناء القبائل من الرعيل الأول هم أساتذة هذه المعاهد والمربون فيها .

وسنعرض بصورة موجزة للخطوط العريضة للمنهج التربوى فى هذه المرحلة والذى امتد قرابة ثلاث سنوات من صلح الحديبية وفتح خيبر إلى فتح مكة المكرمة، ومن الألف الواحدة والنصف إلى العشرة آلاف التى مضت مجاهدة لفتح مكة ، وفتحتها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

١ ـ التربية فى الصحراء ، من خلال البعوث والسرايا :

فالدورات التدريبية لا تنقطع للمسلمين الذين ينضمون للإسلام ، ويرافقهم دائمًا عدد من الرعيل الأول ليشرف على تربيتهم ،وأحيانًا يمضى معهم رسول الله ﷺ بنفسه . والملاحظ أن السرايا فى هذه المرحلة كانت قرابة عشرين سرية ، وهى فترة قصيرة نسبيًا إلى غيرها ، وفترة هدنة مع قريش . لكن إقبال الناس على الإسلام ، كان لابد أن تخضعهم القيادة النبوية إلى دورات تدريبية سريعة ، يفقهون فيها الإسلام من الرعيل الذى سبقهم ، ويتدربون على الجهاد فى سبيل الله .

﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] ، فهو نفير علمى ، ونفير دعوى ، ونفير جهادى ، وخرج رسول الله ﷺ فى هذه الفترة فى أربع غزوات، بعضها قريب، وبعضها بعيد، ليتمكن هذا الجيل بآلافه الجديدة أن يلتقى مع رسول الله ﷺ ويشهد عظمة نبوته، وعظمة تربيته، ومعجزاته صلوات الله عليه التى تزيد المؤمن يقينًا ، وإيمانًا ، وكانت ذروة هذه الغزوات والسرايا :هى فتح مكة الأعظم الذى استغرقت دورته قرابة شهرين أو تزيد .

٢ ـ التربية الجماعية وصلاة الخوف :

وفى توحيد للمشاعر تجاه العدو ، وتربيته على تحمل المسؤولية ، كانت صلاة الخوف التى أداها رسول الله ﷺ فى ذات الرقاع ،ولتثبت فى حس المسلم أهمية الصلاة التى لا يمكن أن يدعها المسلم فى حضر ولا سفر حتى ولو كان فى مواجهة عدوه ، فلابد من الصلاة ، ولابد من اليقظة والحذر ، ونلحظ أهمية التربية والمشقة والمعاناة فى هذه الغزوة من خلال حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه إذ يقول :

(خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا) (١) ، ولقد كرر رسول الله ﷺ صلاة الخوف وفى كيفيات مختلفة ، نقلها الصحابة ، فى كل مرة صلوها معه عليه الصلاة والسلام ، ليتجذر حب الصلاة فى قلوبهم وتتجذر أهميتها كذلك .

٣ ـ المعجزات النبوية :

ورافق هذه الصلوات العديد من المعجزات التى وقعت معه عليه الصلاة والسلام حتى أن غزوة ذات الرقاع لتسمى بغزوة الأعاجيب ، وأشهر المعجزات فيها قصة ذلك الرجل الأعرابى الذى استل السيف ، وأراد رسول الله ﷺ أن يشهد المسلمين هذه المعجزة كما يقول جابر : (فنمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتًا ،فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت: الله . فها هو ذا جالس » ،ولم يعاقبه رسول الله ﷺ)(٢) ، والحادثة نفسها كانت مفتتحًا لفتح إسلامى فى قوم هذا الأعرابى.

يقول ابن حجر : (وكأن الأعرابى لما شاهد ذلك الثبات العظيم وعرف أنه حيل بينه وبينه تحقق صدقه ، وعلم أنه لا يصل إليه فالقى السلاح وأمكن من نفسه ، ووقع فى رواية ابن إسحاق بعد قوله : الله ، فدفع جبريل فى صدره ، فوقع السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ وقال : « من يمنعك أنت منى ؟ » قال : لا أحد . قال : « قم فاذهب لشأنك » ، فمنَّ عليه لشدة رغبة النبى ﷺ فى استئلاف الكفار ليدخلوا فى الإسلام ، ولم يؤاخذه بما صنع ، وقد ذكر الواقدى نحو هذه القصة أنه أسلم وأنه رجع إلى قومه، فاهتدى به خلق كثير)(٣) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤١٧ ح (٤١٢٨) .

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٤٢٦ ح (٤١٣٥ ، ٤١٣٦) . (٣) المصدر نفسه ٤/ ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

ومن المعجزات النبوية فى هذه الغزوة ، ما يبرز لنا رسول الله ﷺ ظاهرة كونية ، فالطير والحيوانات والأشجار والجمادات تشكو إليه ، وتسعد بتنفيذ أمره ، وتكون كلها أدوات لنشر هذا الدين ، وتعميق أبعاده فى نفوس المؤمنين .

وأما المعجزتان اللتان شهدهما الجيش كله فهما معجزة الطعام والشراب ، فيفور الماء من بين أصابعه ﷺ ويشرب الجيش كله ، ويرتوى بعد ظمأ ، وتفور الجفنة بالماء ، ويطلب رسول الله ﷺ المائدة من ربه ، فتأتيه المائدة من البحر لجيشه الثمانمائة ، فتطعم الجيش كله (١) .

ومن المعجزة إلى الكرامة ، فها هى غزوة سيف البحر ، التى كان على رأسها أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، وكيف أشرف الجيش على الهلاك من الجوع ، وساق الله تعالى له دابة من البحر أطعمت الجيش كله ، وتزودوا عائدين إلى المدينة ، وأطعموا رسول الله ﷺ من هذه المائدة .

وليست كرامة مؤتة بأقل من هذه الكرامات ، فأن ينتصر جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل على جيش قوامه مائتى ألف ، فهذا فى عالم الأسباب غير معقول على الإطلاق . لكن هذا فى سنن الله تعالى التى تجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله أمرًا ربانيًا مبرمًا لا راد له ، هو جزء من هذه العقيدة والذى يمكن أن يتكرر على مدار التاريخ الإسلامى كله ، ويمكن القول بثقة : إنه هو السنة الغالبة فى تاريخ الإسلام بين المؤمنين والكافرين ؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ، ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض ، فآلاف مؤتة تكاد تكون كلها روافد جديدة من حديثى الإسلام ، وقائدهم الذى كتب الله النصر على يديه ، مسلم بضعة أشهر فقط ، وهو خالد بن الوليد ، والذى نال كرامة ربه تعالى بأن نُسب إلى ربه كما سماه المصطفى عليه الصلاة والسلام : « سيف الله » .

٤ ـ دور القوة والإرهاب لمراجعة العدو لحساباته :

وفى عالم لا يؤمن إلا بالقوة والذى يجعل أساس مبادئه : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »، وأساس مبادئه فى الإغارة :

وأحيانًا على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

وفى تربية القاعدة العريضة ، نجد دائمًا عنصر القوة مهمًا جدًا فى الحسابات ، فوفاة رسول الله ﷺ جعلت الجزيرة العربية تموج بالمرتدين ، بينما عمرة القضية وصلح

---

(١) تعرض الحافظ الهيثمى فى كتابه العظيم مجمع الزوائد لهذه المعجزات جميعًا ، ودرسها من حيث سندها وصحتها ٩/٩٢٨، وقد سبق الحديث عنها فى بداية الكتاب .

الحديبية كان فتحًا للإسلام فى الأرض ، بعد أن كان الناس يخافون قريشًا لو أسلموا وحالفوا محمداً عليه الصلاة والسلام ، ومن أجل هذا كان رسول الله ﷺ لا يدع لحظة واحدة ليلتقط العدو أنفاسه إلا ويوجه الضربة الموجعة له،خاصة غطفان بفروعها جميعًا، والتى لم تدخل الهدنة مع قريش فكان رسول الله ﷺ يلاحقها ، ويتابع تحركاتها ، ويبعث السرية تلو السرية فى مهاجمتها فى عقر دارها ، وبدأت المناوشات مع هوازن التى كانت تتأهب لدخول الحرب ضد رسول الله ﷺ ، وترسل الشخصيات الكبرى على رأس هذه السرايا من الشمال للجنوب للشرق للغرب ، فقد وصل مؤتة فى تخوم الروم، كما وصل خثعم فى تخوم اليمن ، ووصل ضرية شرقًا على حدود بنى حنيفة ، كما مضى غربًا إلى ساحل البحر ، وكانت هذه القوة الرادعة هى التى فتحت الآفاق أمام الاندفاع القوى نحو الإسلام حتى لنجد العدو الألد عيينة بن حصن ، وسيد بنى عامر علقمة بن علاثة ، وسيد تميم الزبرقان بن بدر ، ينضمون جميعًا إلى جيش الفتح فى مكة المكرمة بعد أن يئسوا من إمكانية المقاومة للزحف الإسلامى .

٥ ـ الإسلام هو الهدف الرئيسى للغزوات :

وليس الزحف الإسلامى الذى تم فى هذه المرحلة ينطلق من مبدأ فرض الإسلام بالقوة ، إنما ينطلق من مبدأ الحوار مع الخصم ، والخصم لا يعى للحوار ولا يسمع له ما لم يكن خصمه قويًا ، فما كان لمكة أن ترعوى وتوقع معاهدة الصلح ، وتفتح صدرها وعقلها للإسلام لو لم تجد القوة الإسلامية قد غزتها على مشارفها ، وما كان للقيادات الكبرى فى مكة أن تصبح للإسلام لو لم تجد عشرة آلاف مقاتل فى جوارها ، ولو لم ينهزم صفوان وعكرمة وسهيل ، لما أمكن لهم أن يقبلوا التفكير بالإسلام ثم يدخلوا فيه، وما كان لعيينة بن حصن ، أن يرعوى لولا أن وجد القوة الإسلامية تلاحقه فى الصحراء فى أى مكان يمضى إليه ، فطبيعة النفس البشرية لا تأبه بالضعيف ، وتتبع قائدها القوى، لكن القوة هى التى تعيد الوعى ، وتعيد الحسابات عند الإنسان .

فخالد وعمرو هما أعظم القيادات العربية والبشرية ، كانت نقطة انطلاقهما فى التفكير فى الإسلام هى :

(فقلت : كم أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش) ، وقوله : (عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت) .

(وهذا خالد يقول : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمدا سيظهر) .

وهذا أبو سفيان القائد العام يقول : (ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ، ولا خبرنيه

مخبر ، سبحان الله ما لأحد بهذه طاقة ولا يدان ، ثم قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، قلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس بملك، ولكنها نبوة، قال: نعم). وقوله: (يا محمد ، استنصرت إلهى واستنصرت إلهك ، فلا والله ما لقيتك مرة إلا ظفرت على).

وذاك حوار الحارث بن عوف ، وعيينة بن حصن ، يقول الحارث : (إن محمدًا قد وطئ البلاد ، وأنت موضع فى غير شىء) ، وهذه رسالة رسول الله ﷺ إلى أمرائه حين مضوا إلى الأمم بجيوشهم : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا ، اغزوا بسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدًا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم ، ادعهم إلى الدخول فى الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) .

ولا أدل على ذلك من أن هدف الفتوحات هو الإسلام ، وخلال هذين العامين ، نبحث عن عدد القتلى ، فلا نجدهم بالعشرات ، ونبحث عن الذين دخلوا فى الإسلام ، فنجد العدد قد ارتفع من ألف وخمسمائة إلى عشرة آلاف ، وهو الفتح المبين الذى حدثنا الله تعالى عنه ، ودخول الناس أفواجًا فى دين الله :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر] .

٦ ـ خُلق الإسلام هو الوسيلة الكبرى لانتشاره :

إن حسن المعاملة التى كان يتحلى بها حزب الله فى حربه ضد الطواغيت ، هو الذى فتح الآفاق أمام انتشار الإسلام ، وأهم جانب خلقى فى هذا المجال : هو العفو عند المقدرة ، والوفاء بالعهود والمواثيق ، وتقديم العقيدة على الذات . وهذه الأمور العملية التربوية هى الباب الذى تلج منه القاعدة العريضة ، فعندما يقاتل القائد المنتصر ، ويفرض وجوده بقوة السلاح ، ويذبح كل من عاداه ، سوف يملأ القلوب حقدًا وضغينة ، وستكون قضية الثأر هى محور الصراع بين المتخاصمين . أما عندما يكون العفو عند المقدرة والحلم والصفح عند القدرة على الثأر وتقديم العقيدة على القرابة والأهل هو الدافع للمواقف جميعًا ، فسيسارع الناس للدخول فى دين الله ، فكل قيادات مكة أعطيت الأمان قبل أن تسلم، وترك لها الخيار فى ذلك،وكان نداء الأمان العام لأهل مكة ليس هو:من أسلم فهو آمن، بل من دخل المسجد فهو آمن ،ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فالعفو عند المقدرة ، حصّن دماء أهل مكة

الذين حاربوا رسول الله ﷺ وأخرجوه :

(حين كان مصيرهم بين يديه، قال: « ما تقولون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف] اذهبوا فأنتم الطلقاء ») .

وكانت هذه الكلمة كفيلة أن تدخل ألفى مكى فى دين الله، وتشكل قريش أكبر تجمع إسلامى بين القبائل بعد تجمع الأنصار، بعد أن كانت العدو الألد فى حرب دين الله.

ورسول الله ﷺ حين دخل مكة فى عمرة القضية ، نفذ العهد بأمانة تامة ثلاثة أيام دون أن يمس أية مقدسات لقريش بشىء ، فلم يهدم صنمًا ، ولم يعتد على عدو ، ولم يثأر لنفسه ، ولم يغلق حانة خمر ، ولم يهاجم ماخور زنى ، وحزب الله كله بين يديه، وسلاحه كاملاً خارج الحرم ، ولم تشهد مكة فى أيامها الثلاثة ولو حادثة واحدة أخلت بشروط الحديبية .

كما أن المبدأ الخلقى الذى يجعل الأمان لمن أسلم ، حافظ عليه المسلمون طيلة هذه المرحلة ، وعندما جرى إخلال فى تطبيقه فى بنى جذيمة ، أعلن رسول الله ﷺ براءته مما صنع خالد بن الوليد ، وودى القتلى جميعًا ، وعوّض عن الخسائر كلها ، حتى ودى ميلغة الكلب .

وعندما أخل أسامة رضي الله عنه فى هذا المبدأ وقتل من شهد أن لا إله إلا الله عنفه رسول الله ﷺ حتى تمنى لو لم يكن أسلم من قبل ، وعندما تجرأ ابن جثامة على القتل لمسلم بثأر من ثارات الجاهلية قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا تغفر له » ، ولفظته الأرض لإخلاله بهذا العهد .

وحين دخل رسول الله ﷺ مكة ، حافظ على تنفيذ الأمان كاملاً ، وودى القتيل الذى قتلته خزاعة بعد المدة المعطاة لها ، ولم يقاتل إلا من قاتل ورفض الأمان . وساد العدل فى الحكم حتى أعلن فى بطحاء مكة : « والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وحين أعلن إلغاء الثارات ، كان أول ثأر أُهدِر دم ابن عم رسول الله ﷺ سيد العرب الأول : « وإن أول دم أضعه ، دم ربيعة بن الحارث » .

وحين أعلن إلغاء الربا ، كان أول ربا أُلغى هو ربا عم محمد ﷺ : « وإن أول ربًا أضعه ، ربا العباس بن عبد المطلب » .

العدل والرحمة ، والوفاء بالعهود والمواثيق والحلم والصفح عند القدرة ، هى

مفاتيح القاعدة العريضة لدخولها للإسلام .

٧ ـ التدريب على المشاق :

فلا إسلام بلا جهاد ، وكما مر معنا ، فعشرون سرية تم توجيهها خلال هذه الفترة القصيرة ، مع أربع غزوات غزاها رسول الله ﷺ بنفسه ، ولقد كانت الأهداف العسكرية قليلة ، إنما كانت الأهداف تربوية وسياسية فى استعراض للقوة الحاضرة فى أى لحظة ، وفى فتح آفاق التعامل السياسى من خلال وجود القوة المدخرة المتأهبة للتدخل فى اللحظة المناسبة والحرص على التربية الخشنة فى الصحراء اللاهبة ، والصبر على الجوع والعطش والتعب والنصب ، ليعد الإعداد المناسب للمستقبل ،فالجهاد ماض إلى يوم القيامة .

وحين يكون مؤهلا من خلال هذه الدورات ، يمكن أن يساهم فيما بعد فى أية مواجهة ،فكثيرًا ما تمضى السرية عشرات الأميال ومئات الأميال ، وليس لها زاد إلا تمرات على الطريق،وكما وجدنا فى سرية سيف البحر (بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى سرية فيها المهاجرون والأنصار وهم ثلاثمائة رجل إلى ساحل البحر إلى حى من جهينة ، فأصابهم جوع شديد ، فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى كانوا ليقتسمون التمرة ، فقيل لجابر : فما يغنى ثلث تمرة ؟ قال : كنا نجد فقدها ، ولم تكن معهم حمولة ، إنما كانوا على أقدامهم ، وأباعر يحملون عليها زادهم فأكلوا الخبط حتى إن شدق أحدهم بمنزلة مشفر البعير ، فمكثنا على ذلك حتى قال قائلهم : لو لقينا عدونا غدًا ما كان بنا حركة إليه لما بنا من الجهد) .

وفى غزوة ذات الرقاع كما سبق وتقدم معنا (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا ونقبت أقدامى، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا).

وفى عمرة القضية (فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمرهم النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) .

والبرد الذى لقيه المسلمون فى غزوة ذات السلاسل كما يقول قائدهم فيها (والذى بعثك بالحق لو اغتسلت لمت ، لم أجد قط بردًا مثله) ، وهو هو نفسه عمرو رضي الله عنه رغم شدة البرد هذه يرفض أن يشعل المسلمون نارًا حتى لا يكشفهم عدوهم (فنزل قريبًا منهم وهم شاتون فجمع أصحابه الحطب يريدون أن يصطلوا ـ وهى أرض باردة ـ فمنعهم فشق ذلك عليهم) . وفى سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة وكانوا (فى مائة وثلاثين رجلاً خرج بهم يسار فظعن بهم فى غير الطريق حتى فنيت أزوادهم وجهدوا

واقتسموا التمر عدداً) والمسلمون فى الفتح لا يملكون شيئًا إلا التموين الذاتى، فـ (استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش؛ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه، واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فكانوا ثلاثين ومائة ألف قسمها رسول الله ﷺ على أصحابه من أهل الضعف) .

ولعل من هذه المشاق الصبر فى الله على الجهاد حين تقع المعركة ، فالفرار من الزحف من الكبائر ، ومواجهة العدو والصبر على الطعن والضرب هو كله ذخر وأجر .

فهذا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يقول : (بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأمره علينا فبيتنا ناسًا من هوازن ، فقتلت بيدى سبعة أهل أبيات وكان شعارنا أمت أمت) وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول : (قاتلت العرب والروم والفرس فلم أجد أشد من قتال الفرس ، ولقد اندقت فى يدى فى مؤتة تسعة أسياف وما صبرت فى يدى إلا صحيفة يمانية) وهذا جعفر رضي الله عنه يتحدث عنه ابن عمر فيقول : (فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شىء فى دبره ـ يعنى فى ظهره) ،وفى الرواية الثانية (فالتمسنا جعفر بن أبى طالب ، فوجدناه فى القتلى ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية، وسمى ذو الجناحين لأنه أخذ الراية بيمينه فقطعت ، ثم أخذها بشماله فقطعت ، ثم احتضنها بعضديه) . وذاك بشير بن سعد أمير سرية رسول الله ﷺ إلى فدك (قاتل قتالاً شديدًا حتى ضرب كعبه وقيل قد مات ، وأمهل بشير بن سعد وهو فى القتلى ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك ، فأقام عند يهودى بفدك أيامًا حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة) .

٨ ـ إسلام القبائل الجماعى ـ وقبول هجرتهم فى مواقعهم :

وهذه الظاهرة تمثل الإقبال الكبير على الإسلام الذى لم يعد إسلام فرد يهاجر ، ويتجه إلى المدينة ، فيقيم بين ظهرانى المسلمين ، ويحضر الصلوات كلها مع المسلمين فى المسجد ، ويتلقى التربية مباشرة من الرسول الأعظم ﷺ ، إنما غدت الظاهرة أن تُسلم القبيلة كلها رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ولا يمكن للمدينة أن تستوعب هذه الأفواج الضخمة فلجأ رسول الله ﷺ إلى قبول إسلامهم واعتبارهم مهاجرين فى مواقعهم ، ولقد حدثتنا السيرة عن ثلاث قبائل نالت هذا الشرف وهى فى مضاربها ، هذه القبائل هى :

أ ـ مزينة :

يحدث عن هذه الوفادة الكبرى كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده قال :

(كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى رجب سنة خمس ، فجعل رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم ، فقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم » ، فرجعوا إلى بلادهم) .

ب ـ خزاعة :

« أما بعد ، فإنى لم آثم بإلكم ، وإنى لم أضع فى جنبكم ، وإن أكرم تهامة علىَّ أنتم وأقربهم رحمًا أنتم ومن تبعكم من المطيبين ، فإنى قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى ولو هاجر بأرضه ، غير ساكن مكة إلا معتمرًا أو حاجًا » .

جـ ـ أسلم :

(وجاءته أسلم وهو بغدير الأشطاط ، جاء بهم بريدة بن الحصيب الأسلمى فقال : يا رسول الله هذه أسلم ، وهذه محالها ، وقد هاجر إليك من هاجر منها ، وبقى قوم منهم فى مواشيهم ومعاشهم ، فقال رسول الله ﷺ : « أنتم مهاجرون حيث كنتم ») .

ولكن هذه الأعداد الكبيرة التى قبلت هجرتها فى أرضها وديارها ، عندما كان النفير العام لفتح مكة ، وجاءت الرسل إلى مضارب كل قبيلة ، تدعوهم إلى الالتحاق بركب الجهاد ، توجهت هذه الأعداد بالمئات لتشارك فى الفتح الأعظم لمكة المكرمة ، فقد كان الاستنفار عامًا ،وشاملاً لجميع المسلمين فى الساحة العربية .

٩ ـ انضمام هذه القبائل للجيش الإسلامى :

لقد كانت صيغة الاستنفار شاملة لكل فرد مسلم بعينه ، ولعل هذه الصيغة لم تكن قبل هذه المرة ، وبهذا العموم .

(فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ،فليحضر رمضان بالمدينة »،وبعث رسولاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع، وبعث إلى بنى سليم ، فأما بنو سليم فلقيته بقديد ، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة) .

وهذا هو الذى يفسر هذه الأعداد الضخمة التى شكلت جيش الفتح الأعظم ، والذى بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، إنه حين تكون الحرب الشاملة فالاستنفار يكون شاملاً كذلك ، ولو لم تكن التربية الفردية قد أخذت مداها الكامل فالحياة ضمن الجيش الإسلامى ، والمعيشة فى قلب المعسكر الإسلامى كفيلة أن تصهر الفرد بالروح الجماعية ، وتربيه التربية العامة التى يفتقدها فى مثل هذه الأجواء ، والجيل الرائد المنبث بين صفوف

هذه الأمواج الجديدة ، هو الذى يتابع هذه التربية ، ويصحح الأخطاء ، ويرفع المستوى، ويهدى إلى الصراط المستقيم .

١٠ ـ الرفقة النبوية :

وحين يكون رسول الله ﷺ مع هذا الجيش يكون الجيش هو أسعد الخلق بهذه الرفقة ، إن مجرد رؤية رسول الله ﷺ هى ذخيرة حية للفرد ، ودفقات عظيمة فى التكوين والبناء ، فكيف إذا كان مع هذه الرؤية ، استماع حديث رسول الله ﷺ ، وتلقى أوامره وتوجيهاته ، والتعرف على سمته وهديه ﷺ فى كل شىء ، وكيف إذا رافق هذا الاستماع العام ، وهذه الرؤية العامة ، توجيهات مخصصة للقبيلة أو بعض أفرادها ، ماذا تفعل هذه التوجيهات بالنفوس وكم تزرع من الإيمان فى كل ذرة من ذرات هذا الكيان الإنسانى ، وحين يعاين المسلم المعجزات النبوية بعد ذلك ، ويشهدها رأى العين ، ويرى رسول الله ﷺ والماء يتفجر من بين أصابعه عليه الصلاة والسلام ، ويتدفق مدراراً ثرًا ينبع من الراحة النبوية ، أو يرى التميرات والحفنات من البر والسويق، تغدو مثل الجبال فتطعم الجيش الإسلامى كله بآلافه العشرة ، فقد شهدنا فضالة بن عبيد الذى أقدم ليقتل رسول الله ﷺ (فلما دنا منه ، قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شىء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلىّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ؟ فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّنا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

إن اللمسة النبوية ،والنظرة النبوية ، والالتفاتة النبوية لهى زاد لمن ينالها كل عمره ، وما أسعد هذا الجيل الذى صحب رسول الله ﷺ شهرين ونصف ، منذ تحرك من المدينة حتى عاد إليها فعاش مع سيد الخلق وحبيب رب العالمين .

١١ ـ فقه الأولويات :

فى حس المسلم رهبة عجيبة وتعظيم كبير لرمضان والصيام فيه ، ولا يمكن أن يتصور نفسه مضطراً فى رمضان إلا مريضًا مرضًا مدنفًا يحول بينه وبين الصيام ، أو مسافراً سفراً

ذا مشقة هائلة وهو مضطر إليه فى الوقت نفسه ، وصدرت الأوامر النبوية : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة » .

ولم يكن فى تصور ذلك الجيل السعيد أمام هذا النداء إلا حضور تلك الدورة العبادية الكبرى من الصيام فى المدينة ، حيث تشارك الأسرة الواحدة من المسلمين فى الأرض فى هذا الموسم العظيم .

لكن الأمر كان أكثر أبعاداً من ذلك .

فلم تمر أيام على احتفالات الصيام والقيام فى المدينة إلا وصدرت الأوامر للجيش الإسلامى بالتحرك خارج المدينة صوب الصحراء حيث لا تتوفر وسائل الراحة الكافية من الطعام والشراب فيها ، وهذا ينغص عملية الصيام وهيبتها وقدسيتها ، وعندما يكون الإفطار مباحًا فى السفر فهذا يعنى أن صيام رمضان لم يكن هو الهدف الرئيسى من الاستنفار للمدينة ، وإلا لما تمت مغادرتها حتى ينتهى هذا الشهر الكريم ، وهناك من يصوم ، وهناك من يفطر تجنبًا للمشقة فى الجمع بين الصيام والسفر .

وبقى الهدف غائبًا عن هذا الجيل السعيد ، فكل ما يعرفه أنه ماضٍ إلى معركة ، أما مع من ؟ فلا يدرى ، ولم تنجح محاولات معرفة اتجاه الجيش وأى عدو يقصد ، ثقيف أم مكة أم هوازن أم تميم أم عامر أم غطفان ، ومضى بهم قائدهم الحبيب وهو صائم ، فحافظ أكثر الجيش على صيامه ، فقدسية رمضان فى حسه أكبر من أن يفطر ولو كان مسافرًا، وفى مرحلة من مراحل الطريق ، كان النبى المصطفى ﷺ يبلل الخرقة بالماء ويضعها على وجهه من شدة العطش ، أما بعد أن تجاوز الجيش منتصف الطريق، ورفعت الألوية والرايات وبرزت عدة الحرب وآلته، ومضى القوم فى الحديد إلى عدوهم، وفى رابعة النهار يتناول رسول الله ﷺ كأسًا من اللبن ويشربها ويعطيها لمن بجواره ، وهذه أكبر بكثير من إصدار أمر بالإفطار للجيش كله ، فقد يتوقف الكثيرون عن الإفطار حتى يتأكدوا من إفطار قائدهم الحبيب ، أما ورسول الله ﷺ يتناول الكأس أمام الجيش كله ، فلم يعد موقف لأن يتنطع أحد ، والذى بقى صائمًا بعد إفطار رسول الله ﷺ وصحبه ومعرفة الأمر بذلك قيل عنهم : « أولئك العصاة » .

لقد أصبح الصيام معصية ، وهو أحب الفروض إلى الله « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » ،ومع ذلك فهو معصية حين يتعارض مع فريضة الجهاد ، أو يعرقلها ، أو يحول دونها ، وكان بإمكان النبى ﷺ أن يؤجل الاستنفار شهراً واحدًا فقط ، ويسعد الناس بالصيام والطاعة ، وليس هناك من خطر يهدد الوجود الإسلامى ، فمكة فى حالة من الضعف والتردد والخوف تخشى أن يغزوها محمد بجيشه ، فترسل

الوفد إثر الوفد لإيقاف هذا الهجوم .

لكن نصر المستضعفين من خزاعة ، وهم حلفاء محمد ﷺ ، له الأولوية الكبرى التى لا تتأجل يومًا واحدًا ؛للحفاظ على السمعة العسكرية والسياسية للجيش الإسلامى، ومضت أبيات عمرو بن سالم :

وزعموا أن لست أدعو أحدا   فادعو عباد الله يأتوا مددا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا   ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وتصحح الأمر فى حس المسلم الجديد ، والمسلم القديم ، وعرف فقه الأولويات فى دينه ، أن المعركة حين تتحتم مع العدو للحفاظ على السمعة العسكرية والسياسية ، ولنصر المستضعفين الحلفاء ،وللثأر من الناكثين المحاربين هى فوق أهبة الصيام وقدسيته ، ولو كان فى مدينة رسول الله ﷺ ، ولو كان مع سيد ولد آدم محمد ﷺ .

١٢ ـ الحرب المعنوية :

وفى خضم الحديث عن التربية الجماعية تربية القاعدة العريضة، يطالعنا الأمر النبوى للمسلمين (واجتمع المسلمون بمر الظهران(١) ولم يبلغ قريشًا حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم، فلما نزل المسلمون مرَّ الظهران عشاء ، أمر رسول الله أصحابه أن يوقدوا النيران ، فأوقدوا عشرة آلاف نار) . وكان من الممكن الاكتفاء بألف نار يتدفأ كل عشرة على واحدة أو يتجمعون عليها ، ولكنها الحرب المعنوية المقصود منها إرعاب مكة ، بحيث تلقى أيديها مستسلمة أمام هذه النيران الهائلة المهاجمة لها ، ولنشهد أثر هذه النيران على القائد العام لمكة أبى سفيان ورفاقه بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام .

(فلما بلغوا الأراك من مرّ الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران ، وسمعوا صهيل الخيل ، ورغاء الإبل فأفزعهم ذلك فزعًا شديدًا وقالوا : هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب، فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب ، قالوا : فتنجعت هوازن على أرضنا ! والله ما نعرف هذا ! إن هذا العسكر مثل حاج الناس) .

وكانت هذه الخطة الحربية العظيمة كفيلة بأن تسقط فى أيدى مكة ، وتستسلم بدون عقد ولا عهد،وهذا الذى تم ،فقد مضى أبو سفيان وبديل وحكيم أسرى إلى رسول الله ﷺ ،ووقعوا وثيقة الاستسلام دون أى عقد ولا عهد إلا الأمان للناس إذا ألقوا سلاحهم ودخلوا بيوتهم .

---

(١) على بعد عشرين كيلاً فقط من مكة .

فكل فرد فى مرحلة تربية القاعدة العريضة له دوره فى تكثير سواد الأمة ، وله دوره فى الخطة العامة لمواجهة العدو ، وله دوره فى عملية التهيئة للدعوة إلى الله ، ودخول الناس أفواجًا فى دين الله .

١٣ ـ الأنصار وخزاعة وثأرهم :

هناك تيار عام يغلى فى الجيش يريد أن ينتقم من هؤلاء الطغاة المحاربين لدين الله ، وعبَّر عنه سعد بن عبادة سيد الأنصار بقوله :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا .

وعبَّر عنه شاعر مكة الذى جاء ضارعًا لرسول الله ﷺ أن يحمى قريشًا من المجزرة الكبرى التى يعدُّ لها سعد بن عبادة وأصحابه ، أعظم الجيش كفاءة وخبرة وعقيدة وفداء، فهم طلائع الموت فى الجيش النبوى :

إن سعدًا يريد قاصمة الظهر ... بأهل الحجون والبطحاء
فلئن أقحم اللواء ونادى ... يا حماة الأدبار أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهم الخزرج ... والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريش ... فقعة القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسد ... لدى الغاب والغ فى الدماء

هذا التيار الذى يغلى فى مراجل قلوب الأنصار ، لا يناسبه أبدًا الاتجاه النبوى إلى السلامة والأمن لقريش : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمة ، اليوم أعز الله قريشًا ».

وكان أن انتزع رسول الله ﷺ فتيل الانفجار ،ابتداءً بأن أعطى الراية لقيس بن سعد ولد سعد بن عبادة ، فحافظ على رضا سيد الخزرج رضي الله عنه .

ووجّه هذه الطاقات الثائرة المتحرقة للثأر ، ضد المعاندين الذين رفضوا السلامة وقرروا المواجهة. وكان ذلك فى التوجيه التالى : (« يا أبا هريرة ، اهتف لى بالأنصار » فأطافوا به ، ووبَّشت قريش أوباشًا لها وأتباعًا فقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لهم شىء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا فقال رسول الله ﷺ : « ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم » ، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى ، ثم قال :« حتى توافونى بالصفا » ، فانطلقنا : فما شاء أحد منا أن يقتل أحدًا إلا قتله ، وفى رواية : « يا معشر الأنصار ، أرأيتم إلى أوباش قريش »،قالوا : نعم ، قال:« فانظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم

حصداً » ، وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله) . وبذلك تم تصريف هذه الطاقات الثائرة فى مواجهة الثائرين الخارجين على الاستسلام ، وكم قيادات سقطت فى التاريخ حين عجزت عن أن تصرف هذه الطاقات الثائرة ، وكم من الانقلابات العسكرية قامت ضد دعاة السلام من قبل دعاة الحرب .

كما وجّه عليه الصلاة والسلام هذه الطاقات حين أباح لخزاعة الموتورة الثائرة أن تأخذ ثأرها من بكر ساعة من نهار ، فإذا كانت هذه الحرب كلها نصراً لخزاعة الموتورة ، فماذا استفادت منها كلها إذا بقى قتلاها ، وجرحاها مهدرين مطلولة دماؤهم وبقى الذين قتلوهم ركعًا وسجدًا آمنين ، هل ينجون بغدرهم وتحديهم العهد والميثاق ، وقول قائدهم نوفل : لا إله لى اليوم حتى يستبيح دم خزاعة .

هذه التساؤلات جميعًا ، أجاب عليها البيان النبوى المقتضب :

« يا معشر المسلمين كفوا السلاح ،إلا خزاعة عن بنى بكر من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر منه »، هذه السويعات فقط هى ساعات الثأر وأخذ الحق، وانتصار المظلوم. وبعدها ، فوقف إطلاق النار ، ووقف إراقة الدماء ، ووقف القتال والعودة إلى السلام والأمن .

إننا فى تربية القاعدة العريضة بحاجة إلى فهم نفسيات هذه القاعدة فهمًا صحيحًا ، وتصريف طاقاتها الشعورية والقتالية تصريفًا صحيحًا ، وإلا سنخسر هذه القاعدة ، وتتحول إلى نقمة على القيادة .

١٤ ـ حكمة التعامل مع هذه الطاقات :

وفى الوقت الذى نشير فيه إلى تصريف هذه الطاقات ، وتلبية روح الثأر والثورة عند المجاهدين لابد أن توجه هذه الطاقات دومًا إلى الهدف الأعلى من الحرب وأن هذه الحرب هى لله وفى سبيل الله ، وليست لإقامة أمجاد شخصية أو قبلية ، وبعد أن حُدّدت نهاية معركة الثأر عصر يوم الفتح ، فكل تجاوز وخرق للهدنة يتم عليه الحساب ، وهذا ما جرى عندما قتل خراشٌ أحمر بأسًا ، فقال عليه الصلاة والسلام فى خطبة شديدة اللهجة :

« أيها الناس ، إن أعدى الناس على الله من قتل فى الحرم ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية ، يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن نفع ، قتلتم قتيلاً لأدينه ، ومن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فديته كاملة ، أو شاؤوا فقتله » .

وقال : « لو كنت قاتلاً مسلمًا بكافر لقتلت خراشًا »، وقال : « إن خراشًا لقتال ».

فلقد وجه تأنيبه ﷺ الفردى لخراش من جهة ، وأصدر إعلانه العام من جهة ثانية لإيقاف أى تجاوزات يمكن أن تقع فى هذا المجال ، وإنه لمجتمع خالد فى تاريخ البشرية ، أن تفتح مدينة كاملة ،ويقع تجاوز واحد فقط فى قتل غير مشروع ،وفى ظروف خاصة .

١٥ ـ القاعدة العريضة والغنائم :

هذه الآلاف العشرة ، انضمت تحت راية الإسلام ، ماضية مع قائدها لفتح مكة وهى تتوقع أن تكون مكة كلها بكل ما فيها من كنوز وخيرات غنائم بيدها ، وطبيعة العربى حين يعرض حياته للقتل طمعًا فى الغنيمة ، ولقد شهدنا دور الغنائم فى معركتين مع الجيل الرائد ، الجيل القيادى .

المعركة الأولى فى بدر ، يوم عاتب الله أبناء حزبه وخيرة أهل الأرض من أجل الغنائم التى فرقت ذات بينهم ومزقت صفهم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ [الأنفال] .

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : نزلت فينا معشر أهل بدر حين ساءت فيها أخلاقنا.

والمعركة الثانية التى خسروها وهى أحد من أجل الغنائم ، وتلقوا عتابًا أكثر مرارة من ربهم ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾ [آل عمران] .

وذاك الجيل الذى تربى على عين الله ، فماذا نقول عن هذا الجيل الجديد الذى كانت أكثر لحمته من الأعراب من القبائل الممتدة بين مكة والمدينة وفى أراضى الحجاز ، ماذا يفعل معها ؟ وكم تصبر دون أن تنال شيئًا من هذه الحرب ؟

لقد أدرك رسول الله ﷺ هذا الواقع ، واضطر إلى أن يستدين مائة وخمسين ألف درهم من قيادات مكة وبعضها لا يزال على شركه ، ويوزع هذه الأموال على القيادات الكبرى ليضمن ولاءها ومتابعة استمرارها معه ، وفى الوقت الذى كان يحرص فيه على أن لا تمس مكة بسوء ، وأن ينفذ مشروع أمانه الذى تبناه ، وأن يهيئ فى الوقت اللازم المصاريف الضرورية لجيشه ، ويلبى الرغبة الكبرى فى نفوسهم فى حب الغنيمة والمال .

١٦ ـ رعاية العقيدة والدعوة :

لقد كان عليه الصلاة والسلام على راحلته والألوف المتجمعة فى الكعبة تنظر إليه ،

وكان يشير إلى الأصنام فتهوى صنمًا عقب الآخر، وهو يتلو عليه الصلاة والسلام: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء] ، وكانت عيون الجيش مسمرة نحو هذه المناظر المذهلة : صنم مشدود بالرصاص يحتاج إلى الفؤوس والمعاول الحديدية لتكسيره ، ينهار تحت مس عصا النبى ﷺ ، وبذلك يثبت الإيمان فى قلوبهم ثبات هذه الأصنام فى قواعدها الرصاصية ، فتسعد هذه القاعدة الجامعية كلها برؤية تكسير الأصنام.

وفى الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا

وقول فضالة بن عبيد ﵁ :

لـو ما رأيت محمـدًا وقبيله فى الفتح يـوم تكسـر الأصنـام
أيقنت دين الله أضحى بيِّنا والشـرك يغشى وجهه الإظلام

وشهدوا بأعينهم كذلك يوم أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة بيده الشريفة ، وكيف أعاده إلى عثمان بن طلحة ﵁ قائلاً : « خذوها يا بنى طلحة ، خالدة تالدة إلى يوم القيامة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وشاركوا كذلك فى القضاء على الوثنية ، حيث قاموا يغسلون الكعبة من آثار الوثنية وصور الأنبياء والملائكة لتكون قلعة للتوحيد إلى يوم القيامة ، فلابد أن يشارك كل فرد فى حرب هذه الوثنية وتحطيمها ، وكيف صدرت الأوامر بأن يقوم كل فرد يؤمن بالله واليوم الآخر بتكسير الأصنام فى بيته ، والأصنام ذخيرة كل بيت وكنزه وأغلى تراثه .

إنها تربية عملية على التوحيد ، ورعاية فردية شخصية لبناء العقيدة فى النفوس ، فى جو جماعى تسوده الأهازيج الخالدة .

لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

لا إله إلا الله والله أكبر .

١٧ ـ إعلان المبادئ وتطبيقاتها :

وشهد هذا الجيل السعيد إعلان مبادئ الإسلام الكبرى ، وإعلان إنهاء دولة الوثنية التى جثمت على صدر مكة والجزيرة العربية ألف عام ، وإعلان العدل قاعدة التعامل الكبرى بين أفراد الأمة الجديدة ، وإنهاء دويلات القبائل المستقلة لتقوم دولة العقيدة الجديدة بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وإنهاء كل عناصر التمايز الطبقى والقبلى والشخصى ،ولأول مرة فى تاريخ البشرية تكون التقوى هى عنصر التمايز بين أفراد الأمة

الواحدة المشكلة من مشارب شتى ، وقبائل شتى ، وجنسيات شتى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات] .

ويحس الفرد فى هذه القاعدة العريضة أن له كينونة خاصة ، لم يعد رقمًا فى قبيلة، ولم يعد جنديًا فى جيش ، إنه يمكن أن يسود القبيلة ، ويقود الجيش ، لايعيقه نسبه ، ولا تعيقه ظروفه ، ولا يحجبه ماضيه عن التقدم لسدة القيادة والزعامة والمسؤولية فى هذه الدولة ؛ لأن ميزان التسابق وشروطه هى التقوى ، والتقوى فقط ، ولا أدل على ذلك من صعود بلال بن رباح العبد الزنجى الأسود على ظهر أشرف بيوتات العرب ، على ظهر بيت الله ، يعلن من فوقه كلمة التوحيد ، فمن الذى يمنع هذا الجندى من أخذ موقعه المناسب بما يملك من طاقات ومؤهلات ، لقد انتهى دور الاستبداد الفردى ، والاستبداد القبلى، والاستبداد الوثنى ، والاستبداد البشرى ، وجاء دور سيادة العقيدة ، جاء دور العبودية لله وحده ، والإخلاص لله وحده ، والطاعة لله ولرسوله ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله .

١٨ ـ تنفيذ المبادئ فور إعلانها :

فيبطل الثأر ، ويُطل دم ربيعة بن الحارث ، ابن عم محمد عليه الصلاة والسلام ، ويبطل الربا ، ويبطل معه ربا العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله ﷺ .

وتبقى الرفادة والحجابة من مآثر الجاهلية ، فيأخذ بنو هاشم رهط محمد عليه الصلاة والسلام ما يمدون ويستضيفون به الحجيج . الرفادة ، وتسلم لبنى عبد الدار خصم رهط محمد ﷺ مفاتيح الكعبة ، وحقهم فيها إلى يوم القيامة .

وأما المآثر الأخرى كلها تسقط تحت أقدام نبى الهدى عليه الصلاة والسلام .

وحين تتم التجاوزات ، فهل تبدأ معها المحسوبيات ، هذه فتاة بنى مخزوم تسرق ، وتبدأ الوساطة لحمايتها من الحد ، مع طفل رسول الله ﷺ المدلل ، مع أسامة بن زيد ابن السابعة عشرة .

ويأتى الجواب : برفض الشفاعة ، وإلغاء الوساطة ، وإلغاء المحسوبية ، والإعلان العام :

« والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وتقطع يد المرأة المخزومية ، ولأول مرة فى تاريخ مكة ، تقطع يد امرأة من بنى مخزوم ، وفى ظل دولة قرشى ، هو محمد بن عبد الله ، ولكنه الإسلام الذى سوى بين الناس .

« وإنما أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق فيه الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

ولن تهلك هذه الأمة بإذن الله ، ما دام العدل هو السياج الذى يحكمها والسراج الذى يقودها ، وحين يشعر كل فرد فى القاعدة العريضة أنه متساوٍ فى الحقوق والواجبات مع رئيس الدولة ورؤساء أركانه العسكريين ، وقياداته السياسية ، ولو كان من سراق الحجيج من غفار،ولو كان من جبال أشجع،أو سهول جهينة ومزينة، ومن بادية العرب، فقد تساوى اليوم العربى والبدوى فى ظل دولة الإسلام ، ولا يفضل أحد أحدًا إلا بالتقى والعافية ، إن هذا العدل هو الذى يربط كل فرد فى القاعدة العريضة بقيادته ، ويربطه بدولته ، ويحس أنه ذو شأن مهم وخطير ، ودور كبير فى هذه الدولة العظيمة المترامية الأطراف .

١٩ ـ البيعة على الإسلام :

وبالرغم من أن الأمور العامة فى تربية القاعدة العريضة إنما تقوم على التوجيهات العامة ، والمشاركات العامة كذلك ، لكن البيعة على الإسلام تبقى فردية شخصية ما أمكن ذلك ، فقد جلس عليه الصلاة والسلام بعد ظهر اليوم الثانى من الفتح ، وبعد انتهاء جو الحرب ، للناس يبايعهم فردًا فردًا على الإسلام وفات هذا الجيل الإسلامى الجديد البيعة على الهجرة ، فلابد أن يشعر كل فرد بمسؤوليته المباشرة تجاه خالقه ، حيث كان من السعداء فى الأرض أن التقى مع رسول رب العالمين ، وأخذ منه البيعة على الإسلام ، فبعد سنتين أو ثلاثة ينتهى هذا الحظ العظيم للبشرية ، ويتوقف حظها على لقائها من لَقِىَ رسول رب العالمين ، وعلى خلفائه من بعده ، وإنه لمن الفخر العظيم الذى يطاول الثريا أن تمس يد هذا الفرد يد رسول الله ﷺ ويتقدم لبيعته على الإسلام والجهاد، ويدخل عضوًا فى حزب الله ، بتوثيق ومبايعة رئيس الحزب مباشرة محمد رسول الله ﷺ ، ولاشك أن الدرس العظيم الذى يتلقاه العاملون للإسلام من هذه التربية الجماعية هو ضرورة الاهتمام بكل فرد لذاته ، ولو بأخذ البيعة منه فقط ، ليكون شعوره عاليًا بالالتزام ، ومرتبطًا بهذا الميثاق الذى واثقه به .

فبيعة الرضوان مثلاً فى الحديبية والتى تمت للجيل القائد الرائد ذكرها الله تعالى فى موضعين فى كتابه إذ قال فيها جل وعلا :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] .

وقال فيها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) ﴾ [الفتح] .

أما هذه البيعة فلم يذكرها القرآن تفصيلاً ، إنما ذكرها إجمالاً بقوله عز وجل :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر] .

ويا لها من سعادة غامرة أن يكون من بين هذه الأفواج الغامرة فرد يصل إلى رسول الله ﷺ فيضع يده فى يده ويبايعه على الإسلام ، ويكون إنما بايع الله بذلك ، وهذه كفيلة أن تربطه ـ كل حياته ـ آثار هذه البيعة بنفسه ، ولقد حرص النساء على ذلك وعلى رأسهن هند بنت عتبة أن يحظين بهذا الشرف، وقبل رسول الله ﷺ بيعتهن ، وإسلامهن كل امرأة بشخصها ، وذاتها وقال : « إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة ، إنى لا أصافح النساء » ، وكانت هذه من سمة العفاف الخالصة لهذا الدين (١) .

٢٠ ـ متابعة التربية القيادية :

وفى خضم هذه التربية العامة للقاعدة العريضة ، فلا تُهمل التربية القيادية أبدًا ، وأصحاب الطاقات والإمكانات توجه لهم الأنظار ، وينالون اهتمامًا خاصًا ، ليكونوا فى الموقع المناسب ، وينالوا تربية خاصة تتناسب ومؤهلاتهم وإمكاناتهم .

فرسول الله ﷺ يدخل مكة ، ويعلن قبل دخولها :

(« إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ، وأرغب لهم فى الإسلام »، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ») .

وتوجيه الأنظار إلى هذه المعادن النفيسة يعنى الاهتمام بالنماذج القيادية فى غمرة تربية القاعدة العريضة ، وأسلم عتاب بن أسيد ، وكان والى رسول الله ﷺ على مكة ، فقد أخذ موقع نائب رئيس الدولة فى مكة المكرمة ، وأسلم الثلاثة الآخرون ، وأخذوا أدوارهم القيادية فيما بعد ، وقد أعطاهم رسول الله ﷺ موقعهم منذ اللحظات الأولى لإسلامهم ، فهذا حكيم ينضم مع أبى سفيان . (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن) .

وذاك أخو أبى جهل يتحدث عن لحظة لقائه الخالدة لأول مرة مع رسول الله ﷺ :

---

(١) هذا على الرواية الراجحة ، والمرجوحة أنه صافحهن وبايعهن .

(فألقاه وهو داخل المسجد، فلقينى بالبشر،فوقف حتى جئته، فسلمت عليه وشهدت بشهادة الحق ، فقال : « الحمد لله الذى هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام » ، وكان يقول : فوالله ما رأيت مثل الإسلام جُهل) .

وذاك ابن أبى جهل يعلن رسول الله ﷺ عنه : « يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنًا مهاجرًا ، فلا تسبوا أباه ، فإن سبّ الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت » .

وتلك هند بنت عتبة رأس الكفر والحقد ، تقول عندما تسلم : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلىّ من أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزوا من أهل خبائك ، قال : « وأيضًا والذى نفسى بيده » .

وأولاء بنو سليم قالوا : (يا رسول الله، اعقد لنا وضع رايتنا حيث رأيت ، فقال: « يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها فى الجاهلية ، ما فعل فتى وكان قدم مع وفدكم علىّ حسن الوجه ، جيد اللسان ؟ » قالوا : توفى حديثًا) .

وهكذا تتواكب تربية القيادات بجوار تربية القاعدة العريضة ، هذه القاعدة التى تمثل الجندية الخالصة ، ويبرز من صفوفها نماذج قيادية تتم رعايتها والاستفادة من طاقاتها ، لتوظف هذه وتلك فى خدمة هذا الدين ، ولتعلم الأجيال كلها كيف تمت تربية هذا الجيل الفريد على يد بانيه وصائغه وزارعه محمد عليه الصلاة والسلام .

وإلى الجزء القادم بإذن الله نتابع معالم تربية هذه القاعدة العريضة التى بلغت خلال أقل من عام ثلاثة أضعافها اليوم وتم توظيفها لخدمة دين الله .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [آل عمران] .

مكة المكرمة

غرة صفر الخير ١٤١٨هـ — منير محمد الغضبان

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ١٠٥٦٤/ ٢٠٠١م
I.S.B.N:977-15-0318-9

هذا الكتاب

★ بعد عشرين عاماً -تقريباً- من عمر الدعوة مضت فى إعداد القيادات للأمة، جاءت المرحلة الثانية، مرحلة الاتساع الأفقى الذى انطلق تيارا هادرا فى الارض العربية بعد صلح الحديبية، ثم تيارا جارفا بعد فتح مكة، فانتقلت الدعوة من الصفوة إلى الجماهير.

★ ومن طبيعة الدعوات والحركات عندما تنتقل إلى مرحلة الامتداد الأفقى، أن ينقل الوافدون الجدد أمراضهم إلى الصفوة الأولى، وسرعان ما تتأثر الصفوة بهذه الاعداد الضخمة وتنتقل إليها عدوى الطمع والشهرة والمصلحة والمنفعة .

★ هذه الأمراض وغيرها، كيف أمكن لسيد ولد آدم ﷺ أن يتحاشاها فى صفه، وارتفع بالبناء شاهقا قويا متراصا ....

هذا ما سوف يتناوله هذا الكتاب بجزئيه من خلال أحداث السيرة ليكون مثال يحتذى به داخل الصف الإسلامى فى المجتمع المسلم ولدى قيادات العمل الاسلامى.

ودار الوفاء

يسعدها أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، سائلة الله عزوجل أن ينفع به. والله من وراء القصد ،،

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب : ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠
E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM